المفسّرون والقرآن

(١)

المفسّرون والتفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية

٦

أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب التعرف على ما ذكره المفسّرون ـ بحسب مدارسهم المختلفة، وبحسب التسلسل التاريخي ـ من المعاني التي فُسّرت بها آيات القرآن الكريم ـ وبحسب الترتيب المصحفي ـ من خلال:

١. التعرف على معاني مفرداتها، وما تحتمله من معان.

٢. أو من خلال تراكيبها النحوية، وما تحتمله كذلك من المعاني.

٣. أو ما قد ترشد إليه علوم البلاغة من البيان والمعاني ونحوها من المعاني القرآنية.

وبذلك، فإنه يحاول استيعاب كل ما ذكره المفسّرون من الوجوه التي تحتملها كل لفظة أو آية قرآنية، من خلال تحليلها اللغوي، وبجوانبه المختلفة، بالإضافة إلى علاقة ذلك بما ورد في الأحاديث والآثار، أو بما يتبناه المفسّر من رؤية عقدية أو فقهية أو ثقافة علمية.

ولهذا اعتمدنا ما ورد في المصادر التفسيرية الكبرى للطوائف المختلفة، وفي العصور المختلفة ـ ابتداء من العصر الأول إلى هذا العصر ـ وقد انتقيناها من خلال الرجوع لكل التفاسير المعروفة، والتي رأينا أغلبها يكرر ما سبق ذكره، أو يختصر الكلام في الآيات الكريمة، ولذلك رأينا أن ما انتقيناه منها قد يغني عن غيرها.

وهذا الانتقاء مؤسّس على الاهتمام بطائفة المفسر، وعصره، وأسلوبه في تفسيره، ومدى اهتمام طائفته أو الأمّة به، ومدى توسعه في تناول المواضيع المختلفة، ولذلك استبعدنا التفاسير المختصرة جدا إلا تلك التي قد نرى من خلالها رؤية طائفة معينة.

وقد رتبنا التفاسير بحسب التسلسل الزمني، لنرى مدى تأثر بعضها ببعض، بالإضافة إلى التعرف على الجدل الحاصل بينها، فالكثير من التفاسير المتأخرة تتناول بالعرض أو النقد أو التفصيل التفاسير السابقة لها.

وأهم ما حاولنا القيام به في هذا الكتاب ـ كما في السلسلة جميعا ـ هو تبسيط وتيسير الوصول إلى المعلومة من هذه المصادر التفسيرية، وذلك من خلال اعتماد المناهج الحديثة من التفكيك والترتيب وضم النظير إلى نظيره، ونحو ذلك.

المفسّرون

والتّفسير التحليلي للقرآن

عرض وتهذيب لما ورد في تفاسير المدارس الإسلامية حول المعاني القرآنية

الجزء ٦

أ. د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

١٤٤٦ ـ ٢٠٢٥

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

٤٢. انتقاء الألفاظ

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٤٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٤ ـ ١٠٥]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: أن رجلا أتاه، فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿رَاعِنَا﴾ بلسان اليهود: السب القبيح، فكان اليهود يقولون لرسول الله ﷺ سرا، فلما سمعوا أصحابه يقولون أعلنوا بها، فكانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم، فأنزل الله الآية[٢].

٢. روي أنّه قال: ما أنزل الله آية في القرآن يقول فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا كان علي شريفها وأميرها[٣].

٣. روي أنّه قال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ وذلك أنها سبة بلغة اليهود، فقال تعالى: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾، يريد: اسمعنا، فقال المؤمنون بعدها: من سمعتموه يقولها فاضربوا عنقه، فانتهت اليهود بعد ذلك[٤].

---

(١) ابن المبارك في الزهد.

(٢) الدرّ المنثور: أبي نعيم في الدلائل.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ١٩٦.

(٤) الدرّ المنثور: أبي نعيم في الدلائل.

٤. روي أنّه قال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، أي: أرعنا سمعك[١].

٥. روي أنّه قال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك، وإنما ﴿رَاعِنَا﴾ كقولك: عاطنا[٢].

٦. روي أنّه قال: كان اسم جويرية بنت الحارث، برة، فحول رسول الله ﷺ اسمها جويرية، وكان يكره أن يقال: خرج من عند برة[٣].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: إن مشركي العرب كانوا إذا حدث بعضهم بعضا يقول أحدهم لصاحبه: أرعني سمعك، فنهوا عن ذلك[٤].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ لا تقولوا: اسمع منا ونسمع منك، ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أفهمنا، بين لنا[٥].

٢. روي أنّه قال: ﴿رَاعِنَا﴾ سمعنا[٦].

٣. روي أنّه قال: ﴿انْظُرْنَا﴾ اسمع منا[٧].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ القرآن، والإسلام[٨].

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٥٦٠.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٣٧٥.

(٣) مسلم (٢١٤٠).

(٤) ابن جرير: ٢/ ٣٧٧.

(٥) تفسير مجاهد: ص٢١٠.

(٦) علقه سفيان الثوري في تفسيره: ص٤٨.

(٧) ابن أبي حاتم: ١/ ١٩٧.

(٨) ابن أبي حاتم: ١/ ١٩٩.

٥. روي أنّه قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء﴾ النبوة[(١)].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أمرهم أن يسمعوا قوله، ويقبلوا عنه، فأبوا ذلك، وعصوا ربهم[(٢)].

٢. روي أنّه قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء﴾ رحمته الإسلام، يختص بها من يشاء[(٣)].

٣. روي أنّه قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء﴾، يعني: النبوة[(٤)].

٤. روي أنّه قال: أنه قرأ: (راعنا)، وقال: الراعن من القول: السخري منه، نهاهم الله تعالى أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام؟[(٥)].

العوفي:

روي عن عطية العوفي (ت ١١٢ هـ) أنّه قال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ كان أناس من اليهود يقولون: راعنا سمعك، حتى قالها أناس من المسلمين، فكره الله لهم ما قالت اليهود[(٦)].

عطاء:

روي عن عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ كانت لغة في الأنصار في الجاهلية، فنهاهم الله أن يقولوها، وقال: قولوا: ﴿انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾[(٧)].

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ١٩٩.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ١٩٨.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ١٩٩.

(٤) تفسير ابن أبي زمنين: ١/ ١٦٨.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/ ١٩٧.

(٦) ابن جرير: ٢/ ٣٧٥.

(٧) ابن جرير: ٢/ ٣٧٧.

٢. روي أنّه قال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ لا تقولوا خلافا[1].

قتادة:

روي عن قتادة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ قولا كانت اليهود تقوله استهزاء، فكرهه الله للمؤمنين أن يقولوا كقولهم[2].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ معناه خلاف وهي لغة الأنصار وبلغة اليهود، هو شتم[3].

الزهري:

روي عن ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) أنّه قال: إذا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا، فالنبي ﷺ منهم[4].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ كان رجل من اليهود من قبيلة من اليهود يقال لهم: بنو قينقاع، كان يدعى رفاعة بن زيد بن السائب؛ كان يأتي النبي ﷺ، فإذا لقيه فكلمه قال: أرعني سمعك، واسمع غير مسمع، فكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع، كقولك: اسمع غير صاغر، وهي التي في النساء: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦] يقول: إنما يريد بقوله: ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦] ثم تقدم إلى المؤمنين

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٣٧٣.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٣٧٥.

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ٨٨.

(٤) ابن أبي حاتم: ٣/ ٩٨٧.

فقال: لا تقولوا راعنا[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ اسمعوا ما يقال لكم[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، وذلك أن المؤمنين قالوا للنبي ﷺ: راعنا سمعك، كقولهم في الجاهلية بعضهم لبعض، و(راعنا) في كلام اليهود: الشتم، فلما سمعت ذلك اليهود من المشركين أعجبهم، فقالوا مثل ذلك للنبي ﷺ، فقال رجل من الأنصار ـ وهو سعد بن عبادة الأنصاري ـ لليهود: لئن قالها رجل منكم للنبي ﷺ لأضربن عنقه، فوعظ الله تعالى المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا﴾ للنبي ﷺ: ﴿رَاعِنَا﴾ ولكن قولوا ﴿انْظُرْنَا﴾ قولوا للنبي ﷺ: اسمع منا[3].

٢. روي أنّه قال: ثم قال: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، وذلك أن الأنصار دعوا حلفاءهم من اليهود إلى الإسلام، فقالوا للمسلمين: ما تدعونا إلى خير مما نحن عليه، وددنا أنكم على هدى، وأنه كما تقولون، فكذبهم الله سبحانه، فقال: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[5].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ يعني: دينه الإسلام ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، نظيرها في (هل أتى): ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الإنسان: ٣١]، يعني: في دينه الإسلام، فاختص المؤمنين، ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فاختصهم لدينه[6].

ابن جريج:

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٣٧٧.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٣٨٥.

(٣) تفسير مقاتل: ١/ ١٢٨.

(٤) تفسير مقاتل: ١/ ١٢٩.

(٥) تفسير مقاتل: ١/ ١٢٩.

(٦) تفسير مقاتل: ١/ ١٢٩.

روي عن عبد الملك بن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ﴿رَاعِنَا﴾ قول الساخر، فنهاهم أن يسخروا من قول محمد ﷺ[1].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ ﴿رَاعِنَا﴾ القول الذي قاله القوم، قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]: هذا الراعن ـ والراعن: الخطأ ـ: فقال للمؤمنين: لا تقولوا خطأ كما قال القوم، ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ ويكلمونه، ويسمع منهم، ويسألونه ويجيبهم[2].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾، راعنا هي: كلمة كانت تقولها العرب لمحمد ﷺ، فعابها الله من قولهم؛ لأنها كلمة فضة جافية، اشتقوها من طريق الرعنة، يريدون بذلك: راعنا، واصغ إلى قولنا، واسمع منا؛ فكره الله سبحانه ذلك من قولهم، فأمرهم أن يقولوا: انظرنا، أي: انظر إلينا.

٢. النظر هو: من طريق التعطف والرحمة، وقوله: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، أي: اسمعوا لما يعظكم الله به ورسوله، واقبلوه.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[4]:

١. اختلف في سبب نزولها:

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٣٧٧.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٣٧٦.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٥٩.

(٤) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٢٩.

أ. قيل: كانت الأنصار في الجاهلية يقولون هذا لرسول الله عليه السلام فنهاهم الله ـ تعالى ـ أن يقولوها.

ب. وقيل: كانت اليهود تقول للنبي ﷺ: راعنا من الرعونة؛ من قولك للرجل: يا أرعن، وللمرأة يا: رعناء، وكان الحسن يقرؤها: (راعنا) بالتنوين.

ج. وقال الكلبيّ: كان في كلام اليهود ﴿راعِنا﴾ سبّا قبيحا؛ يسب بعضهم بعضا، وكانوا يأتون محمدا ﷺ؛ فيقولون: راعنا، ويضحكون، فنهى المؤمنين عن ذلك خلافا لهم.

٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾:

أ. قيل: فهمنا بقول بيّن لنا، قال مقاتل: أي اقصدنا.

ب. وقيل: إن الأمر بالإنظار يقع موقع التشفع في النظرة لوجهين: بالصحبة مرة، وبالخطاب ثانيا:

• فقولهم: ﴿انْظُرْنَا﴾ لما لا يبلغ أفهامنا القدر الذي يعنى ما يخاطبنا به، والثاني: على قصور عقولهم عما يستحقه من الصحبة والإيجاب له ﷺ.

• فأما الأمر ب ﴿رَاعِنَا﴾، فهو استعمال في الظاهر بالمراعاة، وذلك يخرج على التكبر عليه، وترك التواضع له، والخضوع.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾:

أ. قيل: أي أجيبوا له.

ب. وقيل: أطيعوا له.

ج. وقيل: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي اسمعوا وعوا.

٤. ﴿مَا يَوَدُّ﴾ أي ما يريد وما يتمنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ ما يود هؤلاء ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أنهم كانوا يهوون ويحبون أن يبعث الرسول من أولاد إسرائيل وهم كانوا من نسله، فلما بعث من أولاد إسماعيل عليه السلام على خلاف ما أحبوا وهووا، لم تطب أنفسهم بذلك، بل كرهت، وأبت أشدّ الإباء والكراهية.

ب. الثاني: لم يحبّوا ذلك؛ لما كانت تذهب منافعهم التي كانت لهم، والرئاسة بخروجه ﷺ.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾:

أ. قيل: الخير؛ النبوة.

ب. وقيل: الخير؛ الإسلام.

ج. وقيل: الخير؛ الرسول هاهنا، والله أعلم.

٦. قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ينقض على المعتزلة قولهم:

أ. أولا: لأنهم يقولون: إن على الله أن يعطى لكلّ الأصلح في الدين، في كل وقت، وكل زمان، فلو كان عليه ذلك لم يكن للاختصاص معنى، ولا وجه.

ب. والثاني: قال ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والمفضل عند الخلق هو الذي يعطى ويبذل ما ليس عليه، لا ما عليه؛ لأن من عليه شيء فأعطاه، أو قضى ما عليه من الدّين، لا يوصف بالإفضال؛ فدل أنه استوجب ذلك الاختصاص، وذلك الفضل، لما لم يكن عليه ذلك، ولو كان عليه لكان يقول: ذو العدل، لا ذو الفضل.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ معناه:

أ. لا تقولوا خلافاً.

ب. ويحتمل وجهاً ثانياً وهو معناه ارعنا سمعك أي اسمع منا ونسمع منك.

٢. إنما نهى الله سبحانه المؤمنين من هذه الكلمة:

أ. لأن اليهود كانوا يقولونها لرسول الله ﷺ على وجه الاستهزاء والسب كما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النساء:٤٦]، فنهى المسلمين عن ذلك.

ب. وقيل: إنها كانت كلمة ذم يقولها الأنصار في الجاهلية، فنهى الله سبحانه المسلمين عنها.

٣. في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ ثلاثة أقوال:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٧٦.

أ. أحدها: أفهمنا وبين لنا.

ب. الثاني: بفتح الهمزة فيقولوا: أنظرنا أي أمهلنا.

ج. الثالث: أي أقبل علينا وانظر إلينا.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: معناه لا تقولوا، وهو قول عطاء.

ب. الثاني: يعني ارعنا سمعك، أي اسمع منا ونسمع منك، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد.

٢. اختلفوا لم نهي المسلمون عن ذلك على ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنها كلمة كانت اليهود تقولها لرسول الله ﷺ على وجه الاستهزاء والسب؛ كما قالوا سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع، وراعنا ليّا بألسنتهم، فنهي المسلمون عن قولها، وهذا قول ابن عباس وقتادة.

ب. الثاني: أن القائل لها، كان رجلا من اليهود دون غيره، يقال له رفاعة بن زيد، فنهي المسلمون عن ذلك، وهذا قول السدي.

ج. الثالث: أنها كلمة، كانت الأنصار في الجاهلية تقولها، فنهاهم الله في الإسلام عنها.

٣. في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: معناه أفهمنا وبين لنا، وهذا قول مجاهد.

ب. الثاني: معناه أمهلنا.

ج. الثالث: معناه أقبل علينا وانظر إلينا.

٤. ﴿وَاسْمَعُوا﴾ يعني ما تؤمرون به.

الطوسي:

(١) تفسير الماوردي: ١/ ١٧٠.

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

أ. شرح مختصر للكلمات:

ب. المراعاة: التفقد للشيء في نفسه، أو أحواله، والمراعاة، والتحفظ، والمحافظة، والمراقبة: نظائر، ونقيض المراعاة الاغفال: يقال رعى يرعى رعياً، والرعي: ما تأكله الماشية من نبات الأرض، ورعى الله فلاناً إذا حفظه، ورعيت له عهده وحقه بعده، أو في من خلّف، وأرعيته سمعي إذا أصغيت اليه، وراعيته نفسي: إذا لاحظته.. وجمع الراعي: رعاء ورعاة ورعيان، والرعاية: فعل الراعي، يرعاها رعاية: إذا ساقها، وسرّحها، وأراحها، فقد رعاها، وكل من ولي قوماً فهو راعيهم ـ وهم رعيتهـ والمرعي من الناس: المسوس، والراعي: السائس ويقال: فلان يراعي كذا: معناه ينظر الى ما يصير اليه أمره، ورعيت النجوم: أي رقبتها، واسترعاه الله خلقه، أي ولاه أمرهم ليرعاهم، والإرعاء: الإبقاء على أخيك، وتقول أراعيني سمعك أي اسمع يا فلان، وكان المسلمون يقولون: يا رسول الله راعنا: أي استمع منا، فحرفت اليهود، فقالوا: يا محمد راعنا ـ وهم يلحدون الى الرعونة ـ يريدون به النقيصة، والوقيعة، فلما عوتبوا قالوا: نقول كما يقول المسلمون، فنهى الله عن ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ ورجل ترعية: الذي لم تزل صنعته وصنعة آبائه الرعاية، قال الشاعر:

يسوقها ترعية جاف فُضُل إن رتعت صلى وإلا لم يصل

أصل الباب: الرعي: الحفاظ.

ج. الاختصاص بالشيء هو الانفراد به والإخلاص له مثله، وضد الاختصاص الاشتراك، ويقال خصّ خصوصاً، وتخصص: تخصصاً، وخصصه: تخصيصاً، وكلّمه خاصة من ذلك، وكلمة عامة ووسائط من ذلك، ويقال: خصه بالشيء، يخصّه خصا: إذا وصله به، وخصان الرجل. من يختصّه من إخوانه، والخصائص: الفرج والخصاصة: الحاجة، والخص شبه كوة تكون في قبة أو نحوها، إذا كان واسعا قدر الوجه، وقال الراجز:

وان خصاص ليلهنّ استدا ركبن في ظلمائه ما اشتدا

---

(١) تفسير الطوسي: ١/ ٣٨٨.

شبه القمر بالخصاص، وكل خلل أو خروق تكون في السحاب أو النخل، تسمى الخصاصة: والخصائص فرج بين الاثافي وأصل الباب: الانفراد بالشيء: فمنه الخصائص: الفرج لأنه انفراد كل واحد عن الآخر من غير جمع بينهما.. ويقال: اختصصته بالفائدة واختصصت بها أنا، كقولك: أفردته بها، وانفردت بها.

د. معنى ﴿مَا يَوَدُّ﴾: ليس يحب، يقال منه: وده يوده ودا، ووداداً، والمودة المحبة.

١. للمفسرين في الآية الكريمة ثلاثة أقوال:

أ. قال ابن عباس ومجاهد: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، أي لا تقولوا: اسمع منا ونسمع منك.

ب. وقال عطاء: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، أي لا تقولوا خلافاً، وروي ذلك ايضاً عن مجاهد، وهذا الأوجه له إلا ان يراد ﴿رَاعِنَا﴾ بالتنوين.

ج. وقيل: معناه ارقبنا. قال الأعشى:

يرعي الى قول سادات الرجال ... ابدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

يعني يصغي، وقال الأعشى ايضاً:

فظللت أرعاها وظل يحوطها ... حتى دنوت إذا الظلام دنا لها

٢. في السبب الذي لأجله وقع النهي عن هذه الكلمة خمسة أقوال:

أ. قال قتادة وعطية: انها كلمه كانت تقولها اليهود على وجه الاستهزاء.

ب. وقال عطاء: هي كلمة كانت الأنصار تقولها في الجاهلية، فنهوا عنها في الإسلام.

ج. قال ابو العالية: ان مشركي العرب كانوا إذا حدّث بعضهم بعضاً، يقول أحدهم لصاحبه ارعنا سمعاً فنهوا عن ذلك.

د. قال السدي: كان ذلك كلام يهودي بعينه، يقال له: رفاعة ابن زيد. يريد بذلك الرعونة فنهي المسلمون عن ذلك.

هـ. قال ابو علي: قد بين الله عز وجل، انها كلمة كانت اليهود تلوي بها ألسنتهم ـ في قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ وهو قول ابن عباس، وقتادة.

٣. اختلف في معنى: ﴿رَاعِنَا﴾

أ. قيل: من المراعاة والمكافأة. فأمروا أن يخاطبوا النبي ﷺ بالتوقير والتعظيم، اي لا تقولوا: راعنا سمعك، حتى نفهمك وتفهم عنا.

ب. وقال ابو جعفر عليه السلام هذه الكلمة: سبّ على معنى الفساد والبلاء.. ويقولون: (أنا) بتفخيم النون، واشمامها بمعنى، لأن مجموع اللفظين واللفظتين فاسد، فلما عوتبوا على ذلك قالوا إنّا نقول كما يقول المسلمون. فنهي المسلمون عن ذلك، ولما كان معنى ﴿رَاعِنَا﴾ يراد به النظر قال: قولوا عوضها انظرنا، اي انظر إلينا. ﴿وَاسْمَعُوا﴾: ما يقوله لكم الرسول.

٤. معنى انظرنا يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: انتظرنا نفهم ونتبين ما تعلمنا.

ب. الثاني: قال مجاهد: معناه ففهمناها، بين لنا يا محمد يقال منه: نظرت الرجل انظره نظرة، بمعنى انتظرته وارتقبته، ومنه قوله: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾ اي انتظرونا وقيل معناه: اقبل علينا.

٥. قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: قال الحسن والسدي: إن معناه اسمعوا ما يأتيكم به الرسول.

ب. الثاني: ما قال ابو علي: معناه اقبلوا ما يأمركم به الرسول من قوله: سمع الله لمن حمده، وسمع الله دعاك، وقبله.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾:

أ. روي عن علي عليه السلام وأبي جعفر الباقر عليه السلام انه أراد النبوة، وبه قال الحسن، وابو علي والرماني، والبلخي وغيرهم من المفسرين، وقال: (يختص بها من يشاء) من عباده.

ب. وروي عن ابن عباس انه أراد دين الإسلام، وهذا بعيد، لأنه تعالى وصف ذلك بالإنزال، وذلك لا يليق الا بالنبوة.

٧. تقدير الآية ما يحبّ الكافرون من اهل الكتاب، ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان، ان ينزل عليكم شيئاً من الخير الذي عنده، والخير الذي تمنوه الا ينزله الله عليهم ما اوحى الى نبيه، وأنزله عليه من الشرائع، والقرآن بغيا منهم، وحسداً.

٨. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ خير منه تعالى ان كل خيرنا له عباده في دينهم، ودنياهم، فإنه من عنده ابتداء، وتفضلا منه عليهم من غير استحقاق منهم ذلك عليه.

٩. مسائل نحوية:

أ. ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ في موضع جر بالعطف على اهل الكتاب، وتقديره، ولا من المشركين.. وقوله: ﴿أَنْ يُنَزَّلَ﴾ في موضع نصب بقوله: ﴿يَوَدُّ﴾، انما ذموا على ذلك ـ وان كان ذلك ميل الطباع، ـ لان ذلك في دلالة على انهم فعلوا كراهية لذلك، وتعرضوا بذلك لعداوة المؤمنين، وكان الذم عليهم لذلك، ولو رفع (المشركين) عطفاً على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كان جائزا ولكن لم يقرأ به احد، ومثله في احتماله الامرين قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ بخفض الراء وفتحها ـ وقرئ بهما.

ب. و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ زائدة مؤكدة، كقولك: ما جاءني من احد، وموضعها رفع قال ابو ذؤيب:

جزيتك ضِعف الودّ لما استبنته ... وما ان جزاك الضعف من احد

ج. ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لابتداء الغاية، والتي في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ للتنويع، مثل التي في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. المراعاة والمحافظة والمراقبة نظائر، ونقيضه الإغفال، يقال: رَاعِني سمعَك، أي استمع وأصغ إلي.

ب. النظر مشترك، يقال: نظر بعينه، ونظر بقلبه، ونظر بفكره، وأَنْظَرَه: أَخَّرَهُ ونَظَرَهُ: انتظره.

ج. الأليم: المؤلم، وهو الموجع، فعيل بمعنى مُفْعِل.

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٣٢.

د. يود: يحب، وهو من الود، وهو المحبة، وهو يرجع إلى الإرادة التي هي فعل العباد، وقد يستعمل بمعنى الشهوة التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى، يقال: يود جاريته ويحبها.

هـ. الخير: نقيض الشر.

و. الاختصاص بالشيء: هو الانفراد به، يقال: خصه بالشيء إذا فضله به.

ز. الرحمة: النعمة على المحتاج.

٢. اختلف في سبب نزولها:

أ. روي أن المسلمين كانوا يقولون: يا رسول الله راعنا، أي اسمع منا، وكانت هذه اللفظة شَيْئًا بلغة اليهود، وقيل: كانت عندهم: اسمع، لا سمعت، وقيل: هو إلحاد إلى الرعونة، فلما سمعت اليهود ذلك اغتنموا لها، وكانوا يقولون: راعنا، ويضحكون فيما بينهم، فسمع ذلك سعد بن معاذ، فقال: لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لضربت عنقه، فقالوا: أولستم تقولون ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ومنع المؤمنين من إطلاق هذه اللفظة كيلا يقولها اليهود على وجه الاستهزاء والسب، وهو معنى قول قتادة وعطية.

ب. وقيل: كان يهودي يقال له: رفاعة بن زيد هو الذي قال ذلك فنزلت الآية، عن السدي.

٣. لما تقدم النهي عن السحر الذي كان عليه اليهود عقبه بالنهي عن إطلاق هذه اللفظة على ما يفعله اليهود، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾:

أ. قيل: لا تقولوا هذه اللفظة لكيلا يجد اليهود سبيلاً إلى سب رسول الله ﷺ.

ب. وقيل: لا تقولوا: اسمع منا ونسمع منك، عن ابن عباس ومجاهد.

ج. وقيل: لا تقولوا خلافًا، عن عطاء.

د. وقيل: هي كلمة كانت الأنصار تقولها في الجاهلية، فنهوا عنها في الإسلام.

هـ. وقيل: لما لم يكن في هذه اللفظة تعظيم نهوا عنه، وأمروا أن يقولوا: انظرنا، أي قفنا، وانتظرنا حتى نفهم عنك.

و. وقيل: هي كلمة يقولها أهل الحجاز على وجه الهزؤ عن قطرب.

ز. وقيل: فيه نوع تهديد، وطلب مساواة، وينبغي أن يكون خطابه على وجه التعظيم،، وقال أبو علي: هي كلمة كانت اليهود تلوي بها ألسنتهم، كقوله: ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾، لنفهم ونتبين.

ح. وقيل: فقهنا وبَيِّنْ لنا، عن مجاهد.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾:

أ. قيل: اسمعوا ما يأتيكم به الرسول، عن الحسن والسدي.

ب. وقيل: اقبلوا منه ما يأمركم به، نحو: سمع الله لمن حمده، عن أبي علي.

٦. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بمحمد والقرآن ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وجيع.

٧. هذا أيضًا إخبار عن اليهود، فقال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ﴾ يعني ما يحب وما يريد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قيل: أراد اليهود، ويحتمل اليهود والنصارى ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني مشركي العربَ ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني محمدًا وأصحابه، وقيل: أراد محمدًا، وكنى عنه بلفظ الجمع تعظيمًا.

٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾:

أ. قيل: الوحي المنزل، عن الحسن وغيره.

ب. وقيل: الكتاب والحكمة، عن الأصم.

٩. ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ﴾ أي يتفضل ويتفرد به ﴿بِرَحْمَتِهِ﴾:

أ. قيل: بالنبوة، عن الحسن وجماعة.

ب. وقيل: الإنعام بالثواب.

ج. وقيل: بالألطاف، وليس ذلك على أنه يمنع أحدًا ألطافه، ولكن يعطيه من يعلم أنه يصلح به.

د. وقيل: يختص برسالته للأصلح، ولا يقف على شهوات الخلق واقتراحهم.

١٠. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يعني أن كل نعمة وفضل دينًا ودنيا، فمنه تعالى ابتداء خَلَقَهُ به من غير استحقاقٍ سلف، فهو عظيم النعم والفضل.

١١. تدل الآيات الكريمة على:

أ. المنع من إطلاق لفظ، وإباحة لفظ آخر، ولا يمتنع في الكلمتين أن يكون الصلاح في المنع من

أحدهما، وإباحة الآخر مع اتفاقهما في الفائدة، أو لمصلحة في أحدهما، أو الإيهام في أحدهما، ولكن لا بد في هذين اللفظين من تمييز حتى يصح ذلك، ثم يجوز أن يرجع النهي إلى اللفظ، ويجوز أن يرجع إلى المعنى.

ب. أن في أحد اللفظين تعظيمًا ومصلحة ليست في الآخر.

ج. أن كل لفظة فيها إيهام لا يجوز إطلاقه على الله ورسوله على ما يذْهبِ إليه في أسماء الله وصفاته.

د. أنه تعالى يبعث من هو أصلح، وأقرب إلى القبول، ولا يبعث مما يتمناه الخلق.

هـ. أن فضله عظيم، فيفعل بعباده ما هو أصلح في دينهم.

١٢. مسائل نحوية:

أ. قوله تعالى: ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف على ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، فيكون مجرورًا، ويجوز فيه الرفع على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وموضعه رفع؛ لأنه كالفاعل، ومثله مما يجوز فيه الوجهان قوله تعالى: ﴿وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ فروي بهما جميعًا.

ب. معنى ﴿مِنَ﴾ الأولى ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ للتنويع، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ والثانية التي مع ﴿خَيْرٌ﴾ زائدة مؤكدة، كقولك: ما أتاني من أحد، وموضعها رفع، والثالثة في ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لابتداء الغاية.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. المراعاة: التفقد للشيء في نفسه أو أحواله، والمراعاة والمحافظة والمراقبة نظائر، ونقيض المراعاة: الإغفال، ورعى الله فلانا أي: حفظه،ورعيت له حقه وعهده فيمن خلف، وأرعيته سمعي: إذا أصغيت إليه، وراعيته بعيني: إذا لاحظته، وجمع الراعي: رعاء ورعاة ورعيان، وكل من ولي قوما فهو راعيهم وهم رعيته، والمرعي من الناس: المسوس، والراعي: السائس، واسترعاه الله خلقه أي: ولاه أمرهم ليرعاهم، والإرعاء: الإبقاء على أخيك، والاسم الرعوى والرعيا، وراعني سمعك أي: استمع، ورجل ترعية:

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٤٥.

للذي صنعته وصنعة آبائه الرعاية، وقال الشاعر: (يسوسها ترعية حاف فضل}، وأصل الباب: الحفظ.

ب. نظرت الرجل أنظر نظرة: بمعنى انتظرته، وارتقبته.

ج. المودة: المحبة.

د. الاختصاص بالشيء: هو الانفراد به، وضد الاختصاص الاشتراك، ويقال: خصه بالشيء يخصه خصا: إذا فضله به، والخصاص: الفرج، والخص: بيت من قصب أو شجر، وإنما سمي خصا لأنه يرى ما فيه من خصاصه، وكل خلل أو خرق يكون في السحاب، أو المنخل فهو الخصاصة، وأصل الباب: الانفراد بالشيء، ومنه يقال للفرج: الخصائص، لانفراد كل واحد عن الآخر من غير جمع بينها، ويقال: أخصصته بالفائدة واختصصت أنا بها، كما يقال أفردته بها، وانفردت أنا بها.

٢. لما قدم سبحانه نهي اليهود عن السحر، عقبه بالنهي عن إطلاق هذه اللفظة، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ كان المسلمون يقولون: يا رسول الله! راعنا أي: استمع منا، فحرفت اليهود هذه اللفظة، فقالوا: يا محمد! راعنا، وهم يلحدون إلى الرعونة، يريدون به النقيصة والوقيعة، فلما عوتبوا قالوا: نقول كما يقول المسلمون، فنهى الله عن ذلك بقوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾:

أ. قال قتادة: إنها كلمة كانت تقولها اليهود على وجه الاستهزاء.

ب. قال عطا: هي كلمة كانت الأنصار تقولها في الجاهلية، فنهوا عنها في الاسلام.

ج. قال السدي: كان ذلك كلام يهودي بعينه، يقال له رفاعة بن زيد، يريد بذلك الرعونة، فنهي المسلمون عن ذلك.

د. قال الباقر عليه السلام: هذه الكلمة سب بالعبرانية إليه كانوا يذهبون.

هـ. قيل: كان معناه عندهم اسمع لا سمعت.

و. روي عن الحسن أنه كان يقرأ راعنا بالتنوين، وهو شاذ لا يؤخذ به.

٤. معنى ﴿انْظُرْنَا﴾ يحتمل وجوها:

أ. أحدها: انتظرنا نفهم ونتبين ما تعلمنا.

ب. والآخر: فقهنا وبين لنا يا محمد.

ج. والثالث: أقبل علينا.

د. ويجوز أن يكون معناه انظر إلينا، فحذف حرف الجر.

٥. قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: إن معناه اقبلوا ما يأمركم به من قوله سمع الله لمن حمده، وسمع الله دعاءك أي: قبله.

ب. الثاني: إن معناه استمعوا ما يأتيكم به الرسول، عن الحسن.

٦. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بمحمد، والقرآن ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع، قال الحسن والضحاك: كل ما في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه نزل بالمدينة.

٧. ثم أخبر سبحانه أيضا عن اليهود، فقال: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ معناه: ما يحب الكافرون من أهل الكتاب، ولا من المشركين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزل اله عليكم شيئا من الخير الذي هو عنده، والخير الذي تمنوا أن لا ينزله الله عليهم ما أوحى إلى نبيه ﷺ، وأنزله عليه من القرآن والشرائع، بغيا منهم وحسدا.

٨. ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: إن المراد برحمته هنا النبوة، وبه قال الحسن، وأبو علي، والرماني، وغيرهم من المفسرين، قالوا: يختص بالنبوة من يشاء من عباده.

٩. ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ هذا خبر منه سبحانه، أن كل خير نال عباده في دينهم ودنياهم، فإنه من عنده، ابتداء منه إليهم، وتفضلا عليهم من غير استحقاق منهم لذلك عليه، فهو عظيم الفضل، ذو المن والطول.

١٠. مسائل نحوية:

أ. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في موضع رفع، لأنه فاعل يود، و﴿الْمُشْرِكِينَ﴾: في موضع جر بالعطف على أهل الكتاب، وتقديره ولا من المشركين.

ب. ﴿أَنْ يُنَزَّلَ﴾: في موضع نصب، لأنه مفعول ﴿يَوَدُّ﴾ ومن في قوله ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ زائدة مؤكدة، كقولك ما جاءني من أحد.

ج. موضع ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ رفع.

د. ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لابتداء الغاية، والتي في قوله ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ للتنويع والتبيين مثل التي في قوله ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ يعني: اليهود، والمثوبة: الثواب ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ قال الزّجّاج: أي: يعلمون بعلمهم.

٢. اختلف في معنى ﴿رَاعِنَا﴾:

أ. قيل: بلا تنوين من راعيت، وبالتنوين من الرّعونة، قال ابن قتيبة: راعنا بالتنوين: هو اسم مأخوذ من الرعن والرّعونة، أراد: لا تقولوا جهلا ولا حمقا.

ب. وقال غيره: كان الرجل إذا أراد استنصات صاحبه، قال راعني سمعك، فكان المنافقون يقولون: راعنا، يريدون: أنت أرعن.

٣. قوله: ﴿انْظُرْنَا﴾:

أ. قيل: بمعنى: انتظرنا.

ب. وقال مجاهد: انظرنا: اسمع منّا.

ج. وقال ابن زيد: لا تعجل علينا.

﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي: ما تؤمرون به.

٤. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس: هم يهود المدينة، ونصارى نجران، فالمشركون مشركو أهل مكّة.

٥. ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: على رسولكم. ﴿مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾:

أ. قيل: أراد: النبوّة والإسلام.

ب. وقال أبو سليمان الدّمشقيّ: أراد بالخير: العلم والفقه والحكمة.

---

(١) زاد المسير: ١/ ٩٨.

٦. ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ في هذه الرحمة قولان:

أ. أحدهما: أنها النبوّة، قاله عليّ بن أبي طالب، ومحمّد بن عليّ بن الحسين، ومجاهد والزّجّاج.

ب. الثاني: أنها الإسلام، قاله ابن عباس ومقاتل.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. لما شرح الله تعالى قبائح أفعالهم قبل مبعث محمد ﷺ أراد من هاهنا أن يشرح قبائح أفعالهم عند مبعث محمد ﷺ وجدهم واجتهادهم في القدح فيه والطعن في دينه، وهذا هو النوع الأول من هذا الباب.

٢. خاطب الله تعالى المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن. قال ابن عباس: وكان يخاطب في التوراة بقوله: (يا أيها المساكين)، فكأنه سبحانه وتعالى لما خاطبهم أولًا بالمساكين أثبت المسكنة لهم آخراً حيث قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١]، وهذا يدل على أنه تعالى لما خاطب هذه الأمة بالإيمان أولًا فإنه تعالى يعطيهم الأمان من العذاب في النيران يوم القيامة، وأيضاً فاسم المؤمن أشرف الأسماء والصفات، فإذا كان يخاطبنا في الدنيا بأشرف الأسماء والصفات فنرجو من فضله أن يعاملنا في الآخرة بأحسن المعاملات[٢].

٣. لا يبعد في الكلمتين المترادفتين أن يمنع الله من أحدهما ويأذن في الأخرى، ولذلك فإن عند الشافعي لا تصلح الصلاة بترجمة الفاتحة سواء كانت بالعبرية أو بالفارسية، فلا يبعد أن يمنع الله من قوله: ﴿رَاعِنَا﴾ ويأذن في قوله: ﴿انْظُرْنَا﴾ وإن كانتا مترادفتين ولكن جمهور المفسرين على أنه تعالى إنما منع من قوله: ﴿رَاعِنَا﴾ لاشتمالها على نوع مفسدة.

٤. ذكر المفسّرون وجوهاً في سبب النهي:

أ. أحدها: كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا تلا عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله، واليهود كانت لهم كلمة عبرانية يتسابون بها تشبه هذه الكلمة وهي (راعينا) ومعناها: اسمع لا سمعت، فلما سمعوا المؤمنين يقولون: راعنا افترضوه وخاطبوا به النبي وهم يعنون تلك المسبة، فنهي المؤمنون عنها

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/ ٦٣٥.

(٢) هذا من الإشارات التي قد تعارض القرآن الكريم، وخاصة إن أدت إلى الإرجاء، أو التعارض مع العدل الإلهي.

وأمروا بلفظة أخرى وهي قوله: ﴿انْظُرْنَا﴾، ويدل على صحة هذا التأويل:

• قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]

• وروي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها؟ فنزلت هذه الآية.

ب. ثانيها: قال قطرب: هذه الكلمة وإن كانت صحيحة المعنى إلا أن أهل الحجاز ما كانوا يقولونها إلا عند الهزء والسخرية، فلا جرم نهى الله عنها.

ج. ثالثها: أن اليهود كانوا يقولون: راعينا أي أنت راعي غنمنا فنهاهم الله عنها.

د. رابعها: أن قوله: ﴿رَاعِنَا﴾ مفاعلة من الرعي بين اثنين، فكان هذا اللفظ موهماً للمساواة بين المخاطبين كأنهم قالوا: أرعنا سمعك لنرعيك أسماعنا، فنهاهم الله تعالى عنه وبين أن لا بد من تعظيم الرسول ﷺ في المخاطبة على ما قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]

هـ. خامسها: أن قوله: ﴿رَاعِنَا﴾ خطاب مع الاستعلاء كأنه يقول: راع كلامي ولا تغفل عنه ولا تشتغل بغيره، وليس في ﴿انْظُرْنَا﴾ إلا سؤال الانتظار كأنهم قالوا له توقف في كلامك وبيانك مقدار ما نصل إلى فهمه.

و. سادسها: أن قوله: (راعنا) على وزن عاطنا من المعاطاة، ورامنا من المراماة، ثم إنهم قلبوا هذه النون إلى النون الأصلية وجعلوها كلمة مشتقة من الرعونة وهي الحق، فالراعن اسم فاعل من الرعونة، فيحتمل أنهم أرادوا به المصدر، كقولهم: عياذاً بك، أي أعوذ عياذاً بك، فقولهم: راعنا: أي فعلت رعونة، ويحتمل أنهم أرادوا به: صرت راعنا، أي صرت ذا رعونة، فلما قصدوا هذه الوجوه الفاسدة لا جرم نهى الله تعالى عن هذه الكلمة.

ز. سابعها: أن يكون المراد لا تقولوا قولًا راعنا أي: قولًا منسوباً إلى الرعونة بمعنى راعن: كتامر ولابن.

٥. في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ وجوه:

أ. أحدها: أنه من نظره أي انتظره، قال تعالى: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]

فأمرهم تعالى بأن يسألوه الإمهال لينقلوا عنه، فلا يحتاجون إلى الاستعاذة، وهذا لا يعني أن النبي ﷺ كان يعجل عليهم حتى يقولون هذا، لوجهين:

• أحدهما: أن هذه اللفظة قد تقال في خلال الكلام وإن لم تكن هناك عجلة تحوج إلى ذلك كقول الرجل في خلال حديثه: اسمع أو سمعت.

• الثاني: أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أنه ﷺ كان يعجل قول ما يلقيه إليه جبريل عليه السلام حرصاً على تحصيل الوحي وأخذ القرآن، فقيل له: لا تحرك به لسانك لتعجل به فلا يبعد أن يعجل فيما يحدث به أصحابه من أمر الدين حرصاً على تعجيل أفهامهم فكانوا يسألونه في هذه الحالة أن يمهلهم فيما يخاطبهم به إلى أن يفهموا كل ذلك الكلام.

ب. ثانيها: ﴿انْظُرْنَا﴾ معناه (انظر) إلينا إلا أنه حذف حرف (إلى) كما في قوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] والمعنى من قومه، والمقصود منه أن المعلم إذا نظر إلى المتعلم كان إيراده للكلام على نعت الإفهام والتعريف أظهر وأقوى.

ج. ثالثها: قرأ أبي بن كعب (أنظرنا) من النظرة أي أمهلنا.

٦. حصول السماع عند سلامة الحاسة أمر ضروري خارج عن قدرة البشر، فلا يجوز وقوع الأمر به في قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾، ولذلك، فإن المراد منه أحد أمور ثلاثة:

أ. أحدها: فرغوا أسماعكم لما يقول النبي ﷺ حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة.

ب. ثانيها: اسمعوا سماع قبول وطاعة ولا يكن سماعكم سماع اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا.

ج. ثالثها: اسمعوا ما أمرتم به حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه تأكيداً عليهم.

٧. ثم إنه تعالى بين ما للكافرين من العذاب الأليم إذا لم يسلكوا مع الرسول هذه الطريقة من الإعظام والتبجيل والإصغاء إلى ما يقول والتفكر فيما يقول.

٨. ثم لما بين الله تعالى حال اليهود والكفار في العداوة والمعاندة حذر المؤمنين منهم، فقال: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فنفى عن قلوبهم الود والمحبة لكل ما يظهر به فضل المؤمنين.

٩. ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

أ. الأولى للبيان لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان: أهل الكتاب والمشركون، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]

ب. الثانية: مزيدة لاستغراق الخير.

ج. والثالثة: لابتداء الغاية.

١٠. الخير: الوحي وكذلك الرحمة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] المعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ ذكر شيئا آخر من جهالات اليهود والمقصود نهي المسلمين عن مثل ذلك.

٢. حقيقة ﴿رَاعِنَا﴾ في اللغة أرعنا ولنرعك، لان المفاعلة من اثنين، فتكون من رعاك الله، أي احفظنا ولنحفظك، وارقبنا ولنرقبك، ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك، أي فرغ سمعك لكلامنا، وفي المخاطبة بهذا جفاء، فأمر المؤمنين أن يتخيروا من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أرقها.. قال ابن عباس: كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ: راعنا. على جهة الطلب والرغبة ـ من المراعاة ـ أي التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبا، أي اسمع لا سمعت، فاغتنموها وقالوا: كنا نسبه سرا فالآن نسبه جهرا، فكانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويضحكون فيها بينهم، فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود: عليكم لعنة الله! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها؟ فنزلت الآية، ونهوا عنها لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه.

٣. في هذه الآية دليلان:

أ. أحدهما: على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض، ويخرج من هذا فهم

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٥٨.

القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحد عند بعض الفقهاء حين قالوا: التعريض محتمل للقذف وغيره، والحد مما يسقط بالشبهة.

ب. الثاني:التمسك بسد الذرائع وحمايتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد ابن حنبل في رواية عنه، وقد دل على هذا الأصل الكتاب والسنة، والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع[1].

٤. قوله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ نهي يقتضي التحريم.. يقال لما نتأ من الجبل: رعن، والجبل أرعن، وجيش أرعن، أي متفرق، وكذا رجل أرعن، أي متفرق الحجج وليس عقله مجتمعا، عن النحاس، وقال ابن فارس: رعن الرجل يرعن رعنا فهو أرعن، أي أهوج، والمرأة رعناء، وسميت البصرة رعناء لأنها تشبه برعن الجبل، قال ابن دريد ذلك، وأنشد للفرزدق:

لو لا ابن عتبة عمرو والرجاء له ... ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾:

أ. قيل: أمروا أن يخاطبوه ﷺ بالإجلال، والمعنى: أقبل علينا وانظر إلينا، فحذف حرف التعدية، كما قال:

ظاهرات الجمال والحسن ينظر ... ن كما ينظر الأراك الظباء

أي إلى الأراك، وقال مجاهد: المعنى فهمنا وبين لنا.

ب. وقيل: المعنى انتظرنا وتأن بنا، قال:

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا

٦. قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ لما نهى وأمر عز وجل، حض على السمع الذي في ضمنه الطاعة، وأعلم أن لمن خالف أمره فكفر عذابا أليما.

٧. قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ﴾ أي ما يتمنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على ﴿أَهْلِ﴾، ويجوز: ولا المشركون، تعطفه على الذين، قاله النحاس.

---

(١) ذكر هنا تفاصيل تتعلق بسد الذرائع نقلناها إلى محلها من السلسلة.

٨. ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ من: زائدة، ﴿خَيْرٌ﴾ اسم ما لم يسم فاعله، و﴿إِنَّ﴾ في موضع نصب، أي بأن ينزل، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾:

أ. أي بنبوته، خص بها محمدا ﷺ.

ب. وقال قوم: الرحمة القرآن.

ج. وقيل: الرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديما وحديثا، يقال: رحم يرحم إذا رق، والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى، قاله ابن فارس، ورحمة الله لعباده: إنعامه عليهم وعفوه لهم.

٩. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ذو بمعنى صاحب.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله: ﴿رَاعِنَا﴾ راقبنا، واحفظنا، وصيغة المفاعلة تدل على أن معنى ﴿رَاعِنَا﴾: ارعنا ونرعاك، واحفظنا ونحفظك، وارقبنا ونرقبك؛ ويجوز أن يكون من أرعنا سمعك، أي: فرغه لكلامنا.

٢. وجه النهي عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبّا؛ قيل: إنه في لغتهم بمعنى اسمع لا سمعت؛ وقيل: غير ذلك، فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبيّ ﷺ راعنا طلبا منه أن يراعيهم من المراعاة اغتنموا الفرصة، وكانوا يقولون للنبيّ ﷺ كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربي، مبطنين أنهم يقصدون السبّ الذي معنى هذا اللفظ في لغتهم.

٣. في ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسبّ والنقص، وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم، سدّا للذريعة ودفعا للوسيلة، وقطعا لمادة المفسدة والتطرق إليه.

٤. ثم أمرهم الله بأن يخاطبوا النبيّ ﷺ بما لا يحتمل النقص ولا يصلح للتعريض فقال: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾:

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/١٤٦.

أ. قيل: أي: أقبل علينا وانظر إلينا، فهو من باب الحذف والإيصال، كما قال الشاعر:

ظاهرات الجمال والحسن ينظر   ن كما ينظر الأراك الظّباء

أي: إلى الأراك.

ب. وقيل: معناه انتظرنا وتأنّ بنا، ومنه قول الشاعر:

فإنّكما إن تنظراني ساعة   من الدّهر ينفعني لدى أمّ

٥. قرأ الأعمش (أنظرنا) بقطع الهمزة وكسر الظاء بمعنى: أخّرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك، ومنه قول الشاعر:

أبا هند فلا تعجل علينا   وأنظرنا نخبّرك اليقينا

وقرأ الحسن ﴿رَاعِنًا﴾ بالتنوين، وقال: الراعن من القول: السخريّ منه.

٦. أمرهم الله تعالى بعد هذا النهي والأمر بأمر آخر، وهو قوله: ﴿وَاسْمَعُوا﴾:

أ. أي: اسمعوا ما أمرتم به ونهيتم عنه، ومعناه: أطيعوا الله في ترك خطاب النبيّ ﷺ بذلك اللفظ، وخاطبوه بما أمرتم به.

ب. ويحتمل أن يكون معناه: اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع، حتى يحصل لكم المطلوب بدون طلب للمراعاة.

٧. ثم توعّد اليهود بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ويحتمل أن يكون وعيدا شاملا لجنس الكفرة.

٨. قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ: ﴿رَاعِنَا﴾ لأنها كلمة كرهها الله أن يقولوا لنبيه ﷺ، نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تقولوا للعنب: الكرم ولكن قولوا: الحبلة، ولا تقولوا: عبدي، ولكن قولوا: فتاي) وما أشبه ذلك.

٩. قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية، فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين، حيث لا يودّون إنزال الخير عليهم من الله سبحانه، ثم ردّ الله سبحانه ذلك عليهم فقال: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية.

١٠. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قيل: بأن الخير: الوحي؛ وقيل: غير ذلك، والظاهر أنهم لا يودّون أن ينزل على

المسلمين أيّ خير كان، فهو لا يختص بنوع معين، كما يفيده وقوع هذه النكرة في سياق النفي، وتأكيد العموم بدخول (من) المزيدة عليها، وإن كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض فذلك لا يوجب التخصيص.

١١. الرحمة: قيل: هي القرآن؛ وقيل: النبوّة؛ وقيل: جنس الرحمة من غير تعيين، كما يفيد ذلك الإضافة إلى ضميره تعالى ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: صاحب الفضل العظيم، فكيف لا تودون أن يختص برحمته من يشاء من عباده.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ﴾ للنبيء ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾ اعتبِرنا وانظر أحوالنا وتدبَّرْها، وتداركْ مصالحنا، وتأنَّ بنا حتَّى نفهم ما تقول، وهذا مرادهم رحمهم الله، ومن ذلك رعي الغنم ونحوها.

٢. والمفاعلة للمبالغة هنا، وهي بلغة اليهود سبٌّ، لَمَّا سمعوا المؤمنين يقولونها قالوها له ﷺ سبًّا في لغتهم، عبريَّة أو سريانيَّة، يتسابُّون بها بينهم، فكانوا يسبُّون بها النبيء ﷺ، وليست من الرعونة بمعنى الحمق، وإن كانت منها فممَّا توافق فيه لغة العرب والعجم، وقد يكون بين لفظ العرب ولفظهم مغايرة فيزيلونها ليوافقوا كلام العرب خداعًا للسبِّ.

٣. وقد قيل: معناها: اسمع لا سمعت، وقالوا: كنَّا نسبُّ محمَّدا سرًّا فأعلِنوا به الآن، فيقولون: يا محمَّد، راعنا! ويضحكون فيما بينهم، ويقال: كان مالك بن صيف ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبيء ﷺ قالا - وهما يكلِّمانه - : راعِنا سمعك، واسمَع غير مُسمَع، فظنَّ المسلمون أنَّ هذا شيءٌ يعظِّمون به الأنبياء، فنزلت الآية، ويقال: كان ذلك لغةً للأنصار في الجاهليَّة، وكان سعد بن معاذ، أو سعد بن عبادة يعرف لغتهم، فسمعهم يقولونها للنبيء ﷺ، فقال: (يا أعداءَ الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتُها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربنَّ عنقه)، قالوا: (أوَلستم تقولونها؟) فنزلت الآية قطعا لألسنة اليهود عن التدليس، ويحتمل أن يراد: أنت راعن، أو يا راعن، أي: أحمق، فزادوا الألف وفتحوا، أو: أنت راعينا لا نبيء، فحذفوا الياء واختلسوها.

٤. ﴿وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾ اعتبرنا حتَّى نفهم وأمهلنا، فإنَّه يقال نظره بمعنى أمهله، فلا حاجة إلى

---

[1] تيسير التفسير، أطفيش: ١٨٥/١.

تقدير: انظر إلينا ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ من رسول الله ﷺ سماعَ قبولٍ وعملٍ وانتهاءٍ بجدٍّ، بحيث لا تحتاجون إلى الإعادة وطلب المراعاة، لا كقول اليهود: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] السابِّين بِـ (رَاعِنَا)، ولا تكونوا أيُّها المسلمون مثلهم في طلبكم الإعادة.

٥. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ اليهود السابِّين بـ (رَاعِنَا)، أو جملة الكافرين فدخل اليهود، وذلك السبُّ كفرٌ، ﴿عَذابٌ اَلِيمٌ﴾.

٦. زعم طائفة من اليهود أنَّهم يودُّون الخير للمؤمنين، فكذَّبهم الله تعالى بقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ يحبُّ أو يتمنَّى حسدًا ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: وهم أهل الكتاب، وكلُّهم كفرة، إذ لم يؤمنوا برسول الله ﷺ إلَّا من آمن كعبد الله بن سلَام، وإن جعلناها للتبعيض فالمراد البعض الأكثر، وهو خلاف الظاهر.

٧. ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ من العرب، والكلام جاء فيهم، عطف على (أَهْلِ الْكِتَابِ)، وذكَرهم أتباعا لليهود، وهم لم يدَّعوا ودَّ الخير للمؤمنين؛ ولذلك أخَّرهم.

٨. ﴿أَنْ يُّنَزَّلَ﴾ أي: أن يُنزِّل الله ﴿عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ نائب فاعل (يُنَزَّلَ)، فـ (مِنْ) صلة للتأكيد والاستغراق، وصحَّ ذلك مع أنَّ قوله: ﴿يُنَزَّلَ﴾ مثبت لانسحاب نفي الودِّ إليه.

٩. والمراد بالخير: الوحيُ والعلمُ والنصرُ، وغير ذلك من أنواع الخير، وكراهتهم تعمُّ كلَّ خير، رويَ أنَّ المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود: آمِنوا برسول الله ﷺ، فقالوا: وددنا لو كان خيرا ممَّا نحن فيه فنتَّبعه، فنزلت الآية تكذيبًا لهم؛ ومعنى تكذيبهم أنَّه ﷺ على خير ممَّا هم فيه ولم يؤمنوا، وقيل: نزلت تكذيبا لجماعة من اليهود يُظهرون أنَّهم يحبُّون المؤمنين، وإنَّما قال: ﴿عَلَيْكُم﴾ مع أنَّ الوحي على سيِّدنا محمَّد ﷺ، لأنَّا متعبَّدون بما أنزل إليه، فهو خطاب متوجِّه إلينا، وواقع علينا بواسطة رسول الله ﷺ، وهذا أبلغ من تقدير مضاف، أي: (يُنَزَّلَ على نبيئكم)، ولا تنزيل إلَّا من الله ومع ذلك قال: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إغاظة للكفَّار، وتحبيبًا لنفسه إلينا، وتذكيرًا لنعمة التربية منه والعبوديَّة منَّا له ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ أي: السعادةَ والجنَّة، أو النبوءة، أو الخير المذكور؛ ذكره بالاسم الظاهر تصريحا بأنَّه رحمة من الله وفضل، لا واجب عليه، ولا يوجبه عمل عامل، أو أراد بالرحمة مطلقها في الأمَّة وسائر الأمم، ﴿مَنْ يَّشَآءُ﴾ هو النبيء ﷺ وأمَّته، دون اليهود والمنافقين والمشركين، أو هو العموم، ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ كلُّ خير دينيٍّ أو دنيويٍّ أو أخرويٍّ منَّةٌ من الله تعالى.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا﴾ للنبيّ ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾ التي تقصدون بها الرعاية والمراقبة لمقصد الخير وحفظ الجانب، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم، فصاروا يلوون بها ألسنتهم، ويقصدون بها الرعونة، وهي إفراط الجهالة، فنهاهم عن موافقتهم في القول، منعا للصحيح الموافق في الصورة لشبهه من القبيح، وعوضهم منها ما لا يتطرق إليه فساد فقال: ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾، فأبقى المعنى وصرف اللفظ، أي أنظر إلينا. بالحذف والإيصال، أو انتظرنا، على أنه من نظره إذا انتظره.

٢. ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي قولوا ما أمرتكم به، وامتثلوا جميع أوامري، ولا تكونوا كاليهود، حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ أي اليهود الذي توسلوا بقولكم المذكور إلى التهاون بمقام رسول الله ﷺ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لما اجترؤوا عليه من العظيمة، وهو تذييل لما سبق، فيه وعيد شديد لهم، ونوع تحذير للمخاطبين عما نهوا عنه، وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة النساء ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]، ومن ليّهم ما جاء في الحديث أنهم كانوا إذا سلموا يقولون: (السام عليكم)، والسام هو الموت، ولهذا أمرنا أن نزد عليهم ب (وعليكم)، وإنما يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا.

٣. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بيان لشدة عداوة الكافرين من القبيلين للمؤمنين، حسدا وبغيا. ليقطع التشبه بهم. فإن مخالفة الأعداء من الأغراض العظيمة للمتمكنين في الأخلاق الفاضلة.

٤. ثم بين أن الحسد لا يؤثر في زوال ذلك بقوله: ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ و(الاختصاص) عناية تعيّن المختص لمرتبة ينفرد بها دون غيره، وفيه تنبيه على ما أنعم به على المؤمنين، من الشرع التام الكامل الذي شرعه لهم.

---

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٧٠.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا خطاب للمؤمنين في أمر له علاقة بما كان بينهم وبين اليهود فهو متعلق بماضي السياق الخاص ببنى إسرائيل، وبدء انتقال منه إلى سياق مشترك بين المؤمنين واليهود والنصارى جميعا في أمر الدين.

٢. ﴿رَاعِنَا﴾ كلمة كانت تدور على ألسنة الصحابة في خطاب النبيّ ﷺ، والمعنى المتبادر منها لغة هو: راعنا سمعك وهو كأرعنا سمعك أي اسمع لنا ما نريد أن نسأل عنه ونراجعك القول فيه لنفهمه عنك، أو راقبنا وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تلقيه علينا وفهمه، قال في مجاز الأساس: (وراعيت الأمر ـ نظرت إلام يصير. وأنا أراعى فلانا ـ أنظر ماذا يفعل، وأرعيته سمعي وأرعنى سمعك وراعني سمعك)

٣. لكن الله تعالى نهى المؤمنين عن قول هذه الكلمة والمشهور في كتب التفسير: أن سبب ذلك هو أن اليهود سمعوها فافترصوها وصاروا يخاطبون بها النبيّ ﷺ لاوين ألسنتهم بها لتوافق كلمة شتم بلسانهم العبرانى قيل: كانوا ينطقون بها (راعينا) وقيل: كانوا يريدون بتحريفها نسبته إلى الرعونة، وفى سورة النساء: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾

٤. هذا النهى له صلة وارتباط بشأن اليهود لا محالة لأن الكلام لا يزال في شؤونهم مع النبيّ ﷺ والمؤمنين، ولكن هذا لا يستلزم أن يكون سبب النهى هو كون الكلمة تستعمل للشتم في العبرانية، ولا أقول بهذا إلا بنقل صحيح عمن يعرف هذه اللغة.

٥. للمفسرين وجوه أخرى في تعليل النهى:

أ. فعن مجاهد وغيره أن معنى الكلمة (خلاف) والمراد لا تخالفوه كما يفعل أهل الكتاب، ولكن اعترض على هذا الوجه بأن ليس له شاهد من اللغة.

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٤١٠.

ب. المعروف في اللغة أن (راعنا) من المراعاة، وهى تقتضى المشاركة في الرعاية أي أرعنا نرعك، وفى خطاب النبيّ بذلك من سوء الأدب ما هو ظاهر، فالنهى عنه تأديب كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كأنه يقول لا تكونوا كهؤلاء الغلاظ القلوب الذين قصصنا عليكم خبرهم أو الذين عرفتم سوء أدبهم مع الأنبياء، بل اجمعوا بين الطاعة والأدب.

ج. وههنا وجه آخر وهو أنه يقال في اللغة: راعى الحمار الحمر إذا رعى معها، فيجوز أن اليهود كانوا يحرفون الكلمة بصرفها إلى هذا المعنى، فنهى الله المسلمين عن هذه الكلمة، وشنع على اليهود بإظهار سوء قصدهم فيها، وقد رضوا بصرف اللفظ إلى هذا المعنى، وإن كان يتضمن أنهم حمر لأن السباب يسب نفسه كما يسب غيره فهو على حد قول القائل:

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

٦. ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ نهاهم تعالى عن كلمة كانوا يقولونها وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ما كانوا يريدونه منها، فكلمة ﴿انْظُرْنَا﴾ تفيد معنى كلمة ﴿رَاعِنَا﴾، فإن فيها معنى الانظار والامهال ويؤيد هذا المعنى قراءة ﴿انْظُرْنَا﴾ من الانظار وفيها معنى المراقبة وهو ما يستفاد من النظر بالعين، تقول: نظرت الشيء ونظرت اليه، إذا وجهت إليه بصرك ورأيته وتقول: نظرته بمعنى انتظرته ومنه ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾

٧. أذن الله تعالى لهم بهذه الكلمة ﴿انْظُرْنَا﴾ وأمرهم بالسماع للنبي ليعوا عنه ما يقول من الدين وهو أمر يتضمن الطاعة والاستجابة.

٨. ثم ختم الآية بقوله ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لبيان أن ما صدر عن اليهود من سوء الأدب في خطاب الرسول ﷺ هو أثر من آثار الكفر الذي يعذبون عليه العذاب الموجع أشد الايجاع، وللتنبيه على أن التقصير في الأدب معه ﷺ ذنب مجاور للكفر يوشك أن يجر إليه فيجب الاحتراس منه بترك الألفاظ الموهمة للمساواة، بله الألفاظ المنافية للآداب.

٩. لا شك أن من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل يقل احترامه له وتزول هيبته من نفسه حتى تقل الاستفادة منه أو تعدم، وإذا لم تزل الاستفادة منه من حيث كونه معلما فإنها تقل

وتزول لا محالة من حيث كونه مربيا لأن المدار في التربية على التأسي والقدوة، ومن أراه مثلى لا أرضاه إماما وقدوة لي فإن رضيته بالمواضعة والتقليد وكذبتنى المعاملة فأي قيمة لهذا الرضى والعبرة بها في الواقع ونفس الأمر، وهو أن من اعتقد أن امرؤا فوقه علما وكمالا وأنه في حاجة للاستفادة من علمه وإرشاده ومن أخلاقه وآدابه، فإنه لا يستطيع أن يساوى نفسه به في المعاملة القولية ولا الفعلية، إلا ما يكون من فلتات اللسان ومن اللمم، وعن مثل هذا نهى الصحابة لئلا يجرهم الانس به ﷺ وكرم أخلاقه إلى اعتداء حدود الأدب الواجب معه الذي لا تكمل التربية إلا بكماله، وهو تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الآية.

١٠. إنما كان عدم الاصغاء لما يقوله الرسول ﷺ وخطابه خطاب الأكفاء والنظراء مجاورا للكفر، لأنه يتكلم عن الله عز وجل لسعادة من يسمع ويعقل ويأخذ ما يؤمر به بالأدب ويسأل عما لا يفهمه بالأدب، ومن فاتته هذه السعادة فهو الشقي الذي لا يعدل بشقائه شقاء، ومعنى هذه المجاورة أن سوء الأدب بنحو ما حكى عن اليهود في سورة النساء هو من الكفر الصريح ولذلك قال بعده: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فالألفاظ التي تحاكى الألفاظ التي توعدوا عليها بهذا الوعيد على أنها كفر إذا صدرت من المؤمن غير محرفة ولا مقصودا بها ما كانوا يقصدون تسمى مجاورة لألفاظ الكفر لأنها موهمة وخارجة عن حدود الأدب اللائق بالمؤمنين.

١١. لمن جاء بعد الرسول ﷺ حظا من هذا التأديب، وليس هو خاصا بمن كان في عصره من المؤمنين، فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم، وكان يجب الاستماع له والنصات لأجل تدبره، هو الذي يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شيء وهو كلام الله الذي به كان الرسول رسولا تجب طاعته والاهتداء بهديه، فما الأدب الذي يقابله به الأكثرون؟ إنهم يلغطون في مجلس القرآن، فلا يستمعون ولا ينصتون، ومن أنصت واستمع فإنما ينصت طربا بالصوت واستلذاذا بتوقيع نغمات القارئ وإنهم ليقولون في استحسان ذلك واستجادته ما يقولونه في مجالس الغناء، ويهتزون للتلاوة ويصوتون بأصوات مخصوصة، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق، ولا يلتفتون إلى شيء من معانيه إلا ما يرونه مدعاة لسرورهم في مثل قصة يوسف عليه السّلام مع الغفلة عما فيها من العبرة وإعلاء شأن الفضيلة ولا سيما العفة والامانة.. أليس هذا أقرب

إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها، وتتوعد على تركه بجعله مجاورا للكفر الذي يسوق صاحبه إلى العذاب الأليم: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾

١٢. ثم قال تعالى ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول تعالى للمؤمنين: إن هؤلاء الذين علمتم شأنهم مع أنبيائهم حسدة، لا يلتفت إلى تكذيبهم ولا يبالى بعدوانهم، ولا يضركم كفرهم وعنادهم، فهم لحسدهم لا يودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم، والقرآن أعظم الخيرات، لأنه النظام الكامل، والفضل الشامل، والهداية العظمى، والآية الكبرى، جمع به شملكم، ووصل حبلكم، ووحد شعوبكم وقبائلكم، وطهر عقولكم من نزغات الوثنية، وزكى نفوسكم من أدران الجاهلية، وأقامكم على سنن الفطرة، وشرع لكم الحنيفية السمحة، فكيف لا يحرق الحسد عليه أكبادهم ويخرج أضغانهم عليكم وأحقادهم؟

١٣. الود محبة الشيء وتمنى وقوعه، يطلق على كل منهما قصدا، وعلى الآخر تبعا، ويكون مفعول الأول مفردا والثاني جملة، ونفيه بمعنى الكراهة فالمعنى ما يحب الذين كفروا من اليهود والنصارى ولا من المشركين أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم.. أما أهل الكتاب ولا سيما اليهود فلحسدهم للعرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوة وهو ما كانوا يحتكرونه لأنفسهم، وأما المشركون فلأن في التنزيل المرة بعد المرة من قوة الإسلام ورسوخه وانتشاره ما خيب آمالهم في تربصهم الدوائر بالنبي ﷺ وانتهاء أمره.

١٤. ثم إن الله تعالى رد عليهم بما بين جهلهم وجهل جميع الحاسدين فقال: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي أن الحاسد لغباوته وفساد طويته يكون ساخطا على الله تعالى ومعترضا عليه أن أنعم على المحسود بما أنعم، ولا يضر الله تعالى سخط الساخطين، ولا يحول مجارى نعمه حسد الحاسدين فالله يختص برحمته من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم ـ أسند كلا من هذين الأمرين إلى اسم الذات الأعظم لبيان أنهما حقه لذاته فليس لأحد من عبيده أدنى تأثير في منحهما ولا في منعهما.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ نهى سبحانه الصحابة عن كلمة كانت تدور على ألسنتهم، حين خطابهم النبي ﷺ وهى كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ ومعناها راعنا سمعك: أي اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ونراجعك القول لنفهمه عنك، وانظرنا: أي راقبنا وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تلقيه علينا وفهمه.

٢. سبب نهيهم عنها أن اليهود لما سمعوها افترصوها وصاروا يخاطبون بها النبي ﷺ لاوين بها ألسنتهم لموافقة جرسها العربي لكلمة (راعينو) العبرية التي معناها (شرير) فأرشد الله نبيه الكريم لذلك، وأمر أصحابه أن يقولوا ﴿انْظُرْنَا﴾ وهى خير منها وأخفّ لفظا، وتفيد معنى الإنظار والإمهال، كما تفيد معنى المراقبة التي تستفاد من النظر بالعين، إذ تقول: نظرت الشيء ونظرت إليه إذا وجهت إليه بصرك ورأيته.

٣. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الكافرون هنا هم اليهود، وفي التعبير به إيماء إلى أن ما صدر منهم من سوء الأدب في خطابه ﷺ كفر لا شكّ فيه، لأن من يصف النبي ﷺ بأنه شرّير، فقد أنكر نبوّته وأنه موحى إليه من قبل ربه، ومتى فعل ذلك فقد كفر واستحق العذاب الأليم.

٤. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي إن الذين عرفتم شأنهم مع أنبيائهم من أهل الكتاب حسدة لكم لا يودون أن ينزل عليكم خير من ربكم، والكتاب الكريم أعظم الخيرات فهو الهداية العظمى، به جمع الله شملكم ووحّد شعوبكم وقبائلكم، وطهّر عقولكم من زيغ الوثنية، وأقامكم على سنن الفطرة، وكذلك المشركون إذ يرون في نزول القرآن على طريق التتابع الوقت بعد الوقت قوة للإسلام ورسوخا لقواعده، وتثبيتا لأركانه وانتشارا لهداه، وهم يودون أن تدور عليكم الدوائر، وينتهى أمركم ويزول دينكم من صفحة الوجود.

٥. ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي إن حسد الحاسد يدل على أنه ساخط على ربه معترض عليه، لأنه أنعم على المحسود بما أنعم، والله لا يصيره سخط الساخطين، ولا يحوّل

---

(١) تفسير المراغي: ١/ ١٨٤.

مجارى نعمته حسد الحاسدين، فهو يختصّ من يشاء برحمته متى شاء، وهو ذو الفضل العظيم على من اختاره للنبوة، وهو صاحب الإحسان والمنّة وكل عباده غارق في بحار نعمته، فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحدا على خير أصابه، وفضل أوتيه من عند ربه.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. يتجه الخطاب في مطلع هذا الدرس إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يناديهم بالصفة التي تميزهم، والتي تربطهم بربهم ونبيهم، والتي تستجيش في نفوسهم الاستجابة والتلبية، وبهذه الصفة ينهاهم أن يقولوا للنبي ﷺ (راعنا) ـ من الرعاية والنظر ـ وأن يقولوا بدلا منها مرادفها في اللغة العربية: ﴿انْظُرْنَا﴾.. ويأمرهم بالسمع بمعنى الطاعة، ويحذرهم من مصير الكافرين وهو العذاب الأليم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

٢. تذكر الروايات أن السبب في ذلك النهي عن كلمة ﴿رَاعِنَا﴾.. أن سفهاء اليهود كانوا يميلون ألسنتهم في نطق هذا اللفظ، وهم يوجهونه للنبي ﷺ حتى يؤدي معنى آخر مشتقا من الرعونة، فقد كانوا يخشون أن يشتموا النبي ﷺ مواجهة، فيحتالون على سبه ﷺ عن هذا الطريق الملتوي، الذي لا يسلكه إلا صغار السفهاء! ومن ثم جاء النهي للمؤمنين عن اللفظ الذي يتخذه اليهود ذريعة، وأمروا أن يستبدلوا به مرادفه في المعنى، الذي لا يملك السفهاء تحريفه وإمالته، كي يفوتوا على اليهود غرضهم الصغير السفيه!

٣. استخدام مثل هذه الوسيلة من اليهود يشي بمدى غيظهم وحقدهم، كما يشي بسوء الأدب، وخسة الوسيلة، وانحطاط السلوك، والنهي الوارد بهذه المناسبة يوحي برعاية الله لنبيه وللجماعة المسلمة، ودفاعه ـ سبحانه ـ عن أوليائه، بإزاء كل كيد وكل قصد شرير من أعدائهم الماكرين.

٤. ثم يكشف الله تعالى للمسلمين عما تكنه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء، وعما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد، بسبب ما اختصهم به الله من الفضل. ليحذروا أعداءهم، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٩٩.

أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

٥. يجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر.. وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قدم سواء من هذه الناحية؛ وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغن، ولا يود لهم الخير، وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين. هو أن يختارهم الله لهذا الخير وينزل عليهم هذا القرآن، ويحبوهم بهذه النعمة، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض، وهي الأمانة الكبرى في الوجود.

٦. سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل عليه السلام إذ كان ينزل بالوحي على الرسول ﷺ.

٧. ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فالله أعلم حيث يجعل رسالته؛ فإذا اختص بها محمدا ﷺ والمؤمنين به، فقد علم ـ سبحانه ـ أنه وأنهم أهل لهذا الاختصاص.

٨. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة؛ وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه، وفي هذا التلميح ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد.. وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها ـ ويقودها ـ اليهود، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. الكلمة المنافقة على ألسنة المنافقين، هي سلاح من أسلحة العمل في سبيل الغايات الخسيسة التي يعملون لها، ولهذا كان اليهود أبرع الناس في هذه التجارة الخاسرة، تجارة النفاق، بالكلمة، وبالعمل معا.. سمعوا المسلمين يهتفون برسول الله، تقرّبا: (راعنا يا رسول الله)، أي ضمّنا إليك، واجعلنا تحت رعايتك، فحرفوا الكلم عن مواضعه، شأنهم في ذلك مع كلام الله، ومع كل طيب من الكلم، تأبى نفوسهم

(١) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١١٩.

إلا أن تمجّه، وتأبى ألسنتهم إلا أن تلتوى به ـ فجعلوا (راعنا) (راعنا) بالتنوين، يريدون بها صفة ذم، من الرعونة والطيش، ينطقون بها في خبث تلتوى به ألسنتهم، حتى لا ينفضح أمرهم، ولا يجد من يعلم خبيئة أنفسهم، وسوء مكرهم، السبيل إلى مؤاخذتهم.. هكذا المنافق، حريص حرص الغراب، حذر حذر الضبّ، ناعم نعومة الحية!

٢. لإبطال هذا المكر السيّئ، نبّه الله المؤمنين إلى أن يستبدلوا بكلمة ﴿رَاعِنَا﴾ كلمة ﴿انْظُرْنَا﴾، حيث لا يجد اليهود سبيلا إلى هذه الكلمة، بالتحريف الماكر!

٣. ذكر القرآن الكريم هذا الموقف اللئيم الذي يقفه اليهود من الحديث مع رسول الله، وتعاملهم بالكلمة المنافقة معه، فقال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

٤. انظر كيف نفاقهم.. تصرح ألسنتهم بالكلمة الطيبة، ثم تخطفها قلوبهم، بالكلمة الخبيثة.. فإذا قالوا جهرا: ﴿سَمِعْنَا﴾ قالوا سرا: (وعصينا)! وإذا قالوا وأسمعوا: (اسمع) قالوا ولم يسمعوا: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾! يدعون على النبيّ بالصمم.. وإذا قالوا ﴿رَاعِنَا﴾ نطقوا بحروفها الأولى نطقا سليما، حتى إذا بلغوا مقطعها الأخير، اضطربت ألسنتهم بالنون فجاءت بين المدّ والتنوين!

٥. كان الأولى باليهود، أهل الكتاب، أن يدعو الناس إلى الله، وأن يسعدوا بهداية الناس إلى طريق الحق والهدى، ولكن الأثرة التي تملك عليهم وجودهم، تجعلهم يتمنّون لعباد الله الضلال والكفر بالله، حتى لا يدخل إلى رحاب الله أحد غيرهم، حسبما يقدّرون ويزعمون! ولهذا فقد جمعهم الله مع المشركين من كفار قريش في هذا الموقف، إذ يقول سبحانه: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وأول هذا الخير وأعظمه، هو هذا القرآن الكريم، وما يحمل من صنوف الخير وألوان النعم.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. يتعين في مثل هذه الآية تطلب سبب نزولها ليظهر موقعها ووجه معناها، فإن النهي عن أن يقول المؤمنون كلمة لا ذم فيها ولا سخف لا بد أن يكون لسبب، وقد ذكروا في سبب نزولها أن المسلمين كانوا إذا ألقى عليهم النبي ﷺ الشريعة والقرآن يتطلبون منه الإعادة والتأني في إلقائه حتى يفهموه ويعوه، فكانوا يقولون له راعنا يا رسول الله أي لا تتحرج منا وارفق، وكان المنافقون من اليهود يشتمون النبي ﷺ في خلواتهم سرا، وكانت لهم كلمة بالعبرانية تشبه كلمة راعنا بالعربية، ومعناها في العبرانية سب، وقيل معناها: (لا سمعت)، دعاء فقال بعضهم لبعض: كنا نسب محمدا سرّا، فأعلنوا به الآن أو قالوا هذا، وأرادوا به اسم فاعل من رعن إذا اتصف بالرعونة.. فكانوا يقولون هاته الكلمة مع المسلمين ناوين بها السب، فكشفهم الله وأبطل عملهم بنهي المسلمين عن قول هاته الكلمة حتى ينتهي المنافقون عنها ويعلموا أن الله أطلع نبيه على سرهم.

٢. مناسبة نزول هاته الآية عقب الآيات المتقدمة في السحر وما نشأ عن ذمه، أن السحر كما قدمنا راجع إلى التمويه، وأن من ضروب السحر ما هو تمويه ألفاظ وما مبناه على اعتقاد تأثير الألفاظ في المسحور بحسب نية الساحر وتوجهه النفسي إلى المسحور، وقد تأصل هذا عند اليهود واقتنعوا به في مقاومة أعدائهم، ولما كان أذى الشخص بقول أو فعل لا يعلم مغزاهما كخطابه بلفظ يفيد معنى ومقصود المتكلم منه أذى، أو كإهانة صورته أو الوطء على ظله، كل ذلك راجعا إلى الاكتفاء بالنية والتوجه في حصول الأذى، كان هذا شبيها ببعض ضروب السحر، ولذلك كان من شعار من استهواهم السحر واشتروه ناسب ذكر هاته الحالة من أحوالهم عقب الكلام على افتتانهم بالسحر وحبه دون بقية ما تقدم من أحوالهم وهاته المناسبة هي موجب التعقيب في الذكر.

٣. إنما فصلت هذه الآية عما قبلها لاختلاف الغرضين لأن هذه في تأديب المؤمنين ثم يحصل منه التعريض باليهود في نفاقهم وأذاهم والإشعار لهم بأن كيدهم قد أطلع الله عليه نبيه، وقد كانوا يعدون تفطن المسحور للسحر يبطل أثره فأشبهه التفطن للنوايا الخبيثة وصريح الآيات قبلها في أحوالهم الدينية

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٦٣٣.

المنافية لأصول دينهم ولأن الكلام المفتتح بالنداء والتنبيه ونحوه نحو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ويا زيد وألا ونحوها لا يناسب عطفه على ما قبله وينبغي أن يعتبر افتتاح كلام بحيث لا يعطف إلا بالفاء إذا كان مترتبا عما قبله لأن العطف بالفاء بعيد عن العطف بالواو وأوسع من جهة التناسب.

٤. ﴿رَاعِنَا﴾ أمر من راعاه يراعيه وهو مبالغة في رعاه يرعاه إذا حرسه بنظره من الهلاك والتلف وراعى مثل رعى قال طرفة: (خذول تراعى ربربا بخميلة)، وأطلق مجازا على حفظ مصلحة الشخص والرفق به ومراقبة نفعه وشاع هذا المجاز حتى صار حقيقة عرفية، ومنه رعاك الله، ورعى ذمامه، فقول المسلمين للنبي ﷺ: ﴿رَاعِنَا﴾ هو فعل طلب من الرعي بالمعنى المجازي أي الرفق والمراقبة أي لا تتحرج من طلبنا وارفق بنا.

٥. ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾: أبدلهم بقولهم: ﴿رَاعِنَا﴾ كلمة تساويها في الحقيقة والمجاز وعدد الحروف والمقصود من غير أن يتذرع بها الكفار لأذى النبي ﷺ، وهذا من أبدع البلاغة فإنّ نظر في الحقيقة بمعنى حرس، وصار مجازا على تدبير المصالح، ومنه قول الفقهاء هذا من النظر، والمقصود منه الرفق والمراقبة في التيسير فيتعين أن قوله: ﴿انْظُرْنَا﴾ بضم همزة الوصل وضم الظاء وأنه من النظر لا من الانتظار.

٦. دلت هذه الآية على مشروعية أصل من أصول الفقه ـ وهو من أصول المذهب المالكي ـ يلقب بسد الذرائع وهي الوسائل التي يتوسل بها إلى أمر محظور.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾:

أ. قيل: أريد به سماع خاص، وهو الوعي ومزيد التلقي حتى لا يحتاجوا إلى طلب المراعاة أو النظر.

ب. وقيل: أراد من (اسمعوا) امتثلوا لأوامر الرسول قاله ابن عطية وهو أظهر.

٨. قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التعريف للعهد، والمراد بالكافرين اليهود خاصة أي تأدبوا أنتم مع الرسول ﷺ، ولا تتأسوا باليهود في أقوالهم: فلهم عذاب أليم، والتعبير بالكافرين دون اليهود زيادة في ذمهم، وليس هنا من التذييل لأن الكلام السابق مع المؤمنين فلا يصلح ما بعده من تعميم حكم الكافرين لتذييل ما قبله.

٩. فصل قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ عما قبله لاختلاف الغرضين، لأن الآية

قبله في تأديب المؤمنين مع التعريض باليهود وهذه الآية لبيان حسد اليهود وغيرهم للمسلمين، ووجه المناسبة بين الآيتين ظاهر لاتحاد المآل، ولأن الداعي للسب والأذى هو الحسد.

١٠. هذه الآية رجوع إلى كشف السبب الذي دعا لامتناع اليهود من الإيمان بالقرآن لما قيل لهم: ﴿آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ فقالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] أي ليس الصارف لهم تمسكهم بما أنزل إليهم، بل هو الحسد على ما أنزل على النبي والمسلمين من خير، فبين أدلة نفي كون الصارف لهم هو التصلب والتمسك بدينهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ﴾ [البقرة: ٩١] وما تخلل ذلك ونشأ عنه من المجادلات وبيان إعراضهم عن أوامر دينهم واتباعهم السحر وبين الآن حقيقة الصارف عن الإيمان بالقرآن والموجب للشتم وقول البهتان ليتخلص من ذلك إلى بيان النسخ.

١١. الود: بضم الواو المحبة ومن أحب شيئا تمناه فليس الود هو خصوص التمني ولا المحبة المفرطة كما حققه الراغب.

١٢. ذكر ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا دون اليهود لقصد شمول هذا الحكم اليهود والنصارى معا تمهيدا لما يأتي من ذكر حكمة النسخ ومن قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١] الآيات.

١٣. نبه بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ دون ما يود أهل الكتاب على أنهم لم يتبعوا كتابهم لأن كتبهم تأمرهم باتباع الحق حيثما وجدوه وبالإيمان بالنبي المقفي على آثارهم، وفي التوراة والإنجيل مواضع كثيرة فيها أخذ الميثاق على ذلك فلما حسدوا النبي ﷺ على النبوة وحسدوا المسلمين، فقد كفروا بما أمرت به كتبهم وبهذا تخلص الكلام إلى الجمع بين موعظة النصارى مع موعظة اليهود.

١٤. لما كان ما اقتضاه الحال من التعبير بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قد يوهم كون البيان قيدا وأن الكافرين من غير أهل الكتاب لا يحسدون المسلمين عطف عليه قوله: ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ كالاحتراس، وليكون جمعا للحكم بين الجميع فيكون له حظ في التمهيد لقوله فيما يأتي: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤]

١٥. قرأ الجمهور ﴿أَنْ يُنَزَّلَ﴾ بتشديد الزاي مفتوحة، والتعبير بالتنزيل دون الإنزال لحكاية الواقع إذ القرآن نزل منجما لتسهيل حفظه وفهمه وكتابته وللتيسير على المكلفين في شرع الأحكام تدريجا..

قرأه ابن كثير وابن عمرو بتخفيف الزاي مفتوحة أيضا وذلك على أن نفي ودادتهم متعلق بمطلق إنزال القرآن سواء كان دفعة أو منجما.

١٦. الخير: النعمة والفضل، قال النابغة: (فلست على خير أتاك بحاسد)، وأراد به هنا النبوة وما أيدها من الوحي والقرآن والنصر، وهو المعبر عنه بالرحمة في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾

١٧. ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ عطف على ﴿مَا يَوَدُّ﴾ لتضمنه أن الله أراد ذلك وإن كانوا هم لا يريدونه.. والرحمة هنا مثل الخير المنزل عليهم وذلك إدماج للامتنان عليهم بأن ما نزل عليهم هو رحمة بهم، ومعنى الاختصاص جعلها لأحد دون غيره لأن أصل الاختصاص والتخصيص راجع إلى هذا المعنى أعني جعل الحكم خاصا غير عام سواء خص واحدا أو أكثر، ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه أي من يشاء اختصاصه بالرحمة.

١٨. المشيئة هي الإرادة، ولما كانت إرادة الله تتعلق بالمراد على وفق علمه تعالى كانت مشيئته أي إرادته جارية على وفق حكمته التي هي من كيفيات علم الله تعالى فهي من تعلقات العلم الإلهي بإبراز الحوادث على ما ينبغي.

١٩. الله يختص برحمته من علم أنه حقيق بها لا سيما الرحمة المراد منها النبوءة، فإن الله يختص بها من خلقه قابلا لها فهو يخلقه على صفاء سريرة وسلامة فطرة صالحة لتلقي الوحي شيئا فشيئا، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] وقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ولذلك لم تكن النبوة حاصلة بالاكتساب لأن الله يخلق للنبوة من أراده لها لخطر أمرها بخلاف غيرها من الفضائل فهو ممكن الاكتساب كالصلاح والعلم وغيرهما، فرب فاسق صلحت حاله ورب جاهل مطبق صار عالما بالسعي والاكتساب، ومع هذا فلا بد لصاحبها من استعداد في الجملة، ثم وراء ذلك التوفيق وعناية الله تعالى بعبده، ولما كانت الاستعدادات لمراتب الرحمة من النبوة فما دونها غير بادية للناس طوى بساط تفصيلها لتعذره ووكل إلى مشيئة الله التي لا تتعلق إلا بما علمه واقتضته حكمته سبحانه رفقا بأفهام المخاطبين.

٢٠. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة

فيتخلى عن المعاصي والخبائث ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه وفي الحديث الصحيح: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. اليهود دائما عشراء سوء، فكانوا يغمزون في القول دائما بالنسبة للنبي ﷺ كان المؤمنون يتوجهون إلى النبيّ ﷺ طالبين إرشاده وتوجيهه ودعاءه، فكانوا يقولون ﴿رَاعِنَا﴾، وأصل راعنا مفاعلة من رعى يرعى، ومعنى المفاعلة راعنا بالقول الموجه المرشد نرعك بالاستماع والإنصات، فإنك هادينا ومرشدنا وقد تفيد معنى اتجه إلينا، ولقد روى عن ابن عباس في تفسير كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ أنه قال (كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ راعنا على جهة الطلب والرغبة من المراعاة أي التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبا أي اسمع لا سمعت فانتهزها اليهود وقالوا: كنا نسبه سرّا فالآن نسبه جهرا، كانوا يخاطبون بها النبيّ ﷺ ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم فقال لليهود: عليكم لعنة الله لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا أولستم تقولونها فنزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾

٢. نهاهم الله تعالى عن قول راعنا لأن اليهود فسروها بما يدل على السب كما قال ابن عباس، ولووا بها ألسنتهم بما يدل على أن معناها رعونة من القائل والمخاطب الكريم، ولقد صرح سبحانه وتعالى في موضع آخر بليّ ألسنتهم فقال تعالت كلماته: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء]

٣. كانوا يقولون: ﴿رَاعِنَا﴾ يقصدون الرعونة، بمعنى عدم الاستقرار الفعلي والفكري، فأمر الله المؤمنين أن يتوقوا هذه الكلمة وأن يقولوا انظرنا بمعنى اشملنا بنظرتك وإرشادك وتوجيهك، وأمرهم مع ذلك بأن يسمعوا للرسول إرشاده وتوجيهه، وذلك يفيد أمرين:

---

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٤٧.

أ. أحدهما: إرشاد المؤمنين بأن يتخيروا العبارات التي لا تثير حولها المرتابين إلى ما يتعدى مقاصدهم، وما يحرفونها عن مقصودها، وأن يتخيروا جميل الألفاظ التي لا يؤذى جرسها الأسماع.

ب. الأمر الثاني:أنه يجب الأخذ بسد ذرائع فساد الفهم، وما يؤدى إلى الغمز في القول، وإخراج الكلام عن معناه، وتعدى مقصده.

٤. بعض المشتغلين بالفقه قال: (إنها دليل على الأخذ بمبدإ سد الذرائع الذي يقوم على أن الذرائع أو الوسائل تأخذ حكم ما تؤدي إليه، فما يؤدى إلى المطلوب يكون مطلوبا، وما يؤدى إلى الممنوع يكون ممنوعا)، وإن لذلك وجها من القول، فإن نهى الله تعالى عن أن يقولوا ﴿رَاعِنَا﴾ سد لفساد اليهود الذين يغمزون في القول، ويتهكمون بهذا على المؤمنين، وعلى مقام النبوة السامي الجليل.

٥. ذيّل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والمراد من الكافرين اليهود الذين لووا ألسنتهم غمزا واستهزاء، وقد أظهر في موضع الإضمار لتسجيل الكفر عليهم، ولبيان السبب في عذابهم فهم كافرون بما كان منهم، وجحودهم للنبوة المحمدية وإنكارهم للقرآن الكريم ونبذهم له وراءهم ظهريا، والكافر له عذاب أليم، بمعنى مؤلم، وتنكيره للدلالة على أنه عذاب أليم لا يدرون كنهه، ولا حقيقته.

٦. إن المشركين عبدة الأوثان لم ينزل عليهم كتاب بعد إبراهيم عليه السلام، واليهود أهل كتاب فنزل عليهم كتاب سماوي ثم حرفوه من بعده، ونسوا حظّا منه وزادوا عليه أوهاما من عندهم، وكتموا جزءا كبيرا مما بأيديهم.. إن هؤلاء المشركين واليهود جمعهم أمران: أحدهما الكفر، والثاني بغض محمد ﷺ، أو بغض ما جاء به، فإذا فرقهم العلم بكتاب سماوي، فقد جمعهم كفر وبغض لما جاء به محمد ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

٧. يود: هنا معناها يحب، وإن الود يجيء بمعنى محبة الشيء، وبمعنى تمنيه، وهى هنا بمعنى المحبة فقط، وما هو بمعنى التمني قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران]، وهنا تكون بمعنى المحبة، أي ما يحب الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم، ونفي المحبة يومئ إلى الكراهية، أي يكرهون أن ينزل الله تعالى عليكم أي خير من ربكم.

٨. ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لاستغراق النفي ومعناها أي خير من ربكم، وأعظم الخير من الله تعالى هو أن يكون رسولا من رب العالمين، وربكم الذي رباكم وصنعكم على عينه.

٩. قدّم سبحانه وتعالى أهل الكتاب على المشركين؛ لأن الكلام كان في أهل الكتاب؛ ولأنهم أشد جحودا وإعناتا؛ ولأن الجحود منهم وهم أهل كتاب أشد من جحود غيرهم الذين لم يؤتوا كتابا؛ فالجهل قد يكون عذرا أحيانا، وإن لم يكن هنا عذرا، وإن سبب كراهية أن ينزل عليكم خير من ربكم يختلف عند المشركين عنه عند اليهود، فهو عند المشركين كفر للوحدانية، وخوف الرئاسة، والتنافس بين العشائر، وأما عند اليهود، فهو كراهية أن تكون الرسل في ولد إسماعيل، وهم في طبيعتهم الحسد، يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

١٠. موضع الكراهية أن ينزل عليهم أي خير من ربهم، وتنزيل الخير من رب الوجود هو الرسالة:

أ. كان المشركون الذين عاندوا النبيّ ﷺ ينفسون على عشيرته بنى هاشم، ولقد قال عمرو بن هشام أبو الحكم الذي لقبه الإسلام بأبى جهل في سبب كفره: (تنازعنا وبنى عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، حتى تجاثينا على الركب، وصرنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبيّ فأنى يكون ذلك؟ والله لا نؤمن به)

ب. واليهود قد علمنا أنهم كانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

١١. ردّ الله تعالى كراهيتهم، وأنه سبحانه وتعالى يسير في اختيار نبيه على مقتضى حكمته وإرادته فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، والله ذو الجلال والإكرام، والفاعل المختار يختص برحمته من يشاء وهى رحمة الرسالة التي ترحم الناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ورحمة القرآن الذي جاء هدى وشفاء ورحمة للمؤمنين.

١٢. معنى يختص برحمته، أي يختص بحمل رسالته وقرآنه من يشاء، أي من يختاره بحكمته والله أعلم حيث يجعل رسالته، وإن ذلك من فضله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي صاحب الفضل العظيم الذي يلازمه سبحانه وتعالى، فلا يكون منه إلا فضل عظيم يعم الناس أجمعين.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. النداء في سورة البقرة:

أ. أول نداء جاء للناس أجمعين، وأريد به الدعوة الى الإسلام وعبادة الله، هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾

ب. والنداء الثاني كان لبني إسرائيل الطائفة الكبيرة التي تفرعت عنها الطائفة النصرانية، والنداء الثاني تذكيرا برفع النقم عن بني إسرائيل، واغداق النعم عليهم، وهو قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾

ج. والنداء الثالث جاء لأمة محمد عليه السلام في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾، وهي تعلّم المسلمين آداب الشريعة بعد ان أسلموا وآمنوا بالله.

٢. وهذا الترتيب بين النداءات الثلاثة ترتيب طبيعي يستدعيه الواقع والاتساق:

أ. من دعوة الناس أولا كل الناس الى الايمان بالله.

ب. ثم تذكير من آمن قبل البعثة بفضل الله.

ج. ثم تعليم من آمن بعدها آداب الله.

وهذا ضرب من بلاغة القرآن في الابتداء بالمرحلة الأولى، ثم الانتقال الى ما بعدها من غير فاصل.

٣. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ليس غريبا ولا عجيبا ان يكره المشركون واليهود والنصارى، ومعهم المنافقون ـ أن يكرهوا جميعا نزول القرآن على محمد، وأن يخصه الله والذين معه بالفضل والهداية، والصلاح والإصلاح، وإنما العجيب ان لا يكرهوا ذلك.

٤. ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ قال أمير المؤمنين عليه السلام: المراد بالرحمة هنا النبوة.

٥. الحسد بما هو من لواحق طبيعة الإنسان الا من عصم الله، لا يختص بالمشركين، ولا باليهود والنصارى، بل يشمل كثيرا من المسلمين، بل ومن علماء الدين، بل وبعض من يتصدى لمنصب المرجعية

---

(١) التفسير الكاشف: ١/ ١٦٧.

الدينية الأعلى، مع العلم بأن هذا المنصب أقرب المناصب كلها الى منصب المعصوم، وقد قال الله والأنبياء والأئمة والحكماء كثيرا عن الحسد، من ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام: (الحسد أصله عمى القلب، والجحود بفضل الله، وهما جناحان للكفر)، وأبلغ ما رأيت في وصف الحساد قول سيد البلغاء، وإمام الحكماء علي أمير المؤمنين عليه السلام حيث عبر عنهم: (بحسدة الرخاء، ومؤكدي البلاء)، وقال: (بكفيك من الحاسد أن يغتم وقت سرورك)، وقال بعض الحكماء: (ان مثل الحاسد مثل من يصوب حجرا الى مقتل عدوه، فيعود الحجر الى عين الرامي اليمنى فيقتلعها، فيغتاظ، ويرميه ثانية بأشد من الرمية الأولى، فيعود الحجر الى اليسرى ويعميها، فيمتلئ حقدا وحنقا، ويرمي بالحجر الثالث بقوة وحماس، فيرجع الى رأسه فيشجه، وعدوّه في حصن حصين)

٦. محال أن يتوب الحاسد من حسده[١]. لأن الحسد تماما كالجبن والبخل، فكيف يتوب البخيل، والجبان؟، ومن أجل هذا أمر الله نبيه الكريم أن يقول للحساد: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أول مورد في القرآن ورد فيه خطاب المؤمنين بلفظة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهو واقع في القرآن خطابا في نحو من خمسة وثمانين موضعا، والتعبير عن المؤمنين بلفظة الذين آمنوا بنحو الخطاب أو بغير الخطاب مما يختص بهذه الأمة، وأما الأمم السابقة فيعبر عنهم بلفظة القوم كقوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ و﴿قَوْمَ هُودٍ﴾ وقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ الآية) وقوله: ﴿أَصْحابِ مَدْيَنَ} و﴿أَصْحابَ الرَّسِ}، و﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، و﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

٢. فالتعبير بلفظة الذين آمنوا مما يختص التشرف به بهذه الأمة، غير أن التدبر في كلامه تعالى يعطي أن التعبير بلفظة الذين آمنوا يراد به في كلامه تعالى غير ما يراد بلفظة المؤمنين:

أ. كقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ}، بحسب المصداق، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً

---

(١) ولا نرى صحة هذا؛ لأن الله لا يكلف عباده بما لا يطاق.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٤٦.

وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فجعل استغفار الملائكة وحملة العرش أولا للذين آمنوا ثم بدله ثانيا من قوله: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا﴾، والتوبة هي الرجوع، ثم علّق دعاءهم بالذين آمنوا وعطف عليهم آباءهم وذرياتهم ولو كان هؤلاء المحكي عنهم بالذين آمنوا هم أهل الإيمان برسول الله ﷺ، كيف ما كانوا، كان الذين آمنوا شاملا للجميع من الآباء والأبناء والأزواج ولم يبق للعطف والتفرقة محل وكان الجميع في عرض واحد ووقعوا في صف واحد.

ب. ويستفاد هذا المعنى أيضا من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، فلو كان ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان مصداقا للذين آمنوا في كلامه تعالى لم يبق للإلحاق وجه، ولو كان قوله: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ قرينة على إرادة أشخاص خاصة من الذين آمنوا وهم كل جمع من المؤمنين بالنسبة إلى ذريتهم، المؤمنين لم يبق للإلحاق أيضا وجه، ولا لقوله ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وجه صحيح إلا في الطبقة الأخيرة التي لا ذرية بعدهم يتبعونهم بإيمان فهم يلحقون بآبائهم، وهذا وإن كان معنى معقولا إلا أن سياق الآية وهو سياق التشريف يأبى ذلك لعود المعنى على ذلك التقدير إلى مثل معنى قولنا: المؤمنون بعضهم من بعض أو بعضهم يلحق ببعض وهم جميعا في صف واحد من غير شرافة للبعض على البعض ولا للمتقدم على المتأخر فإن الملاك هو الإيمان وهو في الجميع واحد وهذا مخالف لسياق الآية الدال على نوع كرامة وتشريف للسابق بإلحاق ذريته به، فقوله: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾، قرينة على إرادة أشخاص خاصة بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهم السابقون الأولون في الإيمان برسول الله ص من المهاجرين والأنصار في يوم العسرة فكلمة الذين آمنوا كلمة تشريف يراد بها هؤلاء، ويشعر بذلك أيضا قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾، إلى أن قال ﴿وَالَّذِينَ تبوّؤوا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، إلى أن قال ﴿وَالَّذِينَ جاؤوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُوف رَحِيمٌ}، فلو كان مصداق قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، عين مصداق قوله ﴿الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾، كان من وضع الظاهر موضع المضمر من غير وجه ظاهر.

ج. يشعر بما مر أيضا قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِّ وَرِضْوَانًا﴾، إلى أن قال ﴿وَعَدَ اللهُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

٣. فقد تحصل أن الكلمة كلمة تشريف تختص بالسابقين الأولين من المؤمنين، ولا يبعد جريان نظير الكلام في لفظة الذين كفروا فيراد به السابقون في الكفر برسول الله ص من مشركي مكة وأترابهم كما يشعر به أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

٤. سؤال وإشكال: على ما مر يختص الخطاب بالذين آمنوا بعده خاصة من الحاضرين في زمان النبي ﷺ مع أن القوم ذكروا أن هذه خطابات عامة لزمان الحضور وغيره والحاضرين الموجودين في عصر النبي ﷺ وغيرهم وخاصة بناء على تقريب الخطاب بنحو القضية الحقيقية، والجواب: نعم هو خطاب تشريفي يختص بالبعض لكن ذلك لا يوجب اختصاص التكاليف المتضمن لها الخطاب بهم، فإن لسعة التكليف وضيقه أسبابا غير ما يوجب سعة الخطاب وضيقه من الأسباب، كما أن التكاليف المجردة عن الخطاب عامة وسيعة من غير خطاب، فعلى هذا يكون تصدير بعض التكاليف بخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من قبيل تصدير بعض آخر من الخطابات بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ مبنيا على التشريف، والتكليف عام، والمراد وسيع، ومع هذا كله لا يوجب ما ذكرناه من الاختصاص التشريفي عدم إطلاق لفظة الذين آمنوا على غير هؤلاء المختصين بالتشريف أصلا إذا كانت هناك قرينة تدل على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُّ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، وقوله تعالى: حكاية عن نوح: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾

٥. ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾، أي بدلوا قول ﴿رَاعِنَا﴾ من قول ﴿انْظُرْنَا﴾ ولئن لم تفعلوا ذلك كان ذلك منكم كفرا، وللكافرين عذاب أليم، ففيه نهي شديد عن قول راعنا.

٦. هذه كلمة ذكرتها آية أخرى وبينت معناها في الجملة وهي قوله تعالى ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾، ومنه يعلم أن اليهود كانت تريد بقولهم للنبي ص راعنا نحوا من معنى قوله: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، ولذلك ورد النهي عن خطاب رسول الله ﷺ بذلك وحينئذ ينطبق على ما نقل: أن المسلمين كانوا يخاطبون النبي ﷺ بذلك إذا ألقى إليهم كلاما يقولون راعنا يا رسول الله - يريدون أمهلنا وانظرنا حتى نفهم ما تقول

ـ وكانت اللفظة تفيد في لغة اليهود معنى الشتم فاغتنم اليهود ذلك فكانوا يخاطبون النبي ﷺ بذلك يظهرون التأدب معه، وهم يريدون الشتم، ومعناه عندهم اسمع لا أسمعت فنزل. ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾، الآية ونهى الله المؤمنين عن الكلمة وأمرهم أن يقولوا ما في معناه وهو انظرنا فقال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾

٧. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يريد المتمردين من هذا النهي وهذا أحد الموارد التي أطلق فيها الكفر على ترك التكاليف الفرعية.

٨. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، لو كان المراد بأهل الكتاب اليهود خاصة كما هو الظاهر لكون الخطابات السابقة مسوقة لهم فتوصيفهم بأهل الكتاب يفيد الإشارة إلى العلة، وهو أنهم لكونهم أهل كتاب ما يودون نزول الكتاب على المؤمنين لاستلزامه بطلان اختصاصهم بأهلية الكتاب مع أن ذلك ضنة منهم بما لا يملكونه، ومعارضة مع الله سبحانه في سعة رحمته وعظم فضله، ولو كان المراد عموم أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهو تعميم بعد التخصيص لاشتراك الفريقين في بعض الخصائل، وهم على غيظ من الإسلام، وربما يؤيد هذا الوجه بعض الآيات اللاحقة كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾

٩. أخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أنزل الله آية فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ـ إلا وعلي رأسها وأميرها).. والرواية تؤيد ما سننقله من الروايات الواردة في عدة من الآيات أنها في علي أو في أهل البيت نظير ما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿رَاعِنَا﴾ راقبنا، أي لاحظنا ولا تغفل عنا ﴿انْظُرْنَا﴾ إما انتظرنا حتى نفهم ما تقول، أو انظر

---

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٦١.

إلينا نظر الرحمة بحسن الرعاية لنا عند حضورنا لديك.

٢. أمروا بترك كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ إما لأنها تشير إلى الغفلة وتجري مجرى انتبه لنا، وهي قلة أدب، وإما لسد ذريعة اليهود الذين كانوا يقولونها لغرض فاسد، كما يدل عليه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾، وإما للأمرين معاً.

٣. ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما يبلغه رسول الله ﷺ إليكم سماع قبول وطاعة ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ اليهود الذين يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾ [النساء:٤٦] وسائر الكافرين ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، أو هو عذاب النار وعذاب البرزخ وعذاب الدنيا بالمصائب العاجلة، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧] أي فيما بينهم الآن، وبين عذاب يوم القيامة، والأظهر أنه العذاب الذي سيعذبون به كله.

٤. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين ليس لهم كتاب، فوصفهم المعرف لهم أنهم المشركون حيث لا ملة لهم يعرفون بها غير الشرك ولا كتاب يختصون به وينتمون إليه، فوصفهم المعرف لهم المشركون، ولا ينافي هذا أن أهل الكتاب الكافرين أو أكثرهم مشركون؛ لأنه تعالى قد بيّن شركهم في سورة التوبة، وإنما المقصود أن يعم الفريقين بوضوح.

٥. ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بل هم كارهون لذلك؛ لأنهم يحسدونكم، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ولا يصرفها كراهة كاره؛ لأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فهو يؤتي فضله من يشاء، ولذلك أورث القرآن الذين اصطفى من عباده وصيّر فيهم النبوءة والكتاب بعدما كانت في بني إسرائيل وجعل محمداً رسولاً وأنزل عليه الكتاب.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لقد كانت هذه الآية ـ فيما يقول المفسرون في أسباب النزول ـ من أجل توجيه المسلمين إلى

---

(١) من وحي القرآن: ٢/ ١٤٩.

استبدال الكلمات التي يمكن أن تعبر عن معنى سيئ في لغة أخرى، مما يمكن أن يستغلّه أعداء الإسلام في الانتقاص من الإسلام والمسلمين، من دون أن يكون لنا حجة عليهم في ذلك، لأنهم يحاولون الإيحاء بأنهم يريدون بها المعنى الظاهر الذي يقصده منها سائر الناس، وهذا ما حدث في عهد الرسالة الأوّل في المدينة في كلمة: ﴿رَاعِنَا﴾ التي كان المسلمون يخاطبون بها النبي طالبين منه أن يصغي إليهم بسمعه، فقد ورد في اللغة: (أرعيته سمعي) إذا أصغيت إليه، ولكن لها معنى آخر عند اليهود يوحي بالسب والانتقاص، فقد ورد أن معنى ﴿رَاعِنَا﴾ لديهم من الرعونة يريدون بها الوقيعة والنقيصة، وقد جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أن (هذه الكلمة سبّ بالعبرانية، إليه كانوا يذهبون)، فلما عوتبوا قالوا: نقول كما يقول المسلمون، فأراد الله للمسلمين أن لا يتركوا لليهود مجالا للتنفيس عن حقدهم بهذه الطريقة ولا يدعو لهم بابا للاستهزاء، فعلّمهم أن يقولوا: (انظرنا) أي انظر إلينا أو أقبل علينا، أو ما شاكل ذلك من معان.

٢. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ممن التزموا الإيمان في أقوالهم وأفعالهم، ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ وأمثالها من الكلمات التي قد توحي بمعنى مختلف عن المعنى المقصود، فيوحي بالإساءة من حيث يريد المتكلم الإحسان، فإن كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ التي تطلقونها في حديثكم مع النبي محمد ﷺ لتقصدوا منها معناها الظاهر عندكم في اللغة العربية، أي راعنا سمعك، بمعنى أعطنا سمعك واسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه، أو انظر في مصالحنا وتدبير أمورنا، فإنّ اليهود يقصدون بها السبّ لأنهم يستقونها من الرعونة وهي الجهل والحمق، بحسب مدلولها في لغتهم ـ كما يقال ـ ولكن ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أي انظر إلينا أو انتظرنا وتأنّ علينا، ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أيها المؤمنون كلام الله بتأمل وتدبر وتفكير، لتفهموا مقاصده، ولتعرفوا إيحاءاته، فذلك ما يثبت إيمانكم وينطلق بكم في خط الاستقامة، أمّا الكافرون الذين لا يسمعون كلام الله، وإذا سمعوه أعرضوا عن الانفتاح عليه أو حرّفوه عن مواضعه، فإنهم يسقطون في عذاب الله، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جزاء لهم على جحودهم وإنكارهم بعد قيام الحجّة عليهم.

٣. هذه قاعدة إسلامية توحي للمسلمين في كل زمان ومكان بالتدقيق في مداليل الكلمات والمصطلحات التي يستعملونها، ودراسة الآفاق التي يمكن أن تثيرها فيما لها من مفاهيم ضيّقة أو واسعة لدى الناس، مما قد يلتقي بالمعنى الإسلامي الأصيل، ومما قد لا يلتقي به، لئلّا يساء استغلالها من قبل الآخرين في مقاصد شرّيرة ضالّة أو كافرة يراد بها تمييع المفاهيم الإسلامية وإرباكها، كما نلاحظ في بعض

الكلمات التي أخذت في حياة الناس أبعادا معينة لا تنسجم مع التفكير الإسلامي:

أ. كما في كلمة (الحرية) التي أصبحت تحمل من المعاني الكثير الكثير مما قد لا يتوافق مع الحدود التي يقف التشريع الإسلامي عندها في أوضاع الإنسان وأفعاله وعلاقاته وأقواله.. فقد أخذت هذه الكلمة بعضا من أفكار الاتجاه الرأسمالي الذي يعطي الفرد مساحة واسعة في تصرفاته بعيدا عن كل مضمون أخلاقي أو إنساني، فأصبح من ملامحها البارزة أن يسمح الإنسان الفرد لنفسه بأن يفعل ما يشاء في علاقاته الجنسية، أو الاقتصادية، أو السياسية.. بشرط أن لا يعتدي على حرية غيره، بل ربما امتد ذلك إلى حرية الانتحار مما لا يوافق عليه الإسلام.

ب. وهكذا القول في كلمة الديمقراطية التي يستعملها بعض المسلمين في الأسلوب الذي يضادّ الاستبداد والفردية والتسلط في الحكم والتشريع والعلاقات العامة، ويتناسب مع الطريقة السمحة المتواضعة في صفات الناس، فيقال: إن الإسلام ديمقراطي، للتدليل على ما فيه من معاني الشورى والتسامح، ويقال إن فلانا ديمقراطي في أخلاقه بمعنى أنه متواضع؛ ولكن الكلمة تحمل في داخلها معنى يختلف عن ذلك كله في حدوده الفكرية والتشريعية والاقتصادية، مما يوجب اختلالا في المفهوم الأساسي، الأمر الذي قد يتجه بالتفكير إلى غير ما نريد، فيخلق في حياتنا ذهنية غريبة لا ترتضي التشريعات أو الأفكار التي لا تنسجم مع الاتجاه الديمقراطي للحكم والتشريع فيما تعنيه كلمة الديمقراطية.. ولهذا، فإننا نتحفظ على مثل هذا التعبير، ولا نرى صلاحا في استعماله في حديثنا عن الإسلام وعن المسلمين.

ج. ويمكن لنا أن نضيف إلى هاتين الكلمتين كلمة (الاشتراكية)، التي شاع استعمالها في أحاديثنا عن الإسلام في مفهومه لحل مشكلة الفقر وفي تشريعاته المالية، فقد رأينا البعض يعطي الإسلام صفة الدين الاشتراكي كطريقة من طرق إعطاء الإسلام طابعا إنسانيا عادلا، ولكن هذه الكلمة تحمل في داخلها معنى آخر يختلف مع الإسلام في حدوده التشريعية والعملية، لأنه يلتقي باعتبار الدولة صاحبة الحق الشرعي في ملكية وسائل الإنتاج وتحديد الملكية في مصادرها ومواردها وغير ذلك مما قد لا يتفق الإسلام معه في أكثر مجالاته.

٤. إن القضية التي نستوحيها من الآية، هي أنّ علينا أن لا نفسح في المجال لاستغلال الكلمة في غير مدلولها الذي نؤمن به، حتى لو كان المدلول المضاد مرتبطا بها من خلال لغة أخرى أو عرف آخر، أو

أجواء معينة تضفي عليها طابعا خاصا، كما في كلمة السلام أو (أنصار السلام)، التي حملت جوّا حزبيا يوحي بالانتماء إلى بعض المبادئ على أساس اعتبارها مصطلحا جذابا للكسب والاستغلال الحزبي، وإن لم يكن للكلمة هذا المعنى بحسب طبيعتها ومعناها اللغوي.

٥. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ في هذه الآية يريد الله أن ينفذ بالمسلمين إلى أعماق الكفّار من أهل الكتاب والمشركين، ليعرّفهم أن القضية قد تحوّلت في وعي هؤلاء إلى عقدة ذاتية مستعصية يختلط فيها البغي والحسد، فلم تعد القضية لديهم قضية الإيمان والكفر كشيء يتصل بالحقيقة في العقيدة والحياة، بل عادت مجرّد حالة نفسية معقدة ضد المسلمين كجماعة تواجه جماعة من مواقع السلطة والغلبة، فلا يريدون لهم أن ينزّل عليهم خير من الله، ولا سيما النبوّة التي ورد في بعض الروايات تفسير الخير بها، ولكننا نعتبر ذلك من التفسير التطبيقي الذي يراد به الإيحاء بأفضل المصاديق أو أبرزها في الدلالة على المعنى، فإن من البديهي هنا اعتبار النبوّة من أبرز مجالات الخير النازل من الله عليهم إن لم يكن أبرزها، لأنها تمثل المركز الأسمى الذي يعتبر فيه الإنسان ـ الرسول صلة الوصل الروحي والرسالي بين الله وبين عباده، كما تتحول الجماعة المؤمنة ـ من خلاله ـ إلى قائدة للمجتمعات الأخرى وشاهدة على الناس. أمّا في مجال الحياة الواسع، فإنها تجمع للإنسان كل خطوات الخير ووسائله وموارده ومصادره مما يحقّق له السعادة في الدنيا والآخرة، وهذا ما لا يريده الكفّار للمسلمين بفعل حقدهم وعداوتهم وحسدهم.

٦. لكنّ الله لا يتّبع أهواءهم فيما يريد وفيما لا يريد، بل هو الحكيم الرحيم الذي يجري الأمور على وفق الحق ويختص برحمته من يشاء، فلا ينسى عباده المؤمنين من فضله، والله ذو الفضل العظيم.

٧. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ والمراد بهم هنا اليهود، على حسب ما ورد في أسباب النزول، ومن خلال الأجواء الإسلامية المتحركة في واقع المسلمين في مرحلة نزول الآية التي كانوا يواجهون فيها الصراع مع المنطق اليهودي الذي كان يعمل على إرباك الدعوة، ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين كانوا يتربصون بالإسلام وبالمسلمين الدوائر ليكيدوا لهم، وليسقطوا مواقعهم، وليدخلوهم في أجواء الاهتزاز والزلزال النفسي الذي يؤدي بهم إلى التراجع عن دينهم، ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، لأن المسألة لم تنطلق لديهم من حسابات فكرية دقيقة، ولا من شبهات معقّدة، ولا من موقع يوحي

بالرفض، بل كانت منطلقة من عقدة مرضية مستعصية، لأنهم اتّخذوا منكم موقف العداء؛ الأمر الذي جعلهم يحسدونكم على ما أنعم الله به عليكم من رسالته التي أنزلها على رسوله ليبلّغها لكم.

٨. ﴿وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، فهو يملك العطاء والمنع وهو يعلم مصالح عباده فيما يعطيهم أو يمنعهم، ويطلع على خصائص أوضاعهم الداخلية والخارجية، فيصطفي من رسله من يشاء وينزل رسالته على من يشاء، تفضلا منه وكرما، في خط الحكمة الإلهية التي يختص بها عباده ﴿وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا ينكر أحد فضله في كل نعمه التي يفيض بها على عباده الصالحين.

٩. إذا كان لنا استيحاء شيء من هذه الآية يتصل بحياتنا العملية في الحاضر والمستقبل، فقد نجد أنّ بإمكاننا الانطلاق إلى الواقع الذي يواجهه المسلمون في كل زمان ومكان في صراعهم مع الفئات الأخرى ممن ينتمون إلى الأديان الأخرى أو إلى المبادئ الكافرة الملحدة، فنلاحظ أنّ علينا النفاذ إلى الأعماق في دراستنا للحالة النفسية التي يعيشونها تجاهنا، ومدى ما تمثله من مواقف عملية في السرّ والعلن، مما يدخل في عداد المخططات التي تعد ضد تقدم المسلمين وتطورهم وامتدادهم في الآفاق الواسعة الصاعدة في الحياة، وبذلك نستطيع الوصول إلى النتائج الملموسة التي توضح لنا كيف يشعر الآخرون بالخطورة من قوّة الإسلام والمسلمين، لما في ذلك من انعكاسات خطيرة على موقعهم الفكري والسياسي وعلى النطاق الحضاري بشكل عام، تماما كما هي الحال في الكفار القدامى من المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا يخافون من قوّة النبي محمد ﷺ وتعاظم الإسلام، على امتيازاتهم الذاتية والطبقية ومواقعهم الفكرية.

١٠. في هذا الجو، نشعر بالحاجة إلى الحذر الإيجابي الواعي إزاء كل الأساليب المتنوّعة المغلّفة بغلافات ناعمة من اللطف والرقة والعاطفة، الملوّنة بألوان من الحضارة والتقدم والتنمية والتطوير.. وما إلى ذلك من الأساليب التي يريد الآخرون من المستعمرين والكافرين، بشكل عام، أن ينفذوا منها إلى حياة الأمة، ليدمروا قيمها الروحية من الداخل، وليسيطروا على مقدّراتها المادية والمعنوية كسبيل من سبل إضعاف كل طاقاتها الحضارية التي تتحرك من أجل صنع حضارة إسلامية جديدة في المستقبل، كما صنعت حضارة الإنسان في الماضي البعيد.

١١. من النقاط المهمة التي ينبغي التركيز عليها في هذا المجال، هي أن الحذر لا يعني السلبية التي تبعدنا عن الارتباط بالعالم من حولنا، بل يعني اليقظة والوعي والمراقبة لكل الأساليب والأوضاع

والتحركات المحيطة بنا، بعين يقظة نفّاذة ناقدة، وبروح واعية لا تعيش بساطة الفكر وسذاجته في عالم لا يتعامل مع الحياة إلا من خلال التعقيد، ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نعيش عفويّة الروح وبساطتها في جوّ يحقق للإنسان معنى إنسانيته في رحاب الله.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. روي عن ابن عباس أنه قال إن الصحابة كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ لدى تلاوته الآيات وبيانه الأحكام الإلهية أن يتمهّل في حديثه حتى يستوعبوا ما يقوله، وحتى يعرضوا عليه أسئلتهم، وكانوا يستعملون لذلك عبارة: ﴿رَاعِنَا﴾ أي أمهلنا، واليهود حوّروا معنى هذه الكلمة لتكون من (الرعونة) فتكون راعنا بمعنى اجعلنا رعناء، واتخذوا ذلك وسيلة للسخرية من النّبي والمسلمين، والآية تطلب من المسلمين أن يقولوا (انظرنا) بدلا من (راعنا) لسد الطريق أمام طعن الأعداء.. وقال بعض المفسرين: إنّ عبارة (راعنا) في كلام اليهود سبّة تعني (اسمع ولّما تسمع)، وكانوا يرددون هذه العبارة مستهزئين!.. وقيل إن اليهود كانوا يقولون بدلا من راعنا (راعينا)، ويخاطبون بذلك النّبي ساخرين.

٢. الآية التالية تكشف عن حقيقة ما يكنّه مجموعة من أهل الكتاب والمشركين من حقد وعداء للجماعة المؤمنة: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وسواء ودّ هؤلاء أم لم يودّوا فرحمة الله لها سنّة إلهية ولا تخضع للميول والأهواء: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، الحاقدون لم يطيقوا أن يروا ما شمل الله المسلمين من فضل ونعمة، وما منّ عليهم من رسالة عظيمة، ولكن فضل الله عظيم.

٣. مغزى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أكثر من ثمانين موضعا خاطب الله المسلمين في كتابه الكريم بهذه العبارة، وكل هذه المواضع من القرآن الكريم نزلت في المدينة، ولا وجود لهذه العبارة في الآيات المكية، ولعل ذلك يعود إلى تشكل الجماعة المسلمة في المدينة، وإلى ظهور المجتمع الإسلامي بعد الهجرة، ولذلك خاطب الله الجماعة المؤمنة بعبارة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

---

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٢٥.

٤. هذا الخطاب يتضمن إشارة إلى ميثاق التسليم الذي عقدته الجماعة المسلمة مع ربّها بعد الإيمان به، وهذا الميثاق يفرض على الجماعة الطاعة والانصياع لأوامر ربّ العالمين، والاستجابة لما يأتي بعد هذه العبارة من أحكام.

٥. جدير بالذكر أن كثيرا من المصادر الإسلامية بما في ذلك مصادر أهل السنة، روت عن الرّسول ﷺ قوله: (ما أنزل الله آية فيها يا أيّها الّذين آمنوا إلّا وعليّ رأسها وأميرها)

٤٣. النسخ والشرائع

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٤٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٦ ـ ١٠٨]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة، وننبه إلى أننا أثبتنا رأي كل من يقول بالنسخ بأنواعه، وأدلتها، ولو كنا نخالف ذلك، كما ذكرنا ذلك بتفصيل في سلسلة التنزيل والتأويل.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ ما نبدل من آية[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثم قال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل: ١٠١]، وقال: ﴿يَمْحُو الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩][٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أو نتركها لا نبدلها[٣].

٤. روي أنّه قال: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم[٤].

٥. روي أنّه قال: قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، أو فجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٣٨٩.

(٢) الدرّ المنثور: أبي داوود في ناسخه.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٣٩٣.

(٤) ابن جرير: ٢/ ٣٩٩.

تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى﴾ إلى قوله: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[1].

٦. روي أنّه قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي أمية ورهط من قريش، قالوا: يا محمد، اجعل لنا الصفا ذهبا، ووسع لنا أرض مكة، وفجر الأنهار خلالها تفجيرا؛ نؤمن بك، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

٧. روي أنّه قال: ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن ثنتي عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠]، يعني: هذا وأشباهه[3].

٨. روي أنّه قال: أنه قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[4].

٩. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، قال: ما نثبت خطها، ونبدل حكمها[5].

١٠. روي أنّه قال: كنا نقرأ: (لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم، وإن كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم)[6].

زيد بن أرقم:

روي عن زيد بن أرقم (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: (لو كان لابن آدم واديان من ذهب وفضة لابتغى الثالث، ولا يملأ بطن ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)[7].

ابن عمر:

روي عن ابن عمر (ت ٧٤ هـ) أنّه قال: قال: قرأ رجلان من الأنصار سورة أقرأها رسول الله ﷺ،

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٤٠٩.

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول: ص٣٤.

(٣) البزار: ٢/ ١٩٢.

(٤) ابن عدي في الكامل: ٧/ ٤٧٧.

(٥) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٥٤.

(٦) الدرّ المنثور: ابن الضريس.

(٧) أحمد: ٣٢/ ٣١.

وكانا يقرآن بها، فقاما يقرآن ذات ليلة يصليان، فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ، فقال: (إنها مما نسخ أو نسي، فالهوا عنها)، فكان الزهري يقرؤها: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ بضم النون خفيفة[1].

المسيب:

روي عن سعيد بن المسيب (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: وعطاء: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، هو ما قد نزل من القرآن[2].

٢. أروي أنه قال: أو ننسأها)، أي: نؤخرها ونتركها في اللوح المحفوظ، ولا تنزل[3].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: يقولون: (ما ننسخ من آية أو ننساها)، كان الله أنزل أمورا من القرآن، ثم رفعها، فقال: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[4].

٢. روي أنّه قال: قال رجل: يا رسول الله، لو كانت كفاراتنا ككفارات بني إسرائيل؟ فقال رسول الله ﷺ: (ما أعطاكم الله خير، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزيا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيا في الآخرة؟، وقد أعطاكم الله خيرا من ذلك، قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَه﴾) الآية [النساء: ١١٠]، قال: وقال: (والصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن)، وقال: (من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له عشرة أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك)، فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُم﴾ الآية[5].

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير: ١٢/ ٢٨٨.

(٢) تفسير البغوي: ١/ ١٣٤.

(٣) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٥٦.

(٤) الدرّ المنثور: أبي داوود: وابن جرير.

(٥) ابن جرير: ٢/ ٤٠٩.

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخ﴾ ما ننسك[١].

٢. روي أنّه قال: في قراءة ابن مسعود: (ما ننسك من آية أو ننسخها)[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، قال: الناسخ والمنسوخ[٣].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، أي: نمحو من آية[٤].

٢. روي أنّه قال: سألت قريش محمدا ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا، فقال: (نعم، وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم)، فأبوا ورجعوا، فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أن يريهم الله جهرة[٥].

٣. روي أنّه قال: في قراءة أبي: (ما ننسخ من آية أو ننسك)[٦].

٤. أروي أنه قال: أو ننسأها): نرجئها ونؤخرها[٧].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾، قال: إن نبيكم ﷺ أقرئ قرآنا، ثم أنسيه فلم يكن شيئا، ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرؤونه[٨].

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ١٩٩.

(٢) الدرّ المنثور: عبد بن حميد: وابن المنذر.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٣٩٤.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ١٩٩.

(٥) ابن جرير: ٢/ ٤١٠.

(٦) الدرّ المنثور: أبي داوود في ناسخه.

(٧) ابن جرير: ٢/ ٣٩٥.

(٨) ابن جرير: ٢/ ٣٩٥.

عطاء:

روي عن عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، قال: أما ما نسخ فما ترك من القرآن[١].

قتادة:

روي عن قتادة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ ما كان سئل موسى أن قيل له: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣][٣].

٣. روي أنّه قال: كانت الآية تنسخ الآية، وكان نبي الله يقرأ الآية والسورة وما شاء الله من السورة، ثم ترفع، فينسيها الله نبيه، فقال الله يقص على نبيه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾[٤].

٤. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، قال: كان الله تعالى ينسي نبيه ما شاء، وينسخ ما شاء[٥].

الزهري:

روي عن ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) أنّه قال:أنه كان يقرؤها: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ بضم النون خفيفة[٦].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ١٩٩.

(٢) تفسير عبد الرزاق: ١/ ٥٥.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٤٠٩.

(٤) ابن جرير: ٢/ ٣٩١.

(٥) عبد الرزاق: ١/ ٥٥.

(٦) الطبراني: ١٣١٤١.

١. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أما نسخها فقبضها[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ نتركها لا ننسخها[2].

٣. روي أنّه قال: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ نأت بخير من التي نسخناها، ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ أو مثل التي تركناها[3].

٤. روي أنّه قال: سألت العرب محمدا ﷺ أن يأتيهم بالله فيروه جهرة، فنزلت هذه الآية[4].

٥. روي أنّه قال: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ عدل عن السبيل[5].

ابن أسلم:

روي عن زيد بن أسلم (ت ١٣٦ هـ) أنّه قال: أنه قال: قال الله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، وقال الله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً﴾ ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١]، وقال: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فقال زيد: فأول ما نسخ من القرآن نسخت القبلة، كان محمد رسول الله ﷺ يستقبل صخرة بيت المقدس ـ وهي قبلة اليهود ـ سبعة عشر شهرا؛ ليؤمنوا به ويتبعوه وينصروه من الأميين من العرب، فقال الله: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، ثم قال: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤][6].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ ﴿نُنْسِهَا﴾ نرفعها، وكان الله تعالى أنزل أمورا من

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٣٨٩.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٣٩٤.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٤٠٠.

(٤) ابن جرير: ٢/ ٤٠٩.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٤.

(٦) عبد الله بن وهب في الجامع ـ تفسير القرآن: ٣/ ٦٤.

القرآن، ثم رفعها[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، قال: ﴿نُنْسِهَا﴾ نرفعها، وكان الله تبارك وتعالى أنزل أمورا من القرآن، ثم رفعها[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾، يعني: نبدل من آية فنحولها، فيها تقديم[3].

٢. روي أنّه قال: يقول: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ نأت من الوحي مكانها أفضل منها لكم وأنفع لكم، ثم قال: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ أو نأت بمثل ما نسخنا، ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ يقول: أو نتركها كما هي، فلا ننسخها[4].

٣. روي أنّه قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحكم فيهما ما يشاء، ويأمر بأمر ثم يأمر بغيره، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني: قريب ينفعكم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني: ولا مانع يمنعكم من الله لقولهم: إن القرآن ليس من الله، وإنما تقوله محمد ﷺ من تلقاء نفسه! نظيرها في براءة قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ الله عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وقال تعالى في النحل: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَالله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنك لن تقول إلا ما قيل لك[5].

٤. روي أنّه قال: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾، يعني: يقول: تريدون أن تسألوا محمدا أن يريكم ربكم جهرة كما سئل موسى من قبل محمد، يعني: كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣][6].

٥. روي أنّه قال: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، يعني: قد أخطأ قصد طريق الهدى، كقوله سبحانه

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٣٩٣.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٣٩٣.

(٣) تفسير مقاتل: ١/ ١٢٩.

(٤) تفسير مقاتل: ١/ ١٢٩.

(٥) تفسير مقاتل: ١/ ١٢٩.

(٦) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٠.

في القصص: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، يعني: قصد الطريق[1].

٦. روي أنّه قال: أنّه قال: (: وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: إنما تقولت أنت يا محمد هذا القرآن من تلقاء نفسك؛ قلت كذا وكذا، ثم غيرت فقلت كذا وكذا، فأنزل الله تعالى يعظم نفسه ـ تبارك اسمه ـ[2].

ابن إسحاق:

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) أنّه قال: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك[3].

عيينة:

روي عن سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) أنّه قال: يقول: كنت أقرأ هذه الآية فلا أعرفها: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾، أقول: هذا قرآن وهذا قرآن، فكيف يكون خيرا منها!؟ حتى فسر لي، فكان بينا: نأت بخير منها لكم، أيسر عليكم، أخف عليكم، أهون عليكم[4].

الرضا:

روي عن الإمام الرضا (ت ٢٠٣ هـ) أنّه قال: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ بل تريدون، يا كفار قريش واليهود ﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ ما تقترحونه من الآيات التي لا تعلمون هل فيها صلاحكم أو فسادكم ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ واقترح عليه، لما قيل له: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ بعد جواب الرسول له: أن ما سأله لا يصلح اقتراحه على الله، أو بعد ما يظهر الله تعالى له ما اقترح، إن كان صوابا، ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ بأن لا يؤمن عند مشاهدة ما يقترح من الآيات، أو لا يؤمن إذا عرف أنه ليس له أن يقترح، وأنه يجب أن يكتفي بما قد أقامه الله تعالى من الدلالات، وأوضحه من الآيات البينات، فيتبدل الكفر بالإيمان بأن يعاند ولا يلتزم الحجة القائمة

---

(١) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٠.

(٢) تفسير مقاتل: ١/ ١٢٩.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٢.

(٤) المروزي في كتاب السنة: ص١٨٦.

عليه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأ قصد الطريق المؤدية إلى الجنان، وأخذ في الطريق المؤدية إلى النيران[1].

الهادي إلى الحق:

سئل الإمام الهادي إلى الحق (ت ٢٩٨ هـ) عن قول الله سبحانه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، فقال: معنى قوله ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ هو: في التخفيف والرحمة والحكم، فأما على معنى الابطال لها، فلا يجوز لأحد أن يقول ذلك، ولو أن أحداً أنكر من القرآن آية، لوجب عليه أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل[2].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾:

أ. قال بعض أهل الكلام: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾: ندعها في اللوح.

ب. وقيل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي نرفع بآية أخرى أو نتركها في الأخرى.

ج. وقيل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ فنرفع حكمها، والعمل بها، ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي نترك قراءتها وتلاوتها.

٢. يجوز رفع عينها، ويجوز رفع حكمها وإبقاء عينها؛ لأوجه:

أ. أحدها: ظهور المنسوخ؛ فبطل قول من أنكر النسخ؛ إذ وجد، ومن أنكر ذلك فإنما أنكر لجهل بالمنسوخ؛ لأن النسخ بيان الحكم إلى وقت، ليس على البداء، على ما قالت اليهود.

ب. الثاني: أن للتلاوة فيها فضلا ـ كما للعمل ـ فيجوز رفع فضل العمل، وبقاء فضل التلاوة.

ج. الثالث: على جعل الأول في حالة الاضطرار، والثاني في وقت السعة، كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]

٣. ثم يجوز أن يرفع عينها فينسى ذكرها، كما روى عن عمر أنه قال: (كنا نعدل سورة الأحزاب

---

(١) التفسير المنسوب للإمام العسكري، ص٤٩٦/ ٣١٣.

(٢) تفسير الإمام الهادي: ١/ ١٤٨.

(٣) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٣٢.

بسورة البقرة، حتى رفع منها آيات، منها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾:

أ. قيل: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أي أخفّ وأهون على الأبدان؛ كقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ [البقرة: ١٨٤]، إن الأمر بالصوم كان لوقت دون وقت؛ إذ رجع الحكم عند الطاقة إلى غيره، وكذا ما كان من الحكم في تحريم الأكل عند النوم والجماع، وكذا تحريم الميتة: لو لم يرد فيهما الإباحة والحل عند الضرورة لكنّا نعرفه بالحرمة، وذلك أخف وأهون.

ب. وقيل: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ في الثواب في العاقبة.

ج. وقيل: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ في المنفعة ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ في المنفعة.

د. وقيل: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ وهو أن يظهر لكم به الخير في حق الاتباع، والمثل: في حق الأمر؛ فيشترك أصحاب المنكرين للنسخ في حق الائتمار بالمثل، ويفضلونهم بظهور الأخير، وهو كالصلاة إلى بيت المقدس؛ كان لهم مثل ما لليهود في حق الائتمار ما كان ظهر لهم الأخير في وقت ظهور الأمر، وأبهم الخير، وظهر عنده فيمن أبى: أن اتباعه لم يكن لأجل حق المتابعة، بل لما كان عنده الحجة، ومن جعله خيرا على البدل فاستدل بها الآخر رخصة وإباحة، والإباحة ورودها للتخفيف، ومن استدلّ على أن النسخ ـ أبدا ـ يرد على ما هو أغلظ، عورض بقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ١٥]، فأبدل بعقوبة أشد من الأول ـ وهو الرجم ـ بقوله: (خذوا عنى. خذوا عنى)

هـ. ويحتمل قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ وجها آخر: وهو آية والآيات هي الحجج؛ فيكون معناه: ما نرفع من حجة فننفيها عن الأبصار، إلا نأت بخير منها يعنى أقوى منها في إلزام الحجة، أو مثلها.. ولا شك أن ما يعترض هو أقوى حالة الاعتراض في لزوم الحجة على ما غاب عن الأبصار؛ فيكون قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ على هذا الوزن، أي نأت بحجة هي أقوى وأكثر من الأولى، أو مثلها في القوة.

النسخ محنة يمتحن بها الخلق، ولله أن يمتحن خلقه بما يشاء، في أي وقت شاء: يأمر بأمر في وقت، ثم ينهى عن ذلك، ويأمر بآخر، وليس في ذلك خروج عن الحكمة، ولا كان ذلك منه لبداء يبدو له، بل لم يزل عالما بما كان ويكون، حكيما يحكم بالحق والعدل؛ فنعوذ بالله من السرف في القول.

٥. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يحتمل:

أ. أن يكون الخطاب له ﷺ، والمراد بالخطاب الذين سبق ذكرهم في قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [البقرة: ١٠٥] أي إنه قادر على إنزال الخير على من يشاء، واختصاص بعض على بعض، وتفضيل بعضهم على بعض.

ب. أن يكون المراد في الخطاب له ﷺ على حقيقة العلم على التذكير والتنبيه، أي تعلم أنت أن الله على كل شيء قدير، وهو كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [محمد: ١٩]. على حقيقة العلم له.

ج. على الإعلام والإخبار لقومه، وعلى ذلك يخرج قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي من كان يملك ملك السموات وملك الأرض، يملك تخصيص بعض على بعض، وتفضيلهم فيها، ويحكم فيها بما يشاء، ويحدث من الأمر ما أراد.

د. نزوله على أثر نوازل لم تذكر فيه، وذلك في القرآن كثير، وإنما يقال هذا الحرف عند ضيق القلب؛ تسكينا له.

معنى تخصيص السّماوات والأرض بالملك له؛ لمنتهى علم الخلق بهما، وإن كان له ملك الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدل على أنه خرج على أثر نوازل وإن لم تذكر.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾:

أ. قيل: سؤال تعنت: لن نؤمن لك ـ تعنتا ـ حتى نرى الله جهرة.

ب. وقيل: إنهم سألوا ذلك رسول الله ﷺ كما سأل قوم موسى موسى.

ج. وقيل: سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل الصفا ـ لهم ـ ذهبا إن كان ما يقوله حقّا.

د. وقيل: سؤالهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وكانوا يسألون سؤال تعنت، لا سؤال استرشاد واهتداء.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾:

أ. قيل: اختار الكفر بالإيمان.

ب. وقيل: ومن يختر شدة الآخرة على رخائها وسعتها.

وفي حرف ابن مسعود: (ومن يشتر الكفر بالإيمان) وذلك كله واحد.

٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾:

أ. قيل: عدل عن الطريق.

ب. وقيل: عدل عن قصد الطريق.

ج. وقيل: أخطأ قصد طريق الهدى، وكله واحد.

العياني:

قال الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ): معنى قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ هو ما نبدل من آية أو نتركها على حالها، ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ معنى خير منها أي أخف على العباد من الآية المنسوخة[١].

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. في معنى نسخها في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: أنه قبضها، وهو قول السدي.

ب. الثاني: أنه تبديلها، وهو قول ابن عباس.

ج. الثالث: أنه إثبات خطها وتبديل حكمها، وهو قول ابن مسعود.

٢. في تأويل قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أربعة أوجه:

أ. أحدها: أنه بمعنى (أو نمسكها)، وقد ذكر أنها كانت في مصحف عبد الله ابن مسعود: ما نمسك من آية أو ننسخها نجيء بخير منها أو مثلها وذلك أن النبي ﷺ، كان يقرأ الآية، ثم ينسى وترفع، وكان سعد بن أبي وقاص يقرأ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ تُنْسِهَا﴾، بمعنى الخطاب لرسول الله ﷺ، فيكون تقديره أو تنسى أنت يا محمد، وقال القاسم بن ربيعة لسعد بن أبي وقاص: فإن سعيد بن المسيب يقرأ: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾، فقال سعد: إن القرآن لم ينزل على ابن المسيب، ولا على آل المسيب قال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٧.

(٢) تفسير الماوردي: ١/ ١٧١.

[الأعلى: ٦] ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وهذا معنى قول مجاهد وقتادة.

ب. الثاني: أن ذلك بمعنى الترك، من قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، أي تركوه فتركهم، فيكون تقدير الكلام: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ يعني نرفعها ونبدّلها، ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي نتركها ولا نبدلها ولا ننسخها، وهذا قول ابن عباس والسدي.

ج. الثالث: أن قوله ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ قال الناسخ والمنسوخ، وهذا قول الضحاك.

د. الرابع: أن معنى ننسها أي نمحها، وهذا قول ابن زيد.

٣. من قرأ: (أو ننسأها) فمعناه نؤخرها، من قولهم نسأت هذا الأمر، إذا أخرته، ومن ذلك قولهم: بعت بنساء أي بتأخير، وهذا قول عطاء وابن أبي نجيح.

٤. في قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أي خير لكم في المنفعة، وأرفق بكم، وهذا قول ابن عباس.

ب. الثاني: أن معنى خير منها، أي أخف منها، بالترخيص فيها، وهذا معنى قول قتادة. فيكون تأويل الآية، ما نغير من حكم آية فنبدله، أو نتركه فلا نبدله، نأت بخير لكم أيها المؤمنون حكما منها، إما بالتخفيف في العاجل، كالذي كان من نسخ قيام الليل تخفيفا، وإما بالنفع بكثرة الثواب في الآجل، كالذي كان من نسخ صيام أيام معدودات بشهر رمضان.

٥. قوله تعالى: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ يعني مثل حكمها، في الخفة والثقل والثواب والأجر، كالذي كان من نسخ استقبال بيت المقدس، باستقبال الكعبة، وذلك مثله في المشقة والثواب ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

٦. سؤال وإشكال: أو كان النبي ﷺ غير عالم بأن الله على كل شيء قدير، وأن الله له ملك السموات والأرض حتى ينزل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ والجواب: لهذا السؤال ثلاثة أجوبة:

أ. أحدها: أن قوله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ بمعنى أعلمت.

ب. الثاني: أنه خارج مخرج التقرير، لا مخرج الاستفهام، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] خرج مخرج التقرير لا مخرج

الاستفهام.

ج. الثالث: أن هذا الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته، ألا تراه قال بعد ذلك: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. النسخ والبدل والخلف نظائر. يقال: نسخ نسخاً، وانتسخ انتساخاً، واستنسخ استنساخاً، وتناسخوا تناسخاً، وناسخ مناسخة. قال ابن دريد: كل شيء خلف شيئاً، فقد انتسخه، ونسخت الشمس الظل، وانتسخ الشيب الشباب.. وقال صاحب العين: النسخ ان تزيل امراً كان من قبل يعمل به، ثم تنسخه بحادث غيره. كالآية نزل فيها امر، ثم يخفف الله عن العباد بنسخها بآية أخرى، فالآية الاولى منسوخة، والثانية ناسخة، وتناسخ الورثة أن تموت ورثة بعد ورثة واصل الميراث قائم لم يقسم، وكذلك تناسخ الازمنة من القرون الماضية، وأصل الباب: الابدال من الشيء غيره.

٢. قال الرماني: النسخ الرفع، لشيء قد كان يلزمه العمل به الى بدل، وذلك كنسخ الشمس بالظل، لأنه يصير بدلا منها ـ في مكانها ـ وهذا ليس بصحيح، لأنه ينتقض بمن تلزمه الصلاة قائما ثم يعجز عن القيام، فإنه يسقط عنه القيام لعجزه، ولا يسمى العجز ناسخاً، ولا القيام منسوخاً، وينتقض بمن يستبيح بحكم العقل عند من قال بالإباحة، فإذا ورد الشرع بحظره، لا يقال الشرع نسخ حكم العقل، ولا حكم العقل يوصف بانه منسوخ، فإذاً الاولى في ذلك هو ان حقيقة كل دليل شرعي دلّ على ان مثل الحكم الثابت بالنص الاول غير ثابت فيما بعد على وجه لولاه لكان ثابتاً بالنص الاول مع تراخيه عنه.

٣. النسخ في الشرع على ثلاثة اقسام:

أ. نسخ الحكم دون اللفظ: كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الى قوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، فكان الفرض الاول وجوب ثبات الواحد للعشرة، فنسخ بثبوت الواحد للاثنين، وغير

---

(١) تفسير الطوسي: ١/ ٣٩٣.

ذلك من الاي المنسوخ، حكمها، وتلاوتها ثابتة، كآية العدة، وآية حبس من يأتي بالفاحشة، وغير ذلك.

ب. نسخ اللفظ دون الحكم: كآية الرجم. قيل انها كانت منزلة فرفع لفظها وبقي حكمها.

ج. نسخهما معاً: وهو مجوّز وان لم يقطع بانه كان، وقد روي عن أبي بكر انه كان يقرأ لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر.

٤. اختلفوا في كيفية النسخ على أربعة أوجه:

أ. قال قوم: يجوز نسخ الحكم والتلاوة من غير افراد واحد منهما عن الآخر.

ب. وقال آخرون: يجوز نسخ الحكم دون التلاوة.

ج. وقال آخرون: يجوز نسخ القرآن من اللوح المحفوظ، كما ينسخ الكتاب من كتاب قبله.

د. وقالت فرقة رابعة: يجوز نسخ التلاوة وحدها، والحكم وحده، ونسخهما معاً ـ وهو الصحيح ـ وقد دلّلنا على ذلك، وأفسدنا سائر الأقسام في العدة في اصول الفقه، وذلك ان سبيل النسخ سبيل سائر ما تعبد الله تعالى به، وشرّعه على حسب ما يعلم من المصلحة فيه فإذا زال الوقت الذي تكون المصلحة مقرونة به، زال بزواله، وذلك مشروط بما في المعلوم من المصلحة به، وهذا القدر كاف في إبطال قول من ابى النسخ ـ جملة ـ.

٥. أنكر قوم جواز نسخ القرآن، وفيما ذكرناه دليل على بطلان قولهم، وقد جاءت اخبار متظافرة بانه كانت أشياء في القرآن نسخت تلاوتها، فمنها ما روي عن أبي موسى: انهم كانوا يقرؤون (لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى اليهما ثالث، لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)، ثم رفع، وروي عن قتادة قال حدثنا انس بن مالك أن السبعين من الأنصار الذين قتلوا ببئر معونة: قرأنا فيهم كتابا (بلغوا عنّا قومنا أنا لقينا ربنا، فرضي عنا وارضانا)، ثم ان ذلك رفع، ومنها (الشيخ والشيخة) وهي مشهورة، ومنها ما روي عن أبي بكر انه قال: كنا نقرأ: (لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر)، ومنها ما حكي: ان سورة الأحزاب كانت تعادل سورة البقرة ـ في الطول ـ وغير ذلك من الاخبار المشهورة بين اهل النقل، والخبر على ضربين:

أ. أحدهما: يتضمن معنى الامر بالمعروف ـ فما هذا حكمه ـ يجوز دخول النسخ فيه.

ب. والآخر يتضمن الاخبار عن صفة الامر، لا يجوز تغييره في نفسه، ولا يجوز ان يتغير من حسن

الى قبح أو قبح الى حسن، فإن ذلك لا يجوز دخول النسخ فيه.

٦. الافعال على ثلاثة اقسام:

أ. أحدها: لا يكون إلا حسناً، كإرادة الافعال الواجبة، أو المندوبة التي لا يجوز تغيّرها، كشكر المنعم، ورد الوديعة، والإحسان الخالص وغير ذلك.

ب. ثانيها ـ لا يكون إلا قبيحاً، كإرادة القبيح، وفعل الجهل.

ج. ثالثها ـ يحتمل الحسن والقبح بحسب ما يقع عليه من الوجوه، كسائر الافعال التي تقع على وجه، فتكون حسنة، وعلى آخر فتصير قبيحة.

فالأول، والثاني لا يجوز فيه النسخ، والثالث يجوز فيه النسخ.

٧. من قرأ ﴿نَنْسَخْ﴾ ـ بفتح النون ـ فمن نسخت الكتاب فانا ناسخ، والكتاب منسوخ، ومن قرأ ـ بضم النون، وكسر السين ـ فإنه يحتمل فيه أمرين:

أ. أحدهما: قال ابو عبيدة: ما ننسخك يا محمد. يقال نسخت الكتاب، وانسخه غيري.

ب. والآخر ـ نسخته جعلته ذا نسخ. كما قال قوم للحجاج ـ وقد قتل رجلا ـ: أقبرنا فلاناً أي جعله ذا قبر يقال قبرت زيداً: إذا دفنته واقبره الله: جعله ذا قبر كما قال ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾

٨. قوله: (أو ننسأها) النسء التأخير ونقيضه التقديم، يقال انسأت الإبل عن الحوض أنسأها نسأ: إذا أخرتها عنه، وانتسأت عن الشيء ـ: إذا تباعدت عنه ـ انتسأ ونسأت الإبل في ظمئها فانا أنسؤها نسأ: إذا زدنها في ظمئها يوماً أو يومين، أو اكثر من ذلك، وظمؤها: منعها الماء، ونسأت الماشية تنسأ نسأ: إذا سمنت، وكل سمين ناسئ، تأويلها ان جلودها نسأت اي تأخرت عن عظامها، قاله الزجاج، وقال غيره: انما قيل ذلك لأنها تأخرت في المرعى حتى سمنت، ونسأت المرأة تنسئ نسأ إذا تأخر حيضها عن وقته، ورجي حملها، ويقال: انسأت فلاناً البيع ونسأ الله في اجل فلان، وانسأ الله اجله إذا أخر اجله، والنسيء تأخر الشيء، ودفعه عن وقته، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وهو ما كانت العرب تؤخر من الشهر الحرام في الجاهلية، ونسأت اللبن أنسؤه نسأ إذا أخذت حليباً وصببت عليه الماء، واسم ذلك: النسيء، والنسيء هذا سمي بذلك، لأنه إذا خالطه الماء أخر بعض اجزاء اللبن عن بعض قال الشاعر:

سقوني النسء ثم تكنفوني ... عداة الله من كذب وزور

من قولك: نسأت هذا الامر أنسؤه نساء إذا أخرته وبعته بنسإ أي بتأخير، وهو قول عطا وابن أبي نجيح، ومجاهد، وعطية وعبيد بن عمير، وعلى هذا يحتمل نؤخرها أمرين:

أ. أحدهما فلا ننزلها وننزل بدلا منها ما يقوم مقامها في المصلحة، أو ما يكون أصلح للعباد منها، وهذا ضعيف لأنه لا فائدة في تأخير ما لا يعرفه العباد، ولا علموه ولا سمعوه.

ب. الثاني نؤخرها الى وقت ثان، فنأتي بدلا منها في الوقت المقدم، بما يقوم مقامها، فأما من حمل ذلك، على معنى يرجع الى النسخ، فليس يحسن لأنه يصير تقديرها، ما ننسخ من آية أو ننسخها، وهذا لا يجوز.

٩. قيل في معنى قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ قولان:

أ. أحدهما: قال ابن عباس نأت بخير منها لكم في التسهيل والتيسير، كالأمر بالقتال الذي سهل على المسلمين بدلالة قوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ أو مثلها كالعبادة بالتوجه الى الكعبة بعد ما كان الى بيت المقدس.

ب. الثاني بخير منها في الوقت الثاني، اي هي لكم خير من الاولى في باب المصلحة، أو مثلها في ذلك، وهو قول الحسن وهذا الوجه أقوى، وتقديره كأن الآية الاولى في الوقت الثاني في الدعاء الى الطاعة، والزجر عن المعصية، مثل الآية الاولى في وقتها، فيكون اللطف بالثانية، كاللطف بالأولى إلا انه في الوقت الثاني يسهل بها دون الأولى.

١٠. قال ابو عبيدة معنى (ننساها) يعني أمضيتها ومن قرأ (ننسها) بضم النون، وكسر السين يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: ان يكون مأخوذا من النسيان إلا انه لا يجوز أن يكون ذلك من النبي ﷺ لأنه لا يجوز ذلك من حيث ينفر عنه، ويجوز ذلك على الأمة بان يؤمروا بترك قراءتها، وينسونها على طول الأيام، ويجوز ان ينسيهم الله (تعالى) ذلك وان كانوا جمعا كثيرا، ويكون ذلك معجزا، عن قتادة.

ب. الثاني أن يكون بمعنى الترك من قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، عن ابن عباس وقال معناه: نتركها لا نبدلها، وقال الزجاج: ننسها بمعنى نتركها خطأ، انما يقال: نسيت بمعنى تركت، ولا يقال أنسيت بمعنى تركت وإنما معنى ننساها نتركها، اي ان نأمركم بتركها.. قال الرماني: انما فسر المفسرون على ما

يؤول اليه المعنى لأنه إذا امر بتركها، فقد تركها.

١١. سؤال وإشكال: إذا كان نسخ الآية رفعها، وتركها فما معنى ذلك إلا ان يترك، ولم جمع بينهما؟ والجواب: ليس معنى تركها الا ان يترك، وقد غلط الزجاج في توهمه ذلك، وإنما معناه إقرارها، فلا ترفع، كما قال ابن عباس: بتركها، ولا نبدلها وإنما قال ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تنبيهاً على انه يقدر على آيات وسور مثل القرآن ينسخ بها أمره لنا فيه بما أمرنا، فيقوم في النفع مقام المنسوخ. أو اكثر.. وقال بعضهم: معنى (أو) في الآية الواو، كان قال ما ننسخ من ايه وننساها نات بخير منها، فعلى هذا زالت الشبهة.

١٢. سؤال وإشكال: اي تعلق بين هذه الآية وبين التي قبلها؟ والجواب: لما قال في الآية الاولى ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ دل في هذه الآية على انه جل وعز، لا يخليهم من إنزال خير اليهم، خلاف ما يود اعداؤه لهم.

١٣. سؤال وإشكال: هل يجوز نسخ القرآن بالسنة أم لا؟ والجواب: فيه خلاف بين الفقهاء، ذكرناه في اصول الفقه، وبين أصحابنا ايضا فيه خلاف، إلا ان يقوى في النفس جواز ذلك، وقد ذكرنا ادلة الفريقين، والشبه فيها في اصول الفقه ـ لا يحتمل ذكرها هذا المكان.. وانما أجزنا ذلك، لأن تلاوة القرآن، والعمل بما فيه تابع للمصلحة، ولا يمتنع ان تتغير المصلحة، تارة في التلاوة فتنسخ، وتارة في الحكم فينسخ، وتارة فيهما فينسخان، وكذلك لا يمتنع ان تكون المصلحة في ان تنسخ، تارة بقرآن، وتارة بالسنة المقطوع بها. فذلك موقوف على الأدلة، وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ لا يدل على ان السنة خير من القرآن، لأن المراد بذلك نأت بخير منها في باب المصلحة على ان قوله: (نات بخير منها) فمن اين ان ذلك الخبر يكون ناسخاً. فلا متعلق في الآية يمنع من ذلك، والاولى جوازه، على ان هذا وان كان جائزاً، فعندنا انه لم يقع، لأنه لا شيء من ظواهر القرآن يمكن ان يدعى انه منسوخ بالسنة اجماعاً، ولا بدليل يوجب العلم.

١٤. ما روي عن ابن سعيد ابن المسيب من انه كان يقرأ (أو تنسها) بالتاء المعجمة من فوق، وفتح السين ـ فشاذ، لا نلتفت اليه، لأنا قد بينا ان النبي ﷺ لا يجوز عليه ان ينسى شيئاً من وحي الله، وكذلك ما روي عن أبي رحا العطاردي (ننسها) بضم النون الاولى، وفتح الأخرى، وتشديد السين ـ ذكرها شاذة.

١٥. تدل الآيات الكريمة على:

أ. أن القرآن غير الله، وان الله هو المحدث له، والقادر عليه، لأن ما كان بعضه خيراً من بعض، أو شراً من بعض، فهو غير الله لا محالة.

ب. ان الله قادر عليه، وما كان داخلا تحت القدرة، فهو فعل، والفعل لا يكون إلا محدثاً، ولأنه لو كان قديماً لما صح وجود النسخ فيه، لأنه إذا كان الجميع حاصلا فيما لم يزل، فليس بعضه بان يكون ناسخاً، والاخر منسوخاً بأولى من العكس.

١٦. سؤال وإشكال: لم قال ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ﴾ أو ما كان النبي ﷺ عالماً بان الله على كل شيء قدير؟ والجواب: عنه أجوبة:

أ. ان معنى قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أما علمت؟

ب. انه خرج ذلك مخرج التقرير، كما قال ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾

ج. انه خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، بدلالة قوله بعد ذلك: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

١٧. (الولي) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: هو القيم بالأمر. من وليه الشيء، ومنه ولي عهد المسلمين.

١٨. معنى قوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله، قال امية بن أبي الصلت:

يا نفس مالك دون الله من واقي — وما على حدثان الدهر من باقي

١٩. في قوله تعالى: ﴿ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: التحذير من سخط الله، وعقابه إذ لا احد يمنع منه.

ب. الثاني:التسكين لنفوسهم: ان الله ناصرهم دون غيره، إذ لا يعتد بنصر احد مع نصره.

ج. الثالث: التفريق بين حالهم، وحال عبّاد الأوثان، مدحاً وذماً لأولئك، وبهذا قال ابو علي الجبائي.

٢٠. إنما قال للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وان كان النبي ﷺ عالماً بأن له الملك كله، لأمرين:

أ. أحدهما: التقرير والتنبيه الذي يؤول الى معنى الإيجاب كما قال جرير:

ألستم خير من ركب المطايا   واندى العالمين بطون راح؟

وأنكر الطبري ان يدخل حرف الاستفهام على حرف الجحد بمعنى الإثبات والبيت الذي أنشدناه، يفسد ما قاله، وايضاً قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وغير ذلك يفسد ما قاله.

ب. الثاني:انه خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وقال جميل بن معمر:

ألا ان جيراني العشية رائح   دعتهم دواع من هوى ومنادح

وانما يحسن ذلك، لأن غرضه الخبر عن واحد فلذلك قال رائح وقال أيضاً:

خليلي فيما عشتما هل رأيتما   قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

يريد قاتلته، فكنى بالمذكر عن المؤنث. قال الكميت:

الى السراج المنير احمد لا   يعدلني رغبة ولا رهب

عنه الى غيره ولو رفع الناس   الي العيون وارتقبوا

قالوا: انما خرج كلامه على وجه الخطاب للنبي ﷺ، وأراد به أهل بيته بدلالة قوله: ولو اكثر فيك الضجاج واللجب، لأنه لا أحد يوصف من المسلمين بتعنيف مادح النبي ﷺ ولا بإكثار الضجاج واللجب في إطناب القول فيه.

٢١. إنما قال ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ ولم يقل ملك، لأنه أراد ملك السلطان والملكة دون الملك، يقال من ذلك: ملك فلان على هذا الشيء يملكه مُلكاً ومَلكا ومِلكا، والنصير فعيل من قولك: نصرتك أنصرك فأنا ناصر ونصير، وهو المؤيد والمقوي.

٢٢. اختلف المفسرون في سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾:

أ. فروي عن ابن عباس أنه قال رافع بن خزيمة، ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه، وفجّر لنا أنهاراً، نتبعك ونصدقك، فانزل الله في ذلك من قولهما ﴿أَمْ تُرِيدُونَ

﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾

ب. وقال الحسن عنى بذلك المشركين من العرب لما سألوه فقالوا ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ وقالوا: ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾

ج. وقال السدي: سالت العرب محمداً ﷺ أن يأتيهم بالله فيروه جهرة.

د. وقال مجاهد: سألت قريش محمداً أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فقال نعم هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل. فأبوا ورجعوا.

هـ. وقال ابو علي: روي ان النبي ﷺ سأله قومه ان يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط وهي شجرة كانوا يعبدونها، ويعلقون عليها التمر، وغيره من المأكولات، كما سألوا موسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾

٢٣. معنى ﴿أَم﴾ في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ التوبيخ وإن كان لفظها لفظ الاستفهام كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾

٢٤. (أم) على ضربين: متصلة، ومنفصلة:

أ. فالمتصلة عديلة الالف، وهي مفرقة لما جمعته أي، كما ان أو مفرقة لما جمعته احد تقول: اضرب أيهم شئت أزيدا ام عمراً ام بكرا.

ب. والمنفصلة غير المعادلة لألف الاستفهام قبلها لا يكون الا بعد كلام، لأنها بمعنى بل، والالف كقول العرب: إنها لإبل ام شاة كأنه قال بل شاة هي، ومنه قوله: ﴿الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ كأنه قال بل يقولون: افتراه، وكذلك ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ كأنه قيل: بل تريدون وقال الأخطل.

كذبتك عينك ام رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

٢٥. قال الفراء: إن شئت قلت قبله استفهام فترده عليه، وهو قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال الرماني في هذا بعد أن تكون على المعادلة ولا بد ان يقدر له أم تعلمون خلاف ذلك ﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ والمعنى أنهم يتخيرون الآيات ويسألون المحالات كما سئل موسى، فقالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وقالوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ وهذا الوجه

اختاره البلخي والمغربي وحكي عن بعضهم أن ذلك عطف على قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وقيل ايضاً لما قيل لهم قولوا: ﴿انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ كان تقدير الكلام فهل تعقلون هذا ام تريدون ان تسألوا رسولكم.

٢٦. ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ معناه قصد الطريق ـ على قول الحسن ـ وسواء بالمد تكون على ثلاثة أوجه بمعنى قصد وعدل، وبمعنى وسط كقوله: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وقوله: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ اي وسطها قال حسان:

يا ويح أنصار النبي ونسله   بعد المغيب في سواء الملحد

وتكون بمعنى غير كقولك للرجل أتيت سواك أي غيرك.

٢٧. معنى ضل ها هنا الذهاب عن الاستقامة قال الأخطل:

كنت القذى في موج اكدر مزبد   قذف الآتي به فضل ضلالا

أي ذهبت يمينا وشمالا.

٢٨. السبيل والطريق والمذهب نظائر ويقال: اسبل اسبالا وسبله تسبيلا، والسبيل يذكر ويؤنث، والجمع السبل، والسابلة: المختلفة في الطرقات في حوائجهم، والجمع السوابل، وسبل سابل كقولهم شعر شاعر، والسبلة ما على الشفة العليا من الشعر بجمع الشاربين وما بينهما والسبل المطر المسبل والمسبولة هي سنبلة الذرة والارز ونحوه إذا مالت ويقال للزرع إذا سنبله: سنبلة ويقال أسبلت اسبالا: إذا أرخيته، واسبل الرجل إزاره: إذا أرخاه من الخيلاء قال الشاعر: (واسبل اليوم من برديك اسبالا)، وأصل الباب الاسبال: وهو الحد، والسؤال: هو الطلب ممن يعلم معنى الطلب أمراً من الأمور.

٢٩. وجه اتصال هذه الآية بما قبلها والتعلق بينهما انه لما دل الله بما تقدم من الآيات على تدبير الله لهم فيما يأتي به من الآيات وما ينسخه فكأنه قال: أم لا ترضون بذلك فتخيروا الآيات وتسألوا المحالات ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى﴾ لأن الله تعالى انما يأتي بالآيات على ما يعلم فيها من المصلحة، فإذا اتى بآية تقوم بها الحجة فليس لاحد الاعتراض عليها، ولا له اقتراح غيرها لأنه تعنت إذ قد صح البرهان بها.

٣٠. ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾:

أ. قيل: معناه من يستبدل الكفر يعني الجحود بالله وبآياته بالتصديق بالله وبآياته وبالإقرار به.

ب. وقال بعضهم: عبر بالكفر ها هنا عن الشدة وبالإيمان عن الرخاء وهذا غير معروف في اللغة ولا العرف الا ان يراد بذلك الثواب والعقاب اللذان يستحقان عليهما فيكون له وجه في التنزيل.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. النسخ: نَسْخُكَ كتابا عن كتاب، والنسخ: أن تزيل أمرًا كان يُعمل به، واختلفوا في أصله:

- فقيل: أصله من الإبدال، ومنه سمي النسخ نسخا؛ لأنه بدل عن الأول، عن علي بن عيسى.
- وقيل: أصله من الإزالة، عن أبي هاشم، ومنه نَسَخَتِ الشمس الظل، ونسخت الرياح آثارهم، أي أزالتها.

ب. النَّسْأُ: التأخير، يقال: نَسَأْتُ الإبل عن الحوض أي أخرتها، ومنه سمي النسأ، والنسيئة في البيع، والنسيء: ما كانت العرب تؤخر من الشهر الحرام.

ج. النسيان: نقيض الحفظ، وهو ذهاب المعنى عن النفس.

د. قدير وقادر بمعنىً، غير أن في ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغة للعدول، وهو تعالى قدير لذاته، يقدر من كل جنس، وفي كل وقت على ما لا يتناهى، ولا يجوز عليه العجز.

هـ. السؤال: طلب أمر ممن يَعْلَمُ معنى الطلب، سأل يسأل سؤالاً، فهو سائل، وذلك مسؤول.

و. السبيل: الطريق يُذَكَّرُ ويؤنث، والجمع السُّبُلُ، والسابلة المختلفة في الطرقات في حوائجهم، وجمعه سوابل.

ز. سواء بالمد على ثلاثة أوجه: بمعنى قصد، وعدل، وبمعنى وسط نحو قوله: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وبمعنى ﴿غَيْرُ﴾، كقولك: كل أحد أتاني سواك أي غيرك.

٢. روي أن المشركين قالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، ويأتي بخلافه من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية فيهم.

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٣٦.

٣. علاقة الآية الكريمة بما قبلها:

أ. قيل: لما ذكر الله تعالى في الآية الأولى أن اليهود لا تود أن ينزل عليهم خير آذن بهذه الآية أنه لا يخليهم من إنزال خير بهم خلاف ما تمنى أعداؤهم، وأنه أبدًا ينزل ما هو أصلح لهم، عن علي بن عيسى.

ب. وقيل: لما قص أخبار اليهود ومعائبهم في أقوالهم وأفعالهم، ورد عليهم ما راموا به الطعن في أمر نبينا ﷺ وكان مما أنكروا نسخ شريعة كانت مفروضة ـ بَيَّنَ الله تعالى جواز ذلك ردا عليهم، عن أبي مسلم.

٤. اختلفوا في معنى النسخ في الشرع، فقيل: إنه يستعمل في الشرع تشبيهًا باللغة، عن أبي هاشم، وقيل: هي لفظة شرعية منقولة عما وضعت له في اللغة.

٥. اختلفوا في حد النسخ في الشرع:

أ. قيل: هو ما دل على أن مثل الحكم الثابت بالشرع غير ثابت في المستقبل على وجه لولاه لكان ثابتًا بالنص الأول مع تراخيه عنه، فالنص الثاني ناسخ، والأول منسوخ، ذكره القاضي.

ب. وقيل: رفع كل شيء قد كان يلزم العمل به إلى بدل منه، عن علي بن عيسى.

٦. ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ قيل: في الكلام حذف؛ لأن الآية لا تنسخ، فإما أن تريد حكم آية أو تلاوة آية، أو حفظ آية، واختلفوا في معنى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾:

أ. قيل: المراد به النسخ الذي هو الرفع، عن الحسن وأكثر أهل العلم.

ب. وقيل: المراد به النسخ الذي هو من نسخت الكتاب، عن عطاء وسعيد بن المسيب، فمعنى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي ما ننسخها من اللوح المحفوظ، ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ نؤخرها، وننسها بتركها يعني نترك نسخها، فلا ننسخها بأن نختار منها ما هو أسهل وأنفع وأصلح.

٧. من قال بالقول الأول، وهو أن المراد به النسخ الرفع اختلفوا على أقوال:

أ. قيل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، وأنتم تقرؤونها ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي من القرآن ما قرئ بينكم ثم ننسه، عن الحسن وأبي علي والأصم، فحملوا ﴿نَنْسَخْ﴾ على نسخ الحكم دون التلاوة، و﴿نُنْسِهَا﴾ على نسخ التلاوة.

ب. وقيل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي ما نبدل، فينسخ الثاني حكم الأول، و﴿نُنْسِهَا﴾ أي نتركها فلا

نبدلها، فيبقى غير منسوخ، فيجب العمل به، في معنى قول ابن عباس.

ج. وقيل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي نرفعها، وننسخها بعد إنزالها. قراءة و﴿ننسأها} على قراءة الهمز أي نؤخرها فلا ننزلها أصلاً، وننزل بدلها ما يقوم مقامها في المصلحة، وقيل: نؤخرها إلى وقت ثان فتأتي بدلاً في الوقت الأول تقوم مقامها، وعلى قراءة ﴿نُنْسِهَا﴾ نتركها فلا نرفعها، بل نبقيها على حالها ليعمل به.

د. وقيل: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ بكتاب ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ نأمر بترك العمل بها كالذي يقرأ وينسخ حكمه. وتقديره: ما نسخناه بالكتاب، وما أمرنا بتركه، ولم ننسخ بالكتاب، عن الأصم، وننسها: قيل: من النسيان، عن قتادة، وقيل: من الترك، عن ابن عباس.

٨. سؤال وإشكال: كيف يجوز على الجماعة الكثيرة نسيان شيء؟ والجواب:

أ. قيل: إذا أمر بترك تلاوته نسي على مرور الأيام، عن أبي علي.

ب. وقيل: يكون ذلك معجزًا للنبي ﷺ ورووا في ذلك خبرًا أنهم كانوا يقرؤون السورة فيصبحون وقد نسوا ذلك.

٩. اختلفوا في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ فكل المفسرين حملوه على الآية من القرآن، غير أبي مسلم فإنه حمل ذلك على التوراة والإنجيل وأحكامها، والشرائع التي فيها، وقال: أراد ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي من شرائعهم، وكتبهم ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ يعني لا ذكر له في القرآن، ولم يؤمن به حتى نسي، وهو يعود إلى معنى النسخ ﴿وننسها} نؤخرها، ونبقيها فلا ينسخها القرآن، ونذكرها في القرآن، وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ يعود إلى الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ إلى ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ وفي ﴿مِثْلِهَا﴾ يرجع إلى ﴿مَا نَنْسَخْ﴾، وهو لا يرى نسخ القرآن، وهو محجوج بالإجماع، والذي ذكره ههنا وجه صحيح، وربما تأول الآيات المنسوخة على تأويل بعيد، ويتعسف فيها.

١٠. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾:

أ. قيل: في التسهيل وفي التيسير نحو قوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ﴾ في الجهاد، أو مثلها في السهولة كالتوجه إلى الكعبة، عن ابن عباس.

ب. وقيل: بخير منها في الوقت الأول في الصلاح ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ في ذلك، عن الحسن.

ج. وقيل: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ في الصلاح ومثلها.

١١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

أ. قيل: خطاب للرسول، والمراد جميع المكلفين.

ب. وقيل: أراد ألم تعلم أيها السامع، أو أيها الإنسان أنه قادر على آيات وسور مثل القرآن ينسخ بها ما أمر، عن أبي علي.

ج. وقيل: هو عام في كل شيء.

د. وقيل: ألم تعلم أنه تكفل بنصرك والانتصار ممن يعاديك، وأنه على ذلك قادر.

١٢. لما بَيَّنَ تعالى أنه ينسخ ما يشاء، ويأتي بما يشاء بين في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أن له ملك السماوات والأرض، وله أن يحكم فيهما بما شاء، وإن كان لا يشاء إلا الحكمة والأصلح.

١٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾:

أ. قيل: إنه استفهام، والمراد التقرير والتثبيت، ويؤول في المعنى إلى الإيجاب، كأنه يقول، قد عَلِمْتَ حقيقة، قال جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

ويقال: ألم أعطك؛ أي أَعْطَيْتُكَ، عن الأصم.

ب. وقيل: ألم تعلم معناه اعلم، واختلفوا:

• فقيل: إنه خطاب للنبي والمراد غيره؟ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ يوضحه قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾

• وقيل: المراد به جميع المكلفين، كأنه قيل: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أيها السامع، أو أيها الإنسان ﴿إِنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ لأنه خلقهما، وما فيهما.

١٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾:

أ. قيل: خطاب للرسول عن الأصم، كأنه أتى بلفظ الجمع تفخيمًا وتعظيمًا.

ب. وقيل: خطاب له وللمؤمنين عن أبي علي.

ج. وقيل: خطاب للمكلفين، أي ألم تعلموا ما لكم أيها الناس.

١٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

أ. قيل: يعني سوي الله ناصر ومولى، أراد أن الخلق أعداؤك وغضاب عليك، والله يتولى نصرك، عن الأصم.

ب. وقيل: ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾: قريب، وصديق ناصر.

ج. وقيل: من ولي يقوم بأمركم، ولا ناصر ينصركم.

١٦. اختلف في سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾:

أ. روي عن ابن عباس أن رافع بن حرملة ووهب بن زيد قالا لرسول الله ﷺ: ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء يُقْرَأ، أو فجر لنا أنهارا نتبعك، فأنزل الله هذه الآية.

ب. وعن الحسن: المراد به مشركو العرب، وقد سألوا وقالوا: أن يأتي بالله والملائكة قبيلا، وقالوا ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾

ج. وعن السدي سألت العرب محمدا ﷺ أن يأتيهم بالله فيروه جهره،.

د. وعن مجاهد: سألت قريش محمدا أن يجعل لهم الصفا ذهبا، فقال: نعم، هو لكم، كالمائدة لبني إسرائيل، فرجعوا.

هـ. وعن أبي علي: سألوا رسول الله ﷺ محالات، منها ما سأله قوم أن يجعل لهم ذات أنواط، كما أن للمشركين ذات أنواط، وهي شجرة كانوا يعبدونها، ويعلقون عليها المأكول والمشروب، كما سألوا أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة.

و. وقيل: إن اليهود قالوا: يا محمد آتنا بكتاب من السماء جملة كما أوتي موسى، فنزلت الآية.

١٧. في اتصال قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ بما قبله وجوه:

أ. قيل: لما دل ما تقدم على تدبير الله في خلقه بما يأتي من الآيات، وبما ينسخه ويثبته، بَيَّنَ في هذه الآية أن الواجب أن يرضوا بذلك، ولا يقترحوا، كأنه قيل: ألا ترضون بتدبيره، ولا يتخيروا الآيات، ولا

يقترحوا المحالات، كما سئل موسى من قبل، وهو تعالى يأتي بما يعلم من المصالح، وليس لأحد أن يعترض، عن علي بن عيسى.

ب. قيل: لما تقدم الأوامر والنواهي، قال: إن لم تسلموا لما أمركم الله كنتم كمن سأل موسى بما ليس له أن يسأله، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: تقديره لما أمر ونهى قال: أتفعلون ما أُمرتم أم تفعلون كما يفعل مَنْ قَبْلكم من قوم موسى.

د. وقيل: إنه خطاب لليهود عابهم حين تخيروا الآيات. كما عابهم بالأفاعيل التي تقدم ذكرها.

١٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾:

أ. قيل: معناه أتريدون، استفهام على طريق الإنكار.

ب. وقيل: معناه بل أتريدون.

١٩. اختلفوا في المخاطب بقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾:

أ. قيل: المسلمون، وهو عطف على قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ وتقديره فهل تفعلون كما أمرتم أم تريدون أن تسألوا رسولكم من المحالات، كما سأل قوم موسى نبيهم عليه السلام، عن أبي مسلم.

ب. وقيل: خطاب لهم فقد سألوه عن أمور لا خير لهم في البحث عنها، عن الأصم.

ج. وقيل: خطاب لهذه الأمة ونهي لهم أن يسألوا نبيهم كما فعل قوم موسى، عن أبي علي.

د. وقيل: خطاب لأهل مكة، عن مجاهد.

هـ. وقيل: لليهود، عن ابن عباس وجماعة، وهو الأصح؛ لأن ما تقدم حكاية عنهم، ومحاجة معهم، ولأن الآية مدنية.

٢٠. ﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ يعني محمدا ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ من الاقتراحات والمحالات ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ يعني يختار الكفر، ويترك الإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ أي ذهب عن ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾:

أ. قيل: عن طريق الاستقامة.

ب. وقيل: قَصْدِ الطريق، عن الحسن والأصم وأبي مسلم.

ج. وقيل: عن وسط الطريق.

٢١. تدل الآيات الكريمة على:

٢٢. جواز النسخ في القرآن، وحَمْلُه على غيره عُدُولٌ عن الظاهر.

٢٣. على حدث القرآن؛ لأن القديم لا يصح نسخه، ولأنه أثبت له مثلاً، ولأنه بين اختصاصه بالقدرة عليه، ولأنه جوز فيه الترك والنسيان، والتقديم والتأخير كل ذلك يدل على حدثه.

٢٤. أن النسخ مما يشق ويخف جائز؛ لأن قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾ يعني أنفع وأصلح، وقد يكون ذلك فيما هو أشق، ويكون فيما هو أخف.

٢٥. جواز نسخ القرآن بالقرآن وبالسنة، لأن مثلها وخيرًا منها ما هو أنفع، وهذا المعنى قد يحصل بالكتاب والسنة.

٢٦. في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ تنبيه على ثلاثة أشياء:

- أحدها: التحذير من سخط الله وعقابه؛ إذ لا أحد يمنع منه.
- الثاني: التسكين لنفوس المؤمنين بأنه تعالى ناصرهم دون غيره، فلا يعتد بغيره مع نصره.
- الثالث: التفريق بين حالهم وحال الكفار مدحًا لهم، وذمًّا لأولئك، في معنى قول أبي علي.

٢٧. قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ يدل على:

- قبح السؤال على سبيل التعنت، وأن الواجب أن يُسْأَلَ استرشادًا.
- أن الحجة متى قامت بمعجزة واحدة، فبعد ذلك يجوز أن لا تظهر أخرى، وألا يُسْأَلَ إلا بحسب المصلحة؛ لأن التمكن قد حصل، ولا لطف في الثانية.
- أن التعنت في الدين ضلالة، والتشبه بأهل الضلال ضلال، ونحو ذلك مما روي (من تشبهِ بقوم كان منهم)

٢٨. مسائل نحوية:

٢٩. ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ قيل: للتبعيض، وقيل: زيادة مؤكدة، و﴿آيَةً﴾ مكسورة ب ﴿مِنَ﴾

٣٠. ﴿مِثْلُهَا﴾: عطف على ﴿مِنْهَا﴾

٣١. ﴿أَمِ﴾ في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ لفظه لفظ الاستفهام، والمراد به التوبيخ والإنكار، كقوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ و﴿أَمِ﴾ تكون على ضربين: متصلة ومنفصلة:

• فالمتصلة عديلة الألف، وهي مفرقة لما جمعته، أي كما أن ﴿أَوْ﴾ مفرقة لما جمعته، تقول: اضرب أيهم شئت زيدًا أم عمرًا أم بكرًا، فإذا قلت: أضرب أحدهم، قلت: زيدًا أو عمرًا أو بكرًا.

• والمنقطعة عن المعادلة لألف الاستفهام قبلها لا تكون إلا بعد كلام؛ لأنها بمعنى ﴿بَلْ﴾ والألف، كقول العرب: إنها لَإِبِلٌ أم شَاءٌ، كأنه قال: بل هي شاء، ومنه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي بل يقولون، وكذلك ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾، أي بل تريدون، قال الأخطل:

كَذَّبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلامِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالاَ

٣٢. قراءات تفسيرية:

أ. قرأ ابن عامر ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ بضم النون وكسر السين، والباقون بفتحها، فأما القراءة العامة فمن قولهم: نسخت الكتاب، فأنا ناسخ، والكتاب منسوخ. وأما قراءة ابن عامر ففيها وجهان:

• أحدهما: ما قاله أبو عبيد: ما نُنْسِخُكَ يا محمد، كما قال: نَسَخْتُ الكتاب، وأَنْسَخْتُهُ غيري.

• والثاني: أنسخته جعلته ذا نسخ، كما قال قوم للحجاج وقد صلب رجلاً: أقبرنا فلانًا، أي اجعله ذا قبر، يقال: قبرت زيدًا دفنته، وأقبره الله جعله ذا قبر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾

ب. اختلفوا في ﴿نُنْسِهَا﴾ فقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿نَنْسَأْهَا} بفتح النون والهمزة، وهو جزم بالشرط، ولا يدع أبو عمرو الهمزة في مثل هذا؛ لأن سكونها علامة للجزم، وهو من التأخير، ومنه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وقرأ الباقون بضم النون وكسر السين من النسيان أو من الترك.

ج. قراءة العامة ﴿سُئِلَ﴾ بالهمز وضم السين، وعن بعضهم ﴿سَيْلَ﴾ نحو قيل، وروي بتليين الهمزة مخففة، وضم السين ﴿سُيِلَ﴾

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. النسخ في اللغة: إبطال شيء، وإقامة آخر مقامه، يقال: نسخت الشمس الظل أي: أذهبته وحلت محله، وقال ابن دريد: كل شيء خلف شيئا، فقد انتسخه، وانتسخ الشيب الشباب، وتناسخ الورثة، أن تموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم لم يقسم، وكذلك تناسخ الأزمنة والقرون بعد القرون الماضية، وأصل الباب الإبدال من الشيء غيره، وقال علي بن عيسى: النسخ: الرفع لشيء قد كان يلزم العمل به إلى بدل منه، كنسخ الشمس بالظل، لأنه يصير بدلا منها في مكانها، وهذا ليس بصحيح، لأنه ينتقض بمن يلزمه الصلاة قائما، فعجز عن القيام، فإنه يسقط عنه القيام لعجزه، ولا يسمى العجز ناسخا، ولا القيام منسوخا، وينتقض أيضا بمن يستبيح الشيء بحكم العقل، وورد الشرع بحظره، فإنه لا يقال إن الشرع نسخ حكم العقل، ولا أن حكم العقل منسوخ.

ب. ننسأها: قال أبو عبيدة معنى ننسأها أي: نمضيها فلا ننسخها، قال طرفة:

أمون كألواح الإران نسأتها... على لاحب كأنه ظهر برجد

أي: أمضيتها.. وقال غيره: نسأت الإبل في ظمئها أنسأها نسأ: إذا زدتها في ظمئها يوما أو يومين، وظمؤها: منعها الماء، ونسأت الماشية تنسأ نسأ: إذا سمنت، وكل سمين ناسئ، قال الزجاج: وتأويله: إن جلودها نسأت أي: تأخرت عن عظامها، وقال غيره: إنما قيل ذلك لأنها تأخرت في المرعى حتى سمنت، ويقال للعصا: المنسأة، لأنها ينسأ بها أي: يؤخر ما يساق عن مكانه، ويدفع بها الانسان عن نفسه الأذى، ونسأت ناقتي: إذا دفعتها في السير، وأصل الباب التأخير.

ج. الولي: هو القائم بالأمر، ومنه ولي عهد المسلمين.

د. دون الله: سوى الله، قال أمية بن أبي الصلت: يا نفس مالك دون الله من واق... وما على حدثان الدهر من باق والنصير: الناصر، وهو المؤيد، والمقوي.

هـ. السؤال: هو أن يطلب أمر ممن يعلم معنى الطلب.

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٤٦.

و. سواء: بالمد على ثلاثة أوجه: بمعنى قصد، وعدل، وبمعنى وسط في قوله إلى سواء الجحيم، وبمعنى غير في قولك أتيت سواك أي: غيرك، ومعنى ضل ههنا: ذهب عن الاستقامة، قال الأخطل:

كنت القذى في موج أكدر مزبد   قذف الآتي به فضل ضلالا

٢. اختلف في سر نظم الآيات الكريمة:

أ. قيل: لما قال سبحانه في الآية الأولى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ دل بهذه الآية على أنه سبحانه لا يخليهم من إنزال خير إليهم، بخلاف ما تمناه أعداؤهم فيهم، وأنه أبدا ينزل عليهم ما هو أصلح لهم عن علي بن عيسى.

ب. وقيل: إنه سبحانه لما عاب اليهود بأشياء ورد عليهم ما راموا به الطعن في أمر نبينا، عليه وآله السلام، وكان مما طعنوا فيه أنه يقول بنسخ كل شريعة تقدمت شريعته، فبين الله سبحانه جواز ذلك ردا عليهم، عن أبي مسلم.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾:

أ. قيل: معناه ما نرفع من آية، أو حكم آية.

ب. وقيل: معناه ما نبدل من آية، عن ابن عباس.

ج. أولى ما يحد به النسخ أن يقال: هو كل دليل شرعي دل على أن مثل الحكم الثابت بالنص الأول غير ثابت في المستقبل على وجه لولاه لكان ثابتا بالنص الأول مع تراخيه عنه.

٤. النسخ في القرآن على ضروب:

أ. منها: أن يرفع حكم الآية وتلاوتها، كما روي عن أبي بكر أنه قال: كنا نقرأ (لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم)

ب. ومنها: أن تثبت الآية في الخط، ويرفع حكمها كقوله ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ الآية، فهذه ثابتة اللفظ في الخط، مرتفعة الحكم.

ج. ومنها: ما يرتفع اللفظ، ويثبت الحكم، كآية الرجم، فقد قيل: إنها كانت منزلة، فرفع لفظها.. وقد جاءت أخبار كثيرة بأن أشياء كانت في القرآن، فنسخ تلاوتها، فمنها ما روي عن أبي موسى، أنهم كانوا يقرأون: (لو أن لابن آدم واديين من مال، لابتغى إليهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب،

ويتوب الله على من تاب) ثم رفع، وعن انس أن السبعين من الأنصار الذين قتلوا ببئر معونة، قرأنا فيهم كتابا: (بلغوا عنا قومنا إنا لقينا ربنا فرضي عنا، وأرضانا) ثم إن ذلك رفع.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ على وجهين:

أ. أحدهما: بمعنى النسيان الذي هو خلاف الذكر، نحو قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، وهو مروي عن قتادة.

ب. والآخر: بمعنى الترك نحو قوله: ﴿نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تركوا طاعة الله فترك رحمتهم، أو ترك تخليصهم، وهو مروي عن ابن عباس.. فعلى هذا يكون المراد بننسها: نأمركم بتركها أي: بترك العمل بها.. قال الزجاج: إنما يقال في هذا نسيت: إذا تركت، ولا يقال فيه أنسيت تركت، وإنما معنى ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾: أو نتركها أي: نأمركم بتركها.. قال أبو علي: من فسر أنسيت بتركت، لا يكون مخطئا، لأنك إذا أنسيت فقد نسيت، ومن هذا قال علي بن عيسى: إنما فسره المفسرون على ما يؤول إليه المعنى، لأنه إذا أمر بتركها فقد تركها.

٦. اختلف من ذكر أن المراد النسيان الذي هو مقابل الذكر:

أ. قيل: يجوز ذلك على الأمة بأن يؤمروا بترك قراءتها، فينسونها على طول الأيام، ولا يجوز ذلك على النبي ﷺ، لأنه يؤدي إلى التنفير، كذا ذكره الشيخ أبو جعفر في تفسيره.

ب. جوز جماعة من المحققين ذلك على النبي ﷺ، قالوا: إنه لا يؤدي إلى التنفير لتعلقه بالمصلحة، ويجوز أيضا أن ينسيهم الله تعالى ذلك على الحقيقة، وإن كانوا جمعا كثيرا وجما غفيرا، بأن يفعل النسيان في قلوب الجميع، وإن كان ذلك خارقا للعادة، ويكون معجزا للنبي ﷺ.

٧. استدلّ من حمل الآية على النسيان الذي هو خلاف الذكر، وجوز كون النبي ﷺ، مرادا به بقوله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ الله﴾ أي: إلا ما شاء الله أن تنساه، وإلى هذا ذهب الحسن فقال: إن نبيكم أقرئ القرآن ثم نسيه.. وأنكر الزجاج هذا القول فقال: إن الله تعالى قد أنبأ النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لتفتري علينا غيره، بأنه لا يشاء أن يذهب بما أوحي إلى النبي ﷺ.. وقال أبو علي الفارسي: هذا الذي احتج به على من ذهب إلى أن ننسها من النسيان، لا يدل على فساد ما ذهبوا إليه، وذلك أن قوله ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إنما هو على ما لا يجوز عليه النسخ

والتبديل من الأخبار، وأقاصيص الأمم، ونحو ذلك مما لا يجوز عليه التبديل، والذي ينساه النبي ﷺ، وهو ما يجوز إن ينسخ من الأوامر والنواهي الموقوفة على المصلحة، وفي الأوقات التي يكون ذلك فيها أصلح.

٨. يدل على أن ﴿نُنْسِهَا﴾ من النسيان الذي هو خلاف الذكر: قراءة من قرأ (أو تنسها) وهو قراءة سعد بن أبي وقاص، وقراءة من قرأ (أو ننسكها) وهو المروي عن سالم مولى أبي حذيفة، وقراءة من قرأ (أو تنسها) وهو المروي عن سعد بن مالك.. فالمفعول المراد المحذوف في قراءة من قرأ ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ مظهر في قراءة من قرأ (ننسكها) ويبينه ما روي عن الضحاك أنه قرأ ﴿نُنْسِهَا﴾ ويؤكد ذلك أيضا ما روي من قراءة ابن مسعود (ما ننسك من آية أو ننسخها) وبه قرأ الأعمش.. وروي عن مجاهد أنه قال: قراءة أبي (ما ننسخ من آية أو ننسك) فهذا كله يثبت قراءة من جعل ننسها من النسيان، ويؤكد ما روي عن قتادة أنه قال: كانت الآية تنسخ بالآية، وينسي الله نبيه من ذلك شيئا.

٩. سؤال وإشكال: إذا كان نسخ الآية رفعها وتركها أن لا تنزل، فما معنى ذلك؟ ولم جمع بينهما؟ والجواب: ليس معنى تركها ألا تنزل، وقد غلط الزجاج في توهمه ذلك، وإنما معناه إقرارها فلا ترفع، كما قال ابن عباس نتركها فلا نبدلها.. وإضافة الترك إلى القديم سبحانه، في نحو هذا اتساع، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: خليناهم وذاك.

١٠. اختلف في معنى قراءة (أو ننسأها) على معنى التأخير:

أ. قيل: إن معناه أو نؤخرها، فلا ننزلها وننزل بدلا منها مما يقوم مقامها في المصلحة، أو يكون أصلح للعباد منها.

ب. وقيل: إن معناه نؤخرها إلى وقت ثان، ونأتي بدلا منها في الوقت المتقدم بما يقوم مقامها.

ج. وقيل: أن يكون معنى التأخير أن ينزل القرآن، فيعمل به ويتلى، ثم يؤخر بعد ذلك بأن ينسخ، فيرفع تلاوته البتة، ويمحى فلا تنسأ، ولا يعمل بتأويله، مثل ما روي عن زر بن حبيش أن أبيا قال له: كم تقرؤون الأحزاب؟قال بضعا وسبعين آية، قال: قد قرأتها ونحن مع رسول الله ﷺ أطول من سورة البقرة أورده أبو علي في كتاب الحجة.

د. وقيل: أن يؤخر العمل بالتأويل، لأنه نسخ، ويترك خطه مثبتا، وتلاوته قرآن يتلى، وهو ما حكي

عن مجاهد يثبت خطها، ويبدل حكمها.

والوجهان الأولان عليهما الاعتماد، لأن الوجهين الأخيرين يرجع معناهما إلى معنى النسخ، فلا يحسن إذ يكون في التقدير محصوله ما ننسخ من آية أو ننسخها، وهذا لا يصح.. على أن الوجه الأول أيضا فيه ضعف، لأنه لا فائدة في تأخير ما لم يعرفه العباد، ولا علموه، ولا سمعوه، فالأقوى هو الوجه الثاني.

١١. في قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ قولان:

أ. أحدهما: نأت بخير منها لكم في التسهيل والتيسير كالأمر بالقتال الذي سهل على المسلمين بقوله ﴿الْآنَ خَفَّفَ الله عَنْكُمْ﴾ أو مثلها في السهولة كالعبادة بالتوجه إلى الكعبة بعد أن كان إلى بيت المقدس، عن ابن عباس.

ب. الثاني: نأت بخير منها في الوقت الثاني أي: هي لكم في الوقت الثاني، خير لكم من الأولى في الوقت الأول، في باب المصلحة، أو مثلها في ذلك، عن الحسن.

١٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

أ. قيل: هو خطاب للنبي ﷺ.. وعلى هذا القول معناه: ألم تعلم يا محمد أنه سبحانه قادر على نصرك، والانتصار لك من أعدائك، وقيل: هو عام في كل شيء.

ب. وقيل: هو خطاب لجميع المكلفين، والمراد ألم تعلم أيها السامع، أو أيها الانسان، أن الله تعالى قادر على آيات وسور مثل القرآن، ينسخ بها ما أمر، فيقوم في النفع مقام المنسوخ.

١٣. استدلّ من زعم أنه لا يجوز نسخ القرآن بالسنة المعلومة بهذه الآية، قال: أضاف الإتيان بخير منها إلى نفسه، والسنة لا تضاف إليه حقيقة، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا بد من أن يكون أراد ما يختص سبحانه بالقدرة عليه من القرآن المعجز.

١٤. الصحيح أن القرآن يجوز أن ينسخ بالسنة المقطوع عليها، ومعنى ﴿خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي: أصلح لنا منها في ديننا، وأنفع لنا بأن نستحق به مزيد الثواب، فأما إضافة ذلك إليه تعالى فصحيحة، لأن السنة إنما هي بوحيه تعالى وأمره، فإضافتها إليه كإضافة كلامه.. وآخر الآية إنما يدل على أنه قادر على أن ينسخ الآية بما هو أصلح وأنفع، سواء كان ذلك بقرآن أو سنة.

١٥. في هذه الآية دلالة على أن القرآن محدث، وأنه غير الله تعالى، لأن القديم لا يصح نسخه،

ولأنه أثبت له مثلا، والله سبحانه قادر عليه، وما كان داخلا تحت القدرة، فهو فعل، والفعل لا يكون إلا محدثا.

١٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. قيل: استفهام تقرير وتثبيت، ويؤول في المعنى إلى الإيجاب فكأنه يقول قد علمت حقيقة، كما قال جرير:

ألستم خير من ركب المطايا	وأندى العالمين، بطون راح

فلهذا خاطب به النبي ﷺ.

ب. وقيل: إن الآية وإن كانت خطابا للنبي عليه السلام، فالمراد به أمته كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ومثله قول الكميت في مدح النبي ﷺ:

لج بتفضيلك اللسان، ولو	أكثر فيك الضجاج، واللجب
وقيل: أفرطت، بل قصدت،	عنفني القائلون، أو ثلبوا
أنت المصفى المهذب المحض	في النسبة، إن نص قومك

فأخرج كلامه مخرج الخطاب للنبي ﷺ، وأراد به أهل بيته، لأن أحدا من المسلمين لا يعنف مادح النبي عليه السلام، ولا يكثر الضجاج واللجب في إطناب القول فيه، فكأنه قال: ألم تعلم أيها الانسان ﴿إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، لأنه خلقهما وما فيهما.

١٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

أ. من قال: إن الآية خطاب للنبي ﷺ، قال: أتى بضمير الجمع في الخطاب تفخيما لأمره، وتعظيما لقدره.

ب. ومن قال هي خطاب له وللمؤمنين، أو لهم خاصة، فالمعنى: ألم تعلموا ما لكم أيها الناس.

١٨. ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: سوى الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يقوم بأمركم، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر ينصركم.

١٩. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ أي: بل أتريدون ﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ يعني النبي محمدا ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى﴾ أي: كما سأل قوم موسى موسى ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من الاقتراحات والمحالات.

٢٠. ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: من استبدل الجحود بالله وبآياته بالتصديق بالله، والإقرار

به وبآياته، واقترح المحالات على النبي ﷺ، وسأل عما لا يعنيه بعد وضوح الحق بالبراهين، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾:

أ. قيل: أي: ذهب عن قصد الطريق.

ب. وقيل: عن طريق الاستقامة.

ج. وقيل: عن وسط الطريق، لأن وسط الطريق خير من أطرافه.

٢١. وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه لما دل الله تعالى بما تقدم على تدبيره لهم، فيما يأتي به من الآيات، وما ينسخه، واختياره لهم ما هو الأصلح في كل حال، قال: أما ترضون بذلك، وكيف تتخيرون محالات مع اختيار الله لكم ما يعلم فيه من المصلحة، فإذا أتى بآية تقوم بها الحجة، فليس لأحد الاعتراض عليها، ولا اقتراح غيرها، لأن ذلك بعد صحة البرهان بها، يكون تعنتا.

٢٢. مسائل نحوية:

أ. ﴿مَا نَنْسَخْ﴾: ما اسم ناب مناب أن، وهو في موضع نصب بننسخ، وإنما لزمه التقديم، وإن كان مفعولا، ومرتبة المفعول أن يكون بعد الفاعل لنيابته عن حرف الشرط الذي له صدر الكلام.

ب. ننسخ: مجزوم بالشرط.. وننس: جزم لأنه معطوف عليه.. ونأت: مجزوم لأنه جزاء.

ج. من في قوله ﴿مِنْ آيَةٍ﴾:

• قيل: للتبعيض.

• وقيل: هي مزيدة.

د. لفظ ألم هاهنا: لفظ الاستفهام ومعناه التقرير.

هـ. تعلم: مجزوم بلم، لأن حرف الاستفهام لا يغير العامل عن عمله.

و. ﴿أَم﴾ هذه منقطعة، فإن ﴿أَم﴾ على ضربين متصلة ومنقطعة:

• فالمتصلة عديلة الألف، وهي مفرقة لما جمعته أي: كما أن أو مفرقة لما جمعه أحد، تقول اضرب أيهم شئت زيدا، أم عمرا، أم بكرا، كما تقول اضرب أحدهم زيدا، أو عمرا، أو بكرا.

• والمنقطعة: لا تكون إلا بعد كلام، لأنها بمعنى بل، وهمزة الاستفهام كقول العرب: إنها لإبل أم شاء، كأنه قال: بل أهي شاء.

ز. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ تقديره: بل أتريدون، ومثله قول الأخطل:

كذبتك عينك، أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

ح. ﴿أَنْ تَسْأَلُوا﴾: موصول وصلة في محل النصب، لأنه مفعول ﴿تُرِيدُونَ﴾ كما أن الكاف حرف جر.

ط. ﴿مَا﴾: حرف موصول ﴿سُئِلَ مُوسَى﴾: جملة فعلية هي صلة ﴿مَا﴾، والموصول والصلة في محل الجر بالكاف، والكاف متعلق بتسألوا، والجار والمجرور في محل النصب على المصدر.

ي. ﴿مِنْ قَبْلِ﴾: في محل النصب لأنه ظرف قوله ﴿سَيْلَ﴾، و﴿مِنَ﴾: اسم للشرط في محل الرفع بالابتداء والفاء في قوله ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: في محل الجزم لأنه جواب الشرط.

ك. معنى حرف الشرط الذي تضمنه ﴿مِنَ﴾ مع الجملتين، في محل الرفع، لأنه خبر المبتدأ.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. سبب نزول قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أن اليهود قالت لما نسخت القبلة: إن محمّدا يحلّ لأصحابه إذا شاء، ويحرّم عليهم إذا شاء؛ فنزلت هذه الآية

٢. النّسخ في اللغة: إبطال شيء وإقامة آخر مقامه، تقول العرب: نسخت الشمس الظلّ: إذا أذهبته وحلّت محلّه.

٣. في المراد بهذا النّسخ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: رفع اللفظ والحكم، عن السّدّيّ.

ب. الثاني: تبديل الآية بغيرها، رويا عن ابن عباس ومقاتل.

ج. الثالث: رفع الحكم مع بقاء اللفظ، رواه مجاهد عن أصحاب ابن مسعود، وبه قال أبو العالية، وقرأ ابن عامر: (ما ننسخ) بضم النون، وكسر السين. قال أبو عليّ: أي: ما نجده منسوخا كقولك: أحمدت فلانا، أي: وجدته محمودا، وإنما يجده منسوخا بنسخه إياه.

---

(١) زاد المسير: ١/ ٩٩.

٤. في معنى نؤخّرها ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: نؤخّرها عن النّسخ فلا ننسخها، قاله الفرّاء.

ب. الثاني: نؤخّر إنزالها، فلا ننزلها البتّة.

ج. الثالث: نؤخّرها عن العمل بها بنسخنا إياها، حكاهما أبو عليّ الفارسيّ.

٥. قرأ سعد بن أبي وقاص (تنسها) بتاء مفتوحة ونون، وقرأ سعيد بن المسيّب والضّحّاك (تنسها) بضم التاء، وقرأ نافع: (أو ننسها) بنونين: الأولى مضمومة، والثانية ساكنة. أراد: أو ننسكها، من النسيان.

٦. قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾، قال ابن عباس: بألين منها، وأيسر على الناس، ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾، أي: في الثواب والمنفعة، فتكون الحكمة في تبديلها بمثلها الاختبار.

٧. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه التّوقيف والتقرير، والملك في اللغة: تمام القدرة واستحكامها، فالله عزّ وجلّ يحكم بما يشاء على عباده ويغيّر ما يشاء من أحكام.

٨. في سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ خمسة أقوال:

أ. أحدها: أن رافع بن حريملة، ووهب بن زيد، قالا لرسول الله ﷺ: ائتنا بكتاب نقرؤه تنزله من السماء علينا، وفجّر لنا أنهارا حتى نتبعك، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أن قريشا سألت النبيّ ﷺ أن يجعل لهم الصّفا ذهبا، فقال: (هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل) فأبوا. قاله مجاهد.

ج. الثالث: أن رجلا قال يا رسول الله، لو كانت كفّاراتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبيّ ﷺ: (اللهمّ لا نبغيها، ما أعطاكم الله خير ممّا أعطى بني إسرائيل، كانوا إذا أصاب أحدهم الخطيئة؛ وجدها مكتوبة على بابه وكفّارتها، فإن كفّرها كانت له خزيا في الدّنيا، وإن لم يكفّرها كانت له خزيا في الآخرة، فقد أعطاكم الله خيرا ممّا أعطى بني إسرائيل، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الآية، وقال: (الصّلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفّارات لما بينهنّ) فنزلت هذه الآية، قاله أبو العالية.

د. الرابع: أن عبد الله بن أبي أميّة المخزوميّ أتى النبيّ ﷺ في رهط من قريش، فقال: يا محمّد، والله لا أؤمن بك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا، فنزلت هذه الآية. ذكره ابن السّائب.

هـ. الخامس: أن جماعة من المشركين جاؤوا إلى النبيّ ﷺ، فقال بعضهم: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، وقال آخر: لن أؤمن حتى تسيّر لنا جبال مكّة، وقال عبد الله بن أبي أميّة: لن أؤمن لك حتى تأتي بكتاب من السماء، فيه: من الله ربّ العالمين إلى ابن أميّة: اعلم أني قد أرسلت محمّدا إلى النّاس، وقال آخر: هلّا جئت بكتابك مجتمعا، كما جاء موسى بالتّوراة. فنزلت هذه الآية. ذكره محمّد بن إسحاق الأنباريّ.

٩. في المخاطبين بهذه الآية ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنهم قريش، قاله ابن عباس ومجاهد.

ب. الثاني: اليهود، قاله مقاتل.

ج. الثالث: جميع العرب، قاله أبو سليمان الدّمشقيّ.

١٠. في ﴿أَمِ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنها بمعنى: بل، تقول العرب: هل لك عليّ حقّ، أم أنت معروف بالظّلم. يريدون: بل أنت، وأنشدوا:

بدت مثل قرن الشّمس في رونق وصورتها أم أنت في العين أملح

ذكره الفرّاء والزّجّاج.

ب. الثاني: أنها بمعنى الاستفهام.

١١. سؤال وإشكال: ﴿أَمِ﴾ إنما تكون للاستفهام إذا كانت مردودة على استفهام قبلها، فأين الاستفهام الذي تقدّمها؟ والجواب: عنه جوابان:

أ. أحدهما: أنه قد تقدّمها استفهام، وهو قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ذكره الفرّاء، وكذلك قال ابن الأنباريّ: هي مردودة على الألف في: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، فإن اعترض على هذا الجواب، فقيل: كيف يصح العطف ولفظ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ ينبئ عن الواحد، و﴿تُرِيدُونَ﴾ عن جماعة؟ فالجواب: أنه إنما رجع الجواب من التوحيد إلى الجمع، لأن ما خوطب به النبيّ ﷺ فقد خوطبت به أمّته، فاكتفى به من أمّته في المخاطبة الأولى، ثم أظهر المعنى في المخاطبة الثانية، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. ذكر هذا الجواب ابن الأنباريّ.

ب. الثاني عن ﴿أَمِ﴾؛ هو أنها للاستفهام، وليست مردودة على شيء. قال الفرّاء: إذا توسّط الاستفهام الكلام؛ ابتدئ بالألف وبأم، وإذا لم يسبقه كلام؛ لم يكن إلا بالألف أو ب (هل)، وقال ابن الأنباريّ: (أم) جارية مجرى (هل)، غير أن الفرق بينهما: أن (هل) استفهام مبتدأ، لا يتوسّط ولا يتأخّر، و(أم): استفهام متوسّط، لا يكون إلا بعد كلام.

١٢. الرسول ها هنا هو محمّد ﷺ.. والذي سئل موسى من قبل قولهم: ﴿أَرِنَا اللهَّ جَهْرَةً﴾، وهل سألوا ذلك نبيا أم لا؟ فيه قولان:

أ. أحدهما: أنهم سألوا ذلك، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَ بِاللهِ والْمَلائِكَةِ قَبِيلًا}، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أنهم بالغوا في المسائل، فقيل لهم بهذه الآية: لعلّكم تريدون أن تسألوا محمّدا أن يريكم الله جهرة، قاله أبو سليمان الدّمشقيّ.

١٣. الكفر: الجحود، والإيمان: التّصديق، وقال أبو العالية: المعنى: ومن يتبدّل الشدة بالرّخاء.

١٤. سواء السبيل: وسطه.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا هو النوع الثاني من طعن اليهود في الإسلام، فقالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولًا وغداً يرجع عنه، فنزلت هذه الآية ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

٢. اختلف في النسخ في أصل اللغة:

أ. قيل: بمعنى إبطال الشيء، يقال: نسخت الريح آثار القوم إذا عدمت، ونسخت الشمس الظل إذا عدم، لأنه قد لا يحصل الظل في مكان آخر حتى يظن أنه انتقل إليه، وقال تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهَّ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: ٥٢] أي يزيله ويبطله، والأصل في الكلام الحقيقة،

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/ ٦٣٧.

وإذا ثبت كون اللفظ حقيقة في الإبطال وجب أن لا يكون حقيقة في النقل دفعاً للاشتراك.

ب. وقيل: إنه للنقل والتحويل، واستدلوا على ذلك بوجهين:

• أن وصفهم الريح بأنها ناسخة للآثار، والشمس بأنها ناسخة للظل مجاز، لأن المزيل للآثار والظل هو الله تعالى، وإذا كان ذلك مجازاً امتنع الاستدلال به على كون اللفظ حقيقة في مدلوله.

•. ومما يدل على أن النسخ هو النقل والتحويل: نسخ الكتاب إلى كتاب آخر كأنه ينقله إليه أو ينقل حكايته، ومنه تناسخ الأرواح وتناسخ القرون قرناً بعد قرن، وتناسخ المواريث إنما هو التحول من واحد إلى آخر بدلًا عن الأول، وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] فوجب أن يكون اللفظ حقيقة في النقل ويلزم أن لا يكون حقيقة في الإبطال دفعاً للاشتراك.

٣. أجاب القائلون بأن النسخ هو بمعنى إبطال الشيء على أدلة المخالفين بما يلي:

أ. عن الوجه الأول بوجهين:

• أحدهما: أنه لا يمتنع أن يكون الله هو الناسخ لذلك من حيث إنه فعل الشمس والريح المؤثرتين في تلك الإزالة ويكونان أيضاً ناسخين لكونهما مختصين بذلك التأثير.

• الثاني: أن أهل اللغة إنما أخطئوا في إضافة النسخ إلى الشمس والريح، فهب أنه كذلك، لكن متمسكنا إطلاقهم لفظ النسخ على الإزالة لإسنادهم هذا الفعل إلى الريح والشمس.

ب. عن الوجه الثاني: أن النقل أخص من الإبطال لأنه حيث وجد النقل فقد عدمت صفة وحصل عقيبها صفة أخرى، فإن مطلق العدم أهم من عدم يحصل عقيبه شيء آخر، وإذا دار اللفظ بين الخاص والعام كان جعله حقيقة في العام أولى.

٤. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (ننسأها) بفتح النون والهمزة وهو جزم بالشرط ولا يدع أبو عمرو الهمزة في مثل هذا، لأن سكونها علامة للجزم وهو من النسء وهو التأخير، ومنه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧] ومنه سمي بيع الأجل نسيئة، وقال أهل اللغة: أنسأ الله أجله ونسأ في أجله، أي أخر وزاد، وقال ﷺ: (من سره النسء في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه)، والباقون بضم النون وكسر السين وهو من النسيان، ثم الأكثرون حملوه على النسيان الذي هو ضد الذكر، ومنهم من حمل النسيان على الترك على حد قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] أي فترك وقال: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا

نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١] أي نتركهم كما تركوا، والأظهر أن حمل النسيان على الترك مجاز، لأن المنسي يكون متروكاً، فلما كان الترك من لوازم النسيان أطلقوا اسم الملزوم على اللازم.

٥. (ما) في هذه الآية جزائية كقولك: ما تصنع أصنع وعملها الجزم في الشرط والجزاء إذا كانا مضارعين فقوله: (ننسخ) شرط وقوله: (نأت) جزاء وكلاهما مجزومان.

٦. التناسخ في اصطلاح العلماء عبارة عن طريق شرعي يدل على أن الحكم الذي كان ثابتاً بطريق شرعي لا يوجد بعد ذلك مع تراخيه عنه على وجه لولاه لكان ثابتاً، فقولنا: طريق شرعي نعني به القدر المشترك بين القول الصادر عن الله تعالى وعن رسوله، والفعل المنقول عنهما، ويخرج عنه إجماع الأمة على أحد القولين، لأن ذلك ليس بطريق شرعي على هذا التفسير، ولا يلزم أن يكون الشرع ناسخاً لحكم العقل، لأن العقل ليس طريقاً شرعيًا، ولا يلزم أن يكون المعجز ناسخاً للحكم الشرعي لأن المعجز ليس طريقاً شرعيًا ولا يلزم تقيد الحكم بغاية أو شرط أو استثناء، لأن ذلك غير متراخ، ولا يلزم ما إذا أمرنا الله بفعل واحد ثم نهانا عن مثله لأنه لو لم يكن مثل هذا النهي ناسخاً لم يكن مثل حكم الأمر ثابتاً.

٧. النسخ عندنا جائز عقلًا واقع سمعاً خلافاً لليهود، فإن منهم من أنكره عقلًا ومنهم من جوزه عقلًا، لكنه منع منه سمعاً، ويروى عن بعض المسلمين إنكار النسخ، واحتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ ووقوعه، لأن الدلائل دلت على نبوة محمد ﷺ ونبوته لا تصح إلا مع القول بنسخ شرع من قبله، فوجب القطع بالنسخ.

٨. على اليهود إلزامان الأول:

أ. الأول: جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من الفلك: (إني جعلت كل دابة مأكلًا لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه)، ثم إنه تعالى حرم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوان.

ب. الثاني: كان آدم عليه السلام يزوج الأخت من الأخ وقد حرمه بعد ذلك على موسى عليه السلام.

٩. احتج منكروا النسخ على ذلك بما يلي:

أ. لا نسلم أن نبوة محمد ﷺ لا تصح إلا مع القول بالنسخ لأن من الجائز أن يقال: إن موسى

وعيسى عليهما السلام أمر الناس بشرعهما إلى زمان ظهور شرع محمد ﷺ، ثم بعد ذلك أمر الناس باتباع محمد ﷺ فعند ظهور شرع محمد ﷺ زال التكليف بشرعهما وحصل التكليف بشرع محمد ﷺ، لكنه لا يكون ذلك نسخاً، بل جارياً مجرى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] والمسلمون الذين أنكروا وقوع النسخ أصلًا بنوا مذهبهم على هذا الحرف وقالوا: قد ثبت في القرآن أن موسى وعيسى عليهما السلام قد بشرا في التوراة والإنجيل بمبعث محمد ﷺ، وأن عند ظهوره يجب الرجوع إلى شرعه، وإذا كان الأمر كذلك فمع قيام هذا الاحتمال امتنع الجزم بوقوع النسخ، وهذا هو الاعتراض على الإلزامين المذكورين.

ب. إن الله تعالى لما بين شرع عيسى عليه السلام، فاللفظ الدال على تلك الشريعة، إما أن يقال: إنها دالة على دوامها أو لا على دوامها أو ما كان فيها دلالة على الدوام ولا على اللادوام، فإن بين فيها ثبوتها على الدوام، ثم تبين أنها ما دامت كان الخبر الأول كذباً وإنه غير جائز على الشرع، وأيضاً، فلو جوزنا ذلك لم يكن لنا طريق إلى العلم بأن شرعنا لا يصير منسوخاً، لأن أقصى ما في الباب أن يقول الشرع: هذه الشريعة دائمة ولا تصير منسوخة قط ألبتة، ولكنا إذا رأينا مثل هذا الكلام حاصلًا في شرع موسى وعيسى عليهما السلام مع أنهما لم يدوما زال الوثوق عنه في كل الصور.

١٠. سؤال وإشكال: لم لا يجوز أن يقال: ذكر اللفظ الدال على الدوام، ثم قرن به ما يدل على أنه سينسخه أو ما قرن به إلا أنه نص على ذلك إلا أنه لم ينقل إلينا في الجملة؟ والجواب: هذا ضعيف لوجوه:

أ. أحدها: أن التنصيص على اللفظ الدال على الدوام مع التنصيص على أنه لا يدوم جمع بين كلامين متناقضين، وإنه سفه وعبث.

ب. ثانيها: على هذا التقدير قد بين الله تعالى أن شرعهما سيصير منسوخاً، فإذا نقل شرعه وجب أن ينقل هذه الكيفية أيضاً، لأنه لو جاز أن ينقل أصل الشرع بدون هذه الكيفية لجاز مثله في شرعنا أيضاً، وحينئذ لا يكون لنا طريق إلى القطع بأن شرعنا غير منسوخ لأن ذلك من الوقائع العظيمة التي تتوفر فيها الدواعي على نقله، وما كان كذلك وجب اشتهاره وبلوغه إلى حد التواتر، وإلا فلعل القرآن عورض، ولم تنقل معارضته ولعل محمداً ﷺ غير هذا الشرع عن هذا الوضع ولم ينقل، وإذا ثبت وجوب أن تنقل هذه الكيفية على سبيل التواتر فنقول: لو أن الله تعالى نص في زمان موسى وعيسى عليهما السلام على أن

شرعيهما سيصيران منسوخين لكان ذلك مشهوراً لأهل التواتر، ومعلوماً لهم بالضرورة، ولو كان كذلك لاستحال منازعة الجمع العظيم فيه، فحيث رأينا اليهود والنصارى مطبقين على إنكار ذلك علمنا أنه لم يوجد التنصيص على أن شرعيهما يصيران منسوخين.

١١. القول بأن الله تعالى نص على شرع موسى عليه السلام وقرن به ما يدل به على أنه منقطع غير دائم، فهذا باطل لما ثبت أنه لو كان كذلك لوجب أن يكون ذلك معلوماً بالضرورة لأهل التواتر، وأيضاً فبتقدير صحته لا يكون ذلك نسخاً، بل يكون ذلك انتهاء للغاية.

١٢. التمسك في وقوع النسخ بقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، والاستدلال به أيضاً ضعيف، لأن (ما) هاهنا تفيد الشرط والجزاء، وكما أن قولك: من جاءك فأكرمه لا يدل على حصول المجيء، بل على أنه متى جاء وجب الإكرام، فكذا هذه الآية لا تدل على حصول النسخ، بل على أنه متى حصل النسخ وجب أن يأتي بما هو خير منه، فالأقوى أن نعول في الإثبات على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل: ١٠١] وقوله: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]

١٣. اختلف في وقوع النسخ في القرآن:

أ. الجمهور على وقوعه في القرآن، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، وبأدلة أخرى سنفردها في مسألة خاصة.

ب. قال أبو مسلم بن بحر: إنه لم يقع.

١٤. أجاب أبو مسلم والمنكرون للنسخ عن الاستدلال بقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ بوجوه:

أ. الأول: أن المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع التي في الكتب القديمة من التوراة والإنجيل، كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب مما وضعه الله تعالى عنا وتعبدنا بغيره، فإن اليهود والنصارى كانوا يقولون: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فأبطل الله عليهم ذلك بهذه الآية.

ب. الثاني: المراد من النسخ نقله من اللوح المحفوظ وتحويله عنه إلى سائر الكتب وهو كما يقال نسخت الكتاب.

ج. الثالث: أنا بينا أن هذه الآية لا تدل على وقوع النسخ، بل على أنه لو وقع النسخ لوقع إلى خير منه.

١٥. أجاب المثبتون للنسخ عن هذا:

أ. عن الأول بأن الآيات إذا أطلقت، فالمراد بها آيات القرآن لأنه هو المعهود ـ عنده وعند أصحابه ـ.، ولقائل أن يقول: لا نسلم أن لفظ الآية مختص بالقرآن، بل هو عام في جميع الدلائل.

ب. عن الثاني: بأن نقل القرآن من اللوح المحفوظ لا يختص ببعض القرآن وهذا النسخ مختص ببعضه، ولقائل أن يقول: لا نسلم أن النسخ المذكور في الآية مختص ببعض القرآن، بل التقدير والله أعلم ما ننسخ من اللوح المحفوظ فإنا نأتي بعده بما هو خير منه.

١٦. هذه حجج القائلين بوقوع النسخ وأجوبة المنكرين له عليها:

أ. أن الله تعالى أمر المتوفى عنها زوجها بالاعتداد حولًا كاملًا وذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠] ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر كما قال ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقال أبو مسلم: الاعتداد بالحول ما زال بالكلية لأنها لو كانت حاملًا ومدة حملها حول كامل لكانت عدتها حولًا كاملًا، وإذا بقي هذا الحكم في بعض الصور كان ذلك تخصيصاً لا ناسخاً، والجواب: أن مدة عدة الحمل تنقضي بوضع الحمل سواء حصل وضع الحمل بسنة أو أقل أو أكثر فجعل السنة العدة يكون زائلًا بالكلية.

ب. أمر الله بتقديم الصدقة بين يدي نجوى الرسول بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢] ثم نسخ ذلك، قال أبو مسلم: إنما زال ذلك لزوال سببه لأن سبب التعبد بها أن يمتاز المنافقون من حيث لا يتصدقون عن المؤمنين، فلما حصل هذا الغرض سقط التعبد، والجواب: لو كان كذلك لكان من لم يتصدق منافقاً وهو باطل لأنه روي أنه لم يتصدق غير علي رضي الله عنه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣]

ج. أنه تعالى أمر بثبات الواحد للعشرة بقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ

صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦]

د. قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] ثم إنه تعالى أزالهم عنها بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]. قال أبو مسلم: حكم تلك القبلة ما زال بالكلية لجواز التوجه إليها عند الإشكال أو مع العلم إذا كان هناك عذر.. والجواب: أن على ما ذكرته لا فرق بين بيت المقدس وسائر الجهات، فالخصوصية التي بها امتاز بيت المقدس عن سائر الجهات قد زالت بالكلية فكان نسخاً.

هـ. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١] والتبديل يشتمل على رفع وإثبات، والمرفوع إما التلاوة وإما الحكم، فكيف كان فهو رفع ونسخ.

١٧. احتج أبو مسلم والمنكرون للنسخ بأن الله تعالى وصف كتابه بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلو نسخ لكان قد أتاه الباطل، والجواب: أن المراد أن هذا الكتاب لم يتقدمه من كتب الله ما يبطله ولا يأتيه من بعده أيضاً ما يبطله.

١٨. المنسوخ إما أن يكون هو الحكم فقط أو التلاوة فقط أو هما معاً:

أ. أما الذي يكون المنسوخ هو الحكم دون التلاوة فكهذه الآيات التي عددناها، وأما الذي يكون المنسوخ هو التلاوة فقط فكما يروى عن عمر أنه قال كنا نقرأ آية الرجم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم) وروي: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى إليهما ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب)

ب. وأما الذي يكون منسوخ الحكم والتلاوة معاً، فهو ما روت عائشة أن القرآن قد نزل في الرضاع بعشر معلومات ثم نسخن بخمس معلومات، فالعشر مرفوع التلاوة والحكم جميعاً والخمس مرفوع التلاوة باقي الحكم، ويروى أيضاً أن سورة الأحزاب كانت بمنزلة السبع الطوال أو أزيد ثم وقع النقصان فيه.

١٩. اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾:

أ. منهم من فسر النسخ بالإزالة.

ب. ومنهم من فسره بالنسخ بمعنى نسخت الكتاب وهو قول عطاء وسعيد بن المسيب.

٢٠. من فسر النسخ بالإزالة، ذكر فيه وجوهاً:

أ. أحدها: ما ننسخ من آية وأنتم تقرؤونه أو ننسها أي من القرآن ما قرئ بينكم ثم نسيتم وهو قول الحسن والأصم وأكثر المتكلمين فحملوه على نسخ الحكم دون التلاوة، وننسها على نسخ الحكم والتلاوة معاً.

ب. الثاني: ما ننسخ من آية أي نبدلها، إما بأن نبدل حكمها فقط أو تلاوتها فقط أو نبدلهما، أما قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ فالمراد نتركها كما كانت فلا نبدلها، وقد بينا أن النسيان بمعنى الترك قد جاء، فيصير حاصل الآية أن الذي نبدله فإنا نأتي بخير منه أو مثله.

ج. الثالث: ما ننسخ من آية، أي ما نرفعها بعد إنزالها أو ننسأها على قراءة الهمزة أي نؤخر إنزالها من اللوح المحفوظ، أو يكون المراد نؤخر نسخها فلا ننسخها في الحال، فإنا ننزل بدلها ما يقوم مقامها في المصلحة.

د. الرابع: ما ننسخ من آية، وهي الآية التي صارت منسوخة في الحكم والتلاوة معاً، أو ننسها، أي نتركها وهي الآية التي صارت منسوخة في الحكم ولكنها غير منسوخة في التلاوة، بل هي باقية في التلاوة.

٢١. سؤال وإشكال للذين حملوه على نسخ الحكم دون التلاوة، و﴿نُنْسِهَا﴾ على نسخ الحكم والتلاوة معاً: وقوع هذا النسيان ممنوع عقلًا وشرعاً.. أما العقل فلأن القرآن لا بد من إيصاله إلى أهل التواتر، والنسيان على أهل التواتر بأجمعهم ممتنع، وأما النقل فلقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] والجواب:

أ. عن الأول من وجهين.

• الأول: أن النسيان يصح بأن يأمر الله تعالى بطرحه من القرآن وإخراجه من جملة ما يتلى ويؤتى به في الصلاة أو يحتج به، فإذا زال حكم التعبد به وطال العهد نسي أو إن ذكر فعلى طريق ما يذكر خبر الواحد فيصير لهذا الوجه منسياً عن الصدور.

• الثاني: أن ذلك يكون معجزة للرسول ﷺ، ويروى فيه خبر: أنهم كانوا يقرؤون السورة فيصبحون وقد نسوها.

ب. عن الثاني: أنه معارض بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧]

وبقوله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]

٢٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ آيَةٍ﴾:

أ. كل المفسرين حملوه على الآية من القرآن.

ب. أبو مسلم حمل ذلك على التوراة والإنجيل.

٢٣. في قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنه الأخف.

ب. الثاني: أنه الأصلح، وهذا أولى لأنه تعالى يصرف المكلف على مصالحه لا على ما هو أخف على طباعه.

٢٤. سؤال وإشكال: لو كان الثاني أصلح من الأول لكان الأول ناقص الصلاح فكيف أمر الله به؟ والجواب: الأول أصلح من الثاني بالنسبة إلى الوقت الأول، والثاني بالعكس منه فزال السؤال.

٢٥. استنبط الفقهاء من هذه الآية أكثر مسائل النسخ[١].

٢٦. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تنبيه للنبي ﷺ وغيره على قدرته تعالى على تصريف المكلف تحت مشيئته وحكمه وحكمته، وأنه لا دافع لما أراد ولا مانع لما اختار.

٢٧. استدلّ المعتزلة، ومن وافقهم من القائلين بأن القرآن مخلوق بهذه الآية من وجوه:

أ. أحدها: أن كلام الله تعالى لو كان قديماً لكان الناسخ والمنسوخ قديمين، لكن ذلك محال، لأن الناسخ يجب أن يكون متأخراً عن المنسوخ، والمتأخر عن الشيء يستحيل أن يكون قديماً، وأما المنسوخ فلأنه يجب أن يزول ويرتفع، وما ثبت زواله استحال قدمه بالاتفاق.

ب. ثانيها: أن الآية دلت على أن بعض القرآن خير من بعض، وما كان كذلك لا يكون قديماً.

ج. ثالثها: أن قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يدل على أن المراد أنه تعالى هو القادر على نسخ بعضها والإتيان بشيء آخر بدلًا من الأول، وما كان داخلًا تحت القدرة وكان فعلًا كان محدثاً.

٢٨. نقل أجوبة واعترضات الطرفين على هذا الاحتجاج، وهي:

---

(١) ذكر مسائل تتعلق بالنسخ، نقلناها إلى محلها من السلسلة، لعدم ارتباطها مباشرة بالآية الكريمة.

أ. ذكر المخالفون بأن كونه ناسخاً ومنسوخاً إنما هو من عوارض الألفاظ والعبارات واللغات ولا نزاع في حدوثها، فلم قلتم إن المعنى الحقيقي الذي هو مدلول العبارات والاصطلاحات محدث؟

ب. قال المعتزلة: ذلك المعنى الذي هو مدلول العبارات واللغات لا شك أن تعلقه الأول قد زال وحدث له تعلق آخر، فالتعلق الأول محدث لأنه زال والقديم لا يزول، والتعلق الثاني حادث لأنه حصل بعد ما لم يكن، والكلام الحقيقي لا ينفك عن هذه التعلقات، وما لا ينفك عن هذه التعلقات محدث] وما لا ينفك عن المحدث محدث والكلام الذي تعلقت به يلزم أن يكون محدثاً.

ج. أجاب المخالفون لهم: أن قدرة الله كانت في الأزل متعلقة بإيجاد العالم، فعند دخول العالم في الوجود هل بقي ذلك التعلق أو لم يبق؟ فإن بقي يلزم أن يكون القادر قادراً على إيجاد الموجود وهو محال، وإن لم يبق فقد زال ذلك التعلق فيلزمكم حدوث قدرة الله على الوجه الذي ذكرتموه، وكذلك علم الله كان متعلقاً بأن العالم سيوجد، فعند دخول العالم في الوجود إن بقي التعلق الأول كان جهلًا، وإن لم يبق فيلزمكم كون التعلق الأول حادثاً، لأنه لو كان قديماً لما زال، وبكون التعلق الذي حصل بعد ذلك حادثاً فإذن عالمية الله تعالى لا تنفك عن التعلقات الحادثة، وما لا ينفك عن المحدث محدث فعالمية الله محدثة. فكل ما تجعلونه جواباً عن العالمية والقادرية فهو جوابنا عن الكلام.

٢٩. لما حكم الله تعالى بجواز النسخ عقبه ببيان أن ملك السموات والأرض له لا لغيره، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وهذا هو التنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما حسن منه الأمر والنهي لكونه مالكاً للخلق.. وإنه إنما حسن التكليف منه لمحض كونه مالكاً للخلق مستولياً عليهم لا لثواب يحصل، أو لعقاب يندفع.

٣٠. يحتمل أن يكون هذا إشارة إلى أمر القبلة، فإنه تعالى أخبرهم بأنه مالك السموات والأرض وأن الأمكنة والجهات كلها له وأنه ليس بعض الجهات أكبر حرمة من البعض إلا من حيث يجعلها هو تعالى له، وإذا كان كذلك وكان الأمر باستقبال القبلة إنما هو محض التخصيص بالتشريف، فلا مانع يمنع من تغيره من جهة إلى جهة.

٣١. الولي والنصير كلاهما فعيل بمعنى فاعل على وجه المبالغة، ومن الناس من استدلّ بهذه الآية على أن الملك غير القدرة، فقال: إنه تعالى قال أولًا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثم قال بعده:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلو كان الملك عبارة عن القدرة لكان هذا تكريراً من غير فائدة.

٣٢. اختلفوا في المخاطب بقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ على وجوه:

أ. أحدها: أنهم المسلمون وهو قول الأصم والجبائي وأبي مسلم، واستدلوا عليه بوجوه:

• الأول: أنه قال في آخر الآية: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ وهذا الكلام لا يصح إلا في حق المؤمنين.

• الثاني: أن قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ يقتضي معطوفاً عليه وهو قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] فكأنه قال: وقولوا انظرنا واسمعوا، فهل تفعلون ذلك كما أمرتم أم تريدون أن تسألوا رسولكم؟

• الثالث: أن المسلمين كانوا يسألون محمداً ﷺ عن أمور لا خير لهم في البحث عنها ليعلموها كما سأل اليهود موسى عليه السلام ما لم يكن لهم فيه خير عن البحث عنه.

• الرابع: سأل قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط، وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها المأكول والمشروب، كما سألوا موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة.

ب. الثاني: أنه خطاب لأهل مكة وهو قول ابن عباس ومجاهد، قال: إن عبد الله بن أمية المخزومي أتى رسول الله ﷺ في رهط من قريش فقال: يا محمد والله ما أؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب، أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى في السماء بأن تصعد، ولن نؤمن لرقيك بعد ذلك حتى تنزل علينا كتاباً من الله إلى عبد الله بن أمية أن محمداً رسول الله فاتبعوه، وقال له بقية الرهط: فإن لم تستطع ذلك فائتنا بكتاب من عند الله جملة واحدة فيه الحلال والحرام والحدود والفرائض كما جاء موسى إلى قومه بالألواح من عند الله فيها كل ذلك، فنؤمن بك عند ذلك. فأنزل الله تعالى: أم تريدون أن تسألوا رسولكم محمداً أن يأتيكم الآيات من عند الله كما سأل السبعون فقالوا: أرنا الله جهرة، وعن مجاهد أن قريشاً سألت محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وفضة، فقال: نعم هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل فأبوا ورجعوا.

ج. الثالث: المراد اليهود، وهذا القول أصح لأن هذه السورة من أول قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤٧] حكاية عنهم ومحاجة معهم ولأن الآية مدنية ولأنه جرى ذكر اليهود وما جرى ذكر غيرهم، ولأن المؤمن بالرسول لا يكاد يسأله فإذا سأله كان متبدلًا كفراً بالإيمان.

٣٣. (أم) على ضربين متصلة ومنقطعة:

أ. فالمتصلة عديلة الألف وهي مفرقة لما جمعته أي، كما أن (أو) مفرقة لما جمعته تقول: اضرب أيهم شئت زيداً أم عمراً، فإذا قلت: اضرب أحدهم قلت: اضرب زيداً أو عمراً.

ب. والمنقطعة لا تكون إلا بعد كلام تام، لأنها بمعنى بل والألف، كقول العرب: إنها الإبل أم شاء، كأنه قال بل هي شاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [الأحقاف: ٨] أي: بل يقولون، قال الأخطل:

كذبتك عينك أم رأيت بواسط   غلس الظلام من الرباب خيالا

٣٤. ليس في ظاهر قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أنهم أتوا بالسؤال فضلًا عن كيفية السؤال، بل المرجع فيه إلى الروايات التي ذكرناها في أنهم سألوا.

٣٥. السؤال الذي ذكروه:

أ. إن كان ذلك طلباً للمعجزات فهو ليس كفرا لأن طلب الدليل على الشيء لا يكون كفراً.

ب. وإن كان ذلك طلباً لوجه الحكمة المفصلة في نسخ الأحكام، فهذا أيضاً لا يكون كفراً، فإن الملائكة طلبوا الحكمة التفصيلية في خلقة البشر ولم يكن ذلك كفراً.

ج. فلعل الأولى حمل الآية على أنهم طلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة، وإن كانوا طلبوا المعجزات فإنهم كانوا يطلبونها على سبيل التعنت واللجاج فلهذا كفروا بسبب هذا السؤال.

٣٦. ذكروا في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوهاً:

أ. أحدها: أنه تعالى لما حكم بجواز النسخ في الشرائع فلعلهم كانوا يطالبونه بتفاصيل ذلك الحكم فمنعهم الله تعالى عنها وبين أنهم ليس لهم أن يشتغلوا بهذه الأسئلة كما أنه ما كان لقوم موسى أن يذكروا أسئلتهم الفاسدة.

ب. ثانيها: لما تقدم من الأوامر والنواهي قال لهم: إن لم تقبلوا ما أمرتكم به وتمردتم عن الطاعة كنتم كمن سأل موسى ما ليس له أن يسأله، عن أبي مسلم.

ج. ثالثها: لما أمر ونهى قال أتفعلون ما أمرتم أم تفعلون كما فعل من قبلكم من قوم موسى؟

٣٧. ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وسطه قال تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] أي وسط الجحيم، والغرض التشبيه دون نفس الحقيقة، ووجه التشبيه في ذلك أن من سلك طريقة الإيمان فهو جار على الاستقامة المؤدية إلى الفوز والظفر بالطلبة من الثواب والنعيم، فالمبدل لذلك بالكفر عادل عن الاستقامة فقيل فيه إنه ضل سواء السبيل.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذه آية عظمى في الأحكام، وسببها أن اليهود لما حسدوا المسلمين في التوجه إلى الكعبة وطعنوا في الإسلام بذلك، وقالوا: إن محمدا يأمر أصحابه بشيء ثم ينهاهم عنه، فما كان هذا القرآن إلا من جهته، ولهذا يناقض بعضه بعضا، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ وأنزل ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾

٢. معرفة هذا الباب أكيدة وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء، لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام، روى أبو البختري قال دخل علي رضي الله عنه المسجد فإذا رجل يخوف الناس، فقال: ما هذا؟ قالوا: رجل يذكر الناس، فقال: ليس برجل يذكر الناس! لكنه يقول أنا فلان ابن فلان فاعرفوني، فأرسل إليه فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ!؟ فقال: لا، قال فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه، وفي رواية أخرى: أعلمت الناسخ والمنسوخ؟ قال لا، قال هلكت وأهلكت!، ومثله عن ابن عباس.

٣. النسخ في كلام العرب على وجهين:

أ. أحدهما: النقل، كنقل كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا، أعني من اللوح المحفوظ وإنزاله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وهذا لا مدخل له في هذه الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نأمر بنسخه وإثباته.

ب. الثاني: الابطال والإزالة، وهو المقصود هنا، وهو منقسم في اللغة على ضربين:

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٦٢.

• أحدهما: إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه، ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾، وفي صحيح مسلم: (لم تكن نبوة قط إلا تناسخت) أي تحولت من حال إلى حال، يعني أمر الامة. قال ابن فارس: النسخ نسخ الكتاب، والنسخ أن تزيل أمرا كان من قبل يعمل به ثم تنسخه بحادث غيره، كالآية تنزل بأمر ثم ينسخ بأخرى، وكل شي خلف شيئا فقد انتسخه، يقال: انتسخت الشمس الظل، والشيب الشباب، وتناسخ الورثة: أن تموت ورثة بعد ورثة واصل الميراث قائم لم يقسم، وكذلك تناسخ الأزمنة والقرون.

• الثاني: إزالة الشيء دون أن يقوم آخر مقامه، كقولهم: نسخت الريح الأثر، ومن هذا المعنى قوله تعالى ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾) أي يزيله فلا يتلى ولا يثبت في المصحف بدله.

٤. زعم بعضهم أن هذا النسخ الثاني قد كان ينزل على النبي ﷺ السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب، ومنه ما روي عن أبي بن كعب وعائشة أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول، ومما يدل على هذا ما ذكره أبو بكر الأنباري أن رجلا قام من الليل ليقرأ سورة من القرآن فلم يقدر على شي منها، وقام آخر فلم يقدر على شي منها، وقام آخر فلم يقدر على شي منها، فغدوا على رسول الله ﷺ، فقال أحدهم: قمت الليلة يا رسول الله لاقرأ سورة من القرآن فلم أقدر على شي منها، فقام الأخر فقال: وأنا والله كذلك يا رسول الله، فقام الأخر فقال: وأنا والله كذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: (إنها مما نسخ الله البارحة)

٥. أنكرت طوائف من المنتمين للإسلام المتأخرين جوازه، وهم محجوجون بإجماع السلف السابق على وقوعه في الشريعة، وأنكرته أيضا طوائف من اليهود، وهم محجوجون بما جاء في توراتهم بزعمهم أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة: إني قد جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك، وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب، ما خلا الدم فلا تأكلوه، ثم قد حرم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيرا من الحيوان، وبما كان آدم عليه السلام يزوج الأخ من الأخت، وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره، وبأن إبراهيم الخليل أمر بذبح ابنه، ثم قال له: لا تذبحه، وبأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم، وبأن نبوته غير متعبد بها قبل بعثه، ثم تعبد بها بعد ذلك، إلى غير ذلك.

٦. ليس النسخ من باب البداء بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة، وحكم إلى حكم، لضرب من المصلحة، إظهارا لحكمته وكمال مملكته، ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية، وإنما كان يلزم البداء لو لم يكن عالما بمآل الأمور، وأما العالم بذلك فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح، كالطبيب المراعي أحوال العليل، فراعى ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته، لا إله إلا هو، فخطابه يتبدل، وعلمه وإرادته لا تتغير، فإن ذلك محال في جهة الله تعالى، وجعلت اليهود النسخ والبداء شيئا واحدا، ولذلك لم يجوزوه فضلوا، قال النحاس: والفرق بين النسخ والبداء أن النسخ تحويل العبادة من شي إلى شي قد كان حلالا فيحرم، أو كان حراما فيحلل، وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه، كقولك: امض إلى فلان اليوم، ثم تقول لا تمض إليه، فيبدو لك العدول عن القول الأول، وهذا يلحق البشر لنقصانهم، وكذلك إن قلت: ازرع كذا في هذه السنة، ثم قلت: لا تفعل، فهو البداء.

٧. الناسخ على الحقيقة هو الله تعالى، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخا تجوزا، إذ به يقع النسخ، كما قد يتجوز فيسمى المحكوم فيه ناسخا، فيقال: صوم رمضان ناسخ لصوم عاشوراء، فالمنسوخ هو المزال، والمنسوخ عنه هو المتعبد بالعبادة المزالة، وهو المكلف.

٨. اختلفت عبارات أئمتنا في حد الناسخ، فالذي عليه الحذاق من أهل السنة أنه إزالة ما قد استقر من الحكم الشرعي بخطاب وارد متراخيا، هكذا حده القاضي عبد الوهاب والقاضي أبو بكر، وزادا: لولاه لكان السابق ثابتا، فحافظا على معنى النسخ اللغوي، إذ هو بمعنى الرفع والإزالة، وتحرزا من الحكم العقلي، وذكر الخطاب ليعم وجوه الدلالة من النص والظاهر والمفهوم وغيره، وليخرج القياس والإجماع، إذ لا يتصور النسخ فيهما ولا بهما، وقيدا بالتراخي، لأنه لو اتصل به لكان بيانا لغاية الحكم لا ناسخا، أو يكون آخر الكلام يرفع أوله، كقولك: قم لا تقم.

٩. المنسوخ عند أئمتنا أهل السنة هو الحكم الثابت نفسه لا مثله، كما تقوله المعتزلة بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدم زائل، والذي قادهم إلى ذلك مذهبهم في أن الأوامر مرادة، وأن الحسن صفة نفسية للحسن، ومراد الله حسن، وهذا قد أبطله علماؤنا في كتبهم.

١٠. اختلف علماؤنا في الاخبار هل يدخلها النسخ:

أ. الجمهور على أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهي، والخبر لا يدخله النسخ لاستحالة

الكذب على الله تعالى.

ب. وقيل: إن الخبر إذا تضمن حكما شرعيا جاز نسخه، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾

١١. التخصيص من العموم يوهم أنه نسخ وليس به، لان المخصص لم يتناوله العموم قط، ولو ثبت تناول العموم لشيء ما ثم أخرج ذلك الشيء عن العموم لكان نسخا لا تخصيصا، والمتقدمون يطلقون على التخصيص نسخا توسعا ومجازا.

١٢. قد يرد في الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والاستغراق، ويرد تقييدها في موضع آخر فيرتفع ذلك الإطلاق، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، فهذا الحكم ظاهره خبر عن إجابة كل داع على كل حال، لكن قد جاء ما قيده في موضع آخر، كقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾، فقد يظن من لا بصيرة عنده أن هذا من باب النسخ في الاخبار وليس كذلك، بل هو من باب الإطلاق والتقييد.

١٣. قال علماؤنا: جائز نسخ الأثقل إلى الأخف، كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنين، ويجوز نسخ الأخف إلى الأثقل، كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان، وينسخ المثل بمثله ثقلا وخفة، كالقبلة، وينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى، وينسخ القرآن بالقرآن، والسنة بالعبارة، وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي، وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد، وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة.. والحذاق أيضا على أن السنة تنسخ بالقرآن وذلك موجود في القبلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن في كتاب الله تعالى، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي ﷺ لقريش، والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلا، واختلفوا هل وقع شرعا، فذهب أبو المعالي وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباء، وأبى ذلك قوم، ولا يصح نسخ نص بقياس، إذ من شروط القياس ألا يخالف نصا، وهذا كله في مدة النبي ﷺ، وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الامة أنه لا نسخ، ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به إذ انعقاده بعد انقطاع الوحي، فإذا وجدنا إجماعا يخالف نصا فيعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن، وأن ذلك النص المخالف متروك العمل به، وأن مقتضاه نسخ وبقي سنة يقرأ ويروى، كما آية عدة السنة في القرآن تتلى، فتأمل هذا فإنه نفيس، ويكون من باب نسخ

الحكم دون التلاوة، ومثله صدقة النجوى، وقد تنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم، وقد تنسخ التلاوة والحكم معا.

١٤. الذي عليه الحذاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول، كما في تحويل القبلة، والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله، وهو موجود في قصة الذبيح، وفي فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس.

١٥. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بالإيجاد والاختراع، والملك والسلطان، ونفوذ الامر والإرادة، وارتفع ﴿مَلِكِ﴾ بالابتداء، والخبر ﴿اللهُ﴾ والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، لقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وقيل: المعنى أي قل لهم يا محمد ألم تعلموا أن لله سلطان السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي، من وليت أمر فلان، أي قمت به، ومنه ولي العهد، أي القيم بما عهد إليه من أمر المسلمين، ومعنى ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ سوى لله وبعد الله، كما قال أمية بن أبي الصلت:

يا نفس ما لك دون الله من واق ... وما على حدثان الدهر من باق

١٦. السواء من كل شي: الوسط. قاله أبو عبيدة معمر بن المثني، ومنه قوله: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾، وحكى عيسى بن عمر قال ما زلت أكتب حتى انقطع سوائي، وأنشد قول حسان يرثي رسول الله ﷺ:

يا ويح أصحاب النبي ورهطه ... بعد المغيب في سواء الملحد

وقيل: السواء القصد، عن الفراء، أي ذهب عن قصد الطريق وسمته، أي طريق طاعة الله عز وجل.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. النسخ في كلام العرب على وجهين:

أ. أحدهما: النقل، كنقل كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخا، أعني: من اللوح

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/١٤٧.

المحفوظ، فلا مدخل لهذا المعنى في هذه الآية، ومنه ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمر بنسخه.

ب. الثاني: الإبطال والإزالة، وهو المقصود هنا، وهذا الوجه الثاني ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة:

• أحدهما: إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه، ومنه: نسخت الشمس الظل: إذا أذهبته وحلت محله، وهو معنى قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ وفي صحيح مسلم: (لم تكن نبوّة قط إلا تناسخت) أي: تحوّلت من حال إلى حال.

• الثاني: إزالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم: نسخت الريح الأثر، ومن هذا المعنى ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: يزيله، وروي عن أبي عبيد أن هذا قد كان يقع في زمن رسول الله ﷺ، فكانت تنزل عليه السورة فترفع، فلا تتلى ولا تكتب، ومنه ما روي عن أبيّ وعائشة أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول.

٢. قال ابن فارس: النسخ نسخ الكتاب، والنسخ أن تزيل أمرا كان من قبل يعمل به ثم تنسخه بحادث غيره، كالآية تنزل بأمر ثم تنسخ بأخرى، وكل شيء خلف شيئا فقد انتسخه، يقال: نسخت الشمس الظل، والشيب الشباب، وتناسخ الورثة: أن يموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم، وكذا تناسخ الأزمنة والقرون، وقال ابن جرير: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن نحوّل الحلال حراما، والحرام حلالا، والمباح محظورا، والمحظور مباحا، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة؛ فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة أخرى، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله إلى غيره، وسواء نسخ حكمها أو خطها، إذ هي في كلتي حالتيها منسوخة.

٣. اتفق أهل الإسلام على ثبوت النسخ سلفا وخلفا، ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لا يعتدّ بخلافه ولا يؤبه لقوله، وقد اشتهر عن اليهود ـ أقمأهم الله ـ إنكاره، وهم محجوجون بما في التوراة أن الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة: إني قد جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك، وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه، ثم قد حرّم على موسى وعلى بني إسرائيل كثيرا من الحيوان، وثبت في التوراة أن آدم كان يزوّج الأخ من الأخت، وقد حرّم الله ذلك على موسى عليه السلام

وعلى غيره، وثبت فيها أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه، ثم قال الله له لا تذبحه، وبأن موسى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل، ثم أمرهم برفع السيف عنهم، ونحو هذا كثيرا في التوراة الموجودة بأيديهم.

٤. ﴿نُنْسِهَا﴾ بضم النون، من النسيان الذي بمعنى الترك، أي: نتركها فلا نبدلها ولا ننسخها، ومنه قوله تعالى ﴿نَسُوا اللهَّ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا عبادته فتركهم في العذاب، وحكى الأزهري أن معناه: نأمر بتركها، يقال: أنسيته الشيء، أي: أمرته بتركه، ونسيته تركته، ومنه قول الشاعر:

إنّ عليّ عقبة أقضيها   لست بناسيها ولا منسيها

أي: ولا آمر بتركها.. والذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ نبح لكم تركها، من نسي، إذا ترك، ثم تعديه.

٥. معنى ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ نأت بما أنفع للناس منها في العاجل والآجل، أو في أحدهما، أو بما هو مماثل لها من غير زيادة، ومرجع ذلك إلى إعمال في المنسوخ والناسخ، فقد يكون الناسخ أخفّ، فيكون أنفع لهم في العاجل، وقد يكون أثقل وثوابه أكثر، فيكون أنفع لهم في الآجل، وقد يستويان فتحصل المماثلة.

٦. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفيد أن النسخ من مقدوراته، وإن إنكاره إنكار للقدرة الإلهية، وهكذا قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له التصرف في السموات والأرض بالإيجاد والاختراع ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباده وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبدهم بها، وشرعها لهم، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والأزمنة والأشخاص، وهذا صنع من لا وليّ لهم غيره ولا نصير سواه، فعليهم أن يتلقوه بالقبول والامتثال والتعظيم والإجلال.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/١٨٨.

١. لَمَّا قال اليهود والمشركون من العرب: محمَّد يقول من عنده لا من الله؛ لأنَّه يأمر بأمر ثمَّ ينهى عنه، نزل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنَ ـ ايَةٍ﴾ نرفعْ حُكمَها ولفظَها، أو نرفعْ حُكمَها ونبقِ لفظها، أو نرفعْ لفظها ونُبقِ حكمها ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ نرفعها من قلبك ونَمْحُهَا منه ومن قلوب أصحابك، فلا يدركون لفظها ولا معناها، ولا العمل بها، وهذا قِسمٌ آخر؛ لأنَّه قد يكون في الأخبار وقد يكون في غيرها، فإمَّا أن يكون معناها في آية أخرى أو لا يكون، فيكون قد رُفع التكليف بها، وهو شامل للنبيء ﷺ لقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىآ إِلَّا مَا شَآءَ اللهُ﴾ [الأعلى: ٦ ـ ٧].

٢. وَأَمَّا الامتناع في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] فباعتبار ما لا يجوز نسخه، أو باعتبار الكلِّ، وبين النسخ والإنساء عموم وخصوص يجتمعان في الرفع عن القلوب، ويختصُّ النسخ بمنسوخ الحكم مع بقاء التلاوة وبالعكس، ويختصُّ الإنساء بالأخبار التي أُذْهبت عن القلوب.

٣. ﴿نَاتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ ثوابا أو سهولة في الامتثال ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ في ذلك، كما قال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١].

٤. أمثلة لما نُسخ:

أ. روي أنَّ جماعة من الصحابة قاموا ليلة ليقرؤوا سورة، فلم يبق لهم منها إلَّا ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فأخبروه ﷺ غدوة الليلة، فقال: (رُفِعت تلاوتُها وحكمها).

ب. وممَّا نُسخ لفظه وحكمه: (عشر رضعات معلومات يحرِّمن)، وكثير من سورة الأحزاب، وكانت كالبقرة إلَّا أنَّه يحتمل بقاء بعض حكمها في سورة أخرى.

ج. قال بعض الصحابة: (كنَّا نقرأ سورة تشبه في الطول والشدَّة ببراءة، فأُنسيتها غير أنِّي حفظت منها: (لو كان لابن آدم واديان من المال لابتغى إليهما واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلَّا التراب)، وكنَّا نقرأ سورة نشبِّهها بإحدى المسبِّحات فأُنسيتها، غير أنِّي حفظت منها: (يا أيّها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادتها في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة).

د. وممَّا نسخ لفظه فقط آية الرجم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما..) الآية، قال عمر: (قرأناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا، إذا كانت البيِّنة أو الحمل أو الاعتراف)، وكانت في سورة

الأحزاب، وقيل: في النور.

هـ. وقوله تعالى: (خروجكم عن آبائكم كفرٌ بكم) يعني انتسابهم إلى غيرهم.

و. وممَّا نسخ حكمه فقط آية عِدَّة الوفاة بالسنَة، نسخت بآية العدَّة بأربعة أشهر وعشر، وآية وجوب ثبوت واحد لعشرة بآية ثبوت واحد لاثنين.

٥. أوجه النسخ: ويكون النسخ بالإبدال إلى أخفَّ كأربعة الأشهر، والمصابرة لأقلَّ من ثلاثة، وإلى أثقل كوجوب الصوم بعد التخيير بينه وبين الإطعام، وكترك القتال حتما إلى وجوبه فيما قيل، ونسخ الإباحة إلى التحريم، كتحريم الخمر بعد إباحتها، وإلى مُساوٍ كنسخ الصلاة إلى القدس بالصلاة إلى الكعبة، وبلا إبدال، وحُمل عليه قوله عزَّ وعلا: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، فالمعنى: نأت بغيرها في غير شأنها، وَأَمَّا نسخ وجوب صوم عاشوراء إلى الندب بصوم ثلاثة أيَّام من كلِّ شهر، أو لرمضان وصوم الثلاثة برمضان فموجودٌ، إلَّا أنَّه لا يوجد المنسوخ في القرآن صراحًا بل بتأويل.

٦. ﴿أَلَمْ تَعْلَمَ اَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ زيادة تثبيت للنبيء ﷺ، وأمَّته تبعٌ له، والخطاب لكلِّ من يصلح له، يعلمون أنَّ الله لا يعجزه شيء، فقد نسخهم قردة وخنازير بعد أن كانوا في صورة البشر، وليس ذلك بداوةً له، بل قضى الله في الأزل أنَّ إبقاءهم في صورة البشر إلى وقت مخصوص، فكذلك قضى الله فيه أنَّ الآية تبقى إلى كذا، ثمَّ إنَّه إن كان النسخ إلى أخفَّ فالخيريَّة في النفع، أو إلى أثقل فالخيريَّة في الثواب، وإن كان النسخ في اللفظ إلى أخصر فالخيريَّة في النفع، أو إلى أطول ففي الثواب، وإن كان في اللفظ والحكم إلى أخفَّ حكمًا، وأخصر لفظا فالخيريَّة في النفع، أو إلى أثقل حكمًا وأطول لفظًا فالخيريَّة في الثواب، أو إلى أخفَّ حكمًا وأطول لفظًا فالخيريَّة في النفع والثواب، أو إلى أثقل حكمًا وأخصر لفظًا فالخيريَّة في الثواب بالنسبة للحكم، وفي النفع بالنسبة إلى اللفظ، ومنع بعضهم النسخ إلى أثقل.

٧. والنسخ دليل على أنَّ القرآن حادث مخلوق، ولا نثبت الكلام النفسيَّ، فضلا عن أن يقال: التغيُّر من عوارض ما يتعلَّق به الكلام النفسيُّ، وهي الأفعال في الأمر والنهي، والنِّسَبُ الخبريَّة في الخبر، وفي إثبات الكلام النفسيِّ إثبات كون الله ظرفًا ومتحيِّزًا وإن رجع ذلك إلى العلم لزم أنَّ كلَّ ما علمه قديم، والقرآن هو هذه الألفاظ لا غيرها.

٨. ﴿اَلَمْ تَعْلَمَ اَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ له التصرُّف فيهما بالزيد والنقص والتغيير، ومن

له ذلك فكيف وله أضعافها: العرش والكرسيُّ وغيرهما، فله التصرُّف بالنسخ، وكلُّ ذلك على ما سبق به قضاؤه الأزليُّ، ولم تعطف هذه الجملة لأنَّها إيضاح لما قبلها وتأكيد في المعنى، وللإشعار بأنَّها مستقلَّة في الاحتجاج.

٩. ﴿وَمَا لَكُم﴾ الخطاب لكفَّار العرب وغيرهم ﴿مِّن دُونِ اللهِ مِن وَّلِيٍّ﴾ يحفظكم عن توجُّه العذاب إليكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعه عنكم إذا أتاكم، وقد يضعف الوليُّ عن النصرة، وقد يكون النصير أجنبيًّا، فبينهما عموم وخصوص من وجه، فعموم الوليِّ في النصر وعدمه، وخصوصه في القرابة، وعموم النصر في القرابة وعدمها، وخصوصه في إيقاع النصر جزمًا، ومَن وليُّه اللهُ لا يجد إلَّا خيرًا في أمر النسخ وغيره، ولا يرتاب، والمراد بالوليِّ الوليُّ من حيث الدفع، وإلَّا فلكلِّ أحد وليٌّ، و(مَا) حجازيَّة لم تعمل لتقدُّم الخبر، ويجوز أن يكون اسمها اسم فاعل ناب عنه (لَكُمْ)، و(وَلِيّ) فاعل له أغنى عن خبرها، أي: ما ثابت لكم وليٌّ ولا نصير، كما تقول: ما قائم الزيدان.

١٠. ﴿أَمْ﴾ بل تريدون، وهو إضراب انتقال عن قصَّة لا إبطال ﴿تُرِيدُونَ﴾ يا معشر العرب وغيرهم كاليهود ﴿أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ﴾ أعلَمَهم أنَّه رسول للعرب واليهود وغيرهم، أمَّا العرب فسألوه أن يوسِّع أرض مكَّة بإذهاب الجبال عنها للحرث والنزهة، وأن يجعل الصفا ذهبًا، وأن يبعث قُصيًّا يخبرهم أنَّه نبيء، قال السُّدِّيُّ: وأن يروا الله جهرة، قال: نعم، على أنَّه لكم كالمائدة لبني إسرائيل، فقال ابن أبي العالية: أن تكون كفَّاراتنا ككفَّارات بني إسرائيل، فقال: كفَّاراتكم خير: الاستغفار والصلوات والجمعة وكفَّاراتهم خزي، فإن لم يكفِّروها ففي الآخرة، ومن ذلك قول رافع بن خزيمة: إن كنت رسولا فيكلِّمنا الله حتَّى نسمع كلامه، وَأَمَّا اليهود فسألوه أن يأتي بالكتاب من الله جملة كالتوراة، وأن يأتي بالله والملائكة قبيلاً، ونحو ذلك.

١١. ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ سأله اليهود أن يريهم الله جهرة، وأن يجعل لهم إلهًا كما جعل قوم لأنفسهم آلهة، ونحو ذلك.

١٢. ﴿وَمَنْ يَّتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالِايمَانِ﴾ يأخذ الشرك والكبائر بدل التوحيدِ والإيمانِ، بترك التفكُّر في ما أنزل الله، وطلب آيات أُخر تعنُّتًا، ﴿فَقَدْ ضَّلَّ سَوَآءَ﴾ أي: عن سواء، أو أخطأ سواء ﴿السَّبِيلِ﴾ أي: السبيل السواء، أي: المعتدل وهو الحقُّ، قيل: قوله: ﴿وَمَنْ يَّتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالِايمَانِ﴾ يدلُّ على أنَّ الخطاب في

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، ﴿وَمَا لَكُمْ﴾، ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ للمؤمنين؛ لأنَّ هذا لا يصحُّ إلَّا في المؤمنين؛ لأنَّهم آمنوا فنُهوا أن يبدِّلوه بالكفر، قلت: لا يتعيَّن هذا، لجواز أن يكون معنى التبدُّل إعراض الكفرة عن التوحيد والإيمان، واستدلَّ على أنَّ الخطاب في ذلك كلِّه للمؤمنين بأنَّ قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ عطف على ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ [الآية: ١٠٤]، قلت: لا يتعيَّن لجواز أن تكون (أَمْ) حرف ابتداء للإضراب كما مرَّ، ولا داعي إلى تقدير: أتفعلون ما أُمرتم من السمع، وقول: انظرنا، أتريدون، واستدلَّ على أنَّ الخطاب للمؤمنين بأنَّهم كانوا يسألونه ﷺ عمَّا لا خير فيه، كما سأل اليهود موسى عليه السلام، كما روي أنَّهم قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما أنَّ للمشركين ذات أنواط، شجرة يعبدونها ويعلِّقون عليها سلاحهم ومأكولهم ومشروبهم، إلَّا أنَّهم لم يريدوا أن يعبدوها فقال: (الله أكبر! هذا كما قال لأخي موسى قومُه: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَهًا كَمَا لَهُمُ ءَالِهَةٌ﴾! والذي نفسِي بيدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سَنَن من قَبْلَكُم حَذْوَ النَّعل بالنَّعل، والقُذَّة بالقُذَّة، إن كان فيهم من أتى أمَّه يكن فيكم! فلا أدري أتعبدون العجل)، واختار بعض أنَّ الخطاب لليهود؛ لأنَّ الكلام فيهم من قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُواْ﴾ [الآية: ١٢٢].

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لمّا أنكرت اليهود أن يقع شيء من النسخ لآيات الله، توصلا بذلك إلى إنكار آيات القرآن، وتأييد تأبيد التوراة، ردّ عليهم سبحانه ـ بعد تحقيق حقية الوحي ـ بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

٢. ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: ما نبدّل من آية بغيرها ـ كنسخنا آيات التوراة بآيات القرآن ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي: نذهبها من القلوب، كما أخبر بقوله: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، وقرئ (أو ننسأها) أي نؤخرها ونتركها بلا نسخ، كما أبقى كثيرا من أحكام التوراة في القرآن، وعلى هذه القراءة، فقد نشر على ترتيب هذا اللف قوله ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أي: من المنسوخة المبدلة ـ كما فعل في الآيات التي شرعت في الملّة الحنيفية ما فيه اليسر، ورفع الحرج، والعنت ـ فكانت خيرا من تلك الآصار والأغلال.

---

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٧١.

٣. وقوله ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي: مثل تلك الآيات الموحاة قبل، كما يرى في كثير من الآيات في القرآن الموافقة لما بين يديها مما اقتضت الحكمة بقاءه واستمراره.

٤. سؤال وإشكال: إن الذي ترك ولم ينسخ ليس مثله بل هو هو، فكيف قال: ﴿مِثْلُهَا﴾؟ قيل: الحكم الذي أنزل في القرآن ـ وكان ثابتا في الشرع الذي قبلنا ـ يصحّ أن يقال هو هو، إذا اعتبر بنفسه ولم يعتبر بكسوته ـ التي هي اللفظ، ويصح أن يقال هو مثله إذا لم يعتبر بنفسه فقط بل اعتبر باللفظ، ونحو ذلك أن يقال: ماء البئر هو ماء النهر ـ إذا اعتبر جنس الماء، وتارة يقال: مثل ماء النهر ـ إذا اعتبر قرار الماء.. على أنّ إرادة العين بالمثل شائعة ـ كما في قولهم: مثلك لا يبخل ـ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على الخير، وما هو خير منه، وعلى مثله في الخير. قال الراغب: أي لا تحسبنّ أنّ تغييري لحكم، حالا فحالا، وأني لم آت بالثاني في الابتداء ـ هو العجز، فإنّ من علم قدرته على كل شيء لا يظنّ ذلك، وإنما تغيّر ذلك يرجع إلى مصلحة العباد، وأنّ الأليق بهم، في الوقت المتقدّم، الحكم المتقدّم، وفي الوقت المتأخّر، الحكم المتأخّر.

٥. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أموركم ويدبّرها، وهو أعلم بما يتعبّدكم به من ناسخ أو منسوخ، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يلي أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يمنعكم من العذاب.

٦. قضيّة العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة، هو الجزم والإيقان بأنّه تعالى لا يفعل بهم ـ في أمر من أمور دينهم أو دنياهم ـ إلّا ما هو خير لهم، والعمل بموجبه ـ من الثقة به، والتوكّل عليه، وتفويض الأمر إليه. من غير إصغاء إلى أقاويل اليهود، وتشكيكاتها التي من جملتها ما قالوا في أمر النسخ، حيث أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوّة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، لمجيئهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أنّ له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأنّ الخلق أهل مملكته وطاعته. عليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأنّ له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عمّا يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء.

٧. الذي حمل اليهود على منع النسخ إنما هو الكفر والعناد، وإلا فقد وجد في شريعتهم النسخ بكثرة، وقد ذكر العلامة الشيخ رحمه الله الهنديّ في (إظهار الحقّ) أمثلة وافرة مما وقع من ذلك في التوراة

والإنجيل.

٨. قال بعض الفضلاء: نزلت هذه الآية لمّا قال المشركون أو اليهود: إنّ محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه، وفي الآية ردّ عليهم بأنّ المقصود من نسخ الحكم السابق: تهيّؤ النفوس لأرقى منه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ لأنّ الخالق تعالى ربّى الأمّة العربية في ثلاث وعشرين سنة تربية تدريجية لا تتم لغيرها ـ بواسطة الفواعل الاجتماعية ـ إلّا في قرون عديدة، لذلك كانت عليها الأحكام على حسب قابليّتها، ومتى ارتقت قابليتها بدّل الله لها ذلك الحكم بغيره، وهذه سنّة الخالق في الأفراد والأمم على حدّ سواء، فإنّك لو نظرت في الكائنات الحية ـ من أوّل الخلية النباتية إلى أرقى شكل من أشكال الأشجار، ومن أوّل رتبة من رتب الحيوانات إلى الإنسان ـ لرأيت أن النسخ ناموس طبيعيّ محسوس في الأمور المادّية، والأدبية معا..! فإنّ انتقال الخلية الإنسانية إلى جنين، ثم إلى طفل، فيافع، فشاب، فكهل، فشيخ، وما يتبع كل دور من هذه الأدوار ـ من الأحوال الناسخة للأحوال التي قبلها ـ يريك بأجلى دليل: أنّ التبدّل في الكائنات ناموس طبيعيّ محقق، وإذا كان هذا النسخ ليس بمستنكر في الكائنات، فكيف يستنكر نسخ حكم وإبداله بحكم آخر في الأمة، وهي في حالة نمو وتدرج من أدنى إلى أرقى؟ هل يرى إنسان له مسكة من عقل أن من الحكمة تكليف العرب ـ وهم في مبدإ أمرهم ـ بما يلزم أن يتصفوا به وهم في نهاية الرقيّ الإنسانيّ، وغاية الكمال البشريّ..!؟ وإذا كان هذا يصح، وجب أن الشرائع تكلف الأطفال بما تكلف به الرجال، وهذا لم يقل به عاقل في الوجود..! وإذا كان هذا لا يقول به عاقل في الوجود، فكيف يجوز على الله ـ وهو أحكم الحاكمين ـ بأن يكلف الأمة ـ وهي في دور طفوليتها ـ بما لا تتحمله إلّا في دور شبوبيتها وكهولتها..؟ وأي الأمرين أفضل: أشرعنا الذي سنّ الله لنا حدوده بنفسه، ونسخ منه ما أراد بعلمه، وأتمه ـ بحيث لا يستطيع الإنس والجن أن ينقضوا حرفا منه ـ لانطباقه على كل زمان ومكان، وعدم مجافاته لأي حالة من حالات الإنسان..!؟ أم شرائع دينية أخرى، حرّفها كهانها، ونسخ الوجود أحكامها ـ بحيث يستحيل العمل بها ـ لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه..!؟

٩. النسخ باصطلاح السلف أعم منه في اصطلاح الخلف.. قال الشاطبيّ في الموافقات: الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم، في الإطلاق، أعم منه في كلام الأصوليين، فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخا، وعلى تخصيص العموم، بدليل متصل أو منفصل، نسخا، وعلى بيان المبهم والمجمل

نسخا، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعيّ، بدليل شرعيّ متأخر، نسخا، لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد، وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنما المراد ما جيء به آخرا، فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به، وهذا المعنى جاء في تقييد المطلق.. فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيده، فلا إعمال له في إطلاقه، بل المعمل هو المقيد، فكأن المطلق لم يفد مع مقيده شيئا، فصار مثل الناسخ والمنسوخ.. وكذلك العامّ مع الخاص. إذ كان ظاهر العام شمول الحكم لجميع ما يتناوله اللفظ.. فلما جاء الخاص أخرج حكم ظاهر العام عن الاعتبار، فأشبه الناسخ والمنسوخ إلا أن اللفظ العام لم يهمل مدلوله جملة، وإنما أهمل منه ما دل عليه الخاص، وبقي السائر على الحكم الأول، والمبين مع المبهم، كالمقيد مع المطلق، فلما كان كذلك استسهل إطلاق لفظ النسخ في جملة هذه المعاني، لرجوعها إلى شيء واحد، ومن الأمثلة على ذلك:

أ. ما روي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] أنه ناسخ لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠] وهذا، على التحقيق، تقييد لمطلق، إذ كان قوله: ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ مطلقا ومعناه مقيد بالمشيئة، وهو قوله في الأخرى ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ وإلا فهو إخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ.

ب. وقال في قوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦] هو منسوخ بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٧] الآية، قال مكيّ: وقد ذكر عن ابن عباس، في أشياء كثيرة في القرآن فيها حرف الاستثناء، أنه قال: منسوخ قال: وهو مجاز لا حقيقة، لأن المستثنى مرتبط بالمستثنى منه، بيّنه حرف الاستثناء أنه في بعض الأعيان الذين عمهم اللفظ الأول، والناسخ منفصل من المنسوخ، رافع لحكمه، وهو بغير حرف، هذا ما قال.. ومعنى ذلك: أنه تخصيص للعموم قبله، ولكنه أطلق عليه لفظ النسخ، إذ لم يعتبر فيه الاصطلاح الخاص.

ج. وقال في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧] أنه منسوخ بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ [النور: ٢٩] الآية،

وليس من الناسخ والمنسوخ في شيء، غير أن قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ يثبت في الآية الأخرى أنها يراد بها المسكونة.

د. وقال في قوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، أنه منسوخ بقوله: ﴿ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]، والآيتان في معنيين، ولكنه نبه على أن الحكم بعد غزوة تبوك أن لا يجب النفير على الجميع.

هـ. وقال في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] منسوخ بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية، وإنما ذلك بيان لمبهم في قوله: ﴿للهِ وَالرَّسُولِ﴾

و. وقال في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أنه منسوخ بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾ الآية، وآية الأنعام خبر من الأخبار، والأخبار لا تنسخ ولا تنسخ.

ز. وقال في قوله: ﴿وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨] الآية: أنه منسوخ بآية المواريث، وقال مثله الضحاك والسدي وعكرمة، وقال الحسن: منسوخ بالزكاة، وقال ابن المسيّب: نسخه الميراث والوصية.. والجمع بين الآيتين ممكن، لاحتمال حمل الآية على الندب، والمراد بأولي القربى من لا يرث. بدليل قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ﴾ كما ترى الرزق بالحضور، فإن المراد غير الوارثين، وبيّن الحسن أن المراد الندب أيضا بدليل آية الوصية والميراث فهو من بيان المجمل والمبهم.

١٠. ﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾:

أ. إما متصلة معادلة للهمزة في ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أي ألم تعلموا أنه مالك الأمور، قادر على الأشياء كلها، يأمر وينهى كما أراد.. أم تعلموا وتقترحون بالسؤال ـ كلما اقترحت اليهود على موسى عليه السّلام؟

ب. وإما منقطعة ـ بمعنى بل ـ للإضراب والانتقال عن حملهم على العمل بموجب علمهم بما ذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم في ذلك، وأمارات التأثّر من أقاويل الكفرة، إلى التحذير من ذلك.

١١. معنى (الهمزة) إنكار وقوع الإرادة منهم، واستبعاده. لما أن قضيّة الإيمان وازعة عنها، وتوجيه الإنكار إلى الإرادة ـ دون متعلّقها ـ للمبالغة في إنكاره واستبعاده، ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته. فضلا عن صدور نفسه.

١٢. ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ﴾ أي: يختره، ويأخذه لنفسه ﴿بِالْإِيمَانِ﴾ بمقابلته بدلا منه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي عدل عن الصراط المستقيم.. وهي جملة مستقلة مشتملة على حكم كلّي أخرجت مخرج المثل جيء بها لتأكيد النهي عن الاقتراح المفهوم من قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ إلخ، معطوفة عليه، ومعنى الآية لا تقترحوا فتضلوا وسط السبيل ويؤدي بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان، فظهر وجه ذكر قوله ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ إلخ بعد قوله تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ﴾. فإن المقصود من كل منهما تثبيتهم على الآيات وتوصيتهم بالثقة بها.

١٣. سؤال وإشكال: ما فائدة قوله ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ﴾ ومعلوم أنه بدون الكفر يضل الإنسان سواء السبيل فكيف بالكفر؟ والجواب:

أ. معنى ذلك من يتبدل الكفر بالإيمان يعلم أنه قد ضل، قبل، سواء السبيل، وفي ذلك تنبيه أن ضلاله سواء السبيل قاده إلى الكفر بعد الإيمان، ومعناه لا تسألوا رسولكم كما سئل موسى فتضلوا سواء السبيل فيؤدي بكم إلى تبديل الكفر بالإيمان، فمبدأ ذلك، الضلال عن سواء السبيل.

ب. ووجه آخر وهو أنه سمى معاندة الأنبياء عليهم السلام، بعد حصول ما تسكن النفس إليه، كفرا. إذ هي مؤدية إليه، كتسمية العصير خمرا، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ﴾ أي يطلب تبديل الكفر، أي المعاندة التي هي مبدأ الكفر، بالإيمان أي بما حصل له من الدلالة المقتضية لسكون النفس، فقد ضل سواء السبيل.

ج. ووجه ثالث وهو أن ذلك نهاية التبكيت لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل، وأنه كمن كان على وضح الطريق فتاه فيه.

د. ووجه رابع وهو أن ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ إشارة إلى الفطرة التي فطر الناس عليها، والإيمان إشارة إلى المكتسب من جهة الشرائع فقال: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي بالإيمان المكتسب فقد أبطله، وضيّع الفطرة التي فطر الناس عليها فلا يرجى له نزوع عما هو عليه بعد ذلك.

١٤. الخطاب في الآية الكريمة للمسلمين هو ما يترجح ويكون كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، ويرشحه قوله ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ فإن موقع خطابه إنما يتضح مع المؤمنين، ورجّح الرازيّ كون الخطاب مع اليهود لأن هذه السورة من أول قوله ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ حكاية عنهم ومحاجة معهم ولأنه لم يجر ذكر غيرهم في السياق، وقد

قص تعالى عنهم سؤال النبيّ ﷺ بقوله ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا﴾ الآية، وحينئذ فمعنى تبدل الكفر بالإيمان، وهم بمعزل من الإيمان، إعراضهم عنه، مع تمكنهم منه، وإيثارهم للكفر عليه. كما أن إضافة الرسول إليهم باعتبار أنهم من أمة الدعوة.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. أصل النسخ النقل سواء كان نقل الشيء بذاته، كما يقال: نسخت الشمس الظل: أي نقلته من مكان إلى مكان، أو نقل صورته، كما يقال: نسخت الكتاب: إذا نقلت عنه صورة مثل الأولى، وورد: نسخت الريح الأثر: أي أزالته.

٢. أصل النسيان الترك أو هو غايته اللازمة له، ومنه قوله تعالى ﴿أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ أي تركتها بترك العمل بها فجزاؤك أن تترك في العذاب فاحفظ المعنى اللغوي.

٣. للمفسرين في تفسير هذه الآية طريقان:

أ. أحدهما: أنها على حد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ فالنسخ هنا بمعنى التبديل، أي إذا جعلنا آية بدلا من آية فإننا نجعل هذا البدل خيرا من المبدل منه أو مثله على الاقل، فالآية عند هؤلاء في نسخ التلاوة، وقالوا إن المراد بالنسيان هو أن يأمر الله تعالى بعدم تلاوة الآية فتنسى بالمرة.. وهذا بمعنى التبديل، فما هي الفائدة في عطفه عليه بأو؟ وهل هو إلا تكرار يجل كلام الله عنه؟

ب. ثانيهما: أن المراد نسخ حكم الآية وهو عام يشمل نسخ الحكم وحده ونسخه مع التلاوة، وهذا هو القول المختار للجمهور، وقالوا في توجيهه: إنه لا معنى لنسخ الآية في ذاتها ولا حاجة إليه، وإنما الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، فاذا شرع حكم في وقت لشدة الحاجة إليه ثم زالت الحاجة في وقت آخر فمن الحكمة أن ينسخ الحكم ويبدل بما يوافق الوقت الآخر فيكون خيرا من الأول أو مثله في فائدته من حيث قيام المصلحة به.

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٤١٤.

٤. ذكر هؤلاء أن المراد بالإنساء إزالة الآية من ذاكرة النبيّ ﷺ، وقد اختلف في هذا أيكون بعد التبليغ أم قبله فقيل؟ بعده كما ورد في أصحاب بئر معونة وقيل قبله حتى ان السيوطي روى في أسباب النزول ان الآية كانت تنزل على النبيّ ﷺ ليلا فينساها نهارا فحزن لذلك فنزلت الآية، قال محمد عبده: ولا شك عندي في أن هذه الرواية مكذوبة وان مثل هذا النسيان محال على الانبياء عليهم السّلام لانهم معصومون في التبليغ والآيات الكريمة ناطقة بذلك كقوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ وقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقد قال المحدثون والاصوليون: ان من علامة وضع الحديث مخالفته للدليل القاطع عقليا كان أو نقليا كأصول الاعتقاد وهذه المسألة منها فإن هذا النسيان ينافي العصمة المجمع عليها.

٥. ذكر هؤلاء في تفسير قوله تعالى بعد ما ذكر ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ انه ورد مورد الاستدلال على القدرة على النسخ بالمعنى الذي قالوه أي انه لا يستنكر على الله كما زعم اليهود لأنه مما تناله قدرته ثم استدلّ على ذلك بقوله ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، والخطاب في ﴿تَعْلَمْ﴾ للنبي ﷺ، والمراد به غيره من المؤمنين الذين ربما كانوا يمتعضون من كلام اليهود وغيرهم من المعترضين على النسخ، وضعيف الايمان يؤثر في نفسه أن يعاب ما يأخذ به فيخشى عليه من الركون الى الشبهة أو الحيرة فيها ففي الكلام تثبيت لمن كان كذلك من الضعفاء ودعم لإيمانهم، وتوجيه الكلام الى شخص يراد غيره شائع في كلام العرب والمولدين، ولذلك قال بعض العلماء، نزل القرآن على طريق قولهم (إياك أعنى واسمعي يا جاره) واذا كان هذا الملك العظيم لله وحده فلا شك أنه لا يعجزه أن ينسخ حكما من الاحكام، ومن آية ارادة الامة بالخطاب الالتفات عن الافراد الى الجمع بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ان وليكم وناصركم هو الله تعالى وحده فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به، ولا ينبغي أن يستهويكم انكارهم فيميلكم عن دينكم فإنه لا قيمة له ولا للمنكرين إذ ليس في استطاعتهم أن يضروكم أو ينفعوكم اذا كان الله هو مولاكم وناصركم، واذ أراد الله بكم سوءا فلا يملكون أن يدفعوه عنكم.

٦. ثم قال تعالى ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾، وهذا كلام جديد منقطع عما قبله وقالوا إن (أم) هنا للاستفهام لا للإضراب لان أم التي تستعمل بمعنى (بل) يقصد بها الاضراب عن الكلام السابق ولا يظهر الاضراب هنا، واستشهدوا لأم الاستفهامية بقول الشاعر:

فو الله لا أدرى أهند تقولت أم القوم، أم كل إليّ حبيب

٧. بعض المفسرين يقولون إن (أم) هذه منقطعة للإضراب عن عدم علمهم بالسابق إلى الاستفهام عن اقتراحهم فهي تتضمن الاضراب والاستفهام معا، وتجد الجلالين يقدران ذلك في تفسيرهما وقد قدرا فيه هنا (بل أتريدون) والحاصل أن المعنى هنا أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تبرما واعناتا؟ يحذر المسلمين ما فعل أولئك، وقد أتبع التحذير بالوعيد فقال: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي إن ترك الآيات الموجودة والاعراض عنها لإعنات النبيّ ﷺ بسؤال غيرها لتكون بدلا منها هو من اختيار الكفر على الايمان واستحباب العمى على الهدى، وبدل وتبدل واستبدل يدل على جعل شيء في موضع آخر بدلا منه والباء تقرن بالمبدل منه لا بالبدل كما أشرنا إليه في تفسير ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَأَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}

٨. هذا تقرير ما جرى عليه المفسرون في الآيات[1].، واذا وازنا بين سياق آية ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ وآية ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ نجد أن الاولى ختمت بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والثانية بقوله ﴿وَاللهُّ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ ونحن نعلم شدة العناية في أسلوب القرآن بمراعاة هذه المناسبات، فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء في الآية الثانية يقتضى أن يراد بالآيات فيها آيات الاحكام، وأما ذكر القدرة والتقرير بها في الآية الاولى فلا يناسب موضوع الاحكام ونسخها وإنما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة فلو قال (ألم تعلم أن الله عليم حكيم) لكان لنا أن نقول إنه أراد نسخ آيات الاحكام لما اقتضته الحكمة من انتهاء الزمن أو الحال التي كانت فيها تلك الاحكام موافقة للمصلحة، وقد تحير العلماء في فهم الإنساء على الوجه الذي ذكروه حتى قال بعضهم إن معنى (ننسها) نتركها على ما هي عليه من غير نسخ وأنت ترى أن هذا وإن صح لغة لا يلتئم مع تفسيرهم إذ لا معنى للإتيان بخير منها مع تركها على حالها غير منسوخة.

٩. المعني الصحيح الذي يلتئم مع السياق إلى آخره أن الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم أى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ نقيمها دليلا على نبوة نبيّ من الأنبياء أي نزيلها ونترك

---

(١) الكلام في هذه المسألة كله نسبه لمحمد عبده، ولم يعقب عليه، تفسير المنار: ١/ ٤١٨.

تأييد نبيّ آخر بها أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فإننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتي بخير منها في قوة الاقناع وإثبات النبوة أو مثلها في ذلك، ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه، والآية في أصل اللغة هي الدليل والحجة والعلامة على صحة الشيء وسميت جمل القرآن آيات لأنها بإعجازها حجج على صدق النبيّ ودلائل على أنه مؤبد فيها بالوحى من الله عز وجل، من قبيل تسمية الخاص باسم العام.

١٠. لقد كان من يهود من يشكك في رسالته عليه السّلام بزعمهم أن النبوة محتكرة لشعب إسرائيل، ولقد تقدمت الآيات في تفنيد زعمهم هذا وقالوا: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ أي من الآيات، فرد الله تعالى عليهم في مواضع منها قوله عز وجل بعد حكاية قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾، ومنها هذه الآيات والخطاب فيها للمؤمنين الذين كان اليهود يريدون تشكيكهم كأنه يقول إن قدرة الله تعالى ليست محدودة ولا مقيدة بنوع مخصوص من الآيات أو بآحاد منها لا تتناول غيرها، وليست الحجة محصورة في الآيات السابقة لا تتعداها، بل الله قادر على أن يأتي بخير من الآيات التي أعطاها موسى وبمثلها، فإنه لا يعجز قدرته شيء، ولا يخرج عن ملكه شيء، كما أن رحمته ليست محصورة في شعب واحد فيخصه بالنبوة، ويحصر فيه هداية الرسالة، كلا إن رحمته وسعت كل شيء، كما أن قدرته تتصرف بكل شيء من ملك السموات والأرض الذي لا يشاركه فيه مشارك، ولا ينازعه فيه منازع، فيكون وليا ونصيرا لمن كفر بنعمه وانحرف عن سننه.

١١. انظر كيف أسفرت البلاغة عن وجهها في هذا المقام فظهر أن ذكر القدرة وسعة الملك إنما يناسب الآيات بمعنى الدلائل دون معنى الأحكام الشرعية والأقوال الدالة عليها من حيث هي دالة عليها لا من حيث هي دالة على النبوة ـ ويزيد هذا سفورا ووضوحا قوله عقبه: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ فقد كان بنو اسرائيل لم يكتفوا بما أعطى موسى من الآيات وتجرؤوا على طلب غيرها وقالوا: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وكذلك كان فرعون وقومه كلما رأوا آية طلبوا غيرها حتى رأوا تسع آيات بينات ولم يؤمنوا، وقوله تعالى ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى﴾ يشمل كل ذلك.

١٢. أرشدنا الله تعالى بهذا إلى أن التفنن في طلب الآيات وعدم الاذعان لما يجيء به النبي منها والاكتفاء به بعد العجز عن معاوضته هو دأب المطبوعين على الكفر الجامدين على المعاندة والمجاحدة، فإنه

قال بعد إنكار هذا الطلب: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سورة السبيل} ويوضح هذا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ والمراد الآيات المقترحة، بدليل السياق، وهو اتفاق بين المفسرين، ولو كان الموضوع موضوع طلب استبدال أحكام بأحكام تنسخها لما كان للتوعد بالكفر وجه وجيه.

١٣. قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ معناه أنه أخطأ وسط الجادة ومال إلى أحد الجانبين ومتى انحرف السائر في سيره عن الوسط يخرج عن المنهج ويبعد عنه كلما أوغل في السير فيهلك دون الوصول إلى المقصد، والمراد بسواء السبيل الحق والخير اللذان تكمل الفطرة بالاستقامة على السير في طريقهما، ومن مال عن الحق وقع في الباطل لا محالة: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾

١٤. هذا هو التفسير الذي تتصل به الآيات ويلتئم بعضها مع بعض على وجه يتدفق بالبلاغة، وهو الذي يتقبله العقل ويستحليه الذوق إذ لا يحتاج إلى شيء من التكلف في فهم نظمه ولا في توخيه مفرداته كالإنساء والقدرة والملك وقد اضطر القائلون بأن المراد بالنسخ نسخ الاحكام ـ مع ما عرفت من التكلف ـ إلى القول بجواز نسيان الوحى، وطفقوا يلتمسون الدلائل على ذلك، حتى أوردوا قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وليس من هذا الموضوع ولا المخاطب به النبيّ ﷺ وإنما جاء على طريق الحكاية وأما قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فهو يؤكد عدم النسيان لأن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار كما في قوله تعالى (١١: ١٠٨ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع، وقوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ والنكتة في الاستثناء بيان هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعتها في نفسها، ولو شاء الله تعالى أن يغيرها لفعل، وهذا الاعتقاد من مهمات الدين، فلا غرو أن أن تزاح عنه الأوهام في كل مقام يمكن أن تعرض فيه. فليس امتناع نسيان الوحى طبيعة لازمة للنبي وإنما هو تأييد ومنحة من الله تعالى، وليس خلود أهل الجنة في الجنة واجب عقلي أو طبيعي، وإنما هو بإرادة الله تعالى ومشيئته.

١٥. قرأ ابن كثير وأبو عمرو (أو ننسأها) أي نؤخرها، ولا يظهر هذا المعني في مقام نسخ الاحكام كما يظهر في نسخ الآيات والمعجزات المقترحة على الأنبياء فإن الآية التي تقترح على نبيّ لأنها كانت لنبي

قبله قد تنسخ بآية جديدة خير منها أو مثلها، وقد تؤخر بالآية الجديدة، ثم تعطى في وقت آخر بعد الاقتراح، ولكن تأخير آيات الأحكام ليس له معنى ظاهر.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد أن بيّن سبحانه حقيقة الوحى ورد كلام الكارهين له جملة بين سر نسخه وأبطل مقال الطاعنين فيه، بأنه تعالى يأمر بالشيء لما يعلم فيه من المصلحة، ثم ينهى عنه لما يرى في ذلك من الخير حينئذ، فأطيعوا أمره واتبعوا رسله في تصديق ما به أخبروا، وترك ما عنه زجروا.

٢. روى أن هذه الآيات نزلت حين قال المشركون أو اليهود، ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا، فقد أمر في حد الزاني بإيذاء الزانيين باللسان حيث قال: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ ثم غيّره وأمر بإمساكهنّ في البيوت حيث قال: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ ثم غيّره بقوله: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، يناقض بعضه بعضا؛ ومقصدهم من ذلك الطعن في الدين ليضعفوا عزيمة من يريد الدخول فيه وينضوي تحت لوائه.

٣. ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ النسخ في لسان الشرع: بيان انتهاء الحكم المستفاد من الآية المتلوة، وحكمته أن الأحكام ما شرعت إلا لمصلحة الناس، وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان، فإذا شرع حكم في وقت كانت الحاجة إليه ماسة، ثم زالت الحاجة فمن الحكمة نسخه وتبديله بحكم يوافق الوقت الآخر فيكون خيرا من الأول أو مثله في فائدته للعباد، وما مثل ذلك إلا مثل الطبيب الذي يغير الأغذية والأدوية باختلاف الأزمنة والأمزجة، والأنبياء صلوات الله عليهم هم مصلحو النفوس، يغيرون الأعمال الشرعية، والأحكام الخلقية، التي هي للنفوس بمثابة العقاقير والأدوية للأبدان، فما يكون منها مصلحة في وقت قد يكون مفسدة في وقت آخر.

٤. خلاصة المعنى ـ ما نغيّر حكم آية أو ننسيكه إلا أتينا بما هو خير منه لمصلحة العباد بكثرة الثواب

---

(١) تفسير المراغي: ١/ ١٨٧.

أو مثله فيه.

٥. قال محمد عبده: والمعنى الصحيح الذي يلتئم مع السياق أن الآية هنا ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم، أي ما ننسخ من آية نقيمها دليلا على نبوّة نبيّ من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبيّ آخر بها، أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها، فإنا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتي بخير منها في قوّة الإقناع وإثبات النبوّة أو مثلها في ذلك، ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه.. وقد سبقه إلى مثله محيى الدين بن العربي في تفسيره.

٦. نسخ الحكم إما أن يكون بأيسر منه في العمل، كما نسخت عدة المتوفى عنها زوجها من الحول إلى أربعة أشهر وعشر، وإما بمساو له كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة عند الصلاة، وإما بأشقّ منه ويكون ثوابه أكثر، كما نسخ ترك القتال بإيجابه على المسلمين.

٧. ثم أقام الدليل على إمكان النسخ فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره من المؤمنين الذين ربما كان يؤذيهم ما كان يعترض به اليهود وغيرهم على النسخ، وضعيف الإيمان يؤثر في نفسه أن يعاب ما يأخذ به، فيخشى عليه من الركون إلى الشبهة أو تدخل في قلبه الحيرة، فجاء ذلك تثبيتا لهم وتقوية لإيمانهم، ببيان أن القادر على كل شيء لا يستنكر عليه نسخ الأحكام، لأنها مما تتناولها قدرته.

٨. ثم أقام دليلا آخر فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي إن الله تعالى له ملك السموات والأرض وهما تحت قبضته والعباد أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، فله أن ينسخ ما شاء من الأحكام، ويقرر ما شاء منها بحسب ما يرى من الفائدة.

٩. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ناصركم ومعينكم هو الله وحده فلا تبالوا بمن ينكر النسخ أو يعيبكم به، وليس في استطاعته أن يلحق بكم أذى.

١٠. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي أتريدون أن تسألوا رسولكم أن يجيئكم بآيات بينات فوق ما جاءكم به، فيكون مثلكم مثل اليهود الذين سألوا موسى ما لا يجوز سؤاله تبرما وتعنتا كقولهم: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾.. وفي هذا نصح للمسلمين أن يعملوا بما يأمرهم به الرسول ﷺ وينتهوا عما نهاهم عنه ولا يطلبوا منه غير ما جاءهم به.

١١. ثم أتبع التحذير بالوعيد فقال: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزّلة بحسب المصالح ويطلب غيرها تعنتا وعنادا للنبي ﷺ، فقد اختار الكفر على الإيمان، واستحبّ العمى على الهدى، وبعد عن الحق والخير، ومن حاد عن الحق وقع في الضلال ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. كانت الحملة تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف، وبخاصة عند تحويل القبلة إلى الكعبة الأمر الذي أبطل حجتهم على المسلمين: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.. وسواء كانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة ـ كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها ـ أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأوامر والتشريعات والتكاليف، التي كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة، وأحوالها المتطورة، أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومه للتوراة.. سواء كانت هذه أم هذه أم هذه، أم هي جميعا المناسبة التي اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة.. فإن القرآن يبين هنا بيانا حاسما في شأن النسخ والتعديل؛ وفي القضاء على تلك الشبهات التي أثارتها يهود، على عادتها وخطتها في محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب.

٢. التعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال ـ في فترة الرسالة ـ هو لصالح البشرية، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها، والله خالق الناس، ومرسل الرسل، ومنزل الآيات، هو الذي يقدر هذا، فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان ـ سواء كانت آية مقروءة تشتمل حكما من الأحكام، أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتطوى كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل ـ فإنه يأتي بخير منها أو مثلها! ولا يعجزه شيء.. هو مالك كل شيء، وصاحب الأمر كله في السماوات وفي الأرض.. ومن ثم تجيء هذه التعقيبات: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.. والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير، ورائحة التذكير بأن الله هو

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٠٢.

وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولي ولا نصير.

٣. لعل هذا كان بسبب انخداع بعضهم بحملة اليهود التضليلية؛ وبلبلة أفكارهم بحججهم الخادعة؛ وإقدامهم على توجيه أسئلة للرسول ﷺ لا تتفق مع الثقة واليقين، ويدل على هذا ما جاء في الآية التالية من صريح التحذير والاستنكار: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.. فهو استنكار لتشبه بعض المؤمنين بقوم موسى في تعنتهم، وطلبهم للبراهين والخوارق، وإعناتهم لرسولهم كلما أمرهم بأمر أو أبلغهم بتكليف، على نحو ما حكى السياق عنهم في مواضع كثيرة.. وهو تحذير لهم من نهاية هذا الطريق، وهي الضلال، واستبدال الكفر بالإيمان، وهي النهاية التي صار إليها بنو إسرائيل.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. مسألة النسخ في القرآن الكريم من الأمور التي كانت ولا تزال مثار جدل وخلاف بين علماء المسلمين، كما أنها كانت ولا تزال داعية تخرّص وتقوّل على القرآن من أعداء الإسلام.. وبكلمة واحدة نخرس أولئك الذين يتربّصون بالقرآن وأهله، ثم نتركهم في غيظهم وكيدهم، لننظر في هذا الخلاف الذي بين المسلمين في أمر النسخ.

٢. الكلمة التي نقولها لأعداء هذا الدين هي قوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.. فهذا التحدّي القائم عليهم بحفظ الله تعالى للقرآن، هو مقطع القول فيما بينهم وبين القرآن.. فإذا استطاعوا أن يبدلوا حرفا أو يغيروا كلمة، أو يزيلوا آية من كتاب الله ـ كان لهم أن يقولوا في هذا الكتاب ما يحلو لهم، من تشنيع عليه، واستهزاء به.. وهيهات هيهات.. فقد ذهبت سدى جميع المحاولات التي بذلها أعداء الإسلام، منذ قام الإسلام إلى اليوم، ليشوهوا وجه هذا الدين، بالتشويش على كتابه، والتشكيك في صحته!

٣. أما الخلاف الذي بين المسلمين في أمر النسخ؛ فقد وقع نتيجة للاختلاف في فهم الآية الكريمة:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١٢١.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، فالذين قالوا بوجود (النسخ) في القرآن، وأخذوا بمنطوق هذه الآية، دارت أعينهم في كتاب الله، يلتمسون مصداق هذه الآية، ويستخرجون لها الشواهد لآيات منسوخة بآيات ناسخة.. وقد وقعت أنظارهم على آيات يمكن أن تفسّر عليها تلك الآية الكريمة.. فكان النسخ عندهم أمرا لا بد من وقوعه في القرآن، إذ نطقت به آية كريمة من آياته.

٤. الذين لم يفهموا الآية على هذا الوجه، لم يروا في القرآن ناسخا ولا منسوخا ـ هؤلاء جعلوا للآيات التي قيل إنها منسوخة، وجها من التأويل، بحيث يبقى حكمها كما بقيت تلاوتها.. وهذا إجمال يحتاج إلى شيء من التفصيل.

٥. يجيء النسخ بمعنى:

أ. المحو والإزالة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ب. ويأتي النسخ بمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه نسخت الكتاب أي نقلت ما فيه إلى كتاب آخر.. قالوا: ولا يقع هذا المعنى من النسخ في القرآن.. إذ نقل الآية أو الآيات من كتاب إلى كتاب لا يسمّى نسخا بالمعنى الذي يفهم منه إزالة حكم الآية أو تلاوتها.

ج. ويأتي بمعنى التبديل، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾

٦. هذا هو النسخ في لسان الشرع، وهو في اللغة قريب من هذا، فيقال: تناسخ الشيئان: إذا حلّ أحدهما محل الآخر، كما يتناسخ الليل والنهار، ويقال تناسخت الأزمنة: أي تبع بعضها بعضا، ومنه تناسخ الأرواح، بمعنى انتقال الروح من بدن إلى بدن، عند من يعتقد هذا المذهب.

٧. اختلف العلماء في المنسوخ:

أ. قيل: هو ما رفع تلاوة تنزيله، كما رفع العمل به، وردّ هذا القول بأن الله نسخ التوراة والإنجيل، وهما متلوّان.

ب. وقيل: لا يقع النسخ بمعنى الرفع في قرآن نزّل، وتلى، واستدلوا على ذلك بما يلي:

• أن القول بأن من القرآن ما نزّل وتلى ثم رفع بالنسخ ـ فيه تعسّف شديد، ومدخل إلى الفتنة

والتخرص، فإذا ساغ أن ينزل قرآن، ويتلى على المسلمين، ثم يرفع، ساغ لكل مبطل أن يقول أي قول، ثم يدّعى له أنه كان قرآنا ثم نسخ.. وهكذا تتداعى على القرآن المفتريات، والتلبيسات، ويكون لذلك ما يكون من فتنة وابتلاء.

• ثم من جهة أخرى. ما حكمة هذا القرآن الذي ينزل لأيام أو لشهور، ثم يرفع، فلا يتلى، ولا يعرف له وجه بعد هذا؟ أيكون ذلك الرفع بقرآن يقول للناس: إن آية كذا رفعت تلاوتها، فلا تجعلوها قرآنا يتلى؟ أم أن هذا النوع من النسخ يقع بمعجزة ترفع من صدور الناس ما قد حفظوا من هذا القرآن المنسوخ؟ وإذا رفع بتلك المعجزة، فهل تكون معجزة أخرى يرفع بها ما كتب بأيدي كتاب الوحى بين يدى النبيّ وإذا رفع من الصدور أو من الصحف المكتوبة بمعجزة من المعجزات، فما الذي يدلّ على أن قرآنا كان ثم رفع؟ إن هذا القول مسرف في البعد عن مجال المنطق والعقل!

٨. أكثر علماء المسلمين على أن في القرآن نسخا، وأن هناك آيات ناسخة وأخرى منسوخة بها، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ودراستها، مما اهتم له العلماء والفقهاء، وجعلوه أصلا من أصول الدراسات القرآنية، ومجازا من المجازات التي يدخل بها العالم أو الفقيه في جماعة العلماء والفقهاء، فمن لم يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، فلا مدخل له في باب العلماء والفقهاء، وقد استند القائلون بالنسخ في القرآن إلى قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، وقد أسعفهم النظر في آيات القرآن الكريم بشواهد تؤيد ما ذهبوا إليه من القول بالنسخ، ومن أمثلة هذا:

أ. آية الوصية، وهى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، فهذه الآية، قيل إنها منسوخة بآية المواريث، وقيل بحديث: (ألا لا وصيّة لوارث) عند من يقول بنسخ القرآن بالسنّة، وقيل منسوخة بالإجماع.

ب. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، فقد كانت المرأة إذا مات عنها زوجها لزمت التربص بعد انقضاء العدة حولا كاملا، ونفقتها في مال زوجها، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فنسخ ذلك بالآية المشار إليها، وصار تربصها أربعة أشهر وعشرة أيام، ولها نصيبها المعروف في الميراث.

وهكذا يعدّون الآيات المنسوخة والناسخة في إحدى وسبعين سورة من القرآن الكريم.. والذين يقولون بألا نسخ في القرآن، فيتأولون هذه الآيات، ويعطونها الحكم الذي تضمنته.

٩. يرى عدد غير قليل من العلماء أن النسخ في القرآن ليس نسخا بمعنى إزالة الحكم، كما ذهب إلى ذلك القائلون بالنسخ، وإنما هو نسأ وتأخير، أو مجمل أخّر بيانه، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره، أو مخصوص من عموم، أو حكم عام لخاص، أو لمداخلة معنى في معنى، وأنواع الخطاب كثيرة، فظنوا ـ أي القائلون بالنسخ ـ أن هذا نسخا، وليس به، وإنه ـ أي القرآن ـ الكتاب المهيمن على غيره، وهو نفسه متعاضد، وبهذا التحقيق يتبين ضعف ما لهج به كثير من المفسّرين في الآيات الآمرة بالتخفيف من أنها منسوخة بآية السيف، والواقع أنها ليست كذلك، بل هي من النّسإ، بمعنى أن كل أمر يجب امتثاله في وقت ما، لعلّة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إذ النسخ معناه الإزالة.

١٠. تطبيقا لهذا الرأي نجد ألا تعارض، ولا تناسخ بين الآيات التي تختلف أحكامها في الأمر الواحد، إذ أن كل حكم محكوم بحال خاصة به، مقدرة له، وعلة تدور معه وجودا وعدما ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وقوله تعالى بعد هذا: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ليس بين الآيتين تعارض، أو تناسخ، وإن عرضا لأمر واحد، واختلف منطوق الحكم فيهما، فالآية الأولى تفرض على المؤمنين حكما في فيها حال هم أهل للوفاء بهذا الحكم، لما فيهم من قوة إيمان وثبات يقين.. فإذا كانوا في تلك الحالة كان واجبا عليهم إذا التقوا في ميدان الحرب بأعدائهم من الكافرين ـ أن يثبت العشرون منهم لمائتين من أعدائهم، وأن تثبت المائة للألف، فلما أن وقع الضعف في المسلمين، حين كثر عددهم، ودخل فيهم من دخل، وليس فيهم ما في هؤلاء النفر القليل الكرام، الذين سبقوا إلى الإسلام، من كرم المعدن، وصفاء الجوهر، والتعرّف على الحق، والبدار إليه ـ لمّا أن كان هذا من أمر المسلمين، خفف الله عنهم، وجعل أمرهم يسرا، ففرض عليهم ألّا تفرّ المائة من المائتين، ولا الألف من الألفين.. وانظر كيف كانت أعداد المسلمين في الآية الأولى (عشرون) و(مائة) ثم أصبحت

في الآية الثانية هكذا: (مائة) و(ألفا).. وإن ذلك ليكشف عن أن الضعف الذي عرض للمسلمين في هذا الوقت المبكر من الدعوة الإسلامية، وفى عهد النبوة، لم يكن من جهة المسلمين السابقين إلى الإسلام، فهؤلاء كانوا كلما مرّت بهم الأيام في الإسلام، وفى صحبة الرسول، ازدادوا إيمانا مع إيمانهم، ولكن الضعف الذي وقع، كان على مجموع المسلمين، حين كثر عدد الداخلين في الإسلام، ولا شك أن هذه الأعداد الكثيرة التي دخلت في دين الله أفواجا، لم يكن لها جميعها من وثاقة الإيمان، وقوة اليقين ما كان في هذه الصفوة التي سبقت إلى الإسلام.. وطبيعي أنه إذا عادت حال المسلمين إلى الحال الأولى التي كانوا عليها قبل هذا الضعف، عاد الحكم الأول، فإذا ضعفوا لزمهم حكم الآية الثانية، الذي لا ينبغي أن ينزلوا عنه أبدا، حتى في أضعف أحوالهم.. المائة تغلب المائتين، والألف تغلب الألفين.. وفى هذا ما فيه من تكريم الإسلام والمسلمين، ورفع درجة الجماعة الإسلامية بهذا الدّين، حتى في أنزل منازلها، وأسوأ أحوالها.

١١. يقال عن آيات كثيرة إنها منسوخة حكما، وإن بقيت تلاوتها، وإذ ننظر في الآية الكريمة نسأل: هل إذا جاء شرط في القرآن الكريم.. أيجب أن يقع هذا الشرط، وأن يتحقق تبعا لذلك جوابه؟ والجواب على هذا: أن ليس من الحتم اللازم أنه إذا ورد في القرآن أسلوب شرطي أن يقع هذا الشرط، وإنما الحتم اللازم هو، أنه إذا وقع الشرط فلا بد أن يقع ويتحقق الجواب المعلق على وقوع هذا الشرط، فما أكثر ما وردت أساليب شرطية في القرآن غير مراد وقوعها، وتحقيق جوابها.. ومن ذلك قوله تعالى، لنبيه الكريم: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى عن نبيه الكريم أيضا: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾، وقوله تعالى خطابا له: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، فلم يقع شرط أي آية من هذه الآيات، ولم يقع جوابها كذلك، وعلى هذا، يجوز في الآية الكريمة ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ ألا يقع شرطها وجوابها، وتكون من قبيل القضايا الفرضية، التي يراد بها العبرة والعظة.. والذي نأخذه من هذا، أن النسخ الذي أشارت إليه الآية الكريمة، ليس لازما أن يقع، وإنما وقوعه أمر احتمالي، يشهد له الواقع أو لا يشهد، فإن شهد له اعتبر، وإلا فلا، وإذن فلا نستصحب معنا هذا الحكم، الذي تقضى به الآية لو وقع شرطها وجوابها ـ لا نستصحب هذا الحكم، ونحن ننظر في الآيات التي يقال إنها ناسخة أو منسوخة.. بل ننظر في تلك الآيات نظرا منقطعا عن كل تأثير لهذا المفهوم الذي فهمت الآية الكريمة عليه.

١٢. الآن ننظر في آية النسخ نفسها: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.. هذه الآية قد جاءت مع آيات كثيرة غيرها، دفاعا عن أمر أراده الله للمسلمين، وهو تحويل قبلتهم التي كانوا عليها، من بيت المقدس إلى البيت الحرام، وهذا التحول كان حدثا كبيرا من أحداث الإسلام في حينه، كما كان فتنة وابتلاء لكثير من المسلمين، ومدخلا كبيرا للطعن في الدين، والتشويش على المسلمين، وكان من تدبير القرآن الكريم لهذا الأمر، أن قدّم له هذه الآيات الكريمة، قبل أن يقع، لتكون إرهاصا به من جهة، وقوة يستند إليها المسلمون في دفع كيد اليهود، ووسوسة الشيطان.. من جهة أخرى!

١٣. استمع لتلك الآيات الكريمات، ثم استمع للأمر الذي جاء بعدها: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، فهذا الاستفهام الإنكاري: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾؟ والذي يتوجه به القرآن إلى المسلمين ـ فيه تحذير لهم من أن يكونوا مع النبيّ كما كان اليهود مع موسى، كلما جاء بأمر لم يتلقوه بالامتثال والطاعة، بل قابلوه بالحذر والريب، وواجهوه بالأسئلة الكثيرة، التي تنبئ عن خبث طوية، وفساد سريرة.. وتحويل القبلة إذا كان أمرا وشيك الوقوع، وقد كان المسلمون يصلّون إلى بيت المقدس منذ سبعة عشر شهرا، فإذا وقع هذا التحويل، نزعت بهم نوازع كثيرة تدعوهم إلى التساؤل: فيم كنا؟ ولم هذا؟ وهل سنتحول عن القبلة الجديدة فيما بعد أم سنظل عليها؟.. وهكذا.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. مناسبة هذه الآية للآيات قبلها أن اليهود اعتذروا عن إعراضهم عن الإيمان بالنبي ﷺ بقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] وأرادوا به أنهم يكفرون بغيره، وهم في عذرهم ذلك يدعون أن شريعتهم لا تنسخ، ويقولون إن محمدا وصف التوراة بأنها حق وأنه جاء مصدقا لها فكيف يكون شرعه مبطلا للتوراة ويموهون على الناس بما سموه البداء، وهو لزوم أن يكون الله تعالى غير عالم بما يحسن تشريعه

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٦٣٧.

وأنه يبدو له الأمر ثم يعرض عنه ويبذل شريعة بشريعة.

٢. رد الله تعالى عليهم عذرهم وفضحهم بأنهم ليسوا متمسكين بشرعهم حتى يتصلبوا فيه، وذلك من قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٩١] وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [البقرة: ٩٤] إلخ وبأنهم لا داعي لهم غير الحسد بقوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله: ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] المنبئ أن العلة هي الحسد.

٣. لما بين الله تعالى الرد عليهم في ذلك كله أراد نقض تلك السفسطة أو الشبهة التي راموا ترويجها على الناس بمنع النسخ، والمقصد الأصلي من هذا هو تعليم المسلمين أصلا من أصول الشرائع وهو أصل النسخ الذي يطرأ على شريعة بشريعة بعدها ويطرأ على بعض أحكام شريعة بأحكام تبطلها من تلك الشريعة، ولكون هذا هو المقصد الأصلي عدل عن مخاطبة اليهود بالرد عليهم، ووجه الخطاب إلى المسلمين كما دل عليه قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ وعطفه عليه بقوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٨] ولقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ ولم يقل من شريعة، وفي هذا إعراض عن مخاطبة اليهود لأن تعليم المسلمين أهم وذلك يستتبع الرد على اليهود بطريق المساواة لأنه إذا ظهرت حكمة تغيير بعض الأحكام لمصلحة تظهر حكمة تغيير بعض الشرائع.

٤. ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ بيان لما، والآية في الأصل الدليل والشاهد على أمر. قال الحرث بن حلزة:

من لنا عنده من الخير آيا ... ت ثلاث في كلّهن القضاء

ووزنها فعلة بتحريك العين عند الخليل وعينها ياء أو واو قلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها والنسبة إليها آييّ أو آوي، ثم أطلقت الآية على المعجزة لأنها دليل صدق الرسول قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وتطلق الآية على القطعة من القرآن المشتملة على حكم شرعي أو موعظة أو نحو ذلك وهو إطلاق قرآني قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١] ويؤيد هذا أن من معاني الآية في كلام العرب الأمارة التي يعطيها المرسل للرسول ليصدقه المرسل إليه وكانوا إذا أرسلوا وصاية أو خبرا مع رسول أرفقوه بأمارة يسمونها آية لا سيما الأسير إذا أرسل إلى قومه برسالة كما فعل ناشب الأعور حين كان أسيرا في بني سعد بن مالك وأرسل إلى قومه بلعنبر رسالة وأراد تحذيرهم بما يبيته لهم أعداؤهم الذين أسروه فقال للرسول:

قل لهم كذا بآية ما أكلت معكم حيسا، وقال سحيم العبد:

ألكني إليها عمرك الله يا فتى بآية ما جاءت إلينا تهاديا

ولذا أيضا سموا الرسالة آية تسمية للشيء باسم مجاوره عرفا.. والمراد بالآية هنا حكم الآية سواء أزيل لفظها أم أبقى لفظها لأن المقصود بيان حكمة إبطال الأحكام لا إزالة ألفاظ القرآن.

٥. النسخ: إزالة الشيء بشيء آخر قاله الراغب، فهو عبارة عن إزالة صورة أو ذات وإثبات غيرها عوضها تقول نسخت الشمس الظل لأن شعاعها أزال الظل وخلفه في موضعه ونسخ الظل الشمس كذلك لأن خيال الجسم الذي حال بين الجسم المستنير وبين شعاع الشمس الذي أناره قد خلف الشعاع في موضعه، ويقال نسخت ما في الخلية من النحل والعسل إلى خلية أخرى، وقد يطلق على الإزالة فقط دون تعويض كقولهم نسخت الريح الأثر، وعلى الإثبات لكن على إثبات خاص وهو إثبات المزيل، وأما أن يطلق على مجرد الإثبات فلا أحسبه صحيحا في اللغة وإن أوهمه ظاهر كلام الراغب وجعل منه قولهم: نسخت الكتاب إذا خططت أمثال حروفه في صحيفتك إذ وجدوه إثباتا محضا لكن هذا توهم لأن إطلاق النسخ على محاكاة حروف الكتاب إطلاق مجازي بالصورة أو تمثيلية بتشبيه الحالة بحالة من يزيل الحروف من الكتاب الأصلي إلى الكتاب المنتسخ ثم جاءت من ذلك النسخة قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقال: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وأما قولهم الولد نسخة من أبيه فمجاز على مجاز.. ولا يطلق النسخ على الزوال بدون إزالة فلا تقول نسخ الليل النهار لأن الليل ليس بأمر وجودي بل هو الظلمة الأصلية الحاصلة من انعدام الجرم المنير.

٦. المراد من النسخ هنا الإزالة وإثبات العوض بدليل قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ وهو المعروف عند الأصوليين بأنه رفع الحكم الشرعي بخطاب، فخرج التشريع المستأنف إذ ليس برفع، وخرج بقولنا (الحكم الشرعي) رفع البراءة الأصلية بالشرع المستأنف. إذ البراءة الأصلية ليست حكما شرعيا بل هي البقاء على عدم التكليف الذي كان الناس عليه قبل مجيء الشرع بحيث إن الشريعة لا تتعرض للتنصيص على إباحة المباحات إلا في مظنة اعتقاد تحريمها أو في موضع حصر المحرمات أو الواجبات:

أ. فالأول نحو قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] في التجارة في الحج حيث ظن المسلمون تحريم التجارة في عشر ذي الحجة كما كانت عليه الجاهلية بعد الانصراف من

ذي المجاز كما سيأتي.

ب. ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] بعد ذكر النساء المحرمات وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] لحصر وجوب الإمساك في خصوص زمن النهار.

٧. فهم من قولهم في التعريف (رفع الحكم) أن ذلك الحكم كان ثابتا لولا رفعه وقد صرح به بعضهم ولذلك اخترنا زيادة قيد في التعريف وهو (رفع الحكم الشرعي المعلوم دوامه بخطاب يرفعه) ليخرج عن تعريف النسخ رفع الحكم الشرعي المغيّى بغاية عند انتهاء غايته ورفع الحكم المستفاد من أمر لا دليل فيه على التكرار.

٨. حيث تبينت حكمة نسخ الآيات علم منه حكمة نسخ الشرائع بعضها ببعض وهو الذي أنكروه، وأنكروا كون الإسلام قد نسخ التوراة وزعموا أن دوام التوراة مانع من الإيمان بالإسلام كما قالوا ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] وهو أحوال:

أ. الأول: مجيء شريعة لقوم مجيئا مؤقتا لمدة حياة الرسول المرسل بها، فإذا توفي ارتفعت الشريعة كشريعة نوح وإبراهيم وشريعة يوسف وشريعة شعيب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] وبقي الناس في فترة وكان لكل أحد يريد الاهتداء أن يتبع تلك الشريعة أو بعضها كما كانوا يتبعون شريعة إبراهيم، فإذا جاءت شريعة بعدها فليست الثانية بناسخة للأولى في الحقيقة ولكنها نسخ تخير الناس في متابعتها الذي كان لهم في زمن الفترة كما إذا كانت عبس مثلا يجوز لها اتباع شريعة إبراهيم فلما جاءهم خالد بن سنان بشريعته تعين عليهم اتباعه.

ب. الثاني: أن تجيء شريعة لقوم مأمورين بالدوام عليها كشرع موسى ثم تجيء بعدها شريعة ليست رافعة لتلك الشريعة بأسرها ولكنها ترفع بعض أحكامها وتثبت بعضا كشريعة عيسى فهذه شريعة ناسخة في الجملة لأنها تنسخ بعضا وتفسر بعضا، فالمسيح رسول نسخ بعض التوراة وهو ما نص على نسخه وأما غيره فباق على أحكام التوراة فهو في معظمها مبين ومذكر ومفسر كمن سبقه من أنبياء بني إسرائيل مثل أشعياء وأرمياء وزكرياء الأول ودانيال وأضرابهم ولا يخالف هذا النوع نسخ أحكام شريعة واحدة إلا بكونه بواسطة رسول ثان.

ج. الثالث: مجيء شريعة بعد أخرى بحيث تبطل الثانية الأولى إبطالا عاما بحيث تعد تلك الشريعة باطلة سواء في ذلك الأحكام التي نصت الشريعة الثانية فيها بشيء يخالف ما في الأولى أم فيما سكتت الشريعة الثانية عنه وهذا هو الإسلام بالنسبة لما تقدمه من الشرائع فإنه رفع الشرائع كلها بحيث لا يجوز لأحد من المسلمين أن يتلقى شيئا من الشرائع السالفة فيما لم يتكلم الإسلام فيه بشيء بل يأخذ أحكام ذلك بالاستنباط والقياس وغير ذلك من طرق أصول الإسلام، وقد اختلف في أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، لكن ذلك الخلاف ناظر إلى دليل آخر وهو قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

٩. قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ جواب الشرط وجعله جوابا مشعر بأن هذين الحالين وهما النسخ والإنساء أو النسء لا يفارقان حالين وهما الإتيان في وقت النسخ ووقت الإنساء بشيء هو خير من المنسوخ أو مثله أو خير من المنسي أو المنسوء أو مثله فالمأتي به مع النسخ هو الناسخ من شريعة أو حكم والمأتي به مع الإنساء من النسيان هو الناسخ أيضا من شريعة أو حكم أو هو ما يجيء من الأحكام غير ناسخ ولكنه حكم مخالف ينزل بعد الآخر والمأتي به مع النسء أي التأخير هو ما يقارن الحكم الباقي من الأحكام النازلة في مدة عدم النسخ.

١٠. قد أجملت جهة الخيرية والمثلية لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن فتجده مرادا إذ الخيرية تكون من حيث الاشتمال على ما يناسب مصلحة الناس، أو ما يدفع عنهم مضرة، أو ما فيه جلب عواقب حميدة، أو ما فيه ثواب جزيل، أو ما فيه رفق بالمكلفين ورحمة بهم في مواضع الشدة وإن كان حملهم على الشدة قد يكون أكثر مصلحة، وليس المراد أن كل صورة من الصور المفروضة في حالات النسخ والإنساء أو النسء هي مشتملة على الخير والمثل معا وإنما المراد أن كل صورة منهما لا تخلو من الاشتمال على الخير منها أو المثل لها فلذلك جيء بأو في قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ فهي مفيدة لأحد الشيئين مع جواز الجمع، وتحقيق هاته الصور بأيديكم، ولنضرب لذلك أمثالا ترشد إلى المقصود وتغني عن البقية مع عدم التزام الدرج على القول الأصح فنقول:

أ. نسخ شريعة مع الإتيان بخير منها كنسخ التوراة والإنجيل بالإسلام.

ب. نسخ شريعة مع الإتيان بمثلها كنسخ شريعة هود بشريعة صالح فإن لكل فائدة مماثلة للأخرى

في تحديد أحوال أمتين متقاربتي العوائد والأخلاق فهود نهاهم أن يبنوا بكل ريع آية يعبثون وصالح لم ينه عن ذلك ونهى عن التعرض للناقة بسوء.

ج. نسخ حكم في شريعة بخير منه مثل نسخ كراهة الخمر الثابتة بقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ﴾ [البقرة: ٢١٩] بتحريمها بتاتا فهذه الناسخة خير من جهة المصلحة دون الرفق وقد يكون الناسخ خيرا في الرفق كنسخ تحريم الأكل والشرب وقربان النساء في ليل رمضان بعد وقت الإفطار عند الغروب إذا نام الصائم قبل أن يتعشى بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] قال في الحديث في (صحيح البخاري) ففرح المسلمون بنزولها.

د. نسخ حكم في الشريعة بحكم مثله كنسخ الوصية للوالدين والأقربين بتعيين الفرائض والكل نافع للكل في إعطائه مالا، وكنسخ فرض خمسين صلاة بخمس صلوات مع جعل ثواب الخمسين للخمس فقد تماثلتا من جهة الثواب، وكنسخ آية ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] فأثبت كون الصوم خيرا من الفدية.

هـ. إنساء بمعنى التأخير لشريعة مع مجيء خير منها، تأخير ظهور دين الإسلام في حين الإتيان بشرائع سبقته كل واحدة منها هي خير بالنسبة للأمة التي شرعت لها والعصر الذي شرعت فيه فإن الشرائع تأتي للناس بما يناسب أحوالهم حتى يتهيأ البشر كلهم لقبول الشريعة الخاتمة التي هي الدين عند الله فالخيرية هنا ببعض معانيها وهي نسبية.

و. إنساء شريعة بمعنى تأخير مجيئها مع إرادة الله تعالى وقوعه بعد حين ومع الإتيان بمثلها كتأخير شريعة عيسى في وقت الإتيان بشريعة موسى وهي خير منها من حيث الاشتمال على معظم المصالح وما تحتاج إليه الأمة.

ز. إنساء بمعنى تأخير الحكم المراد مع الإتيان بخير منه كتأخير تحريم الخمر وهو مراد مع الإتيان بكراهته أو تحريمه في أوقات الصلوات فقط فإن المأتي به خير من التحريم من حيث الرفق بالناس في حملهم على مفارقة شيء افتتنوا بمحبته.

ح. إنساء شريعة بمعنى بقائها غير منسوخة إلى أمد معلوم مع الإتيان بخير منها أي أوسع وأعم

مصلحة وأكثر ثوابا لكن في أمة أخرى أو بمثلها كذلك.

ط. إنساء آية من القرآن بمعنى بقائها غير منسوخة إلى أمد معلوم مع الإتيان بخير منها في باب آخر أعم مصلحة أو بمثلها في باب آخر أي مثلها مصلحة أو ثوابا مثل تحريم الخمر في وقت الصلوات وينزل في تلك المدة تحريم البيع في وقت صلاة الجمعة.

ي. نسيان شريعة بمعنى اضمحلالها كشريعة آدم ونوح مع مجيء شريعة موسى وهي أفضل وأوسع وشريعة إدريس مثلا وهي مثل شريعة نوح.

ك. نسيان حكم شريعة مع مجيء خير منه أو مثله، كان فيما نزل عشر رضعات معلومات يحرمن فنسخن بخمس معلومات ثم نسيا معا وجاءت آية ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ [النساء: ٢٣] على الإطلاق والكل متماثل في إثبات الرضاعة ولا مشقة على المكلفين في رضعة أو عشر لقرب المقدار.

١١. قيل: المراد من النسيان الترك وهو حينئذ يرجع معناه وصوره إلى معنى وصور الإنساء بمعنى التأخير.

١٢. المقصد من قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ إظهار منتهى الحكمة والرد عليهم بأنهم لا يهمهم أن تنسخ شريعة بشريعة أو حكم في شريعة بحكم آخر ولا يقدح ذلك في علم الله تعالى ولا في حكمته ولا ربوبيته لأنه ما نسخ شرعا أو حكما ولا تركه إلا وهو قد عوض الناس ما هو أنفع لهم منه حينئذ أو ما هو مثله من حيث الوقت والحال، وما أخر حكما في زمن ثم أظهره بعد ذلك إلا وقد عوض الناس في إبان تأخيره ما يسد مسده بحسب أحوالهم، وذلك مظهر الربوبية فإنه يرب الخلق ويحملهم على مصالحهم مع الرفق بهم والرحمة، ومراد الله تعالى في تلك الأزمنة والأحوال كلها واحد وهو حفظ نظام العالم وضبط تصرف الناس فيه على وجه يعصم أحوالهم من الاختلال بحسب العصور والأمم والأحوال إلى أن جاء بالشريعة الخاتمة وهي مراد الله تعالى من الناس ولذلك قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال أيضا: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] الآية.. والظاهر أن الإتيان بخير أو بمثل راجع إلى كل من النسخ والإنساء فيكون الإتيان بخير من المنسوخة أو المنساة أو بمثلها وليس الكلام من اللف والنشر.

١٣. قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ هو إما إتيان تعويض أو إتيان تعزيز، وتوزيع هذا

الضابط على الصور المتقدمة غير عزيز، والمعنى أنا لم نترك الخلق في وقت سدى، وأن ليس في النسخ ما يتوهم منه البداء.

١٤. في الآية إيجاز بديع في التقسيم قد جمع هاته الصور التي سمعتموها وصورا تنشق منها لا أسألكموها لأنه ما فرضت منها صورة بعد هذا إلا عرفتموها.

١٥. مما يقف منه الشعر ولا ينبغي أن يوجه إليه النظر ما قاله بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿نُنْسِهَا﴾ أنه إنساء الله تعالى المسلمين للآية أو للسورة، أي إذهابها عن قلوبهم أو إنساؤه النبي ﷺ إياها فيكون نسيان الناس كلهم لها في وقت واحد دليلا على النسخ واستدلوا لذلك بحديث أخرجه الطبراني بسنده إلى ابن عمر قال: (قرأ رجلان سورة أقرأهما إياها رسول الله ﷺ فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فغديا على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقال لهما: (إنها مما نسخ وأنسي فالهوا عنها)، قال ابن كثير: هذا الحديث في سنده سليمان بن أرقم وهو ضعيف، وقال ابن عطية: هذا حديث منكر أغرب به الطبراني، وكيف خفي مثله على أئمة الحديث، والصحيح أن نسيان النبي ما أراد الله نسخه ولم يرد أن يثبته قرآنا جائز، أي لكنه لم يقع فأما النسيان الذي هو آفة في البشر، فالنبي معصوم عنه قبل التبليغ، وأما بعد التبليغ وحفظ المسلمين له فجائز وقد روي أنه أسقط آية من سورة في الصلاة فلما فرغ قال لأبيّ لم لم تذكرني قال حسبت أنها رفعت قال لا ولكني نسيتها.. والحق عندي أن النسيان العارض الذي يتذكر بعده جائز ولا تحمل عليه الآية لمنافاته لظاهر قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، وأما النسيان المستمر للقرآن فأحسب أنه لا يجوز، وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦] دليل عليه وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٧] هو من باب التوسعة في الوعد.

١٦. ما ورد في (صحيح مسلم) عن أنس قال: كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول ببراءة فانسيتها غير أني حفظت منها (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثا وما يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب)، فهو غريب وتأويله أن هنالك سورة نسخت قراءتها وأحكامها، ونسيان المسلمين لما نسخ لفظه من القرآن غير عجيب على أنه حديث غريب.

١٧. دلت هذه الآية على أن النسخ واقع، وقد اتفق علماء الإسلام على جواز النسخ ووقوعه ولم يخالف في ذلك إلا أبو مسلم الأصفهاني محمد بن بحر فقيل: إن خلافه لفظي وتفصيل الأدلة في كتب

أصول الفقه.

١٨. قسموا نسخ أدلة الأحكام ومدلولاتها إلى أقسام:

أ. نسخ التلاوة والحكم معا وهو الأصل ومثلوه بما روى عن أبي بكر: (كان فيما أنزل لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم)

ب. ونسخ الحكم وبقاء التلاوة وهذا واقع لأن إبقاء التلاوة يقصد منه بقاء الإعجاز ببلاغة الآية ومثاله آية: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] إلى آخر الآيات.

ج. ونسخ التلاوة وبقاء الحكم ومثلوه بما روي عن عمر: كان فيما يتلى (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما) وعندي أنه لا فائدة في نسخ التلاوة وبقاء الحكم، وقد تأولوا قول عمر كان فيما يتلى أنه كان يتلى بين الناس تشهيرا بحكمه، وقد كان كثير من الصحابة يرى أن الآية إذا نسخ حكمها لا تبقى كتابتها في المصحف، ففي البخاري في التفسير قال ابن الزبير قلت لعثمان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها قال: يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه.

١٩. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مسوق لبيان حكمة النسخ والإتيان بالخير والمثل بيانا غير مفصل على طريقة الأسلوب الحكيم، وذلك أنه بعد أن فرغ من التنبيه على أن النسخ الذي استبعدوه وتذرعوا به لتكذيب الرسول هو غير مفارق لتعويض المنسوخ بخير منه أو مثله أو تعزيز المبقى بمثله أريد أن ينتقل من ذلك إلى كشف ما بقي من الشبهة وهي أن يقول المنكر وما هي الفائدة في النسخ حتى يحتاج للتعويض؟ وكان مقتضى الظاهر أن يتصدى لبيان اختلاف المصالح ومناسبتها للأحوال والأعصار ولبيان تفاصيل الخيرية والمثلية في كل ناسخ ومنسوخ، ولما كان التصدي لذلك أمرا لم تتهيأ له عقول السامعين لعسر إدراكهم مراتب المصالح وتفاوتها، لأن ذلك مما يحتاج إلى تأصيل قواعد من أصول شرعية وسياسية، عدل بهم عن بيان ذلك وأجملت لهم المصلحة بالحوالة على قدرة الله تعالى التي لا يشذ عنها ممكن مراد، وعلى سعة ملكه المشعر بعظيم علمه، وعلى حاجة المخلوقات إليه إذ ليس لهم رب سواه ولا ولي دونه وكفى بذلك دليلا على أنه يحملهم على مصالحهم في سائر الأحوال، ومما يزيد هذا العدول توجيها أن التصدي للبيان يفتح باب الجدال في إثبات المصلحة وتفاوت ذلك بحسب اختلاف القرائح والفهوم.

٢٠. لأن أسباب التشريع والنسخ أقسام، منه ما ظهر وجهه بالنص فيمكن إفهامهم إياه نحو قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١] الآية بعد قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣] الآية ونحو ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦] الآية، ومنها ما يعسر إفهامهم إياه لأنه يحتاج إلى علم وتفصيل من شأن المشرعين وعلماء الأصول كالأشياء التي عرفت بالقياس وأصول التشريع، ومنها ما لم يطلع على حكمته في ذلك الزمان أو فيما يليه، ولما كان معظم هاته التفاصيل يعسر أو يتعذر إفهامهم إياه وقع العدول المذكور، ولكون هاته الجملة تتنزل منزلة البيان للأولى فصلت عنها.

٢١. الخطاب في ﴿تَعْلَمْ﴾:

أ. ليس مرادا منه ظاهره الواحد وهو النبي ﷺ، بل هو إما خطاب لغير معين خارج على طريقة المجاز بتشبيه من ليس حاضرا للخطاب وهو الغائب منزلة المخاطب في كونه بحيث يصير مخاطبا لشهرة هذا الأمر والمقصد من ذلك ليعم كل مخاطب صالح له وهو كل من يظن به أو يتوهم منه أنه لا يعلم أن الله على كل شيء قدير ولو بعدم جريانه على موجب علمه، وإلى هذه الطريقة مال القطب والطيبي من شراح (الكشاف)، وعليها يشمل هذا الخطاب ابتداء اليهود والمشركين ومن عسى أن يشتبه عليه الأمر وتروج عليه الشبهة من ضعفاء المسلمين، أما غيرهم فغني عن التقرير في الظاهر وإنما أدخل فيه ليسمع غيره.

ب. وإما مراد به ظاهره وهو الواحد، فيكون المخاطب هو النبي ﷺ لكن المقصود منه المسلمون فينتقل من خطاب النبي إلى مخاطبة أمته انتقالا كنائيا لأن علم الأمة من لوازم علم الرسول من حيث إنه رسول لزوما عرفيا فكل حكم تعلق به بعنوان الرسالة، فالمراد منه أمته لأن ما يثبت له من المعلومات في باب العقائد والتشريع فهو حاصل لهم فتارة يراد من الخطاب توجه مضمون الخطاب إليه ولأمته وتارة يقصد منه توجه المضمون لأمته فقط على قاعدة الكناية في جواز إرادة المعنى الأصلي مع الكنائي، وهاهنا لا يصلح توجه المضمون للرسول لأنه لا يقرر على الاعتراف بأن الله على كل شيء قدير فضلا عن أن ينكر عنه، وإنما التقرير للأمة، والمقصد من تلك الكناية التعريض باليهود، وإنما سلك هذا الطريق دون أن يؤتى بضمير الجماعة المخاطبين لما في سلوك طريق الكناية من البلاغة والمبالغة مع الإيجاز في لفظ الضمير.

٢٢. الاستفهام تقريري على الوجهين وهو شأن الاستفهام الداخل على النفي كما في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣] أي إنكم تعلمون أن الله قدير وتعلمون أنه مالك السماوات والأرض بما يجري فيهما من الأحوال، فهو ملكه أيضا فهو يصرف الخلق كيف يشاء، وقد أشار في (الكشاف) إلى أنه تقريري وصرح به القطب في (شرحه) ولم يسمع في كلام العرب استفهام دخل على النفي إلا وهو مراد به التقرير.

٢٣. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال البيضاوي: هو متنزل من الجملة التي قبله منزلة الدليل لأن الذي يكون له ملك السماوات والأرض لا جرم أن يكون قديرا على كل شيء ولذا فصلت هذه الجملة عن التي قبلها، وموجب الفصل هو أن هاته الجملة بمنزلة التكرير للأولى لأن مقام التقرير ومقام التوبيخ كلاهما مقام تكرير لما به التقرير والإنكار تعديدا على المخاطب.

٢٤. (أم) في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ حرف عطف مختص بالاستفهام وما في معناه وهو التسوية فإذا عطفت أحد مفردين مستفهما عن تعيين أحدهما استفهاما حقيقيا أو مسوّى بينهما في احتمال الحصول فهي بمعنى (أو) العاطفة ويسميها النحاة متصلة، وإذا وقعت عاطفة جملة دلت على انتقال من الكلام السابق إلى استفهام فتكون بمعنى بل الانتقالية ويسميها النحاة منقطعة والاستفهام ملازم لما بعدها في الحالين، وهي هنا منقطعة لا محالة لأن الاستفهامين اللذين قبلها في معنى الخبر لأنهما للتقرير كما تقدم إلا أن وقوعهما في صورة الاستفهام ولو للتقرير يحسن موقع (أم) بعدهما كما هو الغالب والاستفهام الذي بعدهما هنا إنكار وتحذير، والمناسبة في هذا الانتقال تامة فإن التقرير الذي قبلها مراد منه التحذير من الغلط وأن يكونوا كمن لا يعلم والاستفهام الذي بعدها مراد منه التحذير كذلك والمحذر منه في الجميع مشترك في كونه من أحوال اليهود المذمومة ولا يصح كون (أم) هنا متصلة لأن الاستفهامين اللذين قبلها ليسا على حقيقتهما لا محالة كما تقدم.

٢٥. جوز القزويني في (الكشف على الكشاف) كون (أم) هنا متصلة بوجه مرجوح وتبعه البيضاوي وتكلفا لذلك مما لا يساعد استعمال الكلام العربي، وأفرط عبد الحكيم في (حاشية البيضاوي) فزعم أن حملها على المتصلة أرجح لأنه الأصل لا سيما مع اتحاد فاعل الفعلين المتعاطفين بأم ولدلالته على

أنهم إذا سألوا سؤال قوم موسى فقد علموا أن الله على كل شيء قدير وإنما قصدوا التعنت وكان الجميع في غفلة عن عدم صلوحية الاستفهامين السابقين للحمل على حقيقة الاستفهام.

٢٦. ﴿تُرِيدُونَ﴾ خطاب للمسلمين لا محالة بقرينة قوله: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ وليس كونه كذلك بمرجح كون الخطابين اللذين قبله متوجهين إلى المسلمين لأن انتقال الكلام بعد (أم) المنقطعة يسمح بانتقال الخطاب.

٢٧. ﴿تُرِيدُونَ﴾ يؤذن بأن السؤال لم يقع ولكنه ربما جاش في نفوس بعضهم أو ربما أثارته في نفوسهم شبه اليهود في إنكارهم النسخ وإلقائهم شبهة البداء ونحو ذلك مما قد يبعث بعض المسلمين على سؤال النبي ﷺ.

٢٨. ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى﴾ تشبيه وجهه أن في أسئلة بني إسرائيل موسى كثيرا من الأسئلة التي تفضي بهم إلى الكفر كقولهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] أو من العجرفة كقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فيكون التحذير من تسلسل الأسئلة المفضي إلى مثل ذلك، ويجوز كونه راجعا إلى أسئلة بني إسرائيل عما لا يعنيهم وعما يجر لهم المشقة كقولهم ﴿مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩] و﴿مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٧٠]، قال الفخر: إن المسلمين كانوا يسألون النبي ﷺ عن أمور لا خير لهم في البحث عنها ليعلموها كما سأل اليهود موسى.. وقد ذكر غيره أسبابا أخرى للنزول، منها: أن المسلمين سألوا النبي ﷺ في غزوة خيبر لما مروا بذات الأنواط التي كانت للمشركين أن يجعل لهم مثلها ونحو هذا مما هو مبني على أخبار ضعيفة، وكل ذلك تكلف لما لا حاجة إليه فإن الآية مسوقة مساق الإنكار التحذيري بدليل قوله: ﴿تُرِيدُونَ﴾ قصدا للوصاية بالثقة بالله ورسوله والوصاية والتحذير لا يقتضيان وقوع الفعل بل يقتضيان عدمه، والمقصود التحذير من تطرق الشك في صلاحية الأحكام المنسوخة قبل نسخها لا في صلاحية الأحكام الناسخة عند وقوعها.

٢٩. ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ تذييل للتحذير الماضي للدلالة على أن المحذر منه كفر أو يفضي إلى الكفر لأنه ينافي حرمة الرسول والثقة به وبحكم الله تعالى، ويحتمل أن المراد بالكفر أحوال أهل الكفر أي لا تتبدلوا بآدابكم تقلد عوائد أهل الكفر في سؤالهم كما قال ﷺ في حديث (الصحيحين): (فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)

٣٠. إطلاق الكفر على أحوال أهله وإن لم تكن كفرا شائع في ألفاظ الشريعة وألفاظ السلف كما قالت جميلة بنت عبد الله بن أبيّ زوجة ثابت بن قيس: (إني أكره الكفر) تريد الزنا، فإذن ذكر جملة بعد جملة يؤذن بمناسبة بين الجملتين فإذا لم يكن مدلول الجملتين واضح التناسب علم المخاطب أن هنالك مناسبة يرمز إليها البليغ فهنا تعلم أن الارتداد عن الإيمان إلى الكفر معنى كلي عام يندرج تحته سؤالهم الرسول كما سأل بنو إسرائيل موسى فتكون تلك القضية كفرا وهو المقصود من التذييل المعرف في باب الإطناب بأنه تعقيب الجملة بجملة مشتملة على معناها تتنزل منزلة الحجة على مضمون الجملة وبذلك يحصل تأكيد معنى الجملة الأولى وزيادة فالتذييل ضرب من ضروب الإطناب من حيث يشتمل على تقرير معنى الجملة الأولى ويزيد عليه بفائدة جديدة لها تعلق بفائدة الجملة الأولى، وأبدعه ما أخرج مخرج الأمثال لما فيه من عموم الحكم ووجيز اللفظ مثل هاته الآية، وقول النابغة:

ولست بمستبق أخا لا تلمّه ... على شعث أيّ الرجال المهذب

٣١. المؤكد بجملة: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ هو مفهوم جملة ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ مفهوم الجملة التي قبلها لا منطوقها فهي كالتذييل الذي في بيت النابغة.

٣٢. جعل قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ جوابا لمن الشرطية لأن المراد من الضلال أعظمه وهو الحاصل عقب تبدل الكفر بالإيمان ولا شبهة في كون الجواب مترتبا على الشرط ولا يريبك في ذلك وقوع جواب الشرط فعلا ماضيا مع أن الشرط إنما هو تعليق على المستقبل ولا اقتران الماضي بقد الدالة على تحقق المضي لأن هذا استعمال عربي جيد يأتون بالجزاء ماضيا لقصد الدلالة على شدة ترتب الجزاء على الشرط وتحقق وقوعه معه حتى إنه عندما يحصل مضمون الشرط يكون الجزاء قد حصل فكأنه حاصل من قبل الشرط نحو: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: ٨١] وعلى مثل هذا يحمل كل جزاء جاء ماضيا فإن القرينة عليه أن مضمون الجواب لا يحصل إلا بعد حصول الشرط وهم يجعلون قد علامة على هذا القصد ولهذا قلما خلا جواب ماض لشرط مضارع إلا والجواب مقترن بقد حتى قيل: إن غير ذلك ضرورة ولم يقع في القرآن كما نص عليه الرضي بخلافه مع قد فكثير في القرآن.. وقد يجعلون الجزاء ماضيا مريدين أن حصول مضمون الشرط كاشف عن كون مضمون الجزاء قد حصل أو قد تذكره الناس نحو ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] وعليه فيكون تحقيق الجزاء في مثله هو ما يتضمنه الجواب من

معنى الانكشاف أو السبق أو غيرهما بحسب المقامات قبل أن يقدر فلا تعجب إذ قد سرق أخ له ويمكن تخريج هذه الآية على ذلك بأن يقدر ومن يتبدل الكفر بالإيمان فالسبب فيه أنه قد كان ضل سواء السبيل حتى وقع في الارتداد كما تقول من وقع في المهواة فقد خبط خبط عشواء إن أريد بالماضي أنه حصل وأريد بالضلال ما حف بالمرتد من الشبهات والخذلان الذي أوصله إلى الارتداد وهو بعيد من غرض الآية.

٣٣. السواء: الوسط من كل شيء قال بلعاء بن قيس:

غشّيته وهو في جأواء باسلة عضبا أصاب سواء الرأس

ووسط الطريق هو الطريق الجادة الواضحة لأنه يكون بين بنيات الطريق التي لا تنتهي إلى الغاية.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن بين الله سبحانه وتعالى بعض أفعال اليهود من إنكار وجحود وكفر بالنعمة وكفر بها يعرفون صدقه واتخاذ السحر وأوهامه واتباع ما يضر.. بين سبحانه النسخ لأنه يتضمن نسخ بعض ما جاء في التوراة وإن صدق أصلها، ونسخ المعجزات التي كان يأتي بها موسى ﷺ، ليؤمن بنو إسرائيل وآل فرعون، ذكر الله تعالى نسخ الشرائع القديمة ونسخ المعجزات الحسية السابقة وأنه أتى بمعجزة هي القرآن، وإنها أمر أوحى للنبي ﷺ وأنه كان آخر صرح للنبوة، إذ كان محمد ﷺ آخر لبنة في صرح النبوة، وكان خاتم النبيين.. بعد ذلك تعرض النبيّ ﷺ للنسخ في الشرائع والآيات.

٢. النسخ معناه الإزالة كما تقول نسخت الشمس الظل، أي أزالته وحلت محله، ويطلق أيضا النسخ بمعنى نقل المكتوب كما قال ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية]

٣. الآيات تطلق على:

أ. طائفة من القرآن مفصولة عما بعدها كآية الكرسي، وآيات المنافقين وآية الربا، وآية حد السرقة وغير ذلك من آيات الله تعالى البينات.

ب. الآيات الكونية التي تدل على قدرة الله تعالى وعلى حكمته، وبديع خلقه ومنها معجزات

---

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٥١.

النبيين الحسية كالعصا، وفلق البحر وإبراء الأكمه وإحياء الموتى بإذن الله، والإخبار عما في بيوتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء] ومن الآيات الحسية قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء]؛ لأن البناء العالي فيه دلالة على براعتهم في البناء.

٤. النسخ في اصطلاح الفقهاء على أساس أن الآية هي الآية القرآنية هو إزالة حكم الآية، ويقسمون النسخ إلى ثلاث:

أ. نسخ الحكم وبقاء التلاوة، كما ادعوا لآيات نسخ حكمها وبقيت تلاوتها، كآية تقديم الصدقة بين يدى الرسول إذا ناجوا الرسول في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة]

ب. آية نسخت تلاوتها ولم ينسخ حكمها، كما قيل إنه كان في القرآن آية (إذا زنى الشيخ والشيخة، فارجموهما البتة) فنسخت تلاوتها وبقى حكمها.

ج. وهو الأصل آيات محكمة لم يعرها نسخ ولا تأويل، وهذا القسم يقولون إنه أكثر القرآن.

وفى هذا الكلام نظر يستبين مما نقول إن شاء الله تعالى.

٥. يقولون: إن هذه أقسام بالنسبة لذات النسخ، أما بالنسبة للناسخ فيقولون القرآن ينسخ السنة، ولكن يشترط الشافعي لنسخ القرآن للسنة ـ أن يكون من السنة ما يدل على النسخ، كالسنة التي دلت على نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة.. وادعوا نسخ القرآن بالسنة بل ادعوا نسخ عموم القرآن بأحاديث الآحاد، وكل على تفسير الآية في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾. فإنها الآية القرآنية المشتملة على أحكام تكليفية بإلغاء تكليف ووضع تكليف آخر في موضعه كنسخ تحريم بإباحة، أو إباحة بتحريم، ولكن يلاحظ أن نسخ القرآن بالسنة لا يستقيم مع النص الكريم؛ لأن النسخ يوجب أن يأتي بخير من المنسوخة أو مثلها، ولا يمكن أن تكون السنة خيرا من القرآن أو مثله.

٦. لكن هل الآية تدل على وقوع النسخ، أو تدل فقط على جوازه على فرض تفسير الآية بالآية القرآنية، ولنا في ذلك نظر، نقول: إن الآية تدل على الإمكان لا على الوقوع؛ لأن النص السامي بشرط وجواب هذا الشرط ـ إذ إن (ما) من أسماء الشرط جزم به ننسخ وجوابه: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ فهي

دالة على الإمكان لا على الوقوع بالفعل، والوقوع بالفعل يجيء من تتبع الأحكام الشرعية الناسخ منها والمنسوخة كما ادعى في الآيات التي ذكرنا، والأحكام التي تكلم فيها الفقهاء مدعين فيها نسخ آيات بآيات.. فالآية لا تدل على وقوع النسخ، ولا على لزومه.

٧. معنى ﴿نُنْسِهَا﴾ وعلى هذه القراءة يكون ننسها من قلوب الناس لأنها من أنساها ـ من قلوب الناس، أى أنه أنساها للناس، وربما يتفق هذا على قول الذين يقولون إن ثمة آيات نسخت تلاوتها، وبقيت أحكامها، كما ادعى في الرجم.. وهناك قراءة (ننسأها) بفتحتين وهمزة، وبمعنى نؤجلها من النّساء بمعنى التأجيل، وخرج بعض اللغويين القراءة الأولى ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ على هذا المعنى، فقال إن الهمزة قلبت ياء إذ أصلها ننسئها فسهلت الهمزة فعوملت الياء معاملة حرف العلة فحذف في حال الجزم، وعلى هذا المعنى تتلاقى القراءتان على معنى التأجيل، ويكون المعنى لا نزيل حكم آية أو نؤجل حكمها، إلا أتينا بخير منها أو مثلها.

٨. ثم قال تعالى مؤكدا جواب الشرط بقوله تعالت كلماته: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمعنى تعلم علما يقينيا مؤكدا أن الله تعالى على كل شيء قدير، وقدم قوله على كل شيء لاختصاصه تعالى بكمال القدرة وعمومها، ﴿أَلَمْ﴾ استفهام للنفي مع التنبيه ونفى النفي إثبات مع التنبيه وتأكيد العلم.

٩. هذا القول كله على تفسير الآية بمعنى الآية القرآنية.. وأولئك كما ذكرنا يقررون النسخ في القرآن، وقرره الشافعي وغيره من الفقهاء الكبار، وعلى رأسهم شيخهم أبو حنيفة وإمام دار الهجرة مالك وإمام السنة أحمد بن حنبل، وحجة قولهم هذه الآية، وما جاء عن الصحابة من نسخ بعض آيات لأخرى وإن كانوا يسمونه التخصيص كما أثر عن ابن مسعود أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة] وقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق] وفيها ظاهر التفارق في المتوفى عنها زوجها الحامل، فقرر ابن مسعود أنها تعتد بوضع الحمل، وهذا تخصيص للآية الأولى بأنها لغير الحامل، فقال: أشهد أن سورة النساء الصغرى، أي الطلاق نسخت الكبرى، وهى قد خصصتها، ولكن كان السلف يعتبرون التخصيص نسخا، ولا مشاحة في الاصطلاح.

١٠. النسخ في ذاته لا في القرآن بالذات لا ينكره أحد؛ لأن النبيّ ﷺ كان يربى المؤمنين، ويدع

الدين الحق في قلوبهم، وقد مكث بينهم ثلاثة وعشرين عاما يربيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وما كانوا ليقبلوا ذلك التهذيب الكامل الذي ينقلهم من الجاهلية إلى العلم والتفكير، والعمل التقى الطاهر دفعة واحدة؛ بل لا بد أن يأخذهم في رفق وأناة يقر أمورا على رجاء التغيير، حتى تشرب قلوبهم حب الإسلام، وحب آدابه، ولقد روى عن النبيّ ﷺ: (ما من نبوة إلا تناسخت) أي حولت النفوس بالتدريج، وترك أمور في مرتبة العفو حتى تتشرب النفوس الحقائق الإسلامية، وليس معنى ذلك أن الله تعالى كان يجهل الحقائق ثم علم وهو ما يسمى بالبداء، والله تعالى منزه عنه تبارك وتعالى، وإنما معناه أن الله عالم بكل شيء، ولكن نبيه كان كالمربى الذي يتدرج بتعليمه حتى يشب ويعلو فكره، فتتكامل الشريعة نزولا إذ تكامل عقله إدراكا وبيانا.. لذلك كان النسخ وكانت الأحكام التي تجيء في السنة موضع التناسخ الثابت بالحديث.

١١. لكن هل يجيء النسخ في القرآن، قال جمهور العلماء ذلك مستدلين بقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ ولكن نقول: إن الآية الكريمة كما في بيان الشرط وجوابه، وتدل على الإمكان لا على الوقوع فعلا، وإن هذا على أساس تفسير الآية بمعنى الآية القرآنية المشتملة على حكم تكليفي، ولكن كلمة الآية تدل معانيها على الآية الكونية، والمعجزات الكونية والحسية التي يجيء بها الرسل كإحياء عيسى عليه السلام الموتى بإذن الله تعالى، وإحياء الموتى من قبورهم، وتصويره كهيئة الطير فينفخ فيه فتكون طيرا بإذن الله تعالى، وكعصا موسى عليه السلام التي فلقت البحر وفجرت الماء من الحجر، وكإرسال الجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات.

١٢. إن المشركين طلبوا من النبيّ ﷺ آيات أي معجزات دالة على رسالته كمعجزات عيسى وموسى ويظهر أن اليهود طلبوا مثلها، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي ما ننزل آية لنبي أو رسول أو نؤجلها إلا أتينا بخير منها أو مثلها، وفى ذلك إشارة إلى أن معجزة القرآن خير من المعجزات التي سبقت كمعجزة موسى وعيسى؛ لأن معجزاتهم حوادث تنقضي، وتنته بانتهاء وقتها ولا تؤثر إلا في نفوس من عاينوا، وشاهدوا، أما معجزة القرآن، فإنها باقية خالدة تتحدى الأجيال كلها إلى يوم القيامة.

١٣. نميل إلى تفسير الآية بالمعجزة، وذلك للأمور الآتية:

أ. أولا ـ تعقيب النسخ والتغيير بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإن ذلك يتناسب بوضوح مع الآية بمعنى المعجزة القاهرة التي تدل (على قدرة الله وصدق رسوله)، والمعجزة الكونية، ولا تظهر مناسبة مع آية التكليف.

ب. ثانيا ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فذكر هذا النص السامي يدل قياسا أن النسخ أو الترك يكون لآية كونية بخير منها، تكون أبقى وأعظم أثرا.

ج. ثالثا ـ أنه كان لوم على طلب آية أخرى، فقد قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ هذه الآيات كلها جاءت تالية لآية النسخ وهى في تواليها تناسب أن تكون الآية المنسوخة معجزة من معجزات الرسالة الإلهية، ومعجزات النبيين.

د. رابعا ـ أن النسخ يقتضى ألا يمكن الجمع بين الناسخ والمنسوخ، وليس في القرآن آيات تتعارض، ولا يمكن التوفيق بينها، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

١٤. إن الله تعالى إذا أنزل معجزة لنبي، وبدل بها معجزة فذلك من كمال قدرته وليس لمؤمن أن ينكر معجزة، ولا يطلب معجزة معينة، وألا يقال: إن الرسول الذي جاء بالمعجزة القاطعة مغتر، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل] فإن الله العليم الحكيم هو الذي يختار من الآيات الدالة على رسالة أنبيائه ما يراه أقوى دلالة، وأكثر بقاء، فهو الذي يعلم الآيات كلها، وهو الذي يدبر كل شيء بحكمته، وإرادته، وإن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وهو أعلم بمكان آيته، ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

١٥. الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي أي إنكار الوقوع، فما بعدها يكون منفيا بها، ولم نافية لما بعدها، فيكون نفى النفي ونفى النفي إثبات، كما يقر علماء البيان، والنفي على طريقة الاستفهام فيه تنبيه بليغ، لأن الاستفهام في ذاته فيه إثارة للانتباه، والمعنى: تعلم أيها الرسول، أن الله تعالى له السلطان الكامل في السموات والأرض، فله التدبير المطلق الذي لا قيد يقيده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فإذا اختار آية دالة على رسالة نبيّ مرسل، فله أن يختار آية أخرى لنبي آخر، فإذا اختار تسع آيات لموسى، واختار مثلها لعيسى، فله أن يختار لمحمد ﷺ غيرها أبقى وأدوم، وأقوى دليلا، وتحديا للأجيال كلها الإنس والجن.

١٦. يشير الله سبحانه وتعالى ببيان هذا العلم الشامل الواسع إلى بيان القدرة على عقاب من يكذب وينكر، ويجحد بآيات الله تعالى ويقول حيث وضح الحق وقام، إنما أنت مفتر؛ ولذلك قال تعالى من بعد بيان شمول علم الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وهذا أنفى لهم عند العذاب النازل بهم من أن يكون لهم ولى، أي صديق، أو ذو ولاية عليهم يحميهم بولايته، ويكلؤهم بمحبته أو نصير ينصرهم والشدائد نازلة بهم يوم القيامة.

١٧. أكد الله تعالى نفى الولي والنصير، بمن التي تدل على استغراق النفي أي ليس للمعاندين لآيات الله تعالى ولى أي ولى كان، ولا نصير أي نصير كان قويا أو ضعيفا، وأكد سبحانه النفي بتكرار لا، وإن ذلك النفي المؤكد يفيد أنهم يجيئون إلى الله تعالى فرادى كما خلقهم أول مرة، وهو سبحانه مالك يوم الدين.

١٨. أشرنا إلى أننا اخترنا أن يكون النسخ في هذه الآيات الكريمات هو نسخ الآيات الدالة على رسالة النبيّ ﷺ، وأن تغيير آية يأتي الله تعالى بخير منها أو مثلها، وإن قدرة الله على ذلك ثابتة وله فيما يفعل حكم ظاهرة قد نعلمها بإدراكنا الناقص، وقد تعلو على إدراكنا، ولذا قال تعالى موجها الخطاب لأمة محمد ﷺ ملتفتا إليهم، وهم يشملون الوثنيين واليهود فهم جميعا أمة محمد فقد أرسل إلى الناس ـ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ] ـ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أم للإضراب عن الكلام السابق إضرابا لفظيا، مؤداه علمتم أن الله على كل شيء قدير، وعلمتم أن الله تعالى له ملك السموات والأرض، وأنه يصرف الآيات لرسله الكرام فيختار لكل رسول آية، ولا يستبعد أن تكون تلك الآيات كلها على نسق هذه الآية لمن يجيء بعده، والله يصرّف دلائله وآياته.. أتريدون يا من تخاطبون برسالة محمد أن تسألوا رسولكم آية دالة على رسالته، كما سأل اليهود موسى من قبل، أي أتريدون أن تختاروا معجزة دالة على نبوة محمد ﷺ، كما سئل موسى من قبل.

١٩. الاستفهام هنا لإنكار الوقوع، أي أنه كان ممن خاطبهم محمد ﷺ، ممن سأل النبيّ ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء يحمله ملك، ومنهم من سأل أن يكون المبعوث ملكا ولا يكون رجلا يمشى في الأسواق، كان ذلك من المشركين، ومن أهل الكتاب، وقد قال تعالى في سؤال أهل الكتاب: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ

الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَّ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء]

٢٠. المخاطبون في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ هم الذين خوطبوا برسالة محمد ﷺ، وهم الناس جميعا، مشركوهم وأهل الكتاب فيهم، فقد بعث النبيّ ﷺ للأحمر والأسود والذين طلبوا تغيير المعجزة المحمدية بغيرها من المعجزات الحسية كان منهم المشركون واليهود فهم أخص من بعث إليهم بالخطاب.

٢١. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ إلى آخره فيه الاستفهام متجه إلى إرادة السؤال لا إلى السؤال نفسه، وإذا كان الاستنكار للإرادة فهو للسؤال أشد لأنه إذا استنكرت ذات الإرادة، فالأولى يكون للفعل، وإنهم ما أرادوا المشابهة بين فعلهم وفعل بنى إسرائيل من قبل، إنما نبههم الله تعالى إلى المماثلة بقوله: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾، أي مثل ما سئل موسى من قبل.

٢٢. إن ذلك انحراف عن السبيل، وترك للحق، وانصراف عما يوجبه الدليل، إلى سؤال عن دليل آخر مع سلامة هذا الدليل الذي يعترضون عليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي ومن يجعل الإيمان في مقابل الكفر فقد سار في طريق منحرف ولم يسلك السبيل المستقيم، وضل يعنى بعد، ومعنى ذلك أن من يطلب الكفر يترك سواء السبيل والقصد، وفى ذلك إشارة إلى أمرين:

أ. أولا ـ أنهم ضلوا القصد ولم يسلكوا سواء السبيل أي وسطه؛ لأن وسط السبيل لا يكون اعوجاجا ولا انحرافا، وأنهم إذ ضلوا سواء السبيل وبعدوا عنه سلكوا طريق الكفر، واختاروه على الإيمان.

ب. ثانيا ـ أن السبب في سلوكهم طريق الغى والضلال وطلبهم معجزات يريدونها هو أنهم في أصلهم جاحدون كافرون، ومن ترك الطريق الواضح مع وضوحه وقيام برهانه فقد كفر؛ لأنه يتبدل الكفر بالإيمان.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. معنى النسخ في الأحكام الشرعية ان يرد دليل يدل بظاهره على ثبوت حكم شرعي ثبوتا دائما ومستمرا في كل وقت، وبعد العمل بهذا الحكم بعض الحين يأتي دليل آخر يثبت ان ذاك الحكم الذي كنا نقطع بدوامه واستمراره هو في واقعه حكم خاص بأمد معين، وان مصلحة اقتضت العمل به في آن محدود، لا في كل آن، ولكن الحكمة الإلهية استدعت إظهاره بمظهر الدوام والاستمرار، تماما كما لو رأى الطبيب ان من مصلحة المريض الامتناع عن أكل اللحم أسبوعا واحدا فقط.. وأيضا رأى من مصلحته أن لا يعلمه بتحديد الوقت، فنهاه عن اللحم على هذا الأساس من غير قيد، وبعد مضي الأسبوع اذن له بأكل اللحم، وعلى هذا ينحصر معنى النسخ في محو ما ظهر من ارادة الدوام، لا محو الارادة الواقعية الذي يستلزم البداء والجهل.

٢. ليس من شك ان النسخ بهذا المعنى ثابت في الشريعة الاسلامية، فإنها قد نسخت بعض أحكام الشرائع السابقة، كالشريعة الموسوية والعيسوية، بل ان أحكام القرآن قد نسخ بعضها بعضا كتحويل الاتجاه بالصلاة الى الكعبة بعد الاتجاه الى بيت المقدس.

٣. يمكن تقسيم النسخ في القرآن الى أوجه ثلاثة:

أ. الأول: ان تنسخ الآية تلاوة وحكما بحيث يرتفع لفظها وحكمها.

ب. الثاني: ان تنسخ تلاوة لا حكما، أي يرتفع لفظها، ويبقى حكمها.

ج. الثالث: ان تنسخ حكما لا تلاوة، أي تتلى، ولكن لا يؤخذ بظاهرها بعد النسخ، والعمل بعض الوقت.

٤. القسم الأول والثاني لا وجود لهما، لأنهما يستلزمان النقصان وتحريف القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. والقسم الثالث هو الجائز والثابت أيضا، وعليه أكثر المسلمين، وجمهور المفسرين، وفيه كتب خاصة.

٥. تجمل الاشارة إلى ان الحكم الشرعي إذا ثبت بالطريق الصحيح لا يجوز نسخه إلا بآية قرآنية،

---

(١) التفسير الكاشف: ١/ ١٦٩.

أو بسنة متواترة.. ذلك ان النسخ من الأمور العظيمة الهامة، وكل ما كان كذلك لا يثبت بأخبار الآحاد، لأن كل مهم لا بد ان ينتشر ويشتهر على الألسن بحكم العادة، فإذا نقل الحادث العظيم فرد واحد، أو أكثر دون أن يبلغ النقل حد التواتر كان ذلك دليلا على كذب الناقل.. ألا ترى ان موت الرجل الشهير ينقله أكثر الناس، وكذلك الثورات والانقلابات أما موت الرجل العادي فلا يعرفه إلا بعض الجيران والأرحام، والتفصيل في علم الأصول.

٦. ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾، قال كثير من المفسرين: ان اليهود قالوا: ان محمدا يأمر أصحابه بأمر، ثم ينهاهم عنه، ويقول اليوم قولا، وغدا يرجع عنه، ولو كان ما يقوله وحيا لما كان فيه هذا التناقض، فنزلت هذه الآية ردا عليهم.. والمراد آية من آي الذكر الحكيم، لأن هذا المعنى هو المتبادر الى الافهام هنا، ونقل الشيخ المراغي في تفسيره عن استاذه الشيخ محمد عبده ان المراد بالآية المعجزة الدالة على نبوة النبي، وان المعنى ان الله يعطي معجزة لنبي من الأنبياء، ثم يتركها كلية، ويعطي غيرها لنبي آخر.. وهذا المعنى صحيح في ذاته، ولكن سياق الآية ينفيه ويعين ما ذهب اليه العلماء وجمهور المفسرين من ان المراد آية من القرآن.

٧. معنى نسخ الآية القرآنية بقاؤها لفظا وتلاوة، مع الغاء حكمها التي دلت عليه، وعمل به آنا ما، أما (ننسها) فإن قرئت من غير همزة فهي من النسيان، ويتعين أن يكون المعنى الترك لا الذهول، أي نتركها على ما هي بلا تغيير وتبديل، حيث يصح أن تقول: نسيت الشيء، وأنت تريد تركه على حاله.. وان قرئت بالهمزة (ننسأها) فهو من الارجاء والتأخير، أي نترك انزالها الى وقت ثان، ومهما يكن فإن الآية بدليل وجود (ما) الشرطية لا تدل على وقوع النسخ بالفعل، بل تدل على انه لو افترض وقوعه لأتى الله بخير من المنسوخ.

٨. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قيل: ان الخطاب في (تعلم) للنبي، والمراد به المسلمون الذين تضايقوا من اعتراض اليهود وغيرهم على النسخ، والحق انه خطاب لكل من يستبعد النسخ، أو يؤلمه الاعتراض عليه، والمعنى ان النسخ ليس بالغريب المستبعد، لأنه لا يخرج عن كونه تكليفا للعباد، ومحو حكم، واثبات حكم مماثل أو أصلح مكانه، وبديهة ان الله يملك كل شيء، ويدبره ويجريه على ما يشاء من نسخ أو بقاء بلا نسخ.. أما ذكر

السموات والأرض بالخصوص فهو اشعار بالعموم والشمول، لأنها يشتملان على جميع المخلوقات العلوية والسفلية.

٩. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. أي لا تبالوا أيها المؤمنون بمن اعترض أو يعترض على النسخ، أو على أي شيء في دينكم، فليس باستطاعة مخلوق أن يضركم، ما دام الله هو المؤيد والمناصر.. واختصارا ان النسخ حق، ولا مانع عنه من العقل ولا من الشرع خلافا للمنكرين والمعترضين.

١٠. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى﴾ بعد ان قال الله سبحانه للمؤمنين: لا تبالوا باعتراض من اعترض على النسخ وغيره من أحكام دينكم، لأن الأمور كلها بيده، ويختار منها الأصلح لكم ولغيركم، بعد هذا قال لهم: ماذا تبتغون من رسولكم محمد ﷺ، وقد جاءكم بالبراهين الكافية الوافية؟ أتريدون أن تتعنتوا كما فعل اليهود مع موسى، وسألوه ما لا يجوز سؤاله؟.. ان الإنسان قد يشك، ويطلب الدليل المقنع الذي يزيل الشك، اما ان يطلب جعل الجبل ذهبا، والصحراء الجرداء رياضا فهذا مجرد معاندة ومكابرة، فلا تكونوا أيها المسلمون من المكابرين المعاندين.

١١. ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. ان كل من يقف من الحق موقفا مجردا، ويطلب الدليل المعقول على إثباته فهو مؤمن بالحق، كمبدأ، وكل من يقف من الحق موقف المكابر المتعنت، ويطلب فوق المعقول، وأكثر مما يستدعيه الاستدلال والإثبات فهو كافر بالحق.. ومن لم يثق بما جاء به محمد ﷺ، وطلب الزيادة فقد اختار العناد على الانصاف، والكفر على الايمان.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. الآيتان في النسخ ومن المعلوم أن النسخ بالمعنى المعروف عند الفقهاء وهو الإبانة عن انتهاء أمد الحكم وانقضاء أجله اصطلاح متفرع على الآية مأخوذ منها ومن مصاديق ما يتحصل من الآية في معنى النسخ على ما هو ظاهر إطلاق الآية.

٢. قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾، النسخ هو الإزالة، يقال: نسخت الشمس الظل إذا أزالته وذهبت

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٥٠.

به، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، ومنه أيضا قولهم: نسخت الكتاب إذا نقل من نسخة إلى أخرى فكأن الكتاب أذهب به وأبدل مكانه ولذلك بدل لفظ النسخ من التبديل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٣. كيف كان فالنسخ لا يوجب زوال نفس الآية من الوجود وبطلان تحققها، بل الحكم حيث علق بالوصف وهو الآية والعلامة مع ما يلحق بها من التعليل في الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، إلخ أفاد ذلك أن المراد بالنسخ هو إذهاب أثر الآية من حيث إنها آية، أعني إذهاب كون الشيء آية وعلامة مع حفظ أصله فبالنسخ يزول أثره من تكليف أو غيره مع بقاء أصله وهذا هو المستفاد من اقتران قوله: ﴿نُنْسِهَا﴾ بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾، والإنساء إفعال من النسيان وهو الإذهاب عن العلم كما أن النسخ هو الإذهاب عن العين فيكون المعنى ما نذهب بآية عن العين أو عن العلم نأت بخير منها أو مثلها.

٤. كون الشيء آية يختلف باختلاف الأشياء والحيثيات والجهات، فالبعض من القرآن آية لله سبحانه باعتبار عجز البشر عن إتيان مثله، والأحكام والتكاليف الإلهية آيات له تعالى باعتبار حصول التقوى والقرب بها منه تعالى، والموجودات العينية آيات له تعالى باعتبار كشفها بوجودها عن وجود صانعها وبخصوصيات وجودها عن خصوصيات صفاته وأسمائه سبحانه، وأنبياء الله وأولياؤه تعالى آيات له تعالى باعتبار دعوتهم إليه بالقول والفعل وهكذا، ولذلك كانت الآية تقبل الشدة والضعف قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾

٥. من جهة أخرى الآية ربما كانت في أنها آية ذات جهة واحدة وربما كانت ذات جهات كثيرة، ونسخها وإزالتها كما يتصور بجهته الواحدة كإهلاكها كذلك يتصور ببعض جهاتها دون بعض إذا كانت ذات جهات كثيرة، كالآية من القرآن تنسخ من حيث حكمها الشرعي وتبقى من حيث بلاغتها وإعجازها ونحو ذلك.

٦. هذا الذي استظهرناه من عموم معنى النسخ هو الذي يفيده عموم التعليل المستفاد من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وذلك أن الإنكار المتوهم في المقام أو الإنكار الواقع من اليهود على ما نقل في شأن نزول الآية بالنسبة إلى معنى النسخ يتعلق

به من وجهين:

أ. أحدهما: من جهة أن الآية إذا كانت من عند الله تعالى كانت حافظة لمصلحة من المصالح الحقيقية لا تحفظها شيء دونها، فلو زالت الآية فاتت المصلحة ولن تقوم مقامها شيء تحفظ به تلك المصلحة، ويستدرك به ما فات منها من فائدة الخلقة ومصلحة العباد، وليس شأنه تعالى كشأن عباده ولا علمه كعلمهم بحيث يتغير بتغير العوامل الخارجية فيتعلق يوما علمه بمصلحة فيحكم بحكم ثم يتغير علمه غدا ويتعلق بمصلحة أخرى فاتت عنه بالأمس، فيتغير الحكم، ويقضي ببطلان ما حكم سابقا، وإتيان آخر لاحقا، فيطلع كل يوم حكم، ويظهر لون بعد لون، كما هو شأن العباد غير المحيطين بجهات الصلاح في الأشياء، فكانت أحكامهم وأوضاعهم تتغير بتغير العلوم بالمصالح والمفاسد زيادة ونقيصة وحدوثا وبقاء، ومرجع هذا الوجه إلى نفي عموم القدرة وإطلاقها.

ب. ثانيهما: أن القدرة وإن كانت مطلقة إلا أن تحقق الإيجاد وفعلية الوجود يستحيل معه التغير، فإن الشيء لا يتغير عما وقع عليه بالضرورة وهذا مثل الإنسان في فعله الاختياري فإن الفعل اختياري للإنسان ما لم يصدر عنه فإذا صدر كان ضروري الثبوت غير اختياري له، ومرجع هذا الوجه إلى نفي إطلاق الملكية وعدم جواز بعض التصرفات بعد خروج الزمام ببعض آخر كما قالت اليهود: ﴿يَدُ اللهِّ مَغْلُولَةٌ﴾

٧. أشار سبحانه إلى الجواب عن الأول بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فلا يعجز عن إقامة ما هو خير من الفائت أو إقامة ما هو مثل الفائت مقامه وأشار إلى الجواب عن الثاني بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، أي أن ملك السموات والأرض لله سبحانه فله أن يتصرف في ملكه كيف يشاء وليس لغيره شيء من الملك حتى يوجب ذلك انسداد باب من أبواب تصرفه سبحانه، أو يكون مانعا دون تصرف من تصرفاته، فلا يملك شيء شيئا، لا ابتداء ولا بتمليكه تعالى، فإن التمليك الذي يملكه غيره ليس كتمليك بعضنا بعضا شيئا بنحو يبطل ملك الأول ويحصل ملك الثاني، بل هو مالك في عين ما يملك غيره ما يملك، فإذا نظرنا إلى حقيقة الأمر كان الملك المطلق والتصرف المطلق له وحدة، وإذا نظرنا إلى ما ملكنا بملكه من دون استقلال كان هو الولي لنا وإذا نظرنا إلى ما تفضل علينا من ظاهر الاستقلال ـ وهو في الحقيقة فقر في صورة الغنى، وتبعية في صورة

الاستقلال ـ لم يمكن لنا أيضا أن ندبر أمورنا من دون إعانته ونصره كان هو النصير لنا.

٨. هذا الذي ذكرناه هو الذي يقتضيه الحصر الظاهر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، مرتب على ترتيب ما يتوهم من الاعتراضين، ومن الشاهد على كونهما اعتراضين اثنين الفصل بين الجملتين من غير وصل.

٩. قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مشتمل على أمرين هما كالمتممين للجواب، أي وإن لم تنظروا إلى ملكه المطلق بل نظرتم إلى ما عندكم من الملك الموهوب فحيث كان ملكا موهوبا من غير انفصال واستقلال فهو وحده وليكم، فله أن يتصرف فيكم وفيما عندكم ما شاء من التصرف، وإن لم تنظروا إلى عدم استقلالكم في الملك، بل نظرتم إلى ظاهر ما عندكم من الملك والاستقلال وانجمدتم على ذلك فحسب، فإنكم ترون أن ما عندكم من القدرة والملك والاستقلال لا تتم وحدها، ولا تجعل مقاصدكم مطيعة لكم خاضعة لقصودكم وإرادتكم وحدها بل لا بد معها من إعانة الله ونصره فهو النصير لكم فله أن يتصرف من هذا الطريق فله سبحانه التصرف في أمركم من أي سبيل سلكتم هذا.

١٠. قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ﴾، جيء فيه بالظاهر موضع المضمر نظرا إلى كون الجملة بمنزلة المستقل من الكلام لتمامية الجواب دونه.

١١. ظهر مما مر:

أ. أولا، أن النسخ لا يختص بالأحكام الشرعية بل يعم التكوينيات أيضا.

ب. ثانيا: أن النسخ لا يتحقق من غير طرفين ناسخ ومنسوخ.

ج. ثالثا: أن الناسخ يشتمل على ما في المنسوخ من كمال أو مصلحة.

د. رابعا: أن الناسخ ينافي المنسوخ بحسب صورته وإنما يرتفع التناقض بينهما من جهة اشتمال كليهما على المصلحة المشتركة.

هـ. خامسا: أن النسبة التي بين الناسخ والمنسوخ غير النسبة التي بين العام والخاص وبين المطلق والمقيد وبين المجمل والمبين، فإن الرافع للتنافي بين الناسخ والمنسوخ بعد استقراره بينهما بحسب الظهور اللفظي هو الحكمة والمصلحة الموجودة بينهما، بخلاف الرافع للتنافي بين العام والخاص والمطلق والمقيد

والمجمل والمبين فإنه قوة الظهور اللفظي الموجود في الخاص والمقيد والمبين، المفسر للعام بالتخصيص، وللمطلق بالتقييد، وللمجمل بالتبيين على ما بين في فن أصول الفقه، وكذلك في المحكم والمتشابه على ما سيجيء في قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾

١٢. يرتفع التناقض بين الناسخ والمنسوخ من جهة اشتمال كليهما على المصلحة المشتركة:

أ. فإذا توفي نبي وبعث نبي آخر وهما آيتان من آيات الله تعالى أحدهما ناسخ للآخر كان ذلك جريانا على ما يقتضيه ناموس الطبيعة من الحياة والموت والرزق والأجل وما يقتضيه اختلاف مصالح العباد بحسب اختلاف الأعصار وتكامل الأفراد من الإنسان.

ب. وإذا نسخ حكم ديني بحكم ديني كان الجميع مشتملا على مصلحة الدين وكل من الحكمين أطبق على مصلحة الوقت، أصلح لحال المؤمنين كحكم العفو في أول الدعوة وليس للمسلمين بعد عدة ولا عدة، وحكم الجهاد بعد ذلك حينما قوي الإسلام وأعد فيهم ما استطاعوا من قوة وركز الرعب في قلوب الكفار والمشركين.

١٣. الآيات المنسوخة مع ذلك لا تخلو من إيماء وتلويح إلى النسخ كما في قوله تعالى ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى﴾ ﴿يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾: البقرة ـ ١٠٩، المنسوخ بآية القتال وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: النساء ـ ١٤ المنسوخ بآية الجلد فقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ وقوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ لا يخلو عن إشعار بأن الحكم موقت مؤجل سيلحقه نسخ.

١٤. قوله تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾:

أ. قرئ بضم النون وكسر السين من الإنساء بمعنى الإذهاب عن العلم والذكر، وهو كلام مطلق أو عام غير مختص برسول الله ﷺ، بل غير شامل له أصلا لقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾، وهي آية مكية وآية النسخ مدنية فلا يجوز عليه النسيان بعد قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ وأما اشتماله على الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ فهو على حد الاستثناء الواقع في قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، جيء بها لإثبات بقاء القدرة مع الفعل على تغيير الأمر، ولو كان الاستثناء مسوقا لبيان الوقوع في الخارج لم يكن للامتنان بقوله: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ معنى، إذ كل ذي ذكر وحفظ من الإنسان وسائر الحيوان كذلك يذكر وينسى وذكره ونسيانه كلاهما منه تعالى

وبمشيته، وقد كان رسول الله ﷺ كذلك قبل هذا الإقراء الامتناني الموعود بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ يذكر بمشية الله وينسى بمشية الله تعالى فليس معنى الاستثناء إلا إثبات إطلاق القدرة أي سنقرئك فلا تنسى أبدا والله مع ذلك قادر على إنسائك هذا.

ب. وقرئ قوله: (ننسأها) بفتح النون والهمزة من نسيء نسيئا إذا أخر تأخيرا فيكون المعنى على هذا: (ما ننسخ من آية بإزالتها أو نؤخرها بتأخير إظهارها نأت بخير منها أو مثلها)

١٥. لا يوجب التصرف الإلهي بالتقديم والتأخير في آياته فوت كمال أو مصلحة، والدليل على أن المراد بيان أن التصرف الإلهي يكون دائما على الكمال والمصلحة هو قوله: ﴿بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ فإن الخيرية إنما يكون في كمال شيء موجود أو مصلحة حكم مجعول ففي ذلك يكون موجود مماثلا لآخر في الخيرية أو أزيد منه في ذلك فافهم.

١٦. قد تكاثرت روايات الفريقين عن النبي ﷺ والصحابة وعن أئمة أهل البيت عليه السلام: أن في القرآن ناسخا ومنسوخا، ومن الأمثلة على ذلك:

أ. في تفسير النعماني، عن أمير المؤمنين عليه السلام: بعد ذكر عدة آيات من الناسخ والمنسوخ: قال عليه السلام: (ونسخ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي للرحمة خلقهم)، وفيها دلالة على أخذه عليه السلام النسخ في الآية أعم من النسخ الواقع في التشريع فالآية الثانية تثبت حقيقة توجب تحديد الحقيقة التي تثبتها الآية الأولى، وبعبارة واضحة: الآية الأولى تثبت للخلقة غاية وهي العبادة، والله سبحانه غير مغلوب في الغاية التي يريدها في فعل من أفعاله غير أنه سبحانه خلقهم على إمكان الاختلاف فلا يزالون مختلفين في الاهتداء والضلال فلا يزالون مختلفين إلا من أخذته العناية الإلهية، وشملته رحمة الهداية، ولذلك خلقهم أي ولهذه الرحمة خلقهم، فالآية الثانية تثبت للخلقة غاية، وهو الرحمة المقارنة للعبادة والاهتداء ولا يكون إلا في البعض دون الكل، والآية الأولى كانت تثبت العبادة غاية للجميع، فهذه العبادة جعلت غاية الجميع من جهة كون البعض مخلوقا لأجل البعض الآخر، وهذا البعض أيضا لآخر حتى ينتهي إلى أهل العبادة وهم العابدون المخلوقون للعبادة فصح أن العبادة غاية للكل نظير بناء الحديقة وغرس الشجرة لثمرتها أو لمنافعها المالية فالآية الثانية تنسخ إطلاق الآية الأولى.

ب. في تفسير النعماني، أيضا عنه عليه السلام: قال ونسخ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ قوله: ﴿الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ} ﴿خَالِدُونَ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾.. وليست الآيتان من قبيل العام والخاص لقوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾، والقضاء الحتم غير قابل الرفع ولا ممكن الإبطال ويظهر معنى هذا النسخ مما سيجيء إن شاء الله في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

ج. وفي تفسير العياشي، عن الباقر عليه السلام: أن من النسخ البداء المشتمل عليه قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، ونجاة قوم يونس.. والوجه فيه واضح.

د. وفي بعض الأخبار عن أئمة أهل البيت عدّ عليه السلام موت إمام وقيام إمام آخر مقامه من النسخ.. والأخبار في هذه المعاني كثيرة مستفيضة.

هـ. عن قتادة قال: كانت الآية تنسخ الآية ـ وكان نبي الله يقرأ الآية والسورة وما شاء الله من السورة ـ ثم ترفع فينسيها الله نبيه فقال الله يقص على نبيه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾، يقول: فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي.. وروي فيه أيضا في معنى الإنساء روايات عديدة وجميعها مطروحة بمخالفة الكتاب.

١٧. سياق قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ يدل على أن بعض المسلمين ـ ممن آمن بالنبي ﷺ سأل النبي أمورا على حد سؤال اليهود نبيهم موسى عليه السلام والله سبحانه وبخهم على ذلك في ضمن ما يوبخ اليهود بها فعلوا مع موسى والنبيين من بعده، والنقل يدل على ذلك.

١٨. ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي مستوى الطريق.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ بنسخ حكمها ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ بأن يحذف ذكرها من القلب بقوة إلهية ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أصلح منها بالنسبة لوقت نزول الأصلح، فالناسخة خير بالنسبة لوقت حكم النسخ لا بالنسبة

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٦٢.

لما قبل النسخ؛ لأن الخير فيما تقتضيه الحكمة من الناسخ في وقته والمنسوخ قبل نسخه.. وكذلك قوله: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ على فرض النسيان، يكون البدل خيراً من المنسي، وعلى معنى النسيئة يعجل ما هو خير من المؤجل قبل وقت إنزال المؤجل، والحاصل: أن الخير فيما أنزل الله، وليس لأحد أن يعترض؛ لأنه كلام أحكم الحاكمين ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو ينزل ما يشاء.

٢. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يحكم ما يريد؛ لأن الحكم له في عباده ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاكم بالنعم والألطاف وحسن الرعاية ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينقذكم من عذابه، إن أراد أن يعذبكم، ولعل الخطاب لبني إسرائيل، بدليل ما قبلها وما بعدها، وهو ردّ على من أنكر النسخ منهم.

٣. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ حين قال له قومه: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَّ جَهْرَةً﴾ ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ غوي الطريق السوي وهو طريق الحق والسلامة والكرامة، وتبدل الكفر بالإيمان يشمل جعل الكفر بدل الإيمان بالردة عن الإيمان إلى الكفر وجعل الكفر بدل الإيمان باختيار الكفر، وهو يدعى إلى الإيمان فلا يجيب داعي الله ويختار الكفر.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تدل هذه الآية على أن الله عندما يرفع آية أو يزيلها لفظا أو حكما أو تلاوة حسب اختلاف أنواع النسخ وأشكاله، أو عندما ينسيها فلا يتذكرها الناس ليبعدها عن الوجدان الفكري لهم، لانتهاء دورها في المرحلة الجديدة، لأنّ مضمونها كان صالحا لفترة سابقة على صعيد التشريع والتوجيه؛ فإنه لا يترك الناس بدون هداية جديدة، ولا يفوّت عليهم ما فيها من فوائد ومصالح؛ بل يأتي بخير مما رفعه عنهم أو أنساهم إيّاه، أو يأتي بمثلها فيما تفتح لهم من أبواب المعرفة، لأنه قادر على كل شيء.. ذلك هو المفهوم الحرفي من اللفظ.

٢. قد تكون القضية واردة في الأجواء الفكرية التي كان يعيشها اليهود في استنكارهم لنسخ

---

(١) من وحي القرآن: ٢/ ١٥٧.

الكتب والشرائع السماويّة بكتاب جديد أو شريعة جديدة، كما ينادي به أتباع عيسى ومحمد عليهما السّلام، فيما جاء به عيسى من كتاب، وفيما جاء به محمد من كتاب وشريعة، وكانوا ينطلقون في ذلك مما زعموه أساسا لاستحالة النسخ، لأن ذلك يؤدي إلى نسبة عدم الحكمة إلى الله إذا رفع الحكم أو الآية مع بقاء الموضوع على ما هو عليه من المصلحة، أو يؤدي إلى نسبة الجهل إليه إذا كان يرى دوام المصلحة فتبيّن عدم دوامها في حالة ارتفاع المصلحة السابقة، وعلى هذا الأساس، كانوا يستنكرون فكرة النسخ بشكل كلّي، فجاءت هذه الآية لتبيّن لهم وللمسلمين أنّ الله يمكن أن يجري التشريع على مراحل، فيجعل الحكم على أساس مصلحة موقتة بزمان من دون أن يبيّن ذلك للناس، بل يتركهم لتصورهم ليتخيّلوا استمراره لحكمة في ذلك، ثم تنتهي المصلحة السابقة لتبدأ مصلحة جديدة بحكم آخر، أو لينزل آية أخرى مماثلة لما سبق في المصلحة أو أفضل منها فيرفع ما كان، وذلك على قاعدة الحكمة البالغة التي اقتضت الجعل في البداية والنهاية.

٣. وربما تكون الآية واردة في نطاق الأجواء الإسلامية في نسخ آيات القرآن، بإزالتها حكما وتلاوة كما يدعيه البعض، أو تلاوة لا حكما كما يدعيه بعض آخر في آيات الرجم، أو حكما لا تلاوة كما ورد في بعض الآيات التي ادّعي نسخها في القرآن؛ وعلى هذا تكون الآية واردة في تبرير ذلك، وبيان أن الله بيده رفع الآيات ووضعها، وأن الذي أنزل الآية قادر على أن ينزل مثلها أو أفضل منها.

٤. لا نوافق على نسخ التلاوة مع نسخ الحكم أو بدونه، لأن ذلك يؤدي إلى الالتزام بتحريف القرآن ونقصانه، كما أنه لم يثبت إلا بخبر الواحد الذي لا يثبت النسخ به على ما هو رأي جمهور المحققين مما هو مذكور في محله.

٥. نسخ حكم الآية ممكن في ذاته، ولكنّ هناك كلاما بين العلماء في وقوعه في القرآن وعدمه، وهذا ما لا مجال لتفصيل الحديث فيه هنا لأن مجاله في أبحاث علوم القرآن لا تفسيره، ويمكن للقارئ الرجوع إلى كتاب (البيان في تفسير القرآن) لأستاذنا المحقق السيد أبي القاسم الخوئي، فقد وفّى هذا الموضوع حقه.

٦. ثار جدل كلامي حول الجانب المتعلق بالنسيان في الآية، فتباينت الآراء، بين رأي لا يجوّز ذلك لأنه يؤدي إلى التنفير عنه وعدم الثقة بكلامه، لإثارته الاحتمال في كل ما يبلغه للناس، فلا يبقى مجال للطمأنينة به، وهذا ما ذهب إليه المحقق الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في تفسيره (التبيان)،

على ما نقله صاحب (مجمع البيان)؛ وبين رأي يجوّز ذلك، وهو رأي جماعة من المحققين، فقد قالوا إن من الممكن أن يكون النسيان لحكمة واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٦ ـ ٧] أي إلا ما شاء الله أن تنساه.. وهذا بحث من أبحاث الكلام المتصلة بعصمة النبي ﷺ عن الخطأ والسهو والنسيان في الموارد التي أريد له أن يزيلها من التشريع في حياة الناس، ونحن لا نريد الخوض في هذا البحث، لأن له مجالا آخر.. أما رأينا في هذا الموضوع، فهو أن الآية بعيدة عن هذا البحث، لأن النسيان وارد هنا على سبيل الكناية فيما يريد الله أن يزيله من التشريع بشكل غير مباشر، في مقابل ما يريد إزالته بشكل مباشر، وهو إبلاغ النبي بذلك عن طريق الوحي، ولهذا فإن إنساء الله إيّاه، ليس فيه محذور حتى على رأي من يرى عصمة النبي عن السهو والنسيان، لأنه يعتقد ذلك في الموارد التي تدخل في نطاق الشريعة والحياة العامة الطبيعية، لا فيما يدخل في نطاق الإرادة الإلهية التي تتدخل في نسخ الحكم بهذه الطريقة، مما يعدّ جزءا من حركة الرسالة وطريقتها في إبلاغ الشريعة سلبا أو إيجابا.

٧. هناك قراءة أخرى: (أو ننسأها)، من الإنساء وهو التأجيل والتأخير إلى أجل معين، وهذا ما نستبعده لأنها واردة في سياق الاستبدال الذي يعني الإزالة في المبدل منه أساسا؛ والله العالم.

٨. قد يخطر بالبال أن المراد بالآية في هذا الموضوع، هو الآية التكوينية مما يدخل في عداد الظواهر الكونية، أو المعاجز الإلهية التي يرسل بها الأنبياء، وربما يكون ذلك أوفق بمفهوم الآية عرفا، وأقرب إلى مدلول كلمة النسخ من حيث تعلقها بالذات بينما هي متعلقة بالحكم على المعنى المتقدم مع فرض بقاء الآية في موقعها من القرآن، كما أنها أكثر صلة بقدرة الله التي كانت ختام الآية.. وعلى ضوء هذا، يكون مدلول الآية هو أن الله قادر على أن يزيل الآيات التي يخلقها أو يرسل بها رسوله ويأتي بخير منها أو مثلها في الكون، أو على يد الرسل؛ وبذلك تكون بعيدة عن جوّ النسخ بمعناه المصطلح، ولكن كلمة ﴿نُنْسِهَا﴾ قد لا تتناسب كثيرا مع هذا التفسير إلا ببعض الوجوه البعيدة؛ والله أعلم بمعاني آياته.

٩. هناك وجه آخر في فهم الآية يرتكز على شموليتها للجانب التشريعي والتكويني والإنساني، فقد جاء في تفسير الميزان في تفسير كلمة الآية، قال (إن كون الشيء آية يختلف باختلاف الأشياء والحيثيات والجهات، فالبعض من القرآن آية لله سبحانه، باعتبار عجز البشر عن إتيان مثله، والأحكام والتكاليف

الإلهية آيات له تعالى، باعتبار حصول التقوى والقرب بها منه تعالى، والموجودات العينية آيات له تعالى، باعتبار كشفها بوجودها عن وجود صانعها وبخصوصيات وجودها عن خصوصيات صفاته وأسمائه سبحانه، وأنبياء الله وأولياؤه تعالى آيات له تعالى، باعتبار دعوتهم إليه بالقول والفعل، وهكذا، ولذلك كانت الآية تقبل الشدّة والضعف، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]، ومن جهة أخرى، ربما كانت الآية ذات جهة واحدة، وربما كانت ذات جهات كثيرة، ونسخها وإزالتها كما يتصور بجهته الواحدة كإهلاكها كذلك يتصور ببعض جهاتها دون بعض إذا كانت ذات جهات كثيرة، كالآية من القرآن تنسخ من حيث حكمها الشرعي وتبقى من حيث بلاغتها وإعجازها ونحو ذلك.. وهذا الذي استظهرناه من عموم معنى النسخ هو الذي يفيده عموم التعليل المستفاد من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾).. وهذا المعنى طريف في ذاته، ولكن إرادته من هذه الآية غير ظاهر، لأنها واردة في الأشياء التي هي في معرض النسخ والإزالة مما يتعلق بحياة الناس، بالمستوى الذي يثير الجدل فيما بينهم، كما جاء الحديث به عن اليهود في حركة التشريع، أو في تأكيد قدرة الله في خلقه بحيث لا تجري الحياة على شكل واحد، بل يمكن أن تتغير وتتبدل لتتحرك ظاهرة في مرحلة معينة لتحل محلها ظاهرة أخرى مماثلة لها أو أفضل منها انطلاقا من قدرة الله.

١٠. قد لا نجد مناسبة للتعبير عن الأشخاص بالآية من خلال نشاطهم ودعوتهم أو الحديث عنهم بعنوان النسخ ونحوه.. إنها ـ والله العالم ـ إشارة إلى ما يكون في معرض الثبات والاستمرار، ليكون النسخ مفاجئا للناس، فيحتاج إلى إزالة مضمون المفاجأة من أذهانهم، لأن الله الذي يملك القدرة على الإيجاد قادر على التبديل، ولا دلالة في التعليل على ما ذكره، لأن الحديث عن قدرة الله يكفي في مناسبته وجود موضوع له في مسألة التشريع أو التكوين.

١١. ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي نزيلها من التشريع، باعتبار أن تبديل مضمونها من التداول في حياة الناس إلى مضمون آخر وحكم آخر يمثل إزالة عملية للآية حتى لو بقيت في القرآن لفظا، لأنها خرجت منه عملا، لتبقى في مضمونها مجرد تاريخ في التشريع؛ أو نزيلها من الوجود كظاهرة كونية تتبدل بظاهرة أخرى، أو معجزة تنتهي لتأتي مكانها معجزة أخرى.

١٢. معنى (الآية) هو العلامة الظاهرة وحقيقته لكل شيء ظاهر هو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره،

فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته، إذ كان حكمهما سواء، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات، فمن علم ملازمة العلم للطريق المنهج، ثم وجد العلم علم أنه وجد الطريق، وكذا إذا علم شيئا مصنوعا علم أنه لا بدّ له من صانع، كما جاء في مفردات الراغب الأصفهاني.

١٣. قد تطلق (الآية) على كل جملة من القرآن دالة على حكم أية سورة كانت أو أي فصل من فصول السورة، وقد يقال لكل كلام منفصل بفصل لفظي، وعلى هذا، اعتبار آيات السورة التي تعدّ بها السورة؛ وقد تطلق على المعجزة وعلى الظواهر الكونية الدالة على وجود الله والمعاد وعلى الأشياء البارزة الملفتة للأنظار.

١٤. ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أي نهملها من الذاكرة أو نتركها، فلا يكون لها أيّ أثر أو اعتبار في الواقع ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ في العناصر التشريعية التي قد تمنح الناس نتائج أكبر من الأولى على مستوى حياتهم العامة أو الخاصة في التسهيل أو التيسير، أو في ملاءمتها للمرحلة الثانية بشكل أفضل من الأولى التي كانت تنسجم مع المرحلة الأولى، ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ في مستوى العناصر الكامنة في الآية الأولى، وإن اختلفت في طبيعتها من حيث خصائصها، كأي شيئين متماثلين في الدرجة مختلفين في الخصائص.

١٥. بهذا يجاب عن السؤال الذي يفرض نفسه أمام الكلمة، وهو أنه إذا كان هناك تماثل بين الحكم الناسخ والمنسوخ فما فائدة التغيير، بأنّ الخصائص قد تختلف لتكون في زمن منتجة للغاية التي كانت من أجلها، وغير منتجة في زمن آخر لحاجتها إلى خصائص أخرى، لأن للزمن دورا في فعلية الخصائص مع وحدة الغاية.

١٦. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمن يخلق الآية ويحرّكها في الوجود أو في التشريع الإنساني لمصلحة معينة في فترة معينة، ومن يبدع آية أخرى في مكانها بعد إزالة الأولى، أو يشرع حكما تضمنته الآية بعد نسخ الحكم الأول!؟ فإن الله لا يعجزه شيء في خلقه، فإذا كان قادرا على الإيجاد، فهو القادر ـ في الوقت نفسه ـ على إعدام فعلية الوجود وتبديله بوجود آخر، فإن الموجودات خاضعة له في البداية في أصل وجودها، كما هي خاضعة في النهاية بعد وجودها، فلا يعطّل الوجود قدرته.

١٧. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ربما كانت هذه الآية تأكيدا للجوّ الروحي الإيماني الذي يريد القرآن ملء نفس الإنسان المؤمن به، فيما جاء في

الآية السابقة من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فكانت هذه الآية من أجل دفع الإنسان إلى عيش هذه الحقيقة الإيمانية، من خلال توجيهه إلى التفكير فيما حوله وفيما فوقه من السماوات والأرض، ليعرف أنها ملك الله الذي يجب أن يذعن له العباد، ويخضعوا له، ويرجعوا إليه في كل أمورهم، ولا يتمردوا عليه، ولا ينحرفوا عن سبيله مهما كانت درجة قوتهم ومهما كانت قوة الآخرين، لأنهم سوف يواجهون الحقيقة الصارخة، وهي أنهم لا يملكون من دون الله وليا يرعاهم ويقوم بأمورهم، لأنه القائم على الخلق كله، ولا يملكون من دونه نصيرا ينصرهم منه، لأنه خالق القوة كلها، فلا قوة أمامه مهما بلغت.. وهذه طريقة قرآنية جديرة بالوعي والتأمل، وهي الإيحاء الدائم بعظمة الله، بالإفاضة في ذكر صفاته المليئة بأجواء العظمة في كل مورد يذكر فيه اسمه في القرآن، ليظل الإنسان مشدودا إلى عظمته في عملية تفكير وتدبر وتأمل، وليعيش الحضور الروحي الدائم، فلا ينفصل عنه في أية حالة من الحالات.

١٨. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد، أو أيها الإنسان المؤمن، ﴿إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من موقع أنه الخالق لها والمدبر لأمورها والمهيمن عليها، فهو ـ وحده ـ الذي يملكها بالخلق والسيطرة والقدرة المطلقة التي تحتويها وتحيط بها من كل جانب وتملك كل حركتها وكل ما فيها من المخلوقات.. فكيف تعصونه وتعبدون غيره وتتمردون عليه ـ أيها الناس ـ ولا تخافون عقابه كأنكم تملكون الولي الذي يتولى حمايتكم، والناصر الذي ينصركم إذا أراد الله أن يأخذكم أخذ عزيز مقتدر!؟ ألم تعلموا أيها الناس أنه ما لكم من إله إلا الله ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾!؟

١٩. ﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة بمعنى (بل)، في مقابل المتصلة التي لا بد من أن تعادلها الألف، لتكون واردة في مجال التسوية بين شيئين، وتدل الآية على أن قوم الرسول محمد ﷺ سألوه شيئا مشابها لما سأله قوم موسى، ولكنها تجمل طبيعة ذلك الشيء، فهل هو أن يروا الله جهرة كما عن بعض، أم هو أن يضع لهم إلها على صورة آلهة الكفار كما ذكره بعضهم، أم أن يحقق لهم بعض الطلبات التعجيزية التي لا تبلغها قدرته الذاتية، أو مما يستحيل حدوثه بصفة طبيعية، كما حدثنا الله عن ذلك في بعض الآيات التي أفاضت في الحديث عما كان يقدّم إلى النبي محمد صلّى الله عليه وآله من طلبات تعجيزية؟.

٢٠. لا نريد أن نسترسل كثيرا فيما استرسل فيه المفسرون من الحديث عن هذا الأمر، لأننا لا نجد الجانب التفصيلي في هذه القضايا موضع أهمية لاستحياء الفكرة أو أخذ العبرة، فنجمل ما أجمله الله من

القصة التي لم تتحدث إلا عن طبيعة هذا السؤال، وعلاقته باستبدال الإيمان بالكفر، مما يوحي بأن الطلبات تتحرك في اتجاه يقترب بهم إلى الكفر، ويخرجهم من خط الإيمان، فلنأخذ منها هذه الفكرة التي يريدنا الله أن نعرفها، لنعرف شدة معاناة الرسول من قومه فيما أثاروه من قضايا تدخل في حساب الخطة الشريرة التي استهدفت إشغاله عن مهمته، وتحديهم لشخصه أمام الجاهلين الذين لا يعرفون موازين الدور النبوي في حياة الناس، أو محاولتهم السخرية منه بهذه الطريقة، ولندرك ـ من خلال ذلك ـ طبيعة المجتمع الذي عاش فيه النبي محمد ﷺ كما عاشه الأنبياء من قبله، ومدى الجهد الذي بذله الأنبياء في تصحيح مسار الفكر، وتقويم منهج التفكير، وفي رفع مستواهم.. ثم نعرف مسئوليتنا ونحن نسير في طريق الدعوة إلى الله، أن نصبر حيث صبروا، وأن نعاني حيث عانوا، وأن نواجه ما واجهوه من أساليب التعنّت والتعصب والسخرية، بالعقلية الواعية التي تدرس خلفيات المجتمع الفكرية والعاطفية، لتقف أمامه من موقع هذه المعرفة بالحجة القوية، والكلمة الحكيمة، والموقف المرن، كما وقف القرآن أمام ذلك المجتمع، فلم يخاطبهم في هذه الآية بالحكم الذي يترتب على العقلية التي أطلقت هذه الأسئلة، بل وضعهم وجها لوجه أمام القاعدة الكلية، وهي أن كثيرا من الخطوات التي يسير عليها الإنسان في طريقة التفكير والممارسة هي خطوات تتحرك في طريق الكفر، فلا بدّ له أن يعي جيدا، وهو يسير في هذا السبيل، أن هذا يعني استبدالا للإيمان بالكفر، ولا بدّ له أن يعي أن من يتبدل الكفر بالإيمان ـ فيما يوحيه كل منهما أو فيما يحققه للإنسان ـ فقد انحرف عن الطريق المستقيم وانطلق يتخبط خبط عشواء في مجال لا يعرف فيه أين يقف وأين يسير.

٢١. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ محمدا الأسئلة التعجيزية التي لا تمثل انفتاحا على المعرفة، بقدر ما تمثل حركة لإثارة الغبار من حول النبي ﷺ، أو لجلب الاستهزاء به وبرسالته، أو لإعطاء المبرر العلني للجحود من خلال ما يعلمونه من أن النبي لن يجيب على مطالبهم بالإيجاب، لأن الرسول لا يملك القدرة الذاتية عليه، ولن يستجيب الله لهم بذلك، لأنه قد يكون محالا من جهة وقد يكون نوعا من العبث من جهة أخرى.

٢٢. ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ من الأسئلة المتعلقة بالمحال انطلاقا من كفرهم وعبثهم به.. إن هذا يمثل انفتاحا على الكفر في إيحاءاته وطروحاته ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ فيخرج عن خط الانتماء إلى الإيمان إلى خط الكفر بشكل مباشر أو غير مباشر، ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وابتعد عن خط الاستقامة

الذي يؤدي إلى النجاة، ووقع في التيه الفكري والعملي الذي يؤدي به إلى الهلاك في الدنيا والآخرة.

٢٣. العبرة من ذلك هي أن يدرس المؤمنون المسلمون إيمانهم في خط الإسلام، ليتعرفوا عمقه وامتداده، وليلتزموا كل مفرداته العقيدية والمنهجية والشرعية، ليتحركوا في كل أوضاعهم من خلال هذا الوعي العميق الواسع، وليحددوا أسئلتهم في حركة المعرفة، بحيث لا تنحرف عن أصول العقيدة التي تمثل العمق الوجداني في الانتماء، فإذا عرضت لهم شبهة طرحوها كمشكلة يبحثون عن حلّها بعيدا عن حالة التعنت والتمرّد والاستهزاء، لأن ذلك يمثل الانتقال العملي من الإيمان إلى الكفر، ويبتعد بهم عن صفاء إنسانيتهم في التصور والمنهج، لأن الإنسان الذي لا يتحرك من موقع الحاجة إلى المعرفة بطريقة جديّة، هو إنسان لا يحترم معنى الإنسان في ذاته، وطبيعة التوازن في حياته.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الآية الكريمة تشير إلى بعد آخر من أبعاد حملة التشكيك اليهودية ضد المسلمين.. كان هؤلاء القوم يخاطبون المسلمين أحيانا قائلين لهم إن الدين دين اليهود وأن القبلة قبلة اليهود، ولذلك فإن نبيّكم يصلي تجاه قبلتنا (بيت المقدس)، وحينما نزلت الآية ١٤٤ من هذه السّورة وتغيّرت بذلك جهة القبلة، من بيت المقدس إلى مكة، غيّر اليهود طريقة تشكيكهم، وقالوا: لو كانت القبلة الاولى هي الصحيحة، فلم هذا التغيير؟ وإذا كانت القبلة الثانية هي الصحيحة، فكل أعمالكم السابقة ـ إذن ـ باطلة.

٢. القرآن الكريم في هذه الآية يردّ على هذه المزاعم وينير قلوب المؤمنين، ويقول: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.. وليس مثل هذا التغيير على الله بعسير ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾!؟

٣. الآية التالية تؤكد مفهوم قدرة الله سبحانه وتعالى وحاكميته في السماوات والأرض وفي الأحكام، فهو البصير بمصالح عباده: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وفي هذه العبارة من الآية أيضا تثبيت لقلوب المؤمنين، كي لا تتزلزل أمام حملات التشكيك هذه، وتستمر الآية في تعميق

---

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٢٨.

هذا التثبيت، مؤكدة أن المجموعة المؤمنة ينبغي أن تعتمد على الله وحده، وتستند إلى قوته وقدرته دون سواه، فليس في هذا الكون سند حقيقي سوى الله سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

٤. النسخ في اللغة الإزالة، وفي الاصطلاح تغيير حكم شرعي وإحلال حكم آخر محله، من ذلك:

أ. المسلمون كانوا يصلون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، واستمروا على ذلك ستة عشر شهرا، ثم نزل الأمر بتغيير القبلة، فوجب على المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبة.

ب. الآية ١٥ من سورة النساء قررت معاقبة الزانية بعد شهادة أربعة شهود بإمساكها في البيت حتى الوفاة، أو يجعل الله لها سبيلا، والآية الثانية من سورة النور نسخت الآية المذكورة وبدّلت الحكم بمائة جلدة.

٥. هنا يطرح سؤال معروف بشأن سبب النسخ يقول: لو كان في الحكم مصلحة فلما ذا نسخ؟ وإن لم يكن كذلك فلما ذا شرع؟ لماذا لم تطرح الشريعة منذ البداية حكما غير قابل للنسخ؟ والجواب: علماء الإسلام أجابوا منذ القديم على هذا السؤال، وتقرير هذا الجواب باختصار كما يلي:

أ. نعلم أن بعض احتياجات الإنسان ثابتة لا تقبل التغيير، لأنها ترتبط بفطرة الإنسان وطبيعته، وبعضها الآخر تتغير بتغير الزمان وظروف البيئة، وهذه المتغيرات قد تضمن سعادة الإنسان في زمن معين، لكنها تصبح عقبة أمام تقدم الفرد في زمان آخر.

ب. قد يكون نوع من الدواء نافعا للمريض في ظرف زمني معين، وقد لا يكون نافعا ـ بل ضارا ـ في مرحلة نقاهة المريض، لذلك يأمر الطبيب بدواء في وقت، ثم يأمر بقطعه والامتناع عن تناوله في وقت آخر.

ج. قد يكون درس معين مفيدا للطالب في مرحلة دراسية معينة، لكن هذا الدرس يصبح عديم الفائدة في المراحل الدراسة التالية. المنهج التعليمي الصحيح ينبغي أن ينظم الدروس بشكل يتناسب مع حاجة الطالب في كل مرحلة من مراحله الدراسية.

د. هذه المسألة تتضح أكثر في إطار القانون اللازم لتكامل الإنسان والمجتمع الإنساني، هذا القانون لا بدّ أن يتضمن متغيرات كي يكون المنهج التكاملي مفيدا لكل مراحل مسيرة المجتمع، وتزداد أهمية هذه التغييرات عند اندلاع الثورات الاجتماعية والعقائدية، وتزداد ضرورة مواكبة متطلبات التغيير في كل

مرحلة من مراحل الثورة.

٦. لا بدّ من التأكيد على:

أ. أنّ اصول الأحكام الإلهية ثابتة لا يعتريها التغيير، فالتوحيد والعدالة الاجتماعية وسائر الأصول والمبادئ المشابهة ثابتة لا تتغير، وإنما يطرأ التغيير على المسائل الفرعية والثانوية.

ب. أن تكامل الدين قد يبلغ مرحلة يصبح فيها (الدين الخاتم)، وتصبح جميع أحكامه ثابتة لا تقبل التغيير.

٧. اليهود، مع اعتراضهم على المسلمين بشأن نسخ حكم القبلة الاولى، أقرّوا النسخ في الأحكام الإلهيّة، واستنادا إلى ما جاء في مصادرهم الدينية، حيث تذكر التوراة أن كل الحيوانات كانت حلا لنوح عليه السّلام حين نزل من سفينته، لكن هذا الحكم نسخ في شريعة موسى، وحرّم قسم من الحيوانات.

٨. الآية في اللغة العلامة، وفي القرآن لها معان متعددة:

أ. مقاطع من القرآن، مفصولة عن بعضها بعلائم خاصة، وهذا المعنى للآية نجده في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾

ب. المعجزة سميت في القرآن آية كقوله سبحانه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾

ج. الدليل على وجود الله أو المعاد كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

د. الأشياء البارزة الملفتة للأنظار كالأبنية الشاهقة، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾

والمعنى المشترك بين كل هذه المعاني هو (العلامة)

٩. قوله سبحانه: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ يشير إلى نسخ الأحكام، فالحكم النّاسخ خير من المنسوخ أو مثله، أو إنه يشير إلى نسخ معجزة الأنبياء، فيكون المعنى أن معجزة النّبي التالي أفصح وأوضح من معجزة النّبي السابق.

١٠. ثمّة روايات في تفسير هذه الآية ذكرت أن المقصود من نسخ الآية هو وفاة الإمام ومجيء الإمام التالي بعده، وهذا طبعا بيان مصداق من مصاديق الآية، لا تحديدا لمفهومها.

١١. جملة ﴿نُنْسِهَا﴾ في الآية معطوفة على جملة ﴿نَنْسَخْ﴾ وهي من مادة (أنساء) بمعنى التأخير أو الحذف من الأذهان.. والمقصود من العبارة هو: ما ننسخ من آية أو نؤخر نسخها استنادا إلى مصالح معينة.. نأت بخير منها أو مثلها، فعبارة ﴿نَنْسَخْ﴾ تشير إلى النسخ على المدى القصير، وعبارة ﴿نُنْسِهَا﴾ النسخ على المدى البعيد.

١٢. سؤال آخر يطرح في هذا المجال بشأن عبارة ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾، فلو كان الحكم النّاسخ مثل الحكم المنسوخ فلا فائدة من هذا التغيير، النسخ تظهر فائدته حين يكون النّاسخ خيرا من المنسوخ، والجواب على ذلك هو أن الآية النّاسخة لها آثار في زمانها كتلك الآثار التي كانت الآية المنسوخة في زمانها.. بعبارة أوضح: قد يكون لحكم اليوم فوائد معينة، لكن هذه الفوائد لا تظهر لهذا الحكم غدا، ولا بدّ أن ينسخ هذا الحكم بحكم آخر تكون له في زمن لا حق ـ على الأقل ـ نفس الفوائد التي كانت للمنسوخ في زمن سابق.

١٣. هذا الآية الكريمة ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، وإن كانت تخاطب مجموعة من المسلمين ضعاف الإيمان أو المشركين إلّا أنّها ترتبط أيضا بمواقف اليهود.. لعل هذا السؤال وجه إلى الرّسول بعد تغيير القبلة، وبعد حملات التشكيك التي شنها اليهود بين المسلمين وغير المسلمين، والله سبحانه في هذه الآية الكريمة نهى عن توجيه مثل هذه الأسئلة السخيفة: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ مثل هذا العمل إعراض عن الإيمان واتجاه نحو الكفر، ولذلك قالت الآية: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

١٤. الإسلام طبعا لا يمنع طرح الأسئلة العلمية والمنطقية، ولا يحول دون طلب المعجزة من أجل اثبات صحة الدعوة، لأن مثل هذه الأسئلة والطلبات هي طريق الإدراك والفهم والإيمان، وهذه الآية الكريمة تشير إلى أولئك الذين يتذرعون بمختلف الحجج الواهية كي يتخلصوا من حمل أعباء الرسالة.. هؤلاء كانوا قد شاهدوا من الرّسول معاجز كافية لإيمانهم بالدعوة وصاحبها، لكنهم يتقدمون إلى النّبي بطلب معاجز اقتراحية أخرى! والمعجزة ليست العوبة بيد هذا وذاك كي تحدث وفق الميول والاقتراحات

والمشتهيات، بل إنها ضرورة لازمة للاطمئنان من صدق أقوال النّبي ﷺ، وليست مهمّة النّبي صنع المعاجز لكل من تهوى نفسه معجزة.. ثم هناك من الأسئلة ما هو بعيد عن العقل والمنطق، كرؤية الله جهرة، وكطلب اتخاذ الصنم.

١٥. القرآن الكريم ينبه في هذه الآية بأن المجموعة البشرية التي لا تسلك طريق العقل والمنطق في اسئلتها ومطالبتها، سينزل بها ما نزل بقوم موسى.

٤٤. الحسد والعفو والصفح

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٤٤] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩ ـ ١١٠]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

كعب:

روي عن كعب بن مالك (ت ٤٠ هـ): أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرا، وكان يهجو رسول الله ﷺ، ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك، والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وفيهم أنزل الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ الآية[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: كان حيي بن أخطب، وأبو ياسر ابن أخطب من أشد يهود حسدا للعرب؛ إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية[٢].

٢. روي أنّه قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود، فتنازعوا

---

(١) أحمد: ٣٩/ ٥٠٥..

(٢) ابن إسحاق ـ كما أسنده ابن هشام عنه في السيرة: ١/ ٥٤٨..

عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى والإنجيل، فقال رجل من أهل نجران لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية[١].

٣. روي أنّه قال: نزلت ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ الآية في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم!؟ ولو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم[٢].

٤. روي أنّه قال: إن رسولا أميا يخبرهم بما في أيديهم من الرسل والكتب والآيات، ثم يصدق بذلك عليه مثل تصديقهم أو أشد من تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفرا وحسدا وبغيا، وكذلك قال الله: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم﴾[٣].

٥. روي أنّه قال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُم﴾ من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئا، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فعيرهم الله ووبخهم ولامهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ والمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم، وما أنزل الله من قبلهم بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم[٤].

٦. روي أنّه قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين﴾ [الحجر: ٩٤]، ونحو هذا في العفو عن المشركين، قال نسخ ذلك كله بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله﴾ [التوبة: ٢٩]، وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم﴾ [التوبة: ٥][٥].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ﴾ من بعد ما تبين

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٤٣٥..

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول: ص٣٥..

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٥..

(٤) ابن جرير: ٢/ ٤٢٣ مختصرًا؛ وابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٥..

(٥) ابن جرير: ٢/ ٤٢٤ مختصرًا؛ وابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٦..

لهم أن محمدا رسول الله ﷺ يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسدا وبغيا؛ إذ كان من غيرهم[1].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ﴾ من بعد ما تبين لهم أن محمدا رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل؛ نعته وأمره ونبوته، ومن بعد ما تبين لهم أن الإسلام دين الله الذي جاء به محمد ﷺ[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِه﴾، قال أمر الله نبيه أن يعفو عنهم ويصفح حتى يأتي الله بأمره، فأنزل الله في براءة وأمره فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله﴾ [التوبة: ٢٩]، فنسختها هذه الآية، وأمره الله فيها بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا، أو يقروا بالجزية[3].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِه﴾، قال نسختها قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم﴾ [التوبة: ٥][4].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنّه قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، قال هي منسوخة، نسختها: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِر﴾ [التوبة: ٢٩][5].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم﴾ من قبل أنفسهم[6].

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٥..

(٢) ابن جرير: ٢/ ٤٢٢..

(٣) ابن جرير: ٢/ ٤٢٤..

(٤) عبد الرزاق: ١/ ٥٥..

(٥) ابن جرير: ٢/ ٤٢٤..

(٦) ابن جرير: ٢/ ٤٢١..

٢. روي أنّه قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾، قال اعفوا عن أهل الكتاب حتى يحدث الله أمرا، فأحدث الله بعد، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩][1].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال: ثم قال سبحانه: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ يقول: اتركوهم، ﴿وَاصْفَحُوا﴾ يقول: وأعرضوا عن اليهود، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾ فأتى الله تعالى بأمره في أهل قريظة؛ القتل والسبي، وفي أهل النضير الجلاء والنفي من منازلهم وجناتهم التي بالمدينة إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام، ﴿أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من القتل والجلاء قدير[2].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ إنهم كانوا يجهدون كل جهدهم حتى يصرفوا ويردوا أصحاب محمد ﷺ عن دين الله ـ الإسلام ـ إلى ما هم عليه؛ كقوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩]، وكقوله: ﴿إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وكقوله: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٩]، وذلك لخوف فوت رياستهم التي كانت لهم، وذهاب منافعهم التي ينالون من الأتباع والسفلة، فودّوا ردّهم وصرفهم إلى دينهم.

٢. احتجت المعتزلة بظاهر قوله تعالى: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، قالوا: دلت الآية على أن الحسد ليس من عند الله بما نفاه ـ عزّ وجل ـ عنه، وأضافه إلى أنفسهم بقوله: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، والجواب على ما ذكروه: صدقتم في زعمكم بأن الحسد ليس من عند الله، وكذلك نقول، ولا نجيز إضافة الحسد إليه بحال ولكن نقول: خلق فعل الحسد من الخلق، وكذلك يقال في الأنجاس، والأقذار، والحيّات والعقارب

(١) ابن جرير: ٢/ ٤٢٤..

(٢) تفسير مقاتل: ١/ ١٣١..

(٣) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٣٥.

ونحوها: إنه لا يجوز أن تضاف إلى الله تعالى فيقال: يا خالق الأنجاس والحيات والعقارب، وإن كان ذلك كله خلقه، وهو خالق كل شيء، فعلى ذلك، نقول بخلق فعل الحسد، وفعل الكفر من العبد، ولا نجوّز أن يضاف إلى الله تعالى، ثم يقولون في الطاعات والخيرات كلها: إنها من عند الله، غير مخلوقة، فلئن كانت العلة في الذي لا يكون مخلوقا، أنه ليس هو من عنده لوجب القول بخلقه ما هو من عنده، ثم لم يقولوا به؛ فبان أن ما يقولون فاسد، باطل، ليس بشيء.

٣. جهة الحسد أنهم أحبوا أن تكون الرسالة فيهم، أو أن يكون من عنده سعة؛ كقوله: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ [هود: ١٢] وكقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فبهذين الوجهين يخرج حسدهم.

٤. ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي من قبلها، لا أن الله ـ تعالى ـ أمرهم، وليس يضاف إلى الله ـ تعالى ـ بأنه من عنده بما يخلق، ولكن بما يأمر أو يلزم، ألا ترى أن الأنجاس كلها، والخبائث، والشياطين، كلهم مخلوقة وإن لم يجز نسبتها إلى الله ـ تعالى ـ بمعنى أنه من عنده؟

٥. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يحتمل:

أ. أن يكون الخطاب له ﷺ، والمراد بالخطاب الذين سبق ذكرهم في قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [البقرة: ١٠٥] إنه قادر على إنزال الخير على من يشاء، واختصاص بعض على بعض، وتفضيل بعضهم على بعض.

ب. أن يكون المراد في الخطاب له ﷺ على حقيقة العلم على التذكير والتنبيه، أي تعلم أنت أن الله على كل شيء قدير، وهو كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [محمد: ١٩]، على حقيقة العلم له.

ج. على الإعلام والإخبار لقومه.

٦. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ كرر الله ـ عزّ وجل ـ الأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، في القرآن تكرارا كثيرا، حتى كانت لا تخلو سورة إلا وذكرهما فيها ـ في غير موضع ـ وذلك لعظم شأنهما، وأمرهما، وعلو منزلتهما عند الله، وفضل قدرهما، وعلى ذلك جعلهما شريعة في الرسل السالفة، صلوات الله عليهم، ألا ترى إلى قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقوله لموسى وهارون: ﴿أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [يونس:

٨٧]، وقول عيسى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، وقوله: ﴿وَقَالَ الله إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ [المائدة: ١٢]

٧. ذلك أن الصلاة قربة فيما بين العبد وبين ربه، تجمع جميع أفعال الخير، وفيها غاية منتهى الخضوع له، والطاعة: من القيام بين يديه، والمناجاة فيه، والركوع له، والسجود على الأرض، وتعفير الوجه فيها حتى لو أن أحدا ممن خلص دينه لله لو أعطى ما في الدنيا على أن يعفّر وجهه في الأرض لأحد من الخلق ما فعل، والزكاة فيما بين العبد وبين الخلق؛ لتآلف القلوب واجتماعها، وفيها إظهار الشفقة لهم والرحمة.. لذلك عظّم الله شأنهما، وشرف أمرهما، وأعلى منزلتهما؛ وعلى ذلك قرنهما بالإيمان في المواضع كلها، وأثبت بين الخلق الأخوّة بهما بقوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]

٨. ثم هما تكرمان بالعقل؛ لأن الصلاة تجمع جميع أنواع خيرات الأفعال، وفيها غاية الخضوع له، والخشوع ـ على ما ذكرنا ـ وذلك مما يوجبه العقل، وإن لم يرد فيه السمع.. وكذلك الزكاة: فيها تزكية الأنفس وتطهيرها، وذلك مما في العقل واجب.

٩. الحكمة في وجوبها إظهار ما أنعم الله على العبد، من الأموال والسّعة فيها، وما أعطاهم من سلامة الجوارح عن جميع الآفات، يخرج مخرج الأمر بأداء شكر ما أنعم عليهم عزّ وجل.

١٠. سؤال وإشكال: ما الحكمة في وجوبها فيما أعطى منهما، يعنى من النفس، والمال دون غيره؟ والجواب: لأن الوجوب من غيره يخرج مخرج المعاوضة والمبادلة، لا مخرج أداء الشكر.

١١. الحكمة في إيجاب الصلاة والزكاة، وغيرهما من العبادات أن الله ـ تعالى ـ إذ عمهم بنعمه فيما فضلهم بالجوهر، وسخر لهم جميع ما في الأرض، وبسط عليهم النعم، حتى صار كل منهم لا يبصر غير نعمه، من غير استحقاق منهم شيئا من ذلك ـ لزمهم الشكر عليها، ثم كانت الصلاة تجمع استعمال جميع الجوارح فيما لله فيها القيام بها شكرا له، مع ما فيها توقف أحوال نفسه بالاختيار بما هي عليه بالاضطراب والخلقة والقلب بالنية، والخوف والرجاء، وإحضار الذهن والعقل بالتعظيم والتبجيل؛ فيكون كل شيء منه في شكره؛ لما له فيه من سبوغ النعمة.

١٢. وكذلك بالأموال فضلوا ـ في هذه الدنيا ـ واستمتعوا بلذيذ العيش؛ فأمروا بالإخراج لله، مع ما إذ سخرت هذه الأرض ـ بما فيها ـ لجميع البشر، ألزم من ذلك صلة من لم يملك، ليستووا في الاستمتاع

بالتسخير لهم، من الوجه الذي علم الله لهم في ذلك صلاح الدارين، ولا قوة إلا بالله.

١٣. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ تخرج على خلاف قول المعتزلة؛ لأنهم يقولون: إن من ارتكب كبيرة ثم أقام الصلاة وآتى الزكاة، وجاهد في سبيل الله، وحج بيت الله الحرام، فقدم خيرات كثيرة ـ فإنه لا يجد مما قدم شيئا، ولكن يجد ما قدم من شر، وذلك ليس من فعل الكريم والجواد، ولا كذلك وصف الله نفسه، بل وصف نفسه على خلاف ما وصفوا هم، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]، وهم يقولون: لا يتقبل عنهم ما قدموا من الخيرات، ولا يتجاوز عن سيئاتهم، وذلك سرف في القول؛ فنعوذ بالله من السرف في القول، والحكم على الله.

١٤. ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بما قدمتم من الخير والشر؛ تنبيه منه عزّ وجل ليكونوا على حذر من الشر، وترغيب منه لهم بالخيرات.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من اليهود دعوا حذيفة وعماراً إلى دينهم فقالوا: نحن أهدى منكم سبيلاً فقال لهم عمار: كيف نقض العهد عندكم قالوا: شديد؛ فقال: إني قد عاهدت الله سبحانه أني لا أكفر بمحمد أبداً ولا أتبع ديناً غير دينه، فقالت اليهود: أما عمار فقد صبا وضل فكيف أنت يا حذيفة؟ فقال حذيفة: الله ربي ومحمد نبيي والقرآن إمامي أطيع ربي وأقتدي برسولي وأعمل بكتاب ربي، فقالوا له وإله موسى لقد أشربت قلوبكما حب محمد ﷺ فأنزل الله هذه الآية من بعدما تبين لليهود أن محمداً صادق ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ عن اليهود.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٧٨.

(٢) تفسير الماوردي: ١/ ١٧٣.

١. سبب نزولها، ما روي أن نفرا من اليهود، منهم فنحاص، وزيد بن قيس، دعوا حذيفة وعمار إلى دينهما، وقالوا نحن أهدى منكم سبيلا، فقال لهم عمار: وكيف نقض العهد عندكم؟ قالوا: شديد، قال عمار: فإني عاهدت ربي ألا أكفر بمحمد أبدا، ولا أتبع دينا غير دينه، فقالت اليهود: أما عمار فقد صبأ وضل عن سواء السبيل، فكيف أنت يا حذيفة؟ فقال حذيفة: الله ربي، ومحمد نبيي، والقرآن إمامي، أطيع ربي، وأقتدي برسولي، وأعمل بكتاب ربي، فقالا: وإله موسى، لقد أشربت قلوبكما حبّ محمد، فأنزل الله عزّ وجل هذه الآية.

٢. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني من بعد ما تبين لليهود، أن محمدا نبي صادق، وأن الاسلام دين حق.

٣. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ يعني بقوله فاعفوا، أي اتركوا اليهود، واصفحوا عن قولهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني ما أذن به في (بني قريظة)، من القتل والسبي، وفي (بني النضير) من الجلاء والنفي.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. المعني بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ـ عن الحسن ـ النصارى واليهود.. وقال الزهري، وقتادة: كعب بن الأشرف، وعن ابن عباس حي بن اخطب، وابو ياسر بن اخطب.

٢. حسداً نصب على أحد أمرين:

أ. أحدهما: على الجملة التي قبله بدلا من الفعل، كأنه قال حسدوكم حسداً كأنه قال نحسدك حسدا.

ب. الآخر: ـ ان يكون مفعولا، كأنه قال يردّونكم لأجل الحسد كما تقول: جئته خوفاً منه.

٣. الحسد: تقول حسدت احسد حسداً، وحسدتك على الشيء، وحسدتك الشيء، بمعنى واحد، قال الشاعر:

فقلت الى الطعام فقال منهم ... فريق نحسد الانس الطعاما

(١) تفسير الطوسي: ١/٤٠٦.

ورجل حاسد وحسود، وحسّاد، والحسد هو الاسف بالخير على من له خير، وأشد الحسد التعرض للاغتمام بكون الخير لاحد، وقد يكون الحاسد متمنياً لزوال النعمة عن المحسود وان لم يكن يطمع في تحول تلك النعمة.

٤. الصفح هو التجاوز عن الذنب، والصفح، والعفو، والتجاوز بمعنى واحد، يقال صفح صفحاً وتصفح تصفحا، وتصافحوا تصافحاً والصفحة ما كان من ظاهر الشيء يقال لظاهر جلد الإنسان: صفحة، وكذلك هو من كل شيء، ومن هذا صافحته: اي لقيت صفحة كفه صفحة كفي، وفي الحديث التسبيح للرجال والتصفح للنساء: اي التصفيق، فإنما هو لأنها تضرب بصفحة كف على صفحة الأخرى، وانشد الاصمعي:

كأن مصفحات في ذراه وانواحاً عليهن المآلى

المآلي جمع مئلاة وهي خرقة تمسكها الناحية تقلص بها دمعتها، والصفاح من السيوف العراض واحدها صفحة وصُفحة، وقال:

ضربناهم حتى إذا ارفضَّ علوناهم بالمرهفات الصفائح

٥. قيل في (صفحت عنه) قولان:

أ. قيل: اني لم آخذه بذنبه، وأبديت له مني صفحة جميلة.

ب. وقيل: بل لم ير مني ما يقبض صفحته.

٦. وتقول صفحت الورقة: اي تجاوزتها الى غيرها، ومنه تصفحت الكتاب، وقد تصفح الكتاب، وقد يتصفح الكتاب من لا يحسن ان يقرأ، ويسمى الصفح من المصحف وغيره من الدفاتر من الصفحة، ومنه ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾

٧. اختلف في متعلق قوله تعالى: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾:

أ. قال الزجاج: متعلق بـ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ لا بقوله: ﴿حَسَدًا﴾، لان حسد الإنسان، لا يكون من غير نفسه.

ب. وقد يجوز ان يتصل بقوله: ﴿حَسَدًا﴾ على التوكيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾

ج. ويحتمل وجهاً آخراً وهو ان اليهود كما يضيفون الكفر والمعاصي الى الله تعالى، فقال الله: ﴿مِنْ

عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ تكذيباً لهم انها من عند الله.

٨. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ قال قتادة: من بعد ما تبين لهم ان محمداً رسول الله ﷺ والإسلام دين الله، وهو قول الربيع والسدي وابن زيد، وروى عن ابن عباس مثله.

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ قال الحارث بن هشام:

وصفحت عنهم والاحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم سرمد

اي لم أحاربهم لأقبض صفاحهم، أو اريهم ذلك في نفسي، ويقال نظر اليهم صفحاً بقدر ما ابدي صفحته لم يتجاوز، والصفاح موضع سمي بذلك، لأنه صخور مستوية تبدو صفائحها، وأصل الباب صفحة الشيء وهي ظاهره.

٩. اختلف في نسخ قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾:

أ. قال بن عباس: ان قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾ منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾

ب. وقال قتادة نسخت بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، وبه قال الربيع والسدي.

ج. وروي عن أبي جعفر محمد بن علي: انه قال لم يؤمر رسول الله ﷺ بقتل، ولا اذن له فيه حتى نزل جبرائيل عليه السلام بهذه الآية ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ وقلده سيفاً.

١٠. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾ قال ابو علي: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ لكم يعاقبهم أو يعافيهم هو على ذلك، ثم اتى بأمره فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله﴾

١١. في قوله تعالى: ﴿أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثلاثة اقوال:

أ. قال ابو علي: انه قدير على عقابهم إذ هو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ب. وقال الزجاج: قدير على ان يدعو الى دينه بها أحب مما هو الأليق بإنجائكم اي فيأمر بالصفح تارة وبالعقاب أخرى على حسب المصلحة.

ج. الثالث: أنه لما امر بالإمهال، والتأخير في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ كأنّ فيه تعلق النفس بالعافية في ذلك، فقال أمهلوهم فإنهم لا يعجزون الله، ولا يفوتونه، إذ هو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

١٢. إنما أمرهم بالصفح، والعفو وان كانوا مضطهدين مقهورين مقموعين، من حيث ان كثيراً من المسلمين كانوا عزيزين في عشائرهم، وأقوامهم يقدرون على الانتصار والانتقام من الكفار، فأمرهم الله تعالى بان يعفوا وإن قدروا حتى يأتي الله بأمره.

١٣. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا﴾ معنى (ما) الجزاء، وجوابه (تجدوه)، ومثله ﴿مَا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ والخير المذكور في الآية هو العمل الصالح الذي يرضاه الله، ومعنى (تجدوه) أي تجدوا ثوابه، وكذا قال الربيع كما قال ابن نجا: وسبحت المدينة لا تلمها.. اي سبحت اهل المدينة.

١٤. ﴿إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ معناه انه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، جازاكم على الإحسان بما تستحقونه من الثواب، وعلى الاساءة بما تستحقونه من العقاب، فاعملوا عمل من يدري انه يجازيه من لا يخفى عليه شيء من عمله، ففي ذلك دلالة على الوعد، والوعيد، والامر والزجر، وان كان خبرا عن غير ذلك في اللفظ.

١٥. سؤال وإشكال: ما المقتضي لذكر الصلاة والزكاة ها هنا، والجواب: انه تعالى لما أخبرهم بشدة عداوة اليهود لهم وأمرهم بالصفح عنهم قال ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} فان في ذلك معونة على الصبر مع ما تجزون بهما من الثواب والأجر، كما قال في موضع آخر: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. ود وأحب وأراد من النظائر، تقول: وَدِدْتُ أَوَدُّ.

ب. الحسد: الأسف على خَيْرِ غَيْرِهِ، وتمني زواله، وهو خلق دنيء، حَسَدْتُ أَحْسُدُ.

ج. الصفح والعفو: التجاوز عن الذنب، يقال: صفح عنه، أي تجاوز بالعقوبة عنه.

د. التقديم: نقيض التأخير.

هـ. بصير: يستعمل في شيئين: الرؤية بالبصر، وفي العلم.

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٤٥.

٢. اختلف في كيف تتصل الآية بما قبلها:

أ. قيل: الحكاية عن أفعال اليهود نظير ما تقدم.

ب. وقيل: لما علم اليهود ما للمسلمين عند الله تعالى حسدوهم، وأرادوا ردهم عنه بإلقاء الشبه، فبين تعالى ذلك من حالهم عقيب ذكرهم تحذيرًا منهم.

٣. اختلف فيما يتصل ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾:

أ. قيل: يتصل بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ عن الزجاج.

ب. وقيل: يتصل بقوله: ﴿حَسَدًا﴾ توكيدًا.

ج. وقيل: إن اليهود أضافوا الكفر والمعاصي إلى الله تعالى، فقال ردًّا عليهم وتكذيبًا لهم: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾

٤. اختلف فيمن نزلت الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت في حيي بن أخطب، وأخيه أبي ياسر بن أخطب، دخلا على رسول الله ﷺ حين قدم المدينة، فلما خرجا، قال حيي: أهو نبي؟ قال: هو هو، فقيل: فما له عندك؟ قال: العداوة إلى الموت، وهو الذي نقض العهد، وأثار الحرب يوم الأحزاب، عن ابن عباس.

ب. وقيل: نزلت في كعب بن الأشرف، عن الزهري، وقيل: في جماعة اليهود، عن الحسن، وقيل: في قوم من اليهود قالوا لعمار وحذيفة: بعد أُحُدٍ لو كان دين محمد حقًّا لما أصابه هذا فارجعا إلى ديننا، فقال عمار ¥: رضيت بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا وبالإسلام دينًا، فنزلت الآية.

٥. ثم بَيَّنَ تعالى من سرائر اليهود، فقال: ﴿وَدَّ﴾ أي أراد وتمنى ﴿كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قيل: علماء اليهود والمعاندين كحيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وجد بن قيس، وأمثالهم ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين، أي: يُرْجِعُونكم ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ منهم لكم بما أعد الله لكم من الثواب، والخير: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي ذلك التمني والحسد من عند أنفسهم: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أن محمدًا رسول الله ﷺ والإسلام دين الله، عن قتادة والربيع والسدي.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾:

أ. قيل: تجاوزوا عنهم.

ب. وقيل: أرسلوهم فإنهم لا يفوتون.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾:

أ. قيل: أَمْرُهُ يأتيكم بعقابهم، أو يعاقبهم هو، ثم أتاهم بأمره فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله﴾ عن أبي علي.

ب. وقيل: بأمره بآية القتل والسبي لبني قريظة، وجلاء بني النضير، عن ابن عباس.

ج. وقيل: بأمره بالقتل، عن قتادة.

د. وقيل: بِحُكْمِهِ فيهم لبعض بالإسلام، ولبعض بالقتل، ولبعض بالسبي، عن الأصم.

هـ. وقيل: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي بالقيامة.

٨. اختلفوا في الآية الكريمة:

أ. قيل: إنها منسوخة نسختها آية السيف، عن ابن عباس وقتادة والربيع والسدي وأبي جعفر محمد بن علي وجعفر بن مبشر وأبي علي.

ب. وقيل: ليس بمنسوخ، والمراد بالصفح الإعراض عنهم، والصبر على أذاهم، ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾ من نصر المؤمنين وإظهار دينه.

٩. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

أ. قيل: إنه قادر على عقابهم، وهو على كل شيء قدير.

ب. وقيل: هو قادر على أن يدعوهم إلى دينه بما أحب بما هو عنده الأبلغ في الحكمة، عن الزجاج، كأنه يقول: فيأمر بالصفح تارة، وبالعقاب أخرى، على حسب المصلحة.

ج. وقيل: أمهلوهم ولا يُفَوَّتُون؛ إذ هو قادر على كل شيء، يأخذهم متى شاء.

١٠. لما أمر الله تعالى فيما تقدم بمنابذة اليهود في الدين، وبين شدة عداوتهم للمسلمين أمر بالتمسك بدين الإسلام وشرائعه مُخَالَفَةً لهم على ما بَدَرَ منهم، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي أديموها: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي أعطوها الفقراء، والزكاة ما أوجب الله تعالى للفقراء في مال الأغنياء.

١١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾:

أ. قيل: يعني من عمل صالح.

ب. وقيل: من ثواب.

ج. وقيل: من مال.

١٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾:

أ. قيل: تجدوا ثوابه معدًّا عند الله.

ب. وقيل: تجدوه مستحقًّا على الله أنَ يكافئه عليه.

ج. وقيل: تجدوه عند الله محفوظًا مكتوبًا فيجازيه به، ولا يجوز أن يريد غير أفعالهم؛ لأن الترغيب لا يقع بوجودها، ولأن الإعادة على أفعال العباد لا تجوز.

١٣. سؤال وإشكال: كلمة: ﴿عِنْدِنَا﴾ تتناول الأمانات لا الواجبات، والجواب: لما كان القديم تعالى يوفر الجزاء لا محالة كان كرد الوديعة.

١٤. ﴿إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عليم بأفعالكم يجازيكم بها تستحقونه، فاعملوا عمل من يدري أنه يجازيه من لا يخفى عليه شيء من ذلك.

١٥. سؤال وإشكال: كيف قال: ﴿تَجِدُوهُ﴾ وإذا أحبطه لا يجده؟ والجواب: يجده، لكن عند السلامة يوفر عليه نفس الثواب، وعند الإحباط يوفر عليه بأن ينقص من عقابه، ففي الحالين قد وجد ما قدم.

١٦. سؤال وإشكال: إنه تعالى وصفه بالخير، ونقصان العقاب لا يكون خيرًا، فعلى قولكم أيضًا لا بد من تأويل؟ والجواب: لا فرق بين زوال المضار فيه، وإيصال المنافع إليه، في أنهما من باب الخير؛ ولذلك يعد المُخَلِّصُ من ضرر كَالمُسْدِي منفعة، بل ربما يكون ذلك أبلغ في النعمة والخير.

١٧. تدل الآيات الكريمة على:

١٨. أنهم كانوا معاندين؛ لذلك قال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، ولذلك حمل على قوم بأعيانهم، وهم العلماء الَّذِينَ يجوز عليهم التَّوَاطَؤ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾

١٩. أن تمني مثل حال الغير يصح.

٢٠. قبح الحسد، وأنه خصلة مذمومة.

٢١. أنَّ الحسد فِعْلُهم؛ إذ لو كان خلقًا له لكان إضافته إليه أولى، ولَمَا صح أن يقول: ﴿مِنْ عِنْدِ

أَنْفُسِهِمْ﴾

٢٢. بطلان قول أصحاب المعارف؛ لذلك قال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾، ولأنه خص به كثيرًا دون غيرهم.

٢٣. جواز النسخ في القرآن؛ لأن قوله: ﴿فَاعْفُوا﴾ منسوخ عند جماعة أهل العلم.

٢٤. أن هذا الصفح غير دائم لذلك علقه بِغَايَةٍ.

٢٥. التعبد بالصلاة والزكاة، وأنهما من الأركان؛ لذلك خصهما بالذكر.

٢٦. أن ثواب الخير لا يضيع.

٢٧. صحة قولنا في الموازنة، وعلى فساد ما يقوله أبو علي في الإحباط، لأن على مذهبه يجد الخير في حال دون حال، ولا يجده مطلقًا، ولا يقال: إنه مشروط بزوال الكبائر؛ لأنه إذا صح حمله على ظاهره من غير شرط فإثبات الشرط لا يصح.

٢٨. يدل قوله: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ على وعد ووعيد.

٢٩. مسائل نحوية:

أ. في نصب ﴿حَسَدًا﴾ أقوال:

- قيل: نصب على المصدر بتقدير: حسدوكم حسدًا؛ لأن الجملة التي قبلها بدل من الفعل الذي هو الحسد.
- وقيل: نصب لأنه مفعول له كأنه قيل: يردونكم لأجل الحسد.
- وقيل: بنزع حرف الصفة، أي للحسد، أو من الحسد.

ب. ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا﴾ ما الجزاء، وجوابه: ﴿تَجِدُوهُ﴾ ومثله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٥٣.

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الحسد: إرادة زوال نعمة المحسود إليه، أو كراهة النعمة التي هو فيها، وإرادة أن تصير تلك النعمة بعينها له، وقد يكون تمني زوال نعمة الغير حسدا، وإن لم يطمع الحاسد في تحول تلك النعمة إليه، وأشد الحسد التعرض للاغتمام بكون الخير لأحد، وأما الغبطة فهي أن يراد مثل النعمة التي فيها الغير، وإن لم يرد زوالها عنه، ولا يكره كونها له، فهذه غير مذموم، والحسد مذموم، ويقال: حسدته على الشيء أحسده حسدا، وحسدته الشيء بمعنى واحد، ومنه قول الشاعر: (يحسد الناس الطعاما)

ب. الصفح، والعفو، والتجاوز عن الذنب بمعنى، ويقال لظاهر جلدة الانسان: صفحته، وكذا هو من كل شيء، ومنه صافحته أي: لقت صفحة كفه صفحة كفي، وقولهم: صفحت عنه فيه قولان:

- أحدهما: إن معناه أني لم آخذه بذنبه، وأبديت له مني صفحة جميلة.
- والآخر أنه لم ير مني ما يقبض صفحته.

ويقال: صفحت الورقة أي: تجاوزتها إلى غيرها، ومنه تصفحت الكتاب، وقد يتصفح الكتاب من لا يحسن أن يقرأه.

٢. ثم أخبر الله سبحانه، عن سرائر اليهود، فقال: ﴿وَدَّ﴾ أي: تمنى: ﴿كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كحيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، وأمثالها: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين أي: يرجعونكم: ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ منهم لكم، بما أعد الله لكم من الثواب والخير.

٣. إنما قال: ﴿كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لأنه إنما آمن منهم القليل كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار.

٤. قيل: إنما حسد اليهود المسلمين على وضع النبوة فيهم، وذهابها عنهم، وزوال الرئاسة إليهم.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: بعد ما تبين لهم أن محمدا رسول الله، والإسلام دين الله، عن ابن عباس وقتادة والسدي.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾:

أ. قيل: أي: تجاوزوا عنهم.

ب. وقيل: أرسلوهم فإنهم لا يفوتون الله، ولا يعجزونه.

٦. إنما أمرهم الله تعالى بالعفو والصفح، وإن كانوا مضطهدين مقهورين، من حيث إن كثيرا من المسلمين كانوا عزيزين في عشائرهم وأقوامهم، يقدرون على الانتقام من الكفار، فأمرهم الله بالعفو، وإن كانوا قادرين على الانتصاف.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾:

أ. قيل: أي: بأمره لكم بعقابهم، أو يعاقبهم هو على ذلك، ثم أتاهم بأمره فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية، عن أبي علي.

ب. وقيل: بأمره أي: بآية القتل والسبي لبني قريظة، والجلاء لبني النضير، عن ابن عباس.

ج. وقيل: بأمره بالقتال، عن قتادة، فإنه قال: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، وبه قال الربيع والسدي.

د. وقيل: نسخت بقوله ﴿واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}، وروي عن الباقر عليه السلام أنه قال: لم يؤمر رسول الله ﷺ بقتال، ولا أذن له فيه، حتى نزل جبرائيل عليه السلام بهذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ وقلده سيفا.

٨. في قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللهَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: إنه قدير على عقابهم، إذ هو على كل شيء قدير، عن أبي علي.

ب. ثانيها: إنه قدير على أن يدعو إلى دينه بما أحب، مما هو الأليق بالحكمة، فيأمر بالصفح تارة، وبالعقاب أخرى، على حسب المصلحة، عن الزجاج.

ج. ثالثها: إنه لما أمر بالإمهال والتأخير في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ قال: إن الله قادر على عقوبتهم، بأن يأمركم بقتالهم، ويعاقبهم في الآخرة بنفسه.

٩. لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالصفح عن الكفار، والتجاوز، علم أنه يشق عليهم ذلك، مع شدة عداوة اليهود وغيرهم لهم، فأمرهم بالاستعانة على ذلك بالصلاة والزكاة، فإن في ذلك معونة لهم على الصبر، مع ما يحوزون بهما من الثواب والأجر، كما قال في موضع آخر: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾

١٠. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: من طاعة، وإحسان، وعمل صالح ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ الله﴾:

أ. أي: تجدوا ثوابه معدا لكم عند الله.

ب. وقيل: معناه تجدوه مكتوبا محفوظا عند الله ليجازيكم به.

١١. في هذه الآية دلالة على أن ثواب الخيرات والطاعات لا يضيع، ولا يبطل، ولا يحبط، لأنه إذا أحبط لا تجدونه.

١٢. ﴿إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، سيجازيكم على الإحسان بما تستحقونه من الثواب، وعلى الإساءة بما تستحقونه من العقاب، فاعملوا عمل من يستيقن أنه يجازيه على ذلك، من لا يخفى عليه شيء من عمله.

١٣. وفي هذا دلالة على الوعد والوعيد، والأمر والزجر، وإن كان خبرا عن غير ذلك في اللفظ.

١٤. مسائل نحوية:

أ. ﴿مِنَ﴾: في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يتعلق بمحذوف تقديره فريق كائنون من أهل الكتاب، فيكون صفة لكثير من بعد في محل النصب على الظرف، والعامل فيه يرد.

ب. ﴿كَفَّارًا﴾: مفعول ثان ليرد، ومفعوله الأول كم من ﴿يَرُدُّونَكُمْ﴾

ج. في انتصاب قوله: ﴿حَسَدًا﴾ وجهان:

• أحدهما: إن الجملة التي قبله تدل على الفعل الذي هو مصدره، وتقديره حسدوكم حسدا، كما يقال: فلان يتمنى لك الشر حسدا، فكأنه قال: يحسدك حسدا.

• والآخر: أن يكون مفعولا له، فكأنه قال: يردونكم كفارا لأجل الحسد، كما تقول جئته خوفا منه.

د. ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾: يتعلق بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ لا بقوله: ﴿حَسَدًا﴾ لأن حسد الانسان لا يكون من غير نفسه، قال الزجاج، وقال غيره: يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿حَسَدًا﴾ على التوكيد، كقوله، عز وجل: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، ويحتمل وجها آخر، وهو أن يكون اليهود قد أضافوا الكفر والمعاصي إلى الله تعالى، فقال سبحانه تكذيبا لهم: إن ذلك: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾

هـ. ﴿مَا تَبَيَّنَ﴾: ما حرف موصول، و﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾: صلته، والموصول والصلة في محل الجر بإضافة ﴿بَعْدِ﴾ إليه.

و. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ﴾ يأتي: منصوب بإضمار أن، وهما في محل الجر بحتى، والجار والمجرور مفعول ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾

ز. ﴿مَا﴾: اسم للشرط في موضع رفع بالابتداء، و﴿تُقَدِّمُوا﴾: شرط ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: من مزيدة، والجار والمجرور مفعول: ﴿تُقَدِّمُوا﴾

ح. ﴿تَجِدُوهُ﴾: مجزوم لأنه جزاء، وعلامة الجزم في الشرط والجزاء سقوط النون، ومعنى حرف الشرط الذي تضمنه ﴿مَا﴾ مع الشرط والجزاء في محل الرفع، لأنه خبر المبتدأ.

ط. ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ اسم موصول، أو حرف موصول.. والموصول والصلة في موضع جر بالباء، والباء متعلق بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ الذي هو خبر ﴿إِنَّ﴾

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أن حييّ بن أخطب، وأبا ياسر كانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عبّاس.

ب. الثاني: أن كعب بن الأشرف كان يهجو النبيّ ﷺ، ويحرّض عليه كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ حين قدمها، فأمر النبيّ ﷺ بالصّفح عنهم، فنزلت هذه الآية، قاله عبد الله بن كعب بن مالك.

ج. الثالث: أن نفرا من اليهود دعوا حذيفة وعمّارا إلى دينهم، فأبيا، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل.

﴿وَدَّ﴾: أحبّ وتمنّى، و﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾: اليهود، قال الزّجّاج: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ موصول: بـ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾، لا بقوله: ﴿حَسَدًا﴾، لأن حسد الإنسان لا يكون إلا من عند نفسه، والمعنى: مودّتهم لكفركم من عند أنفسهم، لا أنه عندهم الحق.

٢. اختلف في تعريف الحسد:

---

(١) زاد المسير: ١/ ١٠١.

أ. قيل: هو تمنّي زوال النّعمة عن المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها، وتفارقه الغبطة، فإنها تمنّي مثلها من غير حبّ زوالها عن المغبوط.

ب. وحدّ بعضهم الحسد، فقال: هو أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأخيار، ولا يجوز أن يكون الفاضل حسودا، لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل.

٣. قال بعض الحكماء: كل أحد يمكن أن ترضيه إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتك، وقال الأصمعيّ: سمعت أعرابيا يقول: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد، حزن لازم، ونفس دائم، وعقل هائم، وحسرة لا تنقضي.

٤. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾، قال ابن عباس: فجاء الله بأمره في النّضير بالجلاء والنّفي، وفي قريظة بالقتل والسّبي.

٥. روي عن ابن عباس وابن مسعود، وأبي العالية، وقتادة: أن العفو والصّفح منسوخ بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ﴾، وأبى هذا القول جماعة من المفسّرين والفقهاء، واحتجّوا بأن الله لم يأمر بالصّفح والعفو مطلقا، وإنما أمر به إلى غاية، وما بعد الغاية يخالف حكم ما قبلها، وما هذا سبيله لا يكون من باب المنسوخ، بل يكون الأول قد انقضت مدّته بغايته، والآخر يحتاج إلى حكم آخر.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذا هو النوع الثالث من كيد اليهود مع المسلمين، وذلك لأنه روي أن فنحاص بن عازوراء، وزيد بن قيس ونفراً من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد: ألم تروا ما أصابكم، ولو كنتم على الحق ما هزمتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلًا، فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال فإني قد عاهدت أني لا أكفر بمحمد ما عشت، فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ، وقال حذيفة: وأما أنا فقد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً

(١) تفسير الفخر الرازي: ٣/ ٦٤٥.

وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخواناً، ثم أتيا رسول الله ﷺ وأخبراه فقال: أصبتما خيراً وأفلحتما، فنزلت هذه الآية.

٢. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ المراد أنهم كانوا يريدون رجوع المؤمنين عن الإيمان من بعد ما تبين لهم أن الإيمان صواب وحق، والعالم بأن غيره على حق لا يجوز أن يريد رده عنه إلا بشبهة يلقيها إليه، لأن المحق لا يعدل عن الحق إلا بشبهة والشبهة ضربان:

أ. أحدهما: ما يتصل بالدنيا وهو أن يقال لهم: قد علمتم ما نزل بكم من إخراجكم من دياركم وضيق الأمر عليكم واستمرار المخافة بكم، فاتركوا الإيمان الذي ساقكم إلى هذه الأشياء.

ب. الثاني: في باب الدين: بطرح الشبه في المعجزات، أو تحريف ما في التوراة.

٣. ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ بيّن أن حبهم لأن يرجعوا عن الإيمان إنما كان لأجل الحسد، قال الجبائي: عنى بقوله: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أنهم لم يؤتوا ذلك من قبله تعالى وإن كفرهم هو فعلهم لا من خلق الله فيهم، والجواب أن قوله: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: أنه متعلق بـ ﴿وَدَّ﴾ على معنى أنهم أحبوا أن ترتدوا عن دينكم، وتمنيهم ذلك من قبل شهوتهم لا من قبل التدين والميل مع الحق، لأنهم ودوا ذلك من بعد ما تبين لهم أنكم على الحق فكيف يكون تمنيهم من قبل طلب الحق؟

ب. الثاني: أنه متعلق بحسداً أي حسداً عظيماً منبعثاً من عند أنفسهم.

٤. قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ يدل على أن اليهود بعد ما أرادوا صرف المؤمنين عن الإيمان احتالوا في ذلك بإلقاء الشبه، ولا يجوز أن يأمرهم تعالى بالعفو والصفح على وجه الرضا بما فعلوا، لأن ذلك كفر، فوجب حمله على أحد أمرين:

أ. الأول: أن المراد ترك المقابلة والإعراض عن الجواب، لأن ذلك أقرب إلى تسكين الثائرة في الوقت، فكأنه تعالى أمر الرسول بالعفو والصفح عن اليهود فكذا أمره بالعفو والصفح عن مشركي العرب بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ [الجاثية: ١٤] وقوله: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] ولذلك لم يأمر بذلك على الدوام بل علقه بغاية فقال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾

ب. الثاني: حسن الاستدعاء، واستعمل ما يلزم فيه من النصح والإشفاق والتشدد فيه، وعلى هذا

التفسير لا يجوز نسخه وإنما يجوز نسخه على التفسير الأول.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾ على أقوال:

أ. أحدها: أنه المجازاة يوم القيامة عن الحسن.

ب. ثانيها: أنه قوة الرسول وكثرة أمته.

ج. ثالثها: وهو قول أكثر الصحابة والتابعين، إنه الأمر بالقتال لأن عنده يتعين أحد أمرين: إما الإسلام، وإما الخضوع لدفع الجزية وتحمل الذل والصغار، فلهذا قال العلماء: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] وعن الباقر رضي الله عنه أنه لم يؤمر رسول الله ﷺ بقتال حتى نزل جبريل عليه السلام بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩] وقلده سيفاً فكان أول قتال قاتل أصحاب عبد الله بن جحش ببطن نخل وبعده غزوة بدر.

٦. سؤال وإشكال: كيف يكون منسوخاً وهو معلق بغاية كقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧] وإن لم يكن ورود الليل ناسخاً فكذا هاهنا، والجواب: أن الغاية التي يعلق بها الأمر إذا كانت لا تعلم إلا شرعاً لم يخرج ذلك الوارد شرعاً عن أن يكون ناسخاً، ويحل محل قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ إلى أن أنسخه عنكم.

٧. سؤال وإشكال: كيف يعفون ويصفحون والكفار كانوا أصحاب الشوكة والقوة والصفح لا يكون إلا عن قدرة؟ والجواب: أن الرجل من المسلمين كان ينال بالأذى فيقدر في تلك الحالة قبل اجتماع الأعداء أن يدفع عدوه عن نفسه وأن يستعين بأصحابه، فأمر الله تعالى عند ذلك بالعفو والصفح كي لا يهيجوا شرًّا وقتالًا.

٨. في قوله تعالى: ﴿أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تحذير لهم بالوعيد سواء حمل على الأمر بالقتال أو غيره.

٩. ثم قال بعده: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ والأظهر أن المراد به التطوعات من الصلوات والزكوات، وبين تعالى أنهم يجدونه وليس المراد أنهم يجدون عين تلك الأعمال لأنها لا تبقى ولأن وجدان عين تلك الأشياء لا يرغب فيه، فبقي أن المراد وجدان ثوابه وجزائه.

١٠. ﴿إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي أنه لا يخفى عليه القليل ولا الكثير من الأعمال وهو ترغيب

من حيث يدل على أنه تعالى يجازي على القليل كما يجازي على الكثير، وتحذير من خلافه الذي هو الشر، وأما الخير فهو النفع الحسن وما يؤدي إليه، فلما كان ما يأتيه المرء من الطاعة يؤدي به إلى المنافع العظيمة، وجب أن يوصف بذلك، وعلى هذا الوجه قال تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَدَّ﴾ تمنى، ﴿كَفَّارًا﴾ مفعول ثان بـ ﴿يَرُدُّونَكُمْ﴾، ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل: هو متعلق بـ ﴿وَدَّ﴾، وقيل: بـ ﴿حَسَدًا﴾، فالوقف على قوله: ﴿كَفَّارًا﴾، و﴿حَسَدًا﴾ مفعول له، أي ود، ذلك للحسد، أو مصدر دل على ما قبله على الفعل.

٢. معنى ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي من تلقائهم من غير أن يجدوه في كتاب ولا أمروا به، ولفظة الحسد تعطي هذا، فجاء ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ تأكيدا وإلزاما، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، والآية في اليهود.

٣. ﴿فَاعْفُوا﴾ الأصل (اعفووا) حذفت الضمة لثقلها، ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين، والعفو: ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح: إزالة أثره من النفس، صفحت عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحا إذا أعرضت عنه وتركته، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾

٤. هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿صَاغِرُونَ﴾ عن ابن عباس، وقيل: الناسخ لها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾، قال أبو عبيدة: كل آية فيها ترك للقتال فهي مكية منسوخة بالقتال، قال ابن عطية: وحكمه بأن هذه الآية مكية ضعيف، لان معاندات اليهود إنما كانت بالمدينة، وهو الصحيح، روى البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكية على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك، فذلك فعل ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله تعالى، ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٧١.

أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، فكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو عنهم ما أمره الله به حتى أذن له فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرا فقتل الله به من قتل من صناديد الكفار وسادات قريش، فقفل رسول الله ﷺ وأصحابه غانمين منصورين، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادات قريش، قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، فأسلموا.

٥. قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني قتل قريظة وجلاء بني النضير، ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

٦. الحسد نوعان: مذموم ومحمود:

أ. فالمذموم أن تتمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم، وسواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا، وهذا النوع الذي ذمه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾) وإنما كان مذموما لان فيه تسفيه الحق سبحانه، وأنه أنعم على من لا يستحق.

ب. وأما المحمود فهو ما جاء في صحيح الحديث من قوله ﷺ: (لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار (، وهذا الحسد معناه الغبطة، وكذلك ترجم عليه البخاري) باب الاغتباط في العلم والحكمة)، وحقيقتها: أن تتمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ولا يزول عنه خيره، وقد يجوز أن يسمى هذا منافسة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾)، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي من بعد ما تبين لهم الحق لهم وهو محمد ﷺ، والقرآن الذي جاء به.

٧. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ جاء في الحديث (أن العبد إذا مات قال الناس ما خلف وقالت الملائكة ما قدم)، وخرج البخاري والنسائي عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله)، قالوا: يا رسول الله، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال رسول الله ﷺ: (ليس منكم من أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله، مالك ما قدمت ومال وارثك ما أخرت)، لفظ النسائي، ولفظ البخاري: قال عبد الله قال النبي ﷺ الله عليه وسلم: (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله) قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر)،

ولقد أحسن القائل:

قدم لنفسك قبل موتك صالحا ... واعمل فليس إلى الخلو سبيل

وقال آخر:

قدم لنفسك توبة مرجوة ... قبل الممات وقبل حبس الألسن

وقال آخر:

ولدتك إذ ولدتك أمك باكيا ... والقوم حولك يضحكون

فاعمل ليوم تكون فيه إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكا مسرورا

وقال آخر:

سابق إلى الخير وبادر به ... فإنما خلفك ما تعلم

وقدم الخير فكل امرئ ... على الذي قدمه يقدم

وأحسن من هذا كله قول أبي العتاهية:

استعد بمالك في حياتك إنما ... يبقى وراءك مصلح أو مفسد

وإذا تركت لمفسد لم يبقه ... وأخو الصلاح قليله يتزيد

وإن استطعت فكن لنفسك ... إن المورث نفسه لمسدد

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنتهم وردّهم عن الإسلام، والتشكيك عليهم في دينهم، وقوله: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ في محل نصب على أنه مفعول للفعل المذكور.

٢. ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿وَدَّ﴾ أي: ودّوا ذلك من عند أنفسهم، ويحتمل

(١) تفسير الشوكاني: ١/ ١٥٠.

أن يتعلق بقوله: ﴿حَسَدًا﴾ أي حسدا ناشئا من عند أنفسهم، وهو علة لقوله: ﴿وَدَّ﴾

٣. العفو: ترك المؤاخذة بالذنب.. والصفح: إزالة أثره من النفس، صفحت عن فلان: إذا أعرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحا: إذا أعرضت عنه، وفيه الترغيب في ذلك والإرشاد إليه، وقد نسخ ذلك بالأمر بالقتال، قاله أبو عبيدة.

٤. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾ هو غاية ما أمر الله سبحانه به من العفو والصفح، أي: افعلوا ذلك إلى أن يأتي إليكم الأمر من الله سبحانه في شأنهم، بما يختاره ويشاؤه، وما قد قضى به في سابق علمه، وهو قتل من قتل منهم، وإجلاء من أجلي، وضرب الجزية على من ضربت عليه، وإسلام من أسلم.

٥. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ حثّ من الله سبحانه لهم في الاشتغال بما ينفعهم، ويعود عليهم بالمصلحة، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وتقديم الخير الذي يثابون عليه حتى يمكن الله لهم، وينصرهم على المخالفين لهم.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ منهم حيي بن أخطب وأبو ياسر، وكانا أشدَّ الناس حسدًا للعرب على الإسلام وكون النبيء منهم، ﴿مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أحبَّ وتمنَّى كثير من اليهود ردَّكم، أي: تصييركم ﴿من بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ مشركين، وقوله: ﴿حَسَدًا﴾ تعليل لـ (وَدَّ) لا لـ (يَرُدّ)؛ لأنَّ المعنى عليه: ودَّ، وأن يكون الردُّ للحسد وليس مرادًا، ووَصَفَ الحسدَ بقوله: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ﴾ لخبثها الشديد بلا موجب لذلك الودِّ من التديُّن، بل تشهِّيًا، أو من عند ذواتهم، كأنَّهم جبلوا عليه فيصعب زواله.

٢. ﴿من بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ في التوراة بموافقة نعوته فيها وبالمعجزات، ﴿الْحَقُّ﴾ أي: تبيَّن الحقُّ لهم أنَّ محمَّدا رسول الله بالقرآن ﷺ.

٣. قال نفر من أحبار اليهود، كفنحاص بن عازوراء، وزيد بن قيس، لحذيفة وعمَّار بعد أُحد: (لو كنتم على الحقِّ لَمَا غُلبتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم)، فقال عمَّار: (كيف نقض العهد فيكم؟) قالوا: (أمر شديد)، قال: (عاهدت الله تعالى أن لا أكفر بمحمَّد ﷺ ما عشت)، فقالت اليهود: (أمَّا هذا فقد

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/١٩٤.

صبأ)، وقال حذيفة: (وَأَمَّا أنا فقد رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخوانًا)، فأخبرا رسول الله ﷺ فقال: (أفْلحْتُما) فنزل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾.

٤. ﴿فَاعْفُواْ﴾ عن اليهود والعرب، كما لم يذكر لفظ (عنهم)، والفاء تدلُّ على اليهود أوَّلاً وبالذات، ودخلت العرب ثانية وبالتبع، لا تعاقبوهم؛ ﴿وَاصْفَحُواْ﴾ عنهم لا تعاتبوهم العتاب الشديد، وضعُف ما قيل: لا تخالطوهم.

٥. وقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وأصل العفو: محو الجريمة، مِن عَفَا إذا درس، وتَرْكُ العقوبة لازِمُه، وبينهما عموم وخصوص من وجه، يجتمعان إذا عاقب وعاتب، ويختصُّ الصفح بما لم يعاقب وعاتب، والعفو بما عاتب ولم يعاقب.

٦. ﴿حَتَّى يَاتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ واحد الأمور، وهي القيامة والجزاء فيها، وقوَّة الرسالة، وكثرة الأمَّة، أو ضدُّ النهي، بأن يأذن في قتالهم لوقته، فجاء الإذن في قتال العرب قبل بدر إذ قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الآية [الحج: ٣٩]، وجاء الإذن في أخذ الجزية عن أهل الكتاب، وبقتل قريظة وإجلاء النضير بعد أُحد، بل بعد الأحزاب، وهي بعد أحد، ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه الانتقام منهم.

٧. ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ﴾ بطهارة وخشوع وإخلاص، مع تأديتها بأجزائها، وهكذا في سائر القرآن، ﴿وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ﴾ صيِّروها آتية أهلها بأن توصلوها إلى مستحقِّها.

٨. وعلى أصحاب الزكاة مؤونة حملها والمجيء بها، حتَّى تصل العامل الذي جاء إليها، أو الفقير إذا لم يكن الإمام، أو أمرهم بتفريقها، وذلك هو الأصل، وإن جاءها الفقير أو وكيله وقبَضها أجزت، والمراد بالزكاة الجزء المعلوم من المال، ويجوز أن يراد: اجعلوا التزكية آتية منكم إلى أهلها، وكذا في سائر القرآن، وذلك أمر بالعبادة البدنيَّة والماليَّة لأنَّها تدفع المكروه، وزعم الطبريُّ أنَّها كفَّارة لميلهم إلى قول اليهود: (رَاعِنَا)، وهو مردود.

٩. ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ طاعةٍ، كأمر ونهي، وتعليم وصلة رحم، وأداء فرض أو سنَّة أو نفل، ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾ تعلموا أنَّ الله عالم به، وأولى من هذا: تجدوه بوجود ثوابه، سمِّي الثواب باسم سببه وملزومه، أو يقدَّر: تجدوا ثوابه، اللقمة والتمرة كأُحد، أو تجدوه نفسه مجسَّمًا، وأنا أقول: لا بأس

بتجسيم الأعراض؛ لأنَّ الله قادر على إنشاء كلِّ شيء من أوَّل، فهو قادر على تصيير العَرَض جسمًا، كما جاءت الأحاديث والآثار بأنَّه تجيئه صلاته بصورة رجل حسن، وتجيئه صدقته ظلًّا، وهكذا في الشرِّ، إلَّا أنِّي لا أقول بوزن ما تجسَّم من الأعراض.

١٠. ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عنه شيء، فهو يجازي على مثاقيل الذرِّ من خير وشرٍّ.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ علة ودّ ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ من صحة رسالة محمد ﷺ بشهادة ما طابقه من التوراة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ أي أعرضوا عما يكون منهم من الجهل والعداوة فلا تجازوهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ وهو الإذن في قتالهم وإجلائهم ﴿أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فينتقم منهم إذا آن أوانه.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ثم أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الأخلاق فقال ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ ولم يقل فاعفوا واصفحوا عنهم لإرادة العموم، أي عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو، فان هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

٢. العفو ترك العقاب على الذنب: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ والصفح الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتثريب.

٣. في أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول: لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل،

---

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٧٥.

(٢) تفسير المنار: ١/ ٤٢١.

للقوى الجاهل.

٤. في إنزال المؤمنين على ضعفهم منزل الأقوياء، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فان الحق هو الذي يصرع الباطل، وإنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه.

٥. ثم قال تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ فوعدهم بأن سيمدهم بمعونته، ويؤيدهم بنصره، ثم أحالهم بقوله: ﴿أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على قدرته النافذة التي لا يشذ عنها شيء في العالمين، تأييدا للوعد وكشفا لشبهة من عساه يقول: أنى لهذه الشرذمة القليلة العدد، الضعيفة القوى، أن تنتحل لنفسها وصف الملوك العالين، وتقف مع الأمم القوية موقف العافين قادرين؟ فجاء الجواب يقول لمثل هذا المشتبه: إن الذي أوقفها هذا الموقف، ومنحها هذا الوصف، هو القادر على أن يهبها من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى، وهو ما يؤيد به سبحانه من يقوم بالحق ويثبت عليه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وقد فعل.

٦. الأمر في الغاية التي قيد بها العفو والصفح واحد الأمور، وهو يعني النصر، وأكثر المفسرين جعلوه واحد الأوامر وهو الأمر بقتالهم، ويعبر بعضهم بآية السيف ويعنون آية التوبة التي فيها حكم الجزية، وقال بعضهم: المراد هنا الأمر بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير، وقالوا: إنه توقيت لا يصح أن يسمى منسوخا أي في عرف الأصوليين، وإن روى عن ابن عباس وغيره، وذلك أن النبيّ ﷺ كان عاهد جميع اليهود المجاورين له في المدينة عهدا أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم فغدروا ونقضوا العهد بموالاة المشركين عليه مرارا وكان يعفو عنهم ويصفح حتى أذن الله له بقتالهم وإجلائهم.

٧. بين الله تعالى في الآية الأولى من هاتين الآيتين أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم لم يكتفوا بكفرهم بالنبي ﷺ والكيد له ونقض ما عاهدهم عليه حسدا له ولقومه على نعمة النبوة بل هم يزيدون على ذلك ما قصه تعالى بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق وأن وراءها السعادة في الدارين، ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفارا كما كانوا، وذلك شأن الحاسد يتمنى

أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه، كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل، وقد جاء هذا التنبيه تتمة لقوله تعالى قبل آيات ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وقد بين الله لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب وتحيلهم على تشكيك المسلمين في دينهم كقول بعضهم لبعض بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره لعلّ ضعفاء الإيمان يرجعون عن الإسلام اقتداء بهم، كما سيأتي في سورة آل عمران، وفى هذه الآية وما بعدها إشارة إلى أن لذلك بعض الأثر في نفوس بعض المسلمين.

٨. فائدة هذا التنبيه أو التنبيهات أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحيانا من إلقاء الشبه على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو مكر السوء يبعث عليه الحسد لا النصح الذي يبعث عليه الاعتقاد.

٩. قال تعالى: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيرة على حق يعتقدونه، وإنما هو خبث النفوس وفساد الأخلاق والجمود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق، ولذلك قفاه بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي بالآيات التي جاء بها النبيّ ﷺ وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن نهى عز اسمه المؤمنين في الآيات السالفة عن الاستماع لنصح اليهود وعدم قبول آرائهم في شيء من أمور دينهم ـ ذكر هنا وجه العلة في ذلك، وهى أن كثيرا منهم يودون لو ترجعون كفارا حسدا لكم ولنبيّكم، فهم لا يكتفون بكفرهم بالنبي ﷺ والكيد له بنقض ما عاهدهم عليه، بل يحسدونكم على نعمة الإسلام ويتمنون أن تحرموا منها، وقد كان لأهل الكتاب حيل في تشكيك المسلمين في دينهم، فقد طلب بعضهم من بعض أن يؤمنوا أوّل النهار ويكفروا آخره كي يتأسى بهم بعض ضعاف الإيمان من

(١) تفسير المراغي: ١/ ١٩١.

المسلمين، وكانوا يلقون بعض الشبه على المؤمنين ليشكّكوهم في دينهم.

٢. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي تمنى كثير من اليهود والنصارى أن يصرفوكم عن توحيد الله والإيمان بمحمد ﷺ ويرجعوكم كفارا كما كنتم، حسدا لكم.. وفي هذا إشارة إلى أن النصح الذي يشيرون به منشؤه الحسد وخبث النفوس وسوء الطويّة والجمود على الباطل ـ لا الغيرة على الحق وصرف الهمة في الدفاع عنه.

٣. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي من بعد أن ظهر لهم بساطع الأدلة أن محمدا على الحق بما جاء به من الآيات التي تنطبق على ما يحفظونه من بشارات كتبهم بنبي يأتي آخر الزمان.

٤. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾ أي فعاملوهم بأحاسن الأخلاق من العفو عن مذنبهم بترك عقابه، والصفح عنه بترك لومه وتعنيفه حتى يأتي نصر الله لكم بمعونته وتأييده.. وقد يكون المعنى ـ حتى يأتي أمر الله ونصره، وقد تحقق ذلك بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير من المدينة بعد أن غدروا ونقضوا العهد بموالاة المشركين بعد أن عفا عنهم وصفح مرات كثيرات.

٥. في أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح لا يكون إلا من القادر، فكأنه يقول لهم: لا تغرّنّكم كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فأنتم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، وأهل الحق مؤيدون بعناية الله، ولهم العزة ما ثبتوا عليه.

٦. ثم أكد الوعد السابق بالنصرة بقوله: ﴿أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فالله هو القادر على أن يهبكم من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى، ويثبتكم بما أنتم عليه من الحق فتتغلبوا على من يناوئكم ويظهر لكم العدوان اغترارا بكثرته، واعتزازا بقوته: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

٧. ثم ذكر سبحانه بعض الوسائل التي تحقق النصر الذي وعدوا به فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ لما في الصلاة من توثيق عرا الإيمان، وإعلاء الهمة، ورفعة النفس بمناجاة الله، وتأليف قلوب المؤمنين حين الاجتماع لأدائها، وتعارفهم في المساجد، وبهذا ينمو الإيمان، وتقوى الثقة بالله، وتتنزه النفس أن تأتى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتكون أقوى نفاذا في الحق، فتكون جديرة بالنصر ولما في الزكاة من توكيد الصلة بين الأغنياء والفقراء، فتتحقق وحدة الأمة وتكون كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو

تألم باقي الأعضاء بالحمى والسهر.

٨. جرت سنة القرآن أن يقرن الزكاة بالصلاة، لما في الصلاة من إصلاح حال الفرد، ولما في الزكاة من إصلاح حال المجتمع، إلى أن المال شقيق الروح، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله سهل عليه بذل نفسه في سبيل الله تأييدا لدينه وإعلاء لكلمته.

٩. وبعد أن أبان أن الصلاة والزكاة من أسباب النصر في الدنيا أردف هذا ببيان أنهما من أسباب السعادة في الآخرة أيضا فقال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ أي وما تعملوا من خير تجدوا جزاءه عند ربكم يوم توفى كل نفس جزاء عملها بالقسطاس المستقيم، ونحو الآية قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، ونسب الوجود إلى العمل والذي يوجد هو جزاؤه، لما للعمل من أثر في نفس العامل، فكأن الجزاء بمثابة العمل نفسه.

١٠. ثم ختم الآية بما يحثّ المرء على الإحسان في العمل فقال: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو عالم بجميع أعمالكم كثيرها وقليلها، لا تخفى عليه خافية من أمركم، خيرا كانت أو شرّا وهو مجازيكم عليها، ولا يخفى ما في هذا من الترغيب والترهيب.

١١. من مواعظ علي كرم الله وجهه أنه كان إذا دخل المقبرة قال السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة، والمحالّ المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات ـ ثم قال أما المنازل فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت، وأما الأزواج فقد نكحت، فهذا خبر ما عندنا، فليت شعرى ما عندكم؟ والذي نفسي بيده لو أن لهم في الكلام لقالوا: إن خير الزاد التقوى.. وفي الحديث الصحيح: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)، والأول يشمل بناء المساجد ومعاهد العلم والمستشفيات والملاجئ، والأحباس على المعوزين والمحتاجين، والثاني: ينضوي تحته ما يخلفه الإنسان من تصنيف نافع، أو تعليم للعلوم الدينية، وقيد الولد بكونه صالحا، لأن الأجر لا يحصل من غيره، أما الوزر فلا يلحق الأب سيئة ابنه.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، ذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس.. الرغبة في سلب الخير الذي يهتدي إليه الآخرون.. لما ذا؟ لا لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم، ولكنها لأنها تعلم!

٢. ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.. والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين، وما زالت تفيض، وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال، وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه، ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم؛ وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه، والذي أنقذهم الله منه بالإيمان، وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجل النعمة التي تحسدهم عليها يهود!

٣. هنا ـ في اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة، وتنكشف فيها النية السيئة والحسد اللئيم ـ هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد، والشر بالشر، ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره، وقتما يريد: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.. وامضوا في طريقكم التي اختارها الله لكم، واعبدوا ربكم وادخروا عنده حسناتكم:

٤. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.. وهكذا.. يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر، ومكمن الدسيسة؛ ويعبئ مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم.. ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله؛ ينتظرون أمره، ويعلقون تصرفهم بإذنه.. وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة، لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة، ويدعها طيبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٠٣.

(٢) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١٣١.

١. ثم إن من وراء ذلك، اليهود، يلقون إلى المسلمين بما يفتح للشيطان طرقا كثيرة إلى قلوب لم يتوثّق فيها الإيمان بعد.. فكان هذا التحذير من قبل أن يقع هذا الأمر الذي من شأنه أن يثير شكا وتساؤلا ـ كان تدبيرا حكيما من حكيم، ووقاية للمسلمين من داء أصيب به اليهود من قبل، فعزّ شفاؤهم منه، وطال شقاؤهم به، ثم يقول سبحانه بعد هذا: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

٢. هذا تحذير آخر من الله سبحانه، من أن يستمع المسلمون إلى ما يلقاهم به اليهود عند وقوع هذا الأمر، وهو تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ـ من تلبيسات وتلفيقات وأكاذيب.. ثم هو تنبيه للمسلمين أن يمضوا إلى ما أمرهم الله به، وأن يستقيموا على قبلتهم التي وجههم الله إليها، غير ملتفتين إلى تخرصات المتخرصين، وضلالات الضالين.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. مناسبته لما قبله أن ما تقدم إخبار عن حسد أهل الكتاب وخاصة اليهود منهم، وآخرتها شبهة النسخ، فجيء في هذه الآية بتصريح بمفهوم قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٠٥] الآية لأنهم إذا لم يودوا مجيء هذا الدين الذي اتبعه المسلمون فهم يودون بقاء من أسلم على كفره ويودون أن يرجع بعد إسلامه إلى الكفر، وقد استطرد بينه وبين الآية السابقة بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ﴾ [البقرة: ١٠٦] الآيات للوجوه المتقدمة، فلأجل ذلك فصلت هاته الجملة لكونها من الجملة التي قبلها بمنزلة البيان إذ هي بيان لمنطوقها ولمفهومها، وفي (تفسير ابن عطية) و(الكشاف) و(أسباب النزول) للواحدي أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر أتيا بيت المدراس وفيه فنحاص بن عازوراء وزيد بن قيس وغيرهما من اليهود فقالوا لحذيفة وعمار: (ألم تروا ما أصابكم يوم أحد ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير ونحن أهدى منكم) فردا عليهم وثبتا على الإسلام.

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٦٥٢.

٢. إنما أسند هذا الحكم أي الكثير منهم وقد أسند قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٠٥] إلى جميعهم لأن تمنيهم أن لا ينزل دين إلى المسلمين يستلزم تمنيهم أن يتبع المشركون دين اليهود أو النصارى حتى يعم ذلك الدين جميع بلاد العرب فلما جاء الإسلام شرقت لذلك صدورهم جميعا:

أ. فأما علماؤهم وأحبارهم فخابوا وعلموا أن ما صار إليه المسلمون خير مما كانوا عليه من الإشراك لأنهم صاروا إلى توحيد الله والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه وفي ذلك إيمان بموسى وعيسى وإن لم يتبعوا ديننا، فهم لا يودون رجوع المسلمين إلى الشرك القديم لأن في مودة ذلك تمني الكفر وهو رضي به.

ب. أما عامة اليهود وجهلتهم فقد بلغ بهم الحسد والغيظ إلى مودة أن يرجع المسلمون إلى الشرك ولا يبقوا على هذه الحالة الحسنة الموافقة لدين موسى في معظمه نكاية بالمسلمين وبالنبي ﷺ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]

في هذا المعنى المكتنز ما يدل على:

أ. وجه التعبير بـ ﴿يَرُدُّونَكُمْ﴾ دون لو كفرتم ليشار إلى أن ودادتهم أن يرجع المسلمون إلى الشرك لأن الرد إنما يكون إلى أمر سابق، ولو قيل لو كفرتم لكان فيه بعض العذر لأهل الكتاب لاحتماله أنهم يودون مصير المسلمين إلى اليهودية.

ب. وبه يظهر وجه مجيء ﴿كُفَّارًا﴾ معمولا لمعمول ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ ليشار إلى أنهم ودوا أن يرجع المسلمون كفارا بالله أي كفارا كفرا متفقا عليه حتى عند أهل الكتاب وهو الإشراك فليس ذلك من التعبير عن ما صدق ما ودوه بل هو من التعبير عن مفهوم ما ودوه.

ج. وبه يظهر أيضا وجه قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ فإنه تبيّن أن ما عليه المسلمون حق من جهة التوحيد والإيمان بالرسل بخلاف الشرك، أو من بعد ما تبين لهم صدق رسول الله ﷺ عندهم إذا كان المراد بالكثير منهم خاصة علمائهم والله مطلع عليهم.

٣. ﴿لَوْ﴾ هنا بمعنى أن المصدرية ولذلك يؤول ما بعدها بمصدر، و﴿حَسَدًا﴾ حال من ضمير ﴿وَدَّ﴾ أي إن هذا الود لا سبب له إلا الحسد لا الرغبة في الكفر، ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ جيء فيه بمن

الابتدائية للإشارة إلى تأصل هذا الحسد فيهم وصدوره عن نفوسهم، وأكد ذلك بكلمة (عند) الدالة على الاستقرار ليزداد بيان تمكنه وهو متعلق بحسدا لا بقوله: ﴿وَدَّ﴾

٤. إنّما أمر المسلمون بالعفو والصفح عنهم في هذا الموضع خاصة لأن ما حكى عن أهل الكتاب هنا مما يثير غضب المسلمين لشدة كراهيتهم للكفر، قال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ [الحجرات: ٧] فلا جرم أن كان من يود لهم ذلك يعدونه أكبر أعدائهم فلما كان هذا الخبر مثيرا للغضب خيف أن يفتكوا باليهود وذلك ما لا يريده الله منهم لأن الله أراد منهم أن يكونوا مستودع عفو وحلم حتى يكونوا قدوة في الفضائل.

٥. العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ـ بفتح الصاد ـ مصدر صفح صفحا إذا أعرض لأن الإنسان إذا أعرض عن شيء ولاه من صفحة وجهه، وصفح وجهه أي جانبه وعرضه وهو مجاز في عدم مواجهته بذكر ذلك الذنب أي عدم لومه وتثريبه عليه وهو أبلغ من العفو كما نقل عن الراغب، ولذلك عطف الأمر به على الأمر بالعفو لأن الأمر بالعفو لا يستلزمه ولم يستغن باصفحوا لقصد التدريج في أمرهم بما قد يخالف ما تميل إليه أنفسهم من الانتقام تلطفا من الله مع المسلمين في حملهم على مكارم الأخلاق.

٦. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي حتى يجيء ما فيه شفاء غليلكم قيل هو إجلاء بني النضير وقتل قريظة، وقيل الأمر بقتال الكتابيين أو ضرب الجزية.. والظاهر أنه الغاية مبهمة للعفو والصفح تطمينا لخواطر المأمورين حتى لا ييأسوا من ذهاب أذى المجرمين لهم بطلا، وهذا أسلوب مسلوك في حمل الشخص على شيء لا يلائمه كقول الناس حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا فإذا جاء أمر الله بترك العفو انتهت الغاية، ومن ذلك إجلاء بني النضير.

٧. لعل في قوله: ﴿أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليما للمسلمين فضيلة العفو أي فإن الله قدير على كل شيء وهو يعفو ويصفح وفي الحديث الصحيح (لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عزّ وجل يدعون له ندا وهو يرزقهم)، أو أراد أنه على كل شيء قدير فلو شاء لأهلكهم الآن، ولكنه لحكمته أمركم بالعفو عنهم وكل ذلك يرجع إلى الائتساء بصنع الله تعالى وقد قيل: إن الحكمة كلها هي التشبه بالخالق بقدر الطاقة البشرية، فجملة ﴿أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مسوق مساق التعليل.

٨. جملة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ﴾ [البقرة: ١١١] تفريع مع اعتراض

فإن الجملة المعترضة هي الواقعة بين جملتين شديدتي الاتصال من حيث الغرض المسوق له الكلام والاعتراض هو مجيء ما لم يسق غرض الكلام له، ولكن للكلام والغرض به علاقة وتكميلا، وقد جاء التفريع بالفاء هنا في معنى تفريع الكلام على الكلام لا تفريع معنى المدلول على المدلول لأن معنى العفو لا يتفرع عن ود أهل الكتاب ولكن الأمر به تفرع عن ذكر هذا الود الذي هو أذى وتجيء الجملة المعترضة بالواو وبالفاء بأن يكون المعطوف اعتراضا، وقد جوزه الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ في سورة النحل [٤٣]، وجوزه ابن هشام في (مغني اللبيب) واحتج له بقوله تعالى: ﴿فَالله أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥] على قول ونقل بعض تلامذة الزمخشري أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ أنه قال لا يصح أن تكون جملة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ اعتراضا لأن الاعتراض لا يكون مع الفاء، ورده الزمخشري بأنه لا يصح عنه لمنافاته كلامه في آية سورة النحل.

٩. ﴿إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تذييل لما قبله، والبصير العليم كما تقدم، وهو كناية عن عدم إضاعة جزاء المحسن والمسيء لأن العليم القدير إذا علم شيئا فهو يرتب عليه ما يناسبه إذ لا يذهله جهل ولا يعوزه عجز، وفي هذا وعد لهم يتضمن وعيدا لغيرهم لأنه إذا كان بصيرا بما يعمل المسلمون كان بصيرا بما يعمل غيرهم.

١٠. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أريد به الأمر بالثبات على الإسلام فإن الصلاة والزكاة ركناه فالأمر بهما يستلزم الأمر بالدوام على ما أنتم عليه على طريق الكناية.

١١. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله﴾ مناسب للأمر بالثبات على الإسلام وللأمر بالعفو والصفح، وفيه تعريض باليهود بأنهم لا يقدرون قدر عفوكم وصفحكم ولكنه لا يضيع عند الله ولذلك اقتصر على قوله: ﴿عِنْدَ الله﴾ قال الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه ... لا يذهب العرف بين الله

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٦١.

١. كان المشركون والذين أوتوا الكتاب لا يرضون معجزة النبيّ ﷺ حجة دالة على صدق النبيّ ﷺ، وقد تحداهم أن يأتوا بمثلها فعجزوا وعلموا مقامه من البيان، وأنه أعلى من البيان الإنساني حتى يقول قائلهم: (إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، والله ما يقول هذا بشر)، فقد تبين لهم الحق، وأن ما يشتمل عليه هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، ومع ذلك جحدوا وكفروا وتمادوا واضطهدوا ضعاف المؤمنين، وكانوا يودون أن يعود النبيّ ﷺ ومن معه إلى ما هم عليه، حسدا لهم، إذا علموا أنهم على الحق، وليكونوا تحت سلطانهم وليحتفظوا بهم وكانوا بين إحساسين: إحساس السلطان وحسد أهل الإيمان؛ ولذا كانوا يتعنتون في طلب آيات غير القرآن.

٢. كان اليهود يستفتحون على الذين كفروا بالنبي ﷺ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فالحق قد تبين وكان أشد تبينا، لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك طلبوا آيات أخرى وجحدوا، وما كان ذلك إلا تبريرا لكفرهم بما علموا، ولم يكتفوا بكفرهم بل ودوا أن يكون المؤمنون مثلهم كفرا وعنادا.

٣. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ ود هنا معناها تمنى، فإنها تستعمل بمعنى أحب، وبمعنى تمنى، وحيث كانت لو وما بعدها موضع الطلب كانت بمعنى تمنى؛ فإن أمنية أهل الكتاب (وكذلك المشركون) أن يختفى هذا الدين، ولا يكون إلا الوثنية وخصوصا الوثنيين الذين بقوا على وثنيتهم من الأوس والخزرج لكيلا يكون محمد ﷺ وصحبه مسيطرين على المدينة.

٤. يلاحظ هنا أمران:

أ. أولهما ـ أن القرآن الكريم الذي أنزله العادل الحكيم لم يذكر أهل الكتاب جميعا، بل ذكر الكثير منهم فقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ لأن بعضهم يرجى إيمانه ويسير في طريق الإيمان، ومن سار في طريق الإيمان لا يرجو زواله، ومن يريد الهداية لا يود زوالها.

ب. الثاني:أنه ذكر أهل الكتاب دون غيرهم لأنهم كانوا أشد رغبة في تضليل المؤمنين، وكان الحق عندهم أشد بيانا، وأقوى برهانا؛ ولأن حسدهم أوضح، فكلما كانت الحجة أقطع، كان حسدهم أوضح وأبين وعداوتهم أشد، ولجاجتهم في الباطل.

٥. قال تعالى في موضع التمني وباعثه: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ

﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ تمنوا أن تعودوا إلى الكفر، بعد أن ذقتم بشاشة الإيمان، وعبر بقوله تعالى: ﴿يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ للإشارة إلى أن ذلك رجعة بعد تقدم، وانتكاسة بعد استقامة.

٦. عبّر عن حسدهم بأنه منبعث من نفوسهم، وذلك التعبير يشير إلى أمرين:

أ. أولهما ـ أنه ليس له مبرر إلا من نفوسهم فلا وجه لأن يحسدوكم على ما آتاكم الله تعالى من فضله.

ب. ثانيهما ـ تأكيد ما في نفوسهم من غل بقوله تعالى: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة]، كما في قوله تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [البقرة]

٧. الحسد تمنى زوال نعمة غيره، سواء أعادت النعمة إليه أم لم تعد، فالحاسد لا يريد الخير لغيره، وهو بهذا يملأ قلبه بالضغن والحقد من غير أن يعود إليه شيء؛ ولذلك قيل: إن الحسد مرض نفسي، لا يؤذى إلا صاحبه لأنه بمقدار ما ينال غيره من خير تتوالى آلامه، وخير الدنيا كثير فيزيد مرضه بمقدار ما يؤتى الناس من فضل، وقد يسمى بعض الناس حسدا ما ينال الناس من غبطة كقول النبيّ ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله تعالى القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)، واستعمال الحسد هنا من قبيل المجاز؛ لأن موضوع الغبطة والحسد، هو الخير بيد أن الحاسد يتمنى الزوال والغابط يتمنى الدوام والاتباع، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

٨. حسد اليهود كان باديا في كل معاملاتهم للنبي ﷺ، وفى أقوالهم وأفعالهم، وحسد بعض الذين بقوا على وثنيتهم كان باديا في نفاقهم وفى أفعالهم، وكانوا يجاهرون بالحسد قبل وقوعه إذ كانوا يجاهرون به، ولا يخفون كفرهم، يروى أن النبيّ ﷺ كان راكبا دابة فمر بمجلس فيه مسلمون، ويهود ومشركون من عبدة الأوثان من بقايا الأوس والخزرج الذين لم يكونوا قد دخلوا في الإسلام بعد، ولو نفاقا، فسلم رسول الله ﷺ ثم نزل عن دابته وأخذ يدعوهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبى: إن كان حقا، فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغش مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستب المشركون والمسلمون واليهود، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال رسول الله ﷺ: (ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب) يريد عبد الله بن أبى بن سلول فكنّاه تقريبا لنفسه (قال كذا وكذا) فقال: أي رسول الله بأبى أنت وأمي اعف عنه واصفح، فو الذي أنزل عليك الكتاب بالحق لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح أهل

هذه البحيرة على أن يتوّجوه ويعصّبوه بالعصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق، فذلك فعل ما رأيت.. والحسد هنا واضح.

٩. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾، العفو معناه، ترك المؤاخذة على الذنب والرفق في المظهر، والمعاملة الحسنة، والصفح هو إزالة كل أثر في النفس، فالعفو يتعلق بالمظهر كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَوأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف] والصفح ألا يبقى في النفس أثر من الآلام التي أثارها الحسد والعمل على مقتضاه، وكلاهما أعلى درجة من الصبر المجرد؛ لأن الصبر معناه الضبط والتحمل مع ملاحظة ورجاء، والعفو يتضمن كالصفح معنى الصبر، مع تجمل المظهر وألا تكون آلام قط مما يصنعون.

١٠. حد الله تعالى نهاية للعفو والصفح، وهو أن يأتي أمر الله قال تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾ وإن ذلك يكون بأحد أمور ثلاثة:

أ. إما بالقصاص منهم، بإجلائهم أو قتالهم.

ب. وإما بنزع الحسد والحقد من قلوبهم وهدايتهم.

ج. وإما بالغلب عليهم وأن يكونوا في ظل المسلمين، ويعلنوا إسلامهم وقلوبهم ليست مؤمنة.

١١. الأمر بالصفح والعفو كان لإرضاء قلوبهم، وإخراج الحسد من نفوسهم فإنه لا يدني القلوب إلا عفو رفيق وصفح جميل.

١٢. ذيّل الله سبحانه وتعالى الآية بإثبات قدرة الله تعالى فقال تعالى: ﴿أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإذا أمر الله كان قادرا على نزع الأحقاد من القلوب، والقصاص من الظالمين، وكشف ضلال المنافقين؛ لأنه قادر على كل شيء وقد أكد قدرته سبحانه بالجملة الاسمية وإن المؤكدة، وعموم موضوع قدرته واختصاصه سبحانه وتعالى بالقدرة على كل شيء بتقديم الجار والمجرور على قدير، تعالت قدرته وعظمته وحكمته.

١٣. إقامة الصلاة أدؤها على الوجه الأكمل بأن يأتي بأركانها الظاهرة، وأركانها الباطنة مقومة غير معوجة طيبة خارجة من القلوب ليست النفس منفصلة عما تقوم به الجوارح، فإذا قال: (الله أكبر) شعر بعظمة الله وأحس برقابته، وأنه دخل بالتكبير في ظل رحمته، وأنه رقيب عليه وأنه يواجهه، وأنه في حضرة

منشئ هذا الوجود بما فيه من سماء وأرض وجبال ووهاد، وأن نفسه في قبضة يده، والوجود كله في قبضته، وإنه بذلك يحس كأنه يرى الله لأنه في حضرته، وبذلك يعلو عن الأحقاد وعن الحسد، وعن كل ضغن وإحن؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت]

١٤. والزكاة تعاون إنساني؛ لأنها معاونة القوى للضعيف وإعطاء الغنى للفقير، والربط بين الإنسان بالأخوة الجامعة والمحبة الراحمة والمودة الواصلة، وعندها يزول الحسد ولا يتمنى أحد زوال نعمة أحد، وعند ذلك يكون العفو الشامل والصفح الجميل، ويدرك معنى قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل، ويراه بقلبه عيانا.

١٥. مع الأمر بالصلاة التي هي رمز للطهارة النفسية والائتلاف النفسي، وإيتاء الزكاء التي تدل على الطهارة الجماعية والائتلاف ـ أمر سبحانه وتعالى بفعل الخير في شتى صوره، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ و(ما) هنا من أسماء الشرط، وفعله تقدموا، وجوابه تجدوه عند الله، والنص الكريم حث على فعل الخير وبيان جزائه؛ لأن جزاءه يجده عند الله تعالى وما يجده عند الله أوفى مما قدّم، وأكثر مما فعل، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾

١٦. نلاحظ ثلاثة أمور في كل واحدة إشارة بيانية، وحكمة ربانية.

أ. الأولى ـ أن الله تعالى عبر عن فعل الخير سواء أكان لنفسه أم كان للجماعة بقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ لأن فعل الخير للجماعة فعل لنفسه، والخير يعود على فاعله ابتداء، ويعود على الجماعة انتهاء، فمن تصدق فإنما يتصدق لنفسه؛ لأن الفائدة إليه إذ يعيش في مجتمع متكافل غير متدابر، ولتطيب بفعله القلوب وتسود المحبة الكامنة، وكذلك كل فعل خير يكون لنفسه، وهو يقدمه لنفسه أو يكون له ثوابه.

ب. الثانية ـ أنه يجد العمل قائما ثابتا عند الله، فيكون مهيا حاضرا يراه ويعاينه، وذلك كناية عن جزائه الذي لا ينقص عنه، بل قد يزيد عليه رحمة من الله تعالى، ويراه عند الله محفوظا لا يضيع.

ج. الثالثة ـ تذييل الآية الكريمة بما يفيد علم الله تعالى بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهذه الجملة السامية تفيد علم الله الذي لا تخفى عليه خافية، فلا يضيع عمل عامل منكم.

١٧. أكد سبحانه وتعالى إحاطة علمه بما يظهر وما يخفى مؤكدات ثلاث:

أ. أولها ـ إحاطته وسموا ذلك بالتعبير بـ (ما) الدالة على العموم، فإنها بمعنى الذى، وهى تدل على العموم الشامل.

ب. ثانيها ـ بالجملة الاسمية وتأكيد الجملة بأن وتقديم الجار والمجرور على بصير، والتقديم دال على التخصيص.

ج. ثالثها ـ التعبير عن العلم بالبصير؛ فمعناه علم كأنه مبصور بالبصر، يعلم الخفى الدقيق، والجلي الواضح، فلا يخفى عليه شيء من عمل الإنسان ويعلمه علم من يبصره.

ذكر سبحانه وتعالى حسد اليهود بالمدينة، وكيف يداوى المؤمنون داء الحسد عند هؤلاء وهو بالعفو والصفح رجاء أن يقربوا بدل أن يستمروا على جفوتهم ونفرتهم، حتى يكون اليأس من إدنائهم فيكون القصاص أو الكشف والإبعاد، والله تعالى على كل شيء قدير.

١٨. وإن العفو والصفح صفحا جميلا لا منة فيه، يحتاج إلى رياضة نفسية وطهارة روحية وإلف اجتماعي؛ ولذلك قرن الله تعالى الأمر بالمعروف والصفح والأمر بالصلاة والزكاة وتقديم الخير رجاء من عند الله قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، كل انسان يود أن يكون الناس، كل الناس على دينه، قال أحد الفلاسفة: ان أسعد يوم عندي أن أرى من يوافقني على رأيي.. ولكن جماعة من اليهود كانوا يبذلون جهودا كبيرة لفتنة المسلمين، وارتدادهم عن دينهم الى الجاهلية الأولى، لا لشيء إلا بغيا وحسدا، مع العلم انهم يستطيعون الإسلام كما فعل غيرهم، ولكنهم خافوا على أسواقهم وأرباحهم من الخمر والميسر والدعارة.

٢. استغل اليهود انكسار المسلمين يوم أحد للدس على النبي، فقد جاء في الأخبار انهم بعد وقعة أحد كانوا يدعون شباب المسلمين الى بيوتهم، ويقدمون لهم الخمر، ويغرونهم ببناتهم، كما يفعلون اليوم،

(١) التفسير الكاشف: ١/ ١٧٤.

وفي كل يوم، ثم يشككون المسلمين بالقرآن ونبوة الرسول الأعظم ﷺ، وأحس النبي بهذا التدبير الرهيب، فنهى عن مجالس اللهو، وشدد النكير على من يتعاطى الزنا والخمر والميسر ولحم الخنزير، فامتنع المسلمون عن الذهاب الى بيوت اليهود التي فتحوها لهذه الغاية، وهي المسماة اليوم بالبار والكازينو.

٣. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، أي ان اليهود قد حاولوا إرجاع المسلمين الى الكفر والضلال على علم منهم ان الإسلام هو الحق، وان الشرك وانكار نبوة محمد هو الباطل، ولا يختص هذا باليهود، فان أكثر الناس تجحد الحق وتعانده، لا لشيء الا لأنه لا يتفق مع مطامعهم، فان الإنسان مسير بوحي من عاطفته ومنافعه، لا بوحي من دينه وعقله، قال أمير المؤمنين عليه السلام: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.

٤. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾، أي أعرضوا الآن، ولا تتعرضوا لعقابهم وتأديبهم، حتى يأمركم الله بذلك، فان الأمور رهن بأوقاتها، وفي كثير من التفاسير ان الله سبحانه أمر المسلمين بالإعراض عنهم الى ان نزل قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالله وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وغير هذه الآية من آيات القتال.

٥. كل ما في الحياة من كفر وإلحاد، وفسق وفجور، وتهتك وفساد، وظلم وطغيان، وحروب ومشاحنات، وفقر وبؤس، كل ذلك، وما اليه من أوباء وأدواء يرجع في النهاية الى سبب واحد، هو مخالفة الحق.. ولو أنصف الناس لسعد واستراح كل الناس، لا القاضي فقط.. وان في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ اشارة الى هذه الحقيقة.. أجل، ان الحق لا يعدم نصيرا في كل زمان، ولكنه قليل، ولو وجد الحق أنصارا كما يجد الباطل لكان العالم في هناء وأمان.. بل لو طالب كل ذي حق به، وقام بواجبه لما رأينا للظلم والباطل عينا ولا أثرا.

٦. أقام الله للحق دليلا يهدي اليه، ويدل عليه من الفطرة وكتاب الله، ومن نبيه الأكرم، وأهل بيته الأطهار الذين ساوى صاحب البيت بينهم وبين القرآن بأمر من الله، كما جاء في حديث الثقلين الذي رواه مسلم في صحيحه، فمن عاند هذا الدليل على علم به فقد عاند الله ورسوله، تماما كما فعل اليهود والمشركون.

٧. سؤال وإشكال: رأينا القرآن يقرن دائما الأمر بالصلاة بالأمر بالزكاة، فما هو السر؟ والجواب:

أجيب عن هذا السؤال بأن الصلاة عبادة روحية، والزكاة عبادة مالية، فمن جاد بها ابتغاء مرضاة الله سهل عليه بذل نفسه في سبيل الله.

٨. أكثر شباب هذا الجيل يستخفون بالدين وأهله، فمنهم من يقول صراحة وعلانية: لا شيء وراء الطبيعة.. ومنهم من يقول: ان وراءها مدبرا حكيما، ولكنه لم يوجب صوما ولا صلاة.. والاثنان عند الله سواء في الكفر والجحود.. لأن من ترك الصلاة جازما بعدم وجوبها فهو تماما كمن كفر بالله دون خلاف بين علماء المسلمين.

٩. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تضمنت هذه الآية أمورا ثلاثة: الأمر بإقامة الصلاة.. الأمر بإيتاء الزكاة.. الترغيب في الخير بوجه العموم، وفي تفسير المنار ان الآية تضمنت أولا حكما خاصا، وهو الأمر بالصلاة والزكاة، ثم حكما عاما مستقلا بنفسه، ولكنه شامل بعمومه للحكم الخاص المتقدم، وهذا من أساليب القرآن التي لا تجد لها نظيرا في غيره.

١٠. قوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ المراد به وجدان جزائه وثوابه لا وجدان العمل بالذات، كما قيل، لأن الأعمال لا تبقى.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي أحبّوا ذلك، و﴿لَوْ﴾ للتمني، كأنه قال تمنوا أن يردوكم من بعد إيمانكم الإيمان الصادق الذي لا نفاق فيه ﴿كُفَّارًا﴾ ليخرجوكم من النور إلى الظلمات ومن طريق السعادة إلى طريق الشقاء ومن عزة الإيمان إلى ذلّة الكفر.

٢. ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ فالباعث هو الحسد الذي أوجدته أنفسهم الأمارة بالسوء بعداوتها لكم وحرصها على بطلان أمركم، والحسد غيرة تبعث على كراهة حصول النعمة للغير الذي يغار من حصول النعمة له أو كراهة بقاء نعمته، هذا الحسد المذموم، وقد يستعمل الحسد في

---

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٦٣.

الغيرة من دون قيد، ولعله أصل الحسد، وحقيقته، وينقسم إلى: محمود: وهو ما لم يبعث على الإثم، ورغّب في العمل الصالح لنيل مثل نعمة المحسود، ومذموم: وهو عكس المحمود، وهو الذي ذكرت أوّلاً، وخطره عظيم ـ نعوذ بالله منه ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥]، فانظر كيف صار المذكورون من أهل الكتاب من أجل الحسد من بعد ما تبيّن لهم الحق، وكان مقتضى العقل لو استعملوا عقولهم وتركوا الحسد أن يتبعوا الحق ليرضوا ربهم وينقذوا أنفسهم من النار ويسعدوا في الآخرة، وحينئذ يكونون إخواناً للمؤمنين سليمين من الحسد والعداوة لأهل الحق.

٣. ﴿فَاعْفُوا﴾ عما يصدر منهم من الأذى وتحملوا ﴿وَاصْفَحُوا﴾ أعرضوا عن أذاهم، ولا ترادّوهم ولا تقاتلوهم باعتبار أنهم حين ذاك لا يشكلون خطورة كما يشكلها رموز الكفر من قريش وغيرهم، فالمعنى: تغاضوا عن قتالهم فليس الوقت وقتهم، وانتظروا.

٤. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾:

أ. بتسليطكم عليهم وأمركم بالجهاد في سبيله، وحينئذ لا عفو ولا إعراض، وليس المراد أن يصيروا إلى السباب، ولكن كما قال الشاعر:

فلا تكثري فيه المقال فإنه محا السيف ما قال ابن دارة

ب. أو (أمره): نصره للدين، وإعلاؤه لكلمته، وحينئذ لا يضركم حسدهم، وهذا مناسب لآخر الآية.

٥. ﴿أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على إعزازكم وإذلالهم:

أ. وعلى الأول فهو قادر على تمكينكم من قتالهم بتوفير العدد والعدة، وتهيئتكم للقتال وتسليطكم عليهم، والعفو، والصفح: ترك السباب والمماراة المؤذية والجدال الكثير، وترك القتال حتى يؤمروا به.

ب. والأولى فاعفوا عن أذاهم وأعرضوا عنهم، لا تقاتلوهم حتى يأتي الله بأمره، وأمره تقويتكم بأن يأمركم بجهادهم وينصركم عليهم، والأمر هنا بمعنى الشأن أي نصره وإعلاؤه لكلمته ﴿أَنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على ذلك.

٦. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله﴾ حث على الإنفاق في وجوه الخير، وعلى فعل الخير كله، فالعبد إذا أنفق فيما يرضي الله فكأنه قدمه أمامه ليوافي يوم القيامة فيجده أمامه قد قدمه لنفسه،

وكذلك فعل الخير كله، وفي كلام أمير المؤمنين في (وصيته لابنه الحسن عليهما السلام): (وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه، فاغتنمه، وحمِّله إياه وأكثر من تزويده) انتهى المراد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ بالنسبة إلى الإنفاق.

٧. ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لعلمه بمراتب الحَسن في الحُسن ومقادير ما يناسبه من الثواب، وكذلك في كونه بصيراً بما يعمل المبطلون لعلمه بمقاديره في القبح ومقادير ما يناسبه من العقاب، فهو ينزل العمل منزلته اللائقة به، ويجعل له حكمه المناسب له كما يفعل البصير بالصناعة العليم كيف يتقنها.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من الذين لم ينفتحوا على الرسالة من موقع الإيمان، ولم يعملوا على مواجهة الوحي بذهنية الحوار، ولم يرتاحوا إلى الدين الجديد الذي لا يبقى معه مجال لدين آخر سابق، باعتبار أنه الدين الذي يجمع خلاصة الأديان السابقة ويزيد عليها بما يحقق للحياة المتجددة الحل للمشاكل الطارئة التي اقتضاها تغيّر الزمن وتطوّره، والذي يضع حلولا جديدة للمشاكل السابقة التي لم يعد الحل الموضوع لها متناسبا مع مرور الزمن، الأمر الذي يفرض تغييرها إلى الأفضل، وهذا ما يؤدي إلى زوال سلطانهم وتأثيرهم على المجتمعات، باعتبار أنهم من أهل الكتاب الذين هم المرجع للناس الذين يلتزمون الدين ممن يؤمنون بالله، ليعودوا إليهم في كل ما يجهلونه من أمور الدين الذي يملك هؤلاء علمه، وهذا ما جعلهم يفكرون ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ لتعودوا إلى الشرك الذي كنتم فيه، لأن المسألة لديهم لا تنطلق من التزامهم الواقعي بالإيمان بالله وبالرسالات وبالرسل مما يدعو إليه الإسلام ويؤمن به المسلمون، ليكون الإيمان أقرب إليهم في واقع المؤمنين من الشرك، بل هي عقدة ذاتية تربط الإيمان بهم في كل خصوصياته؛ فمن كان معهم كان خروجه من الشرك فضيلة، ومن لم يكن معهم كان خروجه مشكلة لا بد أن يواجهوها بالرفض حتى لو كانوا مؤمنين من ناحية المبدأ.

٢. ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ كأي شخص يجد النعمة لدى غيره فيتمنى أن تكون له، فلا يقبلون

---

(١) من وحي القرآن: ٢/ ١٦٨.

أن تنتقل النبوّة إلى محمد ﷺ ليكون كل مجدها وشرفها وحركيتها له ولأتباعه، إنها عقدة الحسد الذي ينهش قلوبهم فيتحوّلون إلى واقع العداوة، كما نقل في أسباب النزول عن حييّ بن أخطب وأخيه أبي ياسر اللذين دخلا على النبي محمد صلّى الله عليه وآله حين قدم المدينة، فلما خرجا قيل لحييّ: أهو نبي؟ فقال: هو هو، فقيل: ما له عندك؟ قال العداوة إلى الموت، وقد تطور أمره حتى أنه نقض العهد وأثار الحرب يوم الأحزاب.

٣. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ ممّا عرفوه من دلائل نبوّته في التوراة، وكانوا يستظهرون به على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

٤. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ ولا تدخلوا معهم في حرب، بل سالموهم على أساس السلم الذي فرضته المعاهدة التي دخلتم فيها معهم، مما يلزمكم بالتغاضي عن كل نياتهم السيئة وعقدتهم العدوانية، على الرغم من قوتكم في المجتمع المسلم المدني الذي تملكون فيه القوة التي تستطيعون من خلالها أن تنتصفوا منهم.

٥. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ عندما تأتي الساعة التي يأذن الله فيها بجهادهم من خلال نقضهم العهد من الناحية العملية، وإعلانهم العداوة للمسلمين بالتحالف مع المشركين ضدّكم، لتكون لكم الحجة عليهم في صعيد الواقع.

٦. ﴿أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يمهل عباده، فلا يعجل لهم العقوبة ولا يؤاخذهم بالعذاب من خلال أنه لا يخاف الفوت الذي يوحي لصاحب الحق بالاستعجال، ولأن الحكمة قد تدعو إلى ذلك من خلال المصالح العامة المترتبة على ذلك في واقع التعايش الطبيعي بين المسلمين وأهل الكتاب ما داموا سائرين على العهد في خطواتهم العملية، لأن الدوافع السيئة لا تكون أساسا للعقاب.

٧. في هذه الآية جانب من التوعية العملية، وجانب من الأسلوب الرسالي في التخطيط السليم لحركة الدعوة الإسلامية في علاقة المسلمين بأهل الكتاب، فقد أراد الله لهم أن يفهموا أن أهل الكتاب لم ينطلقوا في معارضتهم لهم من موقع الشبهة الفكرية التي تجعلهم يقفون موقف الرفض للدعوة التي يعتقدون خطأها، أو موقف الحيرة التي تجعلهم يترددون بين القبول والرفض، بل كان الدافع لذلك الحسد القاتل الذي يتحرك من موقع المحافظة على الامتيازات الذاتية القديمة التي يخافون عليها من الزوال أمام قوّة الرسالة الإسلامية وتقدمها، ولهذا فإنهم يودون ـ في داخل أنفسهم ـ لو يستطيعون إرجاعكم إلى الكفر

والشرك والوثنية مما يتنافى مع عقيدة التوحيد التي يزعمون الإيمان بها، فلو كانوا منسجمين مع هذه العقيدة، لكان خط الإسلام أقرب إلى خطهم في أغلب الأمور التي يؤمنون بها، ويؤكد القرآن ـ في هذا المجال ـ أن الحق قد تبيّن لهم بأسلوب لا يرقى إليه الشك، الأمر الذي يبطل كل حجّة مضادّة لديهم في العقيدة.

٨. ثم أراد الله للمسلمين أن يعفوا ويصفحوا، وذلك من موقع التخطيط العملي الذي يعتمد على سياسة المراحل في حركة القوة، فلا يمارس القوة إلا بعد استنفاد الوسائل السلمية التي تفتح للكافرين والمعارضين باب الدخول في الإيمان والسير في خط السلم، وعرّفهم أن عليهم أن لا يتشنجوا ويستسلموا للانفعال النفسي المنطلق من الرغبة في التدمير على أساس ما يملكون من قوّة، فإن للقضية حدا لا بد أن تبلغه، وذلك عندما يأتي الله بأمره في تشريع القتال، سواء في ذلك المشركون وأهل الكتاب، فإنّ الله لا يفوته أحد مهما امتدّ في قوّته وطغيانه لأنه على كل شيء قدير.

٩. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في هذه الآية، يعقّب الله على أمره بالعفو والصفح عن أهل الكتاب، بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وبالوعد الحق بأنهم سيجدون عند الله كل ما يقدّمونه أمامهم من خير، فإنه بصير بما يعملونه، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، وهذه طريقة قرآنية تربوية، في كل مورد من الموارد التي يوجّه فيها الله بعض الأوامر أو النواهي للناس، فإنه يتبع ذلك بتكاليف أخرى تؤكد جانب الشخصية الإيمانية العملية في نفس المؤمن، وبالحديث عمّا يلاقيه أمامه من الثواب الموعود لدى الله، من أجل أن يظل منفتحا على أعمال الخير بقوة روحية تندفع إلى تحقيق إرادة الله من موقع الطاعة الواعية التي تواجه العقبات والمصاعب الداخلية والخارجية بروح إسلامية تعرف النتائج سلفا، فلا تتزعزع ولا تضعف ولا تنهار.

١٠. قد لا نحتاج إلى الكثير من الجهد، لنعرف انسجام الصلاة وإيتاء الزكاة مع الأمر بالعفو والصفح، لأنهما يفتحان قلب المؤمن على الله من نافذة العبادة، وعلى الإنسان من نافذة العطاء، فيحصل له ـ من هنا وهناك ـ الجوّ الروحي الداخلي الذي يعرف كيف يعفو ويصفح ويتسامح قربة إلى الله تعالى.

١١. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ التي تقوّي عنصر الخير وتدفعكم إلى الصبر، وتفتح عقولكم وقلوبكم على الانقياد لله في ما يأمركم به من العفو والصفح، لأن الصلاة هي معراج روح المؤمن إلى الله، فيلتقي به

في روحانية العبودية الخالصة التي تقربه منه، وترتفع به إلى الدرجات العلى، وتسمو به في آفاق الله حيث يتخفف من كل المشاعر الذاتية الانفعالية، ليعيش التأمّل والتفكير في تركيز العلاقات مع الآخرين على القاعدة الروحية الثابتة.

١٢. ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ التي تعيشون فيها روحية العطاء في تأكيد العلاقات المسؤولة بالآخرين، في مواجهة المشاكل الصعبة التي يعانون منها، فتزدادون وعيا لمتابعة الواقع العام من حولكم في نظرتكم إلى هؤلاء، فلا تتحركون من داخل العقدة بل من داخل المصلحة العامة في مواقع رضى الله؛ وذلك هو ما تقدمونه بين أيديكم لله امتثالا لأوامره، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ من الطاعة والإحسان والخير المتحرك في الإنسان الآخر، ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ ثوابا ورضوانا وجنة ونعيما.

١٣. ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لأنه الذي يعلم ما تسرّونه وما تعلنونه من قضايا الخير في الواقع الداخلي أو الخارجي من ذواتكم، فيمنحكم جزاء ذلك خيرا وإحسانا.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. كثير من أهل الكتاب وخاصة اليهود لم يكتفوا بإعراضهم عن الدين المبين، بل كانوا يودّون أن يرتد المسلمون عن دينهم، ولم يكن ذلك إلّا عن حسد يستعر في أنفسهم.

٢. أمام هذه المواقف الدنيئة والنظرات الضيقة والآمال التافهة والنوايا الخبيثة التي تحملها الفئة الكافرة، يحدد الإسلام موقف الجماعة المسلمة، على أساس من رحابة الصدر وسعة الأفق وبعد النظرة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا الإمر الإلهي نزل حيث كان المسلمون بحاجة إلى بناء المجتمع الإسلامي، وفي تلك الظروف يوجب على المسلمين أن يلجأوا إلى سلاح العفو والصفح حتى يأتي الله بأمره.

٣. كثير من المفسرين قالوا إن (أمر الله) في هذه الآية يعني (أمر الجهاد)، ولعل الجماعة المسلمة لم تكن على استعداد شامل لخوض معركة دامية حين نزلت هذه الآية، ولذلك قيل إن آيات الجهاد نسخت

---

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٣٦.

هذه الآية.. ولعل التعبير بالنسخ في هذا الموضع ليس بصحيح، لأن الآية تحمل في عبارتها الإطار الذي يحدّها بفترة زمنية محدودة.

٤. الآية التالية تأمر المسلمين بحكمين هامّين: إقامة الصلاة باعتبارها رمز ارتباط الإنسان بالله، وإيتاء الزكاة وهي أيضا رمز التكافل بين أبناء الامّة المسلمة، وكلاهما ضروريان لتحقيق الانتصار على العدو: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

٥. ثم تؤكّد الآية على خلود العمل الصالح وبقائه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، والله سبحانه عالم بالسرائر، ويعلم دوافع الأعمال، ولا يضيع عنده أجر العاملين ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

٦. (اصفحوا) من (صفح)، وصفح الشيء عرضه وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجر، والأمر بالصفح هو الأمر بالإعراض، لكنّ عطفها على (فاعفوا) يفهم أنه أمر بالإعراض لا عن جفاء، بل عن عفو وسماح.. وهذا التعبير يوحي أيضا أن المسلمين كانت لهم قدرة المقابلة وعدم الصفح، لكن الأمر بالعفو والصفح يستهدف إتمام الحجّة على العدوّ، كي يهتدي من هو قابل للإصلاح، بعبارة أخرى: ممارسة القوّة ليست المرحلة الاولى في مواجهة العدوّ، بل العفو والصفح، فإن لم يجد نفعا فالسيف.

٧. عبارة ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قد تشير إلى أن الله قادر على أن ينصر المسلمين على أعدائهم بطرق غيبية، ولكن طبيعة حياة البشر والكون قائمة على أن الأعمال لا تتم إلا بالتدريج وبعد توفّر المقدمات.

٨. عبارة ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ قد تكون إشارة إلى توغل هؤلاء الحسدة في ذاتياتهم، فالحسد قد يتخذ أحيانا طابع الدين والرسالة، لكن حسد هؤلاء لم يكن له حتى هذا الظاهر، بل كان ضيقا شخصيا.. ويحتمل أيضا أن تكون إشارة إلى أن الحسد متجذّر في نفوسهم.

٩. الآية التالية تأمر المسلمين بحكمين هامّين: إقامة الصلاة باعتبارها رمز ارتباط الإنسان بالله، وإيتاء الزكاة وهي أيضا رمز التكافل بين أبناء الامّة المسلمة، وكلاهما ضروريان لتحقيق الانتصار على العدو: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

١٠. ثم تؤكّد الآية على خلود العمل الصالح وبقائه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾، والله سبحانه عالم بالسرائر، ويعلم دوافع الأعمال، ولا يضيع عنده أجر العاملين ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

٤٥. أهل الكتاب والتعصّب والأماني

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٤٥] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٣]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي كل يتلو في كتابه تصديق ما كفر به، أي: تكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم من الميثاق على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل مما جاء به عيسى تصديق موسى، وما جاء به من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه[١].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ تجدوا ثوابه[٢].

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا يهودي، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا نصراني[٣].

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٤٣٧..

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٦..

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٧..

٢. روي أنّه قال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُم﴾ أماني يتمنونها على الله بغير حق[(١)].

٣. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم﴾، يعني: حجتكم[(٢)].

٤. روي أنّه قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾ بما تقولون أنها كما تقولون[(٣)].

٥. روي أنّه قال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ﴾ يقول: أخلص لله[(٤)].

٦. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ[(٥)].

٧. روي أنّه قال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِم﴾ قالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم[(٦)].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي:

١. روي أنّه قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾، يعني: من الأعمال من الخير في الدنيا[(٧)].

٢. روي أنّه قال: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ﴾ أخلص دينه[(٨)].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: يعني: عوام النصارى[(٩)].

البصري:

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٧..

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٧..

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٧..

(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٨..

(٥) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٩..

(٦) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٩..

(٧) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٦..

(٨) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٨..

(٩) تفسير البغوي: ١/ ١٣٨..

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ثم كذبهم، وأخبر تعالى أن الجنة إنما هي للمؤمنين، فقال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾[(١)].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي:

١. روي أنّه قال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُم﴾ أماني يتمنونها على الله كاذبة[(٢)].

٢. روي أنّه قال: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُم﴾ هاتوا بينتكم[(٣)].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ بلى، قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا[(٤)].

٤. روي أنّه قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِم﴾ قالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم[(٥)].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ معناه بيانكم وحججكم[(٦)].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾: يعنون: على دين؛ لأنه ينكر بعضهم ما يدين به بعض، ثم قال ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة التي يجمعون على تصديقها).. ثم قال: افهموا عن الله تعالى هذه الحجة النيرة؛ إنه أعجبنا من اليهود والنصارى يختلفون وعندهم الكتاب، الذي فيه فصل اختلافهم، وبيان أمرهم، ولو كان الكتاب الذي في أيديهم لا يبين لهم الذي اختلفوا فيه ما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾؛ فأوجز الحجة،

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين: ١/ ١٧٠..

(٢) ابن جرير: ٢/ ٤٢٩..

(٣) ابن جرير: ٢/ ٤٢٨..

(٤) ابن جرير: ٢/ ٤٣٧..

(٥) ابن جرير: ٢/ ٤٣٨ وابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٩..

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ٨٩..

ووعظ أمة محمد ﷺ بهم، وأخبرهم أن الكتاب دليل لهم إن اختلفوا بعد نبيهم، وفيه البيان والبرهان، وهو فصل الخطاب، والنور المبين، والصراط المستقيم، وقال رسول الله ﷺ: (ما بلغكم عني فاعرضوه على كتاب الله تعالى، فما وافقه فهو مني)؛ فأخبرهم ﷺ أن الكتاب يفصل الحق من الباطل[1].

٣. روي أنّه قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يعني: مشركي العرب، ونفى عنهم العلم؛ لأنهم أهل جاهلية، ولا علم لهم بما في كتب الله تعالى، التي فيها حججه على خلقه، وأنبأهم أنهم فيما ينتحلون ويدينون به جهال لا يعلمون له حجة ولا برهانا، وسوى بينهم وبين العلماء من اليهود والنصارى؛ إذ لم يصيروا بعلمهم وكتابهم إلى اجتماع على تأويل كتابهم الذي هم به مؤمنون، وإلى اجتماع فيما يدعون من العبادة التي هي في الكتاب، الذي هم به مقرون، ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: من الدين والقول على الله بلا برهان ولا حجة، ثم يدعون أن لهم عليه الثواب عند الله تبارك وتعالى[2].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: أخبرهم أن من يدخل الجنة هو ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ الآية[3].

٢. روي أنّه قال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم العرب، قالوا: ليس محمد على شيء[4].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿تَجِدُوهُ﴾، يعني: تجدوا ثوابه عند الله[5].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد النبي ﷺ[6].

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٢..

(٢) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٢..

(٣) ابن جرير: ٢/ ٤٣١..

(٤) ابن جرير: ٢/ ٤٣٩ وابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٩..

(٥) ابن جرير: ٢/ ٤٢٦..

(٦) ابن جرير: ٢/ ٤٣٥..

٣. روي أنّه قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِم﴾ وقالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم[(١)].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال:: قلت لعطاء بن أبي رباح: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى، وقبل التوراة والإنجيل[(٢)].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يقول: وأتموها لمواقيتها، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يقول: آتوا زكاة أموالكم[(٣)].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُود﴾ يعني: ابن صوريا وأصحابه: ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين، فما لك يا محمد والنصارى! اتبع ديننا، ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين، فما لك يا محمد واليهود! اتبع ديننا[(٤)].

٣. روي أنّه قال: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَاب﴾ وهم يقرؤون التوراة والإنجيل، يعني: يهود المدينة، ونصارى نجران[(٥)].

٤. روي أنّه قال: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة﴾ يعني: بين مشركي العرب وبين أهل الكتاب ﴿فِيمَا كَانُوا فِيه﴾ من الدين ﴿يَخْتَلِفُون﴾[(٦)].

٥. روي أنّه قال: ﴿كَذَلِك﴾ يعني: هكذا ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُون﴾ بتوحيد ربهم - يعني: مشركي العرب-: إن محمدا وأصحابه ليسوا على شيء من الدين، يقول الله: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِم﴾ يعني: مثل ما قالت اليهود

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٤٣٨ وابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٩..

(٢) ابن جرير: ٢/ ٤٣٨ وابن أبي حاتم: ١/ ٢٠٩..

(٣) تفسير مقاتل: ١/ ١٣١..

(٤) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٢..

(٥) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٢..

(٦) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٢..

والنصارى بعضهم لبعض، فذلك قوله سبحانه في المائدة: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤][1].

الرسّي:

ذكر الإمام القاسم الرسّي (ت ٢٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، أي: من أخلص دينه لله؛ فجعل للدين وجها، وقال الشاعر:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... لأرض تحمل صخرا ثقالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له ... المزن تحمل عذبا زلالا

وفي ذلك دليل على أنه أراد بالوجه الدين، وقال الله سبحانه: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ) [الروم: ٤٣، ٣٠]. ولم يرد الوجه دون القلب وسائر الأبعاض.

٢. وإنما تأويل أقم وجهك، أي: أقم نفسك للدين، وتأويل أقم نفسك للدين إنما هو: بالدين، وقال الله سبحانه: (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ) [آل عمران: ٧٢]. يعني: صدر النهار.

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا؛ وذلك خديعة منهم لنفوسهم، وقول باطل لن يبلغوه ولن ينالوه؛ لكفرهم وقبح فعلهم، ورداوة فهمهم، وبعدهم من طاعة خالقهم؛ ولكن يخدعون أنفسهم ويمنونها مالا يبلغونه، من مراتب المؤمنين، ومنازل الصالحين.

٢. إنما قيل: ﴿هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ من طريق الترخيم، وإنما هم اليهود والنصارى، وذلك جائز في ترخيم الشيء.

الماتريدي:

---

(١) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٢..

(٢) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦١..

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٠..

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يحتمل هذا وجهين:

أ. يحتمل: أن قالوا ذلك جميعا؛ لما أرادوا أن يروا الناس الموافقة فيما بينهم؛ ليرغبوا في دينهم، وينفروا عن دين الإسلام، وإن كانوا هم ـ في الباطن ـ على الخلاف والعداوة.

ب. ويحتمل: أن يكون ذلك القول من كل فريق في نفسه، لا عن كل الفريقين جميعا على الموافقة، دليله قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ دلت الآية أن ذلك القول لم يكن من الفريقين جميعا على الموافقة، ولكن كان من كلّ في نفسه على غير موافقة منهم ولا مساعدة.

٢. في الآية دليل على لزوم الدليل على النّافي؛ لأنهم نفوا دخول غيرهم الجنّة بقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فطولبوا بالبرهان بقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه لا يدخل فيها سواكم.

٣. سؤال وإشكال: إنهم إذا نفوا دخول غيرهم فيها ادعوا لأنفسهم الدخول، فإنما طولبوا بالبرهان على ما ادعوا، ليس على ما نفوا، والجواب: لا يحتمل ذا:

أ. لأنهم لم يذكروا دخول أنفسهم تصريحا، إنما نفوا دخول غيرهم وهو كمن يقول: لا يدخل هذه الدار إلا فلان وفلان، ليس فيه أن فلانا وفلانا يدخلان، ولكن فيه نفي دخول غيرهما.

ب. أو نقول: نفوا دخول غيرهم تصريحا، وادعوا لأنفسهم الدخول مستدلا، وإنما يطلب الحجة على مصرّح قولهم، لا على مستدلّهم.. ألا ترى أن الجواب من الله ـ عزّ وجل ـ بالإكذاب والرد عليهم خرج على ما نفوا دخول غيرهم، وهو قوله: ﴿بَلَى﴾ ـ يدخل الجنة ـ ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وهُوَمُحْسِنٌ﴾، ألا ترى إلى ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا نكاح إلا بشهود) ليس فيه إثبات النكاح إذا كان ثمّ شهود؛ ولكن فيه نفي النكاح بغير شهود تصريحا.. ألا ترى أن من قال لا نكاح إلا بشهود، لا يسأل أن: لم قلت:

---

(١) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٤٠.

إن النكاح يجوز بالشهود؟ ولكن يسأل أن: لم قلت: إنه لا يجوز بغير شهود؟ فعلى ذلك قوله: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ليس فيه إثبات الدخول لهم تصريحا، وفيه نفي دخول غيرهم تصريحا، والله أعلم.

٤. ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وهُوَمُحْسِنٌ} خرج مخرج الرد عليهم، والإنكار لحكمهم على الله؛ فقال: بل يدخلها من أسلم وجهه لله وهو محسن.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾:

أ. قيل: أخلص دينه لله وعمله.

ب. وقيل: أسلم نفسه لله، وقد يجوز أن يذكر الوجه على إرادة الذات، كقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أي إلا هو.

ج. وقيل: أسلم، أي وجه أمره إلى دينه فأخلص، وبعضه قريب من بعض.. أسلم نفسه لله أي بالعبودية؛ كقوله: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، وذلك معنى الإسلام: أن تخلص نفسك لله، لا تجعل لأحد شركا من عبودة، ولا من عبادة.

٦. سؤال وإشكال: كيف عاتبهم الله تعالى بهذا القول: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، وقد أمر نبيه ﷺ في آية أخرى أن يقول لهم ذلك: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ﴾؟ [المائدة: ٦٨] والجواب: إنما أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: إنهم ليسوا على شيء إذا لم يقيموا التوراة، فأما إذا أقاموا التوراة ـ وفيها أمر لهم بالإسلام، واتباع الرسول محمد ﷺ ـ فهم على شيء.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾:

أ. قيل: معنى هذا الكلام أن قال لهم: كيف قلتم ذلك، وعندكم من الكتاب ما يبين لكم، ويميز الحق من الباطل، ويرفع من بينكم الاختلاف، لو تأملتم فيه وتدبرتم!؟

ب. ويحتمل: أن كل فريق منهم لما قال لفريق آخر ذلك: أنهم ليسوا على شيء، أكذبهم الله ـ تعالى ـ وردّ عليهم: بلى من أسلم منهم فهم على شيء؛ لأنه كان أسلم من أوائلهم.

ج. ويحتمل: أنهم ليسوا على شيء، على نفس دعاويهم، وقولهم في الله بما لا يليق، وهم على شيء، في تكذيب بعضهم بعضا بما قالوا.

د. وقيل: لما قالت اليهود: ليست النصارى على شيء من الدين؛ فما لك يا محمد اتبع ديننا؛ فإنهم ليسوا على شيء؛ وكذلك قول الفريق الآخر لأولئك.

٨. اختلف في (الإسلام):

أ. قيل: الإسلام هو الخضوع.

ب. وقيل: الإسلام هو الإخلاص بالأفعال، وهو أن يسلم نفسه لله، أو يسلم دينه، لا يشركه فيه.

٩. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾:

أ. قيل: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الذين لا كتاب لهم، وهم مشركو العرب.

ب. وقيل: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم الذين لا يقدرون على تلاوة القرآن والكتاب، وتمييز ما فيه، وهم جهالهم.

١٠. سوّى عزّ وجل بينهم في القول ـ من علم منهم ومن لم يعلم ـ لأن من علم منهم لم ينتفع بعلمه؛ فكان كالذي لم يعلم شيئا، كما في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨، ١٧١] سماهم بذلك؛ لما لم ينتفعوا بالآيات، والأسباب التي أعطاهم الله عزّ وجل.

١١. ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالعذاب؛ لاختلافهم فيما بينهم، وبقولهم في الله بما لا يليق، تعالى الله عما يقولون.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله: ﴿هُودًا﴾ يريد يهودا فحذف الياء المزادة ووحد كان، لان لفظة ﴿مَنْ﴾ قد تكون للواحد وتكون للجماعة والعرب تقول: من كان صاحباك.

٢. لا يجوز الوقف على قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ بل يجب صلته بقوله: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ الآية.

---

(١) تفسير الطوسي: ١/ ٤١٠.

٣. سؤال وإشكال: كيف جمع بين اليهود والنصارى في الحكاية مع افتراق مقالتهما في المعنى، وكيف يحكي عنهما ما ليس يقول لهما؟ والجواب: فعل ذلك للإيجاز والاختصار وتقديره: قالت اليهود: لن يدخل الجنة الا من كان يهوديا، وقالت النصارى، لن يدخل الجنة الا من كان نصرانيا، فادرج الخبر عنهما للإيجاز من غير إخلال، إذ شهرة حالهما تغني عن البيان، ومثله في الإدراج، والجمع من غير تفصيل قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ وإنما كانت الصورة اهبط لإبليس، ثم قيل اهبطا لآدم وحواء فحكاه على المعنى وتقدير الكلام: (وقال بعض اهل الكتاب: لن يدخل الجنة الا من كان هوداً، وقال بعضهم: لن يدخل الجنة الا من كان نصارى)، والبعض الثاني غير الاول الا انه لما كان اللفظ واحداً أجمع مع الاول، قال حسان بن ثابت:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

حقيقة عن بعضين متفرقين، ومثله (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ) يعني آدم، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، اي من النفس بمعنى الجنس فهو في اللفظ على مخرج الراجع الى النفس الاولى، وفي تحقيق المعنى لغيرها، وهذا قول اكثر المفسرين السدي وغيره.

٤. في معنى ﴿هُودًا﴾ ثلاثة اقوال:

أ. أحدها: انه جمع هائد وهود كحائل وحول وعائد وعود وعائط وعوط وهو جمع المذكر والمؤنث على لفظ الواحد، والهائد: التائب الراجع الى الحق.

ب. الثاني:ان يكون مصدرا يصلح للواحد والجمع، كما يقال: رجل فطر، وقوم فطر ونسوة فطر ورجل صوم وقوم صوم.

ج. الثالث: ان يكون معناه إلا من كان يهوديا الا ان الياء الزائدة حذفت، ورجع الى معنى الأصل من اليهود.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾:

أ. قيل: أباطيلهم ـ بلغة قريش ـ

ب. وقيل: اماني يتمنونها على الله كاذبة وبه قال الربيع.

ج. وقيل: معناه تلك أقاويلهم وتلاوتهم كما قال: لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ) اي تلاوة.

معنى ﴿هَاتُوا﴾ احضروا، وهو وإن كان على لفظ الامر المراد به الإنكار والتعبير، وتقديره ان آتيتم ببرهان صحت مقالتكم، ولن يأتوا به، لان كل مذهب باطل فلا برهان عليه.

٦. البرهان والحجة والدلالة والبيان بمعنى واحد، وهو ما أمكن الاستدلال به على ما هو دلالة عليه مع قصد فاعله الى ذلك، وفرق الرماني بين الدلالة والبرهان بأن قال: الدلالة قد تنبئ عن معنى فقط، لا تشهد بمعنى اخر، وقد تنبئ عن معنى يشهد بمعنى اخر، والبرهان ليس كذلك، لأنه بيان عن معنى ينبئ عن معنى اخر، وهذا الذي ذكره لا يسلم له لأنه محض الدعوى، وبه قال الحسن، ومجاهد والربيع والسدي.

٧. ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ اي حجتكم، وفي الآية دلالة على فساد التقليد لأنه لو جاز التقليد، لما ألزم القوم ان يأتوا فيما قالوه ببرهان، وقد يجوز في العربية أمانيهم بالتخفيف على ما ذكره الزجاج، والثقيل أجود.

٨. سؤال وإشكال: أليس بلى انما تكون في جواب الاستفهام مثل قوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾، فكيف دخلت هنا ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والجواب: إنما جاز ذلك لأنه يصلح ان يكون تقديره أما يدخل الجنة احد فقيل: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، لان ما تقدم يقتضي هذا السؤال، ويصلح ان يكون جواباً للجحد على التكذيب كقولك: ما قام زيد فيقول: بلى قد قام، ويكون التقدير ها هنا ليس الامر كما قال الزاعمون ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فهو الذي يدخلها وينعم فيها، أو بلى من أخلص نفسه لطاعة الله.

٩. معنى ﴿أَسْلَمَ﴾ يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: اسلم الى كذا بمعنى صرفه اليه كقولك أسلمت الثوب اليه.

ب. الثاني:اسلم له بمعنى أخلص له من قولك: قد سلم الشيء لفلان إذ أخلص له، ومنه قوله: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ اي خالصاً وقال زيد ابن عمرو بن نفيل:

وأسلمت نفسي لمن أسلمت له　　　تحمل عذباً زلالا

١٠. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾:

أ. قيل: إنما جاز ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ على معنى اسلم نفسه لله على مجرى كلام العرب في استعمال وجه الشيء، وهم يريدون نفس الشيء، إلا انهم ذكروه باللفظ الأشرف الأنبه ودلوا عليه به، كما قال عز وجل: (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) أي إلا هو، وقال: (كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ) وقال الأعشى:

أؤول الحكم على وجهه ليس قضائي بالهوى الجائر

يعني على ما هو من صحته، وصوابه، وقال ذو الرمة:

فطاوعت همي وانجلى وجه من الأمر لم يترك خلاجاً بزولها

يريد انجلى البازل من الامر.

ب. وقال ابن عباس: اسلم وجهه لله: أخلص عمله لله.

ج. وقال الربيع: أخلص لله.

د. وقال الحسن: يعني بوجهه: وجهه في الدين.

هـ. وقيل: معناه استسلم لأمر الله.

١١. الوجه: يقال: توجه توجهاً، وواجه مواجهة، وتواجهوا تواجهاً، والجهة: النحو، تقول: كذا على وجه كذا، والوجهة القبلة شبهها في كل وجهة: اي كل وجه استقبلته، وأخذت فيه، وتقول توجهوا اليك، ووجهوا اليك، كل يقال: غير أن قولك: توجهوا اليك على معنى ولوا اليك وجوههم، والتوجه الفعل اللازم، والوجأة والتجاه لغتان: وهو ما استقبل شيء شيئاً تقول دار فلان تجاه دار فلان، والمواجهة: استقبالك بكلام أو بوجه، وأصل الباب الوجه مستقبل كل شيء، ووجه الإنسان: محياه، ونقيض الوجه القفاء، ويقال: وجه الكلام، تشبيهاً بوجه الإنسان، لأنه أول ما يبدو منه، ويعرف به، وقد يقال في الجواب: هذا وجه وذلك خلف، تشبيهاً ايضاً من جهة الحسن، لان الغالب في الوجه انه احسن، ويقال: هذا وجه الرأي الذي يبدوا منه، ويعرف به.. والوجه من كل شيء: أول ما يبدو، فيظهر بظهور ما بعده.

١٢. قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في موضع نصب، لأنه في موضع الحال وإنما قال: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ على التوحيد، ثم قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على الجمع لان ﴿مِنَ﴾ لفظها لفظ الواحد، ومعناها الجمع، فمرة تحمل على اللفظ: وأخرى على المعنى كما قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وفي موضع اخر ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، وقال الفرزدق:

تعال فان عاهدتني لا تخونني   نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

فثنى واللفظ واحد لأجل المعنى.

١٣. سؤال وإشكال: إذا كان قد ذكر ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فلم قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والجواب: عن ذلك جوابان:

أ. أحدهما: الدلالة على انهم على يقين لا على رجاء يخاف معه ألا يكون الموعود به.

ب. الثاني:الفرق بين حالهم، وبين حال اهل العقاب الذي يخافون ويحزنون.

١٤. اختلف في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

أ. قال ابن عباس: انه لما قدم اهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود، فتنارعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن خويلد: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل، فقال رجل من من اهل نجران من النصارى: ما أنتم على شيء وجحد بنبوة موسى، وكفر بالتوراة فأنزل الله في ذلك الآية الى قوله: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

ب. وقال الربيع: هؤلاء اهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

١٥. معنى الآية احد شيئين:

أ. أحدهما: حل الشبهة بانه ليس في تلاوة الكتاب معتبر في الإنكار، لما لم يؤت على إنكاره، ببرهان فلا ينبغي ان تدخل الشبهة بإنكار اهل الكتاب لملة اهل الإسلام إذ كل فريق من اهل الكتاب قد أنكر ما عليه الآخر، ثم بين أن سبيلهم كسبيل من لا يعلم الكتاب في الإنكار لدين الإسلام من مشركي العرب، وغيرهم ممن الكتاب له فيهم، وجحدهم لذلك سواء إذ لا حجة معهم يلزم بها تصديقهم، لا من جهة سمع ولا عقل.

ب. الوجه الآخر ـ الذم لمن أنكر ذلك من اهل الكتاب على جهة العناد، إذ قد ساوى المعاند منهم للحق الجاهل به في الدفع له، فلم ينفعه علمه، بل حصل على مضرة الجهل كما حصل عليه من لا علم له به.

١٦. سؤال وإشكال: إذا كانت اليهود انها قالت: ليست النصارى على شيء في تدينها في التوراة فكيف قال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، وأهل الحق ايضاً يقولون مثل قولهم؟ والجواب: إن المعنى ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، اي فقد ساووا في ذلك من لا كتاب له، وكما لا حجة في جحد هؤلاء كذلك لا حجة في جحدهم، ولم يساووا أهل الحق فيه، لأنهم قالوه عن علم.

١٧. المعني بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾:

أ. في قول السدي ـ هم العرب الذين قالوا: ليس محمد ﷺ على شيء.

ب. وقال عطاء: هؤلاء الذين لا يعلمون امم كانت قبل اليهود والنصارى، وقبل التوراة والإنجيل.

١٨. ﴿الْقِيَامَةِ﴾ مصدر إلا انه صار كالعلم على وقت بعينه، وهو الوقت الذي بعث الله عز وجل فيه الخلق، فيقومون من قبورهم الى محشرهم، تقول: قام يقوم قياماً وقيامة: مثل عاد يعود عياداً وعيادة، وصانه صيانة، وعاده عيادة.

١٩. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

أ. قال الحسن: حكمه فيهم ان يكذبهم جميعاً ويدخلهم النار.

ب. وقال ابو علي: حكمه الانصاف من الظالم المكذب بغير حجة ولا برهان للمظلوم المكذب.

ج. وقال الزجاج: حكمه ان يريهم من يدخل الجنة عيانا، وهذا هو حكم الفصل في الآخرة فأما حكم العقل في الدنيا فالحجة التي دل الله بها على الحق من الباطل في الديانة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. في هود ثلاثة أقوال:

- أحدها: جمع هائد، يقال: هائد وهود، كعائذ وعُوذٍ، وهو جمع للمذكر والمؤنث، والهائد: التائب

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٥١.

الراجع إلى الحق.

• الثاني: أن يكون مصدرًا يصلح للواحد والجمع، كقولك: رجل صَوْمٌ وامرأة صوم، ورجل فِطْر وامرأة فطر، ورجل خَصْمٌ وامرأة خصم.

• الثالث: معناه من كان يَهُودًا إلا أن الياء الزائدة حذفت، ورجع إلى الفعل من اليهودية.

ب. الأماني: الأباطيل والأكاذيب، ويجوز التخفيف، والأجود التثقيل.

ج. الوجه: مستقبل كل شيء، والوُجَاهُ والتُّجَاهُ: ما استقبل شيء شيئًا، يقال: داره تجاه دار فلان، ووجه الإنسان محياه؛ لأنه يواجهك، ووجه الأمر ما يبدو فيظهر بظهوره ما بعده، ويطلق وجه الشيء، ويراد نفسه، يقال: هذا وجه الرأي، ووجه الصواب، ومنه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

د. الإسلام في اللغة: الاستسلام، وهو الانقياد، وفي الشرع الإيمان والإسلام واحد، يقال: رجل مسلم ومؤمن، وأسلم يستعمل في شيئين: أسلم إليه كذا: صرفه إليه، وأسلم له، أي أخلص من قولهم: مسلم له أي خالص.

هـ. التلاوة: القراءة.

و. القيامة: مصدر قام يقوم قيامًا وقيامة، إلا أنه صار كالعَلَمِ لوقت بعينه، وهو يوم يبعث الله فيه الخلق، فيقومون من قبورهم، وقيل: لأنهم يكونون قيامًا ثَمَّ.

٢. اختلف في سبب نزول الآيات الكريمة:

أ. قال ابن عباس: لما قدم وفد نجران وهم نصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة للنصارى: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة عيسى والإنجيل، وقال رجل من أهل نجران: ما أنتم على شيء، وجحدوا نبوة موسى، وكفروا بالتوراة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ب. وقال الربيع: هَؤُلَاءِ أهل الكتاب الَّذِينَ كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

ج. وقال أبو مسلم: اليهود والنصارى هم الَّذِينَ اختلفوا قديمًا قبل زمان نبينا وقبل مجيء عيسى، والَّذِينَ لا يعلمون: مَنْ تأخر من اليهود والنصارى إلى عهد رسول الله ﷺ.

٣. ثم حكى تعالى من أقوال اليهود وأباطيلهم فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ هذا جاء على الإيجاز، وتقديره: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت

النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا عن جماعة أهل التفسير.

٤. ﴿تِلْكَ﴾ أي المقالة التي تقدمت ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾:

أ. قيل: أماني يتمنونها على الله كاذبة، عن قتادة والربيع.

ب. وقيل: أمانيهم: أباطيلهم بلغة قريش، عن المُؤَرِّج.

ج. وقيل: تلك أقاويلهم، وتلاوتهم من قولهم: تمنى: تَلاَ، ومنه: (تَمَنَّى كِتَابَ الله أَوَّلَ لَيْلَهِ)

د. وقيل: تقديرهم وظَنُّهُمْ، من قولهم إذا رد على غيره: كذا يُظَنُّ، وكذا يُقَدَّرُ، أي ليس كذلك، عن أبي مسلم.

٥. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أحضروا، وليس بأمر، وإنما هو تعجيز، يعني إذا لم يمكنكم إتيان ببرهان فاعلموا أنه باطل فاسد.

٦. ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ يعني حجتكم، وجمعه: براهين، كقربان وقرابين، وسلطان وسلاطين ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى.

٧. ثم رد الله تعالى عليهم مقالتهم فقال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ﴾:

أ. قيل: أسلم نفسه لله، بأن سلك طريق مرضاته، عن ابن عباس والربيع ومقاتل.

ب. وقيل: ﴿وَجْهِهِ﴾ يعني: وجهه في الدين، عن الحسن.

ج. وقيل: وجهه لطاعته.

د. وقيل: أخلص.

هـ. وقيل: استسلم لأمر الله وخضع له وتواضع.

٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾:

أ. قيل: وهو مؤمن.

ب. وقيل: محسن في أعماله.

ج. وقيل: مخلص.

٩. ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ يعني: جزاء عمله، وإنما وحده مع قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لأن: ﴿مِنَ﴾ لفظها لفظ الواحد، ومعناه معنى الجمع، فمرة يحمل على اللفظ، ومرة على المعنى كقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ

يَسْتَمِعُ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ﴾، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

١٠. سؤال وإشكال: إذا قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ فما معنى: ﴿وَلَا خَوْفٌ﴾؟ والجواب: فيه قولان:

أ. أحدهما: أنه على يقين لا على رجاء يخاف معه إلا أن يكون الموعود به.

ب. الثاني: للفرق بين حالهم وحال أهل العقاب الَّذِينَ يخافون ويحزنون، عن أبي علي، كأنه ذكر ذلك تأكيدًا.

١١. لما ذكر تعالى أهل الكتاب وإنكارهم للإسلام بَيَّنَ ما بينهم من الاختلاف، مع تلاوة الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ يعني في تدينهم بالنصرانية ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ في تدينهم باليهودية ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ﴾ يقرأون ﴿الْكِتَابِ﴾ قيل: التوراة التي اتفقوا على العمل بها.

١٢. اختلف في سبب ذكر تلاوتهم الكتاب على ثلاثة أقوال:

أ. قيل: إزالة الشبهة بالتلاوة، وأنه لا معتبر في إنكار الحق بتلاوة الكتاب، إنما المعتبر بالحجة، فسبيل أهل الكتاب كسبيل مشركي العرب وغيرهم ممن لا كتاب له في أن جحدهم سواء.

ب. وقيل: لما أنكروا عنادًا، ساووا الجهال في دفع الحق.

ج. وقيل: لأنهم مع تلاوته لا يرجعون إليه، ولا يعملون بما فيه، وقد يتلونه ولا ينتفعون به دينًا ودنيا.

١٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾:

أ. قيل: يعني من لا يعلم الكتاب فقد استووا في جحد الحق بغير برهان، بخلاف قول المسلمين: إنهم ليسوا على شيء؛ لأن قولهم يستند إلى حجة.

ب. وقيل: إنكارهم نبوة موسى وعيسى، وقولهم فيهما كقول من لا يعلم في إنكار نبوة محمد ﷺ فهو ذم للجميع.

١٤. اختلفوا في الَّذِينَ لا يعلمون:

أ. قيل: هم العرب قالوا: ليس محمد على شيء، عن السدي ومقاتل.

ب. وقيل: قالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم، عن الربيع، ووجه ذلك، أي ساووكم يا معشر

اليهود في الإنكار، وهم عندكم لا يعلمون.

ج. وقيل: هم أمم قبل اليهود والنصارى كقوم نوح وعاد وثمود، قالوا لأنبيائهم: لستم على شيء، عن عطاء.

١٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾:

أ. قيل: يكذبهم جميعًا، ويدخلهم النار، عن الحسن.

ب. وقيل: حكمه انتصاف من الظالم المكذِّب، للمظلوم المكذَّب، عن أبي علي.

ج. وقيل: نريهم مَنْ يدخل الجنة عيانًا، ومن يدخل النار عيانًا.

د. وقيل: يحكم بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه من الدين.

١٦. تدل الآيات الكريمة على:

أ. أن من كان صدقًا في الديانات فعليه برهان، وما لا برهان عليه فليس بصدق؛ لأن كل شيء يجب اعتقاده فلا بد عليه من دليل.

ب. وجوب النظر؛ لأن البرهان يحتاج إليه النظر.

ج. صحة الحجاج في الدين.

د. فساد التقليد؛ لأنه لا برهان فيه.

هـ. أن الجنة لا تنال بالتمني، وإنما تنال باعتقاد الحق والعمل الصالح.

و. أن الجنة للمسلمين فقط دون الكفار.

ز. أنها تنال بالإيمان مع الإحسان في العمل، وقيل: إنه مشروط بترك الكبائر، وقيل: غير مشروط؛ لأن من ارتكب كبيرة فليس بمحسن، والأول الصحيح.

ح. أن أهل الجنة لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة، خلاف ما يقوله قوم.

ط. عظم ذنب من لا يعمل بكتاب الله مع تلاوته، وهذا سبيل علماء السوء من هذه الأمة، وبين أن حالهم كحال الجهال في أن كل واحد لا ينتفع بذلك.

ي. أن كل من قال قولاً بغير حجة فهو كالجاهل، وإن كان عالمًا.

ك. أنه تعالى يفصل يوم القيامة بين المحق والمبطل.

١٧. مسائل نحوية:

١٨. ﴿بَلَى﴾ تدخل في جواب الاستفهام كقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ فأما ههنا فدخلت على تقدير: أَمَا يدخل الجنة أحد؟ فقيل: بلى من أسلم؛ لأن ما تقدم يقتضي هذا السؤال، ويحتمل أن يكون جوابًا للحجة على التكذيب، كقولك: ما قام زيد، فيقول: بلى.

١٩. موضع: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ نصب على الحال كأنه قيل: محسنًا، والواو واو الحال.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. في هود ثلاثة أقوال:

• أحدها: إنه جمع هائد كعائذ وعوذ، وعائط وعوط، وهو جمع للمذكر والمؤنث على لفظ واحد، والهائد: التائب الراجع إلى الحق.

• ثانيها: أن يكون مصدرا يصلح للواحد والجمع، كما يقال: رجل فطر، وقوم فطر، ورجل صوم، وقوم صوم.

• ثالثها: أن يكون معناه إلا من كان يهودا، فحذفت الياء الزائدة.

ب. البرهان، والحجة، والدلالة، والبيان، بمعنى واحد: وهو ما أمكن الاستدلال به على ما هو دلالة عليه مع قصد فاعله إلى ذلك.. وفرق علي بن عيسى بين الدلالة والبرهان، بأن قال: الدلالة قد تنبئ عن معنى فقط لا يشهد بمعنى آخر، وقد تنبئ عن معنى يشهد بمعنى آخر، والبرهان ليس كذلك، لأنه بيان عن معنى ينبئ عن معنى آخر، وقد نوزع في هذا الفرق.. وقيل: إنه محض الدعوى.

ج. أسلم يستعمل في شيئين أحدهما: أسلمه إلى كذا أي: صرفه إليه، تقول: أسلمت الثوب إليه، والعاني: أسلم له: بمعنى أخلص له، ومنه قوله ورجلا سلما لرجل أي: خالصا، وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٥٦.

أسلمت وجهي لمن أسلمت | له الأرض تحمل صخرا ثقالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت | له المزن، تحمل عذبا زلالا

ويروى وأسلمت نفسي.

د. الوجه: مستقبل كل شيء، ووجه الانسان: محياه، ويقال: وجه الكلام تشبيها بوجه الانسان، لأنه أول ما يبدو منه، ويعرف به، ويقال: هذا وجه الرأي أي: الذي يبدو منه ويعرف به، والوجه من كل شيء: أول ما يبدو فيظهر بظهوره ما بعده، وقد استعملت العرب لفظة وجه الشيء، وهم يريدون نفسه، إلا أنهم ذكروه باللفظ الأشرف الأنبه، ودلوا عليه به، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا هو ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ربك، وقال الأعشى:

وأول الحكم على وجهه | ليس قضائي بالهوى الجائر

أي: على ما هو به من الصواب.

وقال ذو الرمة:

فطاوعت همي، وانجلى وجه | من الامر لم يترك خلاجا نزولها

يريد: وانجلى النازل من الأمر.

هـ. القيامة: مصدر، إلا أنه صار كالعلم على وقت بعينه، وهو الوقت الذي يبعث الله، عز وجل، فيه الخلق، فيقومون من قبورهم إلى محشرهم، تقول: قام يقوم قياما وقيامة مثل عاد يعود عيادا وعيادة.

٢. ثم حكى سبحانه نبذا من أقوال اليهود ودعاويهم الباطلة، فقال: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وهذا على الإيجاز، وتقديره: قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، ووحد كان لأن لفظة: ﴿مِنَ﴾ قد تكون للواحد، وقد تكون للجماعة، وإنما قلنا: إن الكلام مقدر هذا التقدير، لأن من المعلوم أن اليهود لا يشهدون للنصارى بالجنة، ولا النصارى لليهود، فعلمنا أنه أدرج الخبر عنهما للإيجار من غير إخلال بشيء من المعنى، فإن شهرة الحال تغني عن البيان الذي ذكرنا، ومثله قول حسان بن ثابت:

أمن يهجو رسول الله منكم | ويمدحه، وينصره سواء

تقديره: ومن يمدحه وينصره.

غير أنه لما كان اللفظ واحدا، جمع مع الأول، وصار كأنه إخبار عن جماعة واحدة، وإنما حقيقته عن بعضين متفرقين.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾:

أ. قيل: أي: تلك المقالة أماني كاذبة يتمنونها على الله، عن قتادة، والربيع.

ب. وقيل: أمانيهم أباطيلهم بلغة قريش، عن المؤرج.

ج. وقيل: معناه تلك أقاويلهم وتلاوتهم من قولهم تمنى أي: تلا.

وقد يجوز في العربية أمانيهم بالتخفيف، والتثقيل أجود.

٤. ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَاتُوا﴾ أي: أحضروا وليس بأمر، بل هو تعجيز وإنكار بمعنى إذا لم يمكنكم الإتيان ببرهان يصحح مقالتكم، فاعلموا أنه باطل فاسد: ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم، عن الحسن ومجاهد والسدي: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى.

٥. في الآية دلالة على فساد التقليد، ألا ترى أنه لو جاز التقليد لما أمروا بأن يأتوا فيما قالوه ببرهان؟ وفيها أيضا دلالة على جواز المحاجة في الدين.

٦. ثم رد الله سبحانه عليهم مقالتهم، فقال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾:

أ. قيل: معناه من أخلص نفسه لله، بأن سلك طريق مرضاته، عن ابن عباس.

ب. وقيل: وجه وجهه لطاعة الله.

ج. وقيل: فوض أمره إلى الله.

د. وقيل: استسلم لأمر الله، وخضع وتواضع لله، لأن أصل الاسلام الخضوع والانقياد، وإنما خص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه في السجود، لم يبخل بسائر جوارحه.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾:

أ. قيل: في عمله.

ب. وقيل: وهو مؤمن.

ج. وقيل: مخلص.

٨. ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ معناه: فله جزاء عمله عند الله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة، وهذا ظاهر على قول من يقول إنه لا يكون على أهل الجنة خوف في الآخرة، وأما على قول من قال إن بعضهم يخاف، ثم يأمن، فمعناه أنهم لا يخافون فوت جزاء أعمالهم، لأنهم يكونون على ثقة بأن ذلك لا يفوتهم.

٩. ثم بين سبحانه ما بين أهل الكتاب من الاختلاف مع تلاوة الكتاب، فقال: وقالت اليهود ليست النصارى على شيء) في تدينهم بالنصرانية ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ في تدينهم باليهودية.

١٠. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: يقرؤونه، وذكر فيه وجهان:

أ. أحدهما: إن فيه حل الشبهة بأنه ليس في تلاوة الكتاب معتبر في الانكار لما لم يؤت على إنكاره ببرهان، فلا ينبغي أن يدخل الشبهة بإنكار أهل الكتاب لملة الاسلام، إذ كل فريق من أهل الكتاب، قد أنكر ما عليه الآخر، ثم بين أن سبيلهم كسبيل من لا يعلم الكتاب من مشركي العرب وغيرهم ممن لا كتاب لهم في الانكار لدين الاسلام.

ب. والوجه الآخر: الذم لمن أنكر ذلك من أهل الكتاب على جهة العناد، إذ قد ساوى المعاند منهم للحي الجاهل به في الدفع له، فلم ينفعه علمه.

١١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾:

أ. قيل: معناه: إن مشركي العرب الذين هم جهال، وليس لهم كتاب، هكذا قالوا لمحمد وأصحابه إنهم ليسوا على شيء من الدين، مثل ما قالت اليهود والنصارى بعضهم لبعض، عن السدي، ومقاتل.

ب. وقيل: معناه إن مشركي العرب قالوا بأن جميع الأنبياء وأممهم لم يكونوا على شيء، وكانوا على خطأ، فقد ساووكم يا معشر اليهود في الانكار، وهم لا يعلمون.

ج. وقيل: إن هؤلاء الذين لا يعلمون أمم كانت قبل اليهود والنصارى، وقبل التوراة والإنجيل، كقوم نوح وعاد وثمود، قالوا لأنبيائهم: لستم على شيء، عن عطاء.

د. وقيل: إن الأصح أن المراد بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أسلاف اليهود، والمراد بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ هؤلاء الذين كانوا على عهد النبي ﷺ، لأنه

حكي قول مبطل لمبطل، فلا يجوز أن يعطف عليه قول مبطل لمحق.

١٢. في قوله تعالى: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وجوه:

أ. أحدها: إن حكمه بينهم أن يكذبهم جميعا، ويدخلهم النار، عن الحسن.

ب. ثانيها: إن حكمه فيهم الانتصاف من الظالم المكذب بغير حجة ولا برهان للمظلوم المكذب، عن أبي علي.

ج. ثالثها: إن حكمه أن يريهم من يدخل الجنة عيانا، ومن يدخل النار عيانا، وهذا هو الحكم الفصل في الآخرة بما يصير إليه كل فرقة، فأما الحكم بينهم في العقد، فقد بينه الله، جل وعز، فيما أظهر من حجج المسلمين، وفي عجز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، عن الزجاج.

١٣. مسائل نحوية:

أ. ﴿قَالُوا﴾: جملة فعلية، و﴿الْجَنَّةَ﴾ ظرف مكان ليدخل، و﴿إِلَّا﴾ ها هنا: لنقض النفي.

ب. ﴿مَنْ﴾ موصول، وهو مع صلته مرفوع الموضع بأنه فاعل: ﴿يُدْخِلُ﴾

ج. ﴿لَنْ يَدْخُلَ﴾ مع ما بعده معمول: ﴿قَالُوا﴾، وإن حرف شرط، وجوابه محذوف، وتقديره إن كنتم صادقين، فهاتوا برهانكم.

د. ﴿بَلَى﴾ يدخل في جواب الاستفهام مثل قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾، ويصلح أن يكون تقديره هنا أما يدخل الجنة أحد، فقيل: بلى من أسلم وجهه لله، لأن ما تقدم يقتضي هذا السؤال، ويصلح أن يكون جوابا للجحد على التكذيب، كقولك: ما قام زيد، فيقول: بلى قد قام، ويكون التقدير هنا ليس الأمر كما قال الزاعمون لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، أو نصارى، ولكن من أسلم وجهه لله، وهو محسن، فهو يدخلها.

هـ. ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾: يجوز أن يكون: ﴿مَنْ﴾ موصولا، ويجوز أن يكون للشرط، فيكون: ﴿أَسْلَمَ﴾ إما صلة له، وإما مجزوم الموضع بكونه شرطا، أو يكون: ﴿مَنْ﴾ مبتدأ، والفاء في قوله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ للجزاء.

و. اللام تتعلق بمحذوف في محل الرفع، لأنه خبر لقوله: ﴿أَجْرُهُ﴾.. والمبتدأ مع خبره في محل الرفع، لوقوعه بعد الفاء.. والفاء مع ما دخل فيه، في محل الجزم.

ز. معنى حرف الشرط الذي تضمنه: ﴿منَ﴾ مع الشرط والجزاء في محل الرفع بأنه خبر المبتدأ، وإن كان: ﴿مِنَ﴾ موصولا، فمن مع أسلم مبتدأ.. والفاء مع الجملة بعده خبره.

ح. ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ظرف مكان في موضع النصب على الحال، تقديره كائنا عند ربه، والعامل فيه المحذوف الذي تعلق به اللام، وذو الحال الضمير المستكن فيه.

ط. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: في موضع نصب على الحال، وإنما قال: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ على التوحيد، ثم قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لأن من مفرد اللفظ مجموع المعنى، فيحمل على اللفظ مرة، وعلى المعنى أخرى.

ي. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ﴾: جملة من مبتدأ وخبر، منصوبة الموضع على الحال، والعامل: ﴿قَالَتْ﴾ وذو الحال اليهود والنصارى.

ك. الكاف في: ﴿كَذَلِكَ﴾ يتعلق بيتلون، أو بقال الذين، وتقديره وهم يتلون الكتاب كتلاوتكم، أو قال الذين لا يعلمون، وهم المشركون، كقول اليهود والنصارى، ومثل صفة مصدر محذوف تقديره: قولا مثل قولهم.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. اختصم يهود المدينة ونصارى نجران عند النبيّ ﷺ، فقالت اليهود: ليست النّصارى على شيء، ولا يدخل الجنّة إلّا من كان يهوديا، وكفروا بالإنجيل وعيسى، وقالت النّصارى: ليست اليهود على شيء، وكفروا بالتوراة وموسى، فقال الله تعالى ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾

٢. الكلام في هذه الآية مجمل ومعناه: قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنّة إلّا من كان نصرانيّا.

٣. الهود، جمع: هائد، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، أي: ذاك شيء يتمنّونه، وظنّ يظنّونه، هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، أي: حجّتكم إن كنتم صادقين بأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى.

---

(١) زاد المسير: ١/ ١٠٢.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذا هو النوع الرابع من تخليط اليهود وإلقاء الشبه في قلوب المسلمين، واليهود لا تقول في النصارى: إنها تدخل الجنة، ولا النصارى في اليهود، فلا بد من تفصيل في الكلام، فكأنه قال: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، ولا يصح في الكلام سواه، مع علمنا بأن كل واحد من الفريقين يكفر الآخر، ونظيره: ﴿قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى} [البقرة: ١٣٥]

٢. سؤال وإشكال: كيف قيل: كان هودا، على توحيد الاسم، وجمع الخبر؟ والجواب: حمل الاسم على لفظ ﴿مِنَ﴾ والخبر على معناه كقراءة الحسن: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣] وقرأ أبي بن كعب: إلا من كان يهوديا أو نصرانيا.

٣. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ المراد أن ذلك متمنياتهم، ثم أنهم لشدة تمنيهم لذلك قدروه حقا في نفسه.

٤. سؤال وإشكال: لم قال ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ أمنية واحدة؟ والجواب: أشير بها إلى الأماني المذكورة، وهي أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأمنيتهم أن يردوهم كفارا، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم، أي: تلك الأماني الباطلة أمانيهم.

٥. قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ متصل بقوله: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ و﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ اعتراض.

٦. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هات: صوت بمنزلة هاء في معنى أحضر.. ودلت الآية على أن المدعي سواء ادعى نفيا، أو إثباتا، فلا بد له من الدليل والبرهان، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد قال الشاعر:

من ادعى شيئا بلا شاهد   لا بد أن تبطل دعواه

٧. في قوله تعالى: ﴿بَلَى﴾ وجوه:

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٤/ ٦.

أ. الأول: أنه إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

ب. الثاني: أنه تعالى لما نفي أن يكون لهم برهان أثبت أن لمن أسلم وجهه لله برهانا.

ج. الثالث: كأنه قيل لهم: أنتم على ما أنتم عليه لا تفوزون بالجنة، بلى إن غيرتم طريقتكم وأسلمتم وجهكم لله وأحسنتم فلكم الجنة، فيكون ذلك ترغيبا لهم في الإسلام، وبيانا لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة لكي يقلعوا عما هم عليه ويعدلوا إلى هذه الطريقة.

٨. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ هو إسلام النفس لطاعة الله، وإنما خص الوجه بالذكر لوجوه:

أ. أحدها: لأنه أشرف الأعضاء من حيث أنه معدن الحواس والفكر والتخيل، فإذا تواضع الأشرف كان غيره أولى.

ب. ثانيها: أن الوجه قد يكنى به عن النفس، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، [القصص: ٨٨] ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠]

ج. ثالثها: أن أعظم العبادات السجدة وهي إنما تحصل بالوجه فلا جرم خص الوجه بالذكر، ولهذا قال زيد بن عمرو بن نفيل.

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا

فيكون المرء واهبا نفسه لهذا الأمر باذلالها، وذكر الوجه وأراد به نفس الشيء، وذلك لا يكون إلا بالانقياد والخضوع وإذلال النفس في طاعته وتجنب معاصيه.

٩. معنى ﴿لِلَّهِ﴾ أي: خالصا لله لا يشوبه شرك، فلا يكون عابدا مع الله غيره، أو معلقا رجاءه بغيره، وفي ذلك دلالة على أن المرء لا ينتفع بعمله إلا إذا فعله على وجه العبادة في الإخلاص والقربة.

١٠. ﴿وَهُوَمُحْسِنٌ﴾ أي: لا بد وأن يكون تواضعه لله بفعل حسن لا بفعل قبيح، فإن الهند يتواضعون لله لكن بأفعال قبيحة، موضع قوله: ﴿وَهُوَمُحْسِنٌ﴾ موضع حال كقولك: جاء فلان وهو راكب، أي جاء فلان راكبا.

١١. ثم بيّن أن من جمع بين هذين فله أجره عند ربه، يعني به الثواب العظيم، ثم مع هذا النعيم لا يلحقه خوف ولا حزن، فأما الخوف فلا يكون إلا من المستقبل، وأما الحزن فقد يكون من الواقع والماضي

كما قد يكون من المستقبل فنبه تعالى بالأمرين على نهاية السعادة لأن النعيم العظيم إذا دام وكثر وخلص من الخوف والحزن فلا يحزن على أمر فاته ولا على أمر يناله ولا يخاف انقطاع ما هو فيه وتغيره فقد بلغ النهاية وفي ذلك ترغيب في هذه الطريقة وتحذير من خلافها الذي هو طريقة الكفار المذكورين من قبل.

١٢. وحد الله تعالى أولا ثم جمع، ومثله قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [النجم: ٢٦] ثم قال ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥] وقال في موضع آخر: ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] [الإسراء: ٤٧] وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [محمد: ١٦] ولم يقل: خرج.

١٣. لما جمعهم الله تعالى في الخبر الأول فصلهم في هذه الآية، وبين قول كل فريق منهم في الآخر، وكيف ينكر كل طائفة دين الأخرى، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

١٤. ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ أي على شيء يصح ويعتد به وهذه مبالغة عظيمة وهو كقولهم: أقل من لا شيء، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ﴾ [المائدة: ٦٨]

١٥. سؤال وإشكال: كيف قالوا ذلك مع أن الفريقين كانا يثبتان الصانع وصفاته سبحانه وتعالى، وذلك قول فيه فائدة؟ والجواب: من وجهين:

أ. الأول: أنهم لما ضموا إلى ذلك القول الحسن قولا باطلا يحبط ثواب الأول، فكأنهم ما أتوا بذلك الحق.

ب. الثاني: أن يخص هذا العام بالأمور التي اختلفوا فيه، وهي ما يتصل بباب النبوات.

١٦. روي أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل، وقالت النصارى لهم: نحوه وكفروا بموسى عليه السلام والتوراة.

١٧. اختلفوا فيمن هم الذين عناهم الله تعالى أهم الذين كانوا من بعثة عيسى عليه السلام أو في

زمن محمد ﷺ، والظاهر الحق أنه لا دليل في الظاهر عليه، وإن كان الأولى أن يحمل على كل اليهود وكل النصارى بعد بعثة عيسى عليه السلام، ولا يجب لما نقل في سبب الآية أن يهوديا خاطب النصارى بذلك فأنزل الله هذه الآية أن لا يراد بالآية سواه، إذا أمكن حمله على ظاهره وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ يفيد العموم فما الوجه في حمله على التخصيص ومعلوم من طريقة اليهود والنصارى أنهم منذ كانوا فهذا قول كل فريق منهما في الآخر.

١٨. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الواو وللحال، والكتاب للجنس، أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلوم والتلاوة للكتب، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل أو غيرهما من كتب الله وآمن به أن لا يكفر بالباقي لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني شاهد لصحته، فإن التوراة مصدقة بعيسى عليه السلام، والإنجيل مصدق بموسى عليه السلام.

١٩. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقتضي أن من تقدم ذكره يجب أن يكون عالما لكي يصح هذا الفرق، فبين تعالى أنهم مع المعرفة والتلاوة إذا كانوا يختلفون هذا الاختلاف فكيف حال من لا يعلم.

٢٠. هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد ﷺ فإن كل طائفة تكفر الأخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن.

٢١. اختلفوا فيمن هم الذين لا يعلمون على وجوه:

أ. أولها: أنهم كفار العرب الذين قالوا: إن المسلمين ليسوا على شيء، فبين تعالى أنه إذا كان قول اليهود والنصارى وهم يقرؤون الكتب لا ينبغي أن يقبل ويلتفت إليه فقول كفار العرب أولى أن لا يلتفت إليه.

ب. ثانيها: أنه إذا حملنا قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ على الذين كانوا حاضرين في زمان محمد ﷺ، حملنا قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على المعاندين وعكسه أيضا محتمل.

ج. ثالثها: أن يحمل قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ على علمائهم ويحمل قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على عوامهم فصلا بين خواصهم وعوامهم.

و الأول أقرب: لأن كل اليهود والنصارى دخلوا في الآية فمن ميز عنهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يجب أن يكون غيرهم.

٢٢. في قوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أربعة أوجه:

أ. أحدها: قال الحسن: يكذبهم جميعا ويدخلهم النار.

ب. ثانيها: حكم الانتصاف من الظالم المكذب للمظلوم المكذب.

ج. ثالثها: يريهم من يدخل الجنة عيانا ومن يدخل النار عيانا، وهو قول الزجاج.

د. رابعها: يحكم بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ المعنى: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا.

٢. أجاز الفراء أن يكون ﴿هُودًا﴾ بمعنى يهوديا، حذف منه الزائد، وأن يكون جمع هائد، وقال الأخفش سعيد: ﴿إِلَّا مَنْ كَانَ﴾ جعل (كان) واحدا على لفظ (من)، ثم قال هودا فجمع، لان معنى (من) جمع.

٣. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أصل ﴿هَاتُوا﴾ هاتيوا، حذفت الضمة لثقلها ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، يقال في الواحد المذكر: هات، مثل رام، وفي المؤنث: هاتي، مثل رامي.

٤. البرهان: الدليل الذي يوقع اليقين، وجمعه براهين، مثل قربان وقرابين، وسلطان وسلاطين، قال الطبري: طلب الدليل هنا يقضي إثبات النظر ويرد على من ينفيه.

٥. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني في إيمانكم أو في قولكم تدخلون الجنة، أي بينوا ما قلتم ببرهان.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿بَلَى﴾:

أ. قيل: ردا عليهم وتكذيبا لهم، أي ليس كما تقولون.

ب. وقيل: إن ﴿بَلَى﴾ محمولة على المعنى، كأنه قيل أما يدخل الجنة أحد؟ فقيل: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٧٥.

وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾

٧. معنى ﴿أَسْلَمَ﴾ استسلم وخضع، وقيل: أخلص عمله، وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع الحواس، وفية يظهر العز والذل، والعرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء، ويصح أن يكون الوجه في هذه الآية المقصد.

٨. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جملة في موضع الحال، وعاد الضمير في ﴿وَجْهِهِ﴾ و﴿لِلَّهِ﴾ على لفظ ﴿مِنَ﴾ وكذلك ﴿أَجْرَهُ﴾ وعاد في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المعنى، وكذلك في ﴿يَحْزَنُونَ﴾

٩. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ معناه ادعى كل فريق منهم أن صاحبه ليس على شي، وأنه أحق برحمة الله منه.

١٠. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة والإنجيل، والجملة في موضع الحال، والمراد بـ ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في قول الجمهور: كفار العرب، لأنهم لا كتاب لهم، وقال عطاء: المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى، الربيع بن أنس: المعنى كذلك قالت اليهود قبل النصارى، ابن عباس: قدم أهل نجران على النبي ﷺ فأتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند النبي ﷺ، وقالت كل فرقة منهم للأخرى لستم على شيء، فنزلت الآية.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. قوله: ﴿هُودًا﴾ قال الفراء: يجوز أن يكون هودا بمعنى: يهوديا، وأن يكون جمع هائد، وقال الأخفش: إن الضمير المفرد في كان هو باعتبار لفظ من، والجمع في قوله: ﴿هُودًا﴾ باعتبار معنى من.

٢. قيل: في هذا الكلام حذف، وأصله: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلّا من كان نصرانيا، هكذا قال كثير من المفسرين، وسبقهم إلى ذلك بعض السلف، وظاهر النظم القرآني أن طائفتي اليهود والنصارى وقع منهم هذا القول، وأنهم يختصون بذلك

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/ ١٥٢.

دون غيرهم؛ ووجه القول: بأن في الكلام حذفا، ما هو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلّل الأخرى، وتنفي عنها أنها على شيء من الدين، فضلا عن دخول الجنة، كما في هذا الموضع، فإنه قد حكى الله عن اليهود أنها قالت: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء.

٣. الإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾، إلى ما تقدّم لهم من الأماني، التي آخرها أنه لا يدخل الجنة غيرهم، وقيل: إن الإشارة إلى هذه الأمنية الآخرة، والتقدير: أمثال تلك الأمنية أمانيهم، على حذف المضاف ليطابق أمانيهم، قوله:

٤. ﴿هَاتُوا﴾ أصله: هاتيوا، حذفت الضمة لثقلها، ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين، ويقال للمفرد المذكر: هات، وللمؤنث: هاتي، وهو صوت بمعنى أحضر.

٥. البرهان: الدليل الذي يحصل عنده اليقين، قال ابن جرير: طلب الدليل هنا يقتضي إثبات النظر، ويردّ على من ينفيه، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في تلك الأمانيّ المجردة والدعاوى الباطلة.

٦. ثم ردّ عليهم فقال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ﴾ وهو إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة، أي: ليس كما يقولون، بل يدخلها من أسلم وجهه لله، ومعنى أسلم: استسلم؛ وقيل: أخلص.

٧. خصّ الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع الحواس الظاهرة، وفيه يظهر العزّ والذل، وقيل: إن العرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء، وأن المعنى هنا: الوجه وغيره؛ وقيل: المراد بالوجه هنا: المقصد، أي: من أخلص مقصده.

٨. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في محل نصب على الحال، والضمير في قوله: ﴿وَجْهِهِ﴾ و﴿فَلَهُ﴾ باعتبار لفظ من، وفي قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ باعتبار معناها.

٩. ﴿مَنْ﴾ إن كانت الموصولة فهي فاعل لفعل محذوف، أي: بلى يدخلها من أسلم، وقوله: ﴿فَلَهُ﴾ معطوف على ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ وإن كانت من شرطية، فقوله: ﴿فَلَهُ﴾ هو الجزاء، ومجموع الشرط والجزاء ردّ على أهل الكتاب وإبطال لتلك الدعوى.

١٠. قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ وما بعده، فيه أن كل طائفة تنفي الخير عن الأخرى، ويتضمن ذلك إثباته لنفسها، تحجرا لرحمة الله سبحانه.

١١. قال في الكشاف: إن الشيء هو الذي يصح ويعتدّ به، قال وهذه مبالغة عظيمة، لأن المحال

والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء، وإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده، وهكذا قولهم: أقلّ من لا شيء.

١٢. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة والإنجيل، والجملة حالية؛ وقيل: المراد جنس الكتاب، وفي هذا أعظم توبيخ وأشدّ تقريع، لأن الوقوع في الدعاوي الباطلة، والتكلم بما ليس عليه برهان، وهو وإن كان قبيحا على الإطلاق، لكنه من أهل العلم والدراسة لكتب الله أشدّ قبحا، وأفظع جرما، وأعظم ذنبا.

١٣. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المراد بهم: كفار العرب الذين لا كتاب لهم، قالوا: مثل مقالة اليهود، اقتداء بهم، لأنهم جهلة، لا يقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم، وقيل: المراد بهم: طائفة من اليهود والنصارى، وهم الذين لا علم عندهم.

١٤. ثم أخبرنا سبحانه، بأنه المتولي لفصل هذه الخصومة التي وقع فيها الخلاف عند الرجوع إليه، فيعذب من يستحق التعذيب، وينجي من يستحق النجاة.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَقَالُواْ﴾ متعلّق بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾، والواو لأهل الكتاب لا لـ (كَثِير) في قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الآية: ١٠٩]، أو لليهود والنصارى ولو لم يتقدَّم ذكر النصارى لدلالة ما بعده عليهم، أو على الاستخدام؛ لأنَّ الكثير المذكور أريد به أحبار اليهود خاصَّة، إلَّا أنَّه لا مانع من أن يراد به النصارى، ﴿لَن يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا اَوْ نَصَارَى﴾ أي: قالت اليهود: لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، وقالت النصارى: لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَصَارَى، وروعي فيمن كان هودًا أو نصارى معنى (مَنْ)، إذْ هُما جمع هائد، أي: تائب من عبادة العجل، أو منتسب لليهود، وقد قيل: (هودا) مخفَّف من (يهود) بحذف الياء؛ ونصرانيٌّ أو نصرانٌ أو نصريٌّ.

٢. قَدِمَ نصارى نجران إليه ﷺ، وناظرهم أحبار اليهود، وارتفعت أصواتهم، قالت اليهود للنصارى: ما أنتم على شيء، وكفروا بعيسى والإنجيل، والجنَّة لنا دونكم، وقالت النصارى لليهود: ما

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/١٩٦.

أنتم على شيء، وكفروا بموسى والتوراة، والجنَّة لنا دونكم، فنزلت الآية.

٣. جمعهم بالواو في (قَالُوا) لأنَّ السامع يميِّز ما قال كلٌّ بما بعده؛ لأنَّ اليهود لا تقول: لن يدخل الجنَّة إلَّا من كان نصارى، والنصارى لا تقول: لن يدخل الجنَّة إلَّا من كان هودًا، ولا يقول اليهود ولا النصارى: لن يدخل الجنَّة إلَّا اليهود والنصارى؛ لأنَّه ينافيه سببُ النزول وقولُه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى﴾ الآية، و(أو) بمعنى الواو، أو للتفصيل كما قال: ﴿وَقَالُواْ كُونُوا هُودًا اَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، ﴿تِلْكَ﴾ القولة التي هي قولهم: ﴿لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ الآية.

٤. ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ شهواتهم الباطلة التي يتمنَّونها، أي: يقدِّرونها ويقطعون بها، زأمانيُّ جمع أمنيَّة، وأصل هذا المفرد: أُمنُويَة، بوزن أضحوكة، قُلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء، وقلبت ضمَّة النون كسرة، وهذا الوزن للمبالغة وهو بمعنى الأكاذيب حقيقة، وبمعنى ما يُتمنَّى مجاز.

٥. ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُم﴾ حجَّتكم عليها، والأصل: (هاتيوا)، ثقلت الضمَّة على الياء فنقلت للتاء، وحُذفت الياء للساكن، والماضي: (هاتَى)، والمضارع: (يهاتي)، لكن لا يتصرَّف، ولكنَّ الأصل ذلك؛ وقيل: يتصرَّف، وقيل: الهاء عن الهمزة، وقيل: للتنبيه والهمزة حذفت، أو اسم فعل، وزعم بعض أنَّه اسم صوت، ويردُّه اتِّصال الضمير به، والبرهان من (البره) وهو القطع، والحجَّة تقطع الخصم، والنون زائد، أو من البرهنة بمعنى البيان، فالنون أصلٌ، كذا قيل، ويحتاج إلى ثباته في كلام العرب، وإلَّا فلعلَّ لفظ البرهنة تصرَّف من غير العرب.

٦. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيها، وإنَّما قال: ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ بالجمع مع أنَّ القولة أمنية واحدة لأنَّها قالتها اليهود وقالتها النصارى، فاستعملوا الجمع في اثنتين، أو لأنَّها تعدَّد قولها في اليهود، وغالبهم يقولها، وأيضًا يردِّدها في نفسه، وتعدَّد قولها في النصارى وغالبهم يقولها وأيضًا يردِّدها في نفسه، ولأنَّ لليهود أمنية أن يدخلوها، وأمنية أن لا يدخلها غيرهم؛ وللنصارى أمنية أن يدخلوها وأمنية أن لا يدخلها غيرهم، فهؤلاء أربعة أمانيٍّ، أو عدَّ الأمنية الواحدة أمانيَّ لشدَّتها، أو الإشارة إلى تلك القولة وإلى تمنِّيهم أن لا ينزل على المؤمنين خير، وتمنِّيهم أن يردُّوهم كفَّارًا، وقولهم: لن تمسَّنا النار إلَّا أيَّامًا.

٧. ﴿بَلَى﴾ إثبات لِمَا نَفَوه من دخول غيرهم الجنَّة ولو كانوا أيضًا لا يدخلونها، فالمعنى: لا يدخلونها وغيرهم يدخلها، وقد تقع في غير النفي والاستفهام.

٨. ﴿مَنَ اَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ أخضعه ﴿لله﴾ وخصَّ الوجه لأنَّه أعظم، إذ فيه أكثر الحواسِّ بل كلُّها، وشاركه غيره في الحسِّ، ولأنَّه موضع السجود الذي العبد فيه أقرب ما يكون من ربِّه، فغيره أولى بأن يكون قد أسلم لله، أو الوجه بمعنى الذات كلِّها، إذ هو جُزْؤُها الأعظم، أو بمعنى قَصْدَه.

٩. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ موحِّد عامل متَّق، ولو لم يبلغ إلى قوله ﷺ: (الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه)، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ ثوابه على عمله وتقواه وتوحيده وهو الجنَّة، ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ عنديَّة علمٍ وعهدٍ وتشريفٍ.

١٠. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة، لا خوف إلَّا خوف يحدث لعظم الهول ويزول، ويعقبه الأمن الدائم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيها على فوت التوحيد والعمل والتقوى؛ لأنَّ ذلك لم يفتهم، وإنَّما يحزن من فاته أو بعضه، وَأَمَّا في الدنيا فالمؤمن أشدُّ حزنًا في أمر دينه.

١١. فصل قوله: ﴿وَقَالُواْ لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ أحبارهم في المدينة، أو نافع بن حرملة، ونُسب للجميع لأنَّه منهم راضون بقوله، أو مطلقًا ذكر الله اعتقاد من اعتقد ذلك ولفْظ من لفظ وهم القليل.

١٢. ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ معتدٍّ به من الدين، كفروا بالإنجيل وعيسى، وأثبتوا الحقَّ لأنفسهم، ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾ كلُّهم إلَّا قليلاً أو واحدًا منهم كما مرَّ، أو من وفَد من نصارى نجران على رسول الله ﷺ، ذكر الله اعتقادَ مَن اعتقدَ ذلك، ولفْظَ مَن لَفَظَ، وهم القليل.

١٣. ﴿لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ معتدٍّ به من الدين، كفروا بموسى والتوراة وأثبتوا الحقَّ لأنفسهم، ونفي الشيء في الموضعين كناية عن عدم الاعتناء به، وهي أبلغ من التصريح.

١٤. ﴿وَهُمْ﴾ أي: الفريقان ﴿يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب، تتلو اليهودُ التوراةَ، وتجد فيه تصديق عيسى والإنجيل، وتتلو النصارى الإنجيلَ وتجد فيه تصديق موسى والتوراة، أو تتلو اليهودُ التوراةَ والإنجيلَ، يجدون فيهما تصديق الكلِّ، وكذا النصارى، وقيل: المراد التوراة.

١٥. ﴿كَذَالِكَ﴾ كقول اليهود للنصارى، والنصارى لليهود ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم مشركو العرب وغيرهم، كأمم قبل اليهود والنصارى.

١٦. ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ قالوا لكلِّ ذي دين: ليسوا على شيء يعتدُّ به، وفي ذلك تشبيهان، تشبيه المقول بالمقول في المؤدَّى، وتشبيه القول بالقول في الصدور عن مجرَّد الهوى، ولو زاد اليهود بالتعصُّب، فليس في

الآية تكرير بل فيها مزيد التوبيخ، بل شبَّه من في يده علم التوراة والإنجيل بمن لا علم له من عبدة الأصنام كقريش ومن ينكر الله، والمراد بالتشبيه: التنظير، وهو من التشبيه المقلوب، إذ شبِّهوا بالجاهلين.

١٧. و(كَذَلِكَ) مفعول لـ (قَالَ)، أي: مثل قول اليهود والنصارى قال الذين لا يعلمون، و(مِثْلَ) مفعول به لـ (يَعْلَمُونَ)، بمعنى يعتقدون، أو مفعول به لـ (قَالَ) أو مفعول مطلق له، وكذا مفعول به له، أو مثل توكيد لـ (كَذَلِكَ) لا بدل، لاتّحاد مفهومها، بخلاف جاء زيد أخوك، فإنَّ الأخوَّة ليست مفهومة لزيد.

١٨. ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين، أو بينهما وبين الذين لا يعلمون، والمراد: الفريقان بالذات؛ لأنَّ الكلام فيهما، والذين لا يعلمون بالتبع.

١٩. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيدخل الجنَّة من عمل بالناسخ وترك ما نُسخ فقط من الكتاب الآخر، ويدخل النار من عمل بالمنسوخ وكفر بالناسخ، وذلك إشراك، ومن أشرك بعبادة الصنم أو بإنكار الله، وأيضًا المشركون أسفل النار، واليهود في لظى، والنصارى في الحطمة، وذلك من الحُكْم المذكور، فالحكم بينهم أن يقسم لكلّ فريق ما يليق به من العذاب.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالُوا﴾ أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ نشر لما لفّته الواو في ﴿وَقَالُوا﴾، واليهود جمع هائد، كعوذ جمع عائذ، وقرئ (إلا من كان يهوديا أو نصرانيا)، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ جملة معترضة مبينة لبطلان ما قالوا، والأمانيّ جمع أمنية وهي ما يتمنى، كالأعجوبة والأضحوكة.

٢. سؤال وإشكال: قوله ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ أمنية واحدة، فلم قال أمانيهم؟ والجواب: أن الجمع باعتبار صدوره عن الجميع، وأجاب صاحب الانتصاف بأنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ومعاودتهم لها وتأكدها في نفوسهم، جمعت، ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم، بالغة منهم كل مبلغ، والجمع يفيد ذلك، وإن كان مؤداه واحدا، ونظيره قوله: معي جياع، فجمعوا الصفة، ومؤداها واحد، لأن موصوفها واحد،

---

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٧٦.

تأكيد لثبوتها وتمكنها، وهذا المعنى أحد ما روي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤] فإنه جمع (قليلا) وقد كان الأصل إفراده فيقال: (لشرذمة قليلة) كقوله تعالى ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] لولا ما قصد إليه من تأكيد معنى القلة بجمعها، ووجه إفادة الجمع في مثل هذا للتأكيد، أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الآحاد، فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانة زيادته على نظرائه، نقلا مجازيا بديعا، فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان.

٣. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم، قال الرازيّ: دلت الآية على أن المدعي سواء ادعى نفيا أو إثباتا، فلا بد له من الدليل والبرهان، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد، قال الشاعر:

من ادّعى شيئا بلا شاهد لا بد أن تبطل دعواه

وسبقه إلى ذلك الزمخشريّ حيث قال: وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين، وإن كل قول لا دليل عليه، فهو باطل غير ثابت.

٤. ﴿بَلَى﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنّة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره، وإنما عبر عن النفس بالوجه، لأنه أشرف الأعضاء، ومجمع المشاعر، وموضع السجود، ومظهر آثار الخضوع، أو المعنى: من أخلص توجهه وقصده، بحيث لا يلوي عزيمته إلى شيء غيره ﴿وهُوَ مُحْسِنٌ} في عمله، موافق لهديه ﷺ، وإلا لم يقبل، ولذا قال ﷺ: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ)

٥. ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ وهو عبارة عن دخول الجنة، وتصويره بصورة الأجر للإيذان بقوة ارتباطه بالعمل، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوات مطلوب، والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الإفراد في الضمائر الأول باعتبار اللفظ.

٦. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه، إثر بيان تضليله كلّ من عداه على وجه العموم.

٧. معنى ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ أيّ أمر يعتد به من الدين ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الواو للحال، والكتاب للجنس، أي قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، وحق من حمل التوراة أو الإنجيل،

أو غيرهما من كتب الله، وآمن به، أن لا يكفر بالباقي، لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني، شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعا متواردة على تصديق بعضها بعضا.

٨. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل الذي سمعت به على ذلك المنهاج ﴿قَالَ﴾ الجهلة ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا علم عندهم ولا كتاب، كعبدة الأصنام، قالوا لأهل كل دين ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ ليسوا على شيء، وهذا توبيخ عظيم، حيث نظموا أنفسهم، مع علمهم، في سلك من لا يعلم.

٩. ﴿فَالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يفصل بينهم بقضائه العدل، فيحكم بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧] وكما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]

١٠. قال الرازيّ: واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد ﷺ، فإن كل طائفة تكفّر الأخرى، مع اتفاقهم على تلاوة القرآن.. فهاهنا تسكب العبرات بما جناه التعصب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر، لا بسنّة ولا قرآن، ولا لبيان من الله ولا لبرهان، بل لمّا غلت مراحل العصبية في الدين، تمكن الشيطان من تفريق كلمة المسلمين.

يأبى الفتح إلا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح

مع أن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف، فقال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ثم انتقل إلى الكلام على أهل الكتاب عامة وما يلام عليه الفريقان منهم ـ اليهود والنصارى ـ فقال:: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

٢. هذا بيان لحالين آخرين من أحوال أهل الكتاب في غرورهم بدينهم ما كان المسلمون قبل نزول الآيات يعرفونها، أما الأولى فما بينه تعالى بقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وهو عطف على قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، وثانيتهما: تضليل اليهود للنصارى وتضليل النصارى لهم كذلك، مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود.

٣. ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ هو عطف على قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى كذلك في أنفسهم، وهو اختصار بديع غير مخل، وهذه عقيدة الفريقين إلى اليوم ولا ينافى انسحاب حكمها على الآخرين، أن نفرا من الأولين قالوا ذلك بين يدى النبيّ ﷺ كما يروى.

٤. وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة له في كتبهم المنزلة، فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والأماني جمع أمنية، وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه:

أ. وهذا القول ناطق بأمنية واحدة، ولكنها تتضمن أماني متعددة هي لوازم لها، كنجاتهم من العذاب وكوقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم، ولهذا ذكر الأماني بالجمع ولم يقل تلك أمنيتهم.

ب. وهناك وجوه أخرى وهى أن الاشارة بتلك أمانيهم لقوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية وقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾

ج. وقيل: إن في الكلام مضافا محذوفا أي أمثال تلك الأمنية أمانيهم.

٥. ثم طالبهم تعالى بالبرهان على دعواهم فقرر لنا قاعدة لا توجد في غير القرآن من الكتب السماوية، وهى أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا يحكم لأحد بدعوى ينتحلها بغير برهان يؤيدها،

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٤٢٤.

ذلك أن الأمم التي خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها ولذلك اكتفى منهم بتقليد الأنبياء فيما يبلغونهم وإن لم يعرفوا برهانه، فهم مكلفون أن يفعلوا ما يؤمرون، سواء عرفوا لماذا أمروا أم لم يعرفوا، ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وقد فسروا البصيرة بالحجة الواضحة، ويستدل على قدرة الله وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية؛ وهى كثيرة جدا في القرآن، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا الله لَفَسَدَتَا﴾ وغير ذلك، ويستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفى المضرات والافضاء إلى المنافع.

٦. علّم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة، لأنه أقامهم على سواء المحجة وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه، وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل، ثم جاء الخلف الصالح فحكم بالتقليد، وأمر بالتقليد، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد، حتى كأن الاسلام خرج عن حده، أو انقلب إلى ضده، وصار الذين يعلمون أن الاسلام امتاز عن سائر الأديان بإبطال التقليد، وبالمطالبة بالبرهان والدليل، وعلم الناس استقلال الفكر، مع المشاورة في الأمر، يطالبون المسلمين بالرجوع إلى الدليل، ويعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل، ويا ليته كان الأخذ بقال الله، وقيل فيما يروى عن رسول الله، ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ الله بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾

٧. قال تعالى ردا عليهم: ﴿بَلَى﴾ وهى كلمة تذكر في الجواب لإثبات نفى سابق فهي مبطلة لقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ الخ، أي بلى إنه يدخلها من لم يكن هودا ولا نصارى، لأن رحمة الله ليست خاصة بشعب دون شعب؛ وإنما هي مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها، وهو ما بينه سبحانه وتعالى بقوله ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِّ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ إسلام الوجه لله هو التوجه إليه وحده وتخصيص بالعبادة دون سواه، كما أشار إلى ذلك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وغيرها من الآيات.

٨. عبر هنا عن إسلام القلب وصحة القصد إلى الشيء بإسلام الوجه كما عبر عنه بتوجيه الوجه في قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه لا يوليه دبره فلما كان توجيه الوجه إلى شيء له جهة تابعا لقصده واشتغال

القلب به عبر عنه به وجعل التوجه بالوجه إلى جهة مخصوصة (وهى القبلة) بأمر الله مذكرا بإقبال القلب على الله الذي لا تحدده الجهات، فالإنسان يتضرع ويسجد لله تعالى بوجهه وعلى الوجه يظهر أثر الخشوع، وظاهر أن المراد من إسلام الوجه لله توحيده بالعبادة والاخلاص له في العمل، بأن لا يجعل العبد بينه وبينه وسطاء يقربونه إليه زلفى، فإنه أقرب إليه من حبل الوريد، ومن هنا يفهم معنى الاسلام الذي يكون به المرء مسلما.

٩. ذكر التوحيد والإيمان الخالص ولم يحمل عليه الوعد بالأجر عند الله تعالى واستحقاق الكرامة في دار المقامة إلا بعد أن قيده بإحسان العمل، فقال: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِّ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ وتلك سنة القرآن تقرن الايمان بعمل الصالحات كقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِّ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ وهذا في معنى الآيات التي نفسرها، نفى أماني المسلمين كما نفى أماني أهل الكتاب، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطا بالإيمان والعمل الصالح معا، وكقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ الآية.

١٠. ثم بعد أن أثبت للمسلم وجهه إلى الله والمحسن في عمله الأجر عند الله نفى عنه الخوف الذي يرهق الكافرين والمسيئين في هذه الدنيا وفى تلك الدار الآخرة والحزن الذي يصيبهم فقال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولا شك أن المخاوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية، وأساؤوا أعمالهم بالإعراض عن الهداية الدينية.

١١. ترى أصحاب النزغات الوثنية في خوف دائم مما لا يخيف، لأنهم يعتقدون بثبوت السلطة الغيبية القاهرة لكل ما يظهر لهم منه عمل لا يهتدون إلى سببه ولا يعرفون تأويله، يستخذون للدجالين والمشعوذين، ويرتعدون من حوادث الطبيعة الغريبة، إذا لاح لهم نجم مذنب تخيلوا أنه منذر يهددهم بالهلاك، وإذا أصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد توهموا أنها من تصرف بعض العباد، وتراهم في جزع وهلع من حدوث الحوادث، ونزول الكوارث، لا يصبرون في البأساء والضراء ولا ينفقون في الرخاء والسراء: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ هذه حال من فقد التوحيد الخالص وحرم من العمل الصالح في هذه الحياة الدنيا:

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ وإنما كان صاحب النزغات الوثنية في خوف مما يستقبله، وحزن مما ينزل به، لأن ما اخترعه له وهمه من السلطة الغيبية لغير الله التي يحكمها في نفسه، ويجعلها حجابا بينه وبين ربه، لا يمكنه أن يعتمد في الشدائد عليها، ولا يجد عندها غناء إذا هو لجأ إليها، وما هو من سلطتها على يقين، وإنما هو من الظانين أو الواهمين

١٢. أما ذو التوحيد الخالص فهو يعلم أنه لا فاعل إلا الله تعالى وأنه من رحمته قد هدى الانسان إلى السنن الحكيمة التي يجرى عليها في أفعاله، فاذا أصابه ما يكره بحث في سببه واجتهد في تلافيه من السنة التي سنها الله تعالى لذلك، فان كان أمرا لا مرد له سلم أمره فيه إلى الفاعل الحكيم، فلا يحار ولا يضطرب لأن سنده قوى عزيز، والقوة التي يلجأ إليها كبيرة لا يعجزها شيء، فاذا نزل به سبب الحزن أو عرض له مقتضى الخوف لا يكون أثرهما إلا كما يطيف الخاطر بالبال، ولا يلبث أن يعرض له الزوال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ فكأنه تعالى يقول لأهل الكتاب: لا تغرنكم الأماني ولا يخدعنكم الانتساب الباطل إلى الأنبياء، فهذه هي طريق الجنة، أسلموا وجوهكم لله تسلموا واعملوا الصالحات تؤجروا.

١٣. أفرد الضمير في قوله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ مراعاة للفظ (من) وجمعه في قول: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ الخ مراعاة لمعناها.

١٤. بعد أن ذكر تزكية كل فريق من أهل الكتاب نفسه وحكمه بحرمان غيره من رحمة الله كيفما كانت حاله ذكر طعن كل فريق منهما بالآخر خاصة فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين حقيقي يعتد به، فالشيء في اللغة هو الموجود المتحقق، والاعتقادات الخيالية التي لا تنطبق على موجود في الخارج لا تسمى شيئا، فكفروا بعيسى وهم يتلون التوراة التي تبشر به وتذكر من العلامات ما ينطبق عليه، ولا تزال اليهود إلى اليوم تدعى أن المسيح المبشر به في التوراة لما يأت وتنتظر ظهوره وإعادته الملك إلى شعب اسرائيل: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين حقيقي يعتد به لإنكارهم المسيح المتمم لشريعتهم.

١٥. يقول كل فريق منهم ما يقول: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي يتلو كل منهم كتابه فكتاب الأولين (التوراة) يبشر برسول منهم ظهر ولم يؤمنوا به فهم مخالفون لكتابهم، وكتاب الآخرين (الانجيل) يقول

بلسان المسيح: إنه جاء متمما لناموس موسى، لا ناقضا له، وهم قد نقضوه، فدينهم واحد، ترك بعضهم أوله وبعضهم آخره فلم يؤمن به كله أحد منهم، والكتاب الذي يقرؤون حجة عليهم.

١٦. ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي نحو ذلك السخف والجزاف: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من مشركي العرب وغيرهم من أهل الملل ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ تعصب كل لملته التي جعلها جنسية وزعم أنها هي المنجية لكل من وسم بها ورضى باسمها ولقبها، والحق وراء جميع المزاعم لا يتقيد بأسماء ولا ألقاب، وإنما هو إيمان خالص وعمل صالح، ولو اهتدى الناس إلى هذا لما تفرقوا في الدين واختلفوا في أصوله ولكنهم تعصبوا وتجزبوا لأهوائهم، فتفرقوا واختلفوا في آرائهم.

١٧. ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فإنه هو العليم بما عليه كل فريق من حق وباطل، ولم يبين لنا تعالى هنا بماذا يحكم، وقال بعض المفسرين إنه يكذبهم جميعا ثم يلقيهم في النار، ولكن الذي يدل عليه القرآن أنه يحق الحق ويجعل أهله في النعيم، ويبطل الباطل ويلقى بأهله في الجحيم.

١٨. هذا هو معنى الآية، ويروى في سبب نزولها أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبيّ ﷺ فقال كل فريق منهم ما قال في إنكار حقيقة دين الآخر، قال محمد عبده: إن فهم الآية لا يتوقف على هذه الرواية، فالآية تحكى لنا اعتقاد كل طائفة بالأخرى سواء قال ذلك من ذكر أو لم يقله، على أن ما يروى في أسباب النزول من مثل ذلك هو من تاريخ الآيات وما فيها من الوقائع، وما روى في أسباب النزول عندنا غير كاف في ذلك، فلا بد لنا من البحث والاطلاع على تاريخ الملل والأمم التي تكلم عنها القرآن لأجل أن نفهمه تمام الفهم ونعرف ما يحكيه عنهم من العقائد والشئون والأعمال، هل كان عاما فيهم أو كان في طائفة منهم وأسند إلى الأمة لما نبهنا عليه مرارا من ارادة تكافلها ومؤاخذة الجميع بما يصدر عن بعض الأفراد لأنهم كلفوا إزالة المنكر والتناهي عنه؟

١٩. العبرة في الآية أن أهل الكتاب في تضليل بعضهم بعضا واعتقاد كل واحد في الآخر أنه ليس على شيء حقيقي من أمر الدين مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود، قد صاروا إلى حال من التهافت واتباع الأهواء لا يعتد معها بقول أحد منهم في نفسه ولا في غيره؛ فطعنهم في النبيّ ﷺ وإعراضهم عن الايمان به لا ينهض حجة على كونهم علموا أنه مخالف للحق، بل لا يصلح شبهة على ذلك لأنهم أهل أهواء، وتعصب للمذاهب المبتدعة والآراء، فإذا كانت اليهود كفرت

بعيسى وأنكرته وهو منهم وهم ينتظرونه لإعادة مجدهم وتجديد عزهم، وإذا كانت النصارى قد رفضت النوراة وكفرت أهلها وهى حجتهم على دينهم، فكيف يعتد بكفر هؤلاء وهؤلاء بمحمد ﷺ وهو من شعب غير شعبهم، وقد جاء بشريعة ناسخة لشرائعهم، وهم لا يفهمون من الدين إلا أنه جنسية دنيوية لهم؟

٢٠. في الآية إرشاد إلى بطلان التقليد مؤيد لما في الآية التي تطالب المدعى بالبرهان، وإلى النعي على المقلدين المتعصبين لآرائهم، المتبعين لأهوائهم، وإلى التحري في الحكم على الشيء يعتقد الحاكم بطلانه لأنه مخالف لما يعتقده، فلا ينبغي للعاقل أن يحكم على شيء إلا بعد البحث والتحري ومعرفة مكان الخطأ والتزييل بينه وبين ما عساه يكون معه صوابا، ألم تر أن سياق الآيات ناطق بإنكار حكم كل من الفريقين على الآخر من غير بينة ولا برهان، ولا فصل ولا فرقان، مع أن كل واحد منهم على شيء من الحق وشيء من الباطل لأن أصل دينه حق ثم طرأت عليه نزعات الوثنية والبدع وعرض له التحريف والتأويل، فتجر يده من كل حق لم يكن إلا تعصبا للتقاليد من غير بينة ولا تمحيص، وأنى للمقلدين بذلك؟ وأنظر كيف ألحق التقليد أهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الإلهي بالمشركين الذين لا يعلمون منه شيئا؟ هذا ما فعله التقليد بهم وبمن بعدهم لأنه عدو للعلم في كل زمان وكل مكان.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ذكر عزّ اسمه في هذه الآية حالين من أحوال اليهود:

أ. أولاهما: تضليل من عداهم وادعاؤهم أن الحق لا يعدوهم، وأن النبوة مقصورة عليهم.

ب. ثانيتهما: تضليل اليهود للنصارى وتضليل النصارى لهم كذلك، مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود.

٢. العبرة من هذا القصص ـ أنهم قد صاروا إلى حال من اتباع الأهواء لا يعتدّ معها بقول أحد منهم لا في نفسه ولا في غيره، فطعنهم في النبي ﷺ وإعراضهم عن الإيمان به لا يثبت دعواهم في أنه مخالف

---

(١) تفسير المراغي: ١/ ١٩٥.

للحق، فاليهود قد كفروا بعيسى وقد كانوا ينتظرونه، والنصارى كفروا بموسى ورفضوا التوراة وهى حجتهم على دينهم، فكيف بعدئذ يعتدّ برأيهم في محمد ﷺ وهو من غير شعبهم، وجاء بشريعة نسخت شرائعهم.

٣. سبب نزول الآيات أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبي ﷺ وكذب بعضهم بعضا، فقال اليهود لبنى نجران: لن يدخل الجنة إلا اليهود، وقالت بنو نجران لليهود: لن يدخل الجنة إلا النصارى ـ وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ـ فعقيدة كل من الفريقين في الآخر كذلك.

٤. ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أي وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى كذلك، وهذه آراء الفريقين إلى يومنا هذا.

٥. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي هذه الأمنية السالفة التي تشمل أماني كثيرة، كنجاتهم من العذاب ووقوع أعدائهم فيه، وحرمانهم من النعيم.

٦. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قل لكلا الفريقين هاتوا البرهان على ما تزعمون، وهذا وإن كان ظاهره طلب الدليل على صدق المدّعى، فهو في عرف التخاطب تكذيب له، لأنه لا برهان لهم عليه.

٧. في هذا إيماء إلى أنه لا يقبل من أحد قول لا برهان عليه، والقرآن ملئ بالاستدلال على القدرة والإرادة والوحدانية بالآيات الكونية والأدلة العقلية، كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا الله لَفَسَدَتَا﴾

٨. (بلى) كلمة تذكر جوابا لإثبات نفى سابق، وردّا لما زعموه فهي مبطلة لقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أي بلى إنه يدخلها من لم يكن هودا ولا نصارى، إذ رحمة الله لا تختصّ بشعب دون شعب، بل كل من عمل لها وأخلص في عمله، فهو من أهلها.

٩. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي كل من انقاد لله وأخلص في عمله، فله الجزاء على ذلك عند ربه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا.

١٠. الآية ترشد إلى أن الإيمان الخالص لا يكفى وحده للنجاة، بل لا بد أن يقرن بإحسان العمل، وقد جرت سنة القرآن إذا ذكر الإيمان أردفه عمل الصالحات كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾

١١. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي إن الذين أسلموا وجوههم لله وأحسنوا العمل لا تساور نفوسهم مخاوف ولا أحزان، كما تختلج صدور الذين أشرب قلوبهم حبّ الوثنية، وأعرضوا عن الهداية، إذ من طبيعة المؤمن أنه إذا أصابه مكروه بحث عن سببه واجتهد في تلافيه، فإن لم يمكنه دفعه فوّض أمره إلى ربه، ولم يضطرب ولم تهن له عزيمة، علما منه بأنه قد ركن إلى القوة القادرة على دفع كل مكروه، وتوكل على من بيده دفع كل محظور، أما عابدو الأوثان والأصنام فهم في خوف مما يستقبلهم، وحزن مما ينزل بهم، فإذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم داخلهم الهلع ولم يستطيعوا صبرا على البأساء، وهم يستخذون للدجّالين والمشعوزين، ويعتقدون بسلطة غيبية لكل من يعمل عملا لا يهتدون إلى معرفة سببه.

١٢. ثم ذكر مقال كل من الفريقين في الآخر: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ أي ليسوا على شيء من الدين يعتدّ به، فهم قد كفروا بالمسيح مع أنهم يتلون التوراة التي تبشر به وتذكر من الأوصاف ما لا ينطبق إلا عليه، ولا يزالون إلى اليوم يدّعون أن المسيح المبشر به فيها لمّا يأت بعد، وينتظرون ظهوره وإعادته الملك إلى شعب إسرائيل، ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي ليسوا على شيء من الدين الصحيح، ومن ثم أنكروا نبوّة المسيح المتمم لشريعتهم.

١٣. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي قالوا ذلك وكتاب كل من الفريقين ينطق بغير ما يعتقدون، فالتوراة تبشر برسول منهم يأتي بعد موسى، لكنهم خالفوها ولم يؤمنوا به، والإنجيل يقول: إنه (المسيح) جاء متمما لناموس موسى لا ناقضا له، وهم قد نقضوه.

١٤. الخلاصة ـ إن دينهم واحد ترك بعضهم أوّله، وبعضهم آخره ولم يؤمن به كله أحد منهم، والكتاب الذي يتلونه حجة عليهم شاهد على كذبهم.

١٥. ثم بين أنهم ليسوا ببدع فيما يقولون، بل قبلهم أمم قالت مثل مقالتهم، فقال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا القول الذي لم يبن على برهان، قال الجهلة من عبدة الأوثان لأهل كل دين: لستم على شيء؛ والحق وراء هذه المزاعم، فهو إيمان خالص وعمل صالح لو عرفه الناس حقّ المعرفة لما تفرقوا ولا اختلفوا في أصوله، لكنهم تعصبوا لأهوائهم فاختلفوا فيه وتفرّقوا طرائق قددا.

١٦. ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فهو العليم بما عليه كل فريق من حقّ أو باطل، فيحقّ الحق ويجعل أهله في النعيم ويبطل الباطل، ويلقى أهله في سواء الجحيم.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ثم يمضي في تفنيد دعاوى أهل الكتاب عامة: اليهود والنصارى، وقولهم: إنهم هم المهتدون وحدهم! وإن الجنة وقف عليهم لا يدخلها سواهم! على حين يجبه كل فريق منهم الآخر بأنهم ليسوا على شيء ويقرر في ثنايا عرض هذه الدعاوى العريضة حقيقة الأمر، ويقول كلمة الفصل في العمل والجزاء: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

٢. الذين كانوا يواجهون المسلمين في المدينة كانوا هم اليهود؛ إذ لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقف اليهود، ولكن النص هنا عام يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء، ثم يجبه هؤلاء بهؤلاء! ويحكي رأي المشركين في الطائفتين جميعا: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.. وهذه حكاية قوليهم مزدوجة، وإلا فقد كانت اليهود تقول: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ـ أي من يهود ـ وكانت النصارى تقول: لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى.. وهذه القولة كتلك، لا تستند إلى دليل، سوى الادعاء العريض! ومن ثم يلقن الله رسوله ﷺ أن يجبههم بالتحدي وأن يطالبهم بالدليل: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

٣. وهنا يقرر قاعدة من قواعد التصور الإسلامي في ترتيب الجزاء على العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد، إنما هو الإسلام والإحسان، لا الاسم والعنوان: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.. ومن قبل قرر هذه القاعدة في العقاب ردا على قولهم:

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٠٤.

﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾، فقال: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.. إنها قاعدة واحدة بطرفيها في العقوبة والمثوبة، طرفيها المتقابلين: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾.. فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة، في معزل عن كل شيء وعن كل شعور وعن كل وجهة إلا وجهة الخطيئة.

٤. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.. فأخلص ذاته كلها لله، ووجه مشاعره كلها إليه، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر للخطيئة.. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ﴾.. هنا تبرز سمة الإسلام الأولى: إسلام الوجه ـ والوجه رمز على الكل ـ ولفظ أسلم يعني الاستسلام والتسليم، الاستسلام المعنوي والتسليم العملي، ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.. فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك، بين العقيدة والعمل، بين الإيمان القلبي والإحسان العملي.. بذلك تستحيل العقيدة منهجا للحياة كلها؛ وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها.

٥. وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأجر المضمون لا يضيع عند ربهم.. والأمن الموفور لا يساوره خوف، والسرور الفائض لا يمسه حزن.. وتلك هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعا، فلا محسوبية عند الله سبحانه ولا محاباة!

٦. لقد كانوا ـ يهودا ونصارى ـ يطلقون تلك الدعوى العريضة، بينما يقول كل منهما عن الفريق الآخر إنه ليس على شيء؛ وبينما كان المشركون يجبهون الفريقين بالقولة ذاتها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

٧. الذين لا يعلمون هم الأميون العرب الذين لم يكن لهم كتاب؛ وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من الفرقة ومن التقاذف بالاتهام، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا ترتفع كثيرا على خرافات العرب وأساطير هم في الشرك ونسبة الأبناء ـ أو البنات ـ لله سبحانه؛ فكانوا يزهدون في دين اليهود ودين النصارى ويقولون: إنهم ليسوا على شيء ٨. القرآن يسجل على الجميع ما يقوله بعضهم في بعض؛ عقب تفنيد دعوى اليهود والنصارى في ملكية الجنة! ثم يدع أمر الخلاف بينهم إلى الله: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، فهو الحكم العدل، وإليه تصير الأمور.. وهذه الإحالة إلى حكم الله هي

وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون من منطق، ولا يعتمدون على دليل، بعد دحض دعواهم العريضة في أنهم وحدهم أهل الجنة، وأنهم وحدهم المهديون!

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا موقف من مواقف أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ إزاء المسلمين.. فاليهود يقولون: لا يدخل الجنة إلا من كان على اليهودية، والنصارى يقولون: لا يدخل الجنة إلا من كان على النصرانية.. أي أن كل فريق منهما يرى أن دينه الذي يدين به هو الحق، ولا دين حق غيره، وأن قبلته التي يصلّي عليها هي القبلة الحق، ولا قبلة حق غيرها!.. وتلك أماني وأحلام، لا برهان عليها.

٢. إن دين الله واحد.. يلتقى عنده المؤمنون جميعا، وتترجم عنه رسالات الرسل ودعوات الأنبياء جميعا، فمن آمن بالله وأسلم وجهه له، دون التفات إلى سواه، ثم استقام على طريق الحق، فامتثل أوامر الله، واجتنب نواهيه ـ من فعل ذلك فهو المؤمن حقّا، الموعود من الله بالجزاء الحسن والجنة التي عرضها السموات والأرض، أعدت للمتقين.

٣. اليهود يقولون إن ما يدين به النصارى هو الباطل، والنصارى يقولون في اليهود مثل هذا القول.. وكل منهما يرجع إلى كتاب الله.. كما يقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، وهذا يعنى أن الفريقين قد حرّفوا وبدلوا فيما بين أيديهم من التوراة والإنجيل، وإلّا لما كان بين الفريقين هذا الترامي بتهمة الكفر، إذ التوراة والإنجيل في حقيقتهما على سواء، في الحق الذي نزلا به من عند الله، ولهذا عبّر القرآن عنهما معا بالكتاب: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ فكأن التوراة والإنجيل كتاب واحد، وإن اختلفا لغة، وتباعدا زمنا.

٤. ومن قبيل ما يقوله كل من اليهود والنصارى في رمى كل فريق منهما الآخر بالكفر، ما يقوله المشركون عن كل ذي دين غير دينهم، وقد وصفهم الله بأنهم: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا علم لهم من كتاب سماوي: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ وإذا كان للمشركين عذر في اتهام أهل الكتاب

---

(١) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١٣٢.

ورميهم بالكفر، فإنه لا عذر لأهل الكتاب، لأن المشركين يقولون ما يقولون عن غير علم، على حين يقول أهل الكتاب ما يقولون عن علم، أو ما ينبغي أن يكون عن علم!

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. عطف على: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩] وما بينهما من قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩] الآية اعتراض.. والضمير لأهل الكتاب كلهم من اليهود والنصارى بقرينة قوله بعده: ﴿إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾

٢. مقول القول مختلف باختلاف القائل، فاليهود قالت لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، والنصارى قالت لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، جمع القرآن بين قوليهما على طريقة الإيجاز بجمع ما اشتركا فيه وهو نفي دخول الجنة عن المستثنى منه المحذوف لأجل تفريع الاستثناء، ثم جاء بعده تفريق ما اختص به كل فريق وهو قوله: ﴿هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فكلمة (أو) من كلام الحاكي في حكايته وليست من الكلام المحكي فأو هنا لتقسيم القولين ليرجع السامع كل قول إلى قائله.

٣. القرينة على أن (أو) ليست من مقولهم المحكي أنه لو كان من مقولهم لاقتضى أن كلا الفريقين لا ثقة له بالنجاة وأنه يعتقد إمكان نجاة مخالفه والمعلوم من حال أهل كل دين خلاف ذلك، فإن كلا من اليهود والنصارى لا يشك في نجاة نفسه ولا يشك في ضلال مخالفه وهي أيضا قرينة على تعيين كل من خبري: ﴿كَانَ﴾ لبقية الجملة المشتركة التي قالها كل فريق بإرجاع هودا إلى مقول اليهود وإرجاع نصارى إلى مقول النصارى، فأو هاهنا للتوزيع وهو ضرب من التقسيم الذي هو من فروع كونها لأحد الشيئين وذلك أنه إيجاز مركب من إيجاز الحذف لحذف المستثنى منه ولجمع القولين في فعل واحد وهو: ﴿قَالُوا﴾ ومن إيجاز القصر لأن هذا الحذف لما لم يعتمد فيه على مجرد القرينة المحوجة لتقدير وإنما دل على المحذوف من القولين بجلب حرف أو كانت (أو) تعبيرا عن المحذوف بأقل عبارة فينبغي أن يعد قسما ثالثا من أقسام الإيجاز وهو إيجاز حذف وقصر معا.

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٦٥٥.

٤. جعل القزويني في (تلخيص المفتاح) هاته الآية من قبيل اللف والنشر الإجمالي أخذا من كلام (الكشاف) لقول الزمخشري (فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله وأمنا من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين)، فقوله: فلف بين القولين أراد به اللف الذي هو لقب للمحسن البديعي المسمى اللف والنشر ولذلك تطلبوا لهذا اللف نشرا وتصويرا للف في الآية من قوله: ﴿قَالُوا﴾: مع ما بينه وهو لف إجمالي يبينه نشره الآتي بعده ولذلك لقبوه اللف الإجمالي، ثم وقع نشر هذا اللف بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فعلم من حرف (أو) توزيع النشر إلى ما يليق بكل فريق من الفريقين، وقال التفتازانيّ في شرح المفتاح جرى الاستعمال في النفي الإجمالي أن يذكر نشره بكلمة (أو)

٥. الهود جمع هائد أي متبع اليهودية وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة: ٦٢] الآية، وجمع فاعل على فعل غير كثير وهو سماعي منه قولهم عوذ جمع عائذ وهي الحديثة النتاج من الظباء والخيل والإبل ومنه أيضا عائط وعوط للمرأة التي بقيت سنين لم تلد، وحائل وحول، وبازل وبزل، وفاره وفره، وإنما جاء هودا جمعا مع أنه خبر عن ضميره (كان) وهو مفرد لأن (من) مفردا لفظا ومراد به الجماعة فجرى ضميره على مراعاة لفظه وجرى خبرا وضميرا على مراعاة المعنى.

٦. الإشارة بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى القولة الصادرة منهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ كما هو الظاهر فالإخبار عنها بصيغة الجمع إما لأنها لما كانت أمنية كل واحد منهم صارت إلى أماني كثيرة وإما إرادة أن كل أمانيهم كهذه ومعتادهم فيها فيكون من التشبيه البليغ.

٧. الأماني تقدمت في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] وجملة: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ معترضة.

٨. قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أمر بأن يجابوا بهذا ولذلك فصله لأنه في سياق المحاورة كما تقدم عند قوله: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] الآية وأتى بأنّ المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم الصدق لاستدراجهم حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن البرهان لأن كل اعتقاد لا يقيم معتقده دليل اعتقاده فهو اعتقاد كاذب لأنه لو كان له دليل لاستطاع التعبير عنه ومن باب أولى لا يكون صادقا عند من يريد أن يروج عليه اعتقاده.

٩. ﴿بَلَى﴾ إبطال لدعواهما، و(بلى) كلمة يجاب بها المنفي لإثبات نقيض النفي وهو الإثبات سواء

وقعت بعد استفهام عن نفي وهو الغالب أو بعد خبر منفي نحو: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى﴾ [القيامة: ٣، ٤]، وقول أبي حية النميري:

يخبرك الواشون أن لن أحبكم بلى وستور الله ذات المحارم

١٠. قوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ جملة مستأنفة عن (بلى) لجواب سؤال من يتطلب كيف نقض نفي دخول الجنة عن غير هذين الفريقين أريد بها بيان أن الجنة ليست حكرة لأحد ولكن إنما يستحقها من أسلم إلخ لأن قوله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ هو في معنى له دخول الجنة وهو جواب الشرط لأن (من) شرطية لا محالة، ومن قدر هنا فعلا بعد (بلى) أي يدخلها من أسلم فإنما أراد تقدير معنى لا تقدير إعراب إذ لا حاجة للتقدير هنا.

١١. إسلام الوجه لله هو تسليم الذات لأوامر الله تعالى أي شدة الامتثال لأن أسلم بمعنى ألقى السلاح وترك المقاومة قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والوجه هنا الذات عبر عن الذات بالوجه لأنه البعض الأشرف من الذات كما قال الشنفري: (إذا قطعوا رأسي وفي الرأس أكثري)، ومن إطلاق الوجه على الذات قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وأطلق الوجه على الحقيقة تقول جاء بالأمر على وجهه أي على حقيقته قال الأعشى:

وأول الحكم على وجهه ليس قضاء بالهوى الجائر

ووجوه الناس أشرافهم.

١٢. يجوز أن يكون (أسلم) بمعنى أخلص مشتقا من السلامة أي جعله سالما ومنه: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]

١٣. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جيء به جملة حالية لإظهار أنه لا يغني إسلام القلب وحده ولا العمل بدون إخلاص بل لا نجاة إلا بهما ورحمة الله فوق ذلك إذ لا يخلو امرؤ عن تقصير.

١٤. جمع الضمير في قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ اعتبارا بعموم (من) كما أفراد الضمير في قوله: ﴿وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ اعتبارا بإفراد اللفظ وهذا من تفنن العربية لدفع سآمة التكرار.

١٥. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ

يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١] لزيارة بيان أن المجازفة دأبهم وأن رمي المخالف لهم بأنه ضال شنشنة قديمة فيهم فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة، فقديما ما رمت اليهود النصارى بالضلال ورمت النصارى اليهود بمثله فلا تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة، وفي ذلك إنحاء على أهل الكتاب وتطمين لخواطر المسلمين ودفع الشبهة عن المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوأته وثباتا على شركهم.

١٦. المراد من القول التصريح بالكلام الدال فهم قد قالوا هذا بالصراحة حين جاء وفد نجران إلى رسول الله ﷺ وفيهم أعيان دينهم من النصارى فلما بلغ مقدمهم اليهود أتوهم وهم عند النبي ﷺ فناظروهم في الدين وجادلوهم حتى تسابوا فكفر اليهود بعيسى وبالإنجيل وقالوا للنصارى ما أنتم على شيء فكفر وفد نجران بموسى وبالتوراة وقالوا لليهود لستم على شيء.

١٧. قولهم: ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ نكرة في سياق النفي والشيء الموجود هنا مبالغة أي ليسوا على أمر يعتد به، فالشيء المنفي هو العرفي أو باعتبار صفة محذوفة على حد قول عباس بن مرداس:

وقد كنت في الحرب ذا تدرإ　　　فلم أعط شيئا ولم أمنع

أي لم أعط شيئا نافعا مغنيا بدليل قوله ولم أمنع، واسأل رسول الله عن الكهان فقال: (ليسوا بشيء)، فالصيغة صيغة عموم والمراد بها في مجاري الكلام نفي شيء يعتد به في الغرض الجاري فيه الكلام بحسب المقامات فهي مستعملة مجازا كالعام المراد به الخصوص أي ليسوا على حظ من الحق فالمراد هنا ليست على شيء من الحق وذلك كناية عن عدم صحة ما بين أيديهم من الكتاب الشرعي فكل فريق من الفريقين رمى الآخر بأن ما عنده من الكتاب لا حظ فيه من الخير كما دل عليه قوله بعده: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ فإن قوله: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ جملة حالية جيء بها لمزيد التعجب من شأنهم أن يقولوا ذلك وكل فريق منهم يتلون الكتاب وكل كتاب يتلونه مشتمل على الحق لو اتبعه أهله حق اتباعه، ولا يخلو أهل كتاب حق من أن يتبعوا بعض ما في كتابهم أو جل ما فيه فلا يصدق قول غيرهم أنهم ليسوا على شيء.

١٨. جيء بالجملة الحالية لأن دلالتها على الهيئة أقوى من دلالة الحال المفردة لأن الجملة الحالية

بسبب اشتمالها على نسبة خبرية تفيد أن ما كان حقه أن يكون خبرا عدل به عن الخبر لادعاء أنه معلوم اتصاف المخبر عنه به فيؤتى به في موقع الحال المفردة على اعتبار التذكير به ولفت الذهن إليه فصار حالا له.

١٩. ضمير قوله: ﴿هُمْ﴾ عائد إلى الفريقين وقيل عائد إلى النصارى لأنهم أقرب مذكور.. والتعريف في (الكتاب) جعله الزمخشري تعريف الجنس وهو يرمي بذلك إلى أن المقصود أنهم أهل علم كما يقال لهم أهل الكتاب في مقابلة الأميين، وحداه إلى ذلك قوله عقبه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فالمعنى أنهم تراجموا بالنسبة إلى نهاية الضلال وهم من أهل العلم الذين لا يليق بهم المجازفة ومن حقهم الإنصاف بأن يبينوا مواقع الخطأ عند مخالفيهم.

٢٠. جعل ابن عطية التعريف للعهد وجعل المعهود التوراة أي لأنها الكتاب الذي يقرؤه الفريقان، ووجه التعجيب على هذا الوجه أن التوراة هي أصل للنصرانية والإنجيل ناطق بحقيتها فكيف يسوغ للنصارى ادعاء أنها ليست بشيء كما فعلت نصارى نجران، وأن التوراة ناطقة بمجيء رسل بعد موسى فكيف ساغ لليهود تكذيب رسول النصارى.

٢١. إذا جعل الضمير عائدا للنصارى خاصة يحتمل أن يكون المعهود التوراة كما ذكرنا أو الإنجيل الناطق بأحقية التوراة وفي: ﴿يَتْلُونَ﴾ دلالة على هذا لأنه يصير التعجب مشربا بضرب من الاعتذار أعني أنهم يقرؤون دون تدبر وهدا من التهكم وإلا لقال وهم يعلمون الكتاب وبهذا يتبين أن ليست هذه الآية واردة للانتصار لأحد الفريقين أو كليهما.

٢٢. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي يشبه هذا القول قول فريق آخر غير الفريقين وهؤلاء الذين لا يعلمون هم مقابل الذين يتلون الكتاب وأريد بهم مشركو العرب وهم لا يعلمون لأنهم أمّيون وإطلاق: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على المشركين وارد في القرآن من ذلك قوله الآتي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا الله أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨] بدليل قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٨] يعني كذلك قال اليهود والنصارى، والمعنى هنا أن المشركين كذبوا الأديان كلها اليهودية والنصرانية والإسلام والمقصود من التشبيه تشويه المشبه به بأنه مشابه لقول أهل الضلال البحت.

٢٣. هذا استطراد للإنحاء على المشركين فيما قابلوا به الدعوة الإسلامية، أي قالوا للمسلمين مثل

مقالة أهل الكتابين بعضهم لبعض وقد حكى القرآن مقالتهم في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ الله عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]

٢٤. والتشبيه المستفاد من الكاف في ﴿كَذَلِكَ﴾ تشبيه في الادعاء على أنهم ليسوا على شيء والتقدير مثل ذلك القول الذي قالته اليهود والنصارى قال الذين لا يعلمون، ولهذا يكون لفظ: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ تأكيدا لما أفاده كاف التشبيه وهو تأكيد يشير إلى أن المشابهة بين قول ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وبين قول اليهود والنصارى مشابهة تامة لأنهم لما قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ الله عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ قد كذّبوا اليهود والنصارى والمسلمين.

٢٥. تقديم الجار والمجرور على متعلقه وهو: ﴿قَالَ﴾ إما لمجرد الاهتمام ببيان الماثلة وإما ليغني عن حرف العطف في الانتقال من كلام إلى كلام إيجازا بديعا لأن مفاد حرف العطف التشريك ومفاد كاف التشبيه التشريك إذ التشبيه تشريك في الصفة، ولأجل الاهتمام أو لزيادته أكد قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ بقوله: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فهو صفة أيضا لمعمول قالوا المحذوف أي قالوا مقولا مثل قولهم، ولك أن تجعل: ﴿كَذَلِكَ﴾ تأكيدا لمثل قولهم وتعتبر تقديمه من تأخير، والأول أظهر، وجوز صاحب (الكشف) وجماعة أن لا يكون قوله: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أو قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ تأكيدا للآخر وأن مرجع التشبيه إلى كيفية القول ومنهجه في صدوره عن هوى، ومرجع الماثلة إلى الماثلة في اللفظ فيكون على كلامه تكريرا في التشبيه من جهتين للدلالة على قوة التشابه.

٢٦. ﴿فَالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، جاء بالفاء لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والحسد متفرع عن هذه المقالات ومسبب عنها وهو خبر مراد به التوبيخ والوعيد والضمير المجرور بإضافة (بين) راجع إلى الفرق الثلاث و(ما كانوا فيه يختلفون) يعم ما ذكر وغيره، والجملة تذييل.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

---

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٦٦.

١. بين سبحانه سبب حسدهم وهو غرورهم بأنهم أهل الجنة وحدهم فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، والضمير يعود على أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ والضمير في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يتعيّن عودته على أهل الكتاب للقول نفسه؛ لأن الذين قالوا هذا القول اليهود، والنصارى وهم أهل الكتاب وهم الذين كانوا يجاورون النبيّ ﷺ.. والقول بالترتيب الجماعي، فاليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وإلا فكل فريق لا يؤمن بالآخر فاليهود لا يعترفون بالنصرانية وهم الذين عادوا المسيح، وحرضوا على قتله وإن كان الله تعالى قد نجاه من دسهم وشبه عليهم، وقد دل على ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة]

٢. هودا: قيل إنها هنا بمعنى يهود، ولكنها بمعنى الجمع؛ لأن (من) هنا لفظ يدل على الجمع فالجمع أنسب إليه ويكون جمعا لها كعوذ جمع لعائذ، ولأنه مقابل لنصارى ونصارى جمع.

٣. قولهم هذا كذب نشأ من غرورهم وإغلاق قلوبهم على ما عندهم، وما يتمنونه من أماني كاذبة إذ يتمنون ولا يعملون؛ ولذلك قال تعالى في تصوير حالهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وهي جمع أمنية، وهي على وزن أفعولة فأصلها أمنوية اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء، أي أن هذا ما يتمنونه.

٤. سؤال وإشكال: لماذا قال تلك أمانيهم ولم يقل تلك أمنيتهم فذكر ذلك بلفظ الجمع (قالوا)؟

والجواب:

أ. الجمع يدل على أنه أمنية كل واحد بعينه فجمعت للدلالة على عموم التمني؛ وذلك لأنهم يحكمون لأنفسهم بأمانيهم لا بأعمالهم بما يتمنونه لا بما يتخذون لنيله الأسباب.

ب. ولأن لفظ الجمع تأكيد لأن يكون هذا تمنيا لهم استجابة لغرورهم وأهوائهم.

٥. قال تعالى لبيان أنها أمان كاذبة ليس لها من سبب ولا دليل: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أقر رسوله ﷺ أن يقول لهم: هاتوا برهانكم، ولم يقل سبحانه سنكل طلب البرهان إلينا؛ لأنه عالم الغيب والشهادة، يعلم كذب ما يقولون وافتراءهم، وقد حكم سبحانه وتعالى بأنه ما يتمنونه لا ما

يستحقون فلا يطلب الدليل من يعلم؛ وقد فرض على النبيّ ﷺ أن يطلب لا ليقتنع ولكن ليبين كذبهم في ادعائهم.

٦. طلب منهم أن يأتوا ببرهان، والبرهان هو الدليل القاطع الملزم الذي لا يعتريه ريب ولا شك أنه ليس عندهم دليل ظني أو قطعي من كتاب منزل أو قول نبيّ مرسل، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فجعل أداة التعليق الدالة على الشك، وهى (إن)؛ إذ إنه لا دليل عندهم فهم غير صادقين.

٧. ثم بين سبحانه وتعالى أن دخول الجنة بالإخلاص والعمل لا بالتمني الكاذب فقال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بلى حرف للجواب بالنفي كما أن نعم للجواب بالإيجاب، وبلى تتضمن معنى الإضراب وهذا الكلام رد على المفترين الذين يتمنون الأماني الكاذبة فليست الجنة إلا جزاء المتقين ولا تكون للكذابين الجاحدين.

٨. ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِّ وهُوَمُحْسِنٌ} معنى أسلم وجهه لله تعالى أسلم نفسه كلها لله تعالى، فتكون كل جوارحه وكل أحاسيسه وحركات قلبه خالصة لله تعالى خائفة منه خاضعة لكل ما يأمر وينهى، وعبر بالوجه فإنه كثير ما يعبر به عن الذات كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص]، ولأنه مظهر النفس، ولأنه هو الذي تكون به المواجهة وهو الذي يكون به السجود ومظاهر الطاعة والخضوع والاستجابة.

٩. لا يكون إسلام النفس إلا وهو معه الإحسان في الأعمال كلها، فمعنى وهو محسن أنه يكون محسنا للناس في معاملتهم فيمدهم بالعون عند موجبه يعين الضعيف ويغيث الملهوف، ويحمل الكلّ، فلا يحسد الناس على ما آتاهم من خير ولا يكذب ولا يحقد ولا يمشى بنميم بين الناس ولا يتخذ السعاية سبيله، ولا يقطع ما وصل الله، ولا يفرق بين الأحبة، هذا كله يشمله معنى الإحسان وهو لا يحصى في خصائصه ومزاياه.

١٠. جملة ﴿وهُوَمُحْسِنٌ} حالية ومعناها أنه متلبس بالإحسان لا يصدر عنه غيره.. و﴿مِنَ﴾ من أسماء الشرط و﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِّ وهُوَمُحْسِنٌ} شرطه، وجزاؤه قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ ثواب ذلك الإحسان وإسلام الوجه لله تعالى، أما الادعاء المغرور، والتمني الكاذب فجزاؤه جهنم وبئس المصير، وإنه لا خوف عليهم من عقاب، ولا حزن يعتريهم من عمل أسلفوه.

١١. ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي أنهم لا يخافون حسابا ولا عقابا ولا يحزنون لأمر نالهم، بل إن إخلاصهم لله، وإحسانهم العمل لا يجعل للعقاب سبيلا لهم، فهم في أمن من الله لأنهم أطاعوه، أما غيرهم فهم في غيهم وغرورهم يوم القيامة يخافون مما يستقبلهم ويحزنون على ما فاتهم.

١٢. زعم اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وزعم النصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وهم بذلك قد جمعهم الغرور، والأماني الكاذبة، لأن الاعتقادات الباطلة يجمع أهلها الأماني الكاذبة، أو يستحسنون أعمالهم ويحسبون أنها الأمور الحسنة، لتزين لهم أعمالهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا وأوهامهم تسيطر عليهم وتتردى بهم في مهاوى الضلال.

١٣. بين سبحانه وتعالى ما يفرقهم بعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى ما يجمعهم، وما يفرقهم هو التناكر أو التكذيب والتضليل، فاليهود يقولون: ليست النصارى على شيء والنصارى يقولون ليست اليهود على شيء، ومعنى على شيء: على شيء من العلم، ولا من الحق، ولا من الهداية، والتنكير لبيان عموم نفى الخير والأشياء الحسنة الطيبة التي ترفع صاحبها إلى مقام عال من الإنسانية الكاملة.

١٤. اختلفوا ذلك الاختلاف المفرق الذي يجعل كل فريق منهم في جانب مع أنهم علماء بالكتب السماوية، ونزل عليهم في أصل نحلتهم رسول من الله تعالى رب العالمين؛ ولذا قال تعالى موبخا مبينا سوء تفكيرهم: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ والمراد الكتاب أي يقرؤونه، ويعلمون ما فيه إن أرادوا ولم يحرفوه، وفيه الميزان بين الحق والباطل، وما فيه رضا الله، وما فيه غضبه، وفيه بيان ما يرفع، وبيان ما يخفض، ولكن أهواءهم هي التي تحكمهم، والهوى يفرق، والحق يجمع، والحق يهدى، والهوى يضل.

١٥. هذا النوع من التفكير الخاضع للأهواء المردية الذي يسرف فيه صاحبه لا يفترق فيه من أوتى علم الكتاب عمن لم يؤت علما بكتاب؛ ولذلك كان المشركون يقولون مثل قولهم؛ لأن المنزع واحد، وأهل كل ملة يقولون مثل قولهم إذا كان مصدر الحكم الهوى والشهوة؛ لأن كل حزب بما لديهم فرحون؛ ولذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي قالوا ليس غيرهم على شيء من الحق والخير، بل الحق عندهم دون غيرهم وزينت لهم أفعالهم، فلم يروا غيرهم يستوجب الجنة فهي لهم وحدهم دون غيرهم، ولعل عذرهم في عدم العلم، أما الذين يتلون الكتاب من يهود ونصارى فما عذرهم!؟

١٦. بين سبحانه وتعالى أنه هو الذي يفصل بينهم يوم القيامة، فقال تعالت آياته: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي ليست أمورهم سددا بددا لا حكم فيها يحكم، ولا الأهواء هي التي تتحكم، بل هناك الحاكم الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض والسماء، وهناك يوم يكون فيه الميزان والحكم؛ ولذا قال: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ﴾ أي الذي يحكم، هو الذي يعلم صغائر الأمور وكبيرها، هو الذي يحكم وسيكون حكمه الفصل يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين، وموضوع حكمه تسامى في علمه وعدله وما كانوا فيه يختلفون أي الأمر الذي كانوا فيه يختلفون ويتجدد خلافهم آنا بعد آن، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج]

١٧. نهى الله تعالى نبيه الأمين ﷺ عن أن يكون من الذين يفرقون دينهم شيعا، ونهيه نهى لأمته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام]، ومع هذا الخبر الناهي الذي فيه العبرة وقع المسلمون في الاختلاف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. يظهر من هذه الآية الكريمة ان اليهود والنصارى يؤمنون بنظرية الاحتكار منذ القديم، وانها عندهم تشمل نعيم الدنيا والآخرة.. وأيضا يظهر ان احتكار الجنة مختص برجال الدين، وعلى هذا الأساس كانت الكنيسة تبيع صكوك الغفران للعصاة والآثمين بعد أن تقبض الثمن، وقد كسبت بذلك أموالا طائلة، ولكن على حساب تشجيع الجرائم، وانتشار الفساد.

٢. مما كانت تكتبه الكنيسة للعاصي في صك الغفران انه: (يغلق أمامك ـ الخطاب للعاصي ـ الباب الذي يدخل منه الخطاة الى العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي الى فردوس الفرح، وان عمّرت سنين طويلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة، حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الأب والابن وروح القدس)

(١) التفسير الكاشف: ١/ ١٧٨.

٣. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ جمع الأماني، لأنها كثيرة، منها أمنيتهم أن يرجع المسلمون كفارا، ومنها ان يعاقب أعداؤهم، ومنها ان الجنة لهم وحدهم.

٤. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، كل دعوى تحتاج الى دليل، وأيضا كل دليل نظري يحتاج الى دليل، حتى ينتهي الى أصل عام ثبت بالبديهة والوجدان، ومعنى ثبوته كذلك أن يتفق على صحته جميع العقلاء، ولا يختلف فيه اثنان، تماما كهذا الأصل: (كل دعوى تحتاج الى دليل).. اللهمّ الا إذا كانت الدعوى بديهية، على ان الدعوى البديهية لا يسمى القائل بها مدّعيا، لأن الدعوى مأخوذ في مفهومها الافتقار الى الدليل، أما القضية الواضحة بذاتها فدليلها معها، وملازم لها لا ينفك عنها بحال، والا لم تكن بديهية.. واختصارا لا يسوغ أن تقول: أين الدليل لمن قال العشرة أكثر من الواحد ـ مثلا ـ.

٥. جاء في تفسير المنار عند ذكر هذه الآية ما يتلخص بأن السلف الصالح من المسلمين كانوا يسيرون على هذا الأصل، فيقيمون الدليل على ما يقولون، ويطلبونه من الناس على ما يدعون، ولكن الخلف الطالح ـ على حد تعبير صاحب التفسير، عكسوا الآية، فأوجبوا التقليد، وحرّموا الاستدلال إلا على صحة التقليد فقط، ومنعوا العمل بقول الله ورسوله، وأوجبوا العمل بقال فلان، وقال علان.

٦. ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِّ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، هذا تكذيب لدعواهم بأن الجنة لهم وحدهم دون الناس أجمعين، والمراد بالوجه في الآية النفس والذات، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، والمعنى ان كل من آمن بالله مخلصا له في أعماله إخلاصا لا يشوبه شرك ولا رياء فهو من المكرمين عند الله، لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا، أما قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فاشارة الى أن التقرب الى الله انما يكون بالعمل الصالح، لا بالأعمال القبيحة الضارة، لأن الله سبحانه لا يطاع من حيث يعصى.

٧. المعروف عن الدين المسيحي انه ينص صراحة على ان اليهود وأولادهم من بعدهم يتحملون مسؤولية صلب (الإله).. ومع ذلك فان بابا روما بذل جهد المستميت عام ١٩٦٥ لتبرئة يهود الجيل الحالي والأجيال السابقة من تبعة صلب المسيح، وعقد من أجل ذلك أربعة مؤتمرات، واصطدم مع الكنيسة الشرقية، وبلغت تكاليف المؤتمرات ٢٠ مليون دولار، والهدف الأول والأخير سياسي بحت، وهو تقوية (دولة إسرائيل)، وتدعيم مركزها في فلسطين، وسياستها في العالم.. وعلى الأصح تقوية الاستعمار، وتدعيم قواعده في الشرق بعامة، والبلاد العربية بخاصة.. وان دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الدين

عند بعضهم، منافع مادية، وكفى.

٨. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، أي ان اليهود عندهم التوراة، وهي تبشر بعيسى، وتعترف بنبوته.. وأيضا النصارى عندهم الإنجيل يعترف بموسى وتوراته.. وعلى هذا يكون اليهود والنصارى في حكم الطائفة الواحدة، لأن دينهم واحد، وكل من التوراة والإنجيل جزء متمم للآخر، ومع ذلك فقد كفّر بعضهم بعضا.

٩. إذا كان اليهود بحكم الطائفة الواحدة، لأن التوراة تعترف بعيسى، والإنجيل يعترف بموسى، فب الأولى أن تكون السنة والشيعة طائفة واحدة حقيقة وواقعا، لأن كتابهم واحد، وهو القرآن، لا قرآنان، ونبيهم واحد، وهو محمد، لا محمدان، فكيف ـ اذن كفّر بعض من الفريقين إخوانهم في الدين؟

١٠. لو نظرنا الى هذه الآية: ﴿قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شيء وقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شيء وهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ} بالمعنى الذي بيناه، واتفق عليه جميع المفسرين، ثم قسنا من يرمي بالكفر أخاه المسلم ـ لو نظرنا الى الآية، وقسنا هذا بمقياسها لكان حالنا أسوأ حالا ألف مرة من اليهود والنصارى.. لقد كفّر اليهود النصارى، وكفّر النصارى اليهود،: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي التوراة والإنجيل.. فكيف بالمسلم يكفّر أخاه المسلم، وهو يتلو القرآن!؟.. فليتق الله الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب، وقلوبهم عمي عن معانيه ومراميه.

١١. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، المراد بالذين لا يعلمون في هذه الآية مشركو العرب، حيث قالوا تماما كما قال اليهود والنصارى: انهم وحدهم يدخلون الجنة دون المسلمين والناس أجمعين، وقد أجاب القرآن:

أ. أولا: ما أجاب به اليهود والنصارى من ان الحق لا يتقيد بالأشخاص، ولا بالأسماء والألقاب، وان دخول الجنة منوط بالإيمان والعمل الصالح.

ب. ثانيا: ان الله سبحانه يعلم المحق من المبطل، وانه سيجزي كلا بأعماله، ﴿فَالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

١٢. سؤال وإشكال: ان كلا من أهل الأديان والأحزاب يدعي انه هو المحق، وغيره المبطل، تماما كما ادعت اليهود والنصارى ومشركو العرب، فكيف يتهيأ لنا ان نعرف الكاذب من الصادق؟ والجواب:

نمهد بالإشارة الى هذه الحقيقة، وهي: كل من يدعي الحق لا بد أن يكون واحدا من اثنين، اما ان يجزم مسبقا منذ البداية برأيه، ويصر عليه، ولا يحتمل فيه الخطأ، ولا يصغي الى بينة العكس أيا كان نوعها، واما أن يكون مجردا للحق يبحث عنه ويمحص وينقب جهده، حتى إذا رأى ما اعتقد انه الدليل اعتمده عازما على ان الحق إذا تبين في الجانب الآخر تبعه وعدل عن رأيه، لأنه ينشد الحكمة أينما كانت وتكون.. ولا بد أن نفصل بين هذين لأن الأول لا سبيل الى اقناعه بالحجة ومنطق العقل، بل لا دواء له الا الاعراض عنه، والثاني يسهل معه التفاهم، وكلنا يعلم ان هناك قضايا واضحة بذاتها لا يختلف فيها اثنان، مثل الرخاء سعادة وهناء، والفقر بلاء وشقاء، والحب خير من البغض، والتعاون أفضل من التنازع، والسلم أعود من الحرب، والعلم نور، والجهل ظلام، والعدل حق، والجور باطل، وان الشيء الواحد لا يتصف بصفة ونقيضها، وما الى ذلك من الحقائق الانسانية البديهية.. إذا تمهد هذا، وكنا على علم منه، ثم ادعى مدع انه هو المحق دون سواه قسنا قوله بتلك الحقائق المتسالم عليها، وتحاكمنا اليها، فان اتفق معها فهو حق، وان ناقضها، واستدعى قوله الضرر والشر فهو باطل.. وبهذا يتبين معنا ان قول من قال:

كل يعزز دينه يا ليت شعري ما الصحيح؟

إن هذا القول لئيم وخطير، يهدف الى اشاعة الفوضى والجهل، ولو صدق لوجب أقفال المعاهد والمعابد والمحاكم، حيث لا قيم عقلية، ولا قانونية، ولا أخلاقية.. والذي يهون الخطب ان قول: (يا ليت شعري ما الصحيح) كلام شعري جاء من وحي العاطفة التي تستمد منطقها من اللامنطق.. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾، شروع في إلحاق النصارى باليهود تصريحا وسوق الكلام في بيان جرائمهم معا.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٥٩.

٢. قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، هذه كرة ثالثة عليهم في بيان أن السعادة لا تدور مدار الاسم ولا كرامة لأحد على الله إلا بحقيقة الإيمان والعبودية:

أ. أولاها قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾

ب. وثانيتها، قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾

ج. وثالثتها، هذه الآية ويستفاد من تطبيق الآيات تفسير الإيمان بإسلام الوجه إلى الله وتفسير الإحسان بالعمل الصالح.

٣. قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، أي وهم يعملون بما أوتوا من كتاب الله لا ينبغي لهم أن يقولوا ذلك والكتاب يبين لهم الحق والدليل على ذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾) فالمراد بالذين لا يعلمون غير أهل الكتاب من الكفار ومشركي العرب قالوا: إن المسلمين ليسوا على شيء أو إن أهل الكتاب ليسوا على شيء.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ أو على ما تقدم من أقوالهم مثل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أو على ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ فجعلوا الجنة خاصة بهم، ومَنُّوا أنفسهم أنها لهم.

٢. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي هذه وما شابهها كقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨] وقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥] كقوله تعالى ـ بعد ذكر نبي الله داوود صلى الله عليه ونبينا محمد ﷺ ـ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ فالإشارة إلى المذكورَين وسائر الرسل، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ [يوسف:٢٨] أي المخاطبة وسائر النساء، فجمعهن في الخطاب من أجل الواحدة المخاطبة، ومعنى: ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ التي يمنونها أنفسهم.

---

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٦٥.

٣. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والبرهان: الحجة، والمراد: بيان أنه لا حجة لهم، وإنما هي أماني من عند أنفسهم، فالأمر للتعجيز؛ لأنه إذا طالبهم بالبرهان ولم يأتوا به تبين أنهم افتروا على الله كذباً؛ لأنهم أهل جرائم وتمرد على الله، فليسوا أهلاً لما يمنونه أنفسهم، ولأن غيرهم الذين أسلموا لله يدخلون الجنة، ولا شك في أنهم أهل لذلك كما كان المسلمون لله قبل اليهودية والنصرانية، فنفي دخولهم الجنة كذب على الله يكشفه عدم البرهان؛ لأنهم لو كانوا صادقين لكانوا في أمانيهم مستندين إلى برهان، فالفارق بين الصادق فيما يحكي عن الله، والكاذب على الله، هو البرهان للصادق، وعدم البرهان للكاذب.

٤. ﴿بَلَى﴾ تصريح بإبطال قصر الجنة عليهم ونفي دخول غيرهم ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إسلام الوجه لله: جعله لله وحده لا يتوجه به لغيره، ومعنى ذلك إخلاص العبادة لله؛ لأن الذي يعبد غيره قد توجه لغير الله وشرّك في وجهه معبوده، فالإسلام للوجه جعله سَلَماً لله، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩]

٥. وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لإخراج المسيء، ولو ترك الإشراك في وجهه فلا يدخل في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أقام هذا مقام: فإنه سيدخل الجنة وفيه دلالة على أن سبب الجنة هو العمل الذي يستحق به الأجر عند الله؛ وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان.

٦. في قوله سبحانه: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ إشارة إلى الرَّد على اليهود الذين يدّعون اختصاصهم بالله مع أنهم وغيرهم من البشر كلهم عباد الله، وهو ربهم كلهم لا فرق بينهم في ذلك، وفي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ مناسبة لقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ من حيث أن معناه: عبد الله مخلصاً له العبادة، فأجر العبادة من ربه؛ لأن العبادة وإسلام الوجه له تعبير عن كونه رب العابد له وتعبير عن كون الذي أسلم وجهه لله عبداً له، فأجر العبادة من المعبود الذي هو ربه، ففي قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ إشارة إلى أنه معبوده، وفيه إشارة إلى وجه استحقاق الأجر منه، وهو أن عبادته عبادة لربه، فاستحق بها الثواب؛ لأنها حق وصواب أمره بها ربه، فآجره عليه.

٧. قد قدمت زيادة على هذا في مناسبة قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لعبادتهم لربهم وخوفهم من ربهم ورجائهم له، وذكرت الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾ [المؤمنون:٥٧] وإفادة جملة ذلك لصلتهم بالله من حيث هو ربهم.

٨. تحصل من فوائد قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾:

أ. أن طريق الجنة هو العمل المذكور لا أماني اليهود؛ لأنهم فاقدون لهذا السبب، عادلون عن طريق الجنة الموصل إليها.

ب. أن الجنة أجر على العمل من رب المسلمين له المحسنين، الذي عبدوه فاستحقوا الأجر منه بعبادتهم لربهم الذي أمرهم بعبادته، وهو يرد على اليهود والنصارى دعوى اختصاصهم بالله.

ج. أن الصلة بالله من طريق الإخلاص له والإحسان، هي الصلة بالله لا الأماني.

٩. قوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أعتقد أن المعنى: أنه ليس من شأنهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لأنهم في طريق النجاة من النار؛ لأن كل عاقل يعلم أن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فهو في طريق النجاة، وأنه لا يخاف عليه من إخلاص عبادته لله وإحسانه، فدعوى اليهود أنه لن يدخل الجنة مكابرة للعقول، وما أحسن هذه العبارة حيث لم يسند نفي الخوف إليهم؛ لأنهم وإن كانوا على طريق النجاة يكونون خائفين من ذنوبهم في الدنيا، فلم ينف عنهم أن يخافوا بل هم أكثر خوفاً لله من المجرمين، وقد قال تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤]

١٠. مرّ قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مرتين، وهذه الثالثة، وقد جاءت في مواضع من القرآن، فالمقصود: أنهم لا يُخاف عليهم وإن كانوا خائفين في الدنيا.

١١. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إما أن المراد في الآخرة؛ لأنهم في الدنيا يحزنون من ذنوبهم، وإما أن المراد ـ وهو الراجح عندي ـ التعريض بأهل الباطل؛ لأنهم في بعض حالتهم يحزنون من باطلهم كما قال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] فالمراد: ولا هم يحزنون من طريقتهم هذه التي هي إسلام وجوههم لله كما يحزن غيرهم من طرائقهم المخالفة.

١٢. نظير هذا: قول إبراهيم الذي حكاه الله عنه في قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨١ ـ ٨٢] أي أنهم هم الذي يأمنون ولا يخافون من إيمانهم وتركهم للمعاصي، وهذه حجة على قومه الذين أشركوا بالله بلا برهان، فهم أحق بالخوف من شركهم، فهكذا ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لا يحزن من أجل إسلامه وإحسانه؛ لأنه يعلم أن ذلك سبب النجاة بخلاف من أشرك وأساء، فإنه ينبغي له أن يخاف ويحزن من طريقته وربما

حزن، فالحاصل: أن هذه الجملة احتجاج على اليهود والنصارى.

١٣. سؤال وإشكال: إذا لم يقل في المسلمين المحسنين: لا يخافون، لئلا يوهم عدم خوفهم من ذنوبهم، فكيف قال سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟ ولم يقل: ولا حزن عليهم، مع أنهم يحزنون كما قال أمير المؤمنين: (المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه)، فهم يحزنون لأسباب عدة، مثل غلبة الجور وظهور المنكرات، ويحزن المؤمن من ذنوبه، فكيف لم يقل: ولا حزن عليهم؟ لئلا يوهم هذا المعنى كما في: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، والجواب: إن عدم الخوف سمة المجرمين الظلمة كما قلنا، وكذلك من سمتهم في الغالب أن لا يحزن الناس عليهم إذا ماتوا، أما المخلص المحسن فإن الناس يحزنون عليه، فلم يناسب حاله أن يقال فيه: لا حزن عليه، فكان الحزن مخالفاً للخوف؛ لأن المجرم الظالم يقال فيه: لا يخاف الله، ويقال فيه: إذا مات لا حزن عليه، والمخلص المحسن يقال فيه: يخاف الله ويُحزَن عليه إذا مات، فالمناسب في المؤمن نفي الخوف عليه لا الحزن عليه، فظهر: إتقان عبارة القرآن: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يُخاف عليهم ولا هم يحزنون من دينهم وإحسانهم كما يحزن أهل الباطل من باطلهم في بعض الحالات لو لم يكن إلاَّ عند اقتراب الأجل وحضور الموت أو أن من شأنهم أن يحزنوا، وينبغي لهم ذلك، نعم وهذا المعنى يصلح للدنيا والآخرة فلا خوف عليهم في الدنيا ولا في الآخرة ولا هم يحزنون في الدنيا ولا في الآخرة.

١٤. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ المراد: ليسوا على طريق حق، فبالغوا وجعلوا دين الآخرين لا أصل له ولا أساس له، ومعنى هذا الكفر من كل منهما بكتاب الآخر ورسول الله إليه: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الذي يوجب عليهم الإيمان برسل الله وكتبه، وهو كتاب الله الذي يجب عليهم اتباعه وهو التوراة؛ لأن الفريقين يتلونها، وتسمى عند النصارى العهد القديم أو جنس الكتاب الصادق على التوراة وعلى الإنجيل.

١٥. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ الذين لا يعلمون هم أهل الجاهلية الذين ليس لهم كتاب، فتجرؤوا على جحد الحق بأن قالوا مثل قول اليهود والنصارى بأن قالوا: ليست النصارى أو اليهود أو كلاهما على شيء فهو مثل قولهم في جحد الحق، ويوافق هذا التفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص:٤٨]

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا فصل جديد من السورة، يدخل فيه القرآن معهم في حوار غير مباشر، أو يوحي للنبي بالدخول معهم في ذلك، وهو جزء من حملة التوعية العملية للمسلمين لمعرفة ما حولهم ومن حولهم، وأسلوب من أساليب التعرية للواقع الداخلي لهذه الجماعات من خلال الأوهام الساذجة التي يحملونها عن مصيرهم ومصير غيرهم من الناس من دون استناد إلى ركن وثيق، فهم يحسبون أن الجنة محجوزة لليهود وللنصارى، فهذا هو ما يقوله اليهود عن أنفسهم، وما يقوله النصارى عن أنفسهم.

٢. ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ لكن القرآن يواجه هذه الأوهام بتعليق ساخر مهذّب: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، ولكلّ إنسان مطلق الحرية في تمني ما يشاء لنفسه، فإن مساحة الأماني الذاتية واسعة سعة الخيال، فإذا كانت كلماتهم هذه من وحي التمنيات، فلتكن لهم حريتهم في إطلاقها كما يريدون، وإذا كانت من وحي العقيدة التي تحدد للإنسان مصيره الذي يبني عليه حياته، فلتكن المواجهة من باب النصيحة والتحدي.

٣. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ذلك، بتقديم الأسس العقيدية التي تحدد للإنسان قضية المصير في الآخرة من الجنة والنار، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في هذه الدعوى، لأنّ الصدق يتطلّب الإثبات الذي ترتكز عليه القناعة العقلية والوجدانية، وهذا ما يفقده هؤلاء في ما يملكونه من وسائل الإقناع والإثبات.

٤. ثم يتابع القرآن تحديد الأسس التي تنطلق من خلالها الحجّة: ﴿بَلَى﴾، ليس الأمر كما تقولون يا أصحاب الأماني، فلستم أهل الجنة، لكن أهلها: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، فالآمنون يوم القيامة هم الذين يسلمون وجوههم لله في الفكر والعقيدة والعبادة، فلا ينطلقون في فكر أو عقيدة إلا إذا كان ينسجم مع الحقيقة المنسابة من وحي الله، ولا يدخلون في عبادة إلا من خلال تجسيدها للمعنى الحقّ لعبودية الإنسان لله، فلا يشركون بعبادته غيره ولا يعبدون سواه.

٥. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وهم الذين لا يعيشون هذا الإسلام في حياتهم الداخلية فحسب، ليتجمد في

---

(١) من وحي القرآن: ٢/ ١٧٣.

لحظات التأمل والفكر والخشوع الروحي المناسب في أجواء صوفية غامضة حالمة، بل يتحول في حياتهم العملية إحسانا للحياة وللآخرين في كل ما يستطيعون أن يقدّموه من أعمال وخدمات، وفي كل ما يملكون تفجيره من طاقات، فلا يعيشون الأنانية في قواهم التي يملكونها ولا في فكرهم الذي يعيشونه، بل يعتبرونها ملكا لهم وللحياة والإنسان، لأنها هبة الله ونعمته الملتزمة بحدود المسؤولية، فلا بد من أن تتصاعد في حياتهم صلوات عملية خاشعة في رحاب الله.

٦. ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بما قدّموه من عمل، وبما عاشوه من إيمان، لأن الإنسان الذي يسلم وجهه لله في كل توجّهاته في الحياة، وفي كل تطلّعاته المستقبلية، وفي كل علاقاته الإنسانية، يرتبط بالله بأوثق الروابط، ويرتفع إليه بأعلى درجات القرب، مما يجعله محبوبا من الله، قريبا إليه، مرضيّا عنده؛ وهذا ما يشكل الأساس لكي لا يخاف الإنسان من أيّ شيء مما يخافه الناس عادة، فالمتقون في حرز من الخوف في الدنيا والآخرة معا، كما أن الحزن لا معنى له في وعي الإنسان الذي تتجمّع في روحه كل عناصر السرور والفرح الروحي، انطلاقا من حصوله على رضوان الله الذي هو مصدر كل سعادة من خلال خوفه من الله وحده دون سواه، فحصلوا من ذلك على محبته ورضاه ونعيمه.

٧. لعل التعبير بعبارة: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدلا من لا يخافون، للإيحاء بأن الخوف لا وجود له في ذاته بعيدا عن الجانب الذاتي للشخص، وقد يستوحي الإنسان من إحساس المؤمن بمستقبله البعيد عن الخوف والحزن أمام واقع المصير بالآخرة، أن ذلك يزيده قوة واطمئنانا، فلا يخاف ولا يحزن من ضغط الآخرين في ساحة الصراع، لأنه يملك الثقة بالله في خط رعايته له.

٨. على هدى الآية الكريمة في الحديث عن مشاعر النبي محمد ﷺ في ليلة الهجرة: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وفي الحديث عن المسلمين: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]

٩. هل يملك هؤلاء الذين يحتكرون لأنفسهم الجنة مثل هذه الركائز الفكرية والعملية، أم ماذا؟ إن القرآن يوحي للإنسان بكل ما تحمله كلمة (ماذا) من استفهام إنكاري يبحث عما يطرح عليهم، فلا يجد له جوابا إلا الصمت المشبع بالشعور العميق بالذنب في أعماق المجرمين.

١٠. تستمر عملية التوعية والتعرية، ليعرف المسلمون طبيعة العلاقات الداخلية التي تربط بين

أفراد الجبهة المضادّة، فليست هناك وحدة في المواقف، ولا وحدة في المشاعر، بل هناك التناقض والتنافر الذي تشعر فيه كل فئة منهم بالذاتية المطلقة التي تفصلها عن الفرقاء الآخرين، وتقف الفواصل الفكرية والشعورية لتشكل حاجزا معنويا داخليا يفصل كل فريق عن الآخر؛ فلا أرض موحّدة يقفون عليها، ولا قواسم مشتركة يلتقون عليها، مما يجعل كل فريق منهم يجرّد الفريق الآخر من كل الصفات أو الأفكار التي تبعث على الاحترام والتقدير.

١١. سواء في ذلك اليهود والنصارى والمشركون الذين وصفهم القرآن بكلمة ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، للإيحاء الدائم بأن الجهل هو أساس كفرهم وشركهم.. وهكذا يعرض القرآن هذه الصورة القلقة للواقع الذي يعيشه هؤلاء، ليعرف المسلمون كيفية مواجهة كل فريق بمفرده، والاستفادة من ذلك في اتباع سياسة المراحل في قضايا الصراع بتفجير الخلافات فيما بينهم والتعامل معهم من ذلك الموقع، وليشعر المسلمون في هذا الاتجاه بالقوّة الذاتية المتفوّقة أمام قوة الآخرين، فلا يستسلمون للرهبة التي توحيها الكثرة، لأنها كثرة ممزّقة مبعثرة، وليست وحدة متماسكة تثير الرعب والخوف في النفوس.

١٢. ثم يختم القرآن الآية بإعطاء الصورة مزيدا من الوضوح في ما يوحيه من الجوّ الذي نشاهد فيه كل هؤلاء الفرقاء وقد اجتمعوا بين يدي الله في موقف الخلاف والنزاع والخصومة، حيث يدلي فيه كل واحد بحجته، ليثبت أنه على الحق وأن الآخرين على باطل.. ويختصر الموقف ويسدل الستار على الصورة: ﴿فَالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، فليس المجال مجال إعطاء الحكم وتحديد الموقف، بل هو مجال التوعية والتعرية الذي يكتفى فيه بالصورة الواضحة التي يبصر فيها المؤمنون مواقع أقدامهم في الطريق الطويل، وقد نجد في كلمة: (وهم يتلون الكتاب) إشارة إلى التنديد بهم بأنهم يصدرون الأحكام بالتخطئة والرفض لبعضهم البعض، مع أنهم يؤمنون بالكتاب الواحد ويتلونه، ويمكنهم الرجوع إليه بإخلاص لتدبّر الحوار في آياته، وللوصول إلى النتيجة الحاسمة فيما هو الحق لأي واحد منهما أو لغيرهما مما يمكن أن يحكم الكتاب له.

١٣. هذا ما يجب أن يفهمه المسلمون الذين يتلون القرآن الذي يؤمنون به جميعا، ولكنهم يكفّر بعضهم بعضا من دون تدبّر في آياته، بسبب افتقادهم الروحية التي تضفي على الخلاف جوّا من السعي إلى الحقيقة للوقوف معها مهما كانت النتائج، بعيدا عن كل تعصب وتعقيد، إن الموقف هو الموقف نفسه،

والنتائج السلبية والإيجابية هي النتائج ذاتها، لأن الإطار في الحالتين واحد.

١٤. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ فهم لا يؤمنون بالسيد المسيح ورسالته، ولا يرون أن الإنجيل كتاب الله الذي ترتكز عليه النصرانية في شرعية معتقداتها، فهم ـ في نظر اليهود ـ مزيّفون، من خلال الادعاء بأن عيسى عليه السّلام ليس المسيح الموعود بل هو شخصية مزيفة، ولذلك فإنهم ليسوا على شيء من الدين الحق.

١٥. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لأنهم ينكرون السيد المسيح عليه السّلام ورسالته، فلا ينفعهم إيمانهم بالتوراة وبموسى، لأن المؤمن الحق من يؤمن بالكتاب كله توراة وإنجيلا، مما يجعلهم مثل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، لتكون المسألة في طريقة تديّنهم هي الخلط بين الإيمان والكفر، ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الذي يجسّد الحقيقة في آياته، فيزيل الشك ويرفع الشبهة، ليكون الخط الفاصل بين الحق والباطل، فيمكن لهم أن يدخلوا الحوار من خلاله ويديروا الجدل حول تفسيره وتأويله، ليعرفوا أن التوراة تبشر بالسيد المسيح وبكتابه ورسالاته، وأن الإنجيل يتحدث عن التوراة وعن النبي موسى عليه السّلام، مما يجعل الدينين منطلقين من قاعدة واحدة، لو درسوهما دراسة دقيقة واعية.

١٦. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم المشركون الذين انطلق شركهم من موقع جهلهم: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ في احتكارهم الحق لأنفسهم وإبطالهم قول النبي صلّى الله عليه وآله بأنه ليس على شيء، بل هو ساحر أو كاهن أو شاعر، أو نحو ذلك من الاتهامات التي وجهت إليه فأنكرت رسالته، ووجهت إلى القرآن فأنكرت نزوله من عند الله كوحي يوحى وقالوا عنه إنه: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]

١٧. ربما كانت مشكلة هؤلاء جميعا أنهم ليسوا مستعدّين للدخول في نقاش فكري وحوار علميّ، ليصلوا من خلال ذلك إلى العقيدة المشتركة والموقف الواحد، لأن الانتماء إلى عقيدتهم لم يعد حالة فكرية، بل تحوّل إلى حالة ذاتية، مما يجعل التنازل عنها تنازلا عن الذات نفسها، وهذه سمة من سمات التعصّب والتخلف والجهل، ولذلك فإن من الصعب الوصول إلى مواقع اللقاء حتى في التفاصيل الصغيرة، وهذا ما يجعل حوار الأديان من أكثر أنواع الحوار صعوبة، لانطلاقه من حالة شعورية لا من حالة فكرية، فلا

مجال للوصول إلى موقع تحكيم يحدّد لكل منها مواقعه من ناحية الواقع، ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويعرّفهم الحقيقة الحاسمة: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، فقد يرى بعضهم ـ كالمشركين ـ أنهم ليسوا على شيء في المبدأ والتفاصيل، وقد يرى بعضهم ـ كاليهود والنصارى ـ أنهم يملكون بعض الحقيقة بطريقة مختلفة، وأنهم ليسوا على الخط المستقيم في إنكارهم الإسلام وشرعيته.

١٨. نستطيع أن نستوحي من هذه الآية في حياتنا معطيين:

أ. أولا: التركيز الواعي على دراسة طبيعة العلاقات التي تحكم الفئات المعادية للإسلام والمسلمين، في نظرة كل منها إلى الأخرى، للاستفادة من ذلك في عملية المواجهة التي يقوى فيها الموقف أو يضعف تبعا لتماسك القوى المضادّة أو اهتزازها، حتى نعي طبيعة عناصر القوة عندنا وعناصر الضعف عندهم، ليتوازن الموقف لدينا في حركة واقع الصراع بيننا وبينهم، فننفذ إلى داخلهم لنرى أن اجتماعهم لم ينطلق من قاعدة فكرية واحدة، فهم يكفّر بعضهم بعضا، بل هو يتحرك من خلال المصالح المشتركة المضادة للإسلام والمسلمين، لنحدد موقفنا منهم، فلا نتّخذهم أولياء وإن اختلف اليهود عن النصارى في مستوى عداوتهم للإسلام، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] في مواجهتهم للإسلام والمسلمين، الأمر الذي يفرض علينا الوعي العميق للساحة وللقوى المضادّة فيها، لنحمي أنفسنا من الخطط التي يعدّونها في مواجهة واقعنا كله.

ب. ثانيا: استيحاء الآية في محاولة الاستغراق الذاتي داخل العلاقات الفكرية والعملية بين المسلمين الذين قد يختلفون ـ كما اختلفوا ـ في أكثر من جانب من جوانب العقيدة والتشريع، وقد يتبادلون النظرة السلبية ـ كما تبادلوها ـ، فيشعر كل فريق منهم بالفواصل الجزئية التي تفصله عن الآخرين كما لو كانت فواصل كلية، لا يصيرون فيها إلى اجتماع، ولا ينتهون إلى لقاء، لنعرف من ذلك كله الأساس القويّ الذي يجمعهم ويوحّدهم، لتبقى الخلافات في نطاقها الجزئي، وتتحدد النظرة السلبية في تلك الحدود الضيّقة التي لا تعزل أيّ فريق عن الفرقاء الآخرين، بل تشير إلى الأفق الواسع الذي تتحرك فيه الخطى المؤمنة نحو الهدف الكبير في رحاب الله.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. فيما مرّ بنا من آيات رأينا جانبا من الادعاءات الفارغة التي أطلقها جمع من اليهود والنصارى، ورأينا أن هذه الادعاءات الفارغة تستتبعها روح احتكارية ضيقة، ثم وقوع في التناقضات.

٢. عبارة ﴿ليست على شيء﴾ تعني أن أفراد هذا الدين لا مكانة لهم ولا منزلة لدى الله سبحانه، أو تعني أن هذا الدين لا وزن له ولا قيمة.

٣. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي إنّ هؤلاء لديهم الكتاب الذي يستطيع أن ينير لهم الطريق في هذه المسائل، ومع ذلك ينطلقون في أحكامهم من التعصب واللجاج والعناد!

٤. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ هذه الآية الكريمة تجعل أقوال هذه المجموعة من أهل الكتاب المتعصبين شبيهة بأقوال الجهلة من الوثنيين.

٥. هذه الآية تقرر أن المصدر الأساس للتعصب هو الجهل والبعد عن العلم، لأن الجاهل مطوّق بمحيطه المحدود، لا يقبل غيره، بل هو ملتصق بما ملأ ذهنه منذ صغره وإن كان خرافيا، ويرفض ما سواه.

٦. اختتمت الآية بالتأكيد على أن الحقائق إن خفيت في هذه الدنيا، فهي لا تخفى في الآخرة حيث تنكشف كل الأوراق: ﴿فَالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

٧. هذه الآية فيها أيضا تثبيت للقلوب وطمأنة للنفوس، فهي تؤكد للمسلمين أن الطوائف التي تجهزت لمحاربتهم لا تتميز بالانسجام والوحدة، بل إن مجاميعها يكفّر بعضهم بعضا، والذي يجمع بينهم على الظاهر هو الجهل، وبالتالي التعصب الناشئ عن هذا الجهل.

٨. القرآن في هاتين الآيتين يشير إلى ادعاء آخر من الادعاءات الفارغة لمجموعة من اليهود والنصارى، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، ثم يجيبهم جوابا رادعا قائلا: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ ثم تخاطب الآية رسول الله وتقول: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

٩. بعد التأكيد على أن ادعاء هؤلاء فارغ لا قيمة له، وأنه مجرد أمنية تخامر أذهانهم، يطرح القرآن المعيار الأساس لدخول الجنّة على شكل قانون عام ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٤٢.

رَبِّهِ﴾، ومن هنا فالمشمولون بهذا القانون هم في ظلال رحمة الله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

١٠. بعبارة موجزة: الجنّة ومرضاة الله والسعادة الخالدة ليست حكرا على طائفة معينة، بل هي نصيب كل من يتوفر فيه شرطان:

أ. الأوّل: التسليم التام لله تعالى، أو الانصياع لأوامره سبحانه، وعدم التفريق بين هذه الأوامر، أي عدم ترك ذلك القسم من الأوامر الذي لا ينسجم مع المصالح الفردية الذاتية.

ب. الثّاني: وهو ما يترتب على التسليم في المرحلة الاولى، من القيام بالأعمال الصالحة والإحسان في جميع المجالات.

١١. القرآن، بطرحه هذه الحقيقة، يرفض بشكل تام مسألة التعصب العنصري ويكسر طوق احتكار فئة معينة للسعادة، ويضع ضمنيا معيار الفوز متمثلا بالإيمان، والعمل الصالح.

١٢. ﴿الْأَمَانِيُّ﴾ جمع (أمنية) وهي الرجاء الذي لا يتحقق للإنسان، والآية تطرح أمنية واحدة من أمنيات أهل الكتاب، ولكن هذه الأمنية ـ أي أمنية احتكار الجنّة ـ هي مصدر أمان أخرى، وبعبارة أخرى: أمنيتهم لها فروع وامتدادات، ولذلك عبر عنها القرآن بلفظ ﴿أَمَانِيِّ﴾

١٣. نسبت الآية الكريمة التسليم إلى (الوجه): ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾، وذلك يعود إلى أن الإنسان حين يستسلم لشيء، فأوضح مظهر لهذا الاستسلام هو أن يولي وجهه تجاه ذلك الشيء، ومن المتحمل أيضا أن (الوجه) يعني في الآية الذات، ويكون المعنى أن هؤلاء أسلموا بكل وجودهم لأوامر الله.

١٤. الآيتان المذكورتان تعلّمان المسلمين عدم الانجراف وراء الادعاءات الباطلة غير القائمة على دليل، وتعلّمهم أن يطلبوا الدليل والبرهان من صاحب الادعاء، وبذلك يسدّ القرآن الطريق أمام الانجراف الأعمى وراء التقليد، ويجعل التفكير المنطقي سائدا في المجتمع.

١٥. ذكر عبارة ﴿وهُوَمُحْسِنٌ} بعد طرح مسألة التسليم، إشارة إلى أن الإحسان بالمعنى الواسع للكلمة لا يتحقق إلّا برسوخ الإيمان في النفوس، كما تفهم العبارة أن صفة الإحسان ليست طارئة في نفوس المؤمنين، بل هي خصلة نافذة في أعماق هؤلاء.

١٦. نفي الخوف والحزن عن أتباع خط التوحيد سببه واضح، لأن هؤلاء يخافون الله دون سواه،

بينما المشركون يخشون من كل ما يهدد مصالحهم الدنيوية التافهة، بل يخشون أمورا خرافية موهومة تقلقهم وتقضّ مضاجعهم.

٤٦. الظلم والمساجد

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٤٦] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: أن قريشا منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ الآية[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ هم النصارى[٢].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ هم النصارى، وكانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه[٣].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال في الآية: أولئك أعداء الله الروم، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصّر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس[٤].

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٠.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٤٤٢.

(٣) تفسير مجاهد: ص٢١٢.

(٤) ابن جرير: ٢/ ٤٤٣.

٢. روي أنّه قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، وهم النصارى، لا يدخلون المسجد إلا مسارقة، إن قدر عليهم عوقبوا[١].

٣. روي أنّه قال: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، قال يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون[٢].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ المساجد هي: المواضع التي يعبد فيها الله تعالى؛ وكل متعبد ومصلى فهو مسجد، كما قال النبي ﷺ: (جعلت لي كل أرض طيبة مسجدا وطهورا[٣].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ الآية: هم الروم، كانوا ظاهروا بختنصّر على خراب بيت المقدس حتى خربه، وأمر به أن تطرح فيه الجيف، وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن تضرب عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها[٥].

٣. روي أنّه قال: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، قال أما خزيهم في الدنيا فإنه إذا قام المهدي وفتحت القسطنطينية قتلهم، فذلك الخزي[٦]. وهي آثار تعارض ما ورد في القرآن الكريم من السماحة في الدعوة للإسلام، وعدم إكراه الناس عليه، وبذلك فإن الخزي المراد ليس ما ذكر في هذه الآثار، وإنما الخزي بمفهومه العام

---

(١) عبد الرزاق: ١/ ٥٦.

(٢) عبد الرزاق: ١/ ٥٦.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٣.

(٤) ابن جرير: ٢/ ٤٤٣.

(٥) ابن جرير: ٢/ ٤٤٧.

(٦) ابن جرير: ٢/ ٤٤٨.

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ نزلت في أنطياخوس بن ببليس الرومي ومن معه من أهل الروم[١].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يقول: فلا أحد أظلم: ﴿مِمَّنْ مَنَعَ﴾ يعني: نصارى الروم: ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾ يعني: بيت المقدس أن يصلى فيه: ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يعني: التوحيد، ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ وذلك أن الروم ظهروا على اليهود، فقتلوهم، وسبوهم، وخربوا بيت المقدس، وألقوا فيه الجيف، وذبحوا فيه الخنازير، ثم كان على عهد الروم الثانية ططسر بن سناباتوس، وي قال اصطفانوس، فقتلهم، وخرب بيت المقدس، فلم يعمر حتى بناه المسلمون في زمان عمر بن الخطاب[٢].

٣. روي أنّه قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني: أهل الروم: ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي: ﴿لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ يعني: الأرض المقدسة؛ إذ بعث محمد ﷺ: ﴿إِلَّا خَائِفِينَ﴾، فلا يدخل بيت المقدس اليوم الرومي إلا خائفا متنكرا، فمن قدر عليه منهم فإنه يعاقب[٣].

٤. روي أنّه قال:: ثم أخبر عن أهل الروم، فقال: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ يعني: الهوان إن لم تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم بأيدي المسلمين في ثلاث مدائن: قسطنطينية، والرومية، ومدينة أخرى وهي عمورية، فهذا خزيهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ من النار[٤].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ هؤلاء المشركون، حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذي طوى، وهادنهم، وقال لهم: (ما كان أحد يرد عن هذا البيت)، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه

---

(١) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٢.

(٢) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٢.

(٣) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٢.

(٤) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٣.

فما يصده، وقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق، وفي قوله تعالى: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ قال إذا قطعوا من يعمرها بذكره، ويأتيها للحج والعمرة[1].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ هم المشركون من قريش وغيرهم، حين منعوا الحرم والبيت والمسجد الحرام أن يدخل، وما كان من كفرهم وإساءتهم التي ذكرها الله، فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله﴾، فذكر منعهم للمساجد، وهم في حكم الله الممنوعون، الذين لم يكن لهم أن يدخلوها إلا خائفين، فلما أن أعز الله دينه، وأظهر نبيه أنزل: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، فحرم على من لم يكن أسلم من أهل الكتاب وغيرهم أن يدخلوها، أو يقربوها.

٢. أما سعيهم في خرابها: فإنهم لما أن سعوا في هلكة المؤمنين، ومنعوهم من إقامة أحكام الله فيها ـ سعوا بذلك في خرابها، وأرادوا أن يمحو ما يتلى من كتاب الله فيها، فلما أن كانوا كذلك كانوا ساعين في خرابها، طالبين لزوالها؛ لأن ببقاء المسلمين ودوامهم تعمر المساجد وتبنى، وبزوالهم تخرب وتفنى، والله مظهر دينه ولو كره المشركون.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يقول: لا أحد أظلم لنفسه، ولا أوضع لها.

٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾:

أ. قيل: مساجد الله: الأرض كلها؛ لأن الأرض كلها مساجد الله؛ كقوله ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا) منع أهل الكفر أهل الإسلام أن يذكروا فيها اسم الله، وأن يظهروا فيها دينه، وقوله:

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٤٤٤.

(٢) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٣.

(٣) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٤٤.

﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ كقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣].. وقوله: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾:

• أي لا يدخلون البلدان والأمصار إلا بالخوف، أو بالعهد؛ كقوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ الله وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] وهو العهد.

• ويحتمل قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾: ما كان ينبغي لهم ـ بما عليهم من حق الله، وتعظيمه ـ أن يدخلوا المساجد إلا خائفين وجلين؛ لما كانت هي بقاع اتخذت لعبادة الله، ونسبت إليه تعظيما لها؛ فدخلوا مخرّبين لها، مانعين أهلها من عبادة الله فيها.

ب. وقيل: مساجد الله: المسجد الحرام، وذلك أنهم حالوا بينها وبين دخول محمد ﷺ وأصحابه فيها، حتى رجعوا من عامهم ذلك، ثم فتح الله عزّ وجل مكة لهم، فصار لا يدخلها مشرك إلا خائفا؛ كقوله عز وجل، ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٤]

ج. وقيل: أراد بمساجد الله: بيت المقدس؛ قيل: إن النصارى استعانوا ببختنصّر وهو رئيس المجوس، حتى خربوا المساجد، وقتلوا من فيها من أهل الإسلام، ثم بنى أهل الإسلام ـ بعد ذلك بزمان ـ مساجد، فكان لا يدخل نصراني فيها إلا خائفا، مستخفيا، والله أعلم.

٣. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قيل: الخزي: الجزية، ويحتمل القتال، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ المساجد جمع مسجد والمسجد هو موضع العبادة لقوله ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجداً) أي موضع عبادة، وهذه الآية نزلت في كفار قريش حين منعوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية.

٢. ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ بالمنع من ذكر الله فيها، ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ من قتل الحربي وأخذ الجزية من الذمي، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وإنما عظم الله سبحانه عذابهم

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٧٨.

لعظم ذنوبهم.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. المساجد هي مواضع العبادات، وفي المراد بها هنا قولان:

أ. أحدهما: ما نسب إلى التعبد من بيوت الله تعالى استعمالا لحقيقة الاسم.

ب. الثاني: أنّ كلّ موضع من الأرض، أقيمت فيه عبادة من بيوت الله وغيرها مسجد، لقول النبي ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا)

٢. في المانع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، أربعة أقاويل:

أ. أحدها: أنه بختنصر وأصحابه من المجوس الذين خربوا بيت المقدس، وهذا قول قتادة.

ب. الثاني: أنهم النصارى الذين أعانوا (بختنصّر) على خرابه، وهذا قول السدي.

ج. الثالث: أنهم مشركو قريش، منعوا رسول الله ﷺ من المسجد الحرام عام الحديبية، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد.

د. الرابع: أنه عامّ في كل مشرك، منع من كل مسجد.

٣. في قوله تعالى: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: بالمنع من ذكر الله فيها.

ب. الثاني: بهدمها.

٤. في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: خائفين بأداء الجزية، وهذا قول السدي.

ب. الثاني: خائفين من الرعب، إن قدر عليهم عوقبوا، وهذا قول قتادة.

٥. في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أنه قتل الحربي وجزية الذمي.

---

(١) تفسير الماوردي: ١/ ١٧٤.

ب. الثاني: أنه فتح مدائنهم عمورية، وقسطنطينية، ورومية، وهذا قول ابن عباس.

٦. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو أشد من كل عذاب، لأنهم أظلم من كل ظالم.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. اختلف المفسرون في المعنى بهذه الآية:

أ. قال ابن عباس، ومجاهد، واختاره الفراء انهم الروم، لأنهم كانوا غزوا بيت المقدس، وسعوا في خرابه حتى كانت أيام عمر، فأظهر الله عليهم المسلمين، وصاروا لا يدخلونه إلا خائفين.

ب. وقال الحسن وقتادة والسدي: هو بختنصّر خرب بيت المقدس، قال قتادة: وأعانه عليه النصارى.

ج. وقال قوم: عنى به سائر المشركين، لأنهم يريدون صد المسلمين عن المساجد، ويحبونه.

د. وقال ابن زيد، والبلخي، والجبائي والرماني: المراد به مشركي العرب، وضعف هذا الوجه الطبري من بين المفسرين بان قال إن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وهذا ليس بشيء:

- لأن عمارة المساجد بالصلاة فيها وخرابها بالمنع من الصلاة فيها، وقد روي انهم هدموا مساجد كان أصحاب النبي يصلون فيها بمكة، لما هاجر النبي وأصحابه.
- وقال: وهو ايضاً لا يتعلق بما قبله من ذم أهل الكتاب كما يتعلق إذا عنى به النصارى، وبيت المقدس، فيصير الكلام منقطعاً، فيقال له: قد جرى ذكر لغير أهل الكتاب من المشركين في قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أقرب من اليهود والنصارى، ولان ذلك كله ذم، فمرة يوجه الى اليهود، ومرة الى النصارى، ومرة الى عباد الأوثان وغيرهم من أهل الشرك.

٢. سؤال وإشكال: كيف قال: ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾ بالجمع وهو أراد المسجد الحرام، أو بيت المقدس؟ والجواب: عنه جوابان:

---

(١) تفسير الطوسي: ١/ ٤١٧.

أ. أحدهما: ان كل موضع منه مسجد، كما يقال لكل موضع من المجلس العظيم مجلس، فيكون اسماً يصلح ان يقع على جملته، وعلى كل موضع سجود فيه.

ب. الثاني: لأنه يدخل فيه المساجد التي بناها المسلمون للصلاة بالمدينة، قاله الجبائي.

٣. ﴿مِمَّنْ مَنَعَ﴾ المنع، والصد والحيلولة نظائر، وضد المنع الإطلاق، يقال: منع منعاً، وامتنع امتناعا، وتمنع تمنعاً، وتمانع تمانعاً، ومانعه ممانعة، وقال صاحب العين: المنع: ان يحول بين الرجل وبين الشيء يريده، وتقول: منعته فامتنع، ورجل منيع لا يخلص اليه وهو في عز ومنعة يخفف ويثقل، وامرأة منيعة ممتنعة لا تؤاتي على فاحشة وقد تمنعت مناعة، وكذلك الحصن وغيره تقول: منع مناعا: إذا لم يرم ومناع، أي امنع قال الشاعر:

مناعها من ابل مناعها ألا ترى الموت لدى اوباعها

٤. مساجد الله قد بينا ان منهم من قال أراد المسجد الأقصى، ومنهم من قال أراد المسجد الحرام، ومنهم من قال أراد جميع المساجد.. وروي عن زيد بن علي عن أبيه عليهما السلام انه أراد جميع الأرض لقوله ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً)

٥. ﴿وَسَعَى﴾ والسعي والعدو والركض نظائر، وضد السعي الوقف، تقول: سعى سعياً، واستسعى استسعاء وتساعوا تساعياً، قال صاحب العين: السعي: عدو دون الشديد، وكل عمل من خير أو شر، فهو السعي يقال: فلان يسعى على عياله أي يكسب لهم يقولون: ان السعي الكسب والعمل، قال الشاعر:

سعى عقالا فلم يترك لنا سبداً فكيف لو قد سعى عمرو

عقال صدقة عام، والساعية ان تسعى بصاحبك الى وال من فوقه، والسعاية ما يستسعى به العبد من ثمن رقبته إذا أعتق بعضه، وهو ان يكلف من العمل ما يؤدي عن نفسه ما بقي ويقال سعى للسلطان إذا ولي الصدقة وساعي الرجل الامة: إذا فجر بها، ولا تكون المساعاة إلا في الإماء، وأصل الباب: السعي: العدو.

٦. ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ فالخرب، والهدم، والنقض نظائر ونقيض الخراب العمارة، يقال: خرب خرابا واخربه إخرابا، وتخرب تخربا وخربه تخريباً، والخرب الذكر من الحبارى والجمع الخربان، والخربة: سعة

خرق الاذن، قال ذو الرمة:

كأنه حبشي يبتغي أثراً أو من معاشر في آذانها الخرب

والخربة: عروة المزادة وكذلك كل بيت مستدير والخارب: اللص، وما رأينا من فلان خربة أي فساداً في دينه أو شيناً، والخارب من شدائد الدهر.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾:

أ. قال قتادة: هم اليوم كذلك لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلا انهك ضربا، وابلغ اليه في العقوبة، وبه قال السدي.

ب. قال ابن زيد: نادى رسول الله ﷺ ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

ج. قال الجبائي: بين الله انه ليس لهؤلاء المشركين دخول المسجد الحرام، ولا دخول المساجد فان دخل منهم داخل الى بعض المساجد، كان على المسلمين إخراجه منه إلا ان يدخل الى بعض الحكام بخصومة بينه وبين غيره الى بعض القضاة، فيكون دخوله خائفا من الإخراج على وجه الطرد بعد انفصال خصومته، ولا يقعد مطمئنا كما كان يقعد المسلم، وهو الذي يليق بمذهبنا، ويمكن الاستدلال به على ان الكفار لا يجوز أن يمكنوا من دخول المساجد على كل حال، فأما المسجد الحرام خاصة، فان المشركين يمنعون من دخوله، ولا يتركون ليدخلوه لحكومة، ولا غيرها، لأن الله تعالى قد امر بمنعهم من دخوله بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ يعني المسجد الحرام.

د. وقال الزجاج: أعلم الله ان أمر المسلمين يظهر على جميع من خالفهم حتى لا يمكن دخول مخالف الى مساجدهم إلا خائفاً، وهو كقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ كأنه قيل: أولئك ما كان لهم ان يدخلوها إلا خائفين، لاعزاز الله الدين وإظهاره المسلمين.

٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

أ. قال قتادة: معناه انهم: ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

ب. وقال السدي: خزيهم في الدنيا انهم إذا قام المهدي، وفتحت قسطنطينية قتلهم، فلذلك خزيهم في الدنيا ان يقتلوا ان كانوا حرباً، ويؤدون الجزية ان كانوا ذمة.

ج. وقال الجبائي: الخزي لهؤلاء الكفار الذين أمرنا بمنعهم من دخول المساجد على سبيل ما

يدخلها المؤمنون، وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال الفراء: يقول فيها وعد الله المسلمين من فتح الروم وان لم يكن بعد ـ والناس على خلافه، في ان معنى الآخرة يوم القيامة، كأنه قيل: لهم في الآخرة عذاب جهنم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. المنع: الحيلولة بين المرء وبين ما يريده، ونظيره: الصد، ونقيضه: الإطلاق.

ب. السعي: عَدْوٌ دون السير، وكل عمل من خير أو شر فهو سَعْيٌ.

ج. المسجد: موضع السجود، ويجمع مساجد.

د. الخراب: نقيض العمارة.

هـ. الخزي: الفضيحة.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت في الروم؛ لأنهم كانوا خربوا بيت المقدس، وسعوا في خرابه حتى أيام عمر، وظهر المسلمون عليهم، وصاروا لا يدخلونه إلا خائفين، عن ابن عباس ومجاهد والفراء.

ب. وقيل: نزلت في بختنصّر خرب بيت المقدس، عن الحسن وقتادة والسدي، قال قتادة: وأعانه على ذلك النصارى بغضًا لليهود.

ج. وقيل: نزلت في مشركي الغرب صدوا النبي ﷺ والمسلمين عن المسجد الحرام، عن الأصم وأبي علي وأبي القاسم وابن زيد.

د. وقيل: نزلت في سائر المشركين؛ لأنهم يريدون صد المسلمين عن المساجد ويخربونها.

٣. اختلف في اتصال الآية بما قبلها:

أ. مَنْ حَمَلَهَا على النصارى، وخراب بيت المقدس، قال: تتصل بما قبلها من حيث جرى ذكر اليهود

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٥٦.

والنصارى، فمرة يوجه الذم إلى اليهود، ومرة يوجه إلى النصارى.

ب. من حملها على المسجد الحرام وسائر المساجد، قال: جرى ذكر مشركي العرب في قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقيل: هي مقدمة لما يأتي بعده.

ج. وقيل: جرى ذكر جميع الكفار وذمهم فمرة وجه الذم إلى اليهود والنصارى، ومرة إلى المشركين.

٤. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي أشد ظُلْمًا وأعظم ﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله﴾ أي لا ظلم أعظم من ظلمه.

٥. اختلف في المقصود بقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله﴾:

أ. قيل: هم النصارى، والمسجد بيت المقدس.

ب. وقيل: هم المشركون والمسجد هو المسجد الحرام، عن الأصم وغيره.

ج. وقيل: هم سائر الكفار، والمساجد سائر المساجد.

٦. سؤال وإشكال: إذا حمل على بيت المقدس أو الكعبة فلم جُمِعَ وهو واحد؟ والجواب:

أ. قيل: كل بقعة فيها مسجد.

ب. وقيل: دخل فيها المساجد التي بناها المسلمون، وكان أبو بكر بنى مسجدًا بمكة فخربوه.

٧. ﴿وَسَعَى﴾ قيل: عمد ﴿فِي خَرَابِهَا﴾:

أ. قيل: تخريبهم إخراجهم المؤمنين عند الهجرة.

ب. وقيل: صدهم، عن أبي مسلم، ويجوز حمله عليهما.

ج. وقيل: المراد المنع عن الصلاة والطاعة فهو سعي في خرابها.

٨. ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني من تقدم ذكرهم ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾:

أ. قيل: يعني النصارى لا يدخلون بيت المقدس إلا خائفين، ولا يوجد فيه نصراني إلا أوجع ضربًا، عن قتادة والسدي.

ب. وقيل: لا يدخل كافر مسجدًا إلا بِحُكْمٍ، فيدخل خائفًا، ولا يدخل المسجد الحرام لحكومة ولا لغيرها، عن أبي علي.

ج. وقيلَ: نادى رسول الله ﷺ: (لا يحج بعد العام مشرك) عن ابن زيد.

د. وقيل: أَعْلَمَ الله أن الإسلام يظهر حتى لا يدخل مخالف مساجدهم إلا خائفًا، فكأنه قال: إلا

خائفين لإعزاز الدين وإظهار المسلمين، عن الزجاج.

٩. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾:

أ. قيل: يعطون الجزية وهم صاغرون، عن قتادة.

ب. وقيل: خزيهم: فتح مدائنهم الثلاث: قسطنطينية، ورومية، وعمورية عن مقاتل والكلبي.

ج. وقيل: خزيهم إذا قام المهدي، وفتحت قسطنطينية، عن السدي.

د. وقيل: خزيهم: أن يقتلوا إن كانوا حربًا، ويعطوا الجزية إن كانوا ذمة، عن الزجاج.

هـ. وقيل: خزيهم: طردهم عن دخول المساجد كما يدخلها المؤمن، عن أبي علي.

١٠. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

أ. قيل: يعني يوم القيامة لهم عذاب جهنم عن جماعة المفسرين.

ب. وقيل: هو ما وعد الله المسلمين من فتح الروم، ولم يكن بَعْدُ، عن الفراء، وهو خلاف الظاهر، وخلاف قول المفسرين.

١١. تدل الآية الكريمة على:

أ. عِظَمِ المنع من العبادة ودخول المساجد، والمراد: خائفين من لبثهم، وعظيم السعي في خرابها ومنع الناس عن عمارتها بالصلاة.

ب. أن الكفار يُمْنَعُونَ من دخول المساجد، والمراد خائفين من لبثهم، أو يدخلها خائفا لحكومة، وإذا كان المنع من المساجد ظلمًا عظيمًا، فالمنع من إظهار التوحيد والعدل ودين الحق أعظم.

١٢. اختلف في نصب ﴿أن﴾ والعامل فيه:

• قال الأخفش: يجوز أن يكون على حذف: ﴿مِن﴾، كأنه قيل: مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه.

• ويجوز أن يكون على البدل من مساجد الله.

• وقال الزجاج: يجوز على معنى كراهة أن يذكر فيها اسمه، والعامل فيه: ﴿مَنَعَ﴾

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. المنع، والصد، والحيلولة، نظائر، وضد المنع الإطلاق، يقال: منعته فامتنع، ورجل منيع أي: لا يخلص إليه، وهو في عز ومنعة تخفف وتثقل، وامرأة منيعة: لا تؤاتي على فاحشة.

ب. السعي، والركض، والعدو، نظائر، وضد السعي الوقف، وفلان يسعى على عياله أي: يكسب لهم، وسعى للسلطان: إذا ولي أمر الصدقة، قال الشاعر:

سعى عقالا فلم يترك لها سبدا   فكيف لو قد سعى عمرو

والعقال: صدقة عام.

ج. الخراب، والهدم، والنقض، نظائر، والخربة: سعة خرق الأذن، وكل ثقب مستدير، والخارب: اللص، قال الأصمعي يختص بسارق الإبل،والخرابة: سرقة الإبل.

٢. اختلفوا في المعني بهذه الآية:

أ. قال ابن عباس ومجاهد: إنهم الروم غزوا بيت المقدس، وسعوا في خرابه، حتى كانت أيام عمر، فأظهر الله المسلمين عليهم، وصاروا لا يدخلونه إلا خائفين.

ب. وقال الحسن، وقتادة: هو بخت نصر خرب بيت المقدس، وأعانه عليه النصارى.

ج. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنهم قريش حين منعوا رسول الله ﷺ دخول مكة، والمسجد الحرام، وبه قال البلخي، والرماني، والجبائي، وضعف هذا الوجه الطبري بأن قال: إن مشركي قريش لم يسعوا في تخريب المسجد الحرام، وقوله يفسد بأن عمارة المساجد إنما تكون بالصلاة فيها، وخرابها بالمنع من الصلاة فيها، وقد وردت الرواية بأنهم هدموا مساجد كان أصحاب النبي ﷺ يصلون فيها بمكة، لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة قال: وهو أيضا لا يتعلق بما قبله من ذم أهل الكتاب، كما يتعلق به إذا عني به النصارى وبيت المقدس، وجوابه أنه قد جرى أيضا ذكر غير أهل الكتاب في قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أقرب، لأن الكلام خرج مخرج الذم، فمرة توجه الذم إلى اليهود، ومرة إلى النصارى، ومرة إلى عبدة

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٦١.

الأصنام، والمشركين.

٣. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: وأي أحد أشد وأعظم ظلما: ﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ من ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ويكون معناه: لا أحد أظلم ممن منع أن يذكر في مساجد الله اسمه سبحانه، وعمل في المنع من إقامة الجماعة، والعبادة فيها.

٤. إذا حمل قوله: ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾ على بيت المقدس، أو على الكعبة، فإنما جاز جمعه على أحد وجهين:

أ. إما أن تكون مواضع السجود، فإن المسجد العظيم يقال لكل موضع منه مسجد، ويقال لجملته مسجد.

ب. وإما أن يدخل في هذه اللفظة المساجد التي بناها المسلمون للصلاة، وروي عن زيد بن علي عن آبائه، عن علي عليه السلام أنه أراد جميع الأرض، لقول النبي ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا، وترابها طهورا)

٥. ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ أي: عمل في تخريبها، والتخريب:

أ. قيل: إخراجهم أهل الإيمان منها عند الهجرة.

ب. وقيل: هو صدهم عنها، ويجوز حمله على الأمرين.

ج. وقيل: المراد المنع عن الصلاة والطاعة فيها، وهو السعي في خرابها.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾:

أ. قال ابن عباس: معناه انه لا يدخل نصراني بيت المقدس إلا نهك ضربا، وأبلغ عقوبة، وهو كذلك اليوم.

ب. ومن قال المراد به المسجد الحرام، قال: لما نزلت هذه الآية أمر النبي ﷺ مناديا فنادى: ألا لا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بهذا البيت عريان، فكانوا لا يدخلونه بعد ذلك.

ج. وقال الجبائي: بين الله سبحانه أنه ليس لهؤلاء المشركين دخول المسجد الحرام، ولا دخول غيره من المساجد، فإن دخل منهم داخل إلى بعض المساجد، كان على المسلمين اخراجه منه، إلا أن يدخل إلى بعض الحكام لخصومة بينه وبين غيره، فيكون في دخوله خائفا من الإخراج على وجه الطرد بعد انفصال

خصومته، ولا يقعد فيه مطمئنا كما يقعد المسلم، قال الشيخ أبو جعفر: وهذا يليق بمذهبنا، ويمكن الاستدلال بهذه الآية على أن الكفار لا يجوز أن يمكنوا من دخول المساجد على كل حال.. فأما المسجد الحرام خاصة، فيستدل على أن المشركين يمنعون من دخوله، ولا يمكنون منه لحكومة، ولا غيرها، بأن الله تعالى قد أمر بمنعهم من دخوله بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ يعني المسجد الحرام، ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾

د. قال الزجاج: أعلم الله سبحانه في هذه الآية، أن أمر المسلمين يظهر على جميع من خالفهم حتى لا يمكن دخول مخالف إلى مساجدهم إلا خائفا، وهذا كقوله سبحانه: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ فكأنه قيل: أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لإعزاز الله الدين إظهاره المسلمين.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ على وجوه:

أ. أحدها: أن يراد بالخزي أنهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، عن قتادة.

ب. ثانيها: إن المراد به القتل، وسبي الذراري والنساء، إن كانوا حربا، وإعطاء الجزية إن كانوا ذمة، عن الزجاج

ج. ثالثها: إن المراد بخزيهم في الدنيا أنه إذا قام المهدي، وفتح قسطنطينية، فحينئذ يقتلهم، عن السدي.

د. رابعها: إن المراد بخزيهم طردهم عن دخول المساجد، عن أبي علي.

٨. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني يوم القيامة يعذبهم الله في نار جهنم، بالعذاب الأعظم، إذ كانوا من كل ظالم أظلم.

٩. مسائل نحوية:

أ. موضع: ﴿مِنَ﴾ رفع، وهو استفهام.. و﴿أَظْلَمُ﴾: رفع لأنه خبر الابتداء.

ب. موضع: ﴿إِنَّ﴾ نصب على البدل من ﴿مَسَاجِدَ﴾، وهو بدل الاشتمال، والتقدير: ومن أظلم ممن منع أن يذكر في مساجد الله اسمه.. ويجوز أن يكون موضع: ﴿إِنَّ﴾ نصبا على أنه مفعول له، فيكون تقديره كراهة أن يذكر فيها اسمه.. ويجوز أن يكون على حذف من وتقديره من أن يذكر.

ج. ﴿أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾: في موضع رفع بأنه اسم كان، وقيل: إن: ﴿كَانَ﴾ ها هنا مزيدة، وتقديره ما

لهم أن يدخلوها، فعلى هذا يكون موضع: ﴿أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ رفعا بالابتداء، و﴿إِلَّا﴾: حرف الاستثناء، وهو هنا لنقض النفي.. و﴿خَائِفِينَ﴾: منصوب على الحال.

د. ﴿خِزْيٌ﴾: مرفوع من وجهين أحدهما الابتداء والآخر: أن يكون مرفوعا بلهم.

هـ. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، وذو الحال الضمير المستكن في لهم، وكذلك قوله: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. اختلف فيمن نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ على قولين:

أ. أحدهما: أنها نزلت في الرّوم، كانوا ظاهروا بختنصّر على خراب بيت المقدس من أجل أنّ بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريّا، فخرّب وطرحت الجيف فيه، قاله ابن عباس في آخرين.

ب. الثاني: أنها في المشركين ضعيف الذين حالوا بين رسول الله ﷺ وبين مكّة يوم الحديبية، قاله ابن زيد.

٢. في المراد بخرابها قولان:

أ. أحدهما: أنه نقضها.

ب. الثاني: منع ذكر الله فيها.

٣. في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنه إخبار عن أحوالهم بعد ذلك، قال السّدّيّ: لا يدخل روميّ بيت المقدس إلّا وهو خائف أن يضرب عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية.

ب. الثاني: أنه خبر في معنى الأمر، تقديره: عليكم بالجدّ في جهادهم كي لا يدخلها أحد إلا وهو خائف.

٤. في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ثلاثة أقوال:

---

(١) زاد المسير: ١/ ١٠٣.

أ. أحدها: أنّ خزيهم الجزية، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أنه فتح القسطنطينية، قاله السّدّيّ.

ج. الثالث: أنه طردهم عن المسجد الحرام، فلا يدخله مشرك أبدا ظاهرا، قاله ابن زيد.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أجمع المفسرون على أنه ليس المراد من هذه الآية مجرد بيان الشرط والجزاء، أعني مجرد بيان أن من فعل كذا فإن الله يفعل به كذا، بل المراد منه بيان أن منهم من منع عمارة المساجد وسعى في خرابها، ثم إن الله تعالى جازاهم بما ذكر في الآية.

٢. اختلفوا في الذين منعوا من عمارة المسجد وسعوا في خرابه من هم على أوجه:

أ. أولها: قال ابن عباس: أن ملك النصارى غزا بيت المقدس فخربه وألقى فيه الجيف وحاصر أهله وقتلهم وسبى البقية وأحرق التوراة، ولم يزل بيت المقدس خرابا حتى بناه أهل الإسلام، قال أبو بكر الرازي: هذا الوجه غلط لأن النصارى يعتقدون في تعظيم بيت المقدس مثل اعتقاد اليهود وأكثر، فكيف أعانوا على تخريبه.

ب. ثانيها: قال الحسن وقتادة والسدي: نزلت في بختنصّر حيث خرب بيت المقدس وبعض النصارى أعانه على ذلك بغضا لليهود، قال أبو بكر الرازي: هذا الوجه غلط لأنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن عهد بختنصّر كان قبل مولد المسيح عليه السلام بدهر طويل، والنصارى كانوا بعد المسيح فكيف يكونون مع بختنصّر في تخريب بيت المقدس.

ج. ثالثها: أنها نزلت في مشركي العرب الذين منعوا الرسول ﷺ عن الدعاء إلى الله بمكة وألجؤوه إلى الهجرة، فصاروا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] نزلت في ذلك فمنع من الجهر لئلا يؤذى، وطرح أبو جهل العذرة على ظهر لنبي ﷺ فقيل: ومن أظلم من هؤلاء المشركين الذين يمنعون المسلمين الذين

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٤/ ١١.

يوحدون الله ولا يشركون به شيئاً ويصلون له تذللًا وخشوعاً، ويشغلون قلوبهم بالفكر فيه، وألسنتهم بالذكر له، وجميع جسدهم بالتذلل لعظمته وسلطانه.

د. رابعها: قال أبو مسلم: المراد منه الذين صدوه عن المسجد الحرام حين ذهب إليه من المدينة عام الحديبية، واستشهد بقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥] وبقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ الله وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٤] وحمل قوله: ﴿إِلَّا خَائِفِينَ﴾ بما يعلى الله من يده، ويظهر من كلمته، كما قال في المنافقين: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦١]

هـ. وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم، وهو أن يقال: أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجههم إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضاً في تخريب مسجد الرسول ﷺ لئلا يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه، وهذا التأويل أولى مما قبله، وذلك لأن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضاً بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدهم الرسول عن المسجد الحرام، وأما حمل الآية على سعى النصارى في تخريب بيت المقدس فضعيف أيضاً على ما شرحه أبو بكر الرازي، فلم يبق إلا ما قلناه.

٣. اختلف في المراد بقوله تعالى: ﴿مَسَاجِدَ الله﴾:

أ. فمنهم من قال المراد به كل المساجد.

ب. ومنهم من حمله على ما ذكرناه من المسجد الحرام وغيره من مساجد مكة.

ج. ومنهم من حمله على المسجد الحرام فقط، وهو قول أبي مسلم حيث فسر المنع بصد الرسول عن المسجد الحرام عام الحديبية.

٤. سؤال وإشكال: كيف يجوز حمل لفظ المساجد على مسجد واحد؟ والجواب: فيه وجوه:

أ. أحدها: هذا كمن يقول لمن آذى صالحاً واحداً: ومن أظلم ممن آذى الصالحين.

ب. ثانيها: أن المسجد موضع السجود فالمسجد الحرام لا يكون في الحقيقة مسجداً واحداً بل

مساجد.

٥. ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ في محل النصب، واختلفوا في العامل فيه على أقوال:

أ. الأول: أنه ثاني مفعولي منع لأنك تقول: منعته كذا، ومثله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ [الإسراء: ٥٩]، ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ [الإسراء: ٩٤]

ب. الثاني: قال الأخفش: يجوز أن يكون على حذف (من) كأنه قيل: منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه.

ج. الثالث: أن يكون على البدل من مساجد الله.

د. الرابع: قال الزجاج: يجوز أن يكون على معنى كراهة أن يذكر فيها اسمه، والعامل فيه (منع)

٦. السعي في تخريب المسجد قد يكون لوجهين:

أ. أحدهما: منع المصلين والمتعبدين والمتعهدين له من دخوله فيكون ذلك تخريباً.

ب. الثاني: بالهدم والتخريب.

٧. سؤال وإشكال: ظاهر الآية يقتضي أن هذا الفعل أعظم أنواع الظلم وفيه إشكال لأن الشرك ظلم على ما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] مع أن الشرك أعظم من هذا الفعل، وكذا الزنا وقتل النفس أعظم من هذا الفعل، والجواب عنه: أقصى ما في الباب أنه عام دخله التخصيص فلا يقدح فيه.

٨. ظاهر قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أن الذين آمنوا وسعوا في تخريب المسجد هم الذين يحرم عليهم دخوله إلا خائفين، وأما من يجعله عاماً في الكل فذكروا في تفسير هذا الخوف وجوهاً:

أ. أحدها: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على حال الهيبة وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلًا أن يستولوا عليهم ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم.

ب. ثانيها: أن هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو

يقتل أن لم يسلم، وقد أنجز الله صدق هذا الوعد فمنعهم من دخول المسجد الحرام، ونودي فيهم: ألا لا يحجن بعد العام مشرك، وأمر النبي ﷺ بإخراج اليهود من جزيرة العرب، فحج من العام الثاني ظاهراً على المساجد لا يجترئ أحد من المشركين أن يحج ويدخل المسجد الحرام، وهذا هو تفسير أبي مسلم في حمل المنع من المساجد على صدهم رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية ويحمل هذا الخوف على ظهور أمر الرسول ﷺ وغلبته لهم بحيث يصيرون خائفين منه ومن أمته.

ج. ثالثها: أن يحمل هذا الخوف على ما يلحقهم من الصغار والذل بالجزية والإذلال.

د. رابعها: أنه يحرم عليهم دخول المسجد الحرام إلا في أمر يتضمن الخوف نحو أن يدخلوا للمخاصمة والمحاكمة والمحاجة، لأن كل ذلك يتضمن الخوف والدليل عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]

هـ. خامسها: قال قتادة والسدي: قوله: ﴿إِلَّا خَائِفِينَ﴾ بمعنى أن النصارى لا يدخلون بيت المقدس إلا خائفين، ولا يوجد فيه نصراني إلا أوجع ضرباً وهذا التأويل مردود، لأن بيت المقدس بقي أكثر من مائة سنة في أيدي النصارى بحيث لم يتمكن أحد من المسلمين من الدخول فيه إلا خائفاً، إلى أن استخلصه الملك صلاح الدين في زماننا.

و. سادسها: أن قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ وإن كان لفظه لفظ الخبر لكن المراد منه النهي عن تمكينهم من الدخول، والتخلية بينهم وبينه كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ الله﴾ [الأحزاب: ٥٣]

٩. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾:

أ. قيل: ما يلحقهم من الذل بمنعهم من المساجد.

ب. وقيل: بالجزية في حق أهل الذمة وبالقتل في حق أهل الحرب.

١٠. كل ذلك محتمل فإن الخزي لا يكون إلا ما يجري مجرى العقوبة من الهوان والإذلال فكل ما هذه صفته يدخل تحته، وذلك ردع من الله تعالى عن ثباتهم على الكفر لأن الخزي الحاضر يصرف عن التمسك بما يوجبه ويقتضيه.

١١. أما العذاب العظيم فقد وصفه الله تعالى بما جرى مجرى النهاية في المبالغة، لأن الذين قدم

ذكرهم وصفهم بأعظم الظلم، فبين أنهم يستحقون العقاب العظيم.

١٢. في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه:

أ. أما من حملها على النصارى وخراب بيت المقدس قال تتصل بها قبلها من حيث أن النصارى ادعوا أنهم من أهل الجنة فقط، فقيل لهم: كيف تكونون كذلك مع أن معاملتكم في تخريب المساجد والسعي في خرابها هكذا.

ب. أما من حمله على المسجد الحرام وسائر المساجد قال جرى ذكر مشركي العرب في قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣]

ج. وقيل: جرى ذكر جميع الكفار وذمهم، فمرة وجه الذم إلى اليهود والنصارى ومرة إلى المشركين.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿منَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ رفع بالابتداء، و﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والمعنى لا أحد أظلم، و﴿أن﴾ في موضع نصب على البدل من ﴿مَسَاجِدَ﴾، ويجوز أن يكون التقدير: كراهية أن يذكر، ثم حذف، ويجوز أن يكون التقدير: من أن يذكر فيها، وحرف الخفض يحذف مع (أن) لطول الكلام.

٢. أراد بالمساجد هنا بيت المقدس ومحاريبه، وقيل الكعبة، وجمعت لأنها قبلة المساجد أو للتعظيم، وقيل: المراد سائر المساجد، والواحد مسجد (بكسر الجيم)، ومن العرب من يقول: مسجد، (بفتحها)، قال الفراء: (كل ما كان على فعل يفعل، مثل دخل يدخل، فالمفعل منه بالفتح اسما كان أو مصدرا، ولا يقع فيه الفرق، مثل دخل يدخل مدخلا، وهذا مدخله، إلا أحرفا من الأسماء الزموها كسر العين، من ذلك: المسجد والمطلع والمغرب والمشرق والمسقط والمفرق والمجزر والمسكن والمرفق (من رفق يرفق) والمنبت والمنسك (من نسك ينسك)، فجعلوا الكسر علامة للاسم، وربما فتحه بعض العرب في الاسم، والمسجد (بالفتح): جبهة الرجل حيث يصيبه ندب السجود.

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٧٧.

٣. اختلف الناس في المراد بهذه الآية وفيمن نزلت:

أ. ذكر المفسرون أنها نزلت: في بختنصّر، لأنه كان أخرب بيت المقدس.

ب. قال ابن عباس وغيره: نزلت في النصارى، والمعنى كيف تدعون أيها النصارى أنكم من أهل الجنة! وقد خربتم بيت المقدس ومنعتم المصلين من الصلاة فيه.. ومعنى الآية على هذا: التعجب من فعل النصارى ببيت المقدس مع تعظيمهم له، وإنما فعلوا ما فعلوا عداوة لليهود، وروى سعيد عن قتادة قال: أولئك أعداء الله النصارى، حملهم إبغاض اليهود على أن أعانوا بختنصّر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس، وروي أن هذا التخريب بقي إلى زمن عمر.

ج. وقيل: نزلت في المشركين إذ منعوا المصلين والنبي ﷺ، وصدوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية.

د. وقيل: المراد من منع من كل مسجد إلى يوم القيامة، وهو الصحيح، لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف.

٤. خراب المساجد:

أ. قد يكون حقيقيا كتخريب بختنصّر والنصارى بيت المقدس على ما ذكر أنهم غزوا بني إسرائيل مع بعض ملوكهم، فقتلوا وسبوا، وحرقوا التوراة، وقذفوا في بيت المقدس العذرة وخربوه.

ب. ويكون مجازا كمنع المشركين المسلمين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام.

٥. بناء على هذه الآية الكريمة:

أ. لا يجوز منع المرأة من الحج إذا كانت ضرورة، سواء كان لها محرم أو لم يكن، ولا تمنع أيضا من الصلاة في المساجد ما لم يخف عليها الفتنة، وكذلك قال النبي ﷺ: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)

ب. لا يجوز نقض المسجد ولا بيعه ولا تعطيله وإن خربت المحلة.

ج. لا يمنع بناء المساجد إلا أن يقصدوا الشقاق والخلاف، بأن يبنوا مسجدا إلى جنب مسجد أو قربه، يريدون بذلك تفريق أهل المسجد الأول وخرابه واختلاف الكلمة، فإن المسجد الثاني ينقض ويمنع من بنيانه، ولذلك ذكر بعض الفقهاء أنه لا يجوز أن يكون في المصر جامعان، ولا لمسجد واحد إمامان، ولا يصلي في مسجد جماعتان.

٦. دلت الآية الكريمة أيضا على تعظيم أمر الصلاة، وأنها لما كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجرا كان منعها أعظم إثما.

٧. كل موضع يمكن أن يعبد الله فيه ويسجد له يسمى مسجدا، قال ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا)، أخرجه الأئمة، وأجمعت الامة على أن البقعة إذا عينت للصلاة بالقول خرجت عن جملة الاملاك المختصة بربها وصارت عامة لجميع المسلمين، فلو بنى رجل في داره مسجدا وحجزه على الناس واختص به لنفسه لبقي على ملكه ولم يخرج إلى حد المسجدية، ولو أباحه للناس كلهم كان حكمه حكم سائر المساجد العامة، وخرج عن اختصاص الاملاك.

٨. ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ وما بعده خبره، ﴿خَائِفِينَ﴾ حال، يعني إذا استولى عليها المسلمون وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها، فإن دخلوها، فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم، وتأديبهم على دخولها، وفي هذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد بحال، ومن جعل الآية في النصارى روى أنه مر زمان بعد بناء عمر بيت المقدس في الإسلام لا يدخله نصراني إلا أوجع ضربا بعد أن كان متعبدهم، ومن جعلها في قريش قال كذلك نودي بأمر النبي ﷺ: (ألا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان)..، وقيل: هو خبر ومقصوده الامر، أي جاهدوهم واستأصلوهم حتى لا يدخل أحد منهم المسجد الحرام إلا خائفا، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ فإنه نهي ورد بلفظ الخبر.

٩. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قيل القتل للحربي، والجزية للذمي، عن قتادة، السدي: الخزي لهم في الدنيا قيام المهدي، وفتح عمورية وقسطنطينية، وغير ذلك من مدنهم، ومن جعلها في قريش جعل الخزي عليهم في الفتح، والعذاب في الآخرة لمن مات منهم كافرا.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه، وانه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم، أي: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، واسم الاستفهام في محل رفع على الابتداء، وأظلم

(١) تفسير الشوكاني: ١/ ١٥٤.

خبره.

٢. ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قيل: هو بدل من مساجد، وقيل إنه مفعول له؛ بتقدير كراهية أن يذكر؛ وقيل: إن التقدير: من أن يذكر، ثم حذف حرف الجر لطول الكلام؛ وقيل: إنه مفعول ثان لقوله ﴿مَنَعَ﴾

٣. والمراد بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله منع من يأتي إليها للصلاة، والتلاوة، والذكر، وتعليمه.

٤. المراد بالسعي في خرابها: هو السعي في هدمها، ورفع بنيانها، ويجوز أن يراد بالخراب: تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها، فيكون أعم من قوله: ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بنيت لها المساجد، كتعلم العلم وتعليمه، والقعود للاعتكاف، وانتظار الصلاة؛ ويجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين، من باب عموم المجاز، كما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ﴾

٥. ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي: ما كان ينبغي لهم دخولها إلا حال خوفهم، وفيه إرشاد للعباد من الله عزّ وجل؛ أنه ينبغي لهم أن يمنعوا مساجد الله من أهل الكفر، من غير فرق بين مسجد ومسجد، وبين كافر وكافر، كما يفيد عموم اللفظ، ولا ينافيه خصوص السبب، وأن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا الدخول كانوا على وجل وخوف من أن يفطن لهم أحد من المسلمين؛ فينزلون بهم ما يوجب الإهانة والإذلال، وليس فيه الإذن لنا بتمكينهم من ذلك حال خوفهم، بل هو كناية عن المنع لهم منا عن دخول مساجدنا.

٦. الخزي: قيل: هو ضرب الجزية عليهم وإذلالهم، وقيل غير ذلك.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ أيَّ مسجد كانت من مساجد الإسلام، ﴿أَنْ يُّذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بتلاوة كتب الله والصلاة وسائر الأذكار، والاستفهام للنفي، أي: لا أحد أظلم، وقد ثبت الظلم لغير مانع المساجد، ولكن مانعها أعظم ظلمًا من المعصية بمنع غيرها، وبغير منع بشيء، لكن جاء أيضًا: ﴿فَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢] ونحو هذا، فنقول: ذلك كلُّه أمر

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٢٠١/١.

واحدٌ مفضَّل على غيره، كأنَّه قيل: المفترى على الله ومانع المساجد ونحوهما أظلم من غيرهم، والتفضيل بينهم يوكل إلى الفهم، مثل أن تقول: من قال: (اتَّخذ الله ولدًا) أظلم من المفتري عليه، والمفتري عليه أظلم ممَّن منع مساجد الله.

٢. والممنوع الناس لا المساجد، ولكن وقع على المساجد لأنَّها محلُّ إيقاعهم العبادة، وللإشارة إلى أنَّها مظلومة كما ظُلم النَّاس، ولأنَّه يوقع لها تميز لمن يتعبَّد فيها فظُلمت بمنع من تحبُّه عنها، ومنعهم كإغلاقها، وبعد ذلك قال: الممنوع ذكر الله، أو المراد لأجل ذكره أو من أن يُذكَر، والمراد بالمساجد كلُّ مسجد خرب أو سيخرب، ومنع أو سيُمنع، كما مَنَعت قريشٌ رسول الله ﷺ والمؤمنين قبل الهجرة وفي عام الحديبيَّة أنْ يدخلوا المسجد الحرام للعمرة.

٣. ﴿وَسَعَى﴾ اجتهد، ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾ في تحصيل خرابها، أو اسم مصدر، أي: في تخريبها بالتعطيل أو الهدم، كما هدم (بخت نصر) بيت المقدس وألقى فيها الجيف، وذبح فيها الخنازير، وأحرق التوراة، وقتل بني إسرائيل، وسبى الذَّراري، وكما فعل (ططيوس الرُّومي) وقومه من روم ونصارى ذلك بعد أنْ بُني على عهد (عُزَيْز)، وبقي خرابًا إلى أنْ عمَّره المسلمون.

٤. ويجوز أن يراد بالمساجد: المسجد الحرام، وتخريبه: تعطيل قريش النبيء ﷺ والمؤمنين عنه، جمع تعظيمًا، ولأنَّ مساجد الإسلام كلَّها تنبني عليه وتُبنى إليه، وأنَّ معطِّل مسجدٍ حقٍّ كمانع المساجد كلِّها، كما أنَّ مكذِّب نبيءٍ أو كتابٍ كمكذِّب الأنبياء كلِّهم، والكتب كلِّها، ولا سيما أعظم المساجد وأعظم الأنبياء وأعظم الكتب.

٥. ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المانعون الساعون في خرابها ﴿مَا كَانَ لَهُمُ أَنْ يَّدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ وقد تحقَّق ذلك وقوعًا في مدَّة عظيمة لا يدخل مشرك نصرانيٌّ ولا روميٌّ ولا غيره مسجدًا من مساجد المسلمين إلَّا خائفًا، وهذا إلى الآن إلَّا مساجد بلادٍ أخذوها، أو لا يدخل مشرك المسجد الحرام إلى الآن إلَّا خائفًا متنكِّرًا، ومضى زمان مديد من عهد عمر وما بعده لا يدخل بيت المقدس مشرك، ولا يوجد فيها إلا أُوجِع ضربًا، وليس في الآية أنَّه لا يدخلها أبدًا بل فيها أنَّه يتحقَّق هذا المقدار من عدم الدخول إلَّا مع خوف، فلا يَرِدُ ما ذكرتُ من دخولهم مساجد بلاد أخذوها، ودخولهم المسجد الحرام، وأخذهم الحجر الأسود، ثمَّ إنَّه رُدَّ، وكَوْن المقدس في يد الإفرنج أكثر من مائة سنة بحيث لا يدخله مسلم إلَّا خائفًا حتَّى نزعه منهم الناصر

صلاح الدين يوسف، وذلك إمَّا على أنَّ معنى الآية أنَّ الله قضى أنْ لا يدخلوها إلَّا خائفين، وعدًا بالنَّصر للمؤمنين، وإمَّا على معنى أنَّه لا يجوز لكم أنْ تترُكوهم ودخولها، أو ما كان الحق أنْ يدخلوها إلَّا خائفين أنْ تبطشوا بهم فضلاً عن أنْ يجترئوا على تخريبها، أو يمنعوا المؤمنين عنها.

٦. ولا يجوز عندنا أنْ يترك مشرك أنْ يدخل مسجدًا إلَّا إنْ لم نقدر، وذلك قول مالك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، والمساجد مثله في التطهير عن الأنجاس، فهي مثله أيضًا في الحرمة، وأجازه الشافعيُّ في غير المسجد الحرام بشرط الحاجة فيه، وإذن المسلمين له، لذكره في الآية، وإدخالُ رسول الله ﷺ وفدَ ثقيف وغيرهم المسجدَ منسوخ بهذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ لاستلحاقه سائر المساجد لجامع علَّة النجس والحُرمة؛ ولقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَآ﴾ سواء أفسَّرناه بالأمر بإبعاد المشركين عنها، أو بقضاء الله؛ لأنَّه أمر يرغب فيه، فلا إشكال، وأجازه أبو حنيفة مطلقًا.

٧. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ بالقتل والسبي في بعض، والجزية في البعض الآخر، وأصل الخزي ذلٌّ يستحى منه؛ ولذلك يستعمل في كلٍّ منهما، والقتل والسبي ذلٌّ عظيم يستحى منه في السبي دون القتل، إلَّا أن يقال يستحيى منه المقتول قبل أنْ يقتل وأصحابه وقرابته، قَبِلَت النضير الجزية، وقُتِل بعض قريظة وسُبِيَ بعضٌ.

٨. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في النار لمنعهم مساجد الله، وسعيهم في خرابها.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ إنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك، ولما وجّه تعالى الذم فيما سبق في حق اليهود والنصارى، ذيّله بذم المشركين في قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم وجهه بهذه الآية أيضا للمشركين الذين أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وصدوهم أيضا عنه، حين ذهب إليه النبي

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٧٩.

ﷺ وأصحابه من المدينة عام الحديبية.

٢. وكل هذا تخريب للمسجد الحرام، لأن منع الناس من إقامة شعائر العبادة فيه، سعى في تخريبه، وأيّ خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنه رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليه بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ الله وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا الله فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧ ـ ١٨]، وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥]، فإذا كان من آمن بالله واليوم الآخر.. مصدودا عنه، مطرودا منه، فأي خراب له أعظم من ذلك.

٣. العمارة إحياء المكان وشغله بما وضع له، وليس المراد بعمارته، زخرفته وإقامة صورته فقط، إنّما عمارته بذكر الله فيه وإقامة شرعه فيه ورفعه عن الدنس والشرك، وإنما أوقع المنع على المساجد، وإن كان الممنوع هو الناس لما أن المآل عائد لها.

٤. قيل مساجد والمراد المسجد الحرام فقط لأنه لا بأس أن يجيء الحكم عاما وإن كان السبب خاصّا، كما تقول، لمن آذى صالحا واحدا: ومن أظلم ممن آذى الصالحين؟ وكما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، والمنزول فيه واحد.

٥. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذلّ لهم المشركين، حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفا، يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو يقتل إن لم يسلم، وقد أنجز الله صدق هذا الوعد فمنعهم من دخول المسجد الحرام، ونادى فيهم: (ألا لا يحجن بعد العام مشرك)، فحج النبي ﷺ من العام الثاني ظاهرا على المسجد الحرام، لا يجترئ أحد من المشركين أن يحج ويدخل المسجد الحرام، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين صدّوا عنه.

٦. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار لما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه، من

نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله، والطواف به عريا، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله.

٧. في الآية وجه آخر وهو أن الآية في ذم اليهود، تبعا للسابق واللاحق، وما جنوه بكفرهم على بيت المقدس من خرابه وتسليط عدوّهم عليهم حتى خربه ودمر مدينتهم، وقتل وسبى منهم وأسرهم وبقوا في الأسر البابليّ سبعين سنة، كل ذلك كان برفضهم كتاب الله والعمل بشريعته، وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ إشارة إلى رجوعهم إليه بعد الأسر على تخوف من العدوّ ومذلة لصقت بهم، وهو وجه وجيه، لأن لفظ (سعى) يرشد إلى ذلك، كما أن مفهومها يشعر بذم القائمين على الخراب ب الأولى وهم النصارى، حينما تمكنت سلطتهم انتقاما من أعدائهم اليهود.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ يشير إلى حادثة وقعت بعد المسيح بسبعين سنة وهى دخول تيطس الروماني بيت المقدس وتخريبها حتى صارت المدينة تلا من التراب، وهدمه هيكل سليمان عليه السّلام حتى لم يبق منه إلا بعض الجدر المدعثرة، وإحراقه ما كان عند اليهود من نسخ التوراة، وكان المسيح عليه السّلام قد أوعد اليهود بذلك، وقال بعض المفسرين إن أتباع المسيح هم الذين هيجوا الرومانيين وأغروهم بهذا العمل، قال محمد عبده: ولا أدرى هل يصح هذا الخبر أم لا فإن قائليه لم يأتوا عليه بأدلة ولا بنقول تاريخية، ولكنني أعلم أن المسيحيين على قلتهم وتشتتهم واستخفائهم من اضطهاد اليهود كانوا قد وصلوا إلى (رومية) وكانوا يودون الايقاع باليهود الذين اضطروهم إلى الخروج من بلادهم انتقاما منهم وتحقيقا لوعيد المسيح، وأن الرومانيين ـ وإن كانوا وثنيين يرون أن اليهود ليسوا على شيء ـ لم تكن حروبهم دينية وإنما كانوا يحاربون اليهود وغيرهم لشغبهم وفتنهم أو للطمع في بلادهم وذلك لا يقضى بهدم المعبد وإحراق كتب الدين، فهذه قرائن ترجح أنه كان للمسيحيين يد في إغارة تيطس، ولكن لا يجزم به الا إذا وجد نقل تاريخي صحيح يؤيد الخبر، ومن الغريب:

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٤٣١.

أن ابن جرير الطبري قال في تفسيره: إن الآية في اتحاد المسيحيين مع بختنصّر البابلي على تخريب بيت المقدس مع أن حادثة بختنصّر كانت قبل وجود المسيح والمسيحية بست مئة وثلاث وثلاثين سنة، ولو لم يكن مؤرخا من أكبر المؤرخين لالتمس له العذر بحمل قوله على حادثة أدرينال الروماني الذي جاء بعد المسيح بمئة وثلاثين سنة، وبنى مدينة على أطلال أورشليم وزينها وجعل فيها الحمامات، وبنى هيكلا للمشترى على أطلال هيكل سليمان، وحرم على اليهود دخول هذه المدينة وجعل جزاء من يدخلها القتل، فلذلك كان اليهود يسمونه بختنصّر الثاني لشدة ما قاسوا من ظلمه واضطهاده، ولكن هذا لا يصح أن يكون عذرا للمؤرخ

٢. ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ نزل في منع مشركي العرب النبيّ وأصحابه من دخول مكة في قصة عمرة الحديبية، وقالوا إن حادثه الرومانيين كانت قد طال عليها الامد فلا مناسبة لإراداتها بالآية، واعترض هذا القول بان مشركي العرب ما سعوا في خراب الكعبة، بل كانوا عمروها في الجاهلية وكانوا يعظمونها ويرونها مناط عزهم ومحل شرفهم وفخرهم.

٣. قال محمد عبده: يصح أن تكون الآية في الأمرين على التوزيع، فالذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم مشركو مكة، والذين سعوا في خرابها هم مشركو الرومانيين، ويكون قرن ما عمل المشركون من منع البيت الحرام أن يذكر فيه اسم الله بزيارة النبيّ ﷺ وأصحابه بما عمل من قبلهم من مشركي الرومانيين من التخريب من قبيل الاشارة إلى تساوى الفعلين في القبح.

٤. ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية ليست منبئة بأمر وقع ولكن بأمر سيقع، وهو:

أ. ما كان بعد ذلك من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين وصدهم إياهم عن المسجد الأقصى وتخريبهم كثيرا من المساجد.

ب. أن المراد بها حادثة القرامطة الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منها وهدموا كثيرا من المساجد.

٥. كأنه بعد أن ذكر حال أهل الكتاب في طعن اليهود منهم بالنصارى وقولهم فيهم إنهم ليسوا على شيء من الدين وطعن النصارى في اليهود كذلك وبعد قوله في المشركين الذين لا يعلمون الكتاب

انهم قالوا مثل قولهم لم يبق إلا ما سيقع للمسلمين وفى المسلمين فأنبأ الله تعالى بهذه الحادثة من الاخبار بالغيب فوقعت وكانت حادثتهم من أكبر الاحداث في المسلمين فانهم استولوا على جزء كبير من ممالك الاسلام وهدموا المساجد وعاثوا في الارض فسادا ولم يكن في أيام الحروب الصليبية على طولها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة مثلما كان على عهد القرامطة فالآيات على هذا مبينة لأحوال جميع الملل.

٦. قال محمد عبده: سواء كانت الآية في حادثة واقعة أو منتظرة أم كانت وعيدا للذين لا يحترمون المعابد على الاطلاق، هي على كل حال ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح وبتحريم السعي في خراب المعابد، وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون في خرابها - أي هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها - بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من استفهام الانكار لان المنع من ذكر الله تعالى وابطال شعائر المعابد التي تذكر به وتشعر القلوب عظمته انتهاك لحرمة الدين يفضى إلى نسيان الناس الرقيب المهيمن عليهم فيمسون كالهمل وتفشو فيهم المنكرات والفواحش، وانتهاك الحرمات، وهضم الحقوق، وسفك الدماء، وعبادة الله تعالى بذكره والصلاة له تنهى بطبيعتها عن الفحشاء والمنكر، ولا ينافي ذلك ما عساه يطرأ على العبادة أو يوجد في المساجد من الاشياء المبتدعة التي لم يأمر بها الكتاب، فمن علم بهذه البدع فعليه أن ينكرها ويسعى في إزالتها ولا يجوز له السعي في إزالة المعابد من الأرض لما في ذلك من الفساد الذي أشرنا اليه، وهذا هو السر في حكم الشريعة الاسلامية باحترام كنائس أهل الكتاب وبيعهم وصوامعهم وعبادهم واحترام معابد الذين لهم شبهة كتاب أيضا كالمجوس والصابئين، بل محمد عبده يعد الصابئين من أهل الكتاب، وأما الوثنيون الخلص الذين اتخذوا من دون الله أولياء ويبنون المساجد لذكر غيره والتقرب إلى سواه فهؤلاء لم يتعرض لذكرهم ولم يتوعد من يمنعهم من سخفهم.

٧. ثم قال تعالى في شأن المعتدين على المساجد: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي فكيف يدخلونها مفسدين ومخربين؟ ولا ينبغي للعاقل أن يقدم على أمر إلا بعد النظر فيه والعلم بدرجة نفعه أو ضره، وما كانت عبادة الله تعالى إلا نافعة وما كان تركها إلا ضارا، وما عساه يوجد في عبادات الأمم من الخرافات الضارة فإنما المكروه منه ما فيه مما يبعد عن عبادة الله تعالى ويوقع في إشراك غيره فيها، على أن العبادة الممزوجة بنزغات الوثنية، أهون من التعطيل القاضي بالجحود المطلق.

٨. لذلك توعد الله تعالى أولئك المعتدين الظالمين بقوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فأما خزى الدنيا فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران، المفضي إلى الذل والهوان، وناهيك بظلم يحل القيود، ويهدم الحدود، ويغرى الناس بالفواحش والمنكرات، ويسهل عليهم سبل الشرور والموبقات، وهو ظلم ابطال العبادة من المساجد، والسعي في خراب المعابد، إذا وقع هذا الظلم كان الحاكم الظالم مخذولا في حكمه، والفاتح الظالم غير أمين في فتحه، وإذا أردت تطبيق ذلك على من نسب إليهم هذا الظلم فانظر ماذا حل بالرومانيين، وما ذا كانت عاقبة العرب المشركين، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين، وأما عذاب الآخرة فالله أعلم به ونحن بوعده ووعيده من المؤمنين.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. يشير سبحانه في هذه الآيات إلى ما وقع من تيطس الروماني إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وخربها حتى لم يبق منها حجرا على حجر، وهدم هيكل سليمان عليه السلام حتى لم يترك إلا بعض جدران مبعثرة وأحرق بعض نسخ التوراة، وكان المسيح قد أنذر اليهود بذلك، وكان هذا بإيعاز وتحريض من المسيحيين انتقاما منهم إذ أخرجوهم من ديارهم، وتحقيقا لوعيد المسيح، فتسللوا لواذا على قلتهم حتى وصلوا إلى رومية، فحرّضوا تيطس على غزوهم في بلادهم وكان له هوى في ذلك، فأجابهم إلى ما طلبوا وكان منه ما علمت.

٢. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ أي وأيّ امرئ أشدّ تعديا وجراءة على الله ومخالفة لأمره، من امرئ منع من العبادة في المساجد، وسعى في خرابها بهدمها أو تعطيل شعائر الدين فيها، لما في ذلك من انتهاك حرمة الأديان المؤدّى إلى نسيان الخالق، وفشوّ المنكرات بين الناس، ونشر الفساد في الأرض.

٣. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي أولئك المانعون ما كان ينبغي لهم أن

---

(١) تفسير المراغي: ١/ ١٩٨.

يدخلوها إلا بخشية وخضوع، فكيف بهم دخلوها مفسدين ومخرّبين، فما كانت عبادة الله إلا نافعة للبشر، وما كان تركها إلا ضارّا لهم.

٤. وقد توعدهم الله على ظلمهم بقوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فخزى الدنيا بما يعقبه الظلم من الفساد المؤدّى إلى الذل والهوان، ولا ظلم أكبر من إبطال العبادة من المساجد والسعي في خرابها، وقد تحقق ما أوعد به الله فحلّ بالرومانيين الخزي في الدنيا فتقسمت دولتهم، وتشتت ملكهم، ولحقهم الذلّ والهوان على يد غيرهم من الأمم القوية الفاتحة؛ وعذاب الآخرة هو ما أعدّه الله للفجار في جهنم وبئس القرار.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ثم يعود إلى ترذيل محاولتهم تشكيك المسلمين في صحة الأوامر والتبليغات النبوية ـ وبخاصة ما يتعلق منها بتحويل القبلة ـ وبعدها سعيا في منع ذكر الله في مساجده، وعملا على خرابها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.. وأقرب ما يتوارد إلى الخاطر أن هاتين الآيتين تتعلقان بمسألة تحويل القبلة؛ وسعي اليهود لصد المسلمين عن التوجه إلى الكعبة.. أول بيت وضع للناس وأول قبلة.. وهناك روايات متعددة عن أسباب نزولها غير هذا الوجه.

٢. على أية حال فإن إطلاق النص يوحي بأنه حكم عام في منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها، كذلك الحكم الذي يرتبه على هذه الفعلة، ويقرر أنه هو وحده الذي يليق أن يكون جزاء لفاعليها.

٣. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن، إلا أن يلجئوا إلى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين، وذلك كالذي حدث في عام

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٠٥.

الفتح بعد ذلك إذ نادى منادي رسول الله ﷺ يوم الفتح: من دخل المسجد الحرام فهو آمن.. فلجأ إليها المستأمنون من جبابرة قريش، بعد أن كانوا هم الذين يصدون رسول الله ﷺ ومن معه ويمنعونهم زيارة المسجد الحرام!

٤. يزيد على هذا الحكم ما يتوعدهم به من خزي في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

٥. هناك تفسير آخر لقوله: (أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ).. أي أنه ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا في خوف من الله وخشوع لجلالته في بيوته، فهذا هو الأدب اللائق ببيوت الله، المناسب لمهابته وجلاله العظيم.. وهو وجه من التأويل جائز في هذا المقام.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في هاتين الآيتين تهديد ووعيد، لأولئك الذين يحولون أن يحتجزوا رحمة الله في دائرة مغلقة عليهم دون الناس جميعا، والذين يتصورون أن ما بأيديهم وحدهم هو الحق الذي يسعهم وليس لغيرهم مكان فيه ـ هؤلاء يظلمون الحق، ويظلمون أنفسهم، ويظلمون الناس.. ذلك أن هذا القصور الخاطئ للحق يقيم في كيانهم عصبية عمياء، لا يرون معها إلا ذواتهم، ولا يحسبون لأحد حسابا معهم، ولا يرعون حرمة دين غير ما يدينون به، ولو كان هو الحق من عند الله.. ولهذا فهم ـ مع هذا الشعور ـ لا يجدون حرجا في أن يصدّوا الناس عن عبادة الله، وأن يحولوا بينهم وبين مساجده، بل وأن يعطلوا هذه المساجد ويخربوها!

٢. واليهود يقومون بدور خطير في هذا المجال، بما يسوقون إلى المؤمنين من فتن، وما يدخلون به عليهم من تلبيسات وضلالات، تثير الحيرة، والبلبلة، وقد فعل اليهود هذا عندما أمر الله النبي والمسلمين أن يتحولوا بقبلتهم إلى المسجد الحرام، بعد أن كان المسجد الأقصى هو قبلتهم في الصلاة، فاتخذ اليهود من هذا الحدث مدخلا إلى الفتنة، يلقون بها بين جماعة المسلمين، وقد وصف الله اليهود بهذا الوصف الكاشف،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١٣٣.

فسماهم السفهاء في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾؟

٣. في قوله: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ إشارة إلى أن هذا الجرم الذي يرتكبه المنافقون في الكيد لبيوت الله؛ لا يخليهم أبدا من شعور الخوف من افتضاح أمرهم، وخاصة إذا دخلوا هذه المساجد ليستروا موقفهم منها، وليرى الناس منهم أنهم من أهلها، شأن المجرم يحوم حول جريمته، وقلبه يرجف خوفا وفزعا.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عطف على: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] باعتبار ما سبق ذلك من الآيات الدالة على أفانين أهل الكتاب في الجراءة وسوء المقالة أي إن قولهم هذا وما تقدمه ظلم ولا كظلم من منع مساجد الله وهذا استطراد واقع معترضا بين ذكر أحوال اليهود والنصارى لذكر مساوئ المشركين في سوء تلقيهم دعوة الإسلام الذي جاء لهديهم ونجاتهم.

٢. اختلف فيمن نزلت الآية الكريمة:

أ. قيل: الآية نازلة في مشركي العرب كما في رواية عطاء عن ابن عباس وهو الذي يقتضيه قوله: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ الآية، وهي تشير إلى منع أهل مكة النبي ﷺ والمسلمين من الدخول لمكة كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية وقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمنا وقد أويتم الصباء، وتكرر ذلك في عام الحديبية.

ب. وقيل نزلت في بختنصّر ملك أشور وغزوه بيت المقدس ثلاث غزوات:

- أولاها في سنة ٦٠٦ قبل المسيح زمن الملك يهوياقيم ملك اليهود سبى فيها جمعا من شعب إسرائيل.

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٦٦١.

• الثانية بعد ثمان سنين سبى فيها رؤساء المملكة والملك يهواكين بن يهوياقيم ونهب المسجد المقدس من جميع نفائسه وكنوزه.

• الثالثة بعد عشر سنين في زمن الملك صدقيا فأسر الملك وسمل عينيه وأحرق المسجد الأقصى وجميع المدينة وسبى جميع بني إسرائيل وانقرضت بذلك مملكة يهوذا وذلك سنة ٥٧٨ قبل المسيح وتسمى هذه الواقعة بالسبي الثالث فهو في كل ذلك قد منع مسجد بيت المقدس من أن يذكر فيه اسم الله وتسبب في خرابه.

ج. وقيل: نزلت في غزو طيطس الروماني لأورشليم سنة ٧٩ قبل المسيح فخرب بيت المقدس وأحرق التوراة وترك بيت المقدس خرابا إلى أن بناه المسلمون بعد فتح البلاد الشامية.

٣. على هاتين الروايتين الأخيرتين لا تظهر مناسبة لذكرها عقب ما تقدم فلا ينبغي بناء التفسير عليهما، والوجه هو التعويل على الرواية الأولى وهي المأثورة عن ابن عباس، فالمناسبة أنه بعد أن وفى أهل الكتاب حقهم من فضح نواياهم في دين الإسلام وأهله وبيان أن تلك شنشنة متأصلة فيهم مع كل من جاءهم بما يخالف هواهم وكان قد أشار إلى أن المشركين شابهوهم في ذلك عند قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥] عطف الكلام إلى بيان ما تفرع عن عدم ودادة المشركين نزول القرآن فبين أن ظلمهم في ذلك لم يبلغه أحد ممن قبلهم إذ منعوا مساجد الله وسدوا طريق الهدى وحالوا بين الناس وبين زيارة المسجد الحرام الذي هو فخرهم وسبب مكانتهم وليس هذا شأن طالب صلاح الخلق بل هذا شأن الحاسد المغتاظ.

٤. الاستفهام بمن إنكاري، ولما كان أصل (من) أنها نكرة موصوفة أشربت معنى الاستفهام وكان الاستفهام الإنكاري في معنى النفي صار الكلام من وقوع النكرة في سياق النفي فلذلك فسروه بمعنى لا أحد أظلم.

٥. الظلم الاعتداء على حق الغير بالتصرف فيه بما لا يرضى به ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه والمعنيان صالحان هنا.

٦. وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم أتوا بظلم عجيب فقد ظلموا المسلمين من المسجد الحرام وهم أحق الناس به وظلموا أنفسهم بسوء السمعة بين الأمم.

٧. جمع المساجد وإن كان المشركون منعوا الكعبة فقط:

أ. إما للتعظيم فإن الجمع يجيء للتعظيم كقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧]

ب. وإما لما فيه من أماكن العبادة وهي البيت والمسجد الحرام ومقام إبراهيم والحطيم.

ج. وإما لما يتصل به أيضا من الخيف ومنى والمشعر الحرام وكلها مساجد.

٨. الإضافة على هذه الوجوه على معنى لام التعريف العهدي، وإما لقصد دخول جميع مساجد الله لأنه جمع تعرف بالإضافة ووقع في سياق منع الذي هو في معنى النفي ليشمل الوعيد كل مخرب لمسجد أو مانع من العبادة بتعطيله عن إقامة العبادات، ويدخل المشركون في ذلك دخولا أوليا على حكم ورود العام على سبب خاص، والإضافة على هذا الوجه على معنى لام الاستغراق.

٩. لعل ضمير الجمع المنصوب في قوله: ﴿أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ يؤيد أن المراد من المساجد مساجد معلومة لأن هذا الوعيد لا يتعدى لكل من منع مسجدا إذ هو عقاب دنيوي لا يلزم اطراده في أمثال المعاقب.

١٠. المراد من المنع منع العبادة في أوقاتها الخاصة بها كالطواف والجماعة إذا قصد بالمنع حرمان فريق من المتأهلين لها منها، وليس منه غلق المساجد في غير أوقات الجماعة لأن صلاة الفذ لا تفضل في المسجد على غيره، وكذلك غلقها من دخول الصبيان والمسافرين للنوم، وقد سئل ابن عرفة في درس التفسير عن هذا فقال: غلق باب المسجد في غير أوقات الصلاة حفظ وصيانة.. وكذلك منع غير المتأهل لدخوله وقد منع رسول الله ﷺ المشركين الطواف والحج، ومنع مالك الكافر من دخول المسجد، ومعلوم منع الجنب والحائض.

١١. السعي أصله المشي ثم صار مجازا مشهورا في التسبب المقصود كالحقيقة العرفية نحو ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ [النازعات: ٢٢] ويعدى بفي الدالة على التعليل نحو: سعيت في حاجتك فالمنع هنا حقيقة على الرواية الأولى المتقدمة في سبب النزول، والسعي مجاز في التسبب غير المقصود فهو مجاز على مجاز، وأما على الروايتين الأخريين فالمنع مجاز والسعي حقيقة لأن بختنصّر وطيطس لم يمنعا أحدا من الذكر، ولكنهما تسببا في الخراب بالأمر بالتخريب فأفضى ذلك إلى المنع وآل إليه.

١٢. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ جملة مستأنفة تغني عن سؤال ناشئ عن قوله: ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ أو عن قوله: ﴿سَعَى﴾ لأن السامع إذا علم أن فاعل هذا أظلم الناس أو سمع هذه الجرأة وهي السعي في الخراب تطلب بيان جزاء من اتصف بذلك أو فعل هذا، ويجوز كونها اعتراضا بين ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾

١٣. الإشارة بأولئك بعد إجراء الأوصاف الثلاثة عليهم للتنبيه على أنهم استحضروا بتلك الأوصاف ليخبر عنهم بعد تلك الإشارة بخبرهم جديرون بمضمونه على حد ما تقدم في: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] وهذا يدل على أن المقصود من هذه الجمل ليس هو بيان جزاء فعلهم أو التحذير منه، بل المقصود بيان هاته الحالة العجيبة من أحوال المشركين بعد بيان عجائب أهل الكتاب، ثم يرتب العقاب على ذلك حتى تعلم جدارتهم به، وقد ذكر لهم عقوبتين دنيوية وهي الخوف والخزي، وأخروية وهي العذاب العظيم.

١٤. معنى ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أنهم لا يكون لهم بعد هذه الفعلة أن يدخلوا تلك المساجد التي منعوها إلا وهم خائفون فإن ما كان إذا وقع أن والمضارع في خبرها تدل على نفي المستقبل وإن كان لفظ (كان) لفظ الماضي وأن هذه هي التي تستتر عند مجيء اللام نحو ﴿ما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ فلا إشعار لهذه الجملة بمضي.

١٥. اللام في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ للاستحقاق أي ما كان يحق لهم الدخول في حالة إلا في حالة الخوف فهم حقيقيون بها وأحرياء في علم الله تعالى، وهذا وعيد بأنهم قدر الله عليهم أن ترفع أيديهم من التصرف في المسجد الحرام وشعائر الله هناك وتصير للمسلمين فيكونوا بعد ذلك لا يدخلون المسجد الحرام إلا خائفين، ووعد للمؤمنين وقد صدق الله وعده فكانوا يوم فتح مكة خائفين وجلين حتى نادى منادي النبي ﷺ: (من دخل المسجد الحرام فهو آمن) فدخله الكثير منهم مذعورين أن يؤخذوا بالسيف قبل دخولهم.

١٦. على تفسير: ﴿مَسَاجِدَ اللهِ﴾ بالعموم يكون قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي منعوا مساجد الله في حال أنهم كان ينبغي لهم أن يدخلوها خاشعين من الله فيفسر الخوف بالخشية من الله فلذلك كانوا ظالمين بوضع الجبروت في موضع الخضوع فاللام على هذا في قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ﴾ للاختصاص، وهذا الوجه وإن فرضه كثير من المفسرين إلا أن مكان اسم الإشارة المؤذن بأن ما بعده ترتب عما قبله ينافيه

لأن هذا الابتغاء متقرر وسابق على المنع والسعي في الخراب.

١٧. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ استئناف ثان ولم يعطف على ما قبله ليكون مقصودا الاستئناف اهتماما به لأن المعطوف لكونه تابعا لا يهتم به السامعون كمال الاهتمام، ولأنه يجري من الاستئناف الذي قبله مجرى البيان من المبين، فإن الخزي خوف، والخزي الذل والهوان وذلك ما نال صناديد المشركين يوم بدر من القتل الشنيع والأسر، وما نالهم يوم فتح مكة من خزي الانهزام.

١٨. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عطفت على ما قبلها لأنها تتميم لها إذ المقصود من مجموعهما أن لهم عذابين عذابا في الدنيا وعذابا في الآخرة.

١٩. نزول هذه الآية مؤذن بالاحتجاج على المشركين من سبب انصراف النبي ﷺ عن استقبال الكعبة بعد هجرته فإن منعهم المسلمين من المسجد الحرام أشد من استقبال غير الكعبة في الصلاة على حد قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ذكر الله سبحانه وتعالى ما يتوهّمه أهل الكتاب وما يجرى بينهم من خلاف يكفّر فيه بعضهم بعضا، وأن المشركين يفعلون مثل فعلهم، ويقولون مثل قولهم، بعد ذلك ذكر أمرا حدث من أهل الكتاب ومن المشركين معا، وقد جمعتهم الأماني الكاذبة كما جمعهم الاعتداء على بيوت الله تعالى التي خصصت لعبادته، فقد وقع ذلك من اليهود والنصارى إذ يمنعون غيرهم من المسجد الأقصى حتى دمره المتمردون من المغول والرومان والنصارى، منعوه أيضا بعد أن دخل قسطنطين وحرف النصرانية في مجمع نيقية على ما هو معروف، والمشركون منعوا المسلمين من حج بيت الله الحرام وصدوا المسلمين في الحديبية، فالمنع من المساجد.

٢. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، ﴿مَنْ﴾ هنا للاستفهام بمعنى إنكار

---

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٧١.

الوقوع أي النفي، فالمعنى لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيه اسمه، فقوله: ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بدل من المساجد، والمنع إنما هو من أن يذكر فيها اسمه، وأضيف إلى المساجد للإشارة إلى أن ذلك اعتداء عليها، والاعتداء عليها اعتداء على الله سبحانه وتعالى؛ لأنها مساجد الله تعالى؛ إذ قد خصصت لعبادته سبحانه وتعالى، ومنع أن يذكر فيها اسمه، منع من ذكر الله تعالى وهو أكبر الآثام.

٣. سؤال وإشكال: المنع أهو من مسجد واحد، أم منع من مساجد متعددة، أو حكم عام ـ وهو الظاهر ـ أم ذكر لوقائع معينة؟ والجواب:

أ. قال بعض العلماء، وعلى رأسهم ابن جرير الطبري إن المراد مسجد واحد، وهو المسجد الأقصى، إذ منع النصارى الصلاة، وذكر الله فيه، وخربوه بعد أن حرفوا النصرانية ودخلوا في الديانة المحرفة.

ب. وقال الأكثرون من المفسرين: إن الكعبة المكرمة هي التي منع المشركون في مكة أن يذكر فيها اسم الله تعالى، وذلك عام الحديبية فقد منعوا النبيّ ﷺ والمسلمين من أن يدخلوا البيت الحرام، وعلى رأس هذا الفريق من مفسري السلف الحافظ ابن كثير، قال: (والذى يظهر لي القول الثاني وهو أن المنع كان من البيت الحرام، وروى عن ابن عباس أن النصارى منعت اليهود الصلاة في بيت المقدس؛ لأن دينهم أقوم من دين اليهود (وفى ذلك نظر) وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، وأيضا فإن الله تعالى لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة في المسجد، وأما اعتماده (أي ابن جرير) على أن قريشا لم تسع في خراب الكعبة؛ فأي خراب أعظم مما فعلوا!!؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ الله وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال] وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا الله فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة])، ويسترسل الحافظ ابن كثير في سوق الآيات الدالة على منع المشركين من أن يدخل المؤمنون البيت الحرام، وفسر تخريب البيت لا بمعنى تدميره ونقض بنيانه.

٤. تمسك ابن جرير، بل فسر التخريب بمعنى خلوها من العبادة الحق، وإن ذلك هو الأقرب إلى الدلالة اللفظية؛ لأن الله تعالى لم يقل تخريبها أو تتبيرها كما عبر عن اليهود إذا دخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، حيث قال: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء]، وإنما عبر في هذا المقام فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ أي أنهم بهذا المنع من ذكر الله تعالى سعوا في خرابها، وأي خراب لبيت من بيوت العبادة المخصصة لها ولذكر الله أعظم من منع هذا الذكر؟ ولذلك اختار ابن كثير أن يكون الذي منع ذكر الله تعالى فيه هو البيت الحرام، إذ منعوا المؤمنين من دخوله، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ الله فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح]، فالخراب هو خلوها من العبادة، والبيت المسكون يكون خرابا إذا خلا من السكان، ويقول الحافظ: ليس المراد بالعمارة زخرفها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله تعالى فيها، وإقامة شرعه.

٥. سؤال وإشكال: هذا الكلام ينتهي لا محالة إلى أن الكلام في المنع من مساجد الله تعالى المنع فيه كان من مسجد معين هو البيت الحرام، فلما ذا عبر إذن بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فلما ذا ذكر المساجد بدل المسجد؟ والجواب: إن المنع كان في مسجد، وهو سبب النزول والاستنكار والظلم فيه شديد، ولكن الظلم يكون أيضا في المنع من غيره، فالسبب إذا كان واحدا، قد يكون الحكم أوسع شمولا، ويكون الظلم في منع أي مسجد، ولأن التعبير بالجمع يدل على أن المنع ظلم لما يكون من جنس المساجد كلها، ولا يختص بواحد من بينها.

٦. قرر الله تعالى لهم عقوبة الدنيا، بأن ينزل الله على هذا المانع الظالم عقابا دنيويا صارما، وهو أنهم لا يدخلونها، لأن من سكن مكانا اعتدى فيه لا يدخله، والجزاء من جنس العمل، وقد نبأنا القرآن الكريم بأن العقاب سينزل بهم، وأن مكة وما حولها ستكون في قبضة أهل الإيمان، وأنهم من بعد ذلك لا يملكون منعا به بل قد يمنعون إن شاء الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، الإشارة في أولئك إلى الذين منعوا مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه، والإشارة إلى موصوف تدل على أن هذه الأوصاف علة الحكم أو الخبر، وهو ألا يدخلوها إلا خائفين، وقد عبر الله عن ذلك بقوله تعالت

كلماته: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي ما كان يسوغ لهم أن يدخلوها إلا وقد خرجت من أيديهم فلا يدخلون مستمكنين قاعدين مستقرين، بل يدخلونها مضطربين فيها خائفين من أن يؤخذوا بظلمهم عالمين أنها بعيدة عليهم، وليست مكان استقرار، وقال ابن كثير: إن هذه الأخبار معناها الطلب أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت هدنة، وهذا النص لما فيه من أمر وطلب فيه بشارة بأن أمرهم زائل، وأنه خارج من أيديهم إلى أيدى محمد وأصحابه.

٧. ذكر الله تعالى عقابا دنيويا آخر وهو أنهم يلحقهم الخزي بعد استعلائهم، والذل بعد استكبارهم، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو أن يخرج البيت من أيديهم، ويكون أمره لغيرهم، وأن تهدم أصنامهم، وترمى من فوقه، ويطهر بناء البيت المكرم من رجسهم، ثم أن يمنعوا من البيت إلا أن يكونوا مؤمنين وقد منعوا من البيت، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة] ولهذا نهي أن يطوف بالبيت مشرك قط، واليهود منعوا من بيت المقدس وخربوه، والنصارى، وفعلوا ذلك بعد أن حرفوا الإنجيل، وآمنوا بالتثليث.. جاء في عبارة ابن كثير أنهم ـ أي النصارى ـ خير من اليهود، وأنهم أقرب اعتقادا، ونقول: إن هذا ليس بصحيح، إنهم لا يقلون فسادا في اعتقادهم عن اليهود، وإنهم ملة واحدة في سوء الاعتقاد، وضياع الإيمان، وإذا كان بعض النصارى في عصر النبيّ ﷺ كانوا أقرب مودة للذين آمنوا، فجلهم آمن واهتدى، ومن بعد ذلك فهم واليهود على سواء في العداوة الأثيمة.

٨. الآية كما قال بعض المفسرين تشمل المشركين والنصارى واليهود، فالمشركون منعوا المسجد الحرام أن يذكر فيه اسم الله تعالى، والنصارى منعوا اليهود وخربوا المسجد الأقصى، واليهود بما حرفوا وبما عصوا واعتدوا، وبكفرهم عجزوا عن حماية المسجد الأقصى فدمره القوم عليهم تدميرا.

٩. الذين قالوا هذا ذكروا أن هؤلاء جميعا نالهم خزى الدنيا، فالمشركون بإزالتهم أصنامهم، ومنعهم من دخول البيت وهم مشركون، واليهود والنصارى بالجزية تفرض، ويدفعونها خائفين غير مستكبرين.

١٠. ثم ذكر سبحانه العذاب الأنكى والأشد في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله (لهم) معناه أنه مختص بهم، ونكر العذاب لشدته، ووصف بأنه عظيم لقوته.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه الآية من الآيات التي تعددت الأقوال في تفسيرها، وظاهرها يدل على التهديد والوعيد لمن لا يحترم المساجد، أو مطلق المعابد، ويمنع من عمارتها، أو من التعبد فيها لله، أو يعمل على هدمها، أو إهمالها، أو تعطيل الشعائر الدينية فيها.. وان الواجب الإلهي والانساني يفرض على كل انسان أن يقدس المعابد، ويدخلها معظما لها، وخاشعا لجلالها، وخائفا من عقاب الله راجيا لثوابه، لا مستهترا ومستخفا، لأنها انشئت لهذه الغاية، ثم بيّن سبحانه ان من تعرّض بسوء للمعابد فان الله سبحانه يهينه ويذله في هذه الحياة، ويعذبه غدا بعذابه الأكبر.

٢. وباختصار ان الآية بحسب ظاهرها مجرد بيان ان من يفعل كذا يفعل الله به كذا وعليه فهي قضية كلية لا تستدعي وجود واقعة خاصة قد حدثت في الماضي، أو في زمن الخطاب، أو منتظرة الحدوث.. ولكن المفسرين قالوا: انها اشارة الى حادثة خاصة، ثم اختلفوا فيما بينهم: هل الحادثة المشار اليها قد وقعت قبل بعثة محمد ﷺ، أو بعد البعثة؟

٣. الفريق الذين قالوا: انها إخبار عن شيء وقع قبل البعثة اختلفوا فيما بينهم أيضا في تعيين ذاك الشيء الذي وقع:

أ. فمنهم من قال ان الآية تخبر عما وقع من تيطس الروماني، إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح عليه السلام بنحو سبعين سنة، وخربها، حتى لم يبق حجرا على حجر، وهدم هيكل سليمان، وأحرق بعض نسخ التوراة، وكان المسيح قد أنذر اليهود بذلك، وقيل: ان تيطس خرب بيت المقدس بتحريض المسيحيين انتقاما من اليهود.

ب. ومن القائلين بأنها إخبار عما وقع قال انها تخبر عما صنعه بختنصّر البابلي من تخريب بيت المقدس، وجاء في تفسير صاحب المنار ما نصه بالحرف: (ومن الغريب ان ابن جرير الطبري قال في تفسيره: ان الآية تشير الى اتحاد المسيحيين مع بختنصّر البابلي على تخريب بيت المقدس، مع ان حادثة بختنصّر كانت

---

(١) التفسير الكاشف: ١/ ١٨٣.

قبل وجود المسيح والمسيحية بستمائة وثلاث وثلاثين سنة)

ج. ومن القائلين بأن الآية اخبار عما وقع من يرى: انها نزلت في مشركي قريش، حيث منعوا النبي وأصحابه من دخول مكة في قصة عمرة الحديبية.

٤. أما الذين قالوا ان الآية إخبار عن أمر منتظر الوقوع فأيضا اختلفوا فيما بينهم:

أ. فمنهم من قال انها اشارة الى اغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين.

ب. ومنهم من قال انها اخبار عما حدث من القرامطة من هدم الكعبة، ومنع الناس من الحج.

٥. ثم قال هذا الفريق بكلا قسميه: ان هذه الآية من معجزات القرآن، لأنها أخبرت عن الغيب.

٦. هذا ملخص ما قاله المفسرون.. ونحن لا نعتمد شيئا منها، حيث لا دليل من العقل أو النقل تطمئن اليه النفس، ونعتمد الظاهر من الآية التي لا يتنافى مع العقل، ولا دليل يصرفه الى غيره من النقل، وهو وجوب احترام المعابد، وتحريم التعرض لها، ومجازاة من يقصدها بسوء.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ﴾، ظاهر السياق أن هؤلاء كفار مكة قبل الهجرة فإن هذه الآيات نزلت في أوائل ورود رسول الله ﷺ المدينة.

٢. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، يدل على مضي الواقعة وانقضائها لمكان قوله: ﴿كَانَ﴾، فينطبق على كفار قريش وفعالهم بمكة كما ورد به النقل أن المانعين كفار، مكة كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والمساجد التي اتخذوها بفناء الكعبة.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي لا أظلم ممن منع مساجد الله التي بنيت لذكره وشرع لعباده أن يذكروه فيها وذكر الله من العبادة التي خلقوا لها فهذه الجريمة عدوان على

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٥٩.

(٢) التيسير في التفسير: ١/ ١٧١.

مساجد الله، وعلى من يريد أن يذكر الله فيها، بل وعلى ذكر الله بمنع وقوعه في المساجد، فاعتدى على حرمة مساجد الله وعلى حرمة الذكر وجمع بين الجريمتين وضم إحداهما إلى الأخرى، قال في (الكشاف): ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ثاني مفعولي منع؛ لأنك تقول: منعته كذا..) إلخ، فلهذا قلت: إن المنع هذا عدوان على مساجد الله، أعني لكون مساجد الله مفعول أول، وأن يذكر فيها اسمه مفعول ثانٍ، وهذا عام لا يختص بالفرق الثلاث، وإن كنّ سببه.

٢. قوله تعالى: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ تعريض بالفرق الثلاث، فيدل على أن ذلك قد وقع منهم أو من بعضهم أن قد سعوا في خراب مساجد الله.

٣. لعل سبب ذلك تكفير كل فرقة الفرقة الأخرى، فيؤدي ذلك إلى القتال والتسبيب لخراب المساجد بمنع أهلها منها وإهمالها، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ الله مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دِفَاعِ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ} [الحج:٤٠]

٤. إذا كانت الحروب قد وقعت وهي مظنة تخريب المساجد من قبل أعداء الدين، فلا موجب لتعيين الفاعلين مَن هم، وليس من واجب التفسير تعيين ما أبهم القرآن، ويكفي أن نقول ظاهر الآية التعريض بالفرق الثلاث أنه قد وقع منهن كلهن أو بعضهن منع مساجد الله، والسعي في خرابها، وظاهرها العموم لكل مساجد الله التي كانت موجودة في عصرهم.

٥. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ لأنهم رجس، يجب تنزيه المساجد عنهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:٢٨]

٦. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ يستحقون الخزي في الدنيا بأي وسيلة كالطرد من المساجد: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): (قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على قبح منع المسلمين من مساجد الله، وعلى تحريم خرابها الحسيّ والحكمي، وهو منع ذكر الله فيها، وتجب إخافة من فعل ذلك، وأن يخزيهم من قدر على إخزائهم كما في الآية)

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. إن من أبشع أنواع الظلم هو الاعتداء على مساجد الله وعلى حرية المؤمنين فيها، وذلك بمنعهم من الصلاة والدعاء وذكر اسم الله، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ في منع المصلين من الصلاة فيها: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ ماديا بتهديمها أو معنويا بالمنع من عمارتها بالعبادة.

٢. أمّا أنّه من أقوى أنواع الظلم، فلأنه يجمع بين الاعتداء على حرمة الله بالاعتداء على بيوته وإبطال دورها في العبادة، وبين الاعتداء على حرمة الإنسان بالاعتداء على حريته في ممارسة شعائره وعباداته.

٣. للمفسرين خلاف في هؤلاء المقصودين بالآية:

أ. هل هم الروم الذين (غزوا بيت المقدس وسعوا في خرابه، حتى كانت أيام عمر، فأظهر الله المسلمين عليهم وصاروا لا يدخلونه إلا خائفين)، كما روي عن ابن عباس ومجاهد.

ب. أم أنهم قريش حين منعوا رسول الله ﷺ دخول مكة والمسجد الحرام، كما روي عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السّلام، وبه قال البلخي والرماني والجبائي؟ وقد علّق الطبري في تفسيره على هذا الرأي بأن قريشا لم يسعوا في تخريب المسجد الحرام، وبأن هذا لا يتناسب مع الآيات المتقدّمة الواردة في سياق ذمّ أهل الكتاب، بينما ينسجم الرأي الأول معه، ولكنّنا نرى مع صاحب مجمع البيان، أنّ من الممكن أن يكون المراد من خرابها تعطيل دورها في العبادة، لأن ذلك هو الأهم في وجودها، وهذا ما نستوحيه من التركيز على المنع عن ذكر اسم الله فيها في بداية الآية، مما يوحي بأن القضية تعيش في هذا الجو.

٤. ورد في التفسير في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، أنّ المقصود بالتعمير، هنا، تعميرها بالعبادة، وقد جاء في بعض الكلمات المأثورة في أخبار آخر الزمان في صفات الناس آنذاك: (مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى)، مما يقرّب إرادة هذا المعنى في نطاق هذا التعبير.

٥. ربما كان من القريب أن يكون السعي بالخراب لا يعبّر عن واقع مباشر في حياة قريش في مكة،

---

(١) من وحي القرآن: ٢/ ١٨٢.

بل يعبر عن نتائج السعي في تخريب الإسلام وتدميره بما أثاروه من حروب ضده وحاولوه من إضعاف لقوّته، وقد يتأيّد ذلك بالتعبير بكلمة (المساجد) بصيغة الجمع، مع أنها ليست متعددة في مكة أو في بيت المقدس، مما يرجّح أن الآية لم تجر مجرى الحديث عن القصة في نطاقها الخاص، بل جرت مجرى الانطلاق منها كنموذج للتحدث عن الفكرة العامة، مما يجعل أجواء الآية قريبة من التعبير عن الروح التي يعيشها أمثال هؤلاء ممن يحملون عقلية قريش وروحيتها، فتدفعهم إلى خنق حرية المؤمنين وإلى السعي في خراب المساجد، وقد روى صاحب مجمع البيان، أن الرواية قد وردت بأن القرشيين قد قاموا بهدم مساجد كان أصحاب النبي ﷺ يتخذونها أماكن للصلاة لما هاجر النبي إلى المدينة، وبذلك لا يبقى مجال لاعتراض الطبري، لكننا لا نستقرب هذا الوجه، لأن الآية تتحدث عن حالة قائمة يتحرك فيها هؤلاء القوم للمنع من ذكر اسم الله والسعي في خراب المساجد، لا تخريبها بعد رحيل المسلمين إلى المدينة، أمّا قضية الانسجام مع سياق الآيات المتقدمة، فإننا لا نرى رأيه في اختصاص الحديث بأهل الكتاب؛ بل الظاهر أن الحديث قد تعداه إلى غيرهم من المشركين، لأن السياق قد تحرك في اتجاه توعية المسلمين في ما يتعلق بأوضاع الفئات التي تقف ضدهم، كما لاحظناه في الآيات التي تحدثت عن المشركين وأهل الكتاب معا.

٦. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ وقد أراد الله للمسلمين أن يأخذوا بموقف القوّة ضد هذا الظلم والظالمين، فيمنعوهم من دخولها إلا كدخول الخائفين، وذلك على سبيل الكناية في تدمير قوتهم وإضعافهم، حتى يتحركوا في المجتمع تحرّك الخائف الذي إذا أراد أن يدخل المسجد، فلا يدخله إلا خائفا.

٧. نلاحظ في الآية أنها لم تتحدث عن دخولهم خائفين كواقع حيّ ليشار إلى القصة في تفسير الآية، بل إنها تحدثت عما ينبغي أن يبلغه المسلمون من القوة التي تخيف الكافرين؛ فإذا جاؤوا إليها ـ وهي مراكز المسلمين القيادية والاجتماعية ـ دخولها دخول الخائف، سواء كان مجيئهم إليها لأجل الدخول في الإسلام أو لغير ذلك من الأغراض الأخرى.

٨. ثم يتوعدهم الله الذي يملك القوة في الدنيا والآخرة بالخزي في الدنيا: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وذلك من خلال ما يصيبهم فيها من ضعف وهوان وذلّ بسبب تصرفاتهم الظالمة الباغية، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. أسباب النّزول توضّح أن الآية تتحدث عن اليهود والنصارى والمشركين، مع أن الآيات السابقة تتحدث أكثر ما تتحدث عن اليهود وأحيانا عن النصارى:

أ. اليهود بوسوستهم بشأن مسألة تغيير القبلة، سعوا إلى أن يتجه المسلمون في صلاتهم نحو بيت المقدس، ليتفوقوا بذلك على المسلمين، وليحطوا من مكانة الكعبة.

ب. و(مشركو مكة) بمنعهم النّبي ﷺ والمسلمين زيارة الكعبة سعوا عمليا في هدم هذا البناء الإلهي.

ج. و(النصارى) باستيلائهم على بيت المقدس والعبث فيه على ما ذكر ابن عباس سعوا في تخريبه.

٢. القرآن يقول لهؤلاء جميعا ولكل من يسلك طريقا مشابها لهؤلاء: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾، والقرآن الكريم أطلق على مثل هذا العمل اسم (الظلم الكبير)، وعلى العاملين اسم (أظلم النّاس) وأي ظلم أكبر من تخريب قاعدة التوحيد، وصدّ النّاس عن ذكر الله!؟

٣. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾:

أ. أي إن المسلمين والموحدين ينبغي أن يكونوا على درجة من القوّة والمقاومة بحيث لا يستطيع الظلمة أن يمدوا أيديهم إلى هذه الأماكن المقدسة، ولا يستطيعون أن يدخلوها جهرة بدون خوف أو خشية.

ب. ومن المحتمل أيضا أن الآية تقول: إن الظلمة لن يستطيعوا أبدا أن ينجحوا في الاستيلاء على هذه المراكز العبادية، بل إنهم سوف لا يستطيعون في المستقبل أن يدخلوا هذه المساجد إلّا وهم خائفون مذعورون، تماما كالمصير الذي لاقاه مشركو مكة بشأن المسجد الحرام.

٤. الآية تبين بعد ذلك العقاب الذي ينتظر هؤلاء الظلمة ممن يريد أن يفصل بين الله وعباده: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٤٤.

٥. مفهوم الآية الكريمة واسع ـ دون شك ـ غير محدود بزمان أو مكان معينين.. إنها مثل سائر الآيات التي نزلت في ظروف خاصة لكن حكمها ثابت على مرّ العصور والدهور، فكل الذين يسعون بنوع من الأنواع في تخريب المساجد مشمولون بهذا الخزي والعذاب العظيم.

٦. من الضروري أن نؤكد أن منع الذكر في مساجد الله والسعي في خرابها، لا يقتصر على هدم بنائها، بل إن كل عمل يؤدي إلى القضاء على دور المسجد في المجتمع مشمول بهذه الآية، وسوف نرى في الآية: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله﴾ أن المقصود من العمران ـ استنادا إلى الأحاديث والروايات الصريحة ـ ليس هو تشييد البناء فحسب، بل الحضور فيها واحياؤها بالذكر، هو نوع من العمران، بل أهم أنواع العمران، وفي النقطة المقابلة ـ إذن ـ يكون كل عمل يبعد النّاس عن المساجد، ويبعد المساجد عن دورها ظلما كبيرا.

٧. من المؤسف أن عصرنا يشهد ظهور مجموعة جاهلة متعصبة متعنتة بعيدة عن المنطق، تطلق على نفسها اسم الوهابيّة تسعى في تخريب المساجد بحجة إحياء التوحيد! هؤلاء عمدوا إلى تخريب المساجد المبنيّة على قبور الأئمة والصالحين، والتي كانت مركزا للذكر والدعاء والارتباط بالله وبخط الصالحين من آل الله.. ومن الغريب أنهم يمارسون هذه الأعمال تحت عنوان مكافحة الشرك مرتكبين بذلك أفظع الكبائر، ولو افترضنا حدوث ما يخالف الشرع في بعض هذه الأماكن الدينية من قبل الجهلة، فيجب الوقوف بوجه مثل هذه الأعمال، لا أن تتجه الجهود إلى تخريب هذه القواعد التوحيدية، فهذا عمل يشبه عمل المشركين الجاهليين.

٨. مسألة أخرى تلفت النظر في هذه الآية، هي وصفها مثل هؤلاء الأفراد بأنهم أظلم النّاس، وهم كذلك، لأن تعطيل المساجد وتخريبها ومنع ذكر الله فيها، يؤدي إلى ابتعاد النّاس عن الدين، وبالتالي إلى عواقب سيئة ومأساة اجتماعية عظيمة.

٩. صفة (الأظلم) ذكرها القرآن الكريم في مواضع أخرى للحكاية عن كبائر أخرى، لكن كل هذه الذنوب تعود إلى أصل واحد هو صدّ النّاس عن طريق التوحيد.

٤٧. الله والقداسة والإبداع

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٤٧] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٥ ـ ١١٧]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

الخراساني:

روي عن عطاء الخراساني (ت ٦٠ هـ): أن قوما عميت عليهم القبلة، فصلى كل إنسان منهم إلى ناحية، ثم أتوا رسول الله ﷺ، فذكروا ذلك له، فأنزل الله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ قبلة الله أينما توجهت شرقا أو غربا[٢].

٢. روي أنّه قال: ﴿قَانِتُونَ﴾ مطيعون[٣].

٣. روي أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ مقرون: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت قول عدي بن زيد[٤]:

قانتا لله يرجو عفوه   يوم لا يكفر عبد ما ادخر

(١) سعيد بن منصور: ٢١٠.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٢.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٤٦٢ والدرّ المنثور: ابن المنذر.

(٤) الطستي ـ كما في الإتقان: ٢/ ٨١.

٤. روي أنّه قال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُون﴾ هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس[١].

٥. روي أنّه قال: قانتين: مصلين[٢].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لما صرفت القبلة إلى الكعبة عيرت اليهود المؤمنين، وقالوا: ليست لهم قبلة معلومة؛ فتارة يستقبلون هكذا، وتارة هكذا، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

٢. روي أنّه قال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض﴾ ابتدع خلقهما، ولم يشركه في خلقهما أحد[٤].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أنّه قال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُون﴾ الإخلاص[٥].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) أنّه قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾، وهذا من لغة الأعاجم، وهي بالعبرية: أصنع[٦].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: لما نزلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾[٧].

---

(١) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٦٤.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٤.

(٣) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٦٣.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٤ والدرّ المنثور: ابن جرير.

(٥) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٣.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٥.

(٧) ابن جرير: ٢/ ٤٥٧ والدرّ المنثور: ابن المنذر.

٢. روي أنّه قال: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ قبلة الله، فأينما كنتم في شرق أو غرب فاستقبلوها[١].

٣. روي أنّه قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة[٢].

٤. روي أنّه قال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ مطيعون: طاعة الكافر في سجوده؛ سجود ظله وهو كاره[٣].

٥. روي أنّه قال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ مطيعون، كن إنسانا، فكان، وقال: كن حمارا، فكان[٤].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: كل له قائم بالشهادة بأنه عبد لله[٥].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي عنه في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]: إنّها ليست بمنسوخة، وإنّها مخصوصة بالنوافل في حال السفر[٦].

٢. روي عن فيض بن مطر قال دخلت على الإمام الباقر وأنا أُريد أن أسأله عن صلاة الليل في المحمل، فابتدأني فقال: كان رسول الله ﷺ يصلّي على راحلته حيث توجّهت به[٧].

٣. روي أنّه قال: أنزل الله هذه الآية في التطوّع خاصّة: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] وصلّى رسول الله ﷺ إيماءً على راحلته أينما توجّهت به حيث خرج إلى خيبر، وحين رجع من مكّة، وجعل الكعبة خلف ظهره[٨].

٤. روي أنه قيل له: الرجل يصلّي في يوم غيم في فلاة من الأرض ولا يعرف القبلة، فيصلّي حتى

---

(١) الترمذي: ٢٩٥٨.
(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٢.
(٣) تفسير مجاهد: ص١١٢.
(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٣.
(٥) تفسير ابن أبي زمنين: ١/ ١٧٣.
(٦) مجمع البيان: ١/ ٢٢٨.
(٧) كشف الغمّة: ٢/ ١٣٨.
(٨) تفسير العياشي: ١/ ٥٦/ ٨٠.

إذا فرغ من صلاته بدت له الشمس، فإذا هو قد صلّى لغير القبلة، أيعتد بصلاته أم يعيدها؟ فقال: يعيدها ما لم يفته الوقت، أو لم يعلم أنّ الله يقول وقوله الحق: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]!؟[١].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: أن النبي ﷺ قال: (إن أخا لكم قد مات ـ يعني: النجاشي ـ فصلوا عليه)، قالوا: نصلي على رجل ليس بمسلم!؟ فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، قالوا: فإنه كان لا يصلي إلى القبلة! فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ الآية[٢]. والمقصود أنه لم يبلغه حكمها، لا أنه كان لا يصلي صلاة المسلمين، روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ)

٢. روي أنّه قال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ إذا قالوا عليه البهتان سبح نفسه[٣].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾: معناه قبلة الله[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قيل جواد كريم[٥].

٣. روي أنّه قال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ معناه مطيعون[٦].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ معناه أحكم أمرا، وأيقنه[٧].

---

(١) التهذيب: ٢/ ٤٩/ ١٦٠.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٤٥٥.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٣.

(٤) تفسير الإمام زيد، ص ٨٩.

(٥) تفسير الإمام زيد، ص ٨٩.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ٨٩.

(٧) تفسير الإمام زيد، ص ٨٩.

٥. روي أنّه قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾: يريد أنه إذا أراد أمرا مثل كائنا[١].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ كل له مطيعون يوم القيامة[٢].

٢. روي أنّه قال: ابتدعها فخلقها، ولم يخلق مثلها شيء يتمثل به[٣].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ كل له قائم يوم القيامة[٤].

٢. روي أنّه قال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ابتدع خلقها، ولم يشركه في خلقها أحد[٥].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنّه قال: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع المغفرة[٦].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه سئل عن الرجل يقرأ السجدة وهو على ظهر دابته؟ قال: يسجد حيث توجهت به، فإن رسول الله ﷺ كان يصلي على ناقته وهو مستقبل المدينة، يقول الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[٧].

٢. روي أنه سئل: الصلاة في السفر في السفينة والمحمل سواء؟ قال: النافلة كلها سواء تومئ إيماء

---

(١) تفسير الإمام زيد، ص ٨٩.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٤٦٢.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٤٦٥.

(٤) ابن جرير: ٢/ ٤٦٣.

(٥) ابن جرير: ٢/ ٤٦٥.

(٦) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٦٣.

(٧) علل الشرائع: ٣٥٨/ ١.

أينما توجهت دابتك وسفينتك، والفريضة تنزل لها من المحمل إلى الأرض إلا من خوف، فإن خفت أو أومأت، وأما السفينة فصل فيها قائما وتوجه إلى القبلة بجهدك، فإن نوحا قد صلى الفريضة فيها قائما متوجها إلى القبلة وهي مطبقة عليهم)، قال وما كان علمه بالقبلة فيتوجهها وهي مطبقة عليهم؟ قال: كان جبريل يقومه نحوها)، قال قلت: فأتوجه نحوها في كل تكبيرة؟ قال: أما في النافلة فلا، إنما تكبر في النافلة على غير القبلة، الله أكبر)، ثم قال: كل ذلك قبلة للمتنفل، فإنه تعالى قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ تحولوا وجوهكم في الصلاة: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ فثم الله[2].

٢. روي أنّه قال: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ﴾ لتوسيعه عليهم في ترك القبلة حين جهلوها، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما نووا، وأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى آخر الآية[3].

٣. روي أنّه قال: فأكذبهم الله سبحانه، وعظم نفسه تعالى عما يقولون، فقال: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، يعني: لله، يعني: من فيهما، يعني: عيسى ﷺ وغيره عبيده وفي ملكه[4].

٤. روي أنّه قال: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ في علمه أنه كائن: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، لا يثني قوله كفعل المخلوقين، وذلك أن الله تعالى قضى أن يكون عيسى عليه السلام في بطن أمه من غير أب، فقال له: كن، فكان[5].

---

(١) تفسير العيّاشي: ١/ ٥٦.

(٢) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٣.

(٣) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٣.

(٤) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٣.

(٥) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٤.

ابن إسحاق:

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) أنّه قال: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ مما يشاء، وكيف، فيكون كما أراد[١].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) أنّه قال: قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: (هؤلاء قوم يهود يستقبلون بيتا من بيوت الله، لو أنا استقبلناه)، فاستقبله النبي ﷺ ستة عشر شهرا، فبلغه أن يهود تقول: والله، ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم، فكره ذلك النبي ﷺ، ورفع وجهه إلى السماء، فقال الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية[٢].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. قيل: إن رهطا من أصحاب رسول الله ﷺ انطلقوا سفرا، وذلك قبل أن تصرف القبلة إلى الكعبة، فحضر وقت الصلاة، فاشتبه عليهم، فتحرّوا: فمنهم من صلى إلى المشرق، ومنهم من صلى إلى المغرب؛ صلوا إلى جهات مختلفة، فلما بان لهم ذلك قدموا على رسول الله ﷺ، فسألوا عن ذلك؛ فنزلت الآية فيهم: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ﴾

٢. هذا يردّ على الشافعي قوله؛ لأنه يقول: إن صلى إلى جهة القبلة يجوز، وإلا فلا، فليس في الآية ذكر جهة دون جهة، بل فيها ذكر المشرق والمغرب، وكذلك في الخبر ذكر المشرق والمغرب؛ فخرج قوله على ظاهر الآية، وهذا عندنا في الاشتباه والتحري، وأما عند القصد فهو قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وروى عن ابن عمر أن قوله: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ الآية، نزلت في النوافل في الأسفار، لكن عندنا على ما ذكرنا في الكل.

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٥.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٤٥٢ وأورده الثعلبي: ٢/ ١١.

(٣) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٤٦.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾:

أ. قيل: ثم وجه الله، يعنى: ثمّ ما قصدتم وجه الله.

ب. وقيل: ثمّ قبلة الله.

ج. وقيل: ثمّ وجه الله: ثم الله، على جواز التكلم بالوجه على إرادة الذات، أي ليس هو عنهم بغائب.

د. وقيل: ثمّ رضاء الله.

هـ. وقيل: ثم ما ابتغيتم به وجه الله.

و. وقيل: ثم وجه الذي وجهكم إليه إذا لم يجئ منكم التقصير، كما قال رسول الله ﷺ في أكل الناسي: (إنما أطعمك الله وسقاك)

ز. وقيل فيه: ثم بلوغكم ما قصدتم بفعل الصلاة من وجه الله ورضائه، أي ظفرتم به.

٤. الغرض في القبلة ليس إصابة عينها، ولكن أغلب الظن، وأكبر الرأي لأنه ليس لنا إلى إصابة عينها سبيل؛ إذ سبيل معرفتها بالاجتهاد، لا باليقين والإحاطة، ليس كالمياه والأثواب وغيرها من الأشياء؛ لأن هذه الأشياء في الأصل طاهرة، والنجاسة عارضة فيظفر بأعينها على ما هي في الأصل.. أما أمر القبلة فإنما بنى على الاجتهاد والقصد، دون إصابة عينها، والله أعلم.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

أ. قيل: الواسع: الغنيّ.

ب. وقيل: الواسع: الجواد، حيث جاد عليهم بقبول ما ابتغوا به وجه الله، وحيث وسع عليهم أمر القبلة.

٦. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما قصدوا ونووا.

٧. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ فيه تنزيه، نزه به نفسه عما قالوا فيه بما لا يليق، ورد عليهم، ومعناه: أنّ اتخاذ الولد، والتبني ـ في الشاهد ـ إنما يكون لأحد وجوه ثلاثة تحوجه إلى ذلك:

أ. إما لشهوات تغلبه؛ فيقضيها به.

ب. وإما لوحشة تأخذه؛ فيحتاج إلى من يستأنس به.

ج. أو لدفع عدو يقهره؛ فيحتاج إلى من يستنصر به ويستغيث.

فإذا كان الله عزّ وجل يتعالى عن أن تمسه حاجة، أو تأخذه وحشة، أو يقهره عدو، فلأى شيء يتخذ ولدا!؟.

٨. ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ رد على ما قالوا: بأن من ملك السموات وما فيها، وملك الأرض وما فيها ـ لا تمسه حاجة، ولا يقهره عدو؛ إذ كل ذلك ملك له، يجرى فيهم تقديره، ويمضي عليهم أمره وتدبيره، وإنما يرغب إلى مثله إذا اعترض له شيء مما ذكرنا، تعالى الله عما يقول الظالمون علوّا كبيرا.

٩. إن عورض بالخلة:

أ. قيل: إن الخلة تقع على غير جوهر من منه الخلة، والولد لا يكون إلا من جوهره، وإلى هذا يذهب الحسن.

ب. الثاني: أن الخلة تقع لأفعال تكتسب، وتسبق منه، فيعلو أمره، وترتفع مرتبته؛ فيستوجب بذلك الخلة بمعنى الجزاء، وأما الولد فإنه لا يقع عن أفعال تكتسب، بل بدو ما به استحقاقه يكون من مولده، وقد نفى عن نفسه ما به يكون بقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]

ج. الثالث: ما قاله الراوندي: أنه لا بد من أن يدعى إلى التسميي، أو إلى التحقيق؛ إذ في الخلة تحقيق ما به يسمى.

ثم لم يحتمل في هذا تحقيق ما به يسمى، والاسم لم يرد به الإذن.

١٠. يحتمل قوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وجها آخر، وهو أن يقال: إن ما في السموات وما في الأرض، كلهم عبيده وإماؤه، فأنتم مع شدة حاجتكم إلى الأولاد لا تستحسنون أن تتخذوا عبيدكم وإماءكم أولادا، فكيف تستحسنون ذلك لله عزّ وجل وتنسبون إليه مع غناه عنه؟

١١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾:

أ. قيل: إن كل من في السموات والأرض من الملائكة، وعيسى، وعزير، وغيرهم ـ من الذين قلتم: إنه اتخذهم ولدا ـ قانتون له، مقرّون بالربوبية له، والعبودية لأنفسهم له.

ب. وقيل: ﴿قَانِتُونَ﴾: مطيعون؛ أي كلهم مطيعون متواضعون.

ج. وقيل: القانت: هو القائم، لكن القائم على وجهين: يكون القائم المنتصب على الأقدام، ويكون

القائم بالأمر والحفظ.

١٢. لا يحتمل أن يراد بالقانت هاهنا: المنتصب بالقدم؛ فرجع إلى الطاعة له وحفظ ما عليه، وهو كقوله: ﴿هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] من الحفظ والرزق.. ويحتمل: تنزيه الخلقة؛ لأن خلقة كل أحد تنزه ربه عن جميع ما يقولون فيه، أو أن يقال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ في الجملة؛ كقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]

١٣. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ابتدعهما ولم يكونا شيئا، والبديع والمبدع واحد؛ وهو الذي لم يسبقه أحد في إنشاء مثله؛ ولذلك سمى صاحب الهوى: مبتدعا؛ لمّا لم يسبقه في مثل فعله أحد.

١٤. فيه الحجة على هؤلاء الذين قالوا: اتخذ الله ولدا:

أ. يقول: إن من قدر على خلق السموات والأرض من غير شيء، ولا سبب، كيف لا يقدر على خلق عيسى من غير أب!؟

ب. الثاني: أن يقال: إن من له القدرة على خلق ما يصعب، ويعظم في أعينكم، بأقل الأحرف عندكم ـ كيف لا يقدر على خلق عيسى من غير أب!؟

١٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾:

أ. قيل: وإذا حكم حكما: فإنما يقول له: كن فيكون.

ب. وقيل: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾؛ يعنى قضى بإهلاك قوم واستئصالهم: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

١٦. قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ليس هو قول من الله: أن كن ـ بالكاف والنون ـ ولكنه عبارة بأوجز كلام، يؤدى المعنى التام المفهوم؛ إذ ليس في لغة العرب كلام التحقيق بحرفين يؤدى المعنى المفهوم أوجز من هذا، وما سوى هذا فهو من الصّلات، والأدوات، فلا يفهم معناها.

١٧. الآية الكريمة تردّ على من يقول: بأن خلق الشيء هو ذلك الشيء نفسه؛ لأنه قال: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ ذكر (قضى) وذكر (أمرا)، وذكر (كن فيكون)، ولو كان التكوين والمكون واحدا لم يحتج إلى ذكر كن في موضع العبارة عن التكوين فال (كن) تكوينه، فيكون المكون؛ فيدل أنه غيره.

١٨. لا يخلو التكوين: إما أن لم يكن فحدث، أو كان في الأزل.. فإن لم يكن فحدث، فإما أن يحدث بنفسه ـ ولو جاز ذلك في شيء لجاز في كل شيء ـ أو بإحداث آخر، فيكون إحداث بإحداث، إلى ما لا نهاية

له، وذلك فاسد، ثبت أن الإحداث والتكوين ليس بحادث، وأن الله تعالى موصوف في الأزل أنه محدث مكون؛ ليكون كل شيء في الوقت الذي أراد كونه فيه.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. روي أن قوماً من أصحاب النبي ﷺ كانوا في سفر لهم فعميت عليهم القبلة فصلى بعضهم إلى المشرق وبعضهم إلى المغرب، فأراد الله أن يخبرهم أنه قد قبل صلاتهم واجتهادهم.

٢. معنى قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ أي فأين ما تستقبلوا فثم الله عالم بإرادتكم، وليس بداخل سبحانه في الأماكن مثلكم.

٣. معنى قوله: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: أي غني واسع الغنى، ليس بمعسر فقير ولا محتاج إلى تعبكم، ولكنه واسع الغنى واسع الرحمة لكم، عليم سبحانه بضعفكم، لا يكلفكم إلا دون طاقتكم.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ هذا محكم.. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ وسبب نزول ذلك:

أ. أن النبي ﷺ كان يستقبل بصلاته بيت المقدس بعد هجرته سبعة عشر شهراً حتى قالت اليهود إن محمداً وأصحابه ما دروا أين قبلتهم حتى هديناهم فأمر الله سبحانه نبيه باستقبال الكعبة فتكلمت اليهود فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية.

ب. وفي الآية وجه ثاني: وهو أن هذه الآية نزلت قبل فرض القبلة وأباح لهم الصلاة حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب.

ج. وفيها وجه ثالث: وهو أنها نزلت في صلاة التطوع للسائر حيث توجه والخائف حيث تمكن من مشرق أو مغرب، وروينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه الآية أن تصلي أينما توجهت بك راحلتك في السفر تطوعاً، وكان ﷺ إذا رجع من مكة يصلي على راحلته تطوعاً يومئ برأسه نحو المدينة

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٧.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٧٩.

وهذا الوجه أقوى الوجوه عندنا وأثبته لدينا.

د. وفيها وجه رابع وهي أنها نزلت فيمن خفيت عليهم القبلة فصلوا إلى جهات مختلفة وفي ذلك ما روى عبدالله بن عمار بن ربيعة عن أبيه قال كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار ويبني مسجداً يصلي فيه فلما أصبحنا إذ نحن قد صلينا إلى غير قبلتنا فقلنا يا رسول الله صلينا هذه الليلة إلى غير القبلة فأنزل الله هذه الآية.

هـ. وفيها وجه خامس، وهو أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: (إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه) قالوا: نصلي على رجل ليس بمسلم فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِّ﴾ [آل عمران:١٩٩]، وكان لا يصلي إلى القبلة فنزل: ﴿وَللهَّ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

و. وفيها وجه سادس: وهو أن الله سبحانه لما قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، قالوا: إلى أين؟ فنزل: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ أي الله سبحانه، ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧]، أي يبقى ربك.. ثَمَّ إشارة إلى مكان.

ز. وفيها وجه سابع: وهو أنكم حيث ما كنتم من مشرق أو مغرب فلكم جهة من الكعبة.

٢. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ فيها قولان:

أ. أحدهما: المراد بها النصارى حين قالت المسيح ابن الله.

ب. الثاني: أراد به مشركو العرب حين قالوا الملائكة بنات الله سبحانه.

٣. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهاً له عما نسبوا إليه من الولد ويغني ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقها: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي مطيعون والقنوت في اللغة القيام ومنه القنوت في الصلاة لأنه الدعاء من القيام.

٤. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي منشئها على غير حذا ولا مثال فكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبتدع ولذلك يسمى من خالف في الدين مبتدع لأنه يحدث ما لم يسبق إليه.

٥. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أي أحكمه وفصله ومنه سمي الحاكم قاضياً لفصله الأمور ويقال للميت قضى نحبه أي فرغ أمره من الدنيا قال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما ... داوود من صنع السوابغ تبع

وقال آخر:

قضيت أموراً ثم عادت تعدها   بوائق في أكمامها لم تفتق

٦. ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ في حال عدمه أم في حال وجوده فتلك حال لا يؤمر فيها بالوجود والحدوث لأنه موجود حادث قيل عن هذا أجوبة ثلاثة:

أ. أحدها: خبر عن الله عز وجل في نفوذ أوامره في خلقه الموجود كما أمر بني إسرائيل أن يكونوا قردة خاسئين ولا يكون هذا وارد في إيجاد المعدومات.

ب. الثاني: أن الله سبحانه عالم بما هو كائن قبل كونه وكانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة لعلمه بها مشابهة الأشياء التي هي موجودة فجاز أن يقول لها كوني ويأمرها بالخروج من العدم إلى الوجود لتصور جميعها ولعلمه بها.

ج. الثالث: أنه خبر عن كل ما يحدثه الله ويوجده عام وأنه إذا أراد خلق شيء وتكوينه كان من غير أن يكون هناك قول وإنما هو فعل فعبر عنه بالقول كما قال الشاعر:

قد قالت الأنساع للبطن الحقي   قدما أفاضت كالعتيق المختفي

ولا قول هناك، وإنما أراد الظهر قد لحق بالبطن، وكما قال الآخر:

فأصبحت مثل النسر طارت   إذا رام تطياراً يقال له قع

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿وَللهِّ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويلها، وسبب نزولها، على سبعة أقاويل:

أ. أحدها: أن سبب ذلك، أن النبي ﷺ، كان يستقبل بصلاته بيت المقدس بعد هجرته ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا، حتى قالت اليهود: إن محمدا وأصحابه، ما دروا أين قبلتهم حتى هديناهم، فأمرهم الله تعالى باستقبال الكعبة، فتكلمت اليهود، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهذا قول ابن عباس.

---

(١) تفسير الماوردي: ١/ ١٧٦.

ب. الثاني: أن هذه الآية نزلت قبل أن يفرض استقبال القبلة، فأباح لهم أن يتوجهوا بصلاتهم حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب، وهذا قول قتادة وابن زيد.

ج. الثالث: أنها نزلت في صلاة التطوع للسائر حيث توجه، وللخائف حيث تمكن من مشرق أو مغرب، وهذا قول ابن عمر، روى سعيد بن جبير عنه أنه قال لما نزلت هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ أن تصلي أينما توجهت بك راحلتك في السفر تطوعا، كان رسول الله ﷺ إذا رجع من مكة يصلي على راحلته تطوعا، يومئ برأسه نحو المدينة.

د. الرابع: أنها نزلت، فيمن خفيت عليهم القبلة، ولم يعرفوا جهتها، فصلّوا إلى جهات مختلفة، روى عاصم بن عبد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة، فنزلنا منزلا، فجعل الرجل يأخذ الأحجار، فيعمل مسجدا يصلي فيه، فلما أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة، فقلنا: يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه إلى غير القبلة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

هـ. الخامس: أنها نزلت في النجاشي، وروى أبو قتادة أن النبي ﷺ قال: إنّ أخاكم النّجاشيّ قد مات فصلّوا عليه) قالوا نصلي على رجل ليس بمسلم، قال فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ﴾ [سورة آل عمران الآية: ١٩٩] قالوا: فإنه كان لا يصلي إلى القبلة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾

و. السادس: أن سبب نزولها أن الله تعالى لما أنزل قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قالوا إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة: ١١٥]

ز. السابع: أن معناه وحيثما كنتم من مشرق أو مغرب، فلكم قبلة تستقبلونها، يعني جهة إلى الكعبة، وهذا قول مجاهد.

٢. يجيء من هذا الاختلاف في قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: معناه فثم قبلة الله.

ب. الثاني: فثم الله تعالى، ويكون الوجه عبارة عنه، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]

٣. (ثم) هو لفظ يستعمل في الإشارة إلى مكان، فإن كان قريبا قيل: (هنا زيد)، وإن كان بعيدا

قيل: (هناك زيد)

٤. في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنهم النصارى في قولهم: المسيح ابن الله.

ب. الثاني: أنهم مشركو العرب في قولهم: الملائكة بنات الله.

٥. قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيها له من قولهم: ﴿اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾.. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالق ما في السموات والأرض.

٦. في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: أي مطيعون، وهذا قول قتادة، والسدي، ومجاهد.

ب. الثاني: أي مقرون له بالعبودية، وهو قول عكرمة.

ج. الثالث: أي قائمون، يعني يوم القيامة، وهذا قول الربيع، والقانت في اللغة القائم، ومنه القنوت في الصلاة، لأنه الدعاء في القيام.

٧. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني منشئها على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه، يقال له مبدع، ولذلك قيل لمن خالف في الدين: مبتدع، لإحداثه ما لم يسبق إليه.

٨. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أي أحكمه وحتمه، وأصله الإحكام والفراغ، ومنه قيل للحاكم قاض، لفصله الأمور وإحكامه بين الخصوم، وقيل للميت قد قضى أي فرغ من الدنيا، قال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبّع

٩. سؤال وإشكال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ في أي حال يقول له كن فيكون؟ أفي حالة عدمه أم في حال وجوده؟ فإن كان في حال عدمه، استحال أن يأمر إلا مأمورا، كما يستحيل أن يكون الأمر إلا من آمر، وإن كان في حال وجوده، فتلك حال لا يجوز أن يأمر فيها بالوجود والحدوث، لأنه موجود حادث؟ والجواب: عن هذا السؤال أجوبة ثلاثة:

أ. أحدها: أنه خبر من الله تعالى عن نفوذ أوامره في خلقه الموجود، كما أمر في بني إسرائيل، أن يكونوا قردة خاسئين، ولا يكون هذا واردا في إيجاد المعدومات.

ب. الثاني: أن الله عزّ وجل عالم، بما هو كائن قبل كونه، فكانت الأشياء التي لم تكن وهي كائنة

بعلمه، قبل كونها مشابهة للأشياء التي هي موجودة، فجاز أن يقول لها كوني، ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود، لتصور جميعها له ولعلمه بها في حال العدم.

ج. الثالث: أن ذلك خبر من الله تعالى، عام عن جميع ما يحدثه، ويكوّنه، إذا أراد خلقه وإنشاءه كان ووجد من غير أن يكون هناك قول يقوله، وإنما هو قضاء يريده، فعبر عنه بالقول وإن لم يكن قولا، كقول أبي النجم:

قد قالت الأنساع للبطن الحق قدما فاضت كالغسق المحقق

ولا قول هناك، وإنما أراد أن الظهر قد لحق بالبطن، وكقوله عمرو بن حممة الدوسي.

فأصبحت مثل النسر طارت إذا رام تطيارا يقال له قع

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. المشرق والشرق: اسمان لمطلع الشمس، والمغرب، والغرب: اسمان لغربها، يقال: شرق شروقا، وأشرق إشراقا، وتشرق تشريقاً، والمشرقان والمغربان: مشرقا الشتاء والصيف، ومغرباهما، والمشارق مطالع الشمس في كل يوم حتى تعود الى المشرق الاول في الحول، وشرقت الشمس: إذا طلت، وأشرقت: إذا أضاءت، وتقول: لا افعل ذلك ما ذر شارق: أي ما طلع قرن الشمس، وشرق يشرق شرقاً: إذا اغتص، وقال عدي بن زيد:

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

والمشرقة: حيث يقعد المشرق في وجه الشمس، قال الشاعر:

تحبين الطلاق وأنت عندي بعيش مثل مشرقة الشتاء

وشرق الثوب بالصبغ: اذا احمر واشتدت حمرته، ولطمه فشرق الدم في عينه: اذا احمرت، وتقول: اشرورقت عينه، واغرورقت، وناقة شرقاء: اذا شقت أذنها بنصفين طولا، وكذلك الشاة، وأيام التشريق أيام مشرق اللحم في الظل، وقال صاحب العين: كانوا يشرقون اللحم تلك الأيام في الشمس، وقوله:

---

(١) تفسير الطوسي: ١/ ٤٢٢.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ أي حيث طلعت عليهم الشمس، والشرق طائر من الطيور الصوائد، مثل الصقر، والشاهين وقال الشاعر:

قد اغتدى والصبح ذو بريق بملحَم احمر سوذنيق

أجدل أو شرق من الشروق وانه أشد الطيور خوفا وأصل الباب الطلوع.

٢. المغرب والمغيب نظائر، تقول: غرب يغرب غروبا، واغترب اغترابا واستغرب استغرابا، وغرب تغريبا. وسمي الغراب غرابا لبعده ونفوره وانه الحد والتباعد حتى بلغ النهاية، ومن هذا مغرب الشمس، والرجل الغريب المتباعد، وشطت غربة النوى أي بعد المتنائي: وهو أبعد البعد، وغرب السيف والسهم: حدّه سمي بذلك، لأنه يمضي فلا يرد، فهو مأخوذ من الابعاد، ويقال لموضع الرداء: غارب، وقولهم للدابة: مغرب: إذا ابيضت حدقته، واهدابه، شبيه بابيضاض الشمس عند الغروب، وقولك للرجل: أغرُب معناه أبعد، وثوبي غربي: إذا لم تستحكم حمرته، مأخوذ من الدابة الغرب، وتقول: اصابه حجر غرب: إذا أتاه من حيث لا يدري، وأتاه حجر غرب: إذا رمى غيره فأصابه، ويقال: اقطع غرب لسان فلان عني: أي اقطع حدة لسانه، وناقة ذات غرب، أي حدة الغرب، والغرب: الدمع الحار الفاسد، وقال الكميت: أبى غرب عينيك إلا انهمالا، وجمعه غروب، والغرب، دلو ضخم يتخذ من جلد تام، والغرب: ما قطر من الماء من الدلاء من الحوض، والبئر ويقال: اغرب الحوض: إذا سال من جوانبه وفاض والغرب: جنس من الشجر خارج عن حد ما يحمل بحمل، أو طيب ريح، أو صلابة، وغاية مغربة: أي بعيدة، والغرب: الفضة، وقيل: انه جام من فضة، وقيل: انه الذهب، قال الشاعر: كما دعدع سافي الأعاجم الغربا.. والغارب: اعلى الموج، والغارب: ما بين يدي السنام، وعنقاء مغرب: موضوع على طائر لا يعرف حده والغربيب: الاسود الشديد السواد، وأصل الباب: الغرب: الحد.

٣. اللام في قوله: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ﴾ لام الملك وأصلها لام الاضافة وهي على ثمانية اوجه: الملك، والفعل، والعله، والولادة، والاختصاص، والاستغاثة يا لبكر، ولام كي: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾، ولام العاقبة: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فهذه وجوه لام الإضافة.

٤. إنما قيل: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ بالتوحيد وله جميع المشارق والمغارب لاحد أمرين:

أ. أحدهما: انه اخرج ذلك مخرج الجنس، فدلّ على الجمع، كما قيل أهلك الناس الدينار والدرهم.

ب. والآخر ـ انه على الحذف، كأنه قيل المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم.

٥. إنما خص الله تعالى ذكر ذلك ها هنا لاحد امور:

أ. أحدها: قال ابن عباس: واختاره الجبائي انه رد على اليهود لما أنكروا تحويل القبلة الى الكعبة، وقال: ليس هو في جهة دون جهة، كما تقول المشبهة.

ب. الثاني: قال ابن زيد وقتادة، كان للمسلمين التوجه بوجوههم الى الصلاة حيث شاءوا ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وإنما كان النبي ﷺ أولا اختار التوجه الى بيت المقدس، وقد كان له التوجه الى حيث شاء.

ج. وقال آخرون: كان ابن عمر يصلي حيث توجهت به راحلته في السفر تطوعا، وذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول عليه الآية.

د. وقيل: نزلت في قوم صلوا في ظلمة وقد خفيت عليهم جهة القبلة، فلما أصبحوا إذا هم صلوا الى غير القبلة، فانزل الله هذه الآية، وهذا قول عبد الله بن عامر عن أبيه، والنخعي والاول أقوى الوجوه:

٦. اختلف في المراد بالوجه في قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾:

أ. قال الحسن، ومجاهد: المراد به، فثم جهة القبلة، وهي الكعبة، لأنه يمكن التوجه اليها من كل مكان، قال ابن بيض:

أي الوجوه انتجعت قلت لها ... لاي وجه إلا الى الحكم
متى يقل صاحبا يرادفه ... هذا ابن بيض بالباب يبتسم

ب. وقيل: معناه فثم وجه الله، فادعوه كيف توجهتم، وقال آخرون، واختاره الرماني والجبائي: فثم رضوان الله، كما يقال: هذا وجه العمل، وهذا وجه الصواب وكأنه قال الوجه الذي يؤدي الى رضوان الله، وتقدير الآية واتصالها بما قبلها، كأنه قال لا يمنعكم تخريب من خرب المساجد ان تذكروه حيث كنتم من أي وجه، وله المشرق والمغرب، والجهات كلها.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

أ. قال قوم: معناه غني، فكأنه قيل: واسع المقدور.. ومعنى هذا القول انه غني عن طاعتكم، وإنما

يريدها لمنفعتكم

ب. وقال الزجاج: يدل على التوسعة للناس فيما رخص لهم في الشريعة، وكأنه قيل: واسع الرحمة، وكذلك رخص في الشريعة.

ج. وقال الجبائي: معناه واسع الرحمة.

٨. السعة والفسحة والمباعدة نظائر، وضد السعة الضيق يقال: وسع يسع سعة، وأوسع إيساعا، وتوسع توسعاً، واتسع اتساعا، ووسع توسعة، والوسع: جدة الرجل وقدرة ذات يده، فرحمة الله وسعت كل شيء وانه ليسعني ما وسعك، وتقول: وسعت الوعاء فاتسع فعل لازم، وكذلك اتوسع، وسع الفرس سعة ووساعة، فهو وساع، وأوسع الرجل: إذا كان ذا سعة في المال، فهو موسع، وموسع عليه، وتقول سير وسيع ووساع، وفي القرآن: ﴿لَا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي طاقتها وأصل الباب: السعة نقيض الضيق.

٩. معنى عليم انه عالم بوجه الحكمة، فبادروا الى ما أمركم به من الطاعة، وقيل واسع الرحمة عليم أين يضعها على وجوه الحكمة.

١٠. معنى (ثم) هناك تقول لما قرب من المكان: هنا، وما تراخى: ثم وهناك.

١١. اختلف في المعني بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾:

أ. قيل: المعني بهذه الآية النصارى.

ب. وقال قوم: النصارى، ومشركو العرب معاً، من حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وقالت النصارى: المسيح بن الله، هذا قول الزجاج.

١٢. في هذه الآية دلالة على انه لا يجوز الولد على وجه من الوجوه لأنه إذا كان جميع ما في السماوات والأرض ملكا له، فالمسيح عبد مربوب، وكذلك الملائكة المقربون، لان الولد لا يكون إلا من جنس الوالد، ولا يكون المفعول إلا من جنس الفاعل، وكل جسم فعل لله فلا مثل له ولا نظير على وجه من الوجوه (تعالى الله) عن صفات المخلوقين.

١٣. ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، الأصل في القنوت الدوام، وينقسم اربعة اقسام:

أ. الطاعة، كقوله: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي مطيعون.

ب. الصلاة كقوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾

ج. طول القيام، وروي عن جابر بن عبد الله قال سئل النبي ﷺ أي الصلاة أفضل فقال: طول القنوت.

د. السكوت، كما قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ فأمسكنا عن الكلام.

١٤. قيل في ﴿قَانِتُونَ﴾ ها هنا أقوال:

أ. الأول ـ قال مجاهد: معناه مطيعون، وطاعة الكافر في سجود ظله، وقال ابن عباس: مطيعون.

ب. الثاني:قال السدي: كل له مطيعون يوم القيامة، وقال الربيع: كل له قائم يوم القيامة.

ج. الثالث: قال الحسن: كل قائم له بالشهادة عبدة.

د. وقالت فرقة رابعة ـ وهو الأقوى ـ: كل دائم على حالة واحدة بالشهادة بما فيه من آثار الصنيعة، والدلالة على الربوبية، وزعم الفراء: انها خاصة لأهل الطاعة، بدلالة أنا نجد كثيراً من الخلق غير طائعين، وعلى ما اخترناه لا يحتاج الى التخصيص.

١٥. القنوت في اللغة قد يكون بمعنى الطاعة، تقول: قنت يقنت قنوتاً، فهو قانت: إذا أطاع، وقال صاحب العين: القنوت في الصلاة دعاء بعد القراءة في آخر الوتر، يدعو قائما، ومنه قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾، والقنوت، والدعاء: قيام في هذا الموضع، وقيل في قوله: ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ أي خاشعين، وقال ابن دريد: القنوت: الطاعة، وقال ابو عبيدة: القانتات: الطائعات، والقنوت في الصلاة: طول القيام ـ على ما قاله المفسرون ـ في قوله: ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾، وأصل الباب: المداومة على الشيء.

١٦. بديع بمعنى مبدع، مثل أليم بمعنى مؤلم، وسميع بمعنى مسمع، وبينهما فرق لأن في بديع مبالغة ليس في مبدع، ويستحق الوصف في غير حال الفعل على الحقيقة، بمعنى ان من شأنه الإنشاء، لأنه قادر عليه، ففيه معنى مبدع، وقال السدي: تقول ابتدعها، فخلقها ولم يخلق قبلها شيئاً تتمثل به، والإبداع، والاختراع، والإنشاء نظائر وضد الابتداع الاحتذاء على مثال، يقال: أبدع إبداعا، وابتدع ابتداعا، وبدع

تبديعاً، وقال ابن دريد: بدعت الشيء: إذا انشأته: والله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي منشئهما، وبدعت الركي، إذا استنبطتها، وركي بديع: أي جديد الحضر، ولست ببدع في كذا، أي لست بأول من أصابه هذا، ومنه قوله: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾، وكل من أحدث شيئاً، فقد أبدعه، والاسم: البدعة وأبدع بالرجل: إذا كلت راحلته، وانقطع به، وقوله: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي ما كنت بأول مرسل، والبدعة: ما ابتدع من الدين، وغيره، وجمعها بدع، وفي الحديث: كل بدعة ضلالة، وتقول جئت بأمر بديع، أي مبتدع عجيب وأبدعت الإبل: إذا تركت في الطريق من الهزل، وأصل الباب: الإنشاء.

١٧. قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: إذا خلق امراً، كما قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي خلقهن - وهو اختيار البلخي، والرماني، والجبائي.

ب. الثاني: حتم بان يفعل أمراً وحكم، وقيل احكم امراً، كما قال ابو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود أو صنع السوابغ تبع

١٨. قضاهما: احكمهما، والقضاء والحكم نظائر، يقال: قضى يقضي قضاء، واقتضى اقتضاء، وتقاضيا تقاضياً، واستقضى استقضاء، وتقضّ تقضياً وقضّ تقضية، وقاضاه مقاضاة، وانقضى انقضاء، قال صاحب العين: قضى يقضي قضاء، وقضية: يعني حكم، وتقول: قضى اليه عهداً معناه اوصى اليه، ومنه قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ﴿قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ أي اتى عليه، والانقضاء فناء الشيء، وذهابه، وكذلك التقضي وأصل الباب: القضاء، والفصل.

١٩. القضاء ينصرف على وجوه:

أ. منها الامر كقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي أمر.

ب. ومنه الخلق كقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أي خلقهن.

ج. ومنه الاخبار، والاعلام، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي أخبرناهم.

د. ومنه الفصل: قضى القاضي بين الخصمين أي فصل الامر بينهما.

٢٠. في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قولان:

أ. أحدهما: انه بمنزلة المثل ومعناه ان منزلة الفعل له في السهولة، وانتفاء التعذر كمنزلة ما يقال له

كن فيكون كما يقال قال فلان برأسه كذا وقال بيده: إذا حرك رأسه وأومى بيده، ولم يقل شيئاً في الحقيقة وقال ابو النجم:

إذ قالت الانساع للبطن الحقي　　　قدماً فاضت كالفنيق المحنق

فأصبحت مثل النسر طارت　　　إذا رام تطياراً يقال له: قع

وقال آخر:

امتلأ الحوض وقال قطني　　　مهلا رويداً قد ملأت بطني

وقال آخر:

فقالت له العينان سمعا وطاعة　　　وحدرتا كالدر لما يثقب

و قال العجاج يصف ثورا:

وفيه كالأعواض للعكور　　　فكر ثم قال في التفكير

ان الحياة اليوم في الكرور

ب. والوجه الآخر أنه علامة جعلها الله للملائكة اذا سمعوها، علموا انه احدث امرا.

٢١. كلاهما حسن والاول أحسن وأشبه في كلام العرب في عادة الفصحاء، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وهو الذي اختاره البلخي، والرماني، واكثر المفسرين، وقد قيل في ذلك اقوال فاسدة، لا يجوز التعويل عليها:

أ. منها: ان الامر خاص في الموجودين الذين قيل لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ومن جرى مجراهم، لأنه لا يؤمر المعدوم عندهم.

ب. ومنها انه أمر للمعدوم من حيث هو لله معلوم، فصح أن يؤمر فيكون.

ج. ومنها ـ ان الآية خاصة في الموجودات من اماتة الأحياء واحياء الموتى وما جرى مجرى ذلك من الأمور.

٢٢. إنما قلنا بإفساد هذه الأقوال، لأنه لا يحسن ان يؤمر إلا من كان عاقلا مميزاً يقدر على ما أمر

به، ويتمكن من فعله، وجميع ما ذكروه بخلافه، لأن المعدوم ليس بحي، ولا عاقل، ولا يصح أمره، ومن كان موجوداً لا يجوز ان يؤمر أن يكون قردة، لان المعاني التي تكون بها كذلك، ليس في مقدوره، كذلك القول في الاماتة والأحياء وتأويل قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قد بيناه فيما مضى.

٢٣. قال بعضهم: إنه أمر للموجود في حال كونه لا قبله ولا بعده، وانه مثل قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ وان دعاء الله إياهم لا يتقدم خروج القوم من قبورهم، ولا يتأخر عنه، وهذا فاسد لأن من شرط حسن الامر أن يتقدم المأمور به، وكذلك القول في الدعاء، فلا يسلم ما قالوه، وتأويل ما استشهدوا به على ما بيناه في الآية سواء في انه اخبار عن تسهيل الفعل وسرعة وقوعه، وارادته، لا ان يكون هناك دعاء على الحقيقة، ثم يلزم على جميع ما ذكروه ان تكون الأشياء مطيعة لله تعالى لان الطاعة هي مانعة الامر من الأشياء التي قالها: كوني بأن فعلت نفسها، ويلزم ان يكون لها عقل وتمييز وكل ذلك فاسد.

٢٤. إذا حملنا الآية على وجود المثال، فوجود الخلق هو كقوله: (كن) إلا انه خرج على تقدير فعلين، كما يقال: إذا تكلم فلان بشيء، فإنما كلامه مباح، وإذا أمر بشيء فإنما هو حتم، وكما قال تاب فاهتدى فتوبته هي اهتداؤه، فلا يتعذر أن يقال: كن قبله، أو معه، ومتى حملنا ذلك على انه علامة للملائكة فإنه يحتمل ان يكون معه، ويحتمل ان يكون قبله، كما تقول: إذا قدم زيد، قدم عمرو، فإنه يحتمل ان يكون وقتاً للأمرين معا إلا أنه أشبه الشرط، كقولك: ان جئتني أعطيتك، ولذلك دخلت الفاء في الجواب، كما تجيء في الشرط، كقوله: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وكذلك تحتمل الآية الامرين.

٢٥. من استدلّ بهذه الآية ونظائرها على ان كلام الله قديم من حيث انه لو كان محدثا لاقتضى ألا يحصل إلا (بكن)، والكلام في (كن) كالكلام فيه الى أن ينتهي الى (كن) قديمة، وهو كلام الله القديم، فهذا باطل لأنا قد بينا معنى الآية، فلا يصح ما قالوه، على ان الآية تقتضي حدوث كلامه من حيث أخبر ان المكونات تكون عقيب (كن) لأن الفاء توجب التعقيب، فإذا كانت الأشياء محدثة، فما يتقدمها بوقت واحد لا يكون إلا محدثاً فبطل ما قالوه.. وايضاً فإنه قال: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ ومعناه خلق فبين انه يخلق الامر وقوله: (كن) أمر يوجب أن يكون محدثا.

٢٦. دلت الآية الكريمة على نفي الولد عن الله من وجهين.

أ. أحدهما: ان الذي ابتدع السماوات والأرض من غير مثال هو الذي ابتدع المسيح من غير والد.

ب. الآخر ـ ان من هذه صفته، لا يجوز عليه اتخاذ الولد، كما لا يجوز صفات النقص عليه (تعالى) عن ذلك.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. المشرق: مطلع الشمس والقمر، وأصله من الشروق، وهو الطلوع، فكل شيء طلع من قِبَلِ المشرق يقال: شرق.

ب. المغرب والمغيب من النظائر، والمغرب: موضع الغروب، يقال: غربت الشمس إذا غابت.

ج. السَّعَةُ والفسحة من النظائر، ونقيض السعة الضيق، والسعة: مصدر وسع يسع سعة.

د. الوَلَدُ والوُلْدُ لغتان، وأصله من الولادة.

هـ. أصل القنوت: الدوام، ثم يستعمل على أربعة أوجه:

- الطاعة، كقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾
- وطول القيام كقوله، ﷺ لما سئل عن أي الصلاة أفضل، قال: ﴿طول القنوت}
- وبمعنى السكوت، كما قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزل: ﴿لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمسكنا عن الكلام.
- وتكون بمعنى الدوام.

و. الابتداع والاختراع والإنشاء نظائر، ونقيض الابتداع الاحتذاء على مِثَالٍ، يقال: ابتدعت الشيء، وأَبْدَعْتُهُ أنشأته.

ز. القضاء والحكم نظائر، وأصل القضاء: الفصل، ومنه انقضى الشيء إذا انفصل وتم، ثم ينصرف على وجوه:

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٥٩.

• منها: الخلق كقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾

• ومنها: الأمر كقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾

• ومنها: الإخبار والإعلام كقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

• منها: قضى القاضي بين الخصمين أي: فصل الأمر.

ح. ﴿كُنْ﴾: أمر من قولهم: كان يكون، وأصله: كُون فحذفت الواو فصار: كن.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: لما حُوِّلَتِ القبلة عن بيت المقدس أنكر اليهود ذلك، فنزلت الآية ردًّا عليهم، عن ابن عباس وأبي العالية، وبَيَّنَ تعالى أنه ليس في جهة دون جهة على ما يذهب إليه الْمُشَبِّهَةُ.

ب. وقيل: كان للمسلمين التوجه حيث شاءوا في صلواتهم، ففيه نزلت الآية، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عن قتادة وابن زيد، قال: وكان النبي ﷺ اختار التوجه إلى بيت المقدس، وله أن يتوجه حيث شاء.

ج. وقيل: نزلت في قوم صلوا في ظلمة وخفيت عليهم جهة القبلة، فاجتهدوا وصلوا، فلما أصبحوا إذا هم قد صلوا إلى غير القبلة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، عن النخعي.

د. وقيل: نزلت في صلاة التطوع على الراحلة عن ابن عمر، وقيل: في تحويل القبلة، يعني له المشرق والمغرب، فأينما كنتم فصلوا إلى الكعبة عن عكرمة، وقيل: نزلت في المجتهدين بشرط الاجتهاد.

هـ. وقيل: لما نزلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قالوا: أين ندعوه، فنزلت الآية، عن الحسن ومجاهد والضحاك.

٣. اختلف في اتصال الآية بما قبلها:

أ. قيل: لما تقدم الوعيد قال: لله المشرق والمغرب فأينما تكونوا فهو معكم، وليس بغائب عنكم، في معنى قول الأصم.

ب. وقيل: لما تقدم ذكر الصلاة والمساجد عقبه بذكر القبلة وبيانها.

ج. وقيل: إنه خطاب لليهود والنصارى، حيث عاب بَعْضُهُم بعضًا على ما تقدم، وَقِبْلَتُهُمْ مختلفة،

فَبَيَّنَ أنه ليس في جهة دون جهة، بل هو خالق الجهات بخلاف ما تقوله الْمُشَبِّهَةُ.

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾:

أ. قيل: له ملكهما.

ب. وقيل: خَلْقُهُمَا.

ج. وقيل: الخلق والملك له.

٥. المراد بالمشرق جهة المشرق، وبالمغرب جهة المغرب، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ وجوهكم، أي تحولوا: ﴿فَثَمَّ﴾ هنالك ﴿وَجْهَ الله﴾

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾:

أ. قيل: أي جهة الله، يعني جهة المشرق والمغرب الذي هو ملكه وخلقه، عن أبي مسلم.

ب. قيل: إنه خطاب للمسلمين أي: لا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله عن ذكره حيث كنتم من أرضه، فلله المشرق والمغرب والجهات كلها، عن علي بن عيسى.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَجْهَ الله﴾:

أ. قيل: جهة القبلة التي أمر الله تعالى بالتوجه إليها، وهي الكعبة، عن الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل؛ لأنه يمكن أن يتوجه إليها من كل مكان.

ب. وقيل: فثم الله فادعوه حيث توجهتم، وقيل: فثم رضوان الله يعني الوجه الذي يؤدي إلى رضوانه، عن أبي علي.

٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله وَاسِعٌ﴾:

أ. قيل: غني، عن أبي عبيدة، وتقديره: إنه غني عن عطائكم، وإنما يريدها لمنافعكم.

ب. وقيل: واسع المقدور يفعل ما يشاء.

ج. وقيل: واسع الرحمة، عن أبي علي.

د. وقيل: واسع الرحمة، فلذلك رَخَّصَ في الشريعة، عن الزجاج.

٩. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾:

أ. قيل: عليم بوجوه الحكمة فبادروا إلى أمره.

ب. وقيل: واسع الرحمة: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي يضعها على ما توجبه الحكمة.

ج. وقيل: عليم بِنِيَّاتِهِمْ حيثما صلوا ودعوا.

١٠. قيل: نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ في اليهود حين قالوا: عزير ابن الله، وفي النصارى حين قالوا: المسيح ابن الله، وفي مشركي العرب حين قالوا: الملائكة بنات الله.

١١. لما حكى الله تعالى قول اليهود في أمر القِبْلَةِ وَرَدَّ عليهم، ذكر قولهم في التوحيد وردَّ عليهم فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ يعني المشركين وغيرهم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ يعني تنزه عن اتخاذ الولد ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِلْكًا وخَلْقًا، فنبه بذلك على أن المسيح وغيره خَلْقٌ له، مملوك مربوب، فهم بمنزلة سائر الخلق، على أن من يكون خالق السماوات والأرض لا يجوز عليه اتخاذ الولد؛ لأنه يكون جسمًا، والجسم لا يقدر على خلق الجسم.

١٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾:

أ. قيل: مطيعون، عن مجاهد وابن عباس.

ب. وقيل: مطيعون يوم القيامة، عن السدي.

ج. وقيل: قائم له بالشهادة بما فيه من آثار الصنعة، والدلالة على الربوبية، عن أبي علي والأصم.

د. وقيل: جميعها في ملكه وقهره، متصرف فيها كيف شاء، لا امتناع عليه، عن أبي مسلم.

١٣. اختلف في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾: هل هو عام أم خاص:

أ. منهم من قال: هو عام، ثم اختلفوا:

- فقيل: أراد يوم القيامة، عن السدي.
- وقيل: هو ما دل عليه آثار الصنعة، عن أبي علي.
- وقيل: هو بالقهر، عن أبي مسلم.

ب. ومنهم من قال: هو خاص، ثم اختلفوا:

- فقيل: أراد به المطيعين، عن الفراء.
- وقيل: أراد المسيح وعزيرا، عن مقاتل.

واللفظ عام فلا يجوز تخصيصه من غير دليل.

١٤. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لما تنزه الله تعالى عن اتخاذ الولد، ودل عليه بخلق السماوات والأرض، أكد ذلك، فقال تعالى: ﴿بَدِيعُ﴾ يعني: مُنْشِئٌ لا على مثال، وبديع ومبتدع بمعنى، غير أن في: ﴿بَدِيعُ﴾ مبالغة للعدول فيه، ولأنه يدل على استحقاق الصفة في غير حال الفعل، على تقدير أن مِنْ شأنه الإبداع، فهو في ذلك بمنزلة سامع وسميع، ومعنى بديع ومنشئ أنه خالق ذلك عن عدم، لا على مثال، ولا عن سبب، بل أوجدها ولم تكن قط، قال السدي: خلقها، ولم يخلق قبلها شيئًا فيتمثل به.

١٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾:

أ. قيل: خلق أمرًا، عن أبي علي وأبي القاسم، وهو أوجه.

ب. وقيل: حتم وحكم بأنه يفعل أمرًا، وقيل: أحكم أمرًا، قال الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاوُودُ أو صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

ج. وقيل: حكم حكمًا في عباده، عن الأصم.

١٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ على وجوه:

أ. الأول: وهو أصحها وأوضحها أنه بمنزلة التمثيل، وحقيقة معناه: أن منزلة الفعل في تسهيله عليه وانتفاء التعذر بمنزلة ما يقال: كن فيكون، ولهذا نظائر كثيرة، فمن ذلك قولهم: قال بيده وبرأسه، قال تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، وقال الشاعر:

امْتَلَأَ الحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي ... مَهْلاً رُويدًا قَد مَلأتُ بَطَنِي

وقال الآخر:

فقَالَتْ لَهُ العَيْنَانِ سَمْعًا وَطَاعَةً ... وَحَدَرَتا كَالدُّرِّ لَمَّا يُثَقَّبِ

وهو قول أبي علي وأبي هاشم وأبي القاسم وجماعة من المفسرين.

ب. وقيل: إنه علامة يفعلها الله تعالى للملائكة إذا سمعوها علموا أنه أحدث أمرًا، يحكى ذلك عن أبي الهذيل، وفيه بعد؛ لأن لفظة: ﴿كُنْ﴾ لا تدل على فعل ولا جنس.

ج. وقيل: هذا خاص في الموجودين الَّذِينَ قال لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾، ومن جرى مجراهم، عن

الأصم، وهذا بعيد؛ لأنه تخصيص من غير دليل، ولأنه تعالى يكونه فما فائدة قوله: ﴿كُنْ﴾؛ ولأن ﴿كُنْ﴾ فعل فيحتاج إلى ﴿كُنْ﴾ آخر فيتسلسل.

د. وقيل: إنها أمر للمعدوم حيث علمه الله تعالى، وهذا فاسد؛ لأن المعدوم لا يصح خطابه، ولأنه تخصيص من غير دليل.

هـ. وقيل: أمر للموجودين من إحياء الموات، وإماتة الأحياء، والآية عامة توجب حمله على ما ذكرنا.

١٧. سؤال وإشكال: كيف الاحتجاج بالآية على نفي الولد؟ والجواب: فيه قولان:

أ. الأول: أن مبدع الأشياء هو مبدع عيسى من غير أب.

ب. والثاني: أن من كان هذه صفاته لا يجوز عليه اتخاذ الولد كما لا يجوز عليه صفات النقص.

١٨. تدل الآيات الكريمة على:

أ. إذا حملت الآية:

• على التوجه إلى القبلة، كأنه قيل: أينما كنتم فَمكَّةُ القِبْلَةُ، فتدل على وجوب التوجه إليها، وفيه إجماع وعلم من دينه ضرورة.

• على التوجه عند الاشتباه إلى حيث يؤدي اجتهاده، فتدل على صحة الاجتهاد.

• وفي هذين الوجهين لا نسخ في الآية، وإذا حملت على التخيير فلا بد من نسخ ذلك لوجوب التوجه إلى الكعبة.

ب. أن من توجه باجتهاده عند الاشتباه ثم بان خَطَؤُهُ لا قضاء عليه، وهو قول أبي حنيفة، وقال الشافعي: عليه القضاء، وقد اختلفوا فيما يجب عند الاشتباه إذا لم يجد من يسأله، فقال أكثر الفقهاء: يجتهد، وقال بعضهم: يصلي إلى أربع جهات، والصحيح الأول؛ لأن في الثاني أمرًا بالصلاة إلى غير القبلة بيقين.

ج. تنزيهه تعالى عما لا يليق به من الصاحبة والولد.

د. أن الله تعالى ليس بجسم؛ لأن الوالد يكون من جنس الولد، فلو صح كونه جسمًا لجاز عليه الولد.

هـ. قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ على تنزيهه عن القبائح.

و. أن المِلْكَ والولادة لا يجتمعان؛ فلذلك نفى الولد بإثبات المِلْكِ.

ز. أنه تعالى خالق السماوات والأرض، فتدل على أنه ليس بجسم؛ لأن الجسم لا يقدر على الجسم، وإذا لم يكن جسمًا لم يَجُزْ عليه اتخاذ الولد.

ح. بطلان قول المفوضة والباطنية.

ط. كمال قدرته حيث لا يمتنع عليه شيء، فمن هذا الوجه تدل على كونه قادرا لذاته.

١٩. مسائل نحوية:

أ. اللام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ أصله لام الإضافة، ومعناه المِلْكُ.

ب. سؤال وإشكال: لم وحد المشرق والمغرب، ولله المشارق والمغارب؟ والجواب: فيه قولان:

• أحدهما: أنه أخرجه مخرج الجنس فدل على الجمع، كقولهم: أهلك الناس الدينار والدرهم.

• وقيل: على الحذف وتقديره: المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم.

ج. ﴿ثَمَّ﴾: يبنى على الفتح، وإنما بني لأن فيه معنى الإشارة إلى المكان فمعناه هنالك، وبني على الحركة لالتقاء الساكنين، وفُتِحَ لخفة الفتح في المضاعف.

د. ﴿فَيَكُونُ﴾ يرفع وينصب، فالرفع من وجهين:

• أحدهما: العطف على: ﴿يَقُولُ﴾

• الثاني: الاستئناف، أي فهو يكون، والنصب على جواب الأمر، وقيل: هو بعيد.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. المشرق والشرق: إسمان لمطلع الشمس والقمر، وشرقت الشمس: إذا طلعت، وأشرقت: أضاءت، ويقال: لا أفعل ذلك ما ذر شارق أي: ما طلع قرن الشمس، وأيام التشريق: أيام تشريق اللحم

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٦٣.

في الشمس، وفي الحديث: (لا تشريق إلا في مصر أو مسجد جامع) أي: لا صلاة عيد، لأن وقتها طلوع الشمس.

ب. المغرب، والمغيب بمعنى: وهو موضع الغروب، يقال: غربت الشمس تغرب: إذا غابت، وأصل الغرب: الحد والتباعد، وغربة النوى: بعد المتنأى، وغرب السيف: حده، سمي بذلك لأنه يمضي، ولا يرد، فهو مأخوذ من الإبعاد.

ج. الواسع: الغني، سمي به لسعة مقدوراته، وقيل: هو الكثير الرحمة، والسعة، والفسحة، من النظائر، وضد السعة الضيق، يقال: وسع يسع سعة، وأوسع الرجل: إذا صار ذا سعة في المال.

د. الأصل في القنوت: الدوام، ثم يستعمل على وجوه:

• منها: أن يكون بمعنى الطاعة، كقوله: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي: مطيعون.

• ومنها: أن يكون بمعنى الصلاة، كقوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

• وبمعنى طول القيام، وروى جابر بن عبد الله قال: سئل النبي ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت، أي: طول القيام.

• ويكون بمعنى الدعاء، قال صاحب العين: القنوت في الصلاة دعاء بعد القراءة في آخر الوتر يدعو قائما، ومنه قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾

• ويكون بمعنى السكوت، قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾، فأمسكنا عن الكلام.

هـ. البديع: بمعنى المبدع، كالسميع بمعنى المسمع، وبينهما فرق من حيث إن في بديع مبالغة ليست في مبدع، ويستحق الوصف به في غير حال الفعل على الحقيقة بمعنى أن من شأنه إنشاء الأشياء على غير مثال، واحتذاء، والابتداع والاختراع والإنشاء نظائر، وكل من أحدث شيئا فقد أبدعه، والاسم البدعة، وفي الحديث: (كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة سبيلها إلى النار)

و. القضاء، والحكم، من النظائر، وأصل القضاء: الفصل، وإحكام الشيء، قال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما... داوود، أو صنع السوابغ تبع أي: أحكمهما.

ثم ينصرف على وجوه:

• منها الأمر والوصية، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: وصى ربك، وأمر.

• ومنها: أن يكون بمعنى الإخبار والإعلام كقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أخبرناهم، وقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي: عهدنا إلى لوط.

• ومنها: أن يكون بمعنى الفراغ، نحو قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ أي: فرغتم من أمر المناسك، وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾، وفيما رواه علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جده الصادق عليهم السلام، قال: القضاء على عشرة أوجه ذكر فيه الوجوه الثلاثة التي ذكرناها.

• والرابع: بمعنى الفعل في قوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي: فافعل ما أنت فاعل، ومنه قوله: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ يعني إذا فعل أمرا كان في علمه أن يفعله، إنما يقول له كن فيكون، ومنه قوله: ﴿إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ يقول: ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا فعل الله ورسوله شيئا في تزويج زينب، أن يكون لهم الخيرة من أمرهم.

• والخامس: في قوله: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: لينزل علينا الموت، وقوله: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي فأنزل به الموت.

• والسادس: قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: وجب العذاب، فوقع بأهل النار، وكذا قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾

• والسابع: قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ أي: مكتوبا في اللوح المحفوظ، أنه يكون.

• والثامن: بمعنى الإتمام في نحو قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي: أتم، و﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أي: أتممت، وقوله: (من قبل أن يقضي إليك وحيه) يعني من قبل أن يتم جبرائيل إليك الوحي.

• والتاسع: بمعنى الحكم الفصل، كقوله: (وقضى بينهم بالحق وإن ربك يقضي بينهم) أي يفصل، وفي الأنعام: ﴿يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يفصل الأمر بيني وبينكم بالعذاب.

• والعاشر: بمعنى الجعل في قوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أي: جعلهن.

٢. اختلف في وجه اتصال الآية بما قبلها:

أ. قيل: أن التقدير لا يمنعكم تخريب من خرب المساجد عن أن تذكروه، حيث كنتم من أرضه، فلله المشرق والمغرب، والجهات كلها، عن علي بن عيسى.

ب. وقيل: لما تقدم ذكر الصلاة والمساجد، عقبه بذكر القبلة وبيانها.

٣. اختلف في سبب نزول هذه الآية:

أ. قيل: إن اليهود أنكروا تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس، فنزلت الآية ردا عليهم، عن ابن عباس، واختاره الجبائي قال: بين سبحانه أنه ليس في جهة دون جهة، كما تقول المجسمة.

ب. وقيل: كان للمسلمين التوجه حيث شاءوا في صلاتهم، وفيه نزلت الآية، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، عن قتادة، قال: وكان النبي ﷺ، قد اختار التوجه إلى بيت المقدس، وكان له أن يتوجه حيث شاء.

ج. وقيل: نزلت في صلاة التطوع على الراحلة، تصليها حيثما توجهت إذا كنت في سفر، وأما الفرائض فقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ يعني أن الفرائض لا تصليها إلا إلى القبلة، وهذا هو المروي عن أئمتنا عليهم السلام، قالوا: وصلى رسول الله ﷺ إيماء على راحلته أينما توجهت به، حيث خرج إلى خيبر، وحين رجع من مكة، وجعل الكعبة خلف ظهره، وروي عن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ سرية كنت فيها، فأصابتنا ظلمة، فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة هي هاهنا قبل الشمال، فصلوا وخطوا خطوطا، وقال بعضنا: القبلة هاهنا قبل الجنوب، وخطوا خطوطا، فلما أصبحوا، وطلعت الشمس، أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا، سألنا النبي ﷺ عن ذلك فسكت، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾:

أ. قيل: أراد أن المشرق والمغرب لله ملكا.

ب. وقيل: أراد أنه خالقهما وصانعهما.

ج. وقيل: معناه يتولى إشراق الشمس من مشرقها، واغرابها من مغربها.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾:

أ. قيل: معناه: فأينما تولوا وجوهكم، فحذف المفعول للعلم به، فثم أي: فهناك وجه الله أي: قبلة الله، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، والوجه، والجهة، والوجهة: القبلة، ومثله الوزن والزنة، والعرب تسمي القصد الذي تتوجه إليه وجها، قال الشاعر:

أستغفر الله ذنبا لست محصيه   رب العباد إليه الوجه، والعمل

معناه: إليه القصد بالعبادة.

ب. وقيل: معناه فثم الله يعلم ويرى فادعوه كيف توجهتم، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يريدونه بالدعاء، ويقال لما قرب من المكان هنا، ولما تراخى ثم وهناك، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا هو ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ويبقى ربك، عن الكلبي.

ج. وقيل: معناه ثم رضوان الله، يعني الوجه الذي يؤدي إلى رضوانه، كما يقال: هذا وجه الصواب، عن أبي علي، والرماني.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله وَاسِعٌ﴾:

أ. قيل: أي: غني، عن أبي عبيدة، وتقديره: غني عن طاعتكم، وإنما يريدها لمنافعكم.

ب. وقيل: واسع الرحمة، فلذلك رخص في الشريعة، عن الزجاج.

ج. وقيل: واسع المقدور يفعل ما يشاء.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾:

أ. قيل: أي: عالم بوجوه الحكمة، فبادروا إلى ما أمركم به.

ب. وقيل: عليم أين يضع رحمته على ما توجبه الحكمة.

ج. وقيل: عليم بنياتكم حيثما صليتم، ودعوتم.

٨. اختلف في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾:

أ. قيل: في النصارى حيث قالوا: المسيح ابن الله.

ب. وقيل: نزلت فيهم وفي مشركي العرب، حيث قالوا: الملائكة بنات الله.

٩. لما حكى الله سبحانه قول اليهود في أمر القبلة، ورد عليهم قولهم، ذكر مقالتهم في التوحيد رادا عليهم، قال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ أي: إجلالا له عن اتخاذ الولد، وتنزيها عن القبائح والسوء، والصفات التي لا تليق به، وروي عن طلحة بن عبيد الله أنه سأل النبي ﷺ عن معنى قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ فقال: تنزيها لله عن كل سوء، بل له ما في السماوات والأرض.

١٠. هذا رد عليهم قولهم: ﴿اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ أي ليس الأمر كما زعموا.

١١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. قيل: معناه ملكا، والولد لا يكون ملكا للأب، لأن البنوة والملك لا يجتمعان، فكيف يكون الملائكة الذين هم في السماء، والمسيح الذي هو في الأرض، ولدا له؟ فنبه بذلك على أن المسيح وغيره عبيد له، مخلوقون مملوكون، فهم بمنزلة سائر الخلق.

ب. وقيل: معناه بل له ما في السماوات والأرض فعلا، والفعل لا يكون من جنس الفاعل، والولد لا يكون إلا من جنس أبيه، فإن من تبنى إنسانا، فالذي تبناه لا بد من أن يكون من جنسه.

١٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾:

أ. قال ابن عباس، ومجاهد: معناه مطيعون.

ب. وقال السدي: كل له مطيع يوم القيامة وقال الحسن: كل له قائم بالشهادة أنه عبده.

ج. وقال الجبائي: كل دائم على حال واحدة بالشهادة بما فيه من آثار الصنعة، والدلالة على الربوبية.

د. وقال أبو مسلم: كل في ملكه وقهره، يتصرف فيه كيف يشاء، لا يمتنع عليه.

١٣. لما نزه الله سبحانه نفسه عن اتخاذ الأولاد، ودل عليه بأن له ما في السماوات والأرض، أكد ذلك بقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: منشئ السماوات والأرض على غير مثال امتثله، ولا احتذاء من صنع خالق كان قبله.

١٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾:

أ. قيل: معناه إذا فعل أمرا أي: أراد إحداث أمر كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ أي: إذا أردت قراءة القرآن.

ب. وقيل: معناه إذا أحكم أمرا.

ج. وقيل: معناه حكم وحتم بأنه يفعل أمرا والأول أوجه.

١٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ على وجوه:

١٦. أحدها: إنه بمنزلة التمثيل، لأن المعدوم لا يصح أن يخاطب، ولا يؤمر، وحقيقة معناه أن منزلة الفعل في تسهيله وتيسره عليه، وانتفاء التعذر منه، كمنزلة ما يقال له كن فيكون، كما يقال: قال فلان

برأسه، أو بيده كذا: إذا حرك رأسه، أو أومى بيده ولم يقل شيئا على الحقيقة، وكما قال أبو النجم:

قد قالت الأنساع للبطن الحق ... قدما، فاضت كالفنيق المحنق

وقال العجاج يصف ثورا:

وفيه كالأعراض للعكور ... فكر ثم قال في التفكير:

إن الحياة اليوم في الكرور

وقال عمرو بن قميئة السدوسي:

فأصبحت مثل النسر طارت ... إذا رام تطيارا يقال له: قع

وقال آخر:

وقالت له العينان: سمعا وطاعة ... وحدرتا كالدر لما يثقب

والمشهور فيه قول الشاعر:

امتلأ الحوض، وقال: قطني ... مهلا رويدا قد ملأت بطني

وهو قول أبي علي، وأبي القاسم، وجماعة من المفسرين.

١٧. وثانيها: إنه علامة جعلها الله للملائكة إذا سمعوها علموا أنه أحدث أمرا، وهذا هو المحكي عن أبي الهذيل.

١٨. وثالثها: ما قاله بعضهم: إن الأشياء المعدومة لما كانت معلومة عند الله تعالى، صارت كالموجود، فصح أن يخاطبها، ويقول لما شاء إيجاده منها كن.

١٩. وقال بعضهم: إنما يقول كن عند وجود الأشياء لا قبلها، ولا بعدها، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، وإنما أراد أنه يدعوهم في حال خروجهم لا قبله ولا بعده.. وهذا الوجه ضعيف، لأن من شرط حسن الأمر أن يتقدم المأمور به، وكذلك الدعاء.

٢٠. الأصح من الأقوال الأول، وهو الأشبه بكلام العرب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾:

أ. وإن حمل على القول الثاني، فالمراد أن يقول للملائكة على جهة الإعلام منه لهم، وإخباره إياهم

عن الغيب: كن أي: يقول أكون فيكون فاعل كن الله، وهو في معنى الخبر وإن كان اللفظ لفظ الأمر على ما تقدم بيانه، وقد يجوز على هذا أن يكون فاعل كن الشيء المعدوم المراد كونه، وتقديره يقول من أجله للملائكة يكون شيء كذا، فيكون ذلك على ما يخبر به، لا خلف له، ولا تبديل عما يخبر به.

ب. وأما القول الثالث فبعيد لأن المعدوم لا يصح خطابه، ولا أمره بالكون والوجود، ليخرج بهذا الأمر إلى الوجود، لأن ذلك امتثال للأمر، وتلق له بالقبول والطاعة، وهذا إنما يتصور من المأمور الموجود دون المعدوم، ولو صح ذلك لوجب أن يكون المأمور المعدوم فاعلا لنفسه، كما يكون المتلقي لما يؤمر به بالقبول فاعلا لما أمر به، وهذا فاسد ظاهر البطلان.

٢١. في هذه الآية دلالة على أنه سبحانه لا يجوز أن يتخذ ولدا، لأنه إذا ثبت أنه منشئ السماوات والأرض، ثبت بذلك أنه سبحانه ليس بصفة الأجسام والجواهر، لأن الجسم يتعذر عليه فعل الأجسام، ومن كان بهذه الصفة لم يجز عليه اتخاذ الولد، ولأنه سبحانه قد أنشأ عيسى من غير أب، من حيث هو مبدع الأشياء، فجل عن اتخاذ الأبناء، وتعالى علوا كبيرا.

٢٢. مسائل نحوية:

أ. اللام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾: لام الملك، وإنما وحد المشرق والمغرب، لأنه أخرج ذلك مخرج الجنس، فدل على الجمع، كما يقال: أهلك الناس الدينار والدرهم.

ب. أين بني لتضمنه معنى الحرف، وإنما بني على الفتح لالتقاء الساكنين، وفيه معنى الشرط.

ج. ﴿تَوَلَّوْا﴾: مجزوم بالشرط، وجوابه: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، وعلامة الجزم في: ﴿تَوَلَّوْا﴾ سقوط النون.

د. ﴿أَيْنَ﴾: في موضع نصب لأنه ظرف لقوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾

هـ. (ما) في قوله، ﴿أَيْنَمَا﴾: هي التي تهيء الكلمة لعمل الجزم، ولذلك لم يجاز بإذ وحيث، حتى يضم إليهما ما فيقال: حيثما لكن أكن، وإذا ما تفعل أفعل، ولا يقال: حيث تكن أكن، وإذ تفعل أفعل.

و. يجوز في: ﴿أَيْنَ﴾ الجزم، وإن لم يدخل ما عليها، كقول الشاعر:

أين تضرب بنا العداة تجدنا ... نصرف العيس نحوها للتلاقي

ز. ﴿ثَمَّ﴾: موضعه نصب، لأنه ظرف مكان، وبني على الفتح لالتقاء الساكنين، وإنما بني في

الأصل، لأنه معرفة، وحكم الاسم المعرف أن يكون بحرف، فبني لتضمنه معنى الحرف الذي يكون به التعريف والعهد.. ألا ترى أن: ﴿ثَمَّ﴾ لا تستعمل إلا في مكان معهود معروف لمخاطبك.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أربعة أقوال:

أ. أحدها: أنّ الصحابة كانوا مع رسول الله ﷺ في غزوة في ليلة مظلمة، فلم يعرفوا القبلة، فجعل كلّ واحد منهم مسجدا بين يديه وصلّى، فلمّا أصبحوا إذا هم على غير القبلة، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، رواه عامر بن ربيعة.

ب. الثاني: أنها نزلت في التّطوّع بالنّافلة، قاله ابن عمر.

ج. الثالث: أنه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، قالوا: إلى أين؟ فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد.

د. الرابع: أنه لمّا مات النّجاشيّ، وأمرهم النبيّ ﷺ بالصّلاة عليه؛ قالوا: إنه كان لا يصلّي إلى القبلة؛ فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

٢. في قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ قولان:

أ. أحدهما: فثمّ الله، يريد: علمه معكم أين كنتم، وهذا قول ابن عباس، ومقاتل.

ب. الثاني: فثمّ قبلة الله، قاله عكرمة، ومجاهد.

٣. الواسع: الذي وسع غناه مفاقر عباده، ورزقه جميع خلقه، والسّعة في كلام العرب: الغنى.

٤. هذه الآية مستعملة الحكم في المجتهد إذا صلّى إلى غير القبلة، وفي صلاة المتطوّع على الرّاحلة، والخائف، وقد ذهب قوم إلى نسخها، فقالوا: إنها لمّا نزلت؛ توجّه رسول الله إلى بيت المقدس، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وهذا مرويّ عن ابن عباس، قال شيخنا عليّ بن عبيد الله: وليس في القرآن أمر خاصّ بالصّلاة إلى بيت المقدس، وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ ليس صريحا

---

(١) زاد المسير: ١/ ١٠٤.

بالأمر بالتوجه إلى بيت المقدس، بل فيه ما يدلّ على أنّ الجهات كلّها سواء في جواز التّوجّه إليها، فإذا ثبت هذا، دلّ على أنه وجب التّوجّه إلى بيت المقدس بالسّنّة، ثم نسخ بالقرآن.

٥. اختلفوا فيمن نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾، على أربعة أقوال:

أ. أحدها: أنها نزلت في اليهود إذ جعلوا عزيرا ابن الله، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أنها نزلت في نصارى نجران حيث قالوا: عيسى ابن الله، قاله مقاتل.

ج. الثالث: أنها في النّصارى ومشركي العرب، لأنّ النّصارى قالت: عيسى ابن الله، والمشركين قالوا: الملائكة بنات الله، ذكره إبراهيم بن السّريّ.

د. الرابع: أنها في اليهود والنّصارى ومشركي العرب، ذكره الثّعلبيّ.

٦. القنوت: قال الزّجّاج: هو في اللغة بمعنيين: أحدهما: القيام، الثاني: الطّاعة، والمشهور في اللغة والاستعمال أنّ القنوت: الدّعاء في القيام، فالقانت: القائم بأمر الله، ويجوز أن يقع في جميع الطّاعات، لأنه إنّ لم يكن قيام على الرّجلين، فهو قيام بالنّيّة، وقال ابن قتيبة: لا أرى أصل القنوت إلّا الطّاعة، لأنّ جميع الخلال من الصّلاة، والقيام فيها والدّعاء وغير ذلك يكون عنها.

٧. للمفسّرين في المراد بالقنوت هاهنا ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنه الطّاعة، قاله ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وقتادة.

ب. الثاني: أنه الإقرار بالعبادة، قاله عكرمة، والسّدّيّ.

ج. الثالث: القيام، قاله الحسن، والرّبيع.

٨. في معنى القيام قولان:

أ. أحدهما: أنه القيام له بالشّهادة بالعبودية.

ب. الثاني: أنه القيام بين يديه يوم القيامة.

٩. سؤال وإشكال: كيف عمّ بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع؟ والجواب: فعنه ثلاثة أجوبة:

أ. أحدها: أن يكون ظاهرها ظاهر العموم، ومعناها معنى الخصوص، والمعنى: كلّ أهل الطّاعة له قانتون.

ب. الثاني: أن الكفّار تسجد ظلالهم لله بالغدوات والعشيّات، فنسب القنوت إليهم بذلك.

ج. الثالث: أن كلّ مخلوق قانت له بأثر صنعه فيه، وجري أحكامه عليه، فذلك دليل على ذلّه لربّه، ذكرهنّ ابن الأنباريّ.

١٠. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾، البديع: المبدع، وكلّ من أنشأ شيئا لم يسبق إليه قيل له: أبدعت، قال الخطّابيّ: البديع، فعيل بمعنى: مفعل، ومعناه: أنه فطر الخلق مخترعا له لا على مثال سبق.

١١. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾، قال ابن عباس: معنى القضاء: الإرادة، وقال مقاتل: إذا قضى أمرا في علمه، فإنما يقول له: كن فيكون، والجمهور على ضمّ نون: ﴿فَيَكُونُ﴾، بالرّفع على القطع، والمعنى: فهو يكون، وقرأ ابن عامر بنصب النون، قال مكيّ بن أبي طالب: النصب على الجواب ل (كن)، وفيه بعد.

١٢. استدلّ أصحابنا على قدم القرآن بقوله: ﴿كُنْ﴾ فقالوا: لو كانت (كن) مخلوقة؛ لافتقرت إلى إيجادها بمثلها وتسلسل ذلك، والتّسلسل محال.

١٣. سؤال وإشكال: هذا خطاب لمعدوم، والجواب: أنه خطاب تكوين يظهر أثر القدرة، ويستحيل أن يكون المخاطب به موجودا، لأنه بالخطاب كان، فامتنع وجوده قبله أو معه، ويحقّق هذا أنّ ما سيكون متصوّر العلم فضاهى بذلك الموجود، فجاز خطابه لذلك.

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. اختلفوا في سبب نزول هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، والضابط أن الأكثرين زعموا أنها إنما نزلت في أمر يختص بالصلاة ومنهم من زعم أنها إنما نزلت في أمر لا يتعلق بالصلاة، أما القول الأول ـ أي نزلت في أمر يختص بالصلاة ـ فهو أقوى لوجهين:

أ. أحدها: أنه هو المروي عن كافة الصحابة والتابعين وقولهم حجة.

ب. ثانيها: أن ظاهر قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ يفيد التوجه إلى القبلة في الصلاة، ولهذا لا يعقل من قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٤] إلا هذا المعنى.

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٤/ ١٩.

٢. القائلون بأنها نزلت في أمر يختص بالصلاة اختلفوا على وجوه:

أ. أحدها: أنه تعالى أراد به تحويل المؤمنين عن استقبال بيت المقدس إلى الكعبة، فبين تعالى أن المشرق والمغرب وجميع الجهات والأطراف كلها مملوكة له سبحانه ومخلوقة له، فأينما أمركم الله باستقباله فهو القبلة، لأن القبلة ليست قبلة لذاتها، بل لأن الله جعلها قبلة، فإن جعل الكعبة قبلة فلا تنكروا ذلك لأنه تعالى يدبر عباده كيف يريد وهو واسع عليم بمصالحهم فكأنه تعالى ذكر ذلك بياناً لجواز نسخ القبلة من جانب إلى جانب آخر، فيصير ذلك مقدمة لما كان يريد تعالى من نسخ القبلة.

ب. ثانيها: أنه لما حولت القبلة عن بيت المقدس أنكر اليهود ذلك فنزلت الآية رداً عليهم وهو قول ابن عباس وهو نظير قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]

ج. ثالثها: قول أبي مسلم وهو أن اليهود والنصارى كل واحد منهم قال إن الجنة له لا لغيره، فرد الله عليهم بهذه الآية لأن اليهود إنما استقبلوا بيت المقدس لأنهم اعتقدوا أن الله تعالى صعد السماء من الصخرة والنصارى استقبلوا المشرق لأن عيسى عليه السلام إنما ولد هناك على ما حكى الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦] فكل واحد من هذين الفريقين وصف معبوده بالحلول في الأماكن ومن كان هكذا فهو مخلوق لا خالق، فكيف تخلص لهم الجنة وهم لا يفرقون بين المخلوق والخالق.

د. رابعها: قال بعضهم: إن الله تعالى نسخ بيت المقدس بالتخيير إلى أي جهة شاء بهذه الآية، فكان للمسلمين أن يتوجهوا إلى حيث شاءوا في الصلاة إلا أن النبي ﷺ كان يختار التوجه إلى بيت المقدس مع أنه كان له أن يتوجه حيث شاء، ثم أنه تعالى نسخ ذلك بتعيين الكعبة، وهو قول قتادة وابن زيد.

هـ. خامسها: أن المراد بالآية من هو مشاهد للكعبة فإن له أن يستقبلها من أي جهة شاء وأراد.

و. سادسها: ما روى عبد الله بن عامر بن ربيعة قال كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة في ليلة سوداء مظلمة فلم نعرف القبلة فجعل كل رجل منا مسجده حجارة موضوعة بين يديه، ثم صلينا فلما أصبحنا إذا نحن على غير القبلة فذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهذا الحديث يدل على أنهم كانوا قد نقلوا حينئذ إلى الكعبة لأن القتال فرض بعد الهجرة بعد نسخ قبلة بيت المقدس.

ز. سابعها: أن الآية نزلت في المسافر يصلي النوافل حيث تتوجه به راحلته، وعن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه قال إنما نزلت هذه الآية في الرجل يصلي إلى حيث توجهت به راحلته في السفر، وكان ﷺ إذا رجع من مكة صلى على راحلته تطوعاً يومئ برأسه نحو المدينة، فمعنى الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ وجوهكم لنوافلكم في اسفاركم: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ فقد صادفتم المطلوب: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ﴾ الفضل غني، فمن سعة فضله وغناه رخص لكم في ذلك لأنه لو كلفكم استقبال القبلة في مثل هذه الحال لزم أحد الضررين، اما ترك النوافل، وإما النزول عن الراحلة والتخلف عن الرفقة بخلاف الفرائض، فإنها صلوات معدودة محصورة فتكليف النزول عن الراحلة عند أدائها واستقبال القبلة فيها لا يفضي إلى الحرج بخلاف النوافل، فإنها غير محصورة فتكليف الاستقبال يفضي إلى الحرج.

٣. سؤال وإشكال: أي هذه الأقاويل أقرب إلى الصواب، والجواب: إن قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ مشعر بالتخيير والتخيير لا يثبت إلا في صورتين:

أ. أحدهما: في التطوع على الراحلة.

ب. وثانيهما: في السفر عند تعذر الاجتهاد للظلمة أو لغيرها.

لأن في هذين الوجهين المصلي مخير، فأما على غير هذين الوجهين فلا تخيير.

٤. قول من يقول: إن الله تعالى خير المكلفين في استقبال أي جهة شاءوا بهذه الآية، وهم كانوا يختارون بيت المقدس لا لأنه لازم، بل لأنه أفضل وأولى بعيد لأنه لا خلاف أن لبيت المقدس قبل التحويل إلى الكعبة اختصاصاً في الشريعة، ولو كان الأمر كما قالوا: لم يثبت ذلك الاختصاص، وأيضاً فكان يجب أن يقال: إن بيت المقدس صار منسوخاً بالكعبة فهذه الدلالة تقتضي أن يكون حمل الآية على الوجه الثالث والرابع، وأما الذين حملوا الآية على الوجه الأول فلهم أن يقولوا: إن القبلة لما حولت تكلم اليهود في صلاة الرسول ﷺ وصلاة المؤمنين إلى بيت المقدس فبين تعالى بهذه الآية أن تلك القبلة كان التوجه إليها صواباً في ذلك الوقت والتوجه إلى الكعبة صواب في هذا الوقت، وبين أنهم أينما يولوا من هاتين القبلتين في المأذون فيه فثم وجه الله، قالوا: وحمل الكلام على هذا الوجه أولى، لأنه يعم كل مصل، وإذا حمل على الأول لا يعم لأنه يصير محمولاً على التطوع دون الفرض، وعلى السفر في حالة مخصوصة دون الحضر، وإذا أمكن إجراء اللفظ العام على عمومه فهو أولى من التخصيص، وأقصى ما في الباب أن يقال: إن على هذا التأويل لا بد

أيضا من ضرب تقييد وهو أن يقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ من الجهات المأمور بها: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ إلا أن هذا الإضمار لا بد منه على كل حال، لأنه من المحال أن يقول تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ بحسب ميل أنفسكم: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ بل لا بد من الإضمار الذي ذكرناه، وإذا كان كذلك فقد زالت طريقة التخيير ونظيره: إذا أقبل أحدنا على ولده وقد أمره بأمور كثيرة مترتبة فقال له: كيف تصرفت فقد اتبعت رضائي، فإنه يحمل ذلك على ما أمره على الوجه الذي أمره من تضييق أو تخيير، ولا يحمل ذلك على التخيير المطلق فكذا هاهنا.

٥. من زعم أن هذه الآية نزلت في أمر سوى الصلاة لهم وجوه:

أ. أولها: أن المعنى أن هؤلاء الذين ظلموا بمنع مساجدي أن يذكر فيها اسمي وسعوا في خرابها أولئك لهم كذا وكذا، ثم أنهم أينما ولوا هاربين عني وعن سلطاني فإن سلطاني يلحقهم، وقدرتي تسبقهم وأنا عليم بهم، لا يخفى على مكانهم وفي ذلك تحذير من المعاصي وزجر عن ارتكابها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ نظير قوله: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] فعلى هذا يكون المراد منه سعة العلم، وهو نظير: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَرابِعُهُمْ} [المجادلة: ٧] وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] أي عم كل شيء بعلمه وتدبيره وإحاطته به وعلوه عليه.

ب. ثانيها: قال قتادة: إن النبي ﷺ قال: إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه، قالوا: نصلي على رجل ليس بمسلم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] فقالوا: إنه كان يصلي إلى غير القبلة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ ومعناها أن الجهات التي يصلي إليها أهل الملل من شرق وغرب وما بينهما، كلها لي فمن وجه وجهه نحو شيء منها بأمر يريدني ويبتغي طاعتي وجدني هناك أي وجد ثوابي فكان في هذا عذر للنجاشي وأصحابه الذين ماتوا على استقبالهم المشرق وهو نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ج. ثالثها: لما نزل قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قالوا: أين ندعوه فنزلت هذه

الآية، وهو قول الحسن ومجاهد والضحاك.

د. رابعها: أنه خطاب للمسلمين، أي لا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله عن ذكره حيث كنتم من أرضه فلله المشرق والمغرب والجهات كلها، وهو قول علي بن عيسى.

هـ. خامسها: من الناس من يزعم أنها نزلت في المجتهدين الوافين بشرائط الاجتهاد سواء كان في الصلاة أو في غيرها، والمراد منه أن المجتهد إذا رأى بشرائط الاجتهاد فهو مصيب.

٦. إن فسرنا الآية بأنها تدل على تجويز التوجه إلى أي جهة أريد، فالآية منسوخة وإن فسرناها بأنها تدل على نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فالآية ناسخة، وإن فسرناها بسائر الوجوه فهي لا ناسخة ولا منسوخة.

٧. اللام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ لام الاختصاص أي هو خالقها ومالكها، وهو كقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] وقوله: ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، و﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] ثم أنه سبحانه أشار بذكرهما إلى ذكر من بينهما من المخلوقات، كما قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]

٨. الآية من أقوى الدلائل على نفي التجسيم وإثبات التنزيه، وبيانه من وجهين:

أ. الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فبين أن هاتين الجهتين مملوكتان له وإنما كان كذلك لأن الجهة أمر ممتد في الوهم طولًا وعرضاً وعمقاً، وكل ما كان كذلك فهو منقسم، وكل منقسم فهو مؤلف مركب، وكل ما كان كذلك فلا بد له من خالق وموجد، وهذه الدلالة عامة في الجهات كلها، أعني الفوق والتحت، فثبت بهذا أنه تعالى خالق الجهات كلها، والخالق متقدم على المخلوق لا محالة، فقد كان الباري تعالى قبل خلق العالم منزهاً عن الجهات والأحياز، فوجب أن يبقى بعد خلق العالم كذلك لا محالة لاستحالة انقلاب الحقائق والماهيات.

ب. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ولو كان الله تعالى جسماً وله وجه جسماني لكان وجهه مختصاً بجانب معين وجهة معينة فما كان يصدق قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ فلما نص الله تعالى على ذلك علمنا أنه تعالى منزه عن الجسمية.

٩. احتج المخالفون من المجسمة بالآية من وجهين:

أ. الأول: أن الآية تدل على ثبوت الوجه لله تعالى والوجه لا يحصل إلا لمن كان جسماً.

ب. الثاني: أنه تعالى وصف نفسه بكونه واسعاً، والسعة من صفة الأجسام.

١٠. الجواب على استدلالات المخالفين من المجسمة بالآية:

أ. عن الأول: أن الوجه وإن كان في أصل اللغة عبارة عن العضو المخصوص لكنا لو حملناه هاهنا على العضو لكذب قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ لأن الوجه لو كان محاذياً للمشرق لاستحال في ذلك الزمان أن يكون محاذياً للمغرب أيضا، فإذن لا بد فيه من التأويل وهو من وجوه:

• الأول: أن إضافة وجه الله كإضافة بيت الله وناقة الله، والمراد منها الإضافة بالخلق والإيجاد على سبيل التشريف، فقوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ أي: فثم وجهه الذي وجهكم إليه لأن المشرق والمغرب له بوجهيها، والمقصود من القبلة إنما يكون قبلة لنصبه تعالى إياها فأي وجه من وجوه العالم المضاف إليه بالخلق والإيجاد نصبه وعينه فهو قبلة.

• الثاني: أن يكون المراد من الوجه القصد والنية قال الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست أحصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩]

• الثالث: أن يكون المراد منه فثم مرضاة الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ [الإنسان: ٩] يعني لرضوان الله، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] يعني ما كان لرضا الله، ووجه الاستعارة أن من أراد الذهاب إلى إنسان فإنه لا يزال يقرب من وجهه وقدامه، فكذلك من يطلب مرضاة أحد فإنه لا يزال يقرب من مرضاته، فلهذا سمي طلب الرضا بطلب وجهه.

• الرابع: أن الوجه صلة كقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ويقول الناس هذا وجه الأمر لا يريدون به شيئاً آخر غيره، إنما يريدون به أنه من هاهنا ينبغي أن يقصد هذا الأمر.. وهذا التفسير صحيح في اللغة إلا أن الكلام يبقى، فإنه يقال لهذا القائل: فما معنى قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ مع أنه لا يجوز عليه المكان فلا بد من تأويله بأن المراد: فثم قبلته التي يعبد بها، أو ثم رحمته ونعمته وطريق ثوابه والتماس مرضاته.

ب. عن الثاني: وهو أنه وصف نفسه بكونه واسعاً فلا شك أنه لا يمكن حمله على ظاهره وإلا لكان متجزئاً متبعضاً فيفتقر إلى الخالق، بل لا بد وأن يحمل على السعة في القدرة والملك، أو على أنه واسع العطاء والرحمة، أو على أنه واسع الإنعام ببيان المصلحة للعبيد لكي يصلوا إلى رضوانه، ولعل هذا الوجه بالكلام أليق، ولا يجوز حمله على السعة في العلم، وإلا لكان ذكر العليم بعده تكرارا.

١١. قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ في هذا الموضع هو كالتهديد ليكون المصلي على حذر من التفريط من حيث يتصور أنه تعالى يعلم ما يخفي وما يعلن، وما يخفى على الله من شيء، فيكون متحذراً عن التساهل.

١٢. يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أنه تعالى واسع القدرة في توفية ثواب من يقوم بالصلاة على شرطها، وتوفية عقاب من يتكاسل عنها.

١٣. ولى إذا أقبل، وولى إذا أدبر، وهو من الأضداد ومعناه هاهنا الإقبال، وقرأ الحسن: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ بفتح التاء من التولي، يريد فأينما توجهوا القبلة.

١٤. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يشير إلى النوع العاشر من مقابح أفعال اليهود والنصارى والمشركين.

١٥. الظاهر أن قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ أن يكون راجعاً إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله﴾ [البقرة: ١١٤] ومنهم من تأوله على النصارى، ومنهم من تأوله على مشركي العرب، ونحن قد تأولناه على اليهود وكل هؤلاء أثبتوا الولد لله تعالى، لأن اليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، ومشركو العرب قالوا: الملائكة بنات الله فلا جرم صحت هذه الحكاية على جميع التقديرات، قال ابن عباس: أنها نزلت في كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ووهب بن يهودا فإنهم جعلوا عزيراً ابن الله، أما قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ فهو كلمة تنزيه ينزه بها نفسه عما قالوه، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١] فمرة أظهره، ومرة اقتصر عليه لدلالة الكلام عليه.

١٦. احتج بقوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على هذا التنزيه، ووجه الاستدلال بهذا على فساد مذهبهم من وجوه:

أ. الأول: أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو

مخلوق لواجب الوجود، والمخلوق لا يكون ولدا.

ب. الثاني: أن هذا الذي أضيف إليه بأنه ولده إما أن يكون قديماً أزلياً أو محدثاً، فإن كان أزلياً لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولداً والآخر والداً أولى من العكس، فيكون ذلك الحكم حكماً مجرداً من غير دليل وإن كان الولد حادثاً كان مخلوقاً لذلك القديم وعبداً له فلا يكون ولداً له.

ج. الثالث: أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد، فلو فرضنا له ولداً لكان مشاركاً له من بعض الوجوه، وممتازاً عنه من وجه آخر، وذلك يقتضي كون كل واحد منهما مركباً ومحدثاً وذلك محال، فإذن المجانسة ممتنعة فالولدية ممتنعة.

د. الرابع: أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالًا.

١٧. حكى الله تعالى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون:

أ. قال في مريم: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ للهِّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥]

ب. وقال أيضاً في آخر هذه السورة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣]

١٨. سؤال وإشكال: ما الحكمة في أنه تعالى استدلّ في هذه الآية بكونه مالكاً لما في السموات والأرض، وفي سورة مريم بكونه مالكاً لمن في السموات والأرض على ما قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ والجواب: قوله تعالى في هذه السورة: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أتم، لأن كلمة (ما) تتناول جميع الأشياء.

١٩. ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ القنوت: أصله الدوام، ثم يستعمل على أربعة أوجه:

أ. الطاعة، كقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣]

ب. وطول القيام، كقوله ﷺ لما سئل: أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت)

ج. السكوت، كما قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فأمسكنا عن الكلام.

د. الدوام.

٢٠. قال بعض المفسرين: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي كل ما في السموات والأرض قانتون مطيعون، والتنوين في كل عوض عن المضاف إليه وهو قول مجاهد وابن عباس، فقيل لهؤلاء الكفار: ليسوا مطيعين، فعند هذا قال آخرون: المعنى أنهم يطيعون يوم القيامة، وهو قول السدى، فقيل لهؤلاء: هذه صفة المكلفين، وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ يتناول من لا يكون مكلفاً، فعند هذا فسروا القنوت بوجوه أخر:

أ. الأول: بكونها شاهدة على وجود الخالق سبحانه بما فيها من آثار الصنعة وأمارات الحدوث والدلالة على الربوبية.

ب. الثاني: كون جميعها في ملكه وقهره يتصرف فيها كيف يشاء، وهو قول أبي مسلم، وعلى هذين الوجهين الآية عامة.

ج. الثالث: أراد به الملائكة وعزيزاً والمسيح، أي كل من هؤلاء الذين حكموا عليهم بالولد أنهم قانتون له، يحكى عن علي بن أبي طالب قال لبعض النصارى: لولا تمرد عيسى عن عبادة الله لصرت على دينه، فقال النصراني: كيف يجوز أن ينسب ذلك إلى عيسى مع جده في طاعة الله، فقال علي رضي الله عنه: فإن كان عيسى إلهاً فالإله كيف يعبد غيره إنما العبد هو الذي يليق به العبادة، فانقطع النصراني.

٢١. لما كان القنوت في أصل اللغة عبارة عن الدوام كان معنى الآية أن دوام الممكنات وبقاءها به سبحانه ولأجله، وهذا يقتضي أن العالم حال بقائه واستمراره محتاج إليه سبحانه وتعالى، فثبت أن الممكن يقتضي أن لا تنقطع حاجته عن المؤثر لا محال حدوثه ولا حال بقائه.

٢٢. جاء بما دون من لغير أولى العلم في قوله تعالى: ﴿قَانِتُونَ﴾ تحقيراً لشأنهم.

٢٣. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ البديع والمبدع بمعنى واحد، قال القفال: وهو مثل أليم بمعنى مؤلم وحكيم بمعنى محكم، غير أن في بديع مبالغة للعدول فيه وأنه يدل على استحقاق الصفة في غير حال الفعل على تقدير أن من شأنه الإبداع فهو في ذلك بمنزلة: سامع وسميع وقد يجيء بديع بمعنى مبدع،

والإبداع الإنشاء ونقيض الإبداع الاختراع على مثال ولهذا السبب فإن الناس يسمعون من قال أو عمل ما لم يكن قبله مبتدعاً.

٢٤. ثم بين بعده أنه المالك أيضاً للسموات والأرض، ثم أنه تعالى بين أنه كيف يبدع الشيء فقال: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، قال بعض الأدباء: القضاء مصدر في الأصل سمي به ولهذا جمع على أقضيه كغطاء وأغطية، وفي معناه القضية، وجمعها القضايا ووزنه فعال من تركيب (ق ض ى) وأصله (قضاي) إلا أن الياء لما وقعت طرفاً بعد الألف الزائدة اعتلت فقلبت ألفاً، ثم لما لاقت هي ألف فعال قلبت همزة لامتناع التقاء الألفين لفظا، ومن نظائره المضاء والإتاء، من مضيت وأتيت والسقاء، والشفاء، من سقيت وشفيت، والدليل على أصالة الياء دون الهمزة ثباتها في أكثر تصرفات الكلمة تقول: قضيت وقضينا، وقضيت إلى قضيتن، وقضيا وقضين، وهما يقضيان، وهي وأنت تقضي، والمرأتان وأنتما تقضيان، وهن يقضين، وأما أنت تقضين، فالياء فيه ضمير المخاطبة، وأما معناه فالأصل الذي يدل تركيبه عليه هو معنى القطع، من ذلك قولهم، قضى القاضي لفلان على فلان بكذا قضاء إذا حكم، لأنه فصل للدعوى، ولهذا قيل: حاكم فيصل إذا كان قاطعاً للخصومات وحكى ابن الأنباري عن أهل اللغة أنهم قالوا: القاضي معناه القاطع للأمور المحكم لها، وقولهم انقضى الشيء إذا تم وانقطع، وقولهم: قضى حاجته، معناه قطعها عن المحتاج ودفعها عنه وقضى دينه إذا أداه إليه كأنه قطع التقاضي والاقتضاء عن نفسه أو انقطع كل منهما عن صاحبه.

٢٥. قضى الأمر: إذا أتمه وأحكمه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] وهو من هذا لأن في إتمام العمل قطعاً له وفراغاً منه، ومنه: درع قضاء من قضاها إذا أحكمها وأتم صنعها، وأما قولهم؛ قضى المريض وقضى نحبه إذا مات، وقضى عليه: قتله فمجاز مما ذكر والجامع بينهما ظاهر، وأما تقضي البازي فليس من هذا التركيب، ومما يعضد ذلك دلالة ما استعمل من تقليب ترتيب هذا التركيب عليه وهو القيض والضيق، أما الأول فيقال: قاضه فانقاض، أي شقه فانشق، ومنه قيض البيض لما انفلق من قشره الأعلى، وانقاض الحائط إذا انهدم من غير هدم، والقطع والشق والفلق والهدم متقاربة، وأما الضيق وما يشتق منه فدلالته على معنى القطع بينة، وذلك أن الشيء إذا قطع ضاق أو على العكس، ومما يؤكد ذلك أن ما يقرب من هذا التركيب يدل أيضاً على معنى القطع، فأولها: قضبه إذا قطعه، ومنه القضبة

المرطبة، لأنها تقضب أي تقطع تسمية بالمصدر، والقضيب: الغصن، فعيل بمعنى مفعول، والمقضب ما يقضب به كالمنجل، وثانيها: القضم وهو الأكل بأطراف الأسنان، لأن فيه قطعاً للمأكول، وسيف قضيم: في طرفه تكسر وتفلل، وثالثها: القضف وهو الدقة، يقال رجل قضيف، أي: نحيف، لأن القلة من مسببات القطع، ورابعها: القضاة فعلة وهي الفساد، يقال قضئت القربة إذا عفيت وفسدت وفي حسبه قضأة أي عيب، وهذا كله من أسباب القطع أو مسبباته فهذا هو الكلام في مفهومه الأصلي بحسب اللغة.

٢٦. لفظ القضاء في القرآن يستعمل على وجوه:

أ. أحدها: بمعنى الخلق، قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ يعني خلقهن.

ب. ثانيها: بمعنى الأمر قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]

ج. ثالثها: بمعنى الحكم، ولهذا يقال للحاكم: القاضي.

د. رابعها: بمعنى الإخبار، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٤] أي أخبرناهم، وهذا يأتي مقروناً بإلى.

هـ. خامسها: أن يأتي بمعنى الفراغ من الشيء قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] يعني لما فرغ من ذلك، وقال تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] يعني فرغ من إهلاك الكفار وقال: ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩] بمعنى ليفرغوا منه.

٢٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ [آل عمران: ٤٧]:

أ. قيل: إذا خلق شيئاً.

ب. وقيل: حكم بأنه يفعل شيئاً.

ج. وقيل: أحكم أمراً، قال الشاعر:

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

٢٨. ليس المراد من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] هو أنه تعالى يقول له: ﴿كُنْ﴾ فحينئذ يتكون ذلك الشيء فإن ذلك فاسد والذي يدل عليه وجوه:

أ. الحجة الأولى: أن قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ إما أن يكون قديماً أو محدثاً والقسمان فاسدان فبطل القول بتوقف حدوث الأشياء على: ﴿كُنْ﴾، وإنما قلنا: إنه لا يجوز أن يكون قديماً لوجوه:

• الأول: أن كلمة: ﴿كُنْ﴾ لفظة مركبة من الكاف والنون بشرط تقدم الكاف على النون، فالنون لكونه مسبوقاً بالكاف لا بد وأن يكون محدثاً، والكاف لكونه متقدماً على المحدث بزمان واحد يجب أن يكون محدثاً.

• الثاني: أن كلمة: ﴿إِذَا﴾ لا تدخل إلا على سبيل الاستقبال، فذلك القضاء لا بد وأن يكون محدثاً لأنه دخل عليه حرف: ﴿إِذَا﴾ وقوله: ﴿كُنْ﴾ مرتب على القضاء بفاء التعقيب لأنه تعالى قال: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ والمتأخر عن المحدث محدث، فاستحال أن يكون: ﴿كُنْ﴾ قديما.

• الثالث: أنه تعالى رتب تكون المخلوق على قوله: ﴿كُنْ﴾ بفاء التعقيب فيكون قوله: ﴿كُنْ﴾ مقدماً على تكون المخلوق بزمان واحد والمتقدم على المحدث بزمان واحد لا بد وأن يكون محدثاً فقوله: ﴿كُنْ﴾ لا يجوز أن يكون قديماً، ولا جائز أيضاً أن يكون قوله: ﴿كُنْ﴾ محدثاً لأنه لو افتقر كل محدث إلى قوله: ﴿كُنْ﴾ وقوله: ﴿كُنْ﴾ أيضاً محدث فيلزم افتقار: ﴿كُنْ﴾ آخر ويلزم إما التسلسل وإما الدور وهما محالان، فثبت بهذا الدليل أنه لا يجوز توقف إحداث الحوادث على قوله: ﴿كُنْ﴾

ب. الحجة الثانية: أنه تعالى إما أن يخاطب المخلوق بكن قبل دخوله في الوجود أو حال دخوله في الوجود:

• والأول: باطل لأن خطاب المعدوم حال عدمه سفه.

• الثاني: أيضاً باطل لأنه يرجع حاصله إلى أنه تعالى أمر الموجود بأن يصير موجوداً وذلك أيضاً لا فائدة فيه.

ج. الحجة الثالثة: أن المخلوق قد يكون جماداً، وتكليف الجماد عبث ولا يليق بالحكيم.

د. الحجة الرابعة: أن القادر هو الذي يصح منه الفعل وتركه بحسب الإرادات، فإذا فرضنا القادر المريد منفكاً عن قوله: ﴿كُنْ﴾ فإما أن يتمكن من الإيجاد والأحداث أو لا يتمكن، فإن تمكن لم يكن الإيجاد موقوفاً على قوله: ﴿كُنْ﴾ وإن لم يتمكن فحينئذ يلزم أن لا يكون القادر قادراً على الفعل إلا عند تكلمه بكن فيرجع حاصل الأمر إلى أنكم سمعتم القدرة بكن وذلك نزاع في اللفظ.

هـ. الحجة الخامسة: أن: ﴿كُنْ﴾ لو كان له أثر في التكوين لكنا إذا تكلمنا بهذه الكلمة وجب أن يكون لها ذلك التأثير، ولما علمنا بالضرورة فساد ذلك علمنا أنه لا تأثير لهذه الكلمة.

و. الحجة السادسة: أن: ﴿كُنْ﴾ كلمة مركبة من الكاف والنون، بشرط كون الكاف متقدماً على النون، فالمؤثر إما أن يكون هو أحد هذين الحرفين أو مجموعها، فإن كان الأول لم يكن لكلمة: ﴿كُنْ﴾ أثر ألبتة، بل التأثير لأحد هذين الحرفين، وإن كان الثاني فهو محال، لأنه لا وجود لهذا المجموع ألبتة لأنه حين حصل الحرف الأول لم يكن الثاني حاصلًا، وحين جاء الثاني فقد فات الأول، وإن لم يكن للمجموع وجود ألبتة استحال أن يكون للمجموع أثر ألبتة.

ز. الحجة السابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] بين أن قوله: ﴿كُنْ﴾ متأخر عن خلقه إذا المتأخر عن الشيء لا يكون مؤثراً في المتقدم عليه، فعلمنا أنه لا تأثير لقوله: ﴿كُنْ﴾ في وجود الشيء.

٢٩. ظهر بهذه الوجوه فساد هذا المذهب، وإذا ثبت هذا فإنه لا بد من التأويل وهو من وجوه، والكل ضعيف والقوي هو الأول:

أ. الأول: وهو الأقوى أن المراد من هذه الكلمة سرعة نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء، وأنه تعالى يخلق الأشياء لا بفكرة ومعاناة وتجربة ونظيره قوله تعالى عند وصف خلق السموات والأرض: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] من غير قول كان منهما لكن على سبيل سرعة نفاذ قدرته في تكوينهما من غير ممانعة ومدافعة ونظيره قول العرب: قال الجدار للوتد لم تشقني؟ قال سل من يدقني فإن الذي ورائي ما خلاني ورائي ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]

ب. الثاني: أنه علامة يفعلها الله تعالى للملائكة إذا سمعوها علموا أنه أحدث أمراً يحكى ذلك عن أبي الهذيل.

ج. الثالث: أنه خاص بالموجودين الذين قال لهم؛: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] ومن جرى مجراهم وهو قول الأصم.

د. الرابع: أنه أمر للأحياء بالموت وللموتى بالحياة.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿الْمَشْرِقِ﴾ موضع الشروق، ﴿وَالْمَغْرِبِ﴾ موضع الغروب، أي هما له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات بالإيجاد والاختراع، وخصهما بالذكر والإضافة إليه تشريفا، نحو بيت الله، وناقة الله، ولان سبب الآية اقتضى ذلك.

٢. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ شرط، ولذلك حذفت النون، و(أين) العاملة، و(ما) زائدة، والجواب ﴿فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾

٣. اختلف العلماء في المعنى الذي نزلت فيه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ على أقوال:

أ. الأول ـ قال عبد الله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن صلى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة، أخرجه الترمذي عنه عن أبيه قال كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة، فصلى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾، قال أبو عيسى: هذا حديث ليس إسناده بذاك، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث بن سعيد أبو الربيع يضعف في الحديث، وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هذا، قالوا: إذا صلى في الغيم لغير القبلة ثم استبان له بعد ذلك أنه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة، وبه يقول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق[٢].

ب. الثاني:أن النجاشي لم يكن له هناك ولي من المؤمنين يقوم بالصلاة عليه، قال المخالف: هذا محال عادة! ملك على دين لا يكون له أتباع، والتأويل بالمحال محال.

ج. الثالث: أن النبي ﷺ إنما أراد بالصلاة على النجاشي إدخال الرحمة عليه واستئلاف بقية الملوك بعده إذا رأوا الاهتمام به حيا وميتا، قال المخالف: بركة الدعاء من النبي ﷺ ومن سواه تلحق الميت باتفاق، قال ابن العربي: والذي عندي في صلاة النبي ﷺ على النجاشي أنه علم أن النجاشي ومن آمن معه ليس عندهم من سنة الصلاة على الميت أثر، فعلم أنهم سيدفنونه بغير صلاة فبادر إلى الصلاة عليه.. والتأويل الأول أحسن، لأنه إذا رآه فما صلى على غائب وإنما صلى على مرئي حاضر، والغائب ما لا يرى.

د. الرابع ـ قال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس وقالوا: ما

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٨٠.

(٢) ذكر هنا تفصيل فقهية نقلناه إلى محلها من السلسلة، تفسير القرطبي: ٢/ ٨٣.

اهتدى إلا بنا، فلما حول إلى الكعبة قالت اليهود: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فنزلت: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فوجه النظم على هذا القول: أن اليهود لما أنكروا أمر القبلة بين الله تعالى أن له أن يتعبد عباده بما شاء، فإن شاء أمرهم بالتوجه إلى بيت المقدس، وإن شاء أمرهم بالتوجه إلى الكعبة، فعل لا حجة عليه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

هـ. الخامس ـ أن الآية منسوخة بقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾) ذكره ابن عباس، فكأنه كان يجوز في الابتداء أن يصلي المرء كيف شاء ثم نسخ ذلك، وقال قتادة: الناسخ قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي تلقاءه، حكاه أبو عيسى الترمذي.

و. السادس ـ روي عن مجاهد والضحاك أنها محكمة، المعنى: أينما كنتم من شرق وغرب فثم وجه الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة.

ز. السابع ـ عن مجاهد أيضا وابن جبير لما نزلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾

ح. الثامن ـ عن ابن عمر والنخعي: أينما تولوا في أسفاركم ومنصرفاتكم فثم وجه الله.

ط. التاسع ـ قيل: هي متصلة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ الآية، فالمعنى أن بلاد لله أيها المؤمنون تسعكم، فلا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله أن تولوا وجوهكم نحو قبلة الله أينما كنتم من أرضه.

ي. العاشر ـ قيل: نزلت حين صد النبي ﷺ عن البيت عام الحديبية فاغتم المسلمون لذلك.

٤. هذه عشرة أقوال، ومن جعلها منسوخة فلا اعتراض عليه من جهة كونها خبرا، لأنها محتملة لمعنى الامر، يحتمل أن يكون معنى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾: ولوا وجوهكم نحو وجه الله، وهذه الآية هي التي تلا سعيد بن جبير رحمه الله لما أمر الحجاج بذبحه إلى الأرض.

٥. اختلف الناس في تأويل الوجه المضاف إلى الله تعالى في القرآن والسنة:

أ. قال الحذاق: ذلك راجع إلى الوجود، والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام، إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد وأجلها قدرا.

ب. وقال ابن فورك: قد تذكر صفة الشيء والمراد بها الموصوف توسعا، كما يقول القائل: رأيت

علم فلان اليوم، ونظرت إلى علمه، وإنما يريد بذلك رأيت العالم ونظرت إلى العالم، كذلك إذا ذكر الوجه هنا، والمراد من له الوجه، أي الوجود، وعلى هذا يتأول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾) لان المراد به: لله الذي له الوجه، وكذلك قوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾) أي الذي له الوجه.

ج. قال ابن عباس: الوجه عبارة عنه عز وجل، كما قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

د. وقال بعض الأئمة: تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجبه العقول من صفات القديم تعالى، قال ابن عطية: وضعف أبو المعالي هذا القول، وهو كذلك ضعيف، وإنما المراد وجوده.

هـ. وقيل: المراد بالوجه هنا الجهة التي وجهنا إليها أي القبلة.

و. وقيل: الوجه القصد، كما قال الشاعر:

استغفر الله ذنبا لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل

ز. وقيل: المعنى فثم رضا الله وثوابه، كما قال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ أي لرضائه وطلب ثوابه، ومنه قوله ﷺ: (من بنى مسجدا يبتغي به وجه لله بنى الله له مثله في الجنة)، وقوله: (يجاء يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله تعالى فيقول عز وجل لملائكته ألقوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزتك يا ربنا ما رأينا إلا خيرا وهو أعلم فيقول إن هذا كان لغير وجهي ولا أقبل من العمل إلا ما ابتغي به وجهي) أي خالصا لي، خرجه الدارقطني.

ح. وقيل: المراد فثم الله، والوجه صلة، وهو كقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، قاله الكلبي والقتبي، ونحوه قول المعتزلة.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

أ. قيل: أي يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم.

ب. وقيل: ﴿وَاسِعٌ﴾ بمعنى أنه يسع علمه كل شي، كما قال: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

ج. وقال الفراء: الواسع هو الجواد الذي يسع عطاؤه كل شي، دليله قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾

د. وقيل: واسع المغفرة أي لا يتعاظمه ذنب.

هـ. وقيل: متفضل على العباد وغني عن أعمالهم، يقال: فلان يسع ما يسأل، أي لا يبخل، قال الله

تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾) أي لينفق الغني مما أعطاه الله.

٧. اختلف في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾:

أ. قيل: هذا إخبار عن النصارى في قولهم: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾

ب. وقيل: عن اليهود في قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾

ج. وقيل: عن كفرة العرب في قولهم: الملائكة بنات الله، وقد جاء مثل هذه الاخبار عن الجهلة الكفار في) مريم) و(الأنبياء)

٨. قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ﴾ الآية، خرج البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا.

٩. سبحان: منصوب على المصدر، ومعناه التبرئة والتنزيه والمحاشاة، من قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾، بل هو الله تعالى واحد في ذاته، أحد في صفاته، لم يلد فيحتاج إلى صاحبة، ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولم يولد فيكون مسبوقا، جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا!

١٠. ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (ما) رفع بالابتداء والخبر في المجرور، أي كل ذلك له ملك بالإيجاد والاختراع، والقائل بأنه اتخذ ولدا داخل في جملة السموات والأرض، ومعنى سبحان الله: براءة الله من السوء.

١١. لا يكون الولد إلا من جنس الوالد، فكيف يكون للحق سبحانه أن يتخذ ولدا من مخلوقاته وهو لا يشبهه شي، وقد قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، كما قال هنا: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالولدية تقتضي الجنسية والحدوث، والقدم يقتضى الوحدانية والثبوت، فهو سبحانه القديم الأزلي الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، ثم إن البنوة تنافى الرق والعبودية، فكيف يكون ولد عبدا! هذا محال، وما أدى إلى المحال محال.

١٢. قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ ابتداء وخبر، والتقدير كلهم، ثم حذف الهاء والميم.

١٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿قَانِتُونَ﴾:

أ. قيل: أي مطيعون وخاضعون، فالمخلوقات كلها تقنت لله، أي تخضع وتطبع، والجمادات قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم، فالقنوت الطاعة.

ب. وقيل: القنوت السكوت، ومنه قول زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة، يكلم الرجل صاحبه إلى جنبه حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام.

ج. وقيل: القنوت: الصلاة، قال الشاعر:

قانتا لله يتلو كتبه وعلى عمد من الناس اعتزل

د. وقال السدي وغيره في قوله: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي يوم القيامة.

هـ. وقال الحسن: كل قائم بالشهادة أنه عبده.

١٤. اختلف في أصل القنوت في اللغة:

أ. قيل: أصله القيام، ومنه الحديث: (أفضل الصلاة طول القنوت) قاله الزجاج، فالخلق قانتون، أي قائمون بالعبودية إما إقرارا وإما أن يكونوا على خلاف ذلك، فأثر الصنعة بين عليهم.

ب. وقيل: أصله الطاعة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾

١٥. قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾ فعيل للمبالغة، وارتفع على خبر ابتداء محذوف، واسم الفاعل مبدع، كبصير من مبصر، أبدعت الشيء لا عن مثال، فالله عز وجل بديع السموات والأرض، أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، ومنه أصحاب البدع، وسميت البدعة بدعة لان قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام، وفي البخاري (ونعمت البدعة هذه) يعني قيام رمضان.

١٦. كل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أولا، فإن كان لها أصل كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه وخص رسوله عليه، فهي في حيز المدح، وإن لم يكن مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهذا فعله من الافعال المحمودة، وإن لم يكن الفاعل قد سبق إليه.

١٧. (قضى) لفظ مشترك يكون:

أ. بمعنى الخلق، قال الله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾) أي خلقهن.

ب. بمعنى الاعلام، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾) أي أعلمنا.

ج. بمعنى الامر، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾

د. بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام، ومنه سمي الحاكم قاضيا.

هـ. بمعنى توفية الحق، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾

و. بمعنى الإرادة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد خلق شيء، قال ابن عطية: ﴿قَضَى﴾ معناه قدر، وقد يجئ بمعنى أمضى، ويتجه في هذه الآية المعنيان على مذهب أهل السنة قدر في الأزل وأمضى فيه، وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد.

١٨. قوله تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ الامر واحد الأمور، وليس بمصدر أمر يأمر، والامر في القرآن يتصرف على أربعة عشر وجها:

أ. الأول ـ الدين، قال الله تعالى: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ الله﴾) يعني دين الله الإسلام.

ب. الثاني:القول، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني قولنا، وقوله: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ يعني قولهم.

ج. الثالث: العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾) يعني لما وجب العذاب بأهل النار.

د. الرابع ـ عيسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾) يعني عيسى، وكان في علمه أن يكون من غير أب.

هـ. الخامس ـ القتل ببدر، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ الله﴾ يعني القتل ببدر، وقوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ الله أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ يعني قتل كفار مكة.

و. السادس ـ فتح مكة، قال الله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾ يعني فتح مكة.

ز. السابع ـ قتل قريظة وجلاء بني الضير، قال الله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾

ح. الثامن ـ القيامة، قال الله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ الله﴾

ط. التاسع ـ القضاء، قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يعني القضاء.

ي. العاشر ـ الوحي، قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يقول: ينزل الوحي من السماء إلى الأرض، وقوله: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يعني الوحي.

ك. الحادي عشر ـ أمر الخلق، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ يعني أمور الخلائق.

ل. الثاني عشر ـ النصر، قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، يعنون النصر، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ يعني النصر.

م. الثالث عشر ـ الذنب، قال الله تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ يعني جزاء ذنبها.

ن. الرابع عشر ـ الشأن والفعل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي فعله وشأنه، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي فعله.

١٩. قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ قيل: الكاف من كينونة، والنون من نوره، وهي المراد بقوله عليه السلام: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، ويروي: (بكلمة الله التامة) على الافراد، فالجمع لما كانت هذه الكلمة في الأمور كلها، فإذا قال لكل أمر كن، ولكل شي كن، فهن كلمات، يدل على هذا ما روي عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يحكى عن الله تعالى: (عطائي كلام وعذابي كلام)، خرجه الترمذي في حديث فيه طول، والكلمة على الافراد بمعنى الكلمات أيضا، لكن لما تفرقت الكلمة الواحدة في الأمور في الأوقات صارت كلمات ومرجعهن إلى كلمة واحدة، وإنما قيل (تامة) لان أقل الكلام عند أهل اللغة على ثلاثة أحرف: حرف مبتدأ، وحرف تحشى به الكلمة، وحرف يسكت عليه، وإذا كان على حرفين فهو عندهم منقوص، كيد ودم وفم، وإنما نقص لعلة، فهي من الأدميين من المنقوصات لأنها على حرفين، ولأنها كلمة ملفوظة بالأدوات، ومن ربنا تبارك وتعالى تامة، لأنها بغير الأدوات، تعالى عن شبه المخلوقين.

٢٠. قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ قرئ برفع النون على الاستئناف، قال سيبويه: فهو يكون، أو فإنه يكون، وقال غيره: هو معطوف على: ﴿يَقُولُ﴾:

أ. فعلى الأول كائنا بعد الامر، وإن كان معدوما فإنه بمنزلة الموجود إذا هو عنده معلوم.

ب. وعلى الثاني كائنا مع الامر:

• واختاره الطبري وقال: أمره للشيء بـ ﴿كُنْ﴾ لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه، فلا يكون الشيء مأمورا بالوجود إلا وهو موجود بالأمر، ولا موجودا إلا وهو مأمور بالوجود، ونظيره قيام الناس من قبورهم لا يتقدم دعاء الله ولا يتأخر عنه، كما قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾

• وضعف ابن عطية هذا القول وقال: هو خطأ من جهة المعنى، لأنه يقتضي أن القول مع التكوين

والوجود، وتلخيص المعتقد في هذه الآية: أن الله عز وجل لم يزل آمرا للمعدومات بشرط وجودها، قادرا مع تأخر المقدورات، عالما مع تأخر المعلومات، فكل ما في الآية يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات، إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن، وكل ما يسند إلى الله تعالى من قدرة وعلم فهو قديم لم يزل، والمعنى الذي تقتضيه عبارة: ﴿كُنْ﴾: هو قديم قائم بالذات.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. المشرق: موضع الشروق، والمغرب: موضع الغروب، أي: هما ملك لله، وما بينهما من الجهات والمخلوقات، فيشمل الأرض كلها، وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ أي: أيّ جهة تستقبلونها فهناك وجه الله، أي: المكان الذي يرتضي لكم استقباله، وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه إليها بقوله سبحانه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ قال في الكشاف: والمعنى: أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام، أي: في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجدا، فصلّوا في أيّ بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها، فإن التولية ممكنة في كل مكان، لا تختص أماكنها في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان.. وهذا التخصيص لا وجه له؛ فإن اللفظ أوسع منه، وإن كان المقصود به بيان السبب فلا بأس.

٢. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه إرشاد إلى سعة رحمته، وأنه يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلّفهم ما ليس في وسعهم، وقيل: واسع، بمعنى: أنه يسع علمه كل شيء، كما قال ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وقال الفرّاء: الواسع: الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء.

٣. ﴿وَقَالُوا﴾ هم اليهود والنصارى ـ وقيل اليهود، أي: قالوا ـ عزير ابن الله ـ وقيل: النصارى، أي: قالوا: المسيح ابن الله ـ وقيل: هم كفار العرب، أي: قالوا: الملائكة بنات الله.

٤. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ المراد هنا: تبرؤ الله تعالى عما نسبوه إليه من اتخاذ الولد.

٥. ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ردّ على القائلين بأنه اتخذ ولدا، أي: بل هو مالك لما في

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/ ١٥٤.

السموات والأرض، وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه، والولد من جنسهم لا من جنسه، ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد.

٦. القانت: المطيع الخاضع، أي: كل من في السموات والأرض مطيعون له، خاضعون لعظمته، خاشعون لجلاله، والقنوت في أصل اللغة أصله: القيام، قال الزجّاج: فالخلق قانتون، أي: قائمون بالعبودية، إما إقرارا وإما أن يكونوا على خلاف ذلك، فأثر الصنعة بيّن عليهم؛ وقيل: أصله الطاعة، ومنه: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ وقيل: السكون، ومنه قوله: ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ ولهذا قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام؛ وقيل القنوت: الصلاة، ومنه قول الشاعر:

قانتا لله يتلو كتبه وعلى عمد من النّاس اعتزل

٧. الأولى: أن القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة؛ قيل هي ثلاثة عشر معنى، وهي مبينة، وقد نظمها بعض أهل العلم.

٨. بديع: فعيل للمبالغة، وهو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو بديع سماواته وأرضه، أبدع الشيء: أنشأه لا عن مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له: مبدع.

٩. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أي: أحكمه وأتقنه، قال الأزهري: قضى في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، قيل: هو مشترك بين معان، يقال: قضى، بمعنى: خلق، ومنه: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ وبمعنى أعلم، ومنه: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ وبمعنى: أمر، ومنه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وبمعنى: ألزم، ومنه: قضى عليه القاضي، وبمعنى: أوفاه، ومنه: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ وبمعنى: أراد، ومنه: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

١٠. الأمر: واحد الأمور، وقد ورد في القرآن على أربعة عشر معنى: الأوّل: الدين، ومنه: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ﴾ الثاني: بمعنى القول، ومنه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، الثالث: العذاب، ومنه: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ الرابع: عيسى، ومنه: ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أي: أوجد عيسى عليه السلام، الخامس: القتل، ومنه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ السادس: فتح مكة، ومنه: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾، السابع: قتل بني

قريظة وإجلاء بني النضير، ومنه: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ﴾، الثامن: القيامة، ومنه: ﴿أَتَى أَمْرُ الله﴾ والتاسع: القضاء، ومنه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ العاشر: الوحي، ومنه: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الحادي عشر: أمر الخلائق، ومنه: ﴿أَلَا إِلَى الله تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ الثاني عشر: النصر؛ ومنه: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾، الثالث عشر: الذنب، ومنه: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ الرابع عشر: الشأن، ومنه: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ هكذا أورد هذه المعاني بأطول من هذا بعض المفسرين، وليس تحت ذلك كثير فائدة، وإطلاقه على الأمور المختلفة لصدق اسم الأمر عليها.

١١. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ الظاهر في هذا: المعنى الحقيقي، وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ، وليس في ذلك مانع ولا جاء ما يوجب تأويله، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ومنه قول الشاعر:

إذا ما أراد الله أمرا فإنّما ... يقول له كن قوله فيكون

وقد قيل: إن ذلك مجاز، وأنه لا قول وإنما هو قضاء يقضيه، فعبر عنه بالقول، ومنه قول الشاعر، وهو عمرو بن حممة الدوسيّ:

فأصبحت مثل النّسر طارت ... إذا رام تطيارا يقال له قع

وقال آخر:

قالت جناحاه لساقيه الحقا ... ونجّيا لحمكما أن يمزّقا

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. كان ﷺ يصلِّي النَّافلة على الدابَّة أينما توجَّهت من مكَّة إلى المدينة وفي غير ذلك، حتَّى الوتر قبل أن يُفرض عليه، وحوِّلت القبلة إلى الكعبة، وطَعنت اليهود في ذلك، وقالوا: لا قبلة لهم معلومة، وصلَّى كلٌّ على اجتهاده إلى جهة ليلاً في غزوة ومعهم النبيء ﷺ، وقيل: لم يكن معهم لظلمةٍ، فلمَّا أصبحوا تبيَّن

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/٢٠٤.

أنَّ بعضا صلَّى إلى الشمال وبعضًا إلى الجنوب، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

٢. ﴿وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ اسْتُلْحِقَا جوانبهما، فذلك الأرض كلُّها ﴿فَأَيْنَمَا﴾ هو المكان الذي أنتم فيه أو الذي استقبلتم إليه، ﴿تُوَلُّواْ﴾ وجوهكم في الصلاة بأمره لكم بالتولية ﴿فَثَمَّ وَجْهُ﴾ ذات ﴿الله﴾ أو فثمَّ الله بالعلم والحفظ وسعة الرَّحمة وغير ذلك، أو فثمَّ جهة الله، أي: الجهة التي أمركم بها، وليس تولِّيكم باختياركم حتَّى يعيبوكم بصلاة بعض إلى الجنوب وبعض إلى الشمال في السفر للجهل بالجهة في غزوة، وقد قيل: نزلت الآية فيهم، وقيل: في الصلاة على الراحلة للضرورة، وصلاة النفل عليها مطلقًا، وفي ذلك اختصاص لنا بأن نصلِّي حيث أدركتنا الصلاة، لا كمن قبلنا لا يصلُّون إلَّا في كنائسهم، وكان عيسى عليه السلام يصلِّي حيث أدركته الصلاة، فصلُّوا إلى الكعبة والنفلَ على الراحلة، وصلُّوا في الأرض كلِّها فقد جعلت لكم الأرض مسجدًا، ولا يضرُّكم أن منعوكم عن المسجد الحرام أو الأقصى، وقبل فتح المقدس مُنع المسلمون من الصَّلاة فيه، وقيل: منعهم الإفرنج حين استولوا عليه حتى ردَّه صلاح الدين، وعليه فالآية إخبار بالغيب.

٣. ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يسع فضله وعلمُه كلَّ شيءٍ، ومن سعة فضله أنَّ لكم الأرض مسجدًا، فقيل: ولو سبخة حال الاختيار، ولا بدَّ من الطَّهارة، ومَن قبلَنَا لا يصلُّون إلَّا في مساجدهم، فإذا غابوا عنها تركوها وقضوها.

٤. ﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على (مَنَعَ)، أي: ومن أظلم ممَّن منع وسعى وقالوا، أي: وممَّن قالوا: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ قالت العرب وبعض النصارى: الملائكة والجنُّ بنات الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، ومن قال بالأبوَّة والبنوَّة بمعنى الرحمة لم يجز له ذلك؛ لأنَّ لفظ الكفر كفر، ولو لم يعتقد ظاهره، وإن صحَّ أنَّ عيسى قال بذلك على معنى الرحمة فقد قيل به على ظاهره بعده، فيكون لفظ الشرك شركًا بحكم الشرع قطعا لمادَّة الشرك، وقد كان بعض بربر الغرب يقولون للرحمن: (بَابَ)، فقال بعض علماء الغرب:

يقولون للرحمن بابَ بجهلهم ... ومن قال للرحمن باب فقد كفَر

وأجاب بعض بأنَّه لا كفر إذ لم يقصدوا الإشراك، ومن قاله ولم يُرِد الإشراك فليس مشركًا، لكن يُنهى عن قوله.

٥. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزِّهوه أيُّها المؤمنون عن الولد تنزيهًا؛ لأنَّ الوالد له جهات وحدوث وفناء، فيخلفه ولده، والله بخلاف ذلك، ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ من غير العقلاء والعقلاء، ولفظ (مَا) هنا للأنواع، والأنواع غير عاقلة، وإنَّما العاقل بعض الأفراد، والمملوك والمخلوق لا يكونان ولدًا للخالق والمالك.

٦. ﴿كُلٌّ﴾ ممَّا في السماوات والأرض، عليهما وما فيهما من أجزاء، ﴿لَّهُ قَانِتُونَ﴾ عابدون عبادة يعلمها الله، أو منقادون لما أراد الله، ومن زعموه ولدًا فقد أذعن للعبوديَّة لله، وهم ممَّن في السماوات والأرض فليسوا بأولاد.

٧. والآية تناسب حديث: (من ملك ذا رحمٍ عُتِق عليهِ)، وجمع السلامة للمذكَّر تغليب وتلويحٌ بأنَّ الجمادات وغيرها كالعقلاء في الانقياد، أو لأنَّ الله خلق تمييزًا للجمادات يتعبَّدون به، أو جمْعُ السَّلامة للمذكَّر تغليب للعقلاء الذكور.

٨. ﴿بَدِيعُ﴾ هو بديع ﴿السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ أي: غريب شكلهما إذ أوجدهما بلا مثال سابق، وفائقهما فيما نشاهد، والعرش ولو كان أعظم منهما لا نشاهده، غريب صفة مشبَّهة أضيفت لفاعلها؛ لأنَّ (بدع) لازمٌ لا مفعول له كقولك: زيد كثير المال، وقد يقال: بمعنى مبدع أضيف لمفعوله.

٩. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أراد إيجاده، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن﴾ أي: اُحْصُل، ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكون، أي: يحصل بلا توقُّف، وليس هناك قول بل تمثيل لوجود ما يريد وجوده بسرعة.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ يريد الذين قالوا المسيح ابن الله، وعزير ابن الله، والملائكة بنات الله، فأكذب الله تعالى جميعهم في دعواهم وقولهم: إنّ لله ولدا، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تقدس وتنزه عما زعموا تنزها بليغا.

٢. كلمة: ﴿بَلْ﴾ للإضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من

---

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٨١.

المخلوقات، أي ليس الأمر كما زعموا، بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة، والتنوين في: ﴿كُلٌّ﴾ عوض عن المضاف إليه، أي كل ما فيهما، كائنا ما كان من أولي العلم وغيرهم: ﴿لَهُ قَانِتُونَ﴾ منقادون، لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته، ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشيء، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد.

٣. نبه على أقوى حجة على نفي ذلك، وبيانها هو[١]:

أ. أن لكل موجود في العالم، مخلوقا طبيعيا، أو معمولا صناعيا، غرضا وكمالا أوجد لأجله، وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل العرض، كاليد للبطش، والرجل للمشي، والسكين لقطع مخصوص، والمنشار للنشر، وإن كانت اليد قد تصلح للمشي في حال، والرّجل للتناول، لكن ليس على التمام.

ب. والغرض في الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه، وجزء منه، لمّا لم يجعل الله له سبيلا إلى بقائه بشخصه، فجعل له بذرا لحفظ نوعه، ويقوي ذلك، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذرا واستخلافا، لمّا لم يجعل لها فناء النبات والحيوان.

ج. ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم، بلا ابتداء ولا انتهاء، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي هو منزه عن السبب المقتضي للولد.

د. ثم لما كان اقتناء الولد لفقر ما، وذلك لما تقدم، أن الإنسان افتقر إلى نسل يخلفه لكونه غير كامل إلى نفسه ـ بيّن تعالى بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنه لا يتوهم له فقر، فيحتاج إلى اتخاذ ما هو سدّ لفقره، فصار في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دلالة ثانية.

هـ. ثم زاد حجة بقوله: ﴿قَانِتُونَ﴾ وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب ومظاهرته كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، بيّن أن كل ما في السموات والأرض، مع كونه ملكا له، قانت أيضا، إما طائعا، وإما كارها، وإما مسخرا، كقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهذا أبلغ حجة لمن هو على المحجة.

---

(١) الكلام في هذه المسألة كله نسبه للراغب في تفسيره.

٤. سؤال وإشكال: من أين وقع لهم الشبهة في نسبة الولد إلى الله تعالى؟ والجواب[١]: ذكر في الشرائع المتقدمة: كانوا يطلقون على البارئ تعالى اسم الأب وعلى الكبير منهم اسم الإله، حتى إنهم قالوا: إن الأب هو الرب الأصغر وإن الله هو الأب الأكبر، وكانوا يريدون بذلك أنه تعالى هو السبب الأول في وجود الإنسان، وإن الأب هو السبب الأخير في وجوده وإن الأب هو معبود الابن من وجه أي مخدومه، وكانوا يقولون للملائكة: آلهة، كما قالت العرب للشمس: إلاهة، وكانوا يقصدون معنى صحيحا كما يقصد علماؤنا بقولهم: الله محب ومحبوب، ومريد ومراد ونحو ذلك من الألفاظ، كما يقال للسلطان: الملك، وقول الناس: رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك، مما يكشف عن تقدم ذلك التعارف، ويقوي ذلك ما يروى أن يعقوب كان يقال له بكر الله، وأن عيسى كان يقول: أنا ذاهب إلى أبي، ونحو ذلك من الألفاظ، ثم تصور الجهلة منهم، بأخرة، معنى الولادة الطبيعية، فصار ذلك منهيا عن التفوه به في شرعنا، تنزها عن هذا الاعتقاد، حتى صار إطلاقه، وإن قصد به ما قصده هؤلاء، قرين الكفر.

٥. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما وخالقهما على غير مثال سبق، وكل من فعل ما لم يسبق إليه يقال له: أبدعت.. وهذه الجملة حجة أخرى لدفع تشبثهم في ولادة عيسى بلا أب، وعلم عزير بالتوراة بلا تعلم، وتقرير الحجة: إن الله سبحانه مبدع الأشياء كلها، فلا يبعد أن يوجد أحدا بلا أب، أو يعلم بلا واسطة بشر.

٦. ذكر تعالى في هذه الآية حجة، وهي[٢]: إن الأب هو عنصر للابن، منه تكوّن، والله مبدع الأشياء كلها، فلا يكون عنصرا للولد، فمن المحال أن يكون المنفعل فاعلا.

٧. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد أمرا، والقضاء إنفاذ المقدّر، والمقدر ما حدّ من مطلق المعلوم، قال الراغب: القضاء إتمام الشيء قولا أو فعلا:

أ. فمن القول آية: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٤]

ب. ومن الفعل قوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] وقضى فلان دينه،

---

(١) الجواب نسبه للراغب في تفسيره.

(٢) الكلام للراغب في تفسيره.

وقضى نحبه، وانقضى الأمر.

٨. نبه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ على حجة خامسة وهي[١]: أن الولد يكون بنشوء وتركيب، حالا بعد حال، وهو إذا أراد شيئا، فقد فعل بلا مهلة، ولم يرد بـ ﴿إِذَا﴾ حقيقة الزمان، إذ كان ذلك إشارة إلى ما قبل وجود الزمان، ولم يرد أيضا بـ ﴿كُنْ﴾ حقيقة اللفظ، ولا بالفاء التعقيب الزمانيّ، بل استعير كل ذلك لأنه أقرب ما يتراءى لنا به سرعة الفعل وتمامه، وذكر لفظ القضاء إذ هو لإتمام الفعل، والأمر لكونه منطويا على اللفظ والفعل، والقول إذ هو أخف موجد منا وأسرعه إيجادا، ولفظ: ﴿كُنْ﴾ لعموم معناه واختصار لفظه، ثم قال: ﴿فَيَكُونُ﴾ تنبيها لأنه لا يمتنع عليه شيء يريد إيجاده، و﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وإن كان مخرجها مخرج شيئين، أحدهما مبني على الآخر، فهو في الحقيقة شيء واحد.

٩. الذين ذهبوا إلى أن المراد بـ ﴿كُنْ﴾ حقيقة اللفظ، ورد عليهم سؤال مشهور، وهو: إن ﴿كُنْ﴾ لفظ أمر، والأمر لا يكون إلا لموجود، فبعض أجاب بأنه أمر للشيء في حال تكونه لا قبله ولا بعده، وبعض قال هو أمر لمعلوم له، وذلك في حكم الموجود وإن كان معدوم الذات، وبعض قال هو أمر للمعدوم، قال ويصح أمر المعدوم كما يصح أمر الموجود، ولهم أجوبة أكثر تكلفا وتمحلا.

١٠. سئل ابن تيمية عن هذا بأنه إن كان المخاطب بـ ﴿كُنْ﴾ موجودا، فتحصيل الحاصل محال، وإن كان معدوما، فكيف يتصور خطاب المعدوم؟ فأجاب بقوله: هذه المسألة مبنية على أصلين:

أ. أحدهما الفرق بين خطاب التكوين الذي لا يطلب به سبحانه فعلا من المخاطب، بل هو الذي يكوّن المخاطب به، ويخلقه بدون فعل من المخاطب، أو قدرة أو إرادة أو وجود له، وبين خطاب التكليف الذي يطلب به من المأمور فعلا أو تركا يفعله بقدرة وإرادة، وإن كان ذلك جميعه بحول الله وقوته، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا الخطاب قد تنازع فيه الناس، هل يصح أن يخاطب به المعدوم بشرط وجوده أم لا يصح أن يخاطب به إلا بعد وجوده؟ لا نزاع بينهم أنه لا يتعلق به حكم الخطاب إلا بعد وجوده، وكذلك تنازعوا في الأول هل هو خطاب حقيقيّ؟ أم هو عبارة عن الاقتدار وسرعة التكوين بالقدرة؟، والأول هو المشهور عند المنتسبين إلى السنة.

---

(١) الكلام للراغب في تفسيره.

ب. والأصل الثاني أن المعدوم في حال عدمه، هل هو شيء أم لا؟ فإنه قد ذهب طوائف من متكلمة المعتزلة والشيعة إلى أنه شيء في الخارج وذات وعين، وزعموا أن الماهيات غير مجعولة ولا مخلوقة، وأن وجودها زائد على حقيقتها، وكذلك ذهب إلى هذا طوائف من المتفلسفة والاتحادية وغيرهم من الملاحدة، والذي عليه جماهير الناس، وهو قول متكلمة أهل الإثبات والمنتسبين إلى السنة والجماعة، إنه في الخارج عن الذهن قبل وجوده ليس بشيء أصلا ولا ذات ولا عين، وإنه ليس في الخارج شيئان أحدهما حقيقة، والآخر وجوده الزائد على حقيقته، فإن الله أبدع الذوات التي هي الماهيات، فكل ما سواه سبحانه مخلوق ومجعول ومبدع ومبدوء له سبحانه وتعالى، ولكن في هؤلاء من يقول: المعدوم ليس بشيء أصلا، وإن سمي شيئا باعتبار ثبوته في العلم، كان مجازا، ومنهم من يقول: لا ريب أن له ثبوتا في العلم ووجودا فيه، فهو باعتبار هذا الثبوت والوجود هو شيء وذات، وهؤلاء لا يفرقون بين الوجود والثبوت، كما فرق من قال المعدوم شيء، ولا يفرقون في كون المعدوم ليس بشيء بين الممكن والممتنع، كما فرق أولئك، إذ قد اتفقوا على أن الممتنع ليس بشيء وإنما النزاع في الممكن، وعمدة من جعله شيئا، إنما هو لأنه ثابت في العلم، وباعتبار ذلك صح أن يخص بالقصد والخلق والخبر عنه والأمر به والنهي عنه، وغير ذلك، قالوا: وهذه التخصيصات تمتنع أن تتعلق بالعدم المحض، فإن خصّ الفرق بين الوجود الذي هو الثبوت العينيّ، وبين الوجود الذي هو الثبوت العلميّ، زالت الشبهة في هذا الباب.

١١. ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠][1].ذلك الشيء هو معلوم قبل إبداعه وقيل توجيه هذا الخطاب إليه، وبذلك كان مقدرا مقضيا، فإن الله سبحانه وتعالى يقول ويكتب مما يعلمه ما شاء، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة).. إلى أمثال ذلك من النصوص التي تبين أن المخلوق قبل أن يخلق كان معلوما مخبرا عنه، مكتوبا، فهو شيء باعتبار وجوده العلميّ الكلاميّ الكتابيّ، وإن كانت حقيقته التي هي وجوده العينيّ ليس ثابتا في الخارج، بل هو عدم محض ونفي صرف، وهذه المراتب الأربعة المشهورة موجودات، وقد ذكرها الله

(١) الكلام هنا لابن تيمية.

سبحانه في أول سورة أنزلها على نبيّه في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٤]، وإذا كان كذلك كان الخطاب موجها إلى من توجهت إليه الإرادة، وتعلقت به القدرة، وخلق وكوّن كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فالذي يقال له: ﴿كُنْ﴾ هو الذي يراد، وهو، حين يراد قبل أن يخلق، له ثبوت وتميز في العلم والتقدير، ولولا ذلك لما تميز المراد المخلوق من غيره، وبهذا يحصل الجواب عن التقسيم، فإن قول السائل: إن كان المخاطب موجودا، فتحصيل الحاصل محال، يقال له هذا إذا كان موجودا في الخارج وجوده الذي هو وجوده، ولا ريب أن المعدوم ليس موجودا، ولا هو في نفسه ثابت، وأما ما علم وأريد وكان شيئا في العلم والإرادة والتقدير فليس وجوده في الخارج محالا، بل جميع المخلوقات لا توجد إلا بعد وجودها في العلم والإرادة.. وقول السائل: إن كان معدوما فكيف يتصور خطاب المعدوم؟ يقال له: أما إذا قصد أن يخاطب المعدوم بخطاب يفهمه ويمتثله فهذا محال، إذ من شرط المخاطب أن يتمكن من الفهم والفعل، والمعدوم لا يتصور أن يفهم ويفعل، فيمتنع خطاب التكليف له حال عدمه بمعنى أنه مطلوب منه حين عدمه أن يفهم ويفعل، ولذلك أيضا يمتنع أن يخاطب المعدوم في الخارج خطاب تكوين، بمعنى أن يعتقد أنه شيء ثابت في الخارج وأنه يخاطب بأن يكون، وأما الشيء المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه مثل توجيه الإرادة إليه، فليس ذلك محالا، بل هو أمر ممكن، بل مثل ذلك يجده الإنسان في نفسه، فيقدر أمرا في نفسه يريد أن يفعله ويوجه إرادته وطلبه إلى ذلك المراد المطلوب، الذي قدره في نفسه، ويكون حصول المراد المطلوب بحسب قدرته، فإن كان قادرا على حصوله حصل مع الإرادة والطلب الجازم، وإن كان عاجزا، لم يحصل، وقد يقول الإنسان: ليكن كذا ونحو ذلك من صيغ الطلب، فيكون المطلوب بحسب قدرته عليه، والله سبحانه على كل شيء قدير، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإن أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٤٣٥.

١. ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالمشرق والمغرب الأرض كلها لأنها ناحيتاها، وقال في قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ أي أيّ مكان تستقبلونه في صلاتكم فهناك وجه القبلة التي أمر الله بأن يتوجه إليها، ووجه محمد عبده هذا بقوله: إن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود، ولما كان سبحانه منزها عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيلا شرع للناس مكانا مخصوصا يستقبلونه في عبادتهم إياه، وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى، ثم قال هذه الآية متصلة بما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله﴾، وأكثر المفسرين على خلاف ما قال في تفسير المشرق والمغرب: قالوا إن المراد بهما الجهتان المعلومتان لكل أحد، ولذلك خصهما بالذكر، فهو كقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ وهو يستلزم ما قاله فان المراد على كل حال: أية جهة استقبلت وتوجهت إليها في صلاتك فأنت متوجه إلى الله تعالى لأن كل الجهات له: ﴿إِنَّ الله وَاسِعٌ﴾ لا يتحدد ولا يحصر فيصح أن يتوجه إليه في كل مكان: ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمتوجه إليه أينما كان، أي فاعبد الله حيثما كنت، وتوجه إليه أينما حللت، ولا تتقيد بالأمكنة فان معبودك غير مقيد.. بل هو فوق كل شيء بائنا منه[1].

٢. بعض رواة المأثور قالوا إن هذه الآية نزلت قبل الأمر بالتوجه إلى قبلة معينة، وقال آخرون إنها نزلت في تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، ولكن هذا فيه آيات مفصلة ستأتي في أول الجزء الثاني من هذه السورة وقال بعضهم إنها نزلت في صلاة التطوع في السفر لا يشترط فيها استقبال القبلة، وقال آخرون إنها فيمن يجتهدون في القبلة فيخطئون فإن صلاتهم صحيحة لأن إيجاب استقبال جهة معينة إنما هو للمعنى الاجتماعي في الصلاة ووحدة الأمة فيها، والتعليل يصح في كل قول من هذه الأقوال، فإنه أينما توجه المصلى فى صلاته الصحيحة فهو متوجه إلى الله تعالى لا يقصد بصلاته غيره وهو تعالى مقبل عليه راض عنه.

٣. من المعلوم أن أهل الكتاب يلتزمون في صلاتهم جهة معينة كالتزام النصارى جهة المشرق وأن استقبال المسلمين الكعبة يقتضى أن يصلى أهل كل قطر إلى جهة من الجهات الأربع فهم يصلون إلى جميع الجهات، ولا ينافى ذلك توجههم إلى الله تعالى.

---

(١) الكلام هنا لرشيد رضا.

٤. الوجه هنا قيل إنه بمعنى الجهة وهو صحيح لغة، والمعنى: فهناك القبلة التي يرضاها لكم، وقيل إنه على حد: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، ووجه المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها ظاهر على هذا التفسير فان فيها إبطال ما كان عليه أهل الملل السابقة من اعتقاد أن العبادة لله تعالى لا يصح أن تكون إلا في الهيكل والمعبد المخصوص، وفى إبطال هذا إزالة ما عساه يتوهم من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه من أنه وعيد على إبطال العبادة في المواضع المخصوصة، لأنه إبطال لها بالمرة، إذ لا تصح إلا في تلك المواضع، فهذه الآية تنفى ذلك التوهم من حيث تثبت لنا قاعدة من أهم قواعد الاعتقاد وهى أن الله تعالى لا تحدده الجهات، ولا تحصره الأمكنة، ولا يتقرب إليه بالبقاع والمعاهد، ولا تنحصر عبادته في الهياكل والمساجد، وإنما ذلك الوعيد لانتهاك حرمات الله وإبطال نوع من أنواع عبادته، وهو العبادة الاجتماعية التي يجتمع لها الناس في أشرف المعاهد على خير الأعمال التي تطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم.

٥. هذا الضرب من البيان مما امتاز به القرآن على سائر الكلام، فانك لترى فيه فنونا من الاستدراك والاحتراس قد جاءت في خلال القصص وسياق الأحكام تقرأ الآية في حكم من الأحكام، أو عظة من المواعظ، أو واقعة تاريخية فيها عبرة من العبر، فتراها مستقلة بالبيان، ولكنها باتصالها بما قبلها قد أزالت وهما أو تممت حكما، وكان ينبغي لأهل العربية أن يقتبسوا هذه الضروب من البيان، ويتوسعوا بها في أساليب الكلام، فان القرآن قد أطلق لهم اللغة من عقالها، وعلمهم من الأساليب الرفيعة ما كانت تستحليه أذواقهم، وتنفعل له قلوبهم، وتهتز له نفوسهم، وتتحرك به أريحيتهم، ولكنهم لم يوفقوا لاقتباس هذه الأساليب الجديدة، على أن ملكتهم في حسن البيان، قد ارتفعت بعد نزول القرآن.

٦. ثم رد على مدعى اتخاذ الولد بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ نزه تعالى نفسه بكلمة (سبحانه) التي تفيد التنزيه، مع التعجب مما ينافيه، كأن الذي يعرفه تعالى لا ينبغي أن يصدر عنه مثل هذا القول الذي يشعر بأن له تعالى جنسا يماثله، فان قائل ذلك لا يكون على علم بالله تعالى وإنما يكون زاعما فيه المزاعم وظانا فيه الظنون، أي تنزيها له أن يكون له ولد كما زعم هؤلاء الجاهلون الظانون بالله غير الحق، فإنه لا جنس له فيكون له ولد منه.

٧. هذا الولد الذي نسبوه اليه تعالى لا بد أن يكون من العالم العلوى وهو السماء، أو من العالم

السفلى وهو الأرض، ولا يصلح شيء منهما أن يكون مجانسا له عز وجل، لأن جميع ما في السموات والأرض ملك له، قانت لعزته وجلاله، أي خاضع لقهره مسخر لمشيئته، فاذا كانوا سوءا في كونهم مسخرين له بفطرتهم، منقادين لإرادته بطبيعتهم واستعدادهم، فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب اليه وجعله ولدا مجانسا له: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾

٨. نعم إن له سبحانه أن يختص من شاء بما شاء كما اختص الأنبياء بالوحى، ولكن هذا التخصيص لا يرتقى بالمخلوق إلى مرتبة الخالق، ولا يعرج بالموجود الممكن إلى درجة الوجود الواجب، وإنما يودع سبحانه في فطرة من شاء ما يؤهله لما شاء منه ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، وليست شبهة الذين اتخذوا بعض البشر آلهة بأمثل من شبهة الذين اتخذوا بعض الكواكب آلهة، إذ التفاوت بين الشمس والقمر أظهر مثلا من التفاوت بين المسيح وبين سائر الناس الذين عبدوه وقالوا هو ابن الله أو هو الله.

٩. غلب الله تعالى في الملكية ما لا يعقل فقال: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ لأن المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار، لا التسخير الشرعي المعبر عنه بالتكليف الذي يفعله الكاسب باختياره، ويستوى في التسخير الطبيعي العاقل وغيره، ولكنه في غير العاقل أظهر، ولما ذكر القنوت له تعالى جمعه بضمير العاقل فغلب فيه العقلاء لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله باختياره، وإن كان لغير العاقل قنوت يليق به.

١٠. الآية ناطقة بأن ما في السموات والأرض ملك لله تعالى ومسخر لإرادته ومشيئته لا فرق بين العاقل وغيره، فقد حكم على الجميع بالملكية وبالقنوت الذي يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والقدرة، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التي تستعمل غالبا في غير العاقل وهى كلمة (ما) لأن المعهود في ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بمالا يعقل، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء لأنه من أعمالهم، ومما يعهد منهم ويسند إليهم لغة وعرفا، وهذا كما ترى من أدق التعبير وألطفه، وأعلى البيان وأشرفه

١١. ثم زاد هذين الحكمين بيانا وتأكيدا فقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال المفسرون؛ ان البديع بمعنى المبدع فهو مشتق من الرباعي (أبدع) واستشهدوا ببيت من كلام عمرو بن معدى كرب جاء فيه (سميع) بمعنى مسمع، وقالوا: قد تعاقب فعيل ومفعل في حروف كثيرة، كحكيم ومحكم وقعيد ومقعد

وسخين ومسخن، وقالوا إن الابداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سبق، وهو لا يقتضى سبق المادة، وأما الخلق فمعناه التقدير وهو يقتضى شيئا موجودا يقع فيه التقدير.. وإذا كان هو المبدع للسموات والأرض والمخترع لهما والموجد لجميع ما فيهما فكيف يصح أن ينسب إليه شيء منهما على أنه جنس له، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

١٢. كان الأصمعي ينكر فعيلا بمعنى مفعل لأن القياس بناؤه من الثلاثي ويقول إن بديعا صفة مشبهة بمعنى لا نظير له، وبديع السموات معناه البديعة سماواته وفى هذا ترك للقياس الذي قضى في الصفة المشبهة التي تضاف إلى الفاعل أن تكون متضمنة ضميرا يعود على الموصوف، والحق أن تحكيم القياس فيما ثبت من كلام العرب تحكيم جائر، فما كان للدخيل في القوم أن يعمد إلى طائفة من كلامهم فيضع لها قانونا يبطل به كلاما آخر ثبت عنهم ويعده خارجا عن لغتهم بعد ثبوت نطقهم به، فاذا كان كل واحد من الوجهين صحيح المعنى، حكمنا بصحة كل منهما، والأول أظهر، وشواهده المسموعة أكثر.

١٣. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ معناه أنه إذا أراد إيجاد أمر وإحداثه فإنما يأمره أن يكون موجودا فيكون موجودا، فكن ويكون من كان التامة:

أ. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا ضرب من التمثيل أي أن تعلق إرادته تعالى بإيجاد الشيء يعقبه وجوده، كأمر يصدر فيعقبه الامتثال، فليس بعد الارادة إلا حصول المراد.

ب. وقال بعضهم بل هو قول حقيقي، قال محمد عبده: وقد وقع هذا الخلاف من أهل السنة وغيرهم وعجيب وقوعه منهم، فان عندهم مذهبين في المتشابهات التي يستحيل حملها على ظاهرها وهما مذهب السلف في التفويض، ومذهب الخلف في التأويل، وظاهر أن هذا من المتشابه، والقاعدة في تأويل مثله معروفة ومتفق عليها وهى إرجاع النقلي إلى العقلي لأنه الأصل، وههنا يقولون: إن الأمر بمعنى تعلق الارادة وأن معنى (يكون) يوجد.

١٤. الأمر بكلمة كن هنا هو الأصل فيما يسمونه أمر التكوين، ويقابله أمر التكليف، فالأول متعلق صفة الإرادة، والثاني متعلق صفة الكلام.. وأمر التكليف يخاطب به العاقل فيسمى المكلف، ولا يخاطب به غيره فضلا عن المعدوم، وأمر التكوين يتوجه إلى المعدوم كما يتوجه إلى الموجود، إذ المراد به جعله موجودا، وإنما يوجه إليه لأنه معلوم فالله تعالى يعلم الشيء قبل وجوده وأنه سيوجد في وقت كذا،

فتتعلق إرادته بوجوده على حسب ما في علمه فيوجد، وابن تيمية يسميه الأمر القدري الكوني ويسمى مقابله الأمر الشرعي.

١٥. ذلك شأنه تعالى في الايجاد والتكوين وهو أغمض أسرار الالوهية فمن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع الأول وذلك ما لا مطمع فيه، وقد عبر عن هذا السر بهذا التعبير الذي يقر به من الفهم، بما لا يتشعب فيه الوهم، ولا يوجد في الكلام تعبير آخر أليق به من هذا التعبير: يقول للشيء (كن) فيكون، فالتوالد محال في جانبه تعالى لأن ما يعهد في حدوث بعض الأشياء وتولدها من بعض فهو لا يعدو طريقين ـ الاستعداد القهري الذي لا مجال للاختيار فيه كحدوث الحرارة من النور وتولد العفونة من الماء يتحد بغيره، والسعي الاختياري كتولد الناس بالازدواج الذي يساقون إليه مع اختياره والقصد اليه، وإذا كان كل واحد من الأمرين محالا على الله تعالى وكان تعالى هو المبدع لجميع الكائنات وهى بأسرها ملكه ومسخرة لإرادته فلا معنى لإضافة الولد اليه ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

١٦. ثم عاد الكتاب إلى النسق السابق في تعداد مخازي أهل الكتاب والمشركين بعد ما ذكر من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ما ذكر وبين أنه يعبد في كل مكان، فقال جل وعز: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ فهذا عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ الخ، ويصح أن ينسب هذا إلى اليهود والنصارى والذين لا يعلمون جميعا، وإلى فرقة واحدة منهم، ووجه العموم أن الله تعالى أخبرنا في مواضع من كتابه بأن اليهود قالت: عزيز ابن الله، وأن النصارى قالت: المسيح ابن الله: وأن المشركين قالوا: إن الملائكة بنات الله، ولا فرق في الأحكام التي تسند إلى الأمم بين كونها صدرت من جميع أفراد الأمة أو صدرت من بعضهم، فان مثل هذا الإسناد منبئ بتكافل الأمم كما تقدم غير مرة، وقد نقل أن كلمة: عزير ابن الله: قالها بعض اليهود لا كلهم، وكذلك اعتقاد كون الملائكة بنات الله لم يكن عاما في مشركي العرب، وإنما عرف عن بعضهم.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي له هاتان الجهتان المعلومتان لكل أحد، والمراد ربّ الأرض كلها، فهو كقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾

٢. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ أي أيّ مكان تستقبلونه في صلاتكم، فهناك القبلة التي يرضاها الله لكم ويأمركم بالتوجه إليها، فأينما توجه المصلي في صلاته فهو متوجه إلى الله لا يقصد بصلاته غيره، والله تعالى راض عنه مقبل عليه.. والحكمة في استقبال القبلة ـ أنه لما كان من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود، وهو بهذه الطريقة محال على الله ـ شرع للناس مكانا مخصوصا يستقبلونه في عبادتهم إياه، وجعل استقباله كاستقبال وجهه تعالى.

٣. ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي إنه تعالى لا يحصر ولا يتحدد، فيصح ان يتوجه إليه في كل مكان، وهو عليم بالمتوجه إليه أينما كان، فاعبدوه حيثما كنتم، وتوجهوا إليه أينما حللتم، ولا تتقيدوا بالأمكنة، والمعبود غير مقيد.

٤. نزلت هذه الآية قبل الأمر بالتوجه إلى استقبال الكعبة في الصلاة، وفيها إبطال لما كان يعتقده أرباب الملل السابقة من أن العبادة لا تصح إلا في الهياكل والمعابد، وإزالة لما قد يتوهم من أن الوعيد إنما كان على إبطالها في الأماكن المخصوصة، فأبان بها أن الوعيد إنما كان لإبطالها مطلقا، لأن الله لا تحدده الجهات، ولا تحصره الأمكنة.

٥. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله، ولا فارق بين أن يكون هذا القول قد صدر من جميع أفراد الأمة أو من بعضها، فإن أفرادها متكافلون في كل ما يعملون وما يقولون، مما يعود أثره من خير أو شر إلى الجميع.

٦. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيها له تعالى أن يكون له ولد، إذ هذا الولد إما من العالم العلوي وهو السماء أو من العالم السفلي وهو الأرض، وليس شيء منهما بمجانس له عز اسمه؛ إلى أن السبب المقتضى للولد هو الاحتياج إلى المعونة في الحياة والقيام مقامه بعد الموت والله منزه عن ذلك.

---

(١) تفسير المراغي: ١/ ١٩٩.

٧. ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، بل جميع ما في السموات والأرض ملك له قانت لعزته، خاضع لسلطانه، منقاد لإرادته، فما وجه تخصيص واحد منهم بالانتساب إليه وجعله ولدا مجانسا له: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾

٨. نعم إن الله يختص من يشاء من عباده بما شاء من الفضل كالأنبياء صلوات الله عليهم ولكن هذا لا يرتقى بالمخلوق إلى أن يصل إلى مرتبة الخالق.

٩. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي موجدهما اختراعا وابتكارا لا على مثال سابق، وإذا كان هو المبدع لهما والموجد لجميع من فيهما فكيف يصح أن ينسب إليه شيء منهما على أنه مجانس له، تعالى عن ذلك علوّا كبيرا.

١٠. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي وإذا أراد إحداث أمر وإيجاده فإنما يأمره أن يكون موجودا فيكون، والكلام تمثيل وتشبيه لتعلق إرادته بإيجاد الشيء فيعقبه وجوده، بأمر يصدر فيعقبه الامتثال.. والإيجاد والتكوين من أسرار الألوهية عبر عنهما بما يقربهما من الفهم وهو أن يقول للشيء كن فيكون.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد ذلك يستعرض السياق ضلال تصورهم لحقيقة الألوهية، وانحرافهم عن التوحيد الذي هو قاعدة دين الله، وأساس التصور الصحيح في كل رسالة، ويقرن تصورهم المنحرف إلى تصورات الجاهلية عن ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته، ويقرر التشابه بين قلوب المشركين من العرب وقلوب المشركين من أهل الكتاب، ويصحح للجميع انحرافهم إلى الشرك، ويوضح لهم قاعدة التصور الإيماني الصحيح.

٢. هذه المقولة الفاسدة: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ليست مقولة النصارى وحدهم في المسيح، فهي كذلك مقولة اليهود في العزير، كما كانت مقولة المشركين في الملائكة، ولم تفصل الآية هنا هذه المقولات، لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاث التي كانت تناهض الإسلام يومئذ في الجزيرة ـ ومن عجب أنها لا تزال

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٠٦.

هي التي تناهضه اليوم تماما، ممثلة في الصهيونية العالمية والصليبية العالمية، والشيوعية العالمية، وهي أشد كفرا من المشركين في ذلك الحين! ـ ومن هذا الإدماج تسقط دعوى اليهود والنصارى في أنهم وحدهم المهتدون؛ وها هم أولاء يستوون مع المشركين! وقبل أن يمضي إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن الله ـ سبحانه ـ يبادر بتنزيه الله عن هذا التصور، وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعا: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

٣. هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه، وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعا.. لقد صدر الكون عن خالقه، عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة: (كُنْ، فَيَكُونُ).. فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده بوجود هذا الكائن، على الصورة المقدرة له، بدون وسيط من قوة أو مادة.. أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها، بذلك الكائن المراد صدوره عنها، فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه، وهي غير مهيأة لإدراكه لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها.. وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته، وسخر له الانتفاع بها، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى.

٤. لقد ضربت الفلسفات في تيه لا منارة فيه، وهي تحاول كشف هذه الأسرار؛ وتفترض فروضا تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال، ولم يزود أصلا بأدوات المعرفة فيه والارتياد، فتجيء هذه الفروض مضحكة في أرفع مستوياتها، مضحكة إلى حد يحير الإنسان: كيف يصدر هذا عن (فيلسوف)! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشري عن طبيعة خلقته، وأن يتجاوزوا به نطاقه المقدور له! فلم ينتهوا إلى شيء يطمأن إليه؛ بل لم يصلوا إلى شيء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله، وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل، وأن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة، الخاطئة المنهج ابتداء.

٥. لما أن أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية ـ على وجه خاص ـ أن يتطاولوا

إلى ذلك المرتقى، باؤوا بالتعقيد والتخليط، كما باء أساتذتهم الإغريق! ودسوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعته، وفي التصور الإسلامي ما ليس من حقيقته.. وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشري وراء مجاله، وفوق طبيعة خلقته وتكوينه.

٦. النظرية الإسلامية: أن الخلق غير الخالق، وأن الخالق ليس كمثله شيء.. ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة: (وحدة الوجود) على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح ـ أي بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة ـ أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق، أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده.. أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس.. والوجود وحدة في نظر المسلم على معنى آخر: وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة، ووحدة ناموسه الذي يسير به، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع:

٧. (بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ والْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ).. فلا ضرورة لتصور أن له من بين ما في السماوات والأرض ولدا.. فالكل من خلقه بدرجة واحدة، وبأداة واحدة.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ردّ مفحم على هؤلاء المنافقين الذين يحاولون أن يردوا المسلمين عن قبلتهم الجديدة، وأن يعملوا على خراب هذا المسجد والمساجد التي ستقام على سمته وتدور في فلكه.

٢. في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ردّ أيضا على أولئك الذي أعمتهم الأنانية، فحاربوا الناس في كل موقع من مواقع رحمة الله التي لا حدود لها، يصيب بها من يشاء من عباده، حسب علمه وحكمته.

٣. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ هذه مقولة من مقولات أهل الكتاب، تكشف عن

---

(١) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١٣٤.

زيغهم، وترى أنهم ليسوا على الحقّ الذي يدّعون أنهم أهله دون الناس جميعا، فاليهود يقولون: عزير ابن الله، النصارى يقولون المسيح: ابن الله.. وتعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا، له ما في السموات والأرض، كل ما فيهما مستعبد له: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لما جاء بوعيدهم ووعد المؤمنين عطف على ذلك تسلية المؤمنين على خروجهم من مكة ونكاية المشركين بفسخ ابتهاجهم بخروج المؤمنين منها وانفرادهم هم بمزية جوار الكعبة فبين أن الأرض كلها لله تعالى وأنها ما تفاضلت جهاتها إلا بكونها مظنة للتقرب إليه تعالى وتذكر نعمه وآياته العظيمة فإذا كانت وجهة الإنسان نحو مرضاة الله تعالى فأينما تولى فقد صادف رضى الله تعالى كانت وجهته الكفر والغرور والظلم فما يغني عنه العياذ بالمواضع المقدسة بل هو فيها دخيل لا يلبث أن يقلع منها قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] وقال ﷺ في بني إسرائيل: (نحن أحق بموسى منهم)

٢. المراد من ﴿الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ في الآية تعميم جهات الأرض لأنها تنقسم بالنسبة إلى مسير الشمس قسمين قسم يبتدئ من حيث تطلع الشمس وقسم ينتهي في حيث تغرب وهو تقسيم اعتباري كان مشهورا عند المتقدمين لأنه المبني على المشاهدة مناسب لجميع الناس، والتقسيم الذاتي للأرض هو تقسيمها إلى شمالي وجنوبي لأنه تقسيم ينبني على اختلاف آثار الحركة الأرضية.

٣. قيل إن هذه الآية إذن للرسول ﷺ بأن يتوجه في الصلاة إلى أية جهة شاء، ولعل مراد هذا القائل أن الآية تشير إلى تلك المشروعية لأن الظاهر أن الآية نزلت قبيل نسخ استقبال بيت المقدس إذ الشأن توالى نزول الآيات وآية نسخ القبلة قريبة الموقع من هذه، والوجه أن يكون مقصد الآية عاما كما هو الشأن فتشمل الهجرة من مكة والانصراف عن استقبال الكعبة.

٤. تقديم الظرف للاختصاص أي إن الأرض لله تعالى فقط لا لهم، فليس لهم حق في منع شيء

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٦٦٥.

منها عن عباد الله المخلصين.

٥. ﴿وَجْهَ اللهِ﴾ بمعنى الذات وهو حقيقة لغوية تقول: لوجه زيد أي ذاته كما تقدم عند قوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِّ﴾ [البقرة: ١١٢] وهو هنا كناية عن عمله فحيث أمرهم باستقبال بيت المقدس فرضاه منوط بالامتثال لذلك، وهو أيضا كناية رمزية عن رضاه بهجرة المؤمنين في سبيل الدين لبلاد الحبشة ثم للمدينة ويؤيد كون الوجه بهذا المعنى قوله في التذييل: ﴿إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فقوله: ﴿وَاسِعُ﴾ تذييل لمدلول: ﴿وَللهِّ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ والمراد سعة ملكه أو سعة تيسيره والمقصود عظمة الله، أنه لا جهة له وإنما الجهات التي يقصد منها رضى الله تفضل غيرها وهو عليم بمن يتوجه لقصد مرضاته، وقد فسرت هذه الآية بأنها المراد بها القبلة في الصلاة.

٦. القول هنا على حقيقته وهو الكلام اللساني ولذلك نصب الجملة وأريد أنهم اعتقدوا ذلك أيضا لأن الغالب في الكلام أن يكون على وفق الاعتقاد.

٧. ﴿اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ جاء بلفظ (اتخذ) تعريضا بالاستهزاء بهم بأن كلامهم لا يلتئم لأنهم أثبتوا ولدا لله ويقولون اتخذه الله، والاتخاذ الاكتساب وهو ينافي الولدية إذ الولدية تولد بدون صنع فإذا جاء الصنع جاءت العبودية لا محالة وهذا التخالف هو ما يعبر عنه في علم الجدل بفساد الوضع وهو أن يستنتج وجود الشيء من وجود ضده كما يقول قائل: القتل جناية عظيمة فلا تكفّر مثل الردة.

٨. أصل هذه المقالة بالنسبة للمشركين ناشئ عن جهالة وبالنسبة لأهل الكتابين ناشئ عن توغلهما في سوء فهم الدين حتى توهموا التشبيهات والمجازات حقائق، فقد ورد وصف الصالحين بأنهم أبناء الله على طريقة التشبيه وورد في كتاب النصارى وصف الله تعالى بأنه أبو عيسى وأبو الأمة فتلقفته عقول لا تعرف التأويل ولا تؤيد اعتقادها بواضح الدليل فظنته على حقيقته، جاء في التوراة في الإصحاح ١٤ من سفر التثنية (أنتم أولاد للرب إلهكم لا تخمشوا أجسامكم) وفي إنجيل متى الإصحاح ٥ (طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون) وفيه (وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات) وفي الإصحاح ٦ (انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوي يقوتها)

٩. تكرر ذلك في الأناجيل غير مرة ففهموها بسوء الفهم على ظاهر عبارتها ولم يراعوا أصول

الديانة التي توجب تأويلها ألا ترى أن المسلمين لما جاءتهم أمثال هاته العبارات أحسنوا تأويلها وتبينوا دليلها كما في الحديث: (الخلق عيال الله)

١٠. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه لله عن شنيع هذا القول، وفيه إشارة إلى أن الولديّة نقص بالنسبة إلى الله تعالى وإن كانت كمالا في الشاهد لأنها إنما كانت كمالا في الشاهد من حيث إنها تسد بعض نقائصه عند العجز والفقر وتسد مكانه عند الاضمحلال والله منزه عن جميع ذلك فلو كان له ولد لآذن بالحدوث وبالحاجة إليه.

١١. ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إضراب عن قولهم لإبطاله، وأقام الدليل على الإبطال بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالجملة استئناف ابتدائي واللام للملك و﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما هو موجود فإن السماوات والأرض هي مجموع العوالم العلوية والسفلية.

١٢. ﴿مَا﴾ من صيغ العموم تقع على العاقل وغيره وعلى المجموع وهذا هو الأصح الذي ذهب إليه في (المفصل) واختاره الرضي، وقيل: (ما) تغلب أو تختص بغير العقلاء ومن تختص بالعقلاء وربما استعمل كل منهما في الآخر وهذا هو المشتهر بين النحاة وإن كان ضعيفا وعليه فهم يجيبون على نحو هاته الآية بأنها من قبيل التغليب تنزيلا للعقلاء في كونهم من صنع الله بمنزلة مساوية لغيره من بقية الموجودات تصغيرا لشأن كل موجود.

١٣. القنوت الخضوع والانقياد مع خوف وإنما جاء: ﴿قَانِتُونَ﴾ بجمع المذكر السالم المختص بالعقلاء تغليبا لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة.

١٤. المضاف إليه المحذوف بعد (كلّ) دلّ عليه قوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كل ما في السماوات والأرض أي العقلاء له قانتون وتنوين (كل) تنوين عوض عن المضاف إليه.

١٥. في قوله تعالى: ﴿لَهُ قَانِتُونَ﴾ حجة ثالثة على انتفاء الولد لأن الخضوع من شعار العبيد أما الولد فله إدلال على الوالد وإنما يبرّ به ولا يقنت، فكان إثبات القنوت كناية عن انتفاء الولدية بانتفاء لازمها لثبوت مساوي نقيضه ومساوي النقيض نقيض وإثبات النقيض يستلزم نفي ما هو نقيض له.

١٦. فصل جملة: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ لقصد استقلالها بالاستدلال حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل المسوق له قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

١٧. استدلّ بها بعض الفقهاء على أن من ملك ولده أعتق عليه لأن الله تعالى جعل نفي الولدية بإثبات العبودية فدل ذلك على تنافي الماهيتين وهو استرواح حسن.

١٨. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ هو بالرفع خبر لمحذوف على طريقة حذف المسند إليه لاتباع الاستعمال كما تقدم في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾ [البقرة: ١٨] وذلك من جنس ما يسمونه بالنعت المقطوع.

١٩. البديع مشتق من الإبداع وهو الإنشاء على غير مثال فهو عبارة عن إنشاء المنشآت على غير مثال سابق، وذلك هو خلق أصول الأنواع وما يتولد من متولّداتها، فخلق السماوات إبداع وخلق الأرض إبداع وخلق آدم إبداع وخلق نظام التناسل إبداع، وهو فعيل بمعنى فاعل فقيل هو مشتق من بدع المجرد مثل قدر إذا صح وورد بدع بمعنى قدر بقلة أو هو مشتق من أبدع ومجيء فعيل من أفعل قليل، ومنه قول عمرو بن معديكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع   يؤرقني وأصحابي هجوع

يريد المسمع، ومنه أيضا قول كعب بن زهير:

سقاك بها المأمون كأسا رويّة   فانهلك المأمون منها وعلّك

أي كأسا مروية، فيكون هنا مما جاء قليلا.. وقد قيل في البيت تأويلات متكلفة والحق أنه استعمال قليل حفظ في ألفاظ من الفصيح غير قليلة مثل النذير والبشير إلا أن قلته لا تخرجه عن الفصاحة لأن شهرته تمنع من جعله غريبا، وأما كونه مخالفا للقياس فلا يمنع من استعماله إلا بالنسبة إلى المولّد إذا أراد أن يقيس عليه في مادة أخرى.

٢٠. ذهب الزمخشري إلى أن بديع هنا صفة مشبهة مأخوذ من بدع بضم الدال أي كانت البداعة صفة ذاتية له بتأويل بداعة السماوات والأرض التي هي من مخلوقاته فأضيفت إلى فاعلها الحقيقي على جعله مشبها بالمفعول به وأجريت الصفة على اسم الجلالة ليكون ضميره فاعلالها لفظا على نحو زيد حسن الوجه كما يقال فلان بديع الشعر، أي بديعة سماواته، وأما بيت عمرو فإنما عينوه للتنظير ولم يجوزوا فيه احتمال أن يكون السميع بمعنى المسموع لوجوه أحدها أنه لم يرد سميع بمعنى مسموع مع أن فعيلا بمعنى مفعول غير مطرد، الثاني أن سميع وقع وصفا للذات وهو الداعي وحكم سمع إذا دخلت على ما لا يسمع

أن تصير من أخوات ظن فيلزم مجيء مفعول ثان بعد النائب المستتر وهو مفقود الثالث أن المعنى ليس على وصف الداعي بأنه مسموع بل على وصفه بأنه مسمع أي الداعي القاصد للإسماع المعلن لصوته وذلك مؤذن بأنه داع في أمر مهم.

٢١. وصف الله تعالى ببديع السماوات والأرض مراد به أنه بديع ما في السماوات والأرض من المخلوقات وفي هذا الوصف استدلال على نفي بنوة من جعلوه ابنا لله تعالى لأنه تعالى لما كان خالق السماوات والأرض وما فيهما، فلا شيء من تلك الموجودات أهل لأن يكون ولدا له بل جميع ما بينهما عبيد لله تعالى كما تقدم في قوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦] ولهذا رتب نفي الولد على كونه بديع السموات والأرض في سورة الأنعام [١٠] بقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾

٢٢. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ كشف لشبهة النصارى واستدلال على أنه لا يتخذ ولدا بل يكوّن الكائنات كلها بتكوين واحد وكلها خاضعة لتكوينه وذلك أن النصارى توهموا أن مجيء المسيح من غير أب دليل على أنه ابن الله فبين الله تعالى أن تكوين أحوال الموجودات من لا شيء أعجب من ذلك وأن كل ذلك راجع إلى التكوين والتقدير سواء في ذلك ما وجد بواسطة تامة أو ناقصة أو بلا واسطة قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فليس تخلق عيسى من أم دون أب بموجب كونه ابن الله تعالى.

٢٣. (كان) في الآية تامة لا تطلب خبرا أي يقول له: أيجد فيوجد، والظاهر أن القول والمقول والمسبب هنا تمثيل لسرعة وجود الكائنات عند تعلق الإرادة والقدرة بهما بأن شبه فعل الله تعالى بتكوين شيء وحصول المكون عقب ذلك بدون مهلة بتوجه الآمر للمأمور بكلمة الأمر وحصول امتثاله عقب ذلك لأن تلك أقرب الحالات المتعارفة التي يمكن التقريب بها في الأمور التي لا تتسع اللغة للتعبير عنها وإلى نحو هذا مال صاحب (الكشاف) ونظره بقول أبي النجم:

إذ قالت الأنساع للبطن ألحق ... قدما فاضت كالفنيق المحنق

والذي يعين كون هذا تمثيلا أنه لا يتصور خطاب من ليس بموجود بأن يكون موجودا فليس هذا التقرير الصادر من الزمخشري مبنيا على منع المعتزلة قيام صفة الكلام بذاته تعالى إذ ليس في الآية ما يلجئهم

إلى اعتبار قيام صفة الكلام إذ كان يمكنهم تأويله بها تأولوا به آيات كثيرة، ولذلك سكت عنه ابن المنير خلافا لما يوهمه كلام ابن عطية.

٢٤. الضمير المرفوع بقالوا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ عائد إلى جميع الفرق الثلاث وهي اليهود والنصارى والذين لا يعلمون إشارة إلى ضلال آخر اتفق فيه الفرق الثلاث.

٢٥. اجتمع على هذه الضلالة الفرق الثلاث كما اتفقوا على ما قبلها، فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال المشركون الملائكة بنات الله فتكون هاته الآية رجوعا إلى جمعهم في قرن إتماما لجمع أحوالهم الواقع في قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٠٥] وفي قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣]، وقد ختمت هذه الآية بآية جمعت الفريق الثالث في مقالة أخرى وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ [البقرة: ١١٨] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. كان اليهود الذين يساكنون النبيّ ﷺ في المدينة وعقد معهم العقود، وانتهكوا حرماتها، ونقضوها ـ كثيري القول في الإسلام، لا يتركون أمرا يظنونه مكيدة للمسلمين إلا فعلوه، ولا علما علموه فيه إلا نابذوه وأشاعوا بين المسلمين الشك فيه.

٢. كانت القبلة ابتداء ـ وقد هاجر النبيّ ﷺ ـ إلى بيت المقدس، فأخذوا يشيعون في المؤمنين تبعية محمد ﷺ إلى دينهم، وقد كان من قبل يتجه إلى القبلتين، ولكن لما هاجر كانت مكة تحت سلطان الشرك وفى قبضته والأوثان حولها ولم يكن في ظاهر الأمر أنها ستخرج من أيديهم، وإن كان أخذ يضايقهم في عيرهم؛ الرائح إلى الشام، والقافل منها.

٣. مكث المؤمنون على الاتجاه إلى بيت المقدس في صلاتهم ستة عشر شهرا حتى أذن الله تعالى بأن

---

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٧٥.

الأمور ستخرج من أيديهم، وقاربت غزوة بدر الكبرى في علم الله تعالى، فحول القبلة إلى الكعبة، وكان النبيّ ﷺ حريصا على تحقيق ذلك، وكان يقلب وجهه في السماء طالبا داعيا، فحوله الله تعالى إليها، فأخذ اليهود يشددون غمزهم في القول لهذا التحويل، ويتخذون ذلك سبيلا للطعن في محمد ﷺ ودينه، ويقولون إن ذلك تقلب في الإيمان واضطراب في معرفة الحق، كيف يتغير من القبلة الحق - في زعمهم - إلى ما دونها، وهم سفهاء حقا في كلامهم.

٤. بين الله سبحانه أن ذلك لا يتعلق بلب الإيمان، فالقلب موطنه، والله يختار أي مكان يكون القبلة وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة]

٥. لما كثر لغط اليهود قال تعالى: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي أن الأرض كلها ملك لله سبحانه وتعالى مشرقها ومغربها، وما بينهما، والمشرق المكان الذي تشرق منه الشمس، والمغرب، المكان الذي تغرب فيه، ولا فضل لمكان على مكان إلا باختيار الله تعالى له، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ أينما شرطية دالة على المكان وتولوا الفعل مجزوم بها، لأنه فعل الشرط، والجواب دل عليه: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ أي فولوه واتجهوا إليه، فإن هناك وجه الله تعالى، فثم بمعنى مكان أو هناك وجه الله، والمراد ذاته العلية الكريمة وعبر بالوجه لأن الوجه بالنسبة للعباد هو الجزء الواضح البادي، وإذا رؤى فقد رؤيت الذات، ولذا كان في التحدث عن الله تعالى الوجه هو الذات، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن]

٦. معنى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، ولوا وجوهكم فإنكم ستتجهون إلى الله تعالى إذ ستجدون الله بنوره وجلاله في أي مكان، ولا يضير الإيمان أن يتغير الاتجاه من قبلة إلى قبلة؛ لأنه حيث كان يجد الله فيتجه، والأمر إليه سبحانه في اختيار مكان اتجاه المؤمن.

٧. ذيل سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والسعة بالنسبة لله تعالى سعة الملك، فالله تعالى واسع ملكه وسلطانه لا يقتصر ملكه وسلطانه على مكان دون مكان، بل كله في ملكه

سبحانه الذي وسع ملكه كل شيء، وهو عليم بما يجري فيه، فالعبادة المخلصة المحسنة يعلمها ويصل إلى صاحبها ثوابها، سبحانه وتعالى.

٨. تكلم القرآن الكريم عن اليهود، وخياناتهم وغدرهم في ماضيهم وحاضرهم وكفرهم بآيات الله تعالى، ومع ما صنعوا ادعوا أنهم أهل الجنة، وأن النار لن تمسهم إلا أياما، وقالوا مع النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا، وذكر عنهم اختلافهم وتنابذهم مع أنهم يتلون الكتاب، ثم أشار سبحانه إلى كلامهم في شأن القبلة ولجاجتهم في التشنيع على المسلمين بشأن تحويل القبلة إلى الكعبة يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، وبعد ذلك يشير إلى الوثنية في الديانة النصرانية المثلثة، التي ابتدأت بادعاء أن المسيح ابن الله، وإذا كان اليهود قد شاركوهم في أن عزيرا ابن الله، فإنهم لم يلجوا فيه، ويجعلوه جزءا من دينهم، كما لج النصارى قبحهم الله، وزادهم ضلالا فوق ضلالهم، ووهما فوق أوهامهم فقد ضلوا سواء السبيل ولا أمل في هدايتهم إلا أن يتخلصوا عن هذه الأوهام وإلا فذرهم في غيهم يعمهون، وإن الله تعالى يهدى من يشاء.

٩. وقالوا ـ أي النصارى ومن قاربهم من اليهود، وإن لم يلجوا لجاجتهم ـ قالوا وعليهم إثم ذلك القول لأنه اختراع كاذب، ونسب سبحانه وتعالى القول إليهم، لأنه ضلالهم الذي به ضلوا، وخرجوا عن التوحيد إلى الوثنية.

١٠. قولهم هو: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ أي أن الله تعالى هو الذي اختار ولدا، أو جعله ولدا، وهذا يدل على زعمهم الباطل من أن الله تعالى احتاج إلى أن يكون له ولد، ورغب فيه وأراده، أو اشته كما يشتهي الأحياء أن يكون له ولد لحاجته إليه.

١١. رد الله تعالى عليهم ذلك الزعم بأربعة أدلة تدل على بطلان ذلك الزعم الوثني الذي يشابه مقالة عبدة الأصنام:

أ. الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزه عن ذلك وتقدست ذاته العلية أن تكون مشابهة لأحد من الحوادث الذين يتوالدون ويتناسلون، فهو الواحد الأحد الذي لا يشابه أحدا من خلقه، ليس كمثله شيء، ولو كان له ولد لكان مشابها للحوادث ولكان له زوج، كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام] وأنه لو كان له ولد تولد منه لكان له والد، وهو

منزه عن ذلك فهو الواحد الأحد الذي ليس له والد ولا ولد.

ب. الدليل الثاني: أنه لو كان له ولد لكان مفتقدا إلى من يكمل وجوده؛ لأن الولد امتداد لأبيه، فهو كمال وجوده، والله تعالى ليس بمفتقر لأحد؛ لأنه الكامل المنفرد بالكمال، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك الدليل بقوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وبل هنا للإضراب والانتقال من تنزيه إلى تنزيه، والمعنى أن له الملك الكامل والسلطان التام في السموات والأرض، فيستحيل أن يكون محتاجا إلى ولد، بل كل الوجود في سلطانه، وليس فقيرا إلى ولد يعينه، وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر] وأن كل شيء خاضع لسلطانه مسبح بحمده كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء]

ج. الدليل الثالث: أنه إذا كان الوجود كله ملكا له، فكيف يتخذ ولدا، وإنه إذا كان الوجود كله ملكا له، فكيف يكون محتاجا له، وإن الوالد قد يحتاج للولد ليكون مسخرا في حاجاته يقوم بحق الوالد عليه، والله لا يحتاج إلى ذلك، لأن الوجود كله في قبضة يده، وكلهم خاضعون له؛ ولذلك قال: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ والقنوت: هو الخضوع المطلق، والعبادة والتسبيح له سبحانه وتعالى، والتنوين في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ دال على عموم كل من في الوجود خاضع لله تعالى لا يحتاج إلى من يكون في طاعته، والقنوت يشمل العبادة من ذوى الإرادة، ومن يقنتون بمقتضى التكوين الفطري والتكوين كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد]

د. الدليل الرابع: أن الله تعالى هو الذي أبدع السموات والأرض على غير مثال، وخلق الوجود كله الأرض والسماء والأحياء فهو الذي ذرأ من في السموات والأرض، وكلهم عبيده، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم] فكيف يكون له ولد، وأنه إذا كان له ولد، فإنه يكون من جنسه، ويكون من مثله والله المبدع للوجود والخالق منزه عن أن يكون بعضه من الحوادث والولد بعض أبيه وبضعة منه، وقد أشار سبحانه إلى هذا بقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

١٢. بديع بمعنى مبدع أي منشئ على غير مثال سبق، وقد أخذ بعض المفسرين من هذا دليلا على أنه لا يمكن أن يكون الإبداع متفقا مع اتخاذ الولد، فقد قال الراغب في ذلك: (إن الأب هو عنصر للابن

منه تكون، والله مبدع الأشياء كلها فلا يمكن أن يكون عنصرا للولد، فمن المحال أن يكون المنفعل فاعلا)، وإن هذا بلا ريب يتنافى مع الإبداع، وإن الذين قالوا: إن الله اتخذ ولدا قالوا: إنه نشأ عنه ملازما له، كما ينشأ الضوء من الشمس وكما ينشأ النور من السراج، أي أنه نشأ من الموجد الأول نشوء المعلول من علته والمسبب عن سببه، وهم قالوا ذلك آخذين له من الفلسفة، وهى الأفلاطونية التي تتوافق مع النصرانية تمام التوافق، وهى بعد أن حرفت عما جاء به المسيح عليه السلام كما هي والأفلاطونية الحديثة على سواء، فهم يقولون: إن الله ليس فاعلا مختارا وإنما نشأ الولد نشوء المعلول عن العلة؛ ولذلك كان رد الله تعالى عليهم بإثبات ملكه وقدرته على الخلق والتكوين، وأنه أبدع السموات والأرض بإرادته ردّ لكفرهم وضلال عقولهم، وأوهامهم الباطلة، التي ضلوا بها، وأضلوا الناس بالدعوة إلى تصديقها.

١٣. بين سبحانه إرادته المختارة بأنه مبدع السموات، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي أنه إذا أراد خلق شيء ممكن قال له كن فيكون، والواو عاطفة والمعطوف عليه بديع السموات والأرض، ﴿بَدِيعُ﴾ صيغة مبالغة بمعنى مبدع فهي في معنى الفعل؛ ولذا صح عطف الفعل عليها، أو عطف الجملة الفعلية عليها، وهى بيان الاختيار والفعل المنافى للتوالد، وقضى بمعنى أنشأ وخلق وكون، والأمر هنا هو بمعنى الشيء فإذا أراد الله تعالى خلق شيء لا يكون بتوليد شيء في شيء أو مادة من مادة، إنما يكون بكلمة يقولها وهى (كن) والأمر أمر تكويني فيكون الشيء الذي أراده الله تعالى.

١٤. هذا يدل على أمرين:

أ. أولهما ـ أنه سبحانه وتعالى فاعل مختار يفعل ما يريد، وأن الأشياء نشأت بإرادته المختارة، فهو فعال لما يريد، والأشياء لم تنشأ نشوء المعلول عن علته، أو المسبب عن سببه.

ب. ثانيهما ـ أنه لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن الولد يتولد عن والد، ولا يخلق الله تعالى الأشياء بطريق التوالد، من توليد لا حق بسابق، بل إنه سبحانه وتعالى ينشئ في الابتداء، والتوالد بين الأحياء يكون بسلطانه، وبحكمته وهو العزيز العليم.

١٥. المسيحية بعد المسيح عليه السلام سارت في ذلك المسار الذي انته بوثنيتها وانحرافها، وتحللها من العقيدة التي دعا إليها المسيح عليه السلام، وهى عقيدة المسيح، وأنه رسول الله تعالى، وأنه عبده: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ [النساء] وقد تم ذلك على النحو التالي:

أ. عندما توفى الله المسيح إليه، توالى التعذيب على أتباعه، والتعذيب ابتدأ في حياته عليه السلام في هذه الدنيا فقد اضطهده اليهود ودسوا عليه عند الرومان حتى هموا بصلبه ونجاه تعالى إذ شبه لهم، وما قتلوه وما صلبوه وتوالى من بعد ذلك تعذيب الرومان، في عهد ملوك كثيرين منهم، فكان منهم نيرون الذي كان يطلى أجسامهم بالقار ويشعل فيه، ويسيرون في مواكبهم مشتعلين، وكان زينة موكبه تلك المشاعل الإنسانية، ومنهم دقلديانوس الذي قتل مقتلة عظيمة في سنة ٢٨٢، وإنه في وسط هذا الاضطهاد كان المسيحيون يقيمون شعائرهم الدينية في الخفاء إذ كلما ظهروا عذبوا، وكانوا إذا ظهروا أخفوا عقائدهم فكانوا يفتشون القلوب وينقبون عن خبايا النفوس، ولا يسلم الدين مع هذا الاختفاء إذ لا يكون مرشد هاد، ولا رقيب يمنع دخول الزيف في دينهم.

ب. وفى هذه العصور دخلت عناصر من الوثنيين يحملون وثنيتهم، وخلطوا ما بينها وبين عقيدة التوحيد التي جاء بها المسيح عليه السلام، وإن الاختلاط بمرضى الحقائق يجعل الضلال يسرى إليهم كما تسرى عدوى الأمراض، ولعل أشد الوثنيين الذين أغاروا عليهم ـ بولس، الذي سموه رسولا، فقد كان عدوا للمسيح في حياته في هذه الدنيا، كان إلبا عليه يحرض الرومان، ثم ادعى أنه دخل المسيحية، وما دخل، أو دخلها ليخربها وهو أول من أدخل الوثنية فيها، واطرح فيها تعاليم المسيح اطراحا.

ج. وقد كانت الأفلاطونية الحديثة تتكون، وأساسها أن الأوثان الرومانية فقدت قوتها، والفلسفة هي الأخرى فقدت سلطانها، فأرادت الأفلاطونية الحديثة أن تصل إلى نفوس الرومان باسم الدين وأرادت أن تجمع من بقايا من الوثنية، ومن اليهودية والنصرانية التي ظهرت دينا جديدا، فكانت النصرانية التي خرجت عن دين المسيح ﷺ، وهى جمعت بين الوثنية بألوهية المسيح وروح القدس مع الله، واليهودية باعتبار التوراة أصلا لها فصارت النصرانية، والأفلاطونية الحديثة التي يعد أكبر رؤسائها أفلوطين المتوفى سنة ٢٧ ميلادية تعتقد أن العالم نشأ عن الشيء الأول، وهو الله أو العقل الأول عندهم، ثم نشأ عنه العقل الثاني وهو ما سمى عند النصارى بالابن، ثم نشأ عنهما الروح العامة المتصلة بالمخلوقات جميعا.

د. مع هذه الأعراض التي ظهرت في المسيحية، ومع هذه المحاولات الوثنية كان التوحيد هو المسيطر وهو الأكثر أتباعا في القرون الثلاثة الأول والثاني والثالث، وخصوصا في الأول والثاني، وإذا كانت وثنية تظهر، فإن الكثرة الموحدة تطردها كما يطرد الجسم السليم بحيويته الأمراض ويتغلب عليها،

واستمرت كذلك طول هذه القرون الثلاثة، حتى جاء بطريق الإسكندرية، وهى موطن الأفلاطونية الحديثة، جاء باتفاق مع قسطنطين إمبراطور الرومان في أول القرن الرابع، وادعى أن التوحيد بدعة في المسيحية، وأن الأصل فيها ألوهية المسيح في زعمهم، وأن آريوس الموحد وكان في الإسكندرية قد ابتدع التوحيد مع أن كل كنائس مصر والشام موحدة لا يرتاب أتباعها في ذلك، وأنه يجب طرد أريوس الموحد المنكر لألوهية المسيح من المسيحية، مع أنه صورة للكثرة المسيحية الكاثرة التي كانت منبثة في ربوع مصر والشام.

هـ. دعي بسبب هذا لعقد مؤتمر عام في نيقية الذي عده النصارى المصدر الأخير لديانتهم، دعي في هذا المجمع العام ٢٠٤٨، ثمانية وأربعون وألفا أسقف، وجرى بينهم اختلاف، والسائد فيهم التوحيد وإن كان فيه انحراف من بعض الطوائف، ولكن قسطنطين يريد الدخول في النصرانية، بعد أن يصيرها قريبة من دينه بإدخال الوثنية فاختار من هذا العدد الكبير ٣١٨ أي ثمانية عشر وثلاثمائة، وقد رضوا بما يدعو إليه، وسلطهم على المسيحيين كلهم وأعطاهم شارة الملك وصولجانه، فقرروا ألوهية الابن أي المسيح بقيادة بطريق الإسكندرية مهد الأفلاطونية الحديثة، وكان ذلك المجمع سنة ٣٢٥.. ولكن المسيحيين عارضوا ذلك المجمع، واعتبروه خارجا على المسيحية، وأيدت المعارضة مؤتمرات في الشام كمؤتمر صور، ولكن الأفلاطونية الحديثة لم تتم فصولها، فقد تقررت في هذا المجمع ألوهية الابن في زعمهم، ولكن ثالوث الأفلاطونية الحديثة الله أو الأب، أو العقل الأول، والابن أو العقل الثاني، وروح القدس لم يتقرر بعد! ولذا كان لا بد من أن يتقدم بطريق من الإسكندرية سنة ٣٨١ بطلب تقرير ألوهية روح القدس فانعقد مؤتمر القسطنطينية، وقرر باقتراح بطريق الإسكندرية ألوهية روح القدس.

١٦. بذلك تم ثالوث النصارى، وهو ثالوث الأفلاطونية الحديثة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة] وهم بهذا وثنيون يشركون مع الله أحدا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) التفسير الكاشف: ١/ ١٨٥.

١. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، أي ان الأرض والجهات والأشياء كلها لله، فأينما تعبدتم، وانّى انجهتم قاصدين بالعبادة وجه الله فالله يتقبل منكم، فمن منع من العبادة في المساجد، فليتعبد حيث شاء، ويتجه الى أية جهة أراد، فان الأرض كلها مسجد، والجهات كلها قبلة.

٢. قال بعض المفسرين: ان التعميم في الآية للجهة فقط دون المكان، لقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.. وقد ذهل هذا المفسر عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ معللا به تعميم الجهة.. ومن المعلوم ان تعميم علة الحكم تستدعي تعميم الحكم بداهة تبعية المعلول لعلته، والمسبب لسببه، وبكلمة ما دامت الجهات والأماكن كلها لله فيصح التعبد له في كل مكان، والاتجاه بالعبادة الى جميع الجهات.

٣. سؤال وإشكال: ظاهر الآية يدل على ان المكلف مخير في أن يتجه بصلاته الى جميع الجهات، ولا يتعين عليه التوجه الى خصوص الكعبة، مع العلم بأن هذا خلاف ما أجمع عليه المسلمون؟ والجواب: أجل، ان ظاهر الآية يدل على ذلك، ويشمل الصلاة المفروضة والمستحبة في جميع الحالات، ولكن ثبت عن النبي وأهل بيته ﷺ، وبالإجماع أيضا ان المفروضة لا تصح مع الإمكان إلا الى الكعبة، وان المستحبة تصح حال المشي والركوب على الراحلة الى أية جهة تكون، وكذلك المتحير الذي يجهل جهة الكعبة تصح منه المكتوبة حيث يتجه بها مع عجزه عن الاحتياط، وبهذه الأحاديث والإجماع نخصص قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ نخصصها بالصلاة المستحبة حال المشي والركوب، وبصلاة المتحير، وأيضا بالأحاديث والإجماع نخصص الآية ١٤٩ من سورة البقرة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نخصصها بالصلاة المكتوبة مع الاختيار، والنافلة مع الاستقرار.

٤. بهذا يتبين الخطأ والاشتباه في قول من قال ان قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ناسخ لقوله سبحانه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، لأن من شروط النسخ التنافي والتعارض بين الناسخ والمنسوخ، بحيث يرد الإثبات والنفي على موضوع واحد، وقد عرفت ان موضوع فول وجهك شطر المسجد خصوص صلاة الفريضة والنافلة مع الاستقرار، وان موضوع أينما تولوا فثم وجه الله ـ ما عدا ذلك.

٥. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ كل من اليهود والنصارى ومشركي العرب قالوا: انهم وحدهم على حق، وغيرهم ليس بشيء، أو ليس على شيء، وعليه يكون الضمير في قوله تعالى: (وقالوا) راجعا الى هذه

الطوائف الثلاث، وقد جاء في القرآن الكريم ان اليهود قالوا: عزير ابن الله، وان النصارى قالوا: المسيح ابن الله، وان مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله، فلا جرم صحت هذه الحكاية عنهم جميعا.

٦. (سبحانه) كلمة تنزيه، وفي آية ثانية: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾، لأن وجود الولد لله تعالى يستلزم العديد من المحاذير، منها:

أ. ان التي تلد منه لا بد أن تكون من جنسه، ليمكن الاستيلاد، والله لا جنس له ولا ند.

ب. ان الولادة تستدعي المقاربة، والمقاربة تستدعي الجسمية، والله ليس بجسم.

ج. ان السبب الموجب للولد هو الاحتياج له، والمفروض ان الله غني عن العالمين.

د. ان الذي يلد لا بد أن يكون مولودا، والمفروض ان الله غير مولود، قال أمير المؤمنين (ع): (لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركا أي يكون أبوه مشاركا له في العز ـ ولم يلد فيكون موروثا هالكا) أي يموت الأب فيرثه الابن، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

هـ. ان كل ما في السموات والأرض مخلوق ومملوك لله، والمخلوق المملوك لا يكون ابنا للخالق المالك، ولا الخالق المالك أبا للمخلوق المملوك.

٧. وبهذا يتضح وجه الاستدلال على نفي الولد عنه تعالى في قوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

٨. ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، أي مطيعون منقادون.

٩. سؤال وإشكال: ان (ما) تستعمل فيما لا يعقل، و﴿قَانِتُونَ﴾ تستعمل فيمن يعقل، لأنه جمع بالواو والنون، والمراد بـ (ما) هو عين المراد بـ ﴿قَانِتُونَ﴾ فكيف صح التعبير عن الشيء الواحد بما لا يعقل تارة، وبمن يعقل أخرى؟ والجواب: ان الأرض والسموات تشتمل على من يعقل، وما لا يعقل، وقد تضمنت الآية جملتين: إحداهما أثبتت ملك الله لما حوته الأرض والسموات، والثانية أثبتت طاعته لله.. وحين أراد الله سبحانه التعبير عن الملك غلب ما لا يعقل، لأن الملك يتعلق به، وحين أراد الطاعة غلب من يعقل، لأنها لا تصدر إلا عن عقل واختيار.

١٠. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، المبدع هو المخترع والمبتكر الذي لم يأخذ من غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾، وعليه يكون المعنى: إذا كان الله هو منشئ السموات والأرض ومبدعها

فكيف ينسب اليه شيء مما فيهما على انه ولد له؟

١١. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، هذا كناية عن عظمة الله وقدرته، وانه بمجرد أن يريد يتحقق المراد، سواء لم يكن شيء فيوجده بإرادته من لا شيء، أو كان شيئا، وأراد تحويله الى شيء آخر، فيتحول.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، المشرق والمغرب وكل جهة من الجهات حيث كانت فهي لله بحقيقة الملك التي لا تقبل التبدل والانتقال، لا كالملك الذي بيننا معاشر أهل الاجتماع، وحيث إن ملكه تعالى مستقر على ذات الشيء محيط بنفسه وأثره، لا كملكنا المستقر على أثر الأشياء ومنافعها، لا على ذاتها، والملك لا يقوم من جهة أنه ملك إلا بمالكه فالله سبحانه قائم على هذه الجهات محيط بها وهو معها، فالمتوجه إلى شيء من الجهات متوجه إليه تعالى.

٢. لما كان المشرق والمغرب جهتين إضافيتين شملتا سائر الجهات تقريبا إذ لا يبقى خارجا منهما إلا نقطتا الجنوب والشمال الحقيقتان ولذلك لم يقيد إطلاق قوله: ﴿فَأَيْنَمَا﴾، بهما بأن يقال: أينما تولوا منهما فكأن الإنسان أينما ولى وجهه فهناك إما مشرق أو مغرب، فقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ بمنزلة قولنا: ولله الجهات جميعا وإنما أخذ بهما لأن الجهات التي يقصدها الإنسان بوجهه إنما تتعين بشروق الشمس وغروبها وسائر الأجرام العلوية المنيرة.

٣. قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، فيه وضع علة الحكم في الجزاء موضع الجزاء، والتقدير ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ جاز لكم ذلك فإن وجه الله هناك، ويدل على هذا التقدير تعليل الحكم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي إن الله واسع الملك والإحاطة عليم بقصودكم أينما توجهت، لا كالواحد من الإنسان أو سائر الخلق الجسماني لا يتوجه إليه إلا إذا كان في جهة خاصة، ولا أنه يعلم توجه القاصد إليه إلا من جهة خاصة كقدامه فقط، فالتوجه إلى كل جهة توجه إلى الله، معلوم له سبحانه.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٥٩.

٤. هذا توسعة في القبلة من حيث الجهة لا من حيث المكان، والدليل عليه قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

٥. في التهذيب، عن محمد بن الحصين قال كتب إلى عبد صالح الرجل ـ يصلي في يوم غيم في فلاة من الأرض ـ ولا يعرف القبلة فيصلي ـ حتى فرغ من صلاته بدت له الشمس ـ فإذا هو صلى لغير القبلة يعتد بصلاته أم يعيدها؟ فكتب يعيد ما لم يفت الوقت، أولم يعلم أن الله يقول: ـ وقوله الحق ـ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾، وفي تفسير العياشي، عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، قال: أنزل الله هذه الآية في التطوع خاصة ـ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، وصلى رسول الله ﷺ إيماء على راحلته أينما توجهت به حين خرج إلى خيبر، وحين رجع من مكة، وجعل الكعبة خلف ظهره.. وإذا تصفحت أخبار أئمة أهل البيت حق التصفح، في موارد العام والخاص والمطلق والمقيد من القرآن وجدتها كثيرا ما تستفيد من العام حكما، ومن الخاص أعني العام مع المخصص حكما آخر، فمن العام مثلا الاستحباب كما هو الغالب ومن الخاص الوجوب، وكذلك الحال في الكراهة والحرمة، وعلى هذا القياس، وهذا أحد أصول مفاتيح التفسير في الأخبار المنقولة عنهم، وعليه مدار جم غفير من أحاديثهم.

٦. من هنا يمكنك أن تستخرج منها في المعارف القرآنية قاعدتين:

أ. إحداهما: أن كل جملة وحدها، وهي مع كل قيد من قيودها تحكي عن حقيقة ثابتة من الحقائق أو حكم ثابت من الأحكام كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، ففيه معان أربع:

- الأول: ﴿قُلِ اللهُ﴾
- الثاني: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾
- الثالث: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾
- الرابع: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

واعتبر نظير ذلك في كل ما يمكن.

ب. الثانية: أن القصتين أو المعنيين إذا اشتركا في جملة أو نحوها، فهما راجعان إلى مرجع واحد، وهذان سران تحتهما أسرار والله الهادي.

٧. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ يعطي السياق، أن المراد بالقائلين بهذه المقالة هم اليهود والنصارى: إذ قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، فإن وجه الكلام مع أهل الكتاب، وإنها قال أهل الكتاب هذه الكلمة أعني قولهم: اتخذ الله ولدا أول ما قالوها تشريفا لأنبيائهم كما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه ثم تلبست بلباس الجد والحقيقة فرد الله سبحانه عليهم في هاتين الآيتين.

٨. أضرب الله تعالى عن قولهم بقوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ إلخ، ويشتمل على برهانين ينفي كل منهما الولادة وتحقق الولد منه سبحانه:

أ. فإن اتخاذ الولد هو أن يجزي موجود طبيعي بعض أجزاء وجوده، ويفصله عن نفسه فيصيره بتربية تدريجية فردا من نوعه مماثلا لنفسه، وهو سبحانه منزه عن المثل، بل كل شيء مما في السموات والأرض مملوك له، قائم الذات به، قانت ذليل عنده ذلة وجودية، فكيف يكون شيء من الأشياء ولدا له مماثلا نوعيا بالنسبة إليه؟ وهو سبحانه بديع السموات والأرض، إنما يخلق ما يخلق على غير مثال سابق، فلا يشبه شيء من خلقه خلقا سابقا، ولا يشبه فعله فعل غيره في التقليد والتشبيه ولا في التدريج، والتوصل بالأسباب إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون من غير مثال سابق ولا تدريج، فكيف يمكن أن ينسب إليه اتخاذ الولد؟ وتحققه يحتاج إلى تربية وتدريج، فقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ برهان تام.

ب. وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ برهان آخر تام، هذا.

٩. يستفاد من الآيتين:

أ. أولا: شمول حكم العبادة لجميع المخلوقات مما في السموات والأرض.

ب. ثانيا: أن فعله تعالى غير تدريجي، ويستدرج من هنا، أن كل موجود تدريجي فله وجه غير تدريجي، به يصدر عنه تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾

١٠. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ مصدر بمعنى التسبيح وهو لا يستعمل إلا مضافا وهو مفعول مطلق لفعل محذوف أي سبحته تسبيحا، فحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الضمير المفعول وأقيم مقامه، وفي الكلمة

تأديب إلهي بالتنزيه فيما يذكر فيه ما لا يليق بساحة قدسه تعالى وتقدس.

١١. قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، القنوت العبادة والتذلل.

١٢. قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾، بداعة الشيء كونه لا يماثل غيره مما يعرف ويؤنس به.

١٣. قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾، تفريع على قول كن وليس في مورد الجزاء حتى يجزم.

١٤. في الكافي، والبصائر، عن سدير الصيرفي، قال سمعت عمران بن أعين يسأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فقال أبو جعفر عليه السلام: إن الله عز وجل ابتدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله، فابتدع السماوات والأرضين ولم يكن قبلهن سماوات ولا أرضون ـ أما تسمع لقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.. وفي الرواية استفادة أخرى لطيفة، وهي أن المراد بالماء في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ غير المصداق الذي عندنا من الماء بدليل أن الخلقة مستوية على البداعة، وكانت السلطنة الإلهية قبل خلق هذه السماوات والأرض مستقرة مستوية على الماء فهو غير الماء وسيجيء تتمة الكلام في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾

١٥. الكليات حتى الموجودان اللذان لا يميز الحس جهة الفرقة بينهما فالحس المسلح يدرك ذلك منهما، والبرهان الفلسفي أيضا يوجب ذلك، فإن المفروضين من الموجودين لو لم يتميز أحدهما عن الآخر بشيء خارج عن ذاته، كان سبب الكثرة المفروضة غير خارج من ذاتهما فيكون الذات صرفة غير مخلوطة، وصرف الشيء لا يتثنى ولا يتكرر، فكان ما هو المفروض كثيرا واحدا غير كثير هذا خلف، فكل موجود مغاير الذات لموجود آخر، فكل موجود فهو بديع الوجود على غير مثال سابق ولا معهود، والله سبحانه هو المبتدع بديع السماوات والأرض.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿الْمَشْرِقِ﴾ جهة طلوع الشمس: ﴿وَالْمَغْرِبِ﴾ جهة غروبها، يفرد وهو عبارة عن المشارق والمغارب باختلاف الاعتبار، أعني قد يعتبر المشرق متعدداً باعتبار تعدد مطالع الشمس بتعدد منازلها،

---

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٧٢.

وقد تعتبر المشارق كلها مشرقاً واحداً لعدم اعتبار اختلاف المطالع، وكذلك المغرب.

٢. المراد: أن له تعالى أن يوجه عباده في عبادتهم حيث شاء؛ لأن الجهات كلها له، ولعل فائدة تخصيص المشرق والمغرب بالذكر أن الشمال والجنوب كان معهوداً حيث صلوا من المدينة المنورة إلى الجنوب إلى الكعبة، وإلى الشمال لغرب حين صلوا هناك إلى بيت المقدس والله أعلم، أو أن المشرق والمغرب يعم أكثر الجهات لامتداد الجهتين إلى الشمال صيفاً والجنوب شتاءً.

٣. ﴿تَوَلَّوْا﴾ أي توجهوا وجوهكم، وقوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ تعبير عن كونه يصلح قبلة تتوجهون إليه في عبادة الله، وهو من المجاز معناه: كأن الله هناك يقبل إليكم بوجهه سبحانه وتعالى، وهو منزه عن الأعضاء، وإنما المراد بيان أنه يصلح ليكون قبلة تقبل منكم الصلاة إليه: ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الرحمة لعباده كلهم، ولا تختص رحمته بأمة كـ (بني إسرائيل)، قال الشرفي في (المصابيح): (قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على جواز التوجّه بالصلاة إلى أيّ جهة شاء المصلي عند التباس جهة الكعبة، والجهل بها)، وتدل على أن الجهات كلها تصلح أن تكون قبلة، ولا يختص بذلك بيت المقدس، فإذا شاء سبحانه وتعالى أن يوجههم إلى جهة صارت قبلة، فالآية كالمقدمة لما يأتي في القبلة.

٤. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ يظهر أن قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ الضمير فيه راجع إلى الفرق الثلاث: اليهود، والنصارى، والذين لا يعلمون، و﴿سُبْحَانَهُ﴾ ردّ لكلامهم، وتنزيه لله سبحانه عن الولد.

٥. ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ منقادون مطيعون، فعيسى وعزير والملائكة كلهم عباد الله منقادون يقضي فيهم ما يشاء ويحكم ما يريد، ليس لهم من الأمر شيء.

٦. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهما دليل على أنه تعالى قادر على إبداع ما يشاء وخلقه قبل أن يوجد له مثل كما بدع آدم من التراب، فكيف لا يقدر على خلق عيسى من دون أب ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لا يعسر عليه خلق حتى كأنه إنما يأمر الشيء أن يكون، فإذا أمره فهو يكون.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) من وحي القرآن: ٢/ ١٨٥.

١. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الآية الكريمة تعبّر عن حقيقة توحيدية، وهي أنّ الله ليس جسماً ليوجد في مكان دون مكان كما توجد الأجسام، بل هو فوق المكان والزمان، مالك كلّ شيء وخالقه، فلا يختصّ به مكان أو جهة؛ فله المشرق والمغرب، فأينما وجّهتم وجوهكم فإنكم ستجدون الله أمامكم ماثلا في خلقه من خلال دلالة الخلق على عظمة الخالق، فإن الله واسع في ملكه وقدرته، عليم بما في قلوبكم حيث تتوجه في عبادتها وإخلاصها.

٢. هذا هو الجوّ الذي توحيه الآية، ولكن ماذا خلفها، وماذا في مجالاتها من حدود:

أ. هل نزلت في توجّه الإنسان إلى الصلاة، لتكون واردة في مورد تحديد القبلة كما ينقل عن ابن عباس، فقد روي عنه أنها نزلت في اليهود الذين أنكروا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

ب. أم أنها نزلت في صلاة التطوع على الراحلة، كما روي عن أئمة أهل البيت عليه السّلام.

ج. أم نزلت في حالات الجهل والتحيّر إذا صلى المصلون إلى جهة غير القبلة باعتقاد أنها القبلة، كما روي عن جابر في قصة حدثت في زمن النبي محمد ﷺ؟.

٣. ليس في الآية ما يدل على اختصاصها بحالة الصلاة أو صلاة معيّنة.. لكن جوّها يوحي بذلك، وبأن هناك حديثا دار بين المسلمين، فجاءت الآية لتضع القضية في نطاقها الطبيعي الذي يلغي أسس الخلاف؛ فإذا كان الله قد أراد منا التوجه إلى جهة من الجهات في وقت ما، فإن بإمكانه أن يوجهنا إلى جهة أخرى في وقت آخر، لأن الجهة الأولى لم تشرّع باعتبارها مكانا لله، بل لحكمة يعلمها الله في ذلك، فلا مانع من أن تكون هناك حكمة أخرى في جهة أخرى.

٤. أمّا قضية الاختصاص بصلاة معيّنة، فإنها تخضع للتدقيق في المقارنة بين الآيات والروايات التي عرضت لتشريع القبلة في قضايا الإطلاق والتقييد، مما يختص الحديث التفصيلي عنه في البحث الفقهي، وربما كان لنا أن نسجّل في لفتة سريعة، أنّ الآية مطلقة في جواز التوجّه إلى الله في أي مكان في كل مورد من الموارد التي يشترط فيها التوجه إليه، إلا ما دلّ الدليل على اختصاصه بجهة معينة كصلاة الفريضة مثلا، فيبقى الباقي كصلاة التطوّع ونحوها في مجرى الإطلاق؛ وبهذا تفسّر الروايات الواردة في اختصاصها بصلاة التطوّع أو بحالة الشك، وعلى أي حال، فإن هذا لا يمنعنا من التأكيد على ما ذكرناه في بداية الحديث من أن الآية واردة في مقام التعبير عن حقيقة توحيدية عامّة والتركيز على الانطلاق منها في مقام الالتزامات

التشريعية العملية.

٥. ﴿وَقَالُوا﴾ أي اليهود والنصارى ـ وقد يشمل مشركي العرب ـ ﴿اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ كما يتخذ الإنسان ولدا ليأنس ويقوى به، فيمنحه الامتيازات الكبرى التي لا يمنحها لغيره، فتكون له القداسة التي قد تبلغ درجة الألوهية، وجاء القرآن ليناقش هذه العقيدة ببساطة:

أ. فبدأ الحديث بالتسبيح والتنزيه لله وذلك بكلمة: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزيها له عن هذه العلاقات، لأنها تعني الحاجة، باعتبار أنّ البنوّة تمثل في وعي الآباء تلبية لرغبة ذاتية، كنتيجة للشعور بالفراغ الداخلي من هذه الجهة، كما تمثل الحاجة إلى المرور بمراحل زمنية وعملية، في سبيل الوصول إلى هذه النتيجة، لو أريد للنسبة أن تتحقق بشكل طبيعي كما تتحقق في سائر الأشياء، وهذا يعني العجز إلى جانب الحاجة، مما يستحيل على الله ويتنزه عنه.

ب. ثم يناقش القضية من موقع الحقيقة الإيمانية التوحيدية، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ مطيعون خاشعون، فلا يملك أحد منهم أيّ تفوّق ذاتي في نفسه، أو أية علاقة بالله تميزه عن العلاقة بالآخر من حيث طبيعة الخلق، فما حاجة الله إلى الولد، وهو مالك السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات، ولكلّ من هذه المخلوقات خصائص وميزات، ولكنها لا تخرج بذلك عن مملوكيتها ومخلوقيتها لله، من دون أن يكون أحد منها أقرب من الآخر من حيث جهة الملك أو الخلق، أو يكون انتسابها إلى الله بمستوى أعلى من الآخر.

ج. وأضاف إلى ذلك أنه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومنشئها من خلال إرادته التي لا تختلف في كل شيء يريده، من دون حاجة إلى توسط شيء بين الإرادة والمراد، فإذا أراد شيئا خلقه.

٦. ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قول الإرادة لا قول الكلمة، على هدى ما جاء في دعاء الإمام زين العابدين عليه السّلام في الصحيفة السجادية: (فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة، وبإرادتك دون نهيك منزجرة)، وقد جاء المفسرون ليناقشوا الوجه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وذلك من منطلق القاعدة الفلسفية التي تمنع من مخاطبة المعدوم؛ فكيف يخاطب الله الشيء قبل وجوده ليطلب منه أن يوجد!؟ فقال بعضهم: إنه بمنزلة التمثيل؛ وقال بعض آخر: إنه رمز بين الله وبين الملائكة في الدلالة على أن هناك شيئا جديدا قد خلق؛ وقال آخرون: إن المعدوم لمّا كان معلوما

عند الله صار كالموجود.. والذي يبدو لنا، أنّ إثارة هذه المشكلة في وعي هؤلاء ينطلق من محاولة تفسير القرآن في كلماته، تفسيرا حرفيا يستنطق الكلمة من خلال معناها اللغوي من دون ملاحظة للجانب البلاغي الذي تتّسع له اللغة العربية في مرونتها التعبيرية التي تشتمل على الحقيقة والمجاز والكناية، وهذا ما درج عليه القرآن الكريم في توضيح الصورة للناس بطريقة الحوار، لأنها أقرب الوسائل في الإيضاح، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وغير ذلك من الآيات، فلن نحتاج إلى مثل هذا التكلف في توجيه الآية، بل الظاهر أنها واردة على سبيل تقريب الفكرة بطريقة الحوار.

٧. لا بد من الملاحظة في حكمة (كن فيكون)، فقد يخيل إلى البعض أن المقصود هو أن الشيء يوجد فورا إذا أراد الله وجوده، ولكن ذلك غير المراد، لأن بعض الأشياء قد تكون لها شروط توجب تأخيرها، ولذلك فإن المقصود هنا، أن مراد الله لا يختلف عن إرادته، فإذا أراد الله للإنسان أن يوجد بعد تسعة أشهر من الحمل، فهو الذي يتحقق لا وجوده كيفما كان.

٨. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، في هاتين الآيتين معالجة ومناقشة للفكرة الخاطئة التي سيطرت على تفكير اليهود والنصارى والمشركين عن علاقة الله ببعض مخلوقاته، فقد حكى لنا القرآن في آيات لاحقة أنّ اليهود يعتقدون أنّ عزيرا ابن الله، وأن النصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله، كما حكى لنا عن المشركين أنهم يرون الملائكة بنات الله؛ ولعل السرّ في هذه العقائد هو استغراقهم في صفات العظمة لهذه المخلوقات، من خلال ما لاحظوه من قيامهم ببعض الأعمال التي قد لا يستطيعها غيرهم، أو ما اعتقدوه فيهم من قدرتهم على الأشياء التي لا يقدر عليها الآخرون، مما أوحى إليهم بأنهم يمتازون على المخلوقات الأخرى، لأن فيهم سرّا ليس موجودا فيها، ولولا اعتقادهم بوحدانية الله في الوجود، لخيّل إليهم أنهم شركاء الله في الألوهية، ولكنهم وضعوهم في مرتبة قريبة منه بالمستوى الذي يجعلهم أقرب من غيرهم، وهل هناك قرابة أقرب من علاقة الإنسان بأولاده!؟ إذا فلا بد أن يكونوا أبناء الله، ليكون ذلك مبرّرا لهذا الامتياز الذي منحهم إياه، وهكذا انطلقت هذه العقيدة في تاريخ هذه الشعوب في تعقيد فكري

لدى البعض، وفي سذاجة فكرية لدى البعض الآخر.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. اختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآية:

أ. روي عن ابن عباس أن الآية ترتبط بتغيير القبلة، فعند ما تغيرت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة بدأ اليهود يشككون قائلين: وهل من الممكن أن تتغير الكعبة؟ فنزلت الآية ترد عليهم وتقول إن المشرق والمغرب لله.

ب. وروي أيضا: أنّ الآية نزلت في الصّلاة المستحبّة يستطيع الإنسان أن يؤدّيها على راحلته أينما اتّجهت الرّاحلة، دون اشتراط الاتّجاه نحو القبلة.

ج. وروي عن جابر أنّ الرّسول ﷺ بعث جماعة في غزوة، فجنّ عليهم اللّيل ولم يستطيعوا أن يعرفوا اتّجاه القبلة، فصلّت كلّ مجموعة صوب جهة، وبعد طلوع الشّمس تبيّن أنّهم لم يستقبلوا القبلة سألوا النّبيّ عن ذلك فنزلت الآية الكريمة.

٢. من الممكن أن تكون أسباب النّزول المذكورة كلها ثابتة للآية، أضف الى ذلك أن كل آية في القرآن لا تنحصر بأسباب نزولها، بل ينبغي أن يؤخذ مفهومها بشكل حكم عام، وربما استخرج منها أحكام متعددة.

٣. الآية السابقة تحدثت عن الظالمين الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها، وهذه الآية تواصل موضوع الآية السابقة فتقول: ﴿وَللهِّ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾

٤. تؤكد هذه الآية أن منع النّاس عن إحياء المساجد لا يقطع الطريق أمام عبودية الله، فشرق هذا العالم وغربه لله سبحانه، وأينما تولوا وجوهكم فالله موجود، وتغيير القبلة تمّ لظروف خاصة، وليس له علاقة بمكان وجود الله، فالله سبحانه وتعالى لا يحده مكان، ولذلك تقول الآية بعد ذلك: ﴿إِنَّ الله وَاسِعٌ

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٤٨.

عَلِيمٌ﴾

٥. واضح أن المقصود بالمشرق والمغرب في الآية ليس هو الجهتين الخاصتين، بل هو كناية عن كل الجهات، كأن يقول أحد مثلا: أعداء علي عليه السّلام سعوا للتغطية على فضائله، لكن فضائله انتشرت في شرق العالم وغربه، (أي في كل العالم)

٦. لعل سبب شيوع استعمال الشرق والغرب في الكلام أن الإنسان يتعرف أولا على هاتين الجهتين، ثم يعرف بقية الجهات عن طريق هاتين الجهتين، وفي آية أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾

٧. سؤال وإشكال: الله موجود في كل جهة ومكان، فلما ذا وجب الاتجاه نحو القبلة في الصلاة؟ والجواب: واضح أن الاتجاه نحو القبلة لا يعني تحديد ذات الباري تعالى في مكان وفي جهة، بل إن الإنسان موجود مادي، ولا بدّ أن يصلي باتجاه معين، ثم إن ضرورة الوحدة والتنسيق في صفوف المسلمين تفرض اتجاههم في الصلاة نحو قبلة واحدة، وإلّا ساد الهرج والفوضى، وتفرّقت الصفوف وتشتتت، أضف إلى ذلك أن الكعبة التي جعلت قبلة للمسلمين بقعة مقدسة ومن أقدم قواعد التوحيد، والاتجاه نحوها يوقظ في النفوس ذكريات المسيرة التوحيدة.

٨. عبارة: ﴿وَجْهَ الله﴾ لا تعني هذا الوجه المتعارف، بل تعني ذات الله تعالى.

٩. استدلت الروايات بهذه الآية على صحة الصلاة إلى غير القبلة لسهو أو اضطرار، وعلى صحة الصلاة على ظهر الراحلة.

١٠. نسبة الولد إلى الله سبحانه، هي دون شك وليدة سذاجة فكرية، قائمة على أساس مقارنة كل شيء بالوجود البشري المحدود، فالإنسان يحتاج إلى الولد لأسباب عديدة: فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج إلى توليد المثل لاستمرار نسله.. ومن جهة أخرى هو ذو قوّة محدودة تضعف بالتدريج، ويحتاج لذلك ـ وخاصة في فترة الشيخوخة ـ إلى من يساعده في أعماله.. وهو أيضا ينطوي على عواطف وحبّ للأنيس، وذلك يتطلب وجود فرد أنيس في حياة الإنسان، والولد يلبي هذه الحاجة.. واضح أن كل هذه الأمور لا يمكن أن تجد لها مفهوما بشأن الله سبحانه، وهو خالق عالم الوجود والقادر على كلّ شيء، وهو الأزلي الأبدي، أضف إلى ذلك، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسما والله منزّه عن ذلك.

١١. كلمة (بديع) من (بدع)، والإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء منه، وفي الآية بمعنى إيجاد الشيء من غير مادة سابقة.

١٢. سؤال وإشكال: كيف يمكن للعدم ـ وهو نقيض الوجود ـ أن يكون منشأ للوجود؟ والجواب: هذه هي الشبهة التي يوردها الماديون في مسألة (الإبداع) ليستنتجوا منها أن المادة الأصلية للعالم أزلية أبدية، ولا يطرأ عليها وجود وعدم إطلاقا، والجواب أنه يوجّه نفس هذا الاعتراض إلى الماديين فهؤلاء يعتقدون أن مادة هذا العالم قديمة أزلية، ولم ينقص منها شيء حتى الآن، والذي نراه يتغير هو (الصورة) وحدها، لا أصل المادة، ونحن بدورنا نسأل: كيف وجدت الصورة الحالية للمادة ولم تكن موجودة من قبل؟ هل وجدت من العدم؟ إذا كان كذلك، فكيف يمكن للعدم أن يكون منشأ للوجود؟ على سبيل المثال، يقول الماديون في لوحة زيتية مرسومة على ورقة أنّ زيوت التلوين كانت موجودة، ونحن نسأل: كيف وجدت هذه (الصورة) التي لم تكن موجودة من قبل؟ كل جواب يقدمونه بشأن إيجاد (الصورة) من (العدم) نقدمه نحن أيضا بشأن إيجاده (المادة)

١٣. بالتعبير الفلسفي: كل موجود ممكن (الذي لا يملك الوجود ذاتيا) له جانبان: ماهية ووجود، (الماهية) هي (المعنى الاعتباري) الذي يتساوى في نسبته للعدم والوجود، بعبارة أخرى، الماهية هي المقدار المشترك الذي نفهمه من ملاحظة وجود شيء وعدمه، فهذه الشجرة لم تكن موجودة سابقا وهي موجودة الآن، والشخص الفلاني لم يكن موجودا سابقا وهو الآن موجود، وما أسندنا إليه الحالتين (الوجود والعدم) هي (الماهية).. من هنا يكون معنى قولنا (إن الله أوجد العالم من العدم) هو أنه سبحان نقل الماهية من حالة العدم إلى حالة الوجود، وبعبارة أخرى وضع لباس (الوجود) على جسد (الماهية)

١٤. ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ هذا التعبير ورد في آيات عديدة منها الآية ٤٧ و٥٩ من سورة آل عمران، والآية ٧٣ من سورة الأنعام، والآية ٤٠ من سورة النحل والآية ٣٥ من سورة مريم، والآية ٨٢ من سورة يس، وغيرها، والمراد منها الإرادة التكوينية لله تعالى وحاكميته في الخليقة، بعبارة أوضح: المقصود من جملة: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ليس هو صدور الأمر اللفظي (كن) من قبل الله تعالى، بل المقصود تحقق إرادة الله سبحانه حينما تقتضي إيجاد شيء من الأشياء، صغيرا بحجم الذّرة كان، أم كبيرا بحجم السماوات والأرض، بسيطا كان أم معقدا، دون أن يحتاج في ذلك الإيجاد إلى أية علّة أخرى، ودون أن تكون هناك أية

فترة زمنية بين الإرادة والإيجاد.

١٥. لا يمكن للزمان أن يفصل بين الأمر والكينونة، ولذلك فإن الفاء في جملة (فيكون)، لا تدل على تأخير زمني كما هو الحال في الجمل الأخرى، بل إنها تدل فقط على التأخير في الرتبة (الفلسفة أثبتت تأخر المعلول عن العلة، وهذا التأخر ليس زمنيا، بل في الرتبة)

١٦. ليس المقصود أن الشيء يصبح موجودا متى ما أراد الله ذلك، بل المقصود أن الشيء يصبح موجودا بالشكل الذي أراده الله.. على سبيل المثال، لو أراد الله أن يخلق السماوات والأرض في ستة أيّام، لكان ذلك، دون زيادة أو نقص، ولو أراد أن توجد في لحظة واحدة لوجدت بأجمعها في لحظة واحدة، فذلك تابع لكيفية إرادته ولما يراه من مصلحة.. ولو شاء الله ـ مثلا ـ أن يبقى الجنين في رحم أمه تسعة أشهر وتسعة أيّام ليطوي مراحل تكامله، لما زادت هذه المدة وما نقصت، أمّا لو شاء أن يطوي هذا الجنين مراحل تكامله خلال لحظة واحدة لحدث ذلك قطعا، لأن إرادته علّة تامّة للخليقة، ولا يمكن أن توجد فاصلة بين العلة التامة ووجود المعلول.

١٧. المسيحيون وجمع من اليهود والمشركون تبنّوا عقيدة تافهة بشأن اتخاذ الله ابنا، قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ الله ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، وقال عزّ شأنه: ﴿قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَالْغَنِيُ}.. وهناك آيات أخرى ذكرت هذا المعتقد المنحرف.

١٨. هذه الآية الكريمة تقول: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ ثم تجيب عليهم أوّلا بتنزيه الله عن هذه النسبة:

أ. ﴿سُبْحَانَهُ﴾، فما حاجة الله إلى الولد؟ هل هو محتاج إلى المساعدة أو إلى بقاء النسل!؟ نعم، لا يمكن نسبة أي احتياج إلى الله.

ب. ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وجميع الكون خاضع له.

ج. ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ وليس هو مالك جميع موجودات الكون فحسب، بل هو خالقها.

د. بل مبدعها أي موجدها دون احتياج إلى مادة أولية في هذا الإيجاد: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

هـ. ما حاجة الله إلى الولد وهو النافذ الإرادة في جميع الموجودات!؟ ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ

كُنْ فَيَكُونُ﴾

٤٨. التعنت والجاهلون

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٤٨] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٨ ـ ١١٩]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: إن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم، وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ الآية[1].

٢. روي أنّه قال: نزلت: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب، وكانوا أربعين رجلا؛ اثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من رهبان الشام، منهم بحيرا[2].

٣. روي أنّه قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول؛ فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ الآية[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بالقرآن[4].

أبو العالية:

---

(١) أورده الثعلبي: ١/ ٢٦٦.

(٢) أورده الثعلبي: ١/ ٢٦٦.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٤٧٤.

(٤) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٦٥.

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ هو قول كفار العرب، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ يعني: اليهود والنصارى، أو غيرهم[١].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) أنّه قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ الآية: النصارى تقوله، والذين من قبلهم يهود، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُم﴾ قلوب النصارى واليهود[٢].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنّه قال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُم﴾ قلوب اليهود والنصارى: وتشابههم أن اليهود قالت: ليست النصارى على شيء، وأن النصارى قالت: ليست اليهود على شيء، قال الله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُون﴾[٣].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُون﴾ بتوحيد ربهم، يعني: مشركي العرب للنبي ﷺ: ﴿لَوْلَا﴾ يعنون: هلا: ﴿يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ يخبرنا بأنك رسوله، ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ كما كانت الأنبياء تأتيهم الآيات تجيء إلى قومهم، يقول الله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِم﴾ يقول: هكذا قالت بنو إسرائيل من قبل مشركي العرب، فقالوا في سورة البقرة [٥٥] والنساء لموسى: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾، وأتوا بالآيات، وسمعوا الكلام فحرفوه، فهل هؤلاء إلا مثل أولئك!؟ فذلك قوله سبحانه: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُم﴾[٤].

٢. روي أنّه قال: ثم قال وإن كذب مشركو العرب بمحمد: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَات﴾ أي: فقد بينا الآيات، فذلك قوله سبحانه في العنكبوت [٤٩]: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ﴾ يعني: بيان أمر محمد آيات: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: واضحات في التوراة أنه أمي لا يقرأ الكتاب ولا يخط بيمينه، ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُون﴾ يعني: مؤمني أهل

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٥.

(٢) تفسير مجاهد: ص٢١٢.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٦.

(٤) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٤.

التوراة[1].

٣. روي أنّه قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ لم نرسلك عبثا لغير شيء[2].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3].

١. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، معنى لا تسأل عنهم، أراد عز وجل: أنك لا تسأل عنهم بتقصير كان منك في إبلاغهم؛ بل قد أبلغتهم وأقمت الحجة عليهم.

٢. هذه شهادة من الله سبحانه لمحمد بالإبلاغ والاجتهاد، في طاعة ربه ذي العزة والأياد.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[4]:

١. في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ وجوه:

أ. قيل: الّذين لا يعلمون، يعلمون في الحقيقة، ولكن سماهم بذلك؛ لما لم ينتفعوا بعلمهم.

ب. وقيل: لا يعلمون توحيد ربهم؛ وهم مشركو العرب، قالوا للنبي ﷺ: هلا يكلمنا الله، أو تأتينا آية فتخبرنا بأنك رسوله.

ج. وقيل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾، أي لا يعلمون أنهم لم يبلغوا المبلغ الذي يتمنون تكليم الله إياهم.

د. وقيل: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه قد كلمهم وأخبرهم بالوحى، وإيتاء رسوله ﷺ آيات على رسالته، لكنهم يعاندون.

٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾:

أ. قيل: الذين من قبلهم: بنو إسرائيل؛ قالوا لموسى مثل ما قال مشركو العرب لمحمد ﷺ، وهو

---

(١) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٤.

(٢) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٤ وذكر الثعلبي: ١/ ٢٦٥.

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٤.

(٤) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٥٠.

قوله: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]

ب. وقيل: اليهود سألوا مثل سؤال النصارى.

ج. وقيل: النصارى سألوا مثل سؤال اليهود.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾:

أ. قيل: بالكفر والسفه.

ب. وقيل: تشابهت قلوبهم في المقالة؛ يشبه بعضها بعضا في السؤال؛ لأنهم سألوا سؤال تعنت، لا سؤال مسترشد.

٤. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: هذا القول.

ب. الثاني: أن يسألوا سؤال التعنت والعتو، لا سؤال مسترشد؛ إذ الله ـ تعالى ـ قد أثبت آيات الإرشاد لمن يبتغي الرشد، ولا قوة إلا بالله.

٥. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بينا أمر محمد ﷺ بالآيات، والحجج التي أقامها: أنه رسول لمن آمن به، وصدقه، ولم يعانده.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾:

أ. قيل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد؛ لتدعوهم إلى الحق، وهو التوحيد.

ب. وقيل: بالحق: بالقرآن.

ج. وقيل: بالحق: بالحجج والآيات، ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاه وخالف أمره بالنار.

د. وقيل: بالحق الذي لله على الخلق، والحق الذي لبعض على بعض؛ لتدعوهم إليه وتدلهم عليه.

٧. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾:

أ. جائز أن يكون بمعنى: لا تسأل بعد هذا عنهم، ولم يذكر أنه سئل عنهم بعده؛ فيكون ذلك آية له بما هو خبر عن علم الغيب، قيل: إن رسول الله ﷺ ـ قال: ليت شعرى! ما فعل أبواي؟) فأنزل الله ـ

تعالى ـ هذه الآية[1].، وفيها لغتان: (لا تسأل) بنصب التاء وهو ما ذكرنا.

ب. ويحتمل وجها آخر: أي لا تشتغل بأصحاب الجحيم؛ فإن ذلك تكلف منك وشغل.

ج. وفيها لغة أخرى برفع التاء: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، أي لا تسأل أنت يا محمد عن ذنوب أصحاب الجحيم؛ وهو كقوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١]، وكقوله: ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤]، وكقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧] ونحوه.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾:

أ. أي لا تُسأل عن ذنوبهم، ولا تُحاسب على شيء من أعمالهم، وإنما عليك الإنذار لهم والإعذار إليهم.

ب. إن كانت القراءة: ﴿وَلَا تَسْأَلْ﴾ بنصب التاء وتسكين اللام، فالمعنى في ذلك: لا تسأل عن قبائحهم، ولا تبحث عما استتر من فضائحهم، وعاقبهم على ما ظهر من ذنوبهم.

ج. ويحتمل وجهاً آخر: وهو على التكثير لا على وجه النهي، والعرب إذا استكثروا شيئاً قالوا: لا تسأل، فالشيء كثير، فكذلك ما أكثر عذاب أهل الجحيم، لا تسأل عن كثرة ما مر بهم من الشقاء، وهذه لغة أهل الحجاز إذا أخبر أحدهم بخبر خرج لفظه لفظ النهي ومعناه معنى الخبر، فيقول أحدهم: لا تسأل ما مر بنا من الخير، ولا تسأل ما مرّ بنا من التعب، قال الشاعر:

وصاحب الصيد كصاحب يوماً على شيء ويوماً لا تَسَلْ

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

---

(١) هذا الحديث مكذوب ومعارض للقرآن الكريم.

(٢) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٨.

(٣) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٨٢.

١. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ تحتمل الآية ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها أن يكون المراد به النصارى.

ب. الثاني: أن يكون المراد به اليهود.

ج. الثالث: أن يكون المراد به كفار قريش.

٢. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ كما قال الأشهب بن رميلة:

تعدون عقر الناب أفضل مجدكم — بني ظوطراً لولا الكمي المقنعا

يعني هلا تعدون الكمي المقنعا.

٣. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ يعني اليهود.

٤. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يعني محمداً ﷺ أرسله بدين الحق بشيراً بالجنة لمن أطاع ونذيراً بالنار لمن عصى.

٥. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي لا تؤاخذ بأعمالهم ولا بكفرهم بعد البشرى والإنذار وقرئ (ولا تَسْل) بفتح التاء وجزم اللام.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ ثلاثة أقاويل:

أ. أحدها: أنهم النصارى، وهو قول مجاهد.

ب. الثاني: أنهم اليهود، وهو قول ابن عباس.

ج. الثالث: أنهم مشركو العرب، وهو قول قتادة والسدي.

٢. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ يعني هلّا يكلمنا الله، كقول الأشهب بن رملية:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم — بني ضوطرى لولا الكمي

بمعنى هل لا تعدون الكمي المقنعا.

---

(١) تفسير الماوردي: ١/ ١٨٠.

٣. في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنهم اليهود، وهو قول مجاهد.

ب. الثاني: أنهم اليهود والنصارى، وهو قول قتادة.

٤. قوله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني في الكفر، وفيه وجهان:

أ. أحدهما: تشابهت قلوب اليهود لقلوب النصارى، وهذا قول مجاهد.

ب. الثاني: تشابهت قلوب مشركي العرب لقلوب اليهود والنصارى، وهذا قول قتادة.

٥. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يعني محمدا أرسله بدين الحق، ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يعني بشيرا بالجنة لمن أطاع، ونذيرا بالنار لمن عصى.

٦. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي لا تكون مؤاخذا بكفرة من كفر بعد البشرى والإنذار، وقرأ بعض أهل المدينة: ولا تسل عن أصحاب الجحيم، بفتح التاء وجزم اللام، وذكر أن سبب نزولها، ما رواه موسى بن عبيد عن محمد بن كعب القرظي قال قال رسول الله ﷺ: (ليت شعري ما فعل أبواي)، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[1].

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

آية ١١٨]

١. اختلف في المعني بهذه الآية:

أ. في قول مجاهد: النصارى، وقول ابن عباس: اليهود.

ب. في قول الحسن وقتادة: مشركوا العرب.

٢. كل ذلك يحتمل، غير انه لمشركي العرب أليق، لأنه يشاكل ما طلبوا حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الى قوله: ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ويقوي ذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: الكتاب، فبين أنهم ليسوا أهل كتاب، ومن اختار ان المراد بها النصارى قال لأنه قال

---

(١) هذا الحديث مكذوب ومعارض للقرآن الكريم.

(٢) تفسير الطوسي: ١/ ٤٣٥.

قبلها: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾، وهذا لا دلالة فيه، ولا يمتنع ان يذكر قوماً، ويخبر عنهم، ثم يستأنف قوماً آخرين، فيخبر عنهم على ان مشركي العرب قد أضافوا الى الله البنات فدخلوا في جملة من قال: ﴿اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾

٣. معنى قوله: ﴿لَوْلَا﴾ هلّا، كما قال الأشهب بن رميلة:

تعدّون عقر النيب أفضل مجدكم   بنى ضو طرى لولا الكمي

أي هلّا تعقرون الكمي المقنعا.

٤. إنما قال: ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ وقد جاءتهم الآيات، لأنهم طلبوا آية، كما ان آية الرسل توافق دعوتهم، ويكلمهم الله كما كلمهم الله.

٥. المعني بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾:

أ. اليهود على قول مجاهد.

ب. وعلى قول قتادة والسدي والربيع: اليهود والنصارى.

٦. الضمير في قوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾:

أ. يعني كناية عن قلوب اليهود والنصارى ـ على قول مجاهد ـ

ب. وعلى قول الربيع وقتادة: عن العرب واليهود والنصارى وغيرهم، فقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني في الكفر، بالاعتراض على أنبياء الله بالجهل، لان اليهود قالت لموسى: ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾ وقالت النصارى للمسيح: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾، وقالت العرب لمحمد ﷺ: حول لنا الصفا ذهباً، وغير ذلك.

٧. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ معناه أيقن بها قوم من حيث دلتهم على الحق، فالواجب على كل هؤلاء ان يستدلوا بها، ليصلوا الى اليقين كما وصل غيرهم اليه بها.

٨. اليقين والعلم والمعرفة نظائر في اللغة، ونقيضه الشك، والجهل، تقول أيقن ايقاناً، وتيقن تيقنا، واستيقن استيقانا، وقال صاحب العين: اليقين النفس، قال الشاعر:

وما بالذي أبصرته العيو   ن من قطع يأس ولا من يقن

واليقين: علم يثلج به الصدر، ولذا يقولون: أجد برد اليقين، ولا يقولون: وجد برد العلم.

٩. سؤال وإشكال: لم لم يؤتوا الآيات التي طلبوها، لتكون الحجة أآكد، والجواب: اظهار الآيات يعتبر فيه المصالح، وليس بموقوف على اقتراح العباد، ولو علم الله ان ما اقترحوا من الآيات فيه مصلحة، لأظهرها، فلما لم يظهرها، علمنا انه لم يكن فيها مصلحة لنا أصلا.

١٠. معنى قوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ تسلية للنبي ﷺ فقيل له: ﴿انما انت بشير ونذير}، ولست ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ومثله قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ وقوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ وقوله ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾

١١. الجحيم النار بعينها إذا شبت وقودها، قال امية بن أبي الصلت:

إذا شبت جهنم ثم زادت ... واعرض عن قوابسها الجحيم

فصار كالعلم على جهنم، وقال صاحب العين: الجحيم: النار الشديدة التأجج، والالتهاب كما أججوا نار ابراهيم، وهي تجحم جحوما يعني توقدت جمرتها وجاحم الحرب: شدة القتل في معركتها، وقال سعيد بن مالك بن ضبيعة.

والحرب لا يبقى لجا حمها ... إلا الفتى الصبار في النجدات

والجحمة: العين بلغة حمير قال الشاعر:

أيا جحمتا بكي على أم مالك ... اكيلة قلوب بأعلى المذانب

وجحمتا الأسد: عيناه، وتقول: جحمت النار جحماً: إذا اضطرمت، وجمر جاحم: إذا اشتد اشتعاله، ومنه اشتقاق الجحيم، وأصل الباب الالتهاب، ومنه الاجحم: الشديد حمرة العين شبه بالنهار في حمرتها، والحرب تشبه بالتهاب النار.

١٢. في الآية الكريمة دلالة على انه لا يؤخذ احد بذنب غيره قريبا كان منه أو بعيداً، كما بين الله انه لا يطالب احد بذلك غيره، وان كان قد فرض على النبي ﷺ ان يدعو الى الحق، ويزجر عن الباطل، وليس عليه ان يقبل المدعو.

١٣. من قرأ بلفظ النهي، قال الزجاج: يحتمل أمرين:

أ. أحدهما: ان يكون أمره بترك المسألة.

ب. الآخر ـ ما قاله الأخفش: ان يكون المعنى على تفخيم ما أعد لهم من العقاب، كما يقال لا تسأل

عن فلان أي قد صار الى امر عظيم:

• وقال قوم: لو كان على النهي: لقال فلا (بالفاء)، لأنه يصير بمنزلة الجواب كأنه يدل على لأنا أرسلناك إلا بالحق ولا تسأل عن اصحاب الجحيم، ولا يحتاج بالرفع الى الفاء، وإذا كان على الرفع فظاهر الكلام الاول يقتضيه اقتضاء الأحوال، أو اقتضاء البيان الذي يجري مجرى الحجاج على من اعترض بان فعل الداعي الى الايمان لا يحل موقعه الا بان يقبل المدعو اليه، واما إيصاله بها تقدم على الجزم، فإنما هو على معنى التغليظ لشان الجحيم، ليزجر بذلك عن ترك اتباعه ﷺ والتصديق بما اتى به من البشارة.

• قال أبو علي الفارسي إنما تلزم الفاء إذا كان الكلام الاول علة فيما بعد ذلك، كقولك أعطيك فرسا فلا تسأل شيئاً اخراً والآية بخلاف ذلك، وفي الناس من قال القراءة بالجزم مردودة، لأنه لم يتوجه له اتصال الكلام، ولا كيف جاء بالواو دون الفاء، وقد بينا الاتصال، أما المجيء بالواو فلأنه لم يرد الدلالة على معنى الجواب، ولكن عطف جملة على جملة تتعلق بها وتقتضي على ما انطوى عليه معناها.

١٤. اختلف في معنى الحق في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾:

قيل: الإسلام، بشيرا من اتبعك عليه بالثواب نذيرا من خالفك فيه بالعقاب.

وقيل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني على الحق، كما قال: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كأنه قال على انهما حق لا باطل.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. اليقين والعلم والمعرفة نظائر، ونقيضه الجهل.

ب. الآية: العلامة والحجة.

ج. الجحيم: النار الشديدة التأجج والالتهاب، ومنه اشتقاق الجحيم، وهو نار جهنم.

٢. لما بَيَّنَ تعالى من حالهم إنكار التوحيد، والاحتجاج عليهم، عقبه بذكر خلافهم في النبوات مبينًا

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٦٧.

أنهم يسلكون سبيل التعنت والعناد، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. قيل: النصارى، عن مجاهد.

ب. وقيل: اليهود، عن ابن عباس.

ج. وقيل: مشركو العرب، عن الحسن وقتادة والأصم وأبي علي، وهو الأقرب؛ لأنهم الَّذِينَ سألوا المحالات، ولم يقتصروا على ما ظهر من المعجزات: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآيات إلى آخرها، ولأنه وصفهم بأنهم لا يعلمون، وأهل الكتاب أهل علم.

د. وقيل: سائر الكفار الَّذِينَ كانوا في عصر النبي ﷺ.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. قيل: التوحيد والدين والكتاب، عن أبي علي.

ب. وقيل: لا يعلمون الكتاب.

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾:

أ. قيل: يعني يكلمنا معاينة أنك نبي.

ب. وقيل: يكلمنا بكلامه كما كلم موسى وغيره من الأنبياء.

٥. ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أي حجة ومعجزة توافق دعوتنا ومرادنا، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾:

أ. قيل: هم اليهود، عن مجاهد.

ب. وقيل: اليهود والنصارى وغيرهم، عن قتادة والسدي والربيع.

ج. وقيل: سائر الكفار الَّذِينَ كانوا قبل الإسلام، عن أبي مسلم.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾:

أ. قيل: في الكفر والإعراض عن الأنبياء والبعث، كقول اليهود لموسى: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ وقول النصارى لعيسى: ﴿يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وقول العرب لمحمد ﷺ: حول لنا الصفا ذهبًا.

ب. وقيل: بالكفر.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿قُلُوبِهِمْ﴾:

أ. قيل: قلوب النصارى واليهود، عن مجاهد.

ب. وقيل: العرب واليهود والنصارى، عن قتادة والربيع.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ يعني الحجج والمعجزات التي يعلم بها صحة نبوتة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قيل: أيقن به قوم حيث تدبروا، فدلهم على الحق، فالواجب على هَؤُلَاءِ أيضًا أن يستدلوا.

٨. سؤال وإشكال: لِمَ لم يؤتوا ما طلبوا فيكون آكد بالحجة؟ والجواب: لأن المصالح لا تقف على اختيار العباد، بل يختارون المفسدة، وهو تعالى العالم بالمصالح، فَيُظْهِرُ ما يكون لطفًا وصلاحًا، ولا يُظْهِرُ ما يكون بخلافه.

٩. قرأ نافع ويعقوب: ﴿تُسْأَلْ﴾ بالجزم، وفتح التاء على النهي والباقون برفع التاء واللام على الخبر، فأما قراءة نافع فتحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أن يكون الله تعالى أمره بترك المسألة.

ب. الثاني: أن يكون على تفخيم ما أعد لهم من العقاب، كما يقال: لا تسأل عن فلان، قد صار إلى أعظم ما ترى.

١٠. القراءة الثانية على معنى أنه غير مسؤول عنهم.

١١. قيل في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ليت شعري ما فعل أبواي} فنزلت الآية: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، عن ابن عباس ومحمد بن كعب، وهذا الخبر من أخبار الآحاد، ويبعد أن يصح ذلك عن ابن عباس.

١٢. لما تقدم ذكر تكذيبهم له وسؤالهم على طريق التعنت، ورد عليهم، بين في هذه الآية أنه أيده بالحجج، وبعثه بالحق، فإذا لم يؤمنوا مع هذا فَوَبَالُهُ عليهم، ولا تسأل عن أفعالهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾

١٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾:

أ. قيل: بالإسلام، عن الأصم.

ب. وقيل: بالقرآن، عن ابن عباس.

ج. وقيل: بالصدق.

د. وقيل: على الحق بعثناه، على أنه حق.

﴿بَشِيرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي مخوفًا للكافرين بالنار.

١٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾:

أ. قيل: أي لا تسأل عن أحوالهم، وفيه تسلية له، أي: أنت هاد، وليس عليكَ قبولهم، ونظيره: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾

ب. وقيل: لا تُؤَاخَذُ بذنبهم، كقوله: ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾

ج. وقيل: معناه لا تنظر إلى المطيع والعاصي في الحال والوقت، فإن الحال قد يتغير، فهو غيب لا تسأل عنه، ذكره القاضي.

١٥. تدل الآيات الكريمة على:

أ. أن الاقتراح على الأنبياء بالمعجزات لا يجوز.

ب. صحة الحجاج في الدين؛ لأن الآيات تطلب لذلك.

ج. بطلان قول أصحاب المعارف؛ لأنه أَثْبت قَوْمًا تَعْلَمُ، وعندهم الجميع سواء في ذلك، ولأنه أثبت قوما لا تعلم.

• تعليق الثواب والعقاب بالحق المذكور، ولا يكون كذلك إلا بأن تبشر بالثواب من تمسك به، وتنذر بالعقاب من زاغ عنه.

• في قوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ تسلية له؛ لئلا يشتد حزنه بمن زاغ عنه.

د. أن أحدًا لا يؤاخذ بذنب غيره.

١٦. موضع ﴿تُسْأَلُ﴾ من الإعراب فيه قولان:

• أحدهما: أن يكون استئنافًا، فلا يكون له موضع.

• والآخر أن يكون حالاً، فيكون موضعه نصبًا، كأنه قيل: أرسلناك غير مسؤول عن أصحاب الجحيم.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. اليقين، والعلم، والمعرفة، نظائر في اللغة، ونقيضه الشك والجهل، وأيقن، وتيقن، واستيقن، بمعنى، وقال صاحب العين: اليقن اليقين قال:

وما بالذي أبصرته العيون ... من قطع يأس، ولا من يقن

فاليقين: علم يثلج به الصدر، ولذلك يقال: وجدت برد اليقين، ولا يقال: وجدت برد العلم!

ب. الجحيم: النار بعينها إذا شب وقودها وصار كالعلم على جهنم، كقول أمية بن أبي الصلت:

إذا شبت جهنم، ثم زادت ... وأعرض عن قوابسها الجحيم

وجحمت النار تجحم جحما: إذا اضطرمت، والجحمة: العين بلغة حمير قال:

أيا جحمتي بكي على أم واهب ... قتيلة قلوب بإحدى المذانب

وجحمتا الأسد: عيناه، وجاحم الحرب: شدة القتل في معركتها، قال سعد بن مالك بن ضبيعة:

والحرب لا يبقى لجا ... حمها التخيل والمراح

إلا الفتى الصبار في ... النجدات والفرس الوقاح

٢. لما بين سبحانه حالهم في إنكارهم التوحيد، وادعائهم عليه اتخاذ الأولاد، عقبه بذكر خلافهم في النبوات، وسلوكهم في ذلك طريق التعنت والعناد، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. وهم النصارى، عن مجاهد.

ب. واليهود، عن ابن عباس.

ج. ومشركو العرب، عن الحسن، وقتادة، وهو الأقرب:

• لأنهم الذين سألوا المحالات، ولم يقتصروا على ما ظهر واتضح من المعجزات، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآيات إلى آخرها، ولأنه وصفهم بأنهم لا يعلمون، فبين أنهم ليسوا من أهل الكتاب.

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٧٠.

• ومن قال المراد به النصارى، قال: لأنه قال قبلها: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾ وهم الذين قالوا المسيح ابن الله.. وهذا لا دلالة فيه، لأنه يجوز أن يذكر قوما، ثم يستأنف فيخبر عن قوم آخرين.

• على أن مشركي العرب قد أضافوا أيضا إلى الله سبحانه البنات، فدخلوا في جملة من قال: ﴿اتَّخَذَ الله وَلَدًا﴾

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا الله﴾:

أ. قيل: أي: هلا يكلمنا معاينة فيخبرنا بأنك نبي.

ب. وقيل: معناه هلا يكلمنا بكلامه، كما كلم موسى وغيره من الأنبياء.

٤. ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أي: تأتينا آية موافقة لدعوتنا، كما جاءت الأنبياء آيات موافقة لدعوتهم، ولم يرد أنه لم تأتهم آية، لأنه قد جاءتهم الآيات والمعجزات.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾:

أ. قيل: هم اليهود حيث اقترحوا الآيات على موسى، عن مجاهد، لأنه حمل قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على النصارى.

ب. وقيل: هم اليهود والنصارى جميعا، عن قتادة، والسدي.

ج. وقيل: سائر الكفار الذين كانوا قبل الاسلام، عن أبي مسلم.

٦. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أشبه بعضها بعضا في الكفر، والقسوة، والاعتراض على الأنبياء من غير حجة، والتعنت والعناد، كقول اليهود لموسى: ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾، وقول النصارى للمسيح: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾، وقول العرب لنبينا ﷺ: حول لنا الصفا ذهبا، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾

٧. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ يعني الحجج والمعجزات التي يعلم بها صحة نبوة محمد ﷺ: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: يستدلون بها من الوجه الذي يجب الاستدلال به، فأيقنوا لذلك، فكذلك فاستدلوا أنتم حتى توقنوا كما أيقن أولئك، والمعنى فيه: إن فيما ظهر من الآيات الباهرات الدالة على صدقه كفاية لمن ترك التعنت والعناد.

٨. سؤال وإشكال: لم يؤتوا الآيات التي اقترحوها لتكون الحجة عليهم آكد؟ والجواب: الاعتبار

في ذلك بالمصالح، ولو علم الله سبحانه أن في إظهار ما اقترحوه من الآيات مصلحة، لأظهرها، فلما لم يظهرها، علمنا أنه لم يكن في إظهارها مصلحة.

٩. بين الله سبحانه في هذه الآية تأييده نبيه محمد ﷺ بالحجج، وبعثه بالحق، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾:

أ. قيل: بالقرآن، عن ابن عباس.

ب. وقيل: بالإسلام عن الأصم.

ج. وقيل: على الحق أي: بعثناك على الحق، كقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: على أنهما حق لا باطل.

١٠. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيرا من اتبعك بالثواب، ونذيرا من خالفك بالعقاب.

١١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾:

أ. قيل: أي: لا تسأل عن أحوالهم، وفيه تسلية للنبي ﷺ إذ قيل له: إنما أنت بشير ونذير، ولست تسأل عن أهل الجحيم، وليس عليك إجبارهم على القبول منك، ومثله قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾

ب. وقيل: معناه لا تؤاخذ بذنبهم كقوله سبحانه: ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: فعليه الإبلاغ، وعليكم القبول.

١٢. مسائل نحوية:

أ. ﴿لَوْلَا﴾: بمعنى هلا، ولا تدخل إلا على الفعل، ومعناها التحضيض قال:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم ... بني ضوطرى، لولا الكمي

أي: هلا تعقرون الكمي المقنع.

ب. والكاف في: ﴿كَذَلِكَ﴾ تتعلق بقال، والجار والمجرور في موضع نصب على المصدر أي: كقولهم.

ج. الرفع في ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ يحتمل وجهين:

• أحدهما: أن يكون حالا، فيكون مثل ما عطف عليه من قوله بشيرا ونذيرا أي: وغير مسؤول،

ويكون ذكر الجملة بعد المفرد الذي هو قوله: ﴿بَشِيرًا﴾ كما ذكر الجملة في قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ بعدما تقدم من المفرد، وكذلك قوله: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، وهو هنا يجري مجرى الجملة.

• والآخر: أن يكون منقطعا عن الأول، مستأنفا به، كأنه قيل ولست تسأل عن أصحاب الجحيم.

د. قراءة نافع: ﴿وَلَا تسْأَل﴾ بالجزم فيها قولان:

• أحدهما: أن يكون على النهي عن المسألة.

• والآخر: أن يكون النهي لفظا، والمعنى على تفخيم ما أعد لهم من العقاب، كقول القائل: لا تسأل عن حال فلان أي: قد صار إلى أكثر مما تريده.

هـ. (سأل) يتعدى إلى مفعولين مثل أعطيت، قال الشاعر:

سألتاني الطلاق إذ رأتاني ... قل مالي قد جئتماني بنكر

ويجوز أن يقتصر فيه على مفعول واحد، ثم يكون على ضربين:

• أحدهما: أن يتعدى بغير حرف كقوله: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾

• والآخر: أن يتعدى بحرف كقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ وقولهم: سألت عن زيد.

و. إذا تعدى (سأل) إلى مفعولين كان على ثلاثة أضرب:

• أحدها: أن يكون بمنزلة أعطيت، كقوله: سألت عمرا بعد بكر حقا، فمعنى هذا استعطيته أي: سألته أن يفعل ذلك.

• والآخر: أن يكون بمنزلة اخترت الرجال زيدا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأل حميم عن حميمه.

• والثالث: أن يتعدى إلى مفعولين، فيقع موقع المفعول الثاني منهما استفهام، وذلك كقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ﴾، ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: النّصارى، قاله مجاهد.

ج. الثالث: مشركو العرب، قاله قتادة، والسّدّيّ عن أشياخه.

٢. ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى: هلّا.

٣. في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنهم اليهود، قاله ابن عباس، ومجاهد.

ب. الثاني: اليهود والنّصارى، قاله السّدّيّ عن أشياخه.

ج. الثالث: اليهود والنّصارى وغيرهم من الكفّار، قاله قتادة.

٤. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: في الكفر.

٥. في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ قولان:

أحدهما: أنّ النبيّ ﷺ قال يوما: (ليت شعري ما فعل أبواي!)، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس[٢].

الثاني: أنّ النبيّ ﷺ قال: (لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا) فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل[٣].

٦. في المراد: ﴿بِالْحَقِّ﴾ هاهنا ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنه القرآن، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: الإسلام، قاله ابن كيسان.

ج. الثالث: الصّدق.

٧. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾:

---

(١) زاد المسير: ١/١٠٦.

(٢) هذا الحديث مكذوب ومعارض للقرآن الكريم.

(٣) هذا الحديث مكذوب ومعارض للقرآن الكريم.

أ. قرأه الأكثرون بضمّ التاء، على الخبر، والمعنى: لست بمسؤول عن أعمالهم.

ب. وقرأ نافع ويعقوب بفتح التاء وسكون اللام، على السّؤال عنهم، وجوّز أبو الحسن الأخفش أن يكون معنى هذه القراءة: لا تسأل عنهم فإنهم في أمر عظيم، فيكون ذلك على وجه التّعظيم لما هم فيه.

٨. الجحيم: فقال الفرّاء: النّار على النّار والجمر على الجمر، وقال أبو عبيدة: الجحيم: النار المستحكمة المسلّطة، وقال الزّجّاج: الجحيم: النّار الشديدة الوقود، وقد جحم فلان النار: إذا شدّد وقودها، ويقال لعين الأسد: جحمة لشدّة توقّدها، ويقال لوقود الحرب، وهو شدّة القتال فيها: جاحم، وقال ابن فارس: الجاحم: المكان الشّديد الحرّ، قال الأعشى:

يعدّون للهيجاء قبل لقائها غداة احتضار البأس والموت

ولذلك سمّيت الجحيم، وقال ابن الأنباريّ: قال أحمد بن عبيد: إنما سمّيت النّار جحيما، لأنها أكثر وقودها، من قول العرب: جحمت النار أجحمها: إذا أكثرت لها الوقود، قال عمران بن حطّان:

يرى طاعة الله الهدى وخلافه الضّلالة يصلي أهلها جاحم

الرّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تقرير هذه الشبهة التي تمسكوا بها أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء فلا بد وأن يختار أقرب الطرق المفضية إليه وأبعدها عن الشكوك والشبهات، إذا ثبت هذا نقول: إن الله تعالى يكلم الملائكة وكلم موسى وأنت تقول: يا محمد، إنه كلمك والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ١٠] فلم لا يكلمنا مشافهة ولا ينص على نبوتك حتى يتأكد الاعتقاد وتزول الشبهة وأيضاً، فإن كان تعالى لا يفعل ذلك فلم لا يخصك بآية ومعجزة، وهذا منهم طعن في كون القرآن آية ومعجزة، لأنهم لو أقروا بكونه معجزة لاستحال أن يقولوا: هلا يأتينا بآية.

٢. ثم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وحاصل هذا الجواب أنا قد أيدنا قول محمد ﷺ بالمعجزات، وبينا

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٤/ ٢٨.

صحة قوله بالآيات وهي القرآن وسائر المعجزات، فكان طلب هذه الزوائد من باب التعنت وإذا كان كذلك لم يجب إجابتها لوجوه:

أ. الأول: أنه إذا حصلت الدلالة الواحدة فقد تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب، فلو كان غرضه طلب الحق لاكتفى بتلك الدلالة، فحيث لم يكتف بها وطلب الزائد عليها علمنا أن ذلك للطلب من باب العناد واللجاج، فلم تكن إجابتها واجبة ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١] فبكتهم بما في القرآن من الدلالة الشافية.

ب. ثانيها: لو كان في معلوم الله تعالى أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآية لفعلها، ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لما ازدادوا إلا لجاجاً فلا جرم لم يفعل ذلك ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]

ج. ثالثها: إنما حصل في تلك الآيات أنواع من المفاسد وربما أوجب حصولها هلاكهم واستئصالهم إن استمروا بعد ذلك على التكذيب وربما كان بعضها منتهياً إلى حد الإلجاء المخل بالتكليف، وربما كانت كثرتها وتعاقبها يقدح في كونها معجزة، لأن الخوارق متى توالت صار انخراق العادة عادة، فحينئذ يخرج عن كونه معجزاً وكل ذلك أمور لا يعلمها إلا الله علام الغيوب فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح في النبوة.

٣. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني أن المكذبين للرسل تتشابه أقوالهم وأفعالهم، فكما أن قوم موسى كانوا أبداً في التعنت واقتراح الأباطيل، كقولهم: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] وقولهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧] وقولهم: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فكذلك هؤلاء المشركون يكونون أبداً في العناد واللجاج وطلب الباطل.

٤. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المراد أن القرآن وغيره من المعجزات كمجيء الشجرة وكلام الذئب، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، آيات قاهرة، ومعجزات باهرة لمن كان طالباً لليقين.

٥. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ لما أصر القوم على العناد واللجاج الباطل واقترحوا المعجزات على سبيل التعنت بيّن الله تعالى لرسوله ﷺ أنه لا مزيد على ما فعله

في مصالح دينهم من إظهار الأدلة وكما بين ذلك بين أنه لا مزيد على ما فعله الرسول في باب الإبلاغ والتنبيه لكي لا يكثر غمه بسبب إصرارهم على كفرهم.

٦. في قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ وجوه:

أ. أحدها: أنه متعلق بالإرسال، أي أرسلناك إرسالًا بالحق.

ب. ثانيها: أنه متعلق بالبشير والنذير أي أنت مبشر بالحق ومنذر به.

ج. ثالثها: أن يكون المراد من الحق الدين والقرآن، أي أرسلناك بالقرآن حال كونه بشيراً لمن أطاع الله بالثواب ونذيراً لمن كفر بالعقاب.

٧. الأولى أن يكون البشير والنذير صفة للرسول ﷺ فكأنه تعالى قال إنا أرسلناك يا محمد بالحق لتكون مبشراً لمن اتبعك واهتدى بدينك ومنذراً لمن كفر بك وضل عن دينك.

٨. في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ وجوه:

أ. أحدها: أن مصيرهم إلى الجحيم فمعصيتهم لا تضرك ولست بمسؤول عن ذلك، وهو كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤]

ب. الثاني: أنك هاد وليس لك من الأمر شيء، فلا تأسف ولا تغتم لكفرهم ومصيرهم إلى العذاب ونظيره قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]

ج. الثالث: لا تنظر إلى المطيع والعاصي في الوقت، فإن الحال قد يتغير فهو غيب فلا تسأل عنه، وفي الآية دلالة على أن أحداً لا يسأل عن ذنب غيره ولا يؤاخذ بما اجترمه سواء كان قريباً أو كان بعيداً.

٩. قرأ نافع ويعقوب بفتح التاء وسكون اللام، على السّؤال عنهم، وفيها وجهان، الأول:

أ. الأول: روي أنه ﷺ قال ليت شعري ما فعل أبواي؟ فنهي عن السؤال عن الكفرة وهذه الرواية بعيدة لأنه ﷺ كان عالماً بكفرهم[1]، وكان عالماً بأن الكافر معذب، فمع هذا العلم كيف يمكن أن يقول:

---

(١) هذا مستغرب منه، وهو غير صحيح.

ليت شعري ما فعل أبواي.

ب. الثاني: معنى هذا النهي تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما إذا سألت عن إنسان واقع في بلية فيقال لك: لا تسأل عنه، ووجه التعظيم أن المسؤول يجزع أن يجرى على لسانه ما هو فيه لفظاعته فلا تسأله ولا تكلفه ما يضجره، أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره، فلا تسأل، والقراءة الأولى يعضدها قراءة أبي: وما تسأل وقراءة عبد الله ولن تسأل.

١٠. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ هذا هو النوع الحادي عشر من قبائح اليهود والنصارى والمشركين، ذلك أن الله تعالى لما حكى عن اليهود والنصارى والمشركين ما يقدح في التوحيد وهو أنه تعالى اتخذ الولد، حكى الآن عنهم ما يقدح في النبوة، وقال أكثر المفسرين؛ هؤلاء هم مشركو العرب والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] وقالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] هذا قول أكثر المفسرين، إلا أنه ثبت أن أهل الكتاب سألوا ذلك، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣]

١١. سؤال وإشكال: الدليل على أن المراد مشركو العرب أنه تعالى وصفهم بأنهم لا يعلمون، وأهل الكتاب أهل العلم، والجواب: المراد أنهم لا يعلمون التوحيد والنبوة كما ينبغي، وأهل الكتاب كانوا كذلك.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عباس: هم اليهود، مجاهد: النصارى، ورجحه الطبري، لأنهم المذكورون في الآية أولا، وقال الربيع والسدي وقتادة: مشركو العرب.

٢. ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى (هلا) تحضيض، كما قال الأشهب بن رميلة:

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٩٢.

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم   بني ضوطرى لولا الكمي

وليست هذه (لولا) التي تعطي منع الشيء لوجود غيره، والفرق بينهما عند علماء اللسان أن (لولا) بمعنى التحضيض لا يليها إلا الفعل مظهرا أو مقدرا، والتي للامتناع يليها الابتداء، وجرت العادة بحذف الخبر، ومعنى الكلام هلا يكلمنا الله بنبوة محمد ﷺ فنعلم أنه نبي فنؤمن به، أو يأتينا بآية تكون علامة على نبوته.

٣. ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ اليهود والنصارى في قول من جعل: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كفار العرب، أو الأمم السالفة في قول من جعل: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اليهود والنصارى، أو اليهود في قول من جعل: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النصارى.

٤. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قيل: في التعنيت والاقتراح وترك الايمان، وقال الفراء: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في اتفاقهم على الكفر.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾:

أ. قال مقاتل: إن النبي ﷺ قال: (لو أنزل الله بأسه باليهود لأمنوا)، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ برفع تسأل، وهي قراءة الجمهور، ويكون في موضع الحال بعطفه على: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، والمعنى إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير مسئول.

ب. وقال سعيد الأخفش: ولا تسأل (بفتح التاء وضم اللام)، ويكون في موضع الحال عطفا على: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، والمعنى: إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير سائل عنهم، لان علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم، هذا معنى غير سائل، ومعنى غير مسئول لا يكون مؤاخذا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار.

ج. وقال ابن عباس ومحمد بن كعب: إن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: (ليت شعري ما فعل أبواي)، فنزلت هذه الآية.

٦. هذا على قراءة من قرأ (ولا تَسأل) جزما على النهي، وهي قراءة نافع وحده، وفيه وجهان:

أ. أحدهما: أنه نهى عن السؤال عمن عصى وكفر من الأحياء، لأنه قد يتغير حاله فينتقل عن الكفر إلى الايمان، وعن المعصية إلى الطاعة.

ب. الثاني:وهو الأظهر، أنه نهى عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته، تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه، وهذا كما يقال: لا تسأل عن فلان! أي قد بلغ فوق ما تحسب.

٧. قرأ ابن مسعود (ولن تسأل)، وقرا أبي (وما تسأل)، ومعناهما موافق لقراءة الجمهور، نفى أن يكون مسئولا عنهم، وقيل: إنما سأل أي أبويه أحدث موتا، فنزلت، وقد ذكرنا في كتاب (التذكرة) أن الله تعالى أحيا له أباه وأمه وآمنا به، وذكرنا قوله ﷺ للرجل: (إن أبى وأباك في النار) وبينا ذلك، والحمد لله.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. المراد بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اليهود، وقيل: النصارى، ورجّحه ابن جرير، لأنهم المذكورون في الآية، وقيل: مشركو العرب.

٢. ﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض، أي: هلّا: ﴿يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ بنبوّة محمد فنعلم أنه نبيّ ﴿أَوْ تَأْتِينَا﴾ بذلك علامة على نبوّته.

٣. المراد بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قيل: هم اليهود والنصارى؛ في قول من جعل الذين لا يعلمون: كفار العرب، أو الأمم السالفة، في قول من جعل: الذين لا يعلمون: اليهود والنصارى، أو اليهود، في قول من جعل: الذين لا يعلمون: النصارى.

٤. ﴿تَشَابَهَتْ﴾ أي في التعنت والاقتراح، وقال الفرّاء: ﴿تَشَابَهَتْ﴾ في اتفاقهم على الكفر.

٥. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: يعترفون بالحق، وينصفون في القول، ويذعنون لأوامر الله سبحانه، لكونهم مصدقين له سبحانه، مؤمنين بآياته، متبعين لما شرعه لهم.

٦. قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يحتمل أن يكون منصوبا على الحال، ويحتمل أن يكون مفعولا له، أي: أرسلناك لأجل التبشير والإنذار.

٧. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ قرأه الجمهور بالرفع مبنيا للمجهول، أي: حال كونك غير مسؤول، وقرئ بالرفع مبنيا للمعلوم، قال الأخفش: ويكون في موضع الحال عطفا على: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: حال

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/ ١٥٧.

كونك غير سائل عنهم، لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم، وقرأ نافع: ﴿وَلَا تَسْأَلْ﴾ بالجزم: أي لا يصدر منك السؤال عن هؤلاء، أو لا يصدر منك السؤال عمن مات منهم على كفره ومعصيته تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه، أي: أن هذا أمر فظيع وخطب شنيع، يتعاظم المتكلم أن يجريه على لسانه، أو يتعاظم السامع أن يسمعه.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَقَالَ﴾ عطف على (قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ)، أو على ما عطف عليه، وذلك قدح في التوحيد، وهذا قدح في النبوءة، ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مشركو العرب من مكَّة ومن غيرها، أو مع اليهود والنَّصارى وغيرهم، وقيل: المراد اليهود على عهد رسول الله ﷺ، لِمَا رَوَى ابن عبَّاس أنَّ رافع بن خزيمة اليهوديَّ قال لرسول الله ﷺ: إنْ كنت رسول الله تعالى فقل له: يكلِّمنا حتى نسمع كلامه، فنزلت هذه الآية وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٥٣]، وقيل: النصارى، وأنَّهم المرادون في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ المذكورون في الآية، وهو ضعيف.

٢. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ جهرة أو بإنزال الوحي إلينا ﴿أَوْ تَاتِينَآ ءَايَةٌ﴾ على صدقك، كتصيير الصفا ذهبًا، وإفساح الجبال عن مكَّة، وبعث قُصيٍّ، وأنْ يأتي بالله والملائكة قبيلاً، ونحو ذلك ممَّا مرَّ مثل: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَآئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، ﴿كَذَالِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية لأنبيائهم تعنُّتًا، ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ كما قالوا: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُّنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢].

٣. وليس مِن طلب الآيات: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] و﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨] بل مجرَّد عناد وفساد، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء وأولئك في الكفر والعناد، فلا يشتدُّ حزنك يا محمَّد إذ قيل لك ما قيل لمن قبلك.

٤. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُّوقِنُونَ﴾ بأنَّها آيات توجب الإيمان، أي: نزَّلناها بيِّنة من أوَّل الأمر، لا غير مبيَّنة ثم بيَّناها، وهذا كقولك: (وسِّع فم البئر) و(أدِرْ جيب القميص) و(سبحان من صغَّر البعوض).

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/٢٠٧.

٥. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمَّد ﴿بِالْحَقِّ﴾ مع الحقِّ وهو دين الإسلام، أو لأجل إقامته، ﴿بَشِيرًا﴾ لمن اتَّبعه بالجنَّة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن خالفه بالنار، ولم نرسلك لتُجْبِر عليه، إنْ أنت إلَّا بشير ونذير، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿وَلَا تَسْئَلُ عَنَ اَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ النار الملتهبة، وأصحابها: اليهودُ والنصارى ومشركو العرب، وسائر المشركين، لا تسأل عنهم فإنَّ عقابهم لا يسعه إخبارك به، ولا يحتمله فهمك، فلا فائدة في السؤال عنه، والله قادر على الإخبار به ولكن لا يمكنك الاِطِّلاع عليه في الدنيا، فتسلَّ بشناعته عن ضرِّهم لك، ولا تسأل عنهم سؤال تحسُّر: لِمَ لَمْ يؤمنوا؟ مع وضوح الدلائل.

٦. عن ابن عبَّاس أنَّه ﷺ سأل اللهَ عن أبويه فنزلت نهيًا عن السؤال عن الكفرة عمومًا، وإنَّما سأل عن خفَّة عذابهما وشدَّته، أو عن حال أهل الفترة فأخبره بأنَّهم غير معذورين، وذلك قبل أنْ يحييَهما الله ويؤمنا به على ما روي ضعيفًا، وروي أنَّه سأل جبريل عن قبريهما فدلَّه عليهما فذهب إليهما فدعا لهما وتمنَّى أنْ يعرف حالهما، وقال: ليت شعري ما حالهما في الآخرة؟ فنزلت الآية، والصحيح أنَّ الآية في أهل الكتاب، أو فيهم وفي سائر المشركين لا فيهما، ولا بأس على من وقف فيهما لشبهة ما ذكروا من الأحاديث في إيمانهما إذْ كانت ضعيفة، لا للحَمِيَّة والضعفِ في الولاية والبراءة.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المشركين أو من أهل الكتاب وهو الأظهر، لأن ما تقدم، كلّه في حوارهم وردّ أضاليلهم، ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به.

٢. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى؟ استكبارا منهم وعتوا: ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ جحودا لأن يكون ما أتاهم من آيات الله، آيات، واستهانة بها: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي هذا الباطل الشنيع فقالوا: أرنا الله جهرة.. وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ بأنه كما تعنّت عليه تعنّت على من قبله.

٣. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد والتحكم على الأنبياء ﴿قَدْ

---

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٨٧.

بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي بالحق، لا تعتريهم شبهة ولا ريبة.

٤. وهذا رد لطلبهم الآية وفي تعريف الآيات وجمعها وإيراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح، مكان الإتيان الذي طلبوه، ما لا يخفى من الجزالة، والمعنى انهم اقترحوا آية فذة، ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين، وإنما لم يتعرض لرد قولهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ إيذانا بأنه من ظهور البطلان بحيث لا حاجة إلى الرد والجواب.

٥. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾ بالثواب للمؤمنين: ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعقاب للكافرين، ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ولا نسألك عنهم: ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلّغت وبلغت جهدك في دعوتهم؟ كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وفي التعبير عنهم بصاحبية الجحيم، دون الكفر والتكذيب ونحوهما، وعيد شديد لهم، وإيذان بأنهم مطبوع على قلوبهم، لا يرجى منهم الإيمان، والجحيم، من أسماء النار وتطلق على النار الشديدة التأجج، وعلى كل نار بعضها فوق بعض، وعلى كل نار عظيمة في مهواة، وعلى المكان الشديد الحر.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. انتقل السياق من الكلام في بنى إسرائيل تجاه القرآن ودعوة الإسلام ورسوله إلى الكلام في شئون المؤمنين معهم ومع النصارى والوثنيين، ومحمد عبده لا يزال يجعل السياق واحدا غير ملتفت في التناسب بين الآيات إلى هذا التفصيل لذلك المجمل، وقد قال هنا ما مثاله: الكلام لا يزال في القرآن، وما كان من أمر الناس في الايمان به وعدم الايمان ذكر في الآيات المتقدمة آنفا من شأن أهل الكتاب ما تبين به أن عدم إيمانهم بالنبي وما جاء به غير قادح فيه، ولا ينهض شبهة عليه، وأن مطاعنهم فيه متهافتة منقوضة بطعنهم في أنفسهم، وتخبطهم في أمر كتبهم، ثم انتقل إلى ذكر شبهة مشركي العرب وبين أنهم جروا فيها على الأصل المعهود من أمثالهم المشركين الذين سبقوهم بالضلال قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي الجاهلون بالكتاب والشرائع من مشركي العرب، وقال الجلال إن المراد بالذين لا يعلمون كفار مكة خاصة

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٤٤١.

ولا دليل على التخصيص ويرجح العموم كون الآية مدنية: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ كما كلم هذا الرسول مع أنه بشر مثلنا: ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ من الآيات التي اقترحناها، يعنون ما حكاه الله تعالى عنهم بمثل قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآيات.

٢. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا القول قال الكفار الذين أرسل الله اليهم الرسل من قبلهم في معناه وهو أنهم أنكروا على الرسل الاختصاص بالوحى من دونهم واقترحوا عليهم الآيات تعنتا وعنادا.

٣. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لأن الطغيان قد ساوى بينهم حتى كأنهم تواصوا بما يقولون كما قال في سورة الطور: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ويشبه هذا ما ورد من أن الكفر ملة واحدة وذلك أن الحق واحد ومخالفته هي الباطل أو الضلال وهو واحد وإن تعددت طرقه واختلفت وجوهه، وآثار الشيء الواحد الكلى تتشابه فيمن تصدر عنهم وإن اختلفت الجزئيات.

٤. التشابه هنا إنما هو في مكابرة الحق واستبعاد كون واحد من البشر رسولا يوحى إليه واقتراح الآيات تعنتا وعنادا ومثال الأخلاف في الجزئيات طلب قوم موسى رؤية الله جهرة، وطلب قوم محمد أن يرقى في السماء أمامهم فيأتيهم بكتاب يقرؤونه، والطلب الذي مصدره العناد والتعنت لا تفيد إجابته لأن صاحبه لا يقصد به معرفة الحق ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ والدليل المعقول على هذا أنه ما من نبيّ إلا وقد جاء بآية أو آيات كونية أو عقلية وكانوا مع ذلك يصفونهم بالسحر ثم يقترحون عليهم الآيات ولذلك قال تعالى بعد حكاية شبهة هؤلاء الجاهلين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي أننا لم ندعك يا محمد بغير آية بل بينا الآيات على يديك بيانا لا يدع للريب طريقا إلى نفس من يعقلها.

٥. قال تعالى: ﴿بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ ولم يقل أعطيناك الآيات للتفرقة والفصل بين آيات القرآن التي هي من علم الله وكلامه يظهر بها الحق بطريق معقول بين لا يشتبه فيه الفهم، ولا يحار فيه الذهن، وبين الآيات الكونية التي هي من صنعه يستخذى لها العقل ويخضع لها لشعوره بأنها من قوة فوق قوته، وللناس فيما يرونه فوق ما يعقلون طريقان معهودان: منهم من يسنده الى القوة الغيبية العليا سواء كان له سبب خفى في الواقع أم لا ومنهم من يسنده إلى الأسباب الخفية التي يسمونها السحر، وإن كان فوق قدرة البشر،

ولذلك ضلت الأمم في آيات الأنبياء السابقين وليس لأحد أن يضل في آيات القرآن لأنها بينة معقولة ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

٦. نعم إن الآيات العلمية لا يعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين، ولذلك قال: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قال محمد عبده: الذين يوقنون هم الذين خلصت نفوسهم من كل رأى وتقليد وتوجهوا إلى طلب الحق في الأمور الاعتقادية، وأخذوا على أنفسهم العهد أن يطلبوه بدليله وبرهانه، فهم إذا قام عندهم البرهان اعتقدوا وأيقنوا إيقانا، وإنما يتوقع اليقين من مثلهم لا من قوم يعتقدون الشيء أولا بلا دليل ولا برهان، ثم يلتمسون له الدليل لأن مقلّديهم قالوا بوجوب معرفة الدليل فإذا أصابوه موافقا لما اعتقدوا رضوا به وإن كان ظنيا، وإذا نهض لهم مخالفا لتقاليدهم رفضوه وتعللوا بالتعلات المنتحلة، وهؤلاء هم الجماهير من الناس الذين وصفوا في الأثر بأنهم أتباع كل ناعق.

٧. العبرة في خطاب الشرع بأهل اليقين الذين صفت نفوسهم، ومحصت أفكارهم، فسلموا من علة العناد والمكابرة المانعين لشعاع الحق أن ينفذ إلى العقول، ولحرارته أن تخترق الصدور إلى القلوب، هؤلاء هم أنصار الحق لأنهم بيقينهم لا يستطيعون المروق منه، ولا السكوت عن الانتصار له، ألم تر أن كبار الصحابة كانوا يراجعون النبيّ ﷺ فيما لم يظهر لهم دليله لأنهم طبعوا على معرفة الحق بالدليل، هؤلاء هم الناس الذين تنزل الشرائع لأجلهم، ولولا استعدادهم لها لما شرعت أو لما نجحت وأما سائر الناس فتبع لهم وعيال عليهم.

٨. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالشيء الثابت المتحقق الذي لا يضل من يأخذ به ولا تعبث به رياح الأباطيل والأوهام، بل يكون الآخذ به سعيدا بالطمأنينة واليقين، قال محمد عبده: إن الحق في هذا المقام يشمل العلوم الاعتقادية وغيرها فهو يقول: إنا أرسلناك بالعقائد الحق المطابقة للواقع، والشرائع الصحيحة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة.

٩. ﴿بَشِيرًا﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزى الآخرة ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم لأنك لم تبعث ملزما لهم ولا جبارا عليهم فيعدّ عدم إيمانهم تقصيرا منك تسأل عنه، بل بعثت معلما وهاديا بالبيان والدعوة، وحسن الأسوة، لا هاديا بالفعل ولا ملزما بالقوة، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ﴾

١٠. في الآية تسلية للنبي ﷺ لئلا يضيق صدره كما تدل على ذلك آيات أخرى، وفى الآية من العبرة أن الأنبياء بعثوا معلمين لا مسيطرين، ولا متصرفين في الأنفس ولا مكرهين، فاذا جاهدوا فإنما يجاهدون دفاعا عن الحق لا إكراها عليه وفيها أن الله تعالى لا يطالب الناس بأن يأخذوا عنهم إلا العلم الذي يهديهم إلى معرفة حقوق الله وحقوق العباد.

١١. في قراءة نافع ويعقوب ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ بالنهى، أي لا تسأل عما سيلاقون من الانتقام فإنه عظيم، فمثل هذا النهى مستعمل في التهويل لا في حقيقته وهو استعمال معروف بين الناس حتى اليوم.

١٢. زعم بعض المفسرين أن النهى على حقيقته وأنه خاص بنهى النبيّ ﷺ عن السؤال عن أبويه ورووا في ذلك أنه سأل جبريل عن قبريهما فدله عليهما فزارهما ودعا لهما وتمنى لو يعرف حالهما في الآخرة وقال: (ليت شعرى ما فعل أبواي) فنزلت الآية في ذلك، والحديث قال الحافظ العراقي إنه لم يقف عليه، وقال السيوطي لم يرد في ذلك إلا أثر معضل ضعيف الإسناد، قال محمد عبده: وقد فشا هذا القول ولولا ذلك لم نذكره، وإنما نريد بذكره التنبيه على أن الباطل صار يفشو في المسلمين بضعف العلم والصحيح يهجر وينسى، ولا شك أن مقام النبيّ ﷺ في معرفة أسرار الدين، وحكم الله في الأولين والآخرين، ينافى صدور مثل هذا السؤال عنه؛ كما أن أسلوب القرآن يأبى أن يكون هو المراد منه.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. كان الكلام فيما سلف في الردّ على من أنكر الوحدانية واتخذ لله شريكا ـ والكلام هنا فيمن أنكر نبوّة محمد ﷺ وطعن في الآيات التي جاء بها وتجنّى بطلب آيات أخرى تعنتا وعنادا كما جاء في نحو قوله حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ وقوله: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾

---

(١) تفسير المراغي: ١/ ٢٠٢.

٢. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المشركين، لأنه لا كتاب لهم ولا هم أتباع نبيّ من الأنبياء حتى يتجلى لهم ما يليق بمقام الألوهية، وما يصح أن يعطاه الأنبياء من الآيات.

٣. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ أي هلا يكلمنا الله بأنك رسوله حقا كما يكلم الملائكة، أو يرسل إلينا ملكا فيخبرنا بذلك، كما كلمك على هذا الوجه مع أنك بشر مثلنا.. وما مقصدهم من هذا إلا العناد والاستكبار وبيان أنه ليس بأحسن منهم حالا، فلم اختصّ بهذا الفضل من بيننا؟

٤. ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أي أو تأتينا ببرهان على صدقك في دعواك النبوة، ومرادهم بذلك ما حكاه الله عنهم بنحو قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ الآية.. وهذا منهم جحود لأن يكون ما أوتيه من القرآن وغيره من المعجزات آيات كافيات في إثبات ما ادّعى من النبوة.

٥. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي ومثل هذه الأسئلة التي يراد بها التعنت لإجلاء الحقيقة، قد قالها من قبلهم من الأمم الماضية، فقد قال اليهود لموسى: ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾، و﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ إلى نحو ذلك، وقالت النصارى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فهذه أقوال صدرت عنهم للتشه واتباع الهوى تعنّتا وعنادا لا للوصول إلى كشف غامض وجلاء حقيقة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

٦. ثم ذكر السبب في اتحاد مقالهم ومقال من سبقهم فقال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تماثلت قلوب هؤلاء وقلوب من قبلهم في العمى والقسوة والعناد، والألسنة ترجمان القلوب، والقلب إذا استحكم فيه الكفر والعمى لا يجرى على لسان صاحبه إلا ما ينبئ بالتباعد عن الإيمان من معاذير لا تجدى، وتعلّات لا تفيد، فالحق واحد، ومخالفته هي الضلال وهو واحد وإن تعددت طرقه واختلفت وجوهه، وآثاره تتشابه حين تصدر عن الضالين حتى كأنهم متواصون به فيما بينهم كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

٧. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي إننا لم نتركك بلا آية، بل بينا للناس الآيات على يديك بما لا يدع مجالا للريب لدى طالبي الحق بالدليل والبرهان، ولديهم الاستعداد للعلم واليقين، ولن يكون هذا إلا لمن صفت نفوسهم، وسلموا من العناد والمكابرة اللّذين يمنعان من وصول نور الحق إلى القلوب، وقد كان كبار الصحابة يراجعون النبي ﷺ فيما لم يظهر لهم دليله، لأنهم طبعوا على معرفة الحق بالبينة.

٨. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي إنا أرسلناك بالشيء الثابت الذي لا تضلّ فيه الأوهام، بسعد من أخذ به، ويثلج قلبه بروح اليقين، وهذا شامل للعقائد المطابقة للواقع، وللشرائع التي توصل صاحبها إلى سعادة المعاش والمعاد.

٩. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي لتبشر من أطاع، وتنذر من عصى، لا لتجبر على الإيمان، فلا عليك إن أصروا على الكفر والعناد: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾

١٠. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي فلا يضرنّك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم، فأنت لم تبعث ملزما ولا جبارا، فتكون مقصرا إن لم يؤمنوا، بل بعثت معلما وهاديا بالدعوة وحسن الأسوة، كما قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ لئلا يضيق صدره كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿لَوْلَا﴾ هنا حرف تحضيض قصد منه التعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرسول استكبارا بأن عدوا أنفسهم أحرياء بالرسالة وسماع كلام الله تعالى وهذا مبالغة في الجهالة لا يقولها أهل الكتاب الذين أثبتوا الرسالة والحاجة إلى الرسل.

٢. ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أرادوا مطلق آية فالتنكير للنوعية وحينئذ فهو مكابرة وجحود لما جاءهم من الآيات وحسبك بأعظمها وهو القرآن وهذا هو الظاهر من التنكير وقد سألوا آيات مقترحات: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] الآيات وهم يحسبون أن الآيات هي عجائب الحوادث أو المخلوقات وما دروا أن الآية العلمية العقلية أوضح المعجزات لعمومها ودوامها وقد تحداهم الرسول بالقرآن فعجزوا عن معارضته وكفاهم بذلك آية لو كانوا أهل إنصاف.

٣. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي كمثل مقالتهم هذه قال الذين من قبلهم من الأمم مثل قولهم، والمراد بالذين من قبلهم اليهود والنصارى فقد قال اليهود لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٦٧١.

نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وسأل النصارى عيسى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢]

٤. في هذا الكلام تسلية للنبي ﷺ بأن ما لقيه من قومه مثل ما لاقاه الرسل قبله، ولذلك أردفت هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ١١٩] الآية.

٥. يجوز أن تكون:

أ. جملة: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ واقعة موقع الجواب لمقالة الذين لا يعلمون، وهو جواب إجمالي اقتصر فيه على تنظير حالهم بحال من قبلهم فيكون ذلك التنظير كناية عن الإعراض عن جواب مقالهم وأنه لا يستأهل أن يجاب لأنهم ليسوا بمرتبة من يكلمهم الله وليست أفهامهم بأهل لإدراك ما في نزول القرآن من أعظم آية.

ب. وتكون جملة: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تقريرا أي تشابهت عقولهم في الأفن وسوء النظر.

ج. وتكون جملة: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ تعليلا للإعراض عن جوابهم بأنهم غير أهل للجواب لأن أهل الجواب هم القوم الذين يوقنون وقد بينت لهم آيات القرآن بما اشتملت عليه من الدلائل، وأما هؤلاء فليسوا أهلا للجواب لأنهم ليسوا بقوم يوقنون بل ديدنهم المكابرة.

د. ويجوز أن تكون جملة: ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى آخرها معترضة بين جملة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وبين جملة: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ وتجعل جملة: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ هي الجواب عن مقالتهم، والمعنى لقد أتتكم الآية وهي آيات القرآن ولكن لا يعقلها إلا الذين يوقنون أي دونكم فيكون على وزان قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، ووقع الإعراض عن جواب قولهم: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ لأنه بديهي البطلان كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]

٦. القول في مرجع التشبيه والمماثلة من قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ على نحو القول في الآية الماضية: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣]، وقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تقرير لمعنى: ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، أي كانت عقولهم متشابهة في الأفن وسوء النظر فلذا اتحدوا في المقالة، فالقلوب هنا بمعنى العقول كما هو المتعارف في اللغة العربية.

٧. ﴿تَشَابَهَتْ﴾ صيغة من صيغ التشبيه وهي أقوى فيه من حروفه وأقرب بالتشبيه البليغ، ومن محاسن ما جاء في ذلك قول الصابئ:

تشابه دمعي إذ جرى ومدامتي فمن مثل ما في الكأس عيني

٨. وفي هذه الآية جعلت اليهود والنصارى مماثلين للمشركين في هذه المقالة لأن المشركين أعرق فيها إذ هم أشركوا مع الله غيره فليس ادعاؤهم ولدا لله بأكثر من ادعائهم شركة الأصنام مع الله في الإلهية فكان اليهود والنصارى ملحقين بهم لأن دعوى الابن لله طرأت عليهم ولم تكن من أصل ملتهم وبهذا الأسلوب تأتى الرجوع إلى بيان أحوال أهل الكتابين الخاصة بهم وذلك من رد العجز على الصدر.

٩. جيء بالفعل المضارع في: ﴿يُوقِنُونَ﴾ لدلالته على التجدد والاستمرار كناية عن كون الإيمان خلقا لهم فأما الذين دأبهم الإعراض عن النظر والمكابرة بعد ظهور الحق فإن الإعراض يحول دون حصول اليقين والمكابرة تحول عن الانتفاع به فكأنه لم يحصل فأصحاب هذين الخلقين ليسوا من الموقنين.

١٠. تبيين الآيات هو ما جاء من القرآن المعجز للبشر الذي تحدى به جميعهم فلم يستطيعوا الإتيان بمثله، وفي الحديث: (ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)، فالمعنى قد بينا الآيات لقوم من شأنهم أن يوقنوا ولا يشككوا أنفسهم أو يعرضوا حتى يحول ذلك بينهم وبين الإيقان أو يكون المعنى قد بينا الآيات لقوم يظهرون اليقين ويعترفون بالحق لا لقوم مثلكم من المكابرين.

١١. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ جملة معترضة بين حكايات أحوال المشركين وأهل الكتاب، القصد منها تأنيس الرسول ﷺ من أسفه على ما لقيه من أهل الكتاب مما يماثل ما لقيه من المشركين وقد كان يود أن يؤمن به أهل الكتاب فيتأيد بهم الإسلام على المشركين فإذا هو يلقى منهم ما لقي من المشركين أو أشد وقد قال: (لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود كلهم)، فكان لتذكير الله إياه بأنه أرسله تهدئة لخاطره الشريف وعذر له إذ أبلغ الرسالة وتطمين لنفسه بأنه غير مسئول عن قوم رضوا لأنفسهم بالجحيم، وفيه تمهيد للتأييس من إيمان اليهود والنصارى:

أ. وجيء بالتأكيد وإن كان النبي ﷺ لا يتردد في ذلك لمزيد الاهتمام بهذا الخبر وبيان أنه ينوه به لما تضمنه من تنويه شأن الرسول.

ب. وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة تشريفا للنبي ﷺ بعز الحضور لمقام التكلم مع الخالق تعالى وتقدس كأن الله يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة فلذا لم يقل له إن الله أرسلك.

١٢. قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بأرسلناك، والحق هو الهدى والإسلام والقرآن وغير ذلك من وجوه الحق المعجزات وهي كلها ملابسة للنبي ﷺ في رسالته بعضها بملابسة التبليغ وبعضها بملابسة التأييد، فالمعنى إنك رسول الله وإن القرآن حق منزل من الله.

١٣. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان وهما بزنة فعيل بمعنى فاعل مأخوذان من بشر المضاعف وأنذر المزيد فمجيئهما من الرباعي على خلاف القياس كالقول في ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، وقيل: البشير مشتق من بشر المخفف الشين من باب نصر ولا داعي إليه.

١٤. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ الواو للعطف وهو إما على جملة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أو على الحال في قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ويجوز كون الواو للحال.

١٥. قرأ نافع ويعقوب بفتح الفوقية وسكون اللام على أنّ (لا) حرف نهي جازم للمضارع وهو عطف إنشاء على خبر والسؤال هنا مستعمل في الاهتمام والتطلع إلى معرفة الحال مجازا مرسلا بعلاقة اللزوم لأن المعني بالشيء المتطلع لمعرفة أحواله يكثر من السؤال عنه، أو هو كناية عن فظاعة أحوال المشركين والكافرين حتى إن المتفكر في مصير حالهم ينهى عن الاشتغال بذلك لأنها أحوال لا يحيط بها الوصف ولا يبلغ إلى كنهها العقل في فظاعتها وشناعتها، وذلك أن النهي عن السؤال يرد لمعنى تعظيم أمر المسئول عنه نحو قول عائشة: (يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن) ولهذا شاع عند أهل العلم إلقاء المسائل الصعبة بطريقة السؤال نحو (فإن قلت) للاهتمام.

١٦. قرأه جمهور العشرة بضم الفوقية ورفع اللام على أن (لا) نافية أي لا يسألك الله عن أصحاب الجحيم وهو تقرير لمضمون: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ والسؤال كناية عن المؤاخذة واللوم مثل قوله ﷺ: (وكلكم مسئول عن رعيته)، أي لست مؤاخذا ببقاء الكافرين على كفرهم بعد أن بلغت لهم الدعوة.

١٧. ما قيل إن الآية نزلت في نهيه ﷺ عن السؤال عن حال أبويه في الآخرة فهو استناد لرواية واهية ولو صحت لكان حمل الآية على ذلك مجافيا للبلاغة إذ قد علمت أن قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ تأنيس وتسكين فالإتيان معه بما يذكّر المكدرات خروج عن الغرض وهو مما يعبر عنه بفساد الوضع.

١٨. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦] المعطوف على قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى﴾ [البقرة: ١١٣]، لمناسبة اشتراك المشركين واليهود والنصارى في الأقوال والعقائد الضالة إلا أنه قدم قول أهل الكتاب في الآية الماضية وهي: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ لأنهم الذين ابتدؤوا بذلك أيام مجادلتهم في تفاضل أديانهم ويومئذ لم يكن للمشركين ما يوجب الاشتغال بذلك إلى أن جاء الإسلام فقالوا مثل قول أهل الكتاب.

١٩. جمع الكل في: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ إلا أنه لم يكن فريق من الثلاثة فيه مقتبسا من الآخر بل جميعه ناشئ من الغلو في تقديس الموجودات الفاضلة ومنشؤه سوء الفهم في العقيدة سواء كانت مأخوذة من كتاب كما تقدم في منشأ قول أهل الكتابين ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ أم مأخوذة من أقوال قادتهم كما قالت العرب: الملائكة بنات الله.. وقدم قول المشركين هنا لأن هذا القول أعلق بالمشركين إذ هو جديد فيهم وفاش بينهم، فلما كانوا مخترعي هذا القول نسب إليهم، ثم نظر بهم الذين من قبلهم وهم اليهود والنصارى، إذ قالوا مثل ذلك لرسلهم.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. اليهود يتعنتون والمشركون طلبوا آيات مختلفة، آيات حسية مطّرحين الآيات المعنوية، مع أن الله تعالى أجرى على يديه خوارق للعادات باهرة كالإسراء، والطعام الكثير من الغذاء القليل، وسحّ الماء بين يديه، وحنين الجذع إليه، وتعشيش اليمام حول الغار، وسير السحاب معه لتظله، ونصره بالرياح وقد اشتدت الشديدة، وغير ذلك كثير، ولكنه لم يتحد إلا بالقرآن؛ لأنه الآية الكبرى، والمعجزة الدائمة القاهرة.

٢. لقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الذين أي الذين لم يؤتوا علما سابقا وهم الأميون، وتكون الآية الكريمة نصا في المشركين؛

---

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٨٤.

لأنهم الأميون الذين لم يعلموا كتابا ولم يكونوا من أهل الكتاب، وقد جرى تعبير القرآن بذلك في مقابل أهل الكتاب، ولقد طلبوا آيات مختلفة، فطلبوا أن ينزل عليهم قرطاسا من السماء يخاطبهم به الله، أو ملكا رسولا، كما رد الله تعالى عليهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام]

٣. هذا على أن الذين لا يعلمون هم المشركون، لقد طلبوا هذا وطلبوا آيات كثيرة في سورة الإسراء وتلونا من قبل قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا الله أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ لولا هنا للتحريض والطلب، تقارب معنى هلا، وليست للشرط الدال على امتناع الجواب لوجود الشرط، مثل: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ] والفرق اللفظي أن لو التي تكون للطلب يكون بعدها الفعل، ولولا الشرطية يكون في صدر فعلها اسم، كما دل على ذلك استقراء اللغويين، وفسر كثيرون من الفقهاء، أن الذين لا يعلمون هم من أهل الكتاب الذين حضروا عصر النبيّ ﷺ، ويرشح لهذا التفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فقد قال الذين من قبلهم أرنا الله جهرة.

٤. قوله تعالى: ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي في التعنت وطلب الآيات الحسية، وإذا كانوا قد طلبوا ذلك مع تسع آيات بينات حسية، فإن الذين فعلوا مثلهم طلبوا ذلك مع ما هو أعظم من ذلك، وهو القرآن المعجزة الإلهية الكبرى.

٥. ليس في الأمر تضاد بين الرأيين؛ ولذلك يكون الجمع بينهما أولا، فالذين لا يعلمون الحق، ولا يدركون معاني الإيمان طلبوا ذلك سواء أكانوا من المشركين، أم كانوا من اليهود والنصارى المتعنتين الذين إذا كان علمهم بالكتاب فقد جهلوه أو تجاهلوه أو أنكروه، فهم مع الذين لا يعلمون على حد سواء.

٦. بين الله سبحانه وتعالى تشابه ما بين ماضى الكافرين وحاضرهم، فقال تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي أن قلوبهم تتشابه في الإلحاد في دين الله تعالى، وتعنتهم في طلباتهم، وجحودهم المستكن في قلوبهم الذي يظهر على أقوالهم، فإذا كانت أقوالهم متحدة، فلأنها ناشئة من قلوب متحدة في أنها لا تؤمن بشيء، ولقد جاء عيسى ببينات قاطعة من إحياء للموتى وإخراج لما في القبور، وتصوير للطين ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله تعالى، جاءهم بكل هذا فقالوا: هذا سحر مبين فالجاحد لا يؤمن بشيء وليس عدم

إيمانه لنقص في الدليل، بل كلما زاد الدليل قوة زادوا عنتا وكفروا، وصرفوا عقولهم ونفوسهم لا في الإيمان به، بل في إعمال الحيلة لرده.

٧. لذلك رد الله تعالى عليهم بقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أكد الله سبحانه وتعالى أنه بين للذين لا يعلمون في الحاضر، والذين قالوا مثل قولهم في الماضي وأتى لهم بآيات من شأنها أن تدخل إلى القلوب بالإيمان، ولكن بشرط تقبل القلوب للحقيقة، وإن من شأنها أن توقن بالحق إذا عين لها دليله؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي من شأنهم أن يوقنوا عند وجود الدليل، لا يترددون وليس من شأنهم التردد، وينته ترددهم بالجحود.

٨. الدليل إذا كان قويا صدقوا بعقولهم، ولكن إذعانهم لا يكون إلا إذا كانت قلوبهم خاضعة من شأنها اليقين، وقد تستيقنها النفس ولكن لا تسكن القلوب إلا إذا كان اليقين من القلب المؤمن بالحق أو المستعد له الذي يقذف الله تعالى في قلبه بالنور؛ ولذا قال تعالى في شأن الجاحدين المتعنتين: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل]

٩. الآيات هنا إذا كانت عامة للحاضرين والماضين فهي الآيات التي سبقت لموسى ولعيسى، وآية محمد الكبرى، وهى القرآن العظيم الخالد الباقي إلى يوم القيامة.

١٠. معنى قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ قد أنزلنا بينة مقنعة بذاتها؛ لأنها العلامات والأمارات القاطعة في الدلالة على الله، وعلى نبوة الرسول الذي بعثه الله تعالى.

١١. يلاحظ أن هذا في موضوع نسخ الآيات المعجزات، واستبدال آية بآية، والقرآن الكريم في هذا النسق يفصل بعضها وما عرض من أخبار اليهود والنصارى والقبلة، والاعتراض والرد لم يكن بعيدا عن ذلك بعدا تاما.

١٢. هذا التعنت في طلب الآيات، وعقد مشابهة بين آيته الكبرى، وآيات النبيين السابقين التي لم تأت بإيمان أهل الكتاب بل عاندوها، وجحدوا بها، وقالوا: هذا سحر مبين، وقالوا ائتنا بآية غير هذا القرآن، وقد ذكر أنه إن نسخ آية أي تركها يأت بمثلها، أو خير منها.

١٣. إذا انتهت مقولاتهم، وفندت أباطيلهم، وكشفت الدوافع الكامنة وراء أضاليلهم، يتجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ يبين له وظيفته، ويحدد له تبعاته، ويكشف له عن حقيقة المعركة بينه وبين اليهود

والنصارى، وطبيعة الخلاف الذي لا حل له إلا بثمن لا يملكه ولا يستطيعه! ولو أداه لتعرض لغضب الله مولاه؛ وحاشاه! ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً ونَذِيراً ولا تسأل عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ ولَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ ولَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَالْهُدى ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ومَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ}

١٤. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾.. وهي كلمة فيها من التثبيت ما يقضي على شبهات المضللين، ومحاولات الكائدين، وتلبيس الملفقين، وفي جرسها صرامة توحي بالجزم واليقين ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.. وظيفتك البلاغ والأداء، تبشر الطائعين وتنذر العصاة، فينتهي دورك، ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.. الذين يدخلون الجحيم بمعصيتهم، وتبعتهم على أنفسهم.

١٥. لذا ذكر سبحانه وتعالى أن رسالة النبيّ ﷺ حق في ذاته يدعو إلى نفسه، وقد أيدت بآية هي حق، ويدعو إلى الحق، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي إنا بعثناك نبيا مرسلا، مقترنة أو متلبسة رسالته بالحق، فهي حق يثبت نفسه، وما فيها حق، وما تدعو إليه حق، والحق وحده كاف لإقناع من يكون عنده قلب يدركه، ويمتلئ قلبه حكمة، وبصيرة، وإذا كان القلب مخلصا أدرك وآمن، يروى أن أكثم بن صيفي حكيم العرب عندما بلغه بعث النبيّ ﷺ أرسل ولده يسألون عما يدعو إليه فلما ذهبوا إليه تلا عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل] فلما عادوا تلوا على أبيهم ما تلاه عليهم النبيّ ﷺ، فقال حكيم العرب: إن هذا إن لم يكن دينا كان في أخلاق الناس أمرا حسنا، كونوا يا بنى في هذا الأمر أولا، ولا تكونوا آخرا فالحق نور يدعو إلى اتّباعه.

١٦. قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي مبينا الحق، ومبينا أن جزاء من تبعه الحسنى، ومبينا أن من يعانده يكون السوء مصيره ف: ﴿بَشِيرًا﴾ بيان لبشرى من يتبع، و﴿نَذِيرًا﴾ بيان للسوأى لمن يعاند ويجحد، إنما أنت عليك البلاغ وإنما أنت نذير، لما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد]، و﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ لست أيها الرسول مسئولا عمن يترددون في الضلال، وهم أصحاب الجحيم، وعبر سبحانه وتعالى عنهم للدلالة على ما يستقبلهم من

عقاب فللذين أحسنوا الحسنى وللذين أساؤوا السوأى.

١٧. الجحيم وصف من الجحمة والجحمة شدة تأجج النيران، والمعنى لا تسأل عن الذين يلازمون النار ملازمة الصاحب فهم أصحابها والمختصون بها.

١٨. إنه لا يسأل عنهم، فهو النذير العريان الذي لا يتحمل تبعة مخالفة المخالفين، بل هذا جزاؤهم وهو بشير أو نذير، ﴿بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر]: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد] فلست بمسئول عمن كفر وطغى.

١٩. إذ ينتهي من عرض مقولة أهل الكتاب في ادعاء الولد لله ـ سبحانه ـ وتصحيح هذه المقولة وردها، يتبعها بمقولة للمشركين فيها من سوء التصور ما يتسق مع سوء التصور عن أهل الكتاب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾

٢٠. الذين لا يعلمون هم الأميون الذين كانوا مشركين؛ إذ لم يكن لديهم علم من كتاب، وكثيرا ما تحدوا النبي ﷺ أن يكلمهم الله أو أن تأتيهم خارقة من الخوارق المادية.. وذكر هذه المقولة هنا مقصود لبيان أن الذين من قبلهم ـ وهم اليهود وغيرهم ـ طلبوا مثل هذا من أنبيائهم، فلقد طلب قوم موسى أن يروا الله جهرة، وطلبوا وتعنتوا في طلب الخوارق المعجزة، فبين هؤلاء وهؤلاء شبه في الطبيعة، وشبه في التصور، وشبه في الضلال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فلا فضل لليهود على المشركين، وهم متشابهو القلوب في التصور والعنت والضلال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، والذي يجد راحة اليقين في قلبه يجد في الآيات مصداق يقينه، ويجد فيها طمأنينة ضميره، فالآيات لا تنشئ اليقين، إنها اليقين هو الذي يدرك دلالتها ويطمئن إلى حقيقتها، ويهيئ القلوب للتلقي الواصل الصحيح.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ان الذين تمادوا في العتو والعناد، قالوا لرسول الله ﷺ: لن نؤمن لك، حتى يقول الله لنا مشافهة: انك نبي، أو يرسل إلينا ملكا يخبرنا بذلك، أو تأتي بها نقترحه عليك من الآيات، مثل ما حكاه الله عنهم في

---

(١) التفسير الكاشف: ١/ ١٨٩.

سورة الاسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الى قوله: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾

٢. أجاب الله عن ذلك بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي ان هذا التمادي في اقتراح الأباطيل لا يختص بمن اقترحها على رسول الله ﷺ، فان قوم موسى قالوا له: ﴿أَرِنَا الله جَهْرَةً﴾، وقالوا أيضا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، وقالت النصارى لعيسى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾.. وهذا هو وجه الشبه بين من اقترح على محمد ﷺ، وبين من اقترح على موسى وعيسى عليه السلام، الشبه الذي أشار اليه سبحانه بقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

٣. والمعقول الذي تجب اجابته إذا طلب هو ان يؤيد الله رسوله بالبينات والدلائل التي لا تدع مجالا للشك في نفس من خلصت نفسه من الشوائب والكدورات، وتجرد للحقّ لوجه الحق، وقد فعل الله ذلك، وبين الدليل الكافي الوافي على نبوة محمد، أما طلب الزيادة فتعنت ومكابرة.. وبديهة ان المعاند اللجوج لا تجب اجابته.. بل يهمل ويعرض عنه.. والقوم الموقنون هم الذين يطلبون اليقين من وجهه والطريق الذي من شأنه أن يؤدي اليه.

٤. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، هذا تحديد لوظيفة النبي ﷺ ومهمته، وانه معلم، لا مسيطر، ومبين للحق، لا مكره عليه، فالآية تجري مجرى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ـ الكهف ٢٩)، وفي الآية تسلية للنبي ﷺ لئلا يضيق صدره بكفر من كفر، وعناد من عاند.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ جواب عن قول الذين لا يعلمون، والمراد أن الآيات التي يطالبون بها مأتية مبينة، ولكن لا ينتفع بها إلا قوم يوقنون بآيات الله، وأما هؤلاء الذين لا

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٦٤.

يعلمون، فقلوبهم محجوبة بحجاب الجهل، مئوفة بآفات العصبية والعناد، وما تغني الآيات عن قوم لا يعلمون، ومن هنا يظهر وجه توصيفهم بعدم العلم، ثم أيد ذلك بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ والإشعار بأنه مرسل من عند الله بالحق بشيرا ونذيرا، فلتطب به نفسه، وليعلم أن هؤلاء أصحاب الجحيم، مكتوب عليهم ذلك، لا مطمع في هدايتهم ونجاتهم.

٢. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، يجري مجرى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

٣. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم المشركون غير أهل الكتاب ويدل عليه المقابلة السابقة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾: ﴿لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ الآية، ففي تلك الآية ألحق أهل الكتاب في قولهم بالمشركين والكفار من العرب، وفي هذه الآية ألحق المشركين والكفار بهم، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ - وهم أهل الكتاب واليهود من بينهم - حيث اقترحوا بمثل هذه الأقاويل على نبي الله موسى عليه السلام، فهم والكفار متشابهون في أفكارهم وآرائهم، يقول هؤلاء ما قاله أولئك وبالعكس.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ في قوله: ﴿إِنَّا﴾ بكلمة التعظيم، إشارة إلى أن ذا الجلال والإكرام العزيز الحكيم العلي العظيم أرسلك ﴿بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فما أقبح طريقة الكفار المحاربين للدين من اليهود والنصارى، والذين لا يعلمون يحاربون هذه الرسالة التي تولاها ملك الملوك علام الغيوب أحكم الحاكمين مع أنها رسالة بالحق، ولا يرسل سبحانه إلاّ بالحق، ومع أنها مهمة لمصلحة البشرية بل ضرورية لنجاة من يريد النجاة من النار وسعادة من يريد السعادة الدائمة، فما أقبح التكذيب بها، وما أقبح الجدال في دلائلها، وما أقبح معارضتها بالمكر، وما أقبح الإعراض عنها.

---

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٧٥.

٢. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ الذين لم يقبلوا منك ولم يهتدوا بهداك وتمردوا وأصروا واستكبروا، فهم مخذولون لا يرجعون إلى الهدى، ولا يزالون على طريق الجحيم حتى صار اسمهم: ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة:٩٩] ليس عليك هداهم، فلست مسئولا عنهم.

٣. في قراءة منسوبة إلى نافع: ﴿وَلَا تُسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ بالجزم و(فتح التاء) ومعناها إما الأمر بالإعراض عنهم؛ لأن من عادة المعرض أن لا يسأل عمّن أراد الإعراض عنه؛ لأنه لا يبالي به كيف كانت حالته، وإما على معنى لا تسأل ربك عنهم لماذا يعذبهم؛ لأنه لا يُسأل عما يفعل، وإما لا تسأل ربك هل يمكن أن يعفو عنهم أو نحو هذا، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧] وإما لا تسأل عنهم، أي عن العذاب الذي يصيرون إليه تعظيم للعذاب وتعبير عن شدته على السمع، كما قال الهبل:

سماعك بالنار يا ذا الحجا.. شديد شديد شديد شديد

كيف إذا أنت عاينتها.. فكيف كيف الوقوع فكيف الخلود

وحكى الشرفي في (المصابيح): (عن المرتضى عليه السلام: أن القراءة ـ بضم التاء، وضم اللام ـ لم يذكر غيرها، قال الشرفي: وكلام أبي الفتح الديلمي عليه السلام مثل هذا، وهي قراءة جميع القراء، إلاَّ نافعاً)

٤. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من كفار العرب: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ جحداً بالآيات، وزعماً أن آيات الله ليست آيات: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الكفار كقوم هود في قولهم: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣] وكل أمة كفرت برسولها فهي مكذبة بآيات الله ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ يطالبون أن يكلمهم الله استكباراً وتعنتاً ويكذبون بآيات الله.

٥. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهي كلها تكره الحق وتميل إلى الباطل وتتكبر ولا تؤمن بآيات الله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، فقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ لا وجه له، بل هو أبطل الباطل؛ لأن الله جعل الآيات وجعلها بيّنات لا تخفى على من يريد الحق ومن شأنه أن يوقن لوجود الآيات البينات، أما من لا يوقن مع وجود الآيات البينات فالحجة قائمة عليه؛ لأن المانع من إيقانه هو إعراضه وكراهته للحق وشغل قلبه عن

النظر في الآيات بوسواس الشيطان والكبر والحسد، وغير ذلك من الموانع التي هي من عنده، ويجدها من نفسه.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. اختلف المفسرون في طبيعة الفئة التي عبّر عنها القرآن بالذين لا يعلمون، فقال بعضهم: إنها النصارى، وقال بعضهم: إنها اليهود، وهو قول ابن عباس، وقال بعضهم إنهم مشركو العرب، كما عن الحسن وقتادة، ولعلّه الأقرب، لأنه أشبه بالمصطلح القرآني في الحديث عنهم كما جاء في الآية السابقة: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، وقد يتأكد ذلك من خلال دراستنا للطلبات التعجيزية التي كانت تقدم إلى النبي محمد ﷺ في استحداث آيات جديدة مقترحة من قبل المشركين، مما يلتقي بهذه الطلبات المذكورة في هذه الآية، وهي أن يكلمهم الله وجها لوجه أو تأتيهم آية من الآيات التي كانوا يسمعون عنها في قصص الأنبياء.

٢. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ لنسمع كلامه، فنؤمن به من خلال حاسة السمع، إذا لم نتمكن من معرفته من خلال حاسة البصر، ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ معجزة لا يقدر البشر عليها لنعرف أن محمدا رسول من الله، وليس بشرا عاديا كبقية بني البشر.

٣. ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ كما حدث ذلك لليهود، ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكفر والتعنت والعناد والمشاعر القلقة، التي لا تنفتح على الحقائق من موقع الجديّة الواعية التي تثير علامات الاستفهام في هذا الجانب أو ذاك للوصول إلى الحقيقة، بل تتحرك من العقدة المرضية التي تعمل على التنفيس عن ذاتها بالأساليب التعجيزية، لأنهم لو عقلوا المسألة بطريقة واعية، لعرفوا أن الله لا يستجيب للهو اللاهين، أو عبث العابثين الذين يقدمون الاقتراحات من دون حاجة إليها في المجرى الكوني العام، أو في الخط الرسالي الشامل، لأن خرق القوانين المألوفة مخالف لحكمة الله المتحركة في السنن

---

(١) من وحي القرآن: ٢/ ١٩١.

الطبيعية التي أودعها الله في الكون، أو في الوسائل الضرورية لإثبات صدق الأنبياء مما لا مجال فيها للتصديق العام، فقد حفل تاريخهم بمثلها، إذ قال الذين من قبلهم من اليهود لموسى: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وغير ذلك.

٤. يضيف الله إلى ذلك قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ليثير أمامنا القضية التالية: وهي أن المشكلة التي تواجه الأنبياء أمام شعوبهم، هي أنهم ـ أي شعوبهم ـ لم يكونوا في موقف الذين يريدون الحصول على القناعات الذاتية في قضايا الرسالة الإلهية، ولهذا كانوا لا يفكرون في ما يقدّم إليهم من آيات وبيّنات وبراهين، بل كانوا ينتقلون من طلب إلى آخر في عملية الهاء وإشغال وتحديات لا معنى لها، لأن النبي لم يأت ليغير ناموس الكون في قوانينه المودعة في الآفاق ليكون دوره الاستجابة لهم في كل ما يقترحونه عليه من هذه الأمور، ولم تجعل له هذه القدرة الذاتية لو أراد ذلك، بل الأمر لله في ما يفعل وفي ما لا يفعل تبعا لما يعلمه من الحكمة في ذلك كله، بل كان دور النبي الأساس هو أن يكون بشيرا ونذيرا بالحق ليهتدي الناس من خلال التبشير والإنذار، وليس عليه إلّا أن يقدم للناس ما فيه الحجة على الحق ثم يتجه إلى الحق في كل تفاصيله بشيرا ونذيرا، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وتلك هي مهمته، وتلك هي مسئوليته، فإذا استجاب الناس له، فذلك هو ما يريده ويتمناه، وإذا انحرف الناس عنه فاختاروا الجحيم على النعيم باختيارهم الضلال على الهدى، فلا ﴿تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾، فهذا ما لا يسأل عنه النبي لأنه لم يحدث عن تقصير منه، بل عن عناد منهم واختيار للطريق السيئ في قضية المصير.

٥. حاول المفسرون أن يعتبروا هذه الآية وأمثالها تسلية للنبي، كما جاء في مجمع البيان، حيث قال ـ تعليقا على الآية ـ: وفيه تسلية للنبي ﷺ، إذ قيل له إنما أنت بشير ونذير ولست تسأل عن أهل الجحيم وليس عليك إجبارهم على القبول منك، ومثله قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].. ولا نرى هذا الرأي، بل نعتقد أن هذه الآيات واردة في مورد وضع القاعدة الثابتة للمسؤولية التي يتحملها النبي من حيث هو رسول وداعية، وتحديدها بالعناصر الاختيارية لأساليب الدعوة ووسائلها التي يملكها، من حيث طبيعة الفكرة والكلمة والأسلوب والجو العام؛ أما الجوانب الأخرى التي تخرج عن اختياره، وترجع إلى أشياء ذاتية في حياتهم

النفسية، أو إلى ظروف موضوعية أخرى، فهذا ما لا يدخل في حساب مسئوليته، وبذلك فلا مجال لأي حزن أو خوف أو حسرة، لأن الله لم يرسل رسوله ليغيّر الكون تغييرا تكوينيا بشكل غير طبيعي، بل كل مهمته هي السير في عملية التغيير من خلال وسائلها الطبيعية التي لا يملك كل عناصرها، فلا يكلف إلا بما يملكه في نطاق قدرته، وليس هذا مختصا بالنبي محمد ﷺ أو بالأنبياء من قبله، بل يشمل كل داعية إلى الله، في أي موقع من مواقع الدعوة، فليس عليه إلا أن يفجر كل طاقاته ويستخدم كل الأساليب والوسائل التي يملكها للوصول إلى قناعة الآخرين وتغيير الواقع، فإذا فعل ذلك فقد قام بمسؤوليته.. وتلك هي الطريقة الواقعية العملية التي تفرغ داخله من كل انفعال غير طبيعي، مما يجعله يواجه الفشل والهزيمة مواجهة هادئة لا تنسحق أمام نتائج الهزيمة وعناصرها، بل تقف في ساحة الواقع لتجمع العناصر الجديدة الممكنة التي يمكن لها أن تحوّل الهزيمة إلى نصر، والفشل إلى نجاح، من خلال دراسة الأسباب الواقعية لما حدث ومحاولة التغلب عليها في حركة المستقبل.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بمناسبة ذكر حجج اليهود في الآيات السابقة، تتحدث الآية عن حجج مجموعة أخرى من المعاندين ويبدو أنهم المشركون العرب فتقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾، هؤلاء الجاهلون ـ أو الذين لا يعملون ـ بتعبير الآية، طرحوا طلبين بعيدين عن المنطق، طلبوا:

أ. أن يكلّمهم الله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾

ب. أن تنزل عليهم آية: ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾

٢. القرآن يجيب على هذه الطلبات التافهة قائلا: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لو أن هؤلاء يستهدفون حقا إدراك الحقيقة، ففي هذه الآيات النازلة على رسول الله ﷺ دلالة واضحة بينة على صدق أقواله، فما الداعي إلى نزول آية مستقلة على كل واحد من الأفراد!؟ وما معنى الإصرار على أن يكلمهم الله مباشرة!؟ مثل هذا الطلب تذكره الآية ٥٢ من سورة

---

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٥٨.

المدثر: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾

٣. مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق، لأن تحققه ـ إضافة إلى عدم ضرورته ـ مخالف لحكمة الباري سبحانه، لما يلي:

أ. أوّلا: إثبات صدق الأنبياء للناس كافة أمر ممكن عن طريق الآيات التي تنزل عليهم.

ب. ثانيا: لا يمكن للآيات والمعاجز أن تنزل على أي فرد من الأفراد، فذلك يتطلب نوعا من اللياقة والاستعداد والطّهارة الرّوحية، فالأسلاك الكهربائية تتحمل من التيّار ما يتناسب مع ضخامتها، الأسلاك الرقيقة لا تتحمل التيّار العالي، ولا يمكن أن تتساوى بالأسلاك الضخمة القادرة على توصيل التيّارات العالية.. والمهندس يفرّق بين الأسلاك التي تستقبل التيّارات العالية من المولدات مباشرة، والأسلاك التي تنقل التيّار الواطئ داخل البيوت.

٤. مرّ علينا في الآية أن القرآن يصف الحجج الواهية التي يطرحها المعاصرون لصاحب الرسالة الخاتمة، بأنها شبيهة بتلك التي كان يتذرع بها المنحرفون من الأمم السابقة، فقلوبهم متشابهة، والقرآن يشير بهذا التقريع واللوم إلى أنّ مرور الزمن ينبغي أن يكون عاملا على زيادة وعي الأجيال البشرية، وعلى تفهّم هذه الأجيال اللاحقة أكثر من السابقة لتعاليم الأنبياء، لكن مرور الزمن لا يرفع مستوى المنحرفين، بل يبقى خط الانحراف واحدا متشابها على مرّ الأجيال وكأنها متعلقة بآلاف الأعوام السالفة.

٥. الآية التالية تخاطب النّبي ﷺ، وتبين موقفه من الطلبات المذكورة وتقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، فمسؤولية الرّسول بيان الأحكام الإلهية، وتقديم المعاجز، وتوضيح الحقائق، وهذه الدعوة ينبغي أن تقترن بتبشير المهتدين وإنذار العاصين وهذه مسئوليتك أيّها الرّسول، وأما الفئة التي لا تذعن للحق بعد كل هذه الآيات فأنت غير مسئول عنها: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾

٦. (البشارة) و(الإنذار) أو (التشجيع) و(التهديد) من أهم الأصول اللازمة للتربية وللحركة الاجتماعية، ينبغي أن يلقي الفرد تشجيعا على أعماله الصالحة، وتوبيخا على أعماله الطالحة، كي يواصل مسيره الأول، ويرتدع عن ارتياد المسير الثاني.

٧. (التشجيع) وحده لا يكفي لدفع الفرد والمجتمع على طريق التكامل، لأن الإنسان سوف يكون مطمئنا من عدم الخطر في حالة ارتكاب المعاصي، على سبيل المثال، نرى ارتكاب المعاصي بين النصارى

الحاليين أمرا عاديا، لأنهم يعتقدون بالفداء، أي بأن السيد المسيح عليه السّلام قد ضحى بنفسه لغفران ذنوب أتباعه، أو لاعتقادهم بأن أحبارهم قادرون أن يغفروا لهم ذنوبهم بسبل شتى، منها منحم صكوك الغفران، أو يبيعون لهم الجنّة مثل هؤلاء القوم يسمحون لأنفسهم ارتكاب الذنوب بسهولة، جاء في قاموس الكتاب المقدس: (الفداء أيضا إشارة إلى كفارة دم المسيح، الذي أخذ على عاتقه كل ذنوبنا وتحمل ذنوبنا في جسده على الصليب)، هذا المنطق يجعل الأفراد دون شك جريئين على ارتكاب المعاصي.

٨. بعبارة أخرى، من يرى أن التشجيع وحده كاف لتربية الإنسان (طفلا كان أم كبيرا)، وضرورة ترك التهديد والتقريع، فهو مجانب للصواب ومخطئ تماما، وهكذا أولئك الذين يعتقدون أن التربية ينبغي أن تقوم على أساس التخويف والتأنيب لا غير.

٩. الفريقان المذكوران خاطئان في فهم الإنسان، حيث إن الإنسان يتجاذبه كلّ الخوف والرجاء، حبّ الذات وكره الفناء، تحصيل المنفعة ودفع الضرر، وهل يمكن لموجود يحمل في ذاته هذين البعدين أن يربّى وفق بعد واحد!؟ والتعادل ضروري بين هذين الجانبين، فلو تجاوز التشجيع حدّه لأدّى إلى التجرؤ والغفلة، ولو تعدّى التخويف حدّه لبعث على اليأس والقنوط وانطفاء شعلة الشوق والتحرك في النفوس.

١٠. ممّا سبق نفهم سبب اقتران البشارة بالإنذار أو (البشير) بـ (النذير) في القرآن الكريم، فتارة تقدم كلمة البشير على النذير كالآية التي نحن بصددها: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وتارة تقدم كلمة النذير كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.. وأكثر الآيات القرآنية في هذا المورد تتقدم فيها صفة البشير، ولعل ذلك يعود إلى أن رحمة الله من حيث المجموع سابقة على غضبه: يا من سبقت رحمته غضبه.

٤٩. أهل الكتاب وشروط الرضى

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٤٩] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ خصومة علمها الله محمدا ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة[١].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) أنّه قال: ﴿تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ معناه دينهم.. والجمع: الملل[٢].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ﴾ من أهل المدينة، ﴿وَلَا النَّصَارَى﴾ من أهل نجران حتى تتبع ملتهم[٣].

٢. روي أنّه قال: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ يعني: الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَى﴾[٤].

ابن إسحاق:

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) أنّه قال: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ فيما اقتصصت

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٧.

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ٨٩.

(٣) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٥.

(٤) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٥.

عليك من الخبر[1].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. اختلف في الملة:

أ. قيل الملة: السنة؛ كقوله: (بسم الله، وعلى ملة رسول الله)، وكقوله: ﴿اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]

ب. وقيل الملة: الدين، كقوله عليه السلام: (لا يتوارث أهل الملتين)

ج. وقيل: الملة هاهنا: القبلة، وهو كقوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]

٢. آيس عزّ وجل رسوله ﷺ عن اتباع أولئك دينه وقبلته؛ لأنهم يختارون الدين، والقبلة؛ بهوى أنفسهم، لا بطلب الحق، وظهوره، ولزوم الحجة، وذلك: أن النصارى إنما اختاروا قبلتهم المشرق؛ لأن مكان الجبل الذي كان فيه عيسى في ناحية المشرق بقوله: ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]، واليهود اختاروا قبلتهم ناحية المغرب؛ لأن موسى عليه السلام كان بناحية المغرب لما أعطى الرسالة وكلمه ربه؛ كقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، وأما أهل الإسلام فإنما اختاروا الكعبة ـ شرفها الله ـ قبلة بالأمر، لا اتباعا لهواهم.

٣. العقل يوجب أن تكون الكعبة قبلة؛ إذ هي مقصد الخلق من آفاق الدنيا، فلما احتيج في الصلاة إلى التوجه إلى وجه كان أحق ذلك الموضع الذي جعل للخلق مقاصد أخرى.

ثم قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، أخبر عزّ وجل رسوله: أن ليس في وسعك إرضاء هؤلاء؛ لاختلافهم في الدعاوى في الملل.

٤. سؤال وإشكال: كيف نهى رسوله عن اتباع ملتهم على علم منه أنه لا يتبع؟ والجواب: لأن العصمة لا تزيل المحنة، ولا تدفعها، بل المحنة إنما تقع في العصمة لوجهين:

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٧.

(٢) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٥٢.

أ. أحدهما: أن عصمته لما مضى لا توجب عصمته في الحادث.

ب. الثاني: أن أحق من ينهى عن الأشياء من أكرم بالعصمة؛ إذ على زوال النهى يرتفع عنه جهة العصمة؛ لأنه يصير برفع النهى مباحا، فلهذا دل القول على النهى عما فيه إرضاؤهم ـ وإن كان في الأصل معصوما عنه.. وفى إزالة الأمر والنهى إزالة فائدة العصمة؛ لأن العصمة: هي أن يعصم في الأمر حتى يؤديه، وفى النهى، حتى ينتهى عنه.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾:

أ. قيل: إن دين الله ـ الذي اختاره أهل الإسلام؛ بالأمر، واتباع الآيات، والحجج ـ هو الدين، لا كما اختار أولئك بهوى أنفسهم، واستقبال الآيات والحجج بالرد، والإنكار، والمعاندة.

ب. ويحتمل: أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ والبيان لأصحابه، ومن دخل في دينه وصدقه، لا هو، وذلك كثير في القرآن؛ يخاطب هو والمراد غيره.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

أ. ظاهره: من ولى يتولى الدفاع عنك، ولا نصير يمنعك من العذاب.

ب. ويحتمل: ينصرك فتغلب به سلطان الله فيما يريد تعذيبك.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

آية ١٢٠]

١. قيل في معنى هذه الآية قولان:

أ. أحدهما: ان النبي ﷺ كان مجتهداً في طلب ما يرضيهم، ليقبلوا الى الإسلام ويتركوا القتال، فقيل له: دع ما يرضيهم الى ما امر الله به من مجاهدتهم.

ب. والآخر، قال الزجاج: كانوا يسألونه ﷺ الهدنة والمسالمة ويرونه انه ان امهلهم اسلموا، فاعلمه

(١) تفسير الطوسي: ١/ ٤٤٠.

الله انهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، وهذه الآية تدل انه لا يصح إرضاء اليهود ولا النصارى على حال، لأنه تعالى علقه بان اليهود لا يرضون عنه حتى يكون ﷺ يهوديا، والنصارى لا يرضون عنه حتى يكون نصرانيا، فاستحال ان يكون يهوديا نصرانيا في حال واستحال إرضاؤهم بذلك.

٢. الرضا والمحبة، والمودة نظائر وضد الرضا الغضب، ويقال رضي يرضى رضاء، وأرضاه إرضاء، وارتضاه ارتضاء، واسترضاه وترضاه ترضيا، وتراضوا تراضيا، والرضي والمرضي بمعنى واحد، والرضا مقصور من بنات الواو بدلالة الرضوان تقول: رجل رضى ورجال رضى وامرأة ونساء رضى، وأصل الباب الرضى نقيض الغضب.

٣. الملة، والنحلة، والديانة نظائر، وتقول وجد فلان ملة وملالا، وهو عدوى الحمى، ومللت الشيء أمله ملالة ومللا: إذا سئمته ومللت الخبزة أملها ملا: إذا دفنتها في الجمر والجمر بعينه الملة، وقال صاحب العين: الملة الرماد والجمر وكل شيء تمله في الجمر فهو مملول، قال الشاعر في وصف الحرباء: كأنّ ضاحية بالنار مملول الممتل من الملة، وطريق ممل مليل: قد سلك حتى صار معلماً وملة رسول الله ﷺ الامر الذي أوضحه، وامتل الرجل إذا أخذ في ملة الإسلام: اي قصدها ما امل منه، والأمل املال الكتاب، ليكتب، والمليلة من الحمى.

٤. ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وهي الادلة الواضحة على ان المطيع لله هو الذي يفوز بثوابه في الجنة، لا من ذكروه من العصاة له، وهذه الآية تدل على ان من علم الله منه انه لا يعصي، يتناوله الوعيد والزجر، لأنه تعالى علم ان النبي ﷺ لا يعصي ولا يتبع أهواءهم، وفيها دلالة على ان كل من اتبع الكفار على كفرهم ماله من الله من ولي ولا نصير، لأنه إذا وجب ذلك في متبع واحد، وجب ذلك في الجميع.

٥. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى} معناه هو الذي يهدي الى الجنة، لا اليهودية، ولا النصرانية، وقيل ان معناه الدعاء الى هدى الله الذي يكذب قولهم.

٦. ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ﴾ نصب بحتى وحكى الزجاج عن الخليل وسيبويه، وجميع البصر بين أن الناصب للفعل (أن) بعد حتى، لان حتى تخفض الاسم في قوله: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ ولا يعرف في العربية حرف يعمل في اسم وفعل، ولا ما يكون خافضاً لاسم، يكون ناصباً لفعل، فصار ذلك مثل قولك جاء زيد

ليضربك، فإنها تنصب الفعل بإضمار (ان) لكونها جارّة للاسم.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الرضا والمحبة والمودة نظائر، ونقيض الرضا الغضب، والرضا مقصور، من بنات الواو، ودليله الرضوان، والرضا يرجع إلى الإرادة، والغضب إلى الكراهة، فكأن من رَضِيَ عنه يَزِيدُ إكرامه، ومن غضب عليه يزيد هوانه.

ب. الملة والنحلة والديانة نظائر، والملة: النحلة التي ينتحلها الإنسان من الدين، وأصله من الحمى لأن الإنسان يحمى على ملته.

٢. اختلفوا في سبب نزول الآية:

أ. قيل: كانوا يسألون النبي ﷺ الهدنة والمسالمة، ويرونه أنه إن أمهلهم أسلموا، فأعلمه الله تعالى أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، عن الزجاج.

ب. وقيل: كان هذا في أمر القبلة، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبلتهم، فلما صرفت القبلة إلى الكعبة يئسوا من الموافقة، وشق عليهم ذلك، فأنزل الله تعالى الآية.

ج. وقيل: كان النبي ﷺ مجتهدًا في طلب ما يرضيهم ليدخلوا في الإسلام، فأنزل الله تعالى الآية، وقال: دع طلب ما يرضيهم إلى ما أمرك الله به من مجاهدتهم.

٣. لما تقدم ذِكْرُ مخالفة الكفار للرسول، وبين أنه أرسله بالحق آيَسَهُ من موافقتهم، وأمر بمجاهدتهم فقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ يعني كل فرقة منهم لا ترضى عنك إلا أن تتبع ملتهم.

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾:

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٧٠.

أ. قيل: قيل دينهم.

ب. وقيل: قبلتهم.

٥. ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿إِنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى﴾:

أ. قيل: معناه إن القرآن هو الذي يهدي إلى الجنة، فالهدى الأول هو القرآن، والثاني: الهداية إلى الجنة عن أبي علي.

ب. وقيل: معناه الذي دعاه الله إليه من الدين هو الذي يهدي إلى الجنة، وطريق النجاة لا اليهودية والنصرانية، فالهدى الأول الدعاء إلى الحق، والثاني طريق الجنة والنجاة، عن أبي مسلم.

ج. وقيل: معناه هدى الله الذي يكذب قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وتقديره: دلالات كتاب الله تدل على أن الجنة يدخلها المطيعون لا العصاة الَّذِينَ ذكروا.

٦. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ يا محمد ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني مرادهم ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾:

أ. قيل: من الدين.

ب. وقيل: من العلم بأن دين الله هو الإسلام.

٧. قال الحسن: قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وقد علم تعالى أن رسوله لا يتبع أهواءهم، ﴿مَا لَكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الله﴾ يعني مما يريده من عقابه إن اتبعت أهواءهم ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك، فيعصمك منه، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني معين وظهير يعينك عليه.

٨. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه يستحيل رضا اليهود والنصارى؛ لأن اليهود لا ترضى عنه حتى يكون يهوديًّا، والنصارى لا ترضى عنه حتى يكون نصرانيًّا، ويستحيل كونه يهوديًّا ونصرانيًّا، فاستحال رضاهم بذلك.

ب. صحة الوعيد لمن علم أنه لا يَعْصِي؛ لأن قوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ إن اتبعت أهواءهم وَعِيد له، وقد علم أنه لا يتبعهم، وحل ذلك محل قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

ج. أن كل متبع لكافر في كفره، فليس له من الله ولي ولا نصير؛ لأنه أوجب ذلك في متبع واحد، فوجب في كل متبع.

د. أنه لو اتبعهم لا نحبط ثوابه؛ إذ لو بقي ثوابه لما جاز ألا يكون له ولي ولا نصير.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الرضا والمودة والمحبة نظائر، وضد الرضا الغضب، والرضا أيضا: بمعنى المرضي، وهو من بنات الواو وبدلالة قولهم الرضوان، وتقول رجل رضا، ورجال ونساء رضا.

ب. الملة والنحلة والديانة نظائر، وملة رسول الله ﷺ: الأمر الذي أوضحه، وامتل الرجل: إذا أخذ في ملة الاسلام أي: قصد ما أمل منه، والإملال: إملاء الكتاب ليكتب.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: كانت اليهود والنصارى يسألون النبي ﷺ الهدنة، ويرونه أنه إن هادنهم، وأمهلهم اتبعوه، فآيسه الله تعالى من موافقتهم، فقال: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

ب. وقيل: إن النبي ﷺ كان مجتهدا في طلب ما يرضيهم، ليدخلوا في الاسلام، فقيل له: دع ما يرضيهم إلى ما أمرك الله به من مجاهدتهم.

٣. هذا يدل على أنه لا يصح إرضاء اليهود والنصارى على حال، لأنه تعالى علق رضاءهم بأن يصير ﷺ يهوديا أو نصرانيا، وإذا استحال ذلك استحال ارضاؤهم، يعني أنه لا يرضي كل فرقة منهم إلا أن يتبع ملتهم أي: دينهم.. وقيل: قبلتهم.

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى﴾:

أ. قيل: أي: قل يا محمد لهم إن دين الله الذي يرضاه هو الهدى أي: الدين الذي أنت عليه، عن ابن عباس.

ب. وقيل: معناه إن هدى الله، يعني القرآن، هو الذي يهدي إلى الجنة، لا طريقة اليهود والنصارى.

ج. وقيل: معناه إن دلالة الله هي الدلالة، وهدى الله هو الحق، كما يقال: طريقة فلان هي الطريقة.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾:

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٧٤.

أ. قيل: أي: مراداتهم.

ب. وقال ابن عباس: معناه إن صليت إلى قبلتهم: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: من البيان من الله تعالى.

ج. وقيل: من الدين.

٦. ﴿مَالَكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يحفظك من عقابه ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: معين وظهير يعينك عليه، ويدفع بنصره عقابه عنك.

٧. هذه الآية تدل على أن من علم الله تعالى منه، أنه لا يعصي، يصح وعيده، لأنه علم أن نبيه ﷺ، لا يتبع أهواءهم، فجرى مجرى قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ والمقصود منه التنبيه على أن حال أمته فيه أغلظ من حاله، لأن منزلتهم دون منزلته.. وقيل: الخطاب للنبي عليه السلام، والمراد أمته.

٨. مسائل نحوية:

أ. ﴿تَتَّبِعْ﴾: نصب بحتى، قال سيبويه، والخليل: إن الناصب للفعل بعد حتى: ﴿إِنَّ﴾ إلا أنها لا تظهر بعد: ﴿حَتَّى﴾، ويدل على أن: ﴿حَتَّى﴾ لا تنصب بنفسها، أنها تجر الاسم في نحو قوله: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، ولا يعرف في العربية حرف يعمل في اسم، يعمل في فعل.

ب. ﴿لَا﴾ حرف جار يكون ناصبا للفعل، فصار مثل اللام في قولك: ما كان زيد ليضربك، في أنها جارة، والناصب ليضربك أن المضمرة، ولا يجوز إظهارها مع هذه اللام أيضا.

ج. ﴿هُوَ﴾: ضمير مرفوع بالابتداء، أو فصل.. و﴿الْهُدَى﴾: خبر المبتدأ، أو خبر إن.

د. ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ يتعلق بمحذوف في موضع الحال، وذو الحال الموصوف المحذوف الذي قوله: ﴿الَّذِي جَاءَكَ﴾ صفته، وكذلك قوله: ﴿مِنَ اللهِ﴾ في موضع الحال.

هـ. ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾: في موضع رفع بالابتداء، و﴿مِنَ﴾ مزيدة.

و. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ في موضع الجزاء للشرط، ولكن الجزاء إذا قدر فيه القسم، لا يجزم، فلا يكون في موضع جزم، ولا بد أن يكون فيه أحد الحروف الدالة على القسم، فحرف: ﴿مَا﴾ ها هنا تدل على القسم، فلهذا لم يجزم.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنّ يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلّي النبيّ ﷺ إلى قبلتهم، فلمّا صرف إلى الكعبة يئسوا منه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أنهم دعوه إلى دينهم، فنزلت، قاله مقاتل.

ج. الثالث: أنهم كانوا يسألونه الهدنة، ويطمعونه في أنه إن هادنهم وافقوه؛ فنزلت، ذكر معناه الزّجّاج.

٢. قال الزّجّاج: الملّة في اللغة: السّنّة والطّريقة.

٣. قال ابن عباس: و﴿هُدَى اللهِ﴾ هاهنا: الإسلام، وفي الذي جاءه من العلم أربعة أقوال:

أ. أحدها: أنه التّحوّل إلى الكعبة، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: أنه البيان بأنّ دين الله الإسلام.

ج. الثالث: أنه القرآن.

د. الرابع: العلم بضلالة القوم.

٤. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ينفعك: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعك من عقوبته.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. لما صبّر الله تعالى رسوله بما تقدم من الآية وبين أن العلة قد انزاحت من قبله لا من قبلهم وأنه لا عذر لهم في الثبات على التكذيب به عقب ذلك بأن القوم بلغ حالهم في تشددهم في باطلهم وثباتهم على كفرهم أنهم يريدون مع ذلك أن يتبع ملتهم ولا يرضون منه بالكتاب، بل يريدون منه الموافقة لهم فيما هم عليه فبين بذلك شدة عداوتهم للرسول وشرح ما يوجب اليأس من موافقتهم والملة هي الدين.

٢. ثم قال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى﴾ بمعنى أن هدى الله هو الذي يهدي إلى الإسلام وهو

---

(١) زاد المسير: ١/ ١٠٧.

(٢) تفسير الفخر الرازي: ٤/ ٣٠.

الهدي الحق والذي يصلح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما يدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع، ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من الدين المعلوم صحته بالدلائل القاطعة ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي معين يعصمك ويذب عنك، بل الله يعصمك من الناس إذا أقمت على الطاعة والاعتصام بحبله.

٣. تدل الآية الكريمة على:

أ. أن الذي علم الله منه أنه لا يفعل الشيء يجوز منه أن يتوعده على فعله، فإن في هذه الصورة علم الله أنه لا يتبع أهواءهم، ومع ذلك فقد توعده عليه ونظيره قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وإنما حسن هذا الوعيد لاحتمال أن الصارف له عن ذلك الفعل هو هذا الوعيد أو هذا الوعيد أحد صوارفه

ب. أن قوله: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ يدل على أنه لا يجوز الوعيد إلا بعد نصب الأدلة وإذا صح ذلك فبان لا يجوز الوعيد إلا بعد القدرة أولى فبطل به قول من يجوز تكليف ما لا يطاق.

ج. فيها دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلًا، فمن هذا الوجه يدل على بطلان التقليد.

د. فيها دلالة على أنه لا شفيع لمستحق العقاب لأن غير الرسول إذا اتبع هواه لو كان يجد شفيعاً ونصيراً لكان الرسول أحق بذلك وهذا ضعيف، لأن اتباع أهوائهم كفر، وعندنا لا شفاعة في الكفر.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ المعنى: ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا، بل لو أتيتهم بكل ما يسألون لم يرضوا عنك، وإنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم.

٢. يقال: رضي يرضى رضا ورضا ورضوانا ورضوانا ومرضاة، وهو من ذوات الواو، ويقال في التثنية: رضوان، وحكى الكسائي: رضيان، وحكي رضاء ممدود، وكأنه مصدر راضي يراضي مراضاة

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٩٤.

ورضاء.

٣. ﴿تَتَّبِعْ﴾ منصوب بأن ولكنها لا تظهر مع حتى، قاله الخليل، وذلك أن حتى خافضة للاسم، كقوله: ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ وما يعمل في الاسم لا يعمل في الفعل البتة، وما يخفض اسما لا ينصب شيئا، وقال النحاس: ﴿تَتَّبِعْ﴾ منصوب بحتى، و﴿حَتَّى﴾ بدل من أن.

٤. الملة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله، فكانت الملة والشريعة سواء، فأما الدين فقد فرق بينه وبين الملة والشريعة، فإن الملة والشريعة ما دعا الله عباده إلى فعله، والدين ما فعله العباد عن أمره.

٥. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ المعنى ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذي يضعه في قلب من يشاء هو الهدى الحقيقي، لا ما يدعيه هؤلاء.

٦. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الاهواء جمع هوى، كما تقول: جمل وأجمال، ولما كانت مختلفة جمعت، ولو حمل على أفراد الملة لقال هواهم، وفي هذا الخطاب وجهان:

أ. أحدهما: أنه للرسول، لتوجه الخطاب إليه..وعلى هذا يكون فيه تأديب لامته، إذ منزلتهم دون منزلته.

ب. الثاني:أنه للرسول والمراد به أمته.

٧. سبب الآية أنهم كانوا يسألون المسالمة والهدية، ويعدون النبي ﷺ بالإسلام، فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، وأمره بجهادهم.

٨. ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾ سئل أحمد بن حنبل عمن يقول: القرآن مخلوق، فقال: كافر، فقيل: بم كفرته؟ فقال: بآيات من كتاب الله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ والقرآن من علم الله، فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر.

٩. تمسك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعي وداوود وأحمد ابن حنبل على أن الكفر كله ملة واحدة، لقوله تعالى: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ فوحد الملة، وبقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، وبقوله ﷺ: (لا يتوارث أهل ملتين) على أن المراد به الإسلام والكفر، بدليل قوله ﷺ: (لا يرث المسلم الكافر)، وذهب مالك وأحمد في الرواية الأخرى إلى أن الكفر ملل، فلا يرث اليهودي النصراني، ولا يرثان

المجوسي، أخذا بظاهر قوله عليه السلام: (لا يتوارث أهل ملتين)، وأما قوله تعالى: ﴿مِلَّتِهِمْ﴾ فالمراد به الكثرة وإن كانت موحدة في اللفظ بدليل إضافتها إلى ضمير الكثرة، كما تقول: أخذت عن علماء أهل المدينة ـ مثلا ـ علمهم، وسمعت عليهم حديثهم، يعني علومهم وأحاديثهم.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ﴾ الآية، أي: ليس غرضهم ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليك من الآيات، ويوردونه من التعنتات، فإنك لو جئتهم بكل ما يقترحون؛ وأجبتهم عن كل تعنت؛ لم يرضوا عنك، ثم أخبره؛ بأنهم لن يرضوا عنه؛ حتى يدخل في دينهم، ويتبع ملتهم، والملّة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه على ألسن أنبيائه، وهكذا الشريعة.

٢. ثم ردّ عليهم سبحانه، فأمره بأن يقول لهم: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى} الحقيقي، لا ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة، والكتب المحرّفة.

٣. ثم أتبع ذلك بوعيد شديد لرسول الله ﷺ إن اتبع أهواءهم، وحاول رضاهم، وأتعب نفسه في طلب ما يوافقهم، ويحتمل أن يكون تعريضا لأمته، وتحذيرا لهم أن يواقعوا شيئا من ذلك، أو يدخلوا في أهوية أهل الملل، ويطلبوا رضا أهل البدع.

٤. في هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما؛ فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولا وأبان من أخلاقه لينا؛ لا يرضيه إلا اتباع بدعته، والدخول في مداخله، والوقوع في حبائله، فإن فعل العالم ذلك؛ بعد أن علمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدى الله هو ما في كتابه وسنة رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة، وجهالة بيّنة ورأي منها، وتقليد على شفا جرف هار، فهو إذ ذاك ماله من الله من وليّ ولا نصير، ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة، وهالك بلا شك ولا

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/ ١٥٧.

شبهة.

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلَا النَّصَارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أفرد الملَّة مع تعدُّدها لأنَّ مِللهم كلَّها كفر، والكفر ملَّة، وسمِّيت ملَّةً لأنَّ الشيطان أملاها عليهم، أو أهواؤهم وأنفسهم، كما أنَّ دين الله تعالى أملاه جبريل للنبيء ﷺ، قالوا له ﷺ: لن نرضى عنك حتَّى تتَّبع ديننا وقبلتنا فإنَّه الهدى، فأنزله الله عليه وهو في اللوح المحفوظ سابق، وأعلمه أنَّ الأمر كما قالوا لا يرضون عنك إقناطًا له عنهم إذ اتِّباعه ملَّتهم في غاية البعد التي لا غاية بعدها، وكان يلاطفهم طمعًا في إيمانهم حتَّى نزلت.

٢. وعلَّمه أنْ يردَّ عليهم في قوله: ﴿قُلِ اِنَّ هُدَى اللهِ﴾ وهو دين الإسلام، ﴿هُوَ الْهُدَى﴾، تحقيقا إلى الحقِّ، لا ملَّتكم ولا غيرها مِن كلِّ ما خالفه، فأيسوا بعد ما كانوا يرجونه.

٣. ﴿وَلَئِنِ اِتَّبَعْتَ﴾ والله لئن اتَّبعت، ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: ملَّتهم التي ادَّعوها دينا، ومقتضى الظاهر: ولئن اتَّبعتها ـ أي: الملة ـ وعبَّر عنها بالأهواء ليصرِّح بأنَّها مجرَّد اتِّباع النفس، ﴿بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ هو العلم، والمراد الحقيقة أو بعض العلم.

٤. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَّلِيٍّ﴾ يلي أمرك بحفظك من العذاب من أوَّل، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعه عنك إنْ جاءك، لا وليَّ ولا ناصر إلَّا الله، فإذا لم يجئك وليٌّ من عنده ولا نصير هلكت، أو ما لك وليٌّ ولا نصير من عند الله.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي لأنهم يريدون أن يكونوا متبوعين على الإطلاق، وفيه مبالغة في الإقناط من إسلامهم، وتنبيه على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز ووقوعه منه، ﷺ.

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/٢٠٩.

(٢) تفسير القاسمي: ١/ ٣٨٨.

٢. ﴿قُلْ﴾ لا يتبع رسول إلا الهدى، ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ أي الذي هو الإسلام ﴿هُوَالْهُدى} أي فليس وراءه هدى، وما تدعون إليه ليس بهدى، بل هو هوى، كما يعرب عنه قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأن دين الله هو الإسلام، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عقابه، وإنما أوثر خطابه ﷺ ليدخل دخولا أوليّا من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكا بولايتهم، طمعا في نصرتهم.

٣. قال الإمام الرازيّ: وفي الآية دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلا باطلا، فمن هذا الوجه تدل على بطلان التقليد، وفي فتح البيان ما نصه: وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتنصدع منه الأفئدة، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه ـ ترك الدهان لتاركي العلم بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ثم قال عز وجل: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ فعاد إلى ذكر أهل الكتاب على ما عهدنا في أساليب القرآن من ضروب الانتقال بالمناسبات الدقيقة، وقد قال محمد عبده غير مرة: إن القرآن لم يأت على طريقة المنشئين والمؤلفين الذين يخصون كل طائفة من الكلام بموضوع معين ويسمونها فصلا أو بابا، ولكن للقرآن أغراضا يبرزها بصور مختلفة، فكلما لاحت المناسبة لذكر شيء منها أو الاحتجاج عليه أو الدفاع عنه، جاء به يجذب إليه الأذهان، ويسارق به خطرات القلوب، مع مراعاة التناسق، وحفظ الأسلوب البليغ، لهذا يتكرر فيه المعنى الواحد بعبارات متعددة، ويتجلى الروح الواحد في أشكال متنوعة فلم يذكر ههنا المشركين إلا لما بينهم وبين أهل الكتاب من التناسب والتقارب في المجاحدة والمعاندة، فكان ذكرهم من متممات الحجة على أهل الكتاب من حيث أدى غرضا مقصودا في ذاته، ولما كان ذكرهم في عرض الكلام كالجملة الاعتراضية كان الرجوع إلى سرد شؤون أهل الكتاب مع

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٤٤٥.

النبيّ عليه السّلام رجوعا إلى أصل الموضوع

٢. من شأن الانسان أن يتألم من القبيح أشد التألم إذا وقع ممن لا يتوقع منه فكان النبيّ ﷺ يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الايمان به وأن لا يرى منهم المكابرة والمجاحدة والعناد، ولهذا كبر عليه أن رأى من إعراض اليهود والنصارى عن إجابة دعوته، وإسرافهم في مجاحدته أشد مما رأى من مشركي العرب الذين جاء لمحو دينهم من الأرض، مع موافقته لأهل الكتاب في أصل دينهم ومقصده من توحيد الله تعالى والاخلاص له وتقويم عوج الفطرة الانسانية الذي طرأ عليها بسبب التقاليد، وترقية المعارف الدينية إلى أعلى ما استعد له الانسان من الارتقاء العقلي والأدبي، ولذلك كان يخاطبهم بمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية وغيرها من الآيات.

٣. لقد كان من الصعب لولا إعلام الله تعالى أن تعرف درجة فتك التقليد بعقول أهل الكتاب وإفساد الأهواء لقلوبهم، لذلك سلى الله تعالى نبيه عما كان يجده من عنادهم وإيذائهم بآيات كثيرة عرفه فيها حقيقة حالهم، منها هذه الآية الناطقة بأن كلا من اليهود والنصارى على اتحادهم في أصل الدين قد تعصب لتقاليده واتخذ الدين جنسية لا يرضيه من أحد شيء إلا الدخول فيها وقبول لقبها فقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ مراد به ما هم عليه من التقليد والأهواء التي غيروا بها وجه الدين الواحد حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض كما تقدم في الآيات السابقة.

٤. ثم أمره تعالى في مقابلة ذلك بقوله ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى} أي اجهر بقول الحق وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذي أنزله على أنبيائه دون ما أضافه اليه اليهود والنصارى بآرائهم وأهوائهم ففرقوا دينهم وكانوا شيعا كل شيعة تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شيء، أي فإن أردت استرضاء هم فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي أضافوها على كتبهم، وجعلوها أصولا وفروعا لدينهم، ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ اليقين بالوحى الالهي المبين، الذي بيّن ما كان منهم من تحويل القول عن معناه بالتأويل، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، ونسيانهم حظا مما ذكروا به.

٥. ﴿مالَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ} أي فانك لن تنجح ولن تصل إلى حقك بمجاراتهم على باطلهم، لأن الله لا ينصرك على ذلك إذ لا يرضيه أن يكون اتباع الهوى؛ طريقا إلى الهدى، والضال لا يرضيه إلا موافقته على ضلاله، ومجاراته على فساده، وإذا لم يكن الله هو الذي يتولى شئونك وينصرك

بمعونته فمن ذا الذي ينصرك ويتولاك من بعده؟

٦. مفهوم هذا المصرح به في آيات أخرى أن ثباته على هدى الله المؤيد بالعلم هو الذي يكون سببا لتوليه تعالى له ونصره إياه عليهم، ومن المعلوم أن شرط إن لا يقتضي الوقوع فهو لا يدل على أن اتباع أهوائهم متوقع منه ﷺ وإنما هو فرض فرض لبيان مضمونه الذي ذكرنا، وفيه أن من سنن الله تأييد متبعي الهدى على علم صحيح وأنهم هم الغالبون المنصورون، وهو ما يعبر عنه علماء الاجتماع ببقاء الأمثل في كل تنازع بينه وبين ما دونه.

٧. من تدبر هذا الانذار الشديد الموجه من الله تعالى إلى نبيّ الرحمة، المؤيد منه بالكرامة والعصمة، علم أن المراد به الوعيد والتشديد على الأمة، على حد (إياك أعنى واسمعي يا جاره) فان الله تعالى يخاطب الناس كافة في شخص النبيّ ﷺ كما جرى عرف التخاطب مع الرؤساء والزعماء فقد يقال للملك: إذا فعلت هذا كانت عاقبته كذا: والمراد إذا فعلته دولتك أو أمتك وقد تقدم غير مرة إسناد عمل بعض الأفراد إلى الأمة كلها ولكن قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ وهو يعلم جل شأنه أنه لا يتبع أهواءهم في حال من الأحوال، وقد عصمه من الزيغ والضلال، إنما جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتي بعده ممن يتبع سنته ويأخذ بهديه، فهو يرشدنا بهذا التهديد العظيم إلى الصدع بالحق والانتصار له، وعدم المبالاة بمن يخالفه مهما قوى حزبهم، واشتد أمرهم، وإنه لتهديد ترتعد منه فرائض الذين يخشون ربهم، ولا سيما إذا أنسوا من أنفسهم ضعفا في الحق كأن تركوا الجهر به أو الدفاع عنه خوفا من إنكار العامة عليهم، ولغط الناس بهم.

٨. من عرف الحق وعرف أن الله تعالى ولى أهله وناصرهم، لا يخاف في تأييده لومة لائم، ولا يغترن أحد بمن يسميهم الناس علماء وعارفين في سكوتهم عن الحق، ومجاراتهم لأهل الباطل فانهم ليسوا على شيء من العلم الحقيقي وإن هي إلا كلمات يتلقفونها، وعادات يتقلدونها، لا حجة للأحياء فيها، سوى قولهم إن الميتين درجوا عليها (قال) وليس هذا هو العلم الذي جاء به النبي ﷺ وإنما هو شيء كان يلقب بالعلم عند الضالين من أهل الكتاب والمشركين كذلك، وقد نفى عنه كونه علما على الحقيقة بمثل قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وبقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فمن أخذ بقول القائلين، واتبع ما وجد عليه السابقين، بدون بينة يعرف بها وجه الحق من ذلك ـ وكتاب الله بين يديه لا

ينظر فيه ولا يرجع إليه فقد اتبع الهوى بعد الذي جاء من العلم إلى النبيّ ﷺ وباء بالخزي في الدنيا وبالنكال في الآخرة ولم يكن ولن يكون له من الله ولى ولا نصير، اللهم أعنا على الجهر بالحق بعد ما عرفناه، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ الطريقة المشروعة للعباد تسمي ملة، لأن الأنبياء أملّوها وكتبوها لأمتهم، وتسمى دينا، لأن العباد انقادوا لمن سنها، وتسمى شريعة لأنها مورد للمتعطشين إلى ثواب الله ورحمته، وقد كان النبي ﷺ يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الإيمان به، ومن ثم كبر عليه إعراضهم عن إجابة دعوته، وإلحافهم في مجاحدته، مع موافقتهم له في أصل دينهم، من توحيد الله وتقويم ما اعوجّ من الفطرة الإنسانية، بما طرأ عليها من التقاليد الفاسدة بالمعارف الدينية الصالحة إلى أقصى حد مستطاع.

٢. في الآية تيئيس له عليه السلام من طمعه في إسلامهم، إذ علق رضاهم عنه بما هو مستحيل أن يكون، وهو اتباع ملتهم والدخول في دينهم، لأنهم اتخذوا الدين جنسية لا يرضون عن أحد إلا إذا دخل في حظيرتها، وانضوى تحت لوائها، وكلامهم هذا يتضمن أن ملتهم هي الهدى لا ما سواها، ومن ثم ردّ الله عليهم بقوله آمرا نبيّه.

٣. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى﴾ أي إن الهدى هو ما أنزله الله على أنبيائه، لا ما أضافه إليه اليهود والنصارى بالهوى والتشهي، ففرقوا دينهم وكانوا شيعا، كلّ شيعة تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شيء.

٤. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي ولئن اتبعت ما أضافوه إلى ـ دينهم وجعلوه أصلا من أصول شريعتهم بعد ما حصل لك من اليقين والطمأنينة بالوحى الإلهي الذي نزل عليك، ومنه علمت أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويل، وأنهم نسوا حظا مما ذكروا به.

---

(١) تفسير المراغي: ١/ ٢٠٤.

٥. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي فالله لا ينصرك ولا يساعدك على ذلك، إذ أن اتباع الهوى لا يكون طريقا موصلا إلى الهدى، وإذا لم ينصرك الله ويتولّ شئونك فمن ذا الذي ينصرك من بعده؟

٦. هذا الإنذار الشديد والوعيد والتهديد وإن كان موجها إلى النبي ﷺ الذي عصمه الله من الزيغ والزلل وأيده بالكرامة، هو في الحقيقة خطاب للناس كافة في شخص النبي ﷺ، وقد جرى العرف في خطاب الملوك أن يقال للملك: إذا فعلت كذا كانت العاقبة كذا، ويراد إذا فعلته دولتك أو أمتك.

٧. الكلام هنا جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتي بعده أن يصدع بالحق، وينتصر له ولا يبالى بمن خالفه مهما قوى حزبه واشتدّ أمره، فمن عرف الحقّ وعرف أن الله ولىّ أمره وناصره لا يخاف في تأييده لوم اللائمين، ولا إنكار المعاندين.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. سيظل اليهود والنصارى يحاربونك، ويكيدون لك، ولا يسالمونك ولا يرضون عنك، إلا أن تحيد عن هذا الأمر، وإلا أن تترك هذا الحق، وإلا أن تتخلى عن هذا اليقين، تتخلى عنه إلى ما هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور كالذي سبق بيانه منذ قليل: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.. فتلك هي العلة الأصيلة، ليس الذي ينقصهم هو البرهان؛ وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق، وأن الذي جاءك من ربك الحق، ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت.. لن يرضيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق.

٢. إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان.. إنها هي العقيدة، هذه حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة.. إنها معركة العقيدة هي المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما؛ وقد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينها، ولكنها تلتقي دائما في المعركة ضد الإسلام والمسلمين!

٣. إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها، ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للإسلام

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٠٨.

والمسلمين يلونانها بألوان شتى، ويرفعان عليها أعلاما شتى، في خبث ومكر وتورية، إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة، ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة.. لم يعلنوها حربا باسم العقيدة ـ على حقيقتها ـ خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها، إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة، والمراكز العسكرية.. وما إليها، وألقوا في روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع رايتها، وخوض المعركة باسمها، فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها.. بينما هم في قرارة نفوسهم: الصهيونية العالمية والصليبية العالمية ـ بإضافة الشيوعية العالمية ـ جميعا يخوضون المعركة أولا وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلا، فأدمتهم جميعا! إنها معركة العقيدة، إنها ليست معركة الأرض، ولا الغلة، ولا المراكز العسكرية، ولا هذه الرايات المزيفة كلها، إنهم يزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين، ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا، ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته، وهو سبحانه ـ أصدق القائلين: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه، وما سواه فمرفوض ومردود!

٤. لكن الأمر الحازم، والتوجيه الصادق: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى}على سبيل القصر والحصر، هدى الله هو الهدى، وما عداه ليس بهدى، فلا براح منه، ولا فكاك عنه، ولا محاولة فيه، ولا ترضية على حسابه، ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير، ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق.

٥. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ بهذا التهديد المفزع، وبهذا القطع الجازم، وبهذا الوعيد الرعيب.. ولمن؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم! إنها الأهواء.. إن أنت ملت عن الهدى.. هدى الله الذي لا هدى سواه.. وهي الأهواء التي تقفهم منك هذا الموقف؛ وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذا هو مقطع الفصل فيما تحدثت به الآيات السابقة، عن الكيد الذي يكيد به أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ للنبيّ ولرسالته، في صدّ الناس عنه، وإلقاء الشبه والضلالات بين يدى المسلمين.. إنهم لن يرضوا عن النبيّ ولن يهادنوه، حتى يترك دعوته، ويطوى رسالته، ويدخل فيما هم فيه!

٢. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى} أي إن الهدى الذي بين يديك هو هدى الله، وهو الهدى الذي لا هدى إلا به.

٣. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وهذا توكيد بأن ما مع النبي هو الهدى، وأن العدول عنه إلى ما يدعو إليه أهل الكتاب من مخلقات أهوائهم، هو البوار والهلاك.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

٢. عطف على قوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩] أو على: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ [البقرة: ١١٩] وقد جاء هذا الكلام المؤيس من إيمانهم بعد أن قدم قبله التأنيس والتسلية على نحو مجيء العتاب بعد تقديم العفو في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] وهذا من كرامة الله تعالى لنبيه ﷺ.

٣. النفي بلن مبالغة في التأييس لأنها لنفي المستقبل وتأبيده.

٤. الملة بكسر الميم الدين والشريعة وهي مجموع عقائد وأعمال يلتزمها طائفة من الناس يتفقون عليها وتكون جامعة لهم كطريقة يتبعونها، ويحتمل أنها مشتقة من أملّ الكتاب فسميت الشريعة ملة لأن الرسول أو واضع الدين يعلمها للناس ويمللها عليهم كما سميت دينا باعتبار قبول الأمة لها وطاعتهم

---

(١) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١٣٦.

(٢) التحرير والتنوير: ١/ ٦٧٥.

وانقيادهم.

٥. معنى الغاية في: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ الكناية عن اليأس من اتباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ لأنهم إذا كانوا لا يرضون إلا باتباعه ملتهم فهم لا يتبعون ملته، ولما كان اتباع النبي ملتهم مستحيلا كان رضاهم عنه كذلك على حد: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] وقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٢، ٣]

٦. التصريح بلا النافية بعد حرف العطف في قوله: ﴿وَلَا النَّصَارَى﴾ للتنصيص على استقلالهم بالنفي وعدم الاقتناع باتباع حرف العطف لأنهم كانوا يظن بهم خلاف ذلك لإظهارهم شيئا من المودة للمسلمين كما في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: ٨٢] وقد تضمنت هذه الآية أنهم لا يؤمنون بالنبي لأنه غير متبع ملتهم وأنهم لا يصدقون القرآن لأنه جاء بنسخ كتابيهم.

٧. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أمر بالجواب عما تضمنه قوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى﴾ من خلاصة أقوال لهم يقتضي مضمونها أنهم لا يرضيهم شيء مما يدعوهم النبي إليه إلا أن يتبع ملتهم وأنهم يقولون إن ملتهم هدى فلا ضير عليه إن اتبعها مثل قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١] وغير ذلك من التلون في الإعراض عن الدعوة ولذلك جيء في جوابهم بما هو الأسلوب في المجاوبة من فعل القول بدون حرف العطف.. ويجوز أن يكونوا قد قالوا ما تضمنته الآية من قوله: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

٨. ﴿هُدَى اللهِ﴾ ما يقدره للشخص من التوفيق، أي قل لهم: لا أملك لكم هدى إلا أن يهديكم الله، فالقصر حقيقي.

٩. يجوز أن يكون المراد بهدى الله الذي أنزله إليّ هو الهدى يعني أن القرآن هو الهدى إبطالا لغرورهم بأنّ ما هم عليه من الملة هو الهدى وأن ما خالفه ضلال، والمعنى أن القرآن هو الهدى وما أنتم عليه ليس من الهدى لأن أكثره من الباطل.

١٠. إضافة الهدى إلى الله تشريف، والقصر إضافي، وفيه تعريض بأن ما هم عليه يومئذ شيء حرفوه ووضعوه، فيكون القصر:

أ. إما قصرا حقيقيا ادعائيا بأن يراد هو الهدى الكامل في الهداية فهدى غيره من الكتب السماوية

بالنسبة إلى هدى القرآن كلا هدى لأن هدى القرآن أعم وأكمل فلا ينافي إثبات الهداية لكتابهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [المائدة: ٤٦]

ب. وإما قصرا إضافيا أي هو الهدى دون ما أنتم عليه من ملة مبدلة مشوبة بضلالات، وبذلك أيضا لا ينتفي الهدى عن كثير من التعاليم والنصائح الصالحة الصادرة عن الحكماء وأهل العقول الراجحة والتجربة لكنه هدى ناقص.

١١. ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ الضمير ضمير فصل، والتعريف في الهدى تعريف الجنس الدال على الاستغراق ففيه طريقان من طرق الحصر هما ضمير الفصل وتعريف الجزأين وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به فأيهما اعتبرته طريق قصر كان الآخر تأكيدا للقصر وللخبر أيضا.

١٢. التوكيد بأنّ لتحقيق الخبر وتحقيق نسبته وإبطال تردد المتردد لأن القصر الإضافي لما كان المقصود منه رد اعتقاد المخاطب قد لا يتفطن المخاطب إلى ما يقتضيه من التأكيد فزيد هنا مؤكد آخر وهو حرف (إن) اهتماما بتأكيد هذا الحكم، فقد اجتمع في هذه الجملة عدة مؤكدات هي: حرف إن والقصر، إذ القصر تأكيد على تأكيد ما في (المفتاح) فهو في قوة مؤكدين، مع تأكيد القصر بضمير الفصل وهي تنحل إلى أربعة مؤكدات لأن القصر بمنزلة تأكيدين وقد انضم إليهما تأكيد القصر بضمير الفصل وتأكيد الجملة بحرف (إن)

١٣. لعل الآية تشير إلى أن استقبال النبي ﷺ في الصلاة إلى القبلة التي يستقبلها اليهود لقطع معذرة اليهود كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فأعلم رسوله بقوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ بأن ذلك لا يلين من تصلب اليهود في عنادهم فتكون إيماء إلى تمهيد نسخ استقبال بيت المقدس.

١٤. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، اللام موطئة للقسم وذلك توكيد للخبر وتحقيق له، وعبر عن طريقتهم هنالك بالملة نظرا لاعتقادهم وشهرة ذلك عند العرب، وعبر عنها هنا بالأهواء بعد أن مهد له بقوله: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ فإن الهوى رأي ناشئ عن شهوة لا عن دليل، ولهذا لم يؤت بالضمير الراجع للملة وعبر عنها بالاسم الظاهر فشملت أهواؤهم التكذيب بالنبي وبالقرآن

واعتقادهم أن ملتهم لا ينقضها شرع آخر.

١٥. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ تحذير لكل من تلقى الإسلام أن لا يتبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى، جاء على طريقة تحذير النبي ﷺ مثل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وهو جواب القسم ودليل جواب الشرط لأن اللام موطئة للقسم فالجواب لها، وجيء بأنّ الشرطية التي تأتي في مواقع عدم القطع بوقوع شرطها لأن هذا فرض ضعيف في شأن النبي والمسلمين.

١٦. الولي القريب والحليف، والنصير كل من يعين أحدا على من يريد به ضرا وكلاهما فعيل بمعنى فاعل.

١٧. (من) في قوله: ﴿مِنَ اللهِ﴾ متعلقة بولي لتضمينه معنى مانع من عقابه ويقدر مثله بعد: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي نصير من الله.. و(من) في قوله: ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ مؤكدة للنفي، وعطف النصير على الولي احتراس لأن نفي الولي لا يقتضي نفي كل نصير إذ لا يكون لأحد ولي لكونه دخيلا في قبيلة ويكون أنصاره من جيرته، وكان القصد من نفي الولاية التعريض بهم في اعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه فنفى ذلك عنهم حيث لم يتبعوا دعوة الإسلام ثم نفى الأعم منه وهذه نكتة عدم الاقتصار على نفي الأعم.

١٨. اشتملت جملة: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إلى آخرها على تحذير من الطمع في استدناء اليهود أو النصارى بشيء من استرضائهم طمعا في إسلامهم بتألف قلوبهم فأكد ذلك التحذير بمجموعة مؤكدات هي:

أ. القسم المدلول عليه باللام الموطئة للقسم.

ب. وتأكيد جملة الجزاء بإنّ وبلام الابتداء في خبرها.

ج. واسمية جملة الجزاء وهي: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

د. وتأكيد النفي بمن في قوله: ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾

هـ. والإجمال ثم التفصيل بذكر اسم الموصول وتبيينه بقوله: ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾

و. وجعل الذي جاء (أي أنزل إليه) هو العلم كله لعدم الاعتداد بغيره لنقصانه.

ز. وتأكيد: ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ بعطف: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ الذي هو آيل إلى معناه وإن اختلف مفهومه، فهو كالتأكيد بالمرادف.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. وإن الذين يثيرون القول في الآيات البينات وخاصة معجزة القرآن هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين غلفت دون الهداية قلوبهم، وتعصبوا لأوهام باطلة سيطرت على نفوسهم، وحسبوا ألا يكون دين فوق دينهم يجب اتباعه، وجهلوا ما عندهم، وضلوا فيه ضلالا مبينا، وغاضبوا محمدا ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

٢. في هذا النص إشارة إلى أنهم هم الذين يعارضون، ويتعنتون؛ لأنه سبق إليهم ما يحسبون به أنهم فوق أن يتبعوا غيرهم، بل غيرهم عليه هو أن يتبعهم، وقد أكد الله تعالى أن ذلك المعنى في نفوسهم، فنفى عنهم الرضا على النبيّ ﷺ نفيا مؤكدا للحال التي كانوا عليها عند المبعث المحمدي؛ لأن رسالته ﷺ، واجهت في نفوسهم شعورا مملوءا بالضلال والهوى والانحراف عن الجادة المستقيمة، ولكى يدخل الحق إليها لا بد من تفريغ ما فيها من ضلال وفساد، وهداية النفس الخالية من فساد المنكر أقرب من النفس الممتلئة بالباطل، فهم يريدون أن يكونوا متبوعين لا تابعين، وتلك توجد فيهم جحودا، وقسوة في قبول الحق لا يقل عن المشركين، في تمسكهم برئاساتهم، وشرف قبائلهم وعشائرهم، والمنافسات بينهم.

٣. الملة هي الشريعة، وقد قال الراغب في مفرداته: (الملة كالدين وهى اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوسلوا به إلى جوار الله تعالى، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبيّ ﷺ التي تسند إليه نحو ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران]، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ [يوسف] ولا تكاد توجد مضافة إلى الله، ولا إلى آحاد أمة النبي... لا يقال: ملة الله، ولا يقال: ملتي، ولا: ملته)، وعلى ذلك يكون: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي الملة التي جاءتهم عن أحبارهم ورهبانهم، وإن ملة اليهود، ومثلها ملة النصارى أوهام أوجدتها شهوات حبيسة، فملة اليهود أهواء وملة النصارى أوهام وأهواء، وكلهم ضلال في ضلال.

٤. لذا قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٨٨.

نَصِيرٍ﴾ أكد الله سبحانه وتعالى نهى النبيّ ﷺ باللام الدالة على القسم مع إن، وهما أشد ألفاظ التوكيد في بيان عاقبة الاتباع، وأنه إذا كان الاتباع المنهى عنه نهيا مؤكدا، فالعاقبة ألا يكون لمن اتبع أهواءه إلا أن ينزل عليه عقاب الله تعالى، ولا يكون له ولى محب يدفع عنه، ولا نصير ينصره من غير الله.

٥. معنى النص السامي أنك أيها الرسول إن اتبعت أهواءهم فإنه من المؤكد أن العذاب نازل، ولا ينجيك منه ولى ولا نصير.

٦. تحذير النبيّ ﷺ لا يقصد به شخصه أولا وبالذات، إنما يقصد به أتباع محمد ﷺ، وأن عليهم أن يحرصوا على مجانبتهم، وألا يغتروا بهم، وإنه في وقت ضعف النفوس المؤمنة يكون كيد هؤلاء مستمرا، دائما ومذهبا يصلون به إلى قلوب ضعاف الإيمان، فقد يميلون ـ وإن لم يكفروا ـ فيستحسنوا ما عندهم، وإنا نرى من ضعفاء الإيمان في عصرنا من يستحسنون كل ما عند النصارى واليهود، فإذا ذكرت أحوالهم استحسنوها، وإذا ذكرت مكارم المسلمين استهجنوها، حتى طمع أولئك الفجرة الفسقة في بعض المسلمين، فأخذوا يستهوونهم بكل الأساليب، وقى الله أهل الإيمان منهم.

٧. ما عند هؤلاء ليس بدين يتبع، ولكنه أهواء باطلة وأوهام فاسدة، وأي عقل يدرك أن الواحد اثنان وأن الاثنين ثلاثة!!؟ ولكنها أوهام ضالة، والله المنقذ من الضلال.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. سأل اليهود والنصارى محمدا ﷺ ان يهادنهم، وأظهروا له انه إذا هادنهم وأمهلهم اتبعوه وآمنوا به فآيسه الله منهم ومن موافقتهم، وهذا يدل على انه لا يصح إرضاء اليهود والنصارى بحال من الأحوال، لأنه تعالى علق رضاهم بأن يصير يهوديا أو نصرانيا، وإذا استحال ذلك استحال ارضاؤهم.

٢. الحقيقة ان أكثر أهل الأديان والأحزاب على هذه النزعة، ولا خصوصية لليهود والنصارى في ذلك، بل ان بعض الناس لا يرضى عنك الا إذا جعلت من نفسك عبدا له، وقد استنكر القرآن الكريم هذه النزعة البغيضة، ودعا الى التعايش الديني مع جميع أهل الأديان، وقدس جميع الرسل والأنبياء،

---

(١) التفسير الكاشف: ١/ ١٩٢.

وذكرهم بكل خير، وأوجب على أتباعه الاعتراف بهم والايمان بنبوتهم، وهذا من أقوى البواعث للتآخي بين أهل الملل والنحل، وتعاون بعضهم مع بعض.

٣. خص الله تعالى اليهود والنصارى بالذكر، كي ييأس النبي ويقنط من متابعتهم له، كما قال صاحب المجمع.

٤. المراد بالهدى هنا الإسلام الذي أوحاه الله الى نبيه محمد ﷺ، وما عداه هوى، لا هدى.. والمعنى قل يا محمد لليهود والنصارى: ان ما أنا عليه هو الحق، وما أنتم عليه باطل وضلالة، فكيف أترك الحق، واتبع الضلال؟

٥. أخبر الله جل وعز نبيه الكريم بأن اليهود والنصارى لن يرضوا عنه، حتى يتبع ملّتهم، ومع علمه سبحانه بعصمة نبيه محمد ﷺ، وانه لن يتبع أهواءهم بحال فقد وجه اليه هذا التحذير: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

٦. لصحة هذا النهي والتحذير وجوه:

أ. الأول ان المعصية ممكنة الصدور من النبي ذاتا، ممتنعة عرضا، أي انه يترك المعصية مع قدرته على فعلها، والا لم يكن له فضل في تركها، وجاء النهي والتحذير بالنظر الى ما هو ممكن بالذات، بغض النظر عما هو ممتنع بالعرض، أي بلحاظ العصمة.

ب. الثاني: ان الخطاب هنا من باب (إياك أعني واسمعي يا جارة)، أي هو موجه للنبي في الظاهر، وللناس في الواقع.

ج. الثالث: ان النبي ربما دار في خلده أن يتقرب من اليهود إلى حد ما.. عسى أن يهتدوا، أو يستعين بهم على ما يبتغيه من الخير، أو يخفف من غلوائهم، ويكفّ بعض شرورهم.. فبين الله له ان اعداء الدين والمبدأ لا يرضيهم منك شيئا إلا أن تترك ما أنت عليه من الحق، وتتبع ما هم عليه من ضلال.. ثم نهاه عن مهادنتهم والتقرب منهم، لأن ذلك يساعدهم، ويشد من عضدهم من حيث لا يريد، وهذه التقوية والمساندة محرمة عليك يا محمد، وعلى غيرك، تماما كما يحرم اتّباع دينهم.. هذا، الى أن اليهود قد جبلوا على الشر والفساد، ومعاندة الحق وأهله، والاساءة إلى من أحسن اليهم، ولا تجدي معهم أية محاولة للسلم، وكيف الأذى.. وخير الأجوبة ان لله أن يأمر وينهى المعصوم كما يأمر وينهى غير المعصوم، بالنظر لجلاله

سبحانه، وإذا كان من فرق بين المعصوم وغيره فهو بالنسبة الى غيره تعالى لا بالنسبة اليه.

٧. هذا النهي والتحذير يدمغ من يتملق لأعداء الدين والوطن متذرعا انه يريد استغلالهم لمصلحة المؤمنين.. ولكن العكس هو الصحيح فان عدو الدين والمبدأ والوطن لا يسالم إلا على أساس التجارة والمساومة، وان يكون هو الرابح دائما وشعاره الوحيد خذ ولا تعط، فان لم تستطع فخذ أكثر مما تعطي.. ولقد بين الله جل وعز حقيقة هؤلاء التجار بأوضح بيان وأبلغه، حيث قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾، رجوع إلى الطائفتين بعد الالتفات إلى غيرهم، وهو بمنزلة جمع أطراف الكلام على تفرقها وتشتتها، فكأنه بعد هذه الخطابات والتوبيخات لهم يرجع إلى رسوله ويقول له: هؤلاء ليسوا براضين عنك، حتى تتبع ملتهم التي ابتدعوها بأهوائهم ونظموها بآرائهم.

٢. أمره الله تعالى بالرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى} أي إن الاتباع إنما هو لغرض الهدى ولا هدى إلا هدى الله والحق الذي يجب أن يتبع وغيره ـ وهو ملتكم ـ ليس بالهدى، فهي أهواؤكم ألبستموها لباس الدين وسميتموها باسم الملة.

٣. في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ إلخ، جعل الهدى كناية عن القرآن النازل، ثم أضيف إلى الله فأفاد صحة الحصر في قوله: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى} على طريق قصر القلب، وأفاد ذلك خلو ملتهم عن الهدى، وأفاد ذلك كونها أهواء لهم، واستلزم ذلك كون ما عند النبي علما، وكون ما عندهم جهلا، واتسع المكان لتعقيب الكلام بقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، فانظر إلى ما في هذا الكلام من أصول البرهان العريقة، ووجوه البلاغة على إيجازه، وسلاسة البيان وصفائه.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٦٥.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ لأنهم متعصبون لدينهم وغاضبون مما جئت به في شأنهم وحاسدون لك على الرسالة واتباع أمر الله ومكانتك عند الله.

٢. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ وقد هداني إلى صراط مستقيم، فلن أتبع ملتكم: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ لأنهم في كفرهم إنما هم متبعون للأهواء تقودهم إلى الكفر والأباطيل والعمل بالمنسوخ من شريعتهم الذي صار بالنسخ قد انتهى حكمه وصار التمسك به تعصباً، إنما هو من الأهواء، وقد خرج عن كونه من الدين: ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الذي أنزله الله إليك وهداك به وبين لك أنهم على ضلال مبين.

٣. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولى رعايتك ويعصمك من خذلان الله لك بشفاعته: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عذاب الله، وليس معنى هذا أن رسول الله ﷺ مظنة اتباعه لأهوائهم أو قريب من ذلك، ولكن هذا تعبد كنهيه عن سائر المنكرات التي لا تقع منه، ويثاب على تركها، وفيه دلالة واضحة على أن اليهود والنصارى ما لهم من الله من ولي ولا نصير.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. قال المفسرون في أسباب نزول هذه الآية: إن النبي كان مجتهدا في طلب ما يرضيهم ليدخلوا في الإسلام، فقيل له: دع ما يرضيهم إلى ما أمرك الله به من مجاهدتهم، وقالوا ـ في مجال آخر ـ: كان اليهود يسألون النبي ﷺ الهدنة ويرونه أنه إن هادنهم وأمهلهم اتبعوه، فآيسه الله تعالى من موافقتهم.

٢. نعتقد أنّ ما يذكره هؤلاء المفسرون هو نوع من أنواع الاجتهاد في استيحاء القصة التي يفرضون وجودها في كل آية من الآيات التي يخاطب الله فيها نبيّه في كل قضية من القضايا المتعلقة بموقف النبي من العلاقات المتصلة بالآخرين، ولكننا لا نرى ضرورة في ذلك، بل الظاهر هو أن الله كان يريد أن يقدم

---

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٧٦.

(٢) من وحي القرآن: ٢/ ١٩٥.

للمسلمين ـ من خلال النبي ـ الوعي العميق للواقع الذي يحيط بهم، سواء في ذلك الواقع المتمثل بالأشخاص الذين يخالفونهم في الدين، أو المتمثل بالأحداث والأوضاع المحيطة بهم، ليكونوا على معرفة عميقة شاملة لما حولهم، مما يجنّبهم خطر الوقوع في تجربة المعرفة التي قد تعرضهم للهلاك، وتدفعهم إلى السير في وضوح الرؤية بعيدا عن الانفعالات السريعة والأوهام الطائرة.

٣. قد يكون الأساس في اختيار النبي للخطاب، ثم اتباع أقسى الأساليب شدّة في خطاب الله له، هو الإيحاء بأن هذه القضية هي من القضايا التي تبلغ مرحلة كبيرة من الأهمية والخطورة، بالمستوى الذي لا يمكن فيها مراعاة جانب أي شخص، وإن كان في مستوى عظمة النبي محمد ﷺ، لأن عظمة الأشخاص وقداستهم مستمدة من طاعتهم لله فيما يريد وفيما لا يريد، فإذا انحرفوا عن الخط ـ ولن ينحرفوا عنه ـ سقطت عظمتهم وتحوّلوا إلى أشخاص عاديين خاطئين، لا يملكون لأنفسهم من دون الله وليا ولا نصيرا.

٤. يعتبر هذا الأسلوب من الأساليب البارزة في القرآن في القضية التي تتخذ جانب الخطورة على أساس العقيدة وصدقها وسلامتها من الانحراف، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، أمّا هذه الآية، فقد عالجت قضية من أخطر القضايا التي قد تواجه العاملين في سبيل الله في علاقتهم بالكافرين والمنافقين والفاسقين، فقد يستسلم العاملون لحالة نفسية طاهرة يعيشون فيها الأمل الكبير بهداية هؤلاء المعادين للإسلام من خلال الأساليب التي يتبعونها إزاء المسلمين في ما يقدمونه من تبريرات، وفي ما يثيرونه من انفعالات وعواطف، وفي ما يوحون به من أفكار حميمة توحي بقربهم إلى الحق، وذلك من خلال بعض المواقف التي يتقدمون بها في بعض مراحل الطريق، مما يخلق انطباعا بأنهم يتقدمون إلى الحق، وقد تخلق هذه الحالة حالة أخرى، وهي الرغبة في إرضاء هؤلاء ببعض الكلمات والمواقف طمعا في الحصول على صداقتهم أو رضاهم، مما يستدعي من المسلمين تقديم تنازلات فكرية أو عملية في حالات معينة.

٥. وقع الكثيرون من العاملين في هذا الشرك الشيطاني الذي ينصبه أعداء الله، فاستطاعوا أن يجروهم إلى تقديم بعض التنازلات على حساب سلامة الإسلام في عقيدته وشريعته ومواقعه، مما أعطاهم ـ في نظر البسطاء من المسلمين ـ صفة الشرعية لمبادئهم، وأغراهم ـ بالتالي ـ بالمطالبة بتنازلات جديدة تبعا

لحاجة الظروف الموضوعية لذلك، وكانت النتيجة هي إعطاء أعداء الدين فرصة للتقدم وللحصول على الشرعية، وخسارة المسلمين لكثير من المواقع الفكرية والعملية، من خلال الفكرة التي أوحت بها هذه التنازلات، وهي أن من الممكن للمسلم المحافظة على إسلامه، مع التنازل عن بعض جوانب عقيدته وشريعته، وما زال الأعداء يساومون، وما زال الكثيرون منا يقدمون التنازلات، ليحصلوا على رضاهم من أجل الحصول على هدايتهم، ثم تحوّلت القضية إلى الهزيمة النفسية التي عاشها المسلمون، من خلال الهزيمة الفكرية والسياسية والعسكرية، مما جعلنا نلهث في سبيل الحصول على رضاهم، كما يلهث الضعفاء في الحصول على رضى الأقوياء للحصول على الحماية والمكاسب والحاجات الصغيرة في الحياة.

٦. تلك هي النتيجة التي حذّر منها القرآن في أسلوبه الحاسم في خطابه للنبي محمد ﷺ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، إن عليك ـ يا محمد ـ أن لا تجعل هدفك في مسيرتك هو الحصول على رضاهم، لأن القضية ليست قضية خصومة شخصية طارئة ليمكنك الوصول إلى تبديل حالة الخصومة بحالة الصداقة من خلال بعض التنازلات الشخصية، بل هي قضية اعتبار هؤلاء أنهم على الحق وأنك على الباطل، مما يجعل من تقديم التنازلات تشجيعا لهم على موقفهم وإغراء لهم بالثبات على عقيدتهم، ليجرّوك إلى مواقع جديدة من التنازلات، وهكذا، لارتباط الحصول على رضاهم بالوصول إلى التنازل الأخير وهو اتباع ملتهم، فذلك هو السبيل الوحيد لربح ثقتهم بك.

٧. ثم يثير الله القضية من قاعدة المبدأ الذي لا يحتمل مساومة أو مجاملة أو تنازلا ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ وهي الصراحة في الإعلان عن الحق والهدى والإيحاء إلى الآخرين بأنه لا مجال لطريق غير طريق الله، ولهدى غير هدى الله الذي يجب أن يتبع وحده، ليعرفوا أن الموقف حاسم لا مجال فيه للتراجع وللتنازل، مهما كلف ذلك من خصومات ومن عداء ومن انفصال في العلاقات العامة والخاصة.

٨. ثم يتصاعد الأسلوب قوّة وشدة، ليخاطب الأمة من خلال النبي بأسلوب القسوة الذي يوحي بالحسم في ما لو استسلم لنقاط الضعف النفسية، ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فانجذبت إلى جوّ الإغراء العاطفي الذي يثيرونه في نفسك، وسرت معهم في ما يريدونه ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأنك على الحق وأنهم على الباطل، ﴿مالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ} وإذا فقد الإنسان رعاية الله ونصرته فمن ذا الذي ينصره من الله، ومن ذا الذي يرعاه بعده!؟

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. الآية الكريمة تخاطب الرّسول ﷺ بأن لا يحاول عبثا في كسب رضا اليهود والنصارى لأنه: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.. واجبك أن تقول لهم: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَالْهُدى﴾، هدى الله هو الهدى البعيد عن الخرافات وعن الأفكار التافهة التي تفرزها عقول الجهّال، ويجب إتباع مثل هذا الهدى الخالص، ثم تقول الآية: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

٢. سؤال وإشكال: العبارة القرآنية: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قد تثير سؤالا بشأن عصمة الأنبياء، فهل يمكن للنبيّ ﷺ ـ وهو معصوم ـ أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود والنصارى؟ والجواب: مثل هذه التعبيرات تكررت في القرآن الكريم، ولا تتعارض مع مقام عصمة الأنبياء:

أ. لأنها ـ من جهة ـ جملة شرطية، والجملة الشرطيّة لا تدل على تحقق الشرط.

ب. ومن جهة أخرى، عصمة الأنبياء لا تجعل الذنب على الأنبياء محالا، بل المعصوم له قدرة على ارتكاب الذنب، ولم يسلب منه الاختيار، ومع ذلك لم يتلوث بالذنوب، بعبارة أخرى: إن المعصوم قادر على الذنب، ولكن إيمانه وعلمه وتقواه بدرجة لا تجعله يتجه معها إلى ذنب، من هنا فالتحذيرات المذكورة بشأنهم مناسبة تماما.

ج. من جهة ثالثة، هذا الخطاب وإن اتجه إلى النّبي ﷺ ولكن قد يكون موجها إلى النّاس جميعا.

٣. صحيح أن الإنسان الرّسالي يجب أن يسعى بأخلاقه إلى جذب الأعداء إلى صفوف الدعوة، لكن مثل هذا الموقف يجب أن يكون تجاه المخالفين المرنين الليّنين، أما الموقف تجاه المعاندين المتصلبين فينبغي أن يكون غير ذلك، لا يجوز إهدار الوقت مع هؤلاء، بل لا بدّ من الإعراض عنهم وتركهم.

٤. نفهم من الآية المذكورة أن القانون الوحيد القادر على إنقاذ البشرية هو قانون الهداية الإلهية، لأن علم البشر ـ مهما قدر له من التكامل ـ يبقى مخلوطا بالجهل والشك والقصور في جهات مختلفة، والهداية

---

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٦٢.

في ضوء مثل هذا العلم الناقص لا يمكن أن تكون هداية مطلقة، ولا يستطيع أن يضع للإنسان برنامج (الهداية المطلقة) إلّا من له (علم مطلق)، ومن هو خال من الجهل والنقص، وهو الله وحده.

٥٠. المؤمنون وحق التلاوة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٥٠] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن مسعود:

روي عن عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) أنه قال: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزل الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئا غير تأويله، وفي لفظ: يتبعونه حق اتباعه[١].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِه﴾ يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ولا يحرفونه عن مواضعه[٢].

٢. روي أنه قال: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِه﴾ يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢]، يقول: اتبعها[٣].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَته﴾ يتبعونه حق اتباعه، ألم تر إلى قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾

---

(١) عبد الرزاق: ١/٥٦..

(٢) ابن جرير: ٢/٤٨٨..

(٣) أبو عبيد في فضائله: ص٦١..

[الشمس: ٢]، يعني: الشمس إذا اتبعها القمر[(١)].

٢. روي أنه قال: يعملون به حق عمله[(٢)].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنه قال: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِه﴾ يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه[(٣)].

عطاء:

روي عن عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِه﴾ يتبعونه حق اتباعه، يعملون به حق عمله[(٤)].

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِه﴾ يتبعونه حق اتباعه، يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويقرؤونه كما أنزل[(٥)].

٢. روي أنه قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِه﴾ هؤلاء أصحاب نبي الله ﷺ، الذين آمنوا بكتاب الله، وصدقوا به[(٦)].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. أروي أنه قال: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: معناه يعلمون حقّ علمه ويتّبعونه حقّ اتباعه.[(٧)].

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٤٩٠..

(٢) تفسير مجاهد: ص٢١٢..

(٣) ابن جرير: ٢/ ٤٩١..

(٤) ابن جرير: ٢/ ٤٩١ وابن أبي حاتم: ١/ ٨٦١..

(٥) ابن جرير: ٢/ ٤٩٢..

(٦) ابن جرير: ٢/ ٤٨٦..

(٧) تفسير الإمام زيد، ص ٨٩..

٢. أروي أنه قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يتبعونه حق اتباعه، ليس ذلك بالهذ والدراسة[١].

ابن أسلم:

روي عن زيد بن أسلم (ت ١٣٦ هـ) أنه قال: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ يتكلمون به كما أنزل، ولا يكتمونه[٢].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أنه قال: يصفونه في كتبهم حق صفته لمن سألهم من الناس[٣].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) أنّه قال في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: يرتلون آياته، ويتفقهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه ما هو ـ والله ـ حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سوره، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[٤].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ يعني: بمحمد من أهل التوراة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في العقوبة[٥].

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٤..

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٨٦١..

(٣) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٦٦..

(٤) إرشاد القلوب: ٧٨..

(٥) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٥..

٢. روي أنه قال: ثم ذكر مؤمني أهل التوراة؛ عبد الله بن سلام وأصحابه، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، يعني: أعطيناهم التوراة[١].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ من آمن برسول الله من بني إسرائيل وبالتوراة، وقرأ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ من كفر بالنبي ﷺ من يهود ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢].

٢. روي أنه قال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ من آمن برسول الله ﷺ من بني إسرائيل وبالتوراة، وأن الكافر بمحمد ﷺ هو الكافر بها الخاسر، كما قال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٣].

٣. روي أنه قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال من كفر بالنبي ﷺ من يهود، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٤].

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٥]:

١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾:

أ. قيل: الكتاب: أراد به التوراة أو الإنجيل.

ب. وقيل: أراد به القرآن.

٢. اختلف في المقصودين بقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ :

أ. من حمله على التوراة والإنجيل قال فيه إضمار واو، كأنه قال: (الذين آتيناهم الكتاب، ويتلونه

---

(١) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٥..

(٢) ابن جرير: ٢/ ٤٨٩..

(٣) ابن جرير: ٢/ ٤٩٥..

(٤) ابن جرير: ٢/ ٤٩٦..

(٥) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٥٤.

حق تلاوته، أولئك يؤمنون به)، أي إذا تلوا حق التلاوة؛ فحينئذ يؤمنون به.

ب. ومن حمله على القرآن، فالذين يتلونه حق تلاوته أصحاب رسول الله ﷺ.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ :

أ. قيل: يتلونه حق تلاوته، يعنى يعملون به حق عمله، ولا يكتمون نعته ﷺ، ولا يحرفونه ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، وهم الذين أسلموا منهم.

ب. وقيل: يتبعونه حق اتباعه، وهو واحد.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنهم المؤمنون الذين آمنوا برسول الله ﷺ.

ب. الثاني: أنهم علماء اليهود يعني يعرفون نعته وصفته في التوراة.

٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾:

أ. قيل: أي يقرؤونه حق قراءته.

ب. وفيه وجه ثان: وهو أنهم يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه.

٣. ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي يقرون بمحمد ﷺ لأن من قرأ أحد الكتابين وجد فيه وجوب اتباعه.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنهم المؤمنون برسول الله ﷺ، والكتاب هو القرآن، وهذا قول قتادة.

ب. الثاني: أنهم علماء اليهود، والكتاب هو التوراة، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد.

٢. في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ تأويلان:

---

(١) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٨٢..

(٢) تفسير الماوردي: ١/ ١٨٢.

أ. أحدهما: يقرؤونه حق قراءة.

ب. الثاني: يتبعونه حق اتباعه، فيحللون حلاله، ويحرمون حرامه، وهذا قول الجمهور.

٣. ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني بمحمد ﷺ، لأن من قرأ أحد الكتابين، آمن به، لما فيهما من وجوب اتباعه.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

آية [١٢١]

١. اختلف في المعني بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾:

أ. قيل: المعني بهذه الآية ـ في قول قتادة واختيار الجبائي ـ اصحاب النبي ﷺ الذين آمنوا بالقرآن وصدقوا به.

ب. وقال ابن زيد: هو من آمن بالنبي ﷺ من بني إسرائيل، والكتاب على قوله: التوراة.

٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾:

أ. قال ابن عباس: يتبعونه حق اتباعه، ولا يحرفونه، ثم يعملون بحلاله ويقفون عند حرامه، ومثله قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ اي تبعها، وبه قال ابن مسعود، ومجاهد وقتادة، وعطاء.

ب. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام حق التلاوة الوقوف عند ذكر الجنة والنار يسأل في الأولى، ويستجير من الأخرى.

ج. وقال قوم ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ يقرؤونه حق قراءته.

٣. التلاوة في اللغة على وجهين:

أ. أحدهما: القراءة، وهو أقوى، وعليه اكثر المفسرين.

ب. الثاني:الاتباع.

---

(١) تفسير الطوسي: ١/ ٤٤٢.

٤. لا يجوز ان يقال: يتلونه حق التلاوة على مذهب الكوفيين، كما لا يجوز يتلونه، ايّ التلاوة، لان أيا إذا كانت مدحاً وقع على النكرة، ولم يقع على المعرفة، فلا يجوز مررت بالرجل حق الرجل كما لا يجوز مررت بالرجل اي الرجل، وكما لا يجوز مررت بابي عبد الله أبي زيد، وانما جاز تلاوته. كما يجوز رب رجل وأخيه، وقال بعض البصريين يجوز مررت بالرجل حق الرجل، ولا يجوز مع اي لان أياً تدل على التبعيض، وليس كذلك حق، فلما مررت بالرجل كل الرجل فجائز عند الجميع، لان أصله التوكيد، فترك على حاله.

٥. المعني بقوله ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ اليهود ـ على قول ابن زيد ـ والاولى ان يكون ذلك محمول على عموما في جميع الكفار، وبه قال الجبائي واكثر المفسرين.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. التلاوة: القراءة، تلا كتاب الله: قرأه، وأصل التلاوة الاتباع، ومنه: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي اتبعها.

ب. الإيمان: التصديق، في اللغة آمن: صدق.

ج. الخاسر: من هلك رأس ماله.

٢. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت في أهل السفينة الَّذِينَ قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، وكانوا أربعين رجلاً اثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من رهبان الشام، منهم بحيرا، عن ابن عباس.

ب. وقيل: هم أصحاب النبي ﷺ آمنوا بالقرآن، وصدقوه، عن قتادة وعكرمة وأبي علي.

ج. وقيل: هم من آمن من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وابن صوريا عبد الله وغيرهم، والكتاب: التوراة عن الضحاك وأبي مسلم والأصم، قال أبو مسلم: الذي يؤمن بالكتاب من يتلوه حق تلاوته، لا من يُحَرِّفُهُ.

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٧٢.

د. وقيل: هم المؤمنون عامة.

٣. ثم بَيَّنَ تعالى حال الطائفتين فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾:

أ. قيل: الكتاب: القرآن، ومَنْ أعطاهم: المؤمنون، وقيل: الكتاب: التوراة، ومن أعطاهم: أهل الكتاب على ما ذكرنا: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قيل: يتبعونه حق اتباعه ولا يحرفونه، عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقتادة.

ب. وقيل: يقرؤونه حق قراءته، عن أبي علي.

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾

أ. قيل: لا يحرفونه بل يتبعونه كما أنزل الله تعالى، عن ابن عباس.

ب. وقيل: يتلونه على سبيل الخشوع، ويتدبرون فيه وفي دلائله؛ ليقوموا بواجباته، عن أبي علي.

ج. وقيل: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه ولا يحرفونه، عن ابن مسعود.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾:

أ. قيل: يعني بالكتاب، عن أكثر المفسرين.

ب. وقيل: بالنبي ﷺ عن الكلبي.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾:

أ. قيل: هم اليهود، عن ابن زيد.

ب. وقيل: سائر الكفار، عن أبي علي، وهو الأوجه لعموم اللفظ.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾:

أ. قيل: خسروا أنفسهم وأعمالهم في الدنيا؛ لأنهم لم ينتفعوا بها، عن الأصم.

ب. وقيل: خسروا في الدنيا الظفر والنصرة، وفي الآخرة ما أعد الله للمؤمنين من النعيم الدائم، عن أبي علي.

٨. تدل الآيات الكريمة على:

أ. أن حقيقة الإيمان بالكتاب أن يتلوه حق تلاوته.

ب. أن من يكفر بالكتاب فقد خسر الدنيا والآخرة؛ لسوء اختيارهم والعدول عن طاعة الله.

ج. أن التلاوة والكفران فِعْلُهُم؛ لذلك أضافها إليهم وأوجب الجزاء لهم.

٩. مسائل نحوية:

أ. ﴿الَّذِينَ﴾ موضعه رفع بالابتداء، و﴿أُولَئِكَ﴾: ابتداء ثان، و﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خبره، وتقديره: الَّذِينَ يؤمنون بالكتاب هم الَّذِينَ يتلونه حق تلاوته، عن أبي مسلم.

ب. الهاء في قوله: ﴿يَتْلُونَهُ﴾ تعود:

- قيل: إلى الكتاب الذي سبق ذكره.
- وقيل: إلى محمد ﷺ، وقد سبق ذكره في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. اختلف في سبب نزول الآية الكريمة:

أ. قيل: نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، وكانوا أربعين رجلا، اثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من رهبان الشام، منهم بحيرا عن ابن عباس.

ب. وقيل: هم من آمن في اليهود، كعبد الله بن سلام، وشعبة بن عمرو، وتمام بن يهودا، وأسد وأسيد ابني كعب، وابن يامين، وابن صوريا، عن الضحاك.

ج. وقيل: هم أصحاب محمد، عن قتادة، وعكرمة.

فعلى القولين الأولين يكون المراد بالكتاب: التوراة، وعلى القول الأخير المراد به: القرآن.

٢. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ أي: أعطيناهم.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ على وجوه:

أ. أحدها: إنه يتبعونه، يعنى التوراة، حق اتباعه، ولا يحرفونه، ثم يعملون بحلاله، ويقفون عند حرامه، ومنه قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي: تبعها، وبه قال ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، إلا أن المراد به القرآن عندهم.

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٧٥.

ب. ثانيها: إن المراد به: يصفونه حق صفته في كتبهم لمن يسألهم من الناس، عن الكلبي، وعلى هذا تكون الهاء راجعة إلى محمد ﷺ.

ج. ثالثها: ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام: إن حق تلاوته هو الوقوف عند ذكر الجنة والنار، يسأل في الأولى، ويستعيذ من الأخرى.

د. رابعها: إن المراد: يقرؤونه حق قراءته، يرتلون ألفاظه، ويفهمون معانيه وخامسها: إن المراد: يعملون حق العمل به، فيعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه، عن الحسن.

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾:

أ. قيل: أي: بالكتاب، عن أكثر المفسرين.

ب. وقيل: بالنبي عليه السلام، عن الكلبي.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾:

أ. قيل: هم اليهود.

ب. وقيل: هم جميع الكفار وهو الأولى لعمومه.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾:

أ. قيل: خسروا أنفسهم، وأعمالهم.

ب. وقيل: خسروا في الدنيا الظفر والنصر وفي الآخرة ما أعد الله للمؤمنين من نعيم الجنة.

٧. مسائل نحوية:

أ. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾: رفع بالابتداء: و﴿يَتْلُونَهُ﴾: في موضع خبره، و﴿أُولَئِكَ﴾: ابتداء ثان، و﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: خبره، وإن شئت كان: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: في موضع خبر المبتدأ الذي هو ﴿الَّذِينَ﴾

ب. ﴿يَتْلُونَهُ﴾: في موضع نصب على الحال، وإن شئت كان خبر الابتداء يتلونه وأولئك جميعا، فيكون للابتداء خبران، كما تقول: هذا حلو حامض.

ج. ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: منصوب على المصدر.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:: (

١. اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على قولين:

أ. أحدهما: أنها نزلت في الذين آمنوا من اليهود، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: في المؤمنين من أصحاب النبيّ ﷺ، قاله عكرمة، وقتادة.

٢. في الكتاب قولان:

أ. أحدهما: أنه القرآن، قاله قتادة.

ب. الثاني: أنه التّوراة، قاله مقاتل.

٣. قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، أي: يعملون به حقّ عمله، قاله مجاهد.

٤. في هاء ﴿بِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ قولان:

أ. أحدهما: أنها تعود على الكتاب.

ب. الثاني: على النبيّ محمّد ﷺ.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿الَّذِينَ﴾ موضعه رفع بالابتداء، و﴿أُولَئِكَ﴾ ابتداء ثان و﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ خبره.

٢. في المرادين بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قولان:

أ. الأول: أنهم المؤمنون الذين آتاهم الله القرآن واحتجوا عليه من وجوه:

• أحدها: أن قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ حث وترغيب في تلاوة هذا الكتاب، ومدح على تلك التلاوة، والكتاب الذي هذا شأنه هو القرآن لا التوراة والإنجيل، فإن قراءتهما غير جائزة.

• ثانيها: أن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يدل على أن الإيمان مقصود عليهم، ولو كان المراد أهل الكتاب لما كان كذلك.

• ثالثها: قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والكتاب الذي يليق به هذا الوصف هو

---

(١) زاد المسير: ١/ ١٠٨.

(٢) تفسير الفخر الرازي: ٤/ ٣٠.

القرآن.

ب. الثاني: أن المراد بالذين آتاهم الكتاب، هم الذين آمنوا بالرسول من اليهود، والدليل عليه أن الذين تقدم ذكرهم هم أهل الكتاب، فلما ذم طريقتهم وحكى عنهم سوء أفعالهم، أتبع ذلك بمدح من ترك طريقتهم، بل تأمل التوراة وترك تحريفها وعرف منها صحة نبوة محمد ﷺ.

٣. للتلاوة في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ معنيان:

أ. أحدهما: القراءة، واختلفوا على وجوه:

- أولها: أنهم تدبروه فعملوا بموجبه حتى تمسكوا بأحكامه من حلال وحرام وغيرهما.
- ثانيها: أنهم خضعوا عند تلاوته، وخشعوا إذا قرؤوا القرآن في صلاتهم وخلواتهم.
- ثالثها: أنهم عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وتوقفوا فيما أشكل عليهم منه وفوضوه إلى الله سبحانه.
- رابعها: يقرؤونه كما أنزل الله، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتأولونه على غير الحق.
- خامسها: أن تحمل الآية على كل هذه الوجوه لأنها مشتركة في مفهوم واحد، وهو تعظيمها، والانقياد لها لفظاً ومعنى، فوجب حمل اللفظ على هذا القدر المشترك تكثيراً لفوائد كلام الله تعالى.

ب. الثاني: الإتباع فعلًا، لأن من اتبع غيره يقال تلاه فعلًا، قال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢]

٤. الظاهر أنه يقع عليهما جميعا، ويصح فيهما جميعاً المبالغة لأن التابع لغيره قد يستوفي حق الاتباع فلا يخل بشيء منه، وكذلك التالي يستوفي حق قراءته فلا يخل بما يلزم فيه.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾:

أ. قال قتادة: هم أصحاب النبي ﷺ، والكتاب على هذا التأويل القرآن.

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٩٦.

ب. وقال ابن زيد: هم من أسلم من بني إسرائيل، والكتاب على هذا التأويل: التوراة. والآية تعم.

٢. ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ صلته، ﴿يَتْلُونَهُ﴾ خبر الابتداء، وإن شئت كان الخبر ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾:

أ. قيل: يتبعونه حق اتباعه، باتباع الامر والنهي، فيحللون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بما تضمنه، قاله عكرمة، قال عكرمة: أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي أتبعها، وهو معنى قول ابن عباس وابن مسعودما، وقال الشاعر: (قد جعلت دلوي تستتليني)، وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: (يتبعونه حق اتباعه)، في إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكر الخطيب أبو بكر أحمد، إلا أن معناه صحيح، وقال أبو موسى الأشعري: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة، وعن بعض الصحابة: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها، وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ: كان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ، وقال الحسن: هم الذين يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

ب. وقيل: يقرؤونه حق قراءته.. وهذا فيه بعد، إلا أن يكون المعنى يرتلون ألفاظه، ويفهمون معانيه، فإن بفهم المعاني يكون الاتباع لمن وفق.

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ قيل: هم المسلمون، والكتاب: هو القرآن، وقيل: من أسلم من أهل الكتاب.

١. اختلف في المراد بقوله: ﴿يَتْلُونَهُ﴾:

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/ ١٥٩.

أ. قيل: أنهم يعملون بما فيه، فيحلّلون حلاله، ويحرمون حرامه، فيكون: من تلاه، يتلوه: إذا اتبعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي: اتبعها، كذا قيل.

ب. ويحتمل أن يكون من التلاوة، أي: يقرؤونه حقّ قراءته، لا يحرفونه ولا يبدّلونه.

٢. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿يَتْلُونَهُ﴾ أو الخبر قوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ مع ما بعده.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿الَّذِينَ﴾ خبره ﴿أُوْلَئِكَ يُومِنُونَ بِهِ﴾، ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الإنجيل والتوراة، وقيل: المراد المؤمنون والقرآن، ﴿يَتْلُونَهُ﴾ أي: القرآن، والجملة حال، أي: مقدَّرًا ـ بفتح الدال ـ لهم أنْ يتلوه.

٢. ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ لا يغيِّرون لفظه ولا معناه، ولا يزيدون ولا ينقصون، ويعملون به ويتفكَّرون في معانيه، ويكلون متشابهه إلى الله، وذلك هو قراءته حقَّ قراءته، وَأَمَّا قراءته بإخلال ذلك أو بعضه فكَلَا قراءة، أو يتلونه: يلونه بتلك الحقوق، وهم عبد الله بن سلام ونحوه من أهل المدينة وغيرها من علماء أهل الكتاب العاملين به، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية رهابين من أهل الشام، منهم: بحيرى الراهب، دخلوا الحبشة ورجعواْ مع الِاثنين والثلاثين منها مع جعفر وأصحابه في سفينة إلى رسول الله ﷺ، وإنَّما جعلت (يَتْلُونَهُ) حالا مقدَّرة لأنَّهم حال إيتاء الكتاب ليسوا يتلون القرآن حقَّ تلاوته، بل بعدُ.

٣. ﴿أُوْلَئِكَ يُومِنُونَ بِهِ﴾ بالكتاب، أو بالله لا إله إلا الله، أو(الَّذِينَ): الأنبياء، و(الْكِتَاب): الجنس، وإنَّما قلت: (والتوراة) لأنَّ من آمن بالإنجيل تحقيقًا حتَّى آمن بالقرآن لا يكفر بها، ولا يجوز أنْ يراد علماء أهل الكتاب مطلقا كقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ الآية [البقرة: ١٤٦]؛ لأنَّه ليس كلُّ من عرفه يتلوه حقَّ تلاوته.

٤. ﴿وَمَن يَّكْفُرْ بِهِ﴾ بالكتاب: التوراة والإنجيل، بل يحرِّفه بزيادة أو نقص أو كتم أو تفسير بما ليس حقًّا، وقيل: القرآن كما مرَّ، ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إذ بدَّلوا الهدى بالضَّلالة، والجنَّة بالنَّار، وهذا لعمومه أولى من التفسير بأخذ الرُّشى على الدِّين.

القاسمي:

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/٢١٠.

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لما ذكر تعالى، فيما تقدم، عدم رضاء اليهود والنصارى إلّا باتباع ملتهم، لدعواهم أنهم على حق وأنهم مؤمنون بما لديهم ـ فنّد تعالى دعواهم الإيمان به بأن من أوتي الكتاب فتلاه حق تلاوته فذاك المؤمن به، والمذكورون ممن لم يتله حق تلاوته، لما عدّد من مساوئ اليهود أولا، وشفعه بدعوى النصارى اتخاذ الولد، ومن كان يعتقد ذلك فإنّي له الإيمان؟ وهل هو ممن يتلو الكتاب حق تلاوته؟ وكتابه بأمر بتوحيد ربه والمشي مع شريعته وتصديق كل نبيّ يصدق ما معهم، وقد كفروا بكل ذلك.

٢. جملة ﴿يَتْلُونَهُ﴾ حال مقدرة من (هم) أو من ﴿الْكِتَابِ﴾، وجوّز أن تكون الآية سيقت مدحا لمن آمن من أهل الكتاب بالقرآن، فالضمير في ﴿يَتْلُونَهُ﴾ للقرآن، فتكون كآية ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٤]، وكآية ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، ومن تلاوته حق تلاوته الإيمان بأنه حق من ربهم، وصبرهم ودرؤهم بالحسنة السيئة، وإنفاقهم وسجودهم له تعالى فالآيتان مفسرتان لتلاوتهم حق تلاوته، وعن ابن مسعود: والذي نفسي بيده! إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرم حرمه، ويقرأه كما أنزل الله، ولا يحرّف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله، ومثله عن ابن عباس.

٣. ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته كما هو حقه ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ محط الفائدة ما يلزم الإيمان به من الربح بقرينة قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. الصلة بين قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ الآية وبين ما قبلها واضحة جلية وهي أن هذه

---

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٨٨.

(٢) تفسير المنار: ١/ ٤٤٧.

جاءت في موضع الاستدراك على ما سبقها من إيئاس النبي والمؤمنين من أهل الكتاب، فقد علمنا أن آية ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ قد سلت ما كان يخالج النفوس من الرجاء بإيمان أهل الكتاب كلهم، وهذه الآية تنطق بأن منهم من يرجى إيمانه وهم الذين وصفهم بما هو علة الرجاء ومناط الامل وهو تلاوة كتابهم حق تلاوته، وعدم الجمود على الظواهر والتقاليد، والاكتفاء بالأماني والظنون، كأنه يقول: إن كانت نفسك تحدثك بأن أهل الكتاب أقرب إلى الإيمان بما جئت به لأنه يشبه ما عندهم ويصدق أنبياءهم وأصول شرائعهم من حيث يقتلع جذور دين الوثنيين ويمحوه محوا فيكون الوثنيون أجدر من أهل الكتاب بمعاندتك ومجاحدتك ـ فاعلم أن هؤلاء قد ألحقوا بدينهم من التقاليد والمخترعات، وألصقوا به من البدع والعادات، ما غرهم في دينهم بغير فهم؛ وجعلهم يتعصبون له بغير عقل، فكانوا بذلك أبعد عن حقيقة الإيمان من أولئك الذين يعبدون الأوثان، وذلك أنهم اتخذوا الدين جنسية فليس لهم منه إلا الجمود على عادات صارت مميزة للمنتسبين إليه، ولكن لا يزال فيهم نفر يرجى منهم تدبر الشيء والتمييز بين الحق والباطل وهم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي يفهمون أسراره ويفقهون حكمة تشريعه، وفائدة نوط التكليف به، لا يتقيدون في ذلك بآراء من سبقهم فيه، ولا بتحريفهم كلمه عن مواضعه.

٢. ﴿أُولَئِكَ﴾ هم الذين يقدرون ما جئت به من الترقي في الدين، وإقامة قواعده على الأساس المتين؛ و﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بعد العلم بأنه الحق الذي يزيل ما بينهم من الخلاف ويهديهم إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة.

٣. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين وهم الاكثرون، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لهذه السعادة، المحرومون مما يكون للمؤمنين من المجد والسيادة، سواء كان كفرهم بتحريفه ليوافق مذاهبهم التقليدية، أم باهماله اكتفاء بقول علمائهم، ويجوز أن يكون الضمير في قوله (به) للهدى الذي ذكر في الآيات السابقة.

٤. عبر عن التدبر والفهم بالتلاوة حق التلاوة ليرشدنا إلى أن ذلك هو المقصود من التلاوة التي يشترك فيها أهل الاهواء والبدع مع أهل العلم والفهم، والتعبير يشعر بأن أولئك الذين حكم بنفي رضاهم عن النبيّ ﷺ نفيا مؤكدا لاحظ لهم من الكتاب إلا مجرد التلاوة وتحريك اللسان بالألفاظ؛ لا

يعقلون عقائده، ولا يتدبرون حكمه ومواعظه، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه؛ لأنهم استغنوا عنه بتقليد بعض الرؤساء والاكتفاء بما يقولون، فلا عجب إذا أعرضوا عما جاء به النبيّ ولا ضرر في إعراضهم، وأما الآخرون فانهم لتدبرهم وفهمهم أسرار الدين، وعلمهم بوجوب مطابقتها لمصالح المكلفين، يعقلون ان ما جاء به هو الحق الذي يتفق مع مصلحة البشر في ترقية أرواحهم، وفى نظام معايشهم، فيؤمنون به وإنما ينتفع بإيمان أمثالهم.

٥. جملة القول أن هذا التعبير أفاد حكما جديدا وإرشادا عظيما وهو أن الذي يتلو الكتاب لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا فلاحظ له من الايمان بالكتاب لأنه لا يفهم أسراره ولا يعرف هداية الله فيه، وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية، وان كان القارئ يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها لأن هذا الفهم من قبيل التصور، وما التصور إلا خيال يلوح ويتراءى، ثم يغيب ويتناءى، وإنما الفهم فهم التصديق والإذعان ممن يتدبر الكتاب مستهديا مسترشدا ملاحظا أنه مخاطب به من الله تعالى ليأخذ به فيهتدى ويرشد، والمقلدون محرومون من هذا فلا يخطر لهم ببال انهم مطالبون بالاهتداء بكتاب الله تعالى وإنما الهداية عندهم محصورة في كلام رؤسائهم الدينيين، ولا سيما إذا كانوا ميتين.

٦. إذا كنا نعتبر بما قص الله تعالى علينا من خبر أهل الكتاب، كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فإننا نعرف حكم أهل القرآن عنده تعالى مما ذكره عن أهل التوراة والإنجيل كما نعرفه من مثل قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، وقوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فكل هذه الآيات والعبر لم تحل دون اتباع هذه الأمة سنن من قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع كما أنبئت للتحذير، والقرآن حجة عليها كما ورد في الحديث: (والقرآن حجة لك أو عليك)، ولا شك أن من يتلو ألفاظ للقرآن وهو معرض عن هدايته غير معتبر بوعده ووعيده فهو كالمستهزئ بربه.

٧. سؤال وإشكال: ولكن القرآن يتعبد بتلاوته؟ والجواب: نعم ولكنهم لم يقولوا إنه أنزل لذلك وكيف يقولون ذلك والله الذي أنزله يقول إنه أنزله: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فالقرآن وكذلك السنة يصرحان في مواضع كثيرة بخلاف هذا القول إذا أخذ على إطلاقه وجعل معناه أو من معناه أن الله تعالى يطالب عباده بقراءة القرآن بدون تدبر ولا تذكر، وقد جاء من الأحاديث ما يصف حال قوم

يأتون بعد (يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم)، وقد سماهم شرار الخلق، فهؤلاء الأشرار قد اتخذوا القرآن من الأغاني والمطربات؛ وإذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالإثم، واحتج عليك بكلمة قالها فلان أو حلم رآه فلان، وهكذا انقلب على المسلمين وضع الدين، ثم هم يتعجبون مع ذلك كيف حرموا من وعد الله في قوله: ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾، ومثال ذلك رجل يرسل كتابا إلى آخر فيقرأه المرسل إليه هذرمة أو يترنم به ولا يلتفت إلى معناه ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه ثم يسأل الرسول أو غيره: ماذا قال صاحب الكتاب فيه وما ذا يريد منه؟ أيرضى المرسل من المرسل إليه بهذا أم يراه استهزاء به؟ فالمثل ظاهر وإن كان الحق لا يقاس على الخلق، فإن الكتاب لا يرسل لأجل ورقه؛ ولا لأجل نقوشه ولا لأجل أن تكيف الأصوات حروفه وكلمه ولكن ليعلم مراد المرسل منه ويعمل به

٨. إن الاستهداء بالقرآن، واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك أن كل من له معرفة ولو قليلة باللغة العربية فإنه يفهم من القرآن ما يهتدى به، ومن كان أميا أو عجميا فإنه ينبغي له أن يسأل القارئين أن يقرأوا له القرآن ويفهموه معناه.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. هذه الآيات سيقت استدراكا على ما قبلها، فإن ما تقدم كان تيئيسا للنبي ﷺ والمؤمنين من إيمان أهل الكتاب وسلب ما كان يخالج نفوسهم من الرجاء، وهنا أرشد إلى أن فريقا منهم يرجى إيمانهم وهم الذين يتدبرون كتابهم ويميزون بين الحق والباطل ويفهمون أسرار الدين ويعلمون أن ما جئت به هو الحق الذي يتفق مع مصالح البشر، فهو الذي يهذب نفوسهم، ويصفى أرواحهم، وينظم معايشهم، وبه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

٢. بعد أن أقام عليهم الحجة دعاهم وناداهم وطلب إليهم أن يتركوا الغرور المانع لهم من الإيمان،

---

(١) تفسير المراغي: ١/ ٢٠٥.

إذ لا ينبغي لمن كرمه الله وفضله على غيره من الشعوب أن يكون حظه من كتابه كحظ الحمار يحمل أسفارا.

٣. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي ومن أهل الكتاب طائفة تقرأ التوراة قراءة تأخذ بمجامع قلوبهم، وتدخل في شغاف أفئدتهم، فيراعون ضبط لفظها ويتدبرون معناها، ويفقهون أسرارها وحكمها، أولئك هم الذين يعقلون أن ما جئت به هو الحق، فيؤمنون به ويهتدون بهديه إلى سواء السبيل كعبد الله ابن سلام وأضرابه ممن آمنوا بالنبي ﷺ.

٤. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي ومن يكفر بما أنزل إليك بعد أن تبين له أنه الحق من الرؤساء المعاندين، والجهال المقلدين (وكثير ما هم) فأولئك هم الذين خسروا سعادة الدنيا والمجد والسيادة التي يعطيها الله من ينصر دينه، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ وخسروا نعيم الآخرة، وحقّ عليهم العذاب الذي أعدّه الله للكافرين.

٥. كفرانهم به آت إما بتحريف كتابهم المبشر به حتى لا تنطبق البشارة عليه، ليوافق أهواءهم، وإما بإهماله اكتفاء بقول علمائهم الذين أضافوا إلى التوراة ما شاءوا ليشتروا به ثمنا قليلا.

٦. في الآية إيماء إلى أن الذين يتلون الكتاب دون أن يتدبروا معانيه، لا حظ لهم من الإيمان، لأنهم لا يفقهون هداية الله فيه، ولا تصل العظة إلى أفئدتهم بتلاوته.

٧. في هذا عبرة لنا كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فينبغي أن يكون ذلك حافزا لنا في تدبر القرآن وفهمه، لا قراءته لمجرد التلاوة كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ وقال: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.. ولكن وا أسفا إن كل هذه الآيات والعبر لم تحل بين هذه الأمة وتقليدها من قبلها وحذوها حذوهم شبرا فشبرا وباعا فباعا، والقرآن حجة عليها كما جاء في الحديث: (والقرآن حجة لك أو عليك)، ومن يتلوه وهو معرض عن تدبره والتأمل في العبرة منه يكون كالمستهزئ بربه، وما مثله إلا مثل من يرسل كتابا إلى آخر لغرض خاص فيقرؤه المرسل إليه مثنى وثلاث ورباع، ويترنم به ولا يلتفت إلى معناه، ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه، أيرضى المرسل بمثل هذا ويكتفى به عن إجابة طلبه أم يعدّه استهزاء به؟ فعلى المؤمن في كل زمان ومكان أن يتلو القرآن بالتدبر والفهم والعمل بما فيه، فإن كان أمّيّا أو أعجميّا فإنه ينبغي أن يطلب من أهل الذكر أن يفهموه معناه ويشرحوا له مغزاه.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. الذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي معك؛ فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون، لا أنت ولا المؤمنون!

٢. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.. وأي خسارة بعد خسارة الإيمان، أعظم آلاء الله على الناس في هذا الوجود؟

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. ليس هذا مما ينتقص من الكتب السّماوية التي بين يدى أهل الكتاب، فهي والكتاب الذي نزل على محمد، سواء فيما تحمل إلى الناس من الحق والخير، ولكنّ الأهواء هي التي أفسدت على أهل الكتاب أمرهم، حين زاغت أبصارهم عن الحق، فمكروا بآيات الله.

٢. لهذا فإن الذين يتلون منهم كتاب الله الذي بين أيديهم حقّ تلاوته، لا يحرفون كلمه، ولا يبغونها عوجا ـ هؤلاء يجدون أنهم والكتاب الذي نزل على محمد على طريق واحد، وأنهم ملزمون بالإيمان به، وأن من يكفر به فإنما يكفر عن عناد، وعن علم، وذلك هو الفسوق الذي يورد صاحبه موارد الضلال والهلاك.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٣)]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ استئناف ناشئ عن قوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ [البقرة: ١٢٠] مع قوله: ﴿إِنَّ هُدَى اللهَّ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠] لتضمنه أن اليهود والنصارى ليسوا يومئذ على شيء من الهدى؟ كأنّ سائلا سأل: كيف وهم متمسكون بشريعة؟ ومن الذي هو على هدى ممن اتّبع هاتين الشريعتين؟

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١١٠.

(٢) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١٣٦.

(٣) التحرير والتنوير: ١/ ٦٧٨.

فأجيب بأن الذين أوتوا الكتاب وتلوه حقّ تلاوته هم الذين يؤمنون به.

٢. يجوز أن يكون اعتراضا في آخر الكلام لبيان حال المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب لقصد إبطال اعتقادهم أنهم على التمسك بالإيمان بالكتاب، وهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة: ٩١] إلخ، وهو صدر هاته المحاورات وما تخللها من الأمثال والعبر والبيان، فقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ فذلكة لما تقدم وجواب قاطع لمعذرتهم المتقدمة، وهو من باب رد العجز على الصدر، ولأحد هذين الوجهين فصلت الجملة ولم تعطف لأنها في معنى الجواب، ولأن المحكي بها مباين لما يقابله المتضمن له قوله: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ ولما انتقل منه إليه وهو قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]

٣. ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ حال من الذين أوتوا الكتاب إذ هم الآن يتلونه حق تلاوته، وانتصب ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ على المفعول المطلق وإضافته إلى المصدر من إضافة الصفة إلى الموصوف أي تلاوة حقا.

٤. (الحق) هنا ضد الباطل أي تلاوة مستوفية قوام نوعها لا ينقصها شيء مما يعتبر في التلاوة وتلك هي التلاوة بفهم مقاصد الكلام المتلو فإن الكلام يراد منه إفهام السامع فإذا تلاه القارئ ولم يفهم جميع ما أراده قائله كانت تلاوته غامضة، فحق التلاوة هو العلم بما في المتلو.

٥. ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ جملة هي خبر المبتدأ وهو اسم الموصول، وجيء باسم الإشارة في تعريفهم دون الضمير وغيره للتنبيه على أن الأوصاف المتقدمة التي استحضروا بواسطتها حتى أشير إليهم باتصافهم بها هي الموجبة لجدارتهم بالحكم المسند لاسم الإشارة على حد ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] فلا شك أن تلاوتهم الكتاب حق تلاوته تثبت لهم أوحديّتهم بالإيمان بذلك الكتاب لأن إيمان غيرهم به كالعدم. فالقصر ادعائي. فضمير ﴿بِهِ﴾ راجع إلى (الكتاب) من قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، وإذا كانوا هم المؤمنين به كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ لانطباق الصفات التي في كتبهم عليه ولأنهم مأخوذ عليهم العهد أن يؤمنوا بالرسول المقفى وأن يجتهدوا في التمييز بين الصادق من الأنبياء والكذبة حتى يستيقنوا انطباق الصفات على النبي الموعود به، فمن هنا قال بعض المفسرين إن ضمير ﴿بِهِ﴾ عائد إلى النبي ﷺ مع أنه لم يتقدم له معاد.

٦. يجوز أن يعود الضمير من قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إلى الهدي في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠] أي يؤمنون بالقرآن أنه منزل من الله فالضمير المجرور بالباء راجع للكتاب في قوله: ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ والمراد به التوراة والإنجيل واللام للجنس، أو التوراة فقط لأنها معظم الدينين والإنجيل تكملة فاللام للعهد، ومن هؤلاء عبد الله بن سلام من اليهود وعدي بن حاتم وتميم الداري من النصارى.

٧. القول في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كالقول في ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وهو تصريح بحكم مفهوم ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وفيه اكتفاء عن التصريح بحكم المنطوق وهو أن المؤمنين به هم الرابحون، ففي الآية إيجاز بديع لدلالتها على أن الذين أوتوا الكتاب يتلونه حق تلاوته هم المؤمنون دون غيرهم فهم كافرون فالمؤمنون به هم الفائزون والكافرون هم الخاسرون.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. الله تعالى منصف في أحكامه، فهو سبحانه وتعالى لا يعمم فتشمل البريء والسقيم؛ ولذا بعد أن ذكر حال اليهود في عصر النبيّ ﷺ بين أن من أهل الكتاب من يتلونه حق تلاوته، ويتعرفون غايته ومراميه، وإن هؤلاء يؤمنون بمحمد ﷺ، ويتبعونه.

٢. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، آتيناهم معناها أعطيناهم، وتقبلوا العطاء بنفس شاكرة، وعقل مدرك وقلب مؤمن، فلم يكن إعطاؤهم كأي إعطاء، والكتاب هو ما أعطاهم الله تعالى من قبل كتوراة موسى أخذوها من غير محاولة تحريفها، وإنجيل عيسى أخذوه كما هو داعيا إلى الوحدانية مع الإيمان بأنه بشر كسائر البشر، رسول كغيره من الرسل أولي العزم، ليس ابنا ولا إلها، قال لقومه: اعبدوا الله ربى وربكم، فالكتاب هو كتاب أهل الكتاب، وهم الذين عرفوه.

٣. ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي يتعرفون معناه فينزجرون بزجره، ويتعظون بعظاته، ويعتبرون بقصصه؛ ولذلك فسر بعضهم التلاوة في هذا المقام بالاتباع، كما في ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس]، أي

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٩٠.

تلا الشمس أي اتبعها واستضاء بنورها.

٤. معنى ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي التلاوة الحق، وهى التلاوة المتبعة المتفهمة المدركة، والمتقبلة غير المعاندة، وبين سبحانه وتعالى جزاءها وأوصاف أهلها فقال تعالت كلماته: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يصدقونه ويذعنون لما يأمر به وينهى عنه، ويعملون بموجبه، وهؤلاء هم من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران]، وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص]

٥. هذا التفسير على أساس أن الكتاب هو كتاب أهل الكتاب الذي آمنوا به ولم يحرفوه عن مواضعه، ولم يكتبوه بأيديهم ويلوون به ألسنتهم، ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله.

٦. من المفسرين من قالوا إنه القرآن الكريم، وإطلاق اسم الكتاب عليه من غير ذكر أنه القرآن، للدلالة على كماله وأنه لا يماثله من الكتب كتاب ولو كان سماويا؛ لأنه الكتاب الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة]، ويكون معنى تلاوته حق تلاوته أن يتدبر معناه، ويتعظ بمواعظه، ويعتبر بقصصه كما ذكرنا آنفا، ولقد كان النبيّ ﷺ وهو يتلو القرآن إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ ولقد قال الحسن البصرى في الذين يتلونه حق تلاوته: هم الذين يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويتفهمون معانيه.

٧. هؤلاء هم أهل الإيمان ـ من الماضين ـ بكتبهم، المؤمنون بالقرآن الكتاب الأكمل، أما من كفروا فقد ذكر الله تعالى ما يستميلهم، فقال تعالت كلماته: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الكفر به جحود بآياته وإنكار لأحكامه، ومعاندة، وقال أولئك الإشارة إليهم محكمين كفرهم متصفين به، وحكم سبحانه بالخسران مؤكدا له بضمير الفصل هم، وبالجملة الاسمية وبحصرهم في الخسران.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد أن بين الله لنبيه محمد ﷺ ان النصارى واليهود لن يؤمنوا به، بل لن يرضوا عنه، حتى يتبع ملتهم استثنى الطيبين المنصفين منهم، وهم الذين أسلموا وآمنوا بمحمد ﷺ، وعبر عنهم بالذين يتلون الكتاب حق تلاوته.

٢. المراد بالكتاب كل كتاب أنزله الله، سواء في ذلك القرآن، والتوراة والإنجيل ـ كما أنزلهما الله ـ لأنه سبحانه لم يعين كتابا خاصا، وعدم التخصيص والتعيين دليل العموم.

٣. معنى يتلونه حق تلاوته يتدبرون معانيه، ويعملون بأوامره ونواهيه، لا مجرد تجويد القراءة، وضبط الكلمات، وإخراج الحروف من مخارجها، فان هذه ليست بشيء إذا لم يكن معها تدبر واتعاظ، وفي الحديث الشريف: ما آمن بالقرآن من استحل محارمه.

٤. جملة القول ان كلا من التوراة والإنجيل قد بشر بنبوة محمد ﷺ، كما ان القرآن قد دل على صدقه، وبالفعل قد أسلم كثير من اليهود والنصارى والمشركين الذين تدبروا الآيات، وتجردوا للحق بما هو حق.

٥. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي من كفر بما أنزل الله الذي يستلزم الكفر به الكفر بمحمد ﷺ فهو من الخاسرين لا محالة، لأنه تماما كمن كفر بالله.. وبديهة انه لا خسران أعظم من خسران الآخرة ونعيمها الباقي ببقاء الله سبحانه.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يمكن أن تكون الجملة بقرينة الحصر المفهوم من قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ جوابا للسؤال المقدر الذي يسوق الذهن إليه قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ إلخ وهو أنهم إذا لم يكن مطمع في إيمانهم، فمن ذا الذي يؤمن منهم؟ وهل توجيه الدعوة إليهم باطل لغو؟ فأجيب بأن الذين آتيناهم الكتاب والحال أنهم يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون بكتابهم

---

(١) التفسير الكاشف: ١/ ١٩٣.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٦٦.

فيؤمنون بك، أو أن أولئك يؤمنون بالكتاب، كتاب الله المنزل أيا ما كان، أو أن أولئك يؤمنون بالكتاب الذي هو القرآن، وعلى هذا: فالقصر في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ قصر إفراد والضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ على بعض التقادير لا يخلو عن استخدام.

٢. المراد بالذين أوتوا الكتاب قوم من اليهود والنصارى ليسوا متبعين للهوى من أهل الحق منهم، وبالكتاب التوراة والإنجيل، وإن كان المراد بهم المؤمنين برسول الله ﷺ وبالكتاب القرآن، فالمعنى. إن الذين آتيناهم القرآن، وهم يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون بالقرآن، لا هؤلاء المتبعون لأهوائهم، فالقصر حينئذ قصر قلب.

٣. في إرشاد الديلمي، عن الصادق عليه السلام: في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، قال: يرتلون آياته ويتفقهون به ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سورة، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، وفي تفسير العياشي، عن الصادق عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ ـ قال عليه السلام: الوقوف عند الجنة والنار.. والمراد به التدبر.

٤. وفي الكافي، عنه عليه السلام: في الآية قال عليه السلام: هم الأئمة.. وهو من باب الجري والانطباق على المصداق الكامل.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. المراد بـ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ الذين علمناهم وفهمناهم، فخرج عن ذلك الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ فلا يقال فيهم: ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ بهذا المعنى وإن كانوا منسوبين إلى الكتاب.

٢. قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ كالتخصيص لما سبق في اليهود والنصارى كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٣]

---

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٧٧.

٣. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي من يكفر من اليهود والنصارى والذين لا يعلمون وغيرهم بالذي جاءك من الحق ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأن التعب في التدين بلا فائدة خسران، بل ويؤدي إلى العذاب الدائم، فهو الخسران الشديد.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يختلف المفسرون هنا، كما اختلفوا في آيات مشابهة فيمن هم المقصودون بهذه الآية؛ فقال بعضهم: إنهم الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة؛ وقيل: هم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره؛ وقيل: هم أصحاب محمد ﷺ، على أن يكون المراد بالكتاب القرآن، بينما يكون المراد منه في القولين الأوّلين التوراة، كما جاء في مجمع البيان.

٢. نحسب أن هذه الآراء المذكورة اجتهادية تنطلق من الاستنتاجات والملاحظات الذاتية لأصحابها، وليست نقلية كما نلاحظ من الآراء؛ ولعل الأغلب في الظن أنها ليست في مورد التركيز على جماعة معينة، بل هي في مجال التنبيه على قاعدة أساسية عامة في باب الإيمان والكفر، وهي تلاوة الكتاب حق تلاوته التي يريد بها القراءة عن تدبّر وتفكير وروحية واعية تتحرك من موقع البحث عن الحق لا من موقع التعصب الأعمى، فإن ذلك هو سبيل الانفتاح على آيات الله وما تشتمل عليه من دلائل الحق وبراهينه، حيث يقود ذلك إلى الإيمان.

٣. من خلال ذلك، نفهم أن الكفر لا ينشأ من حالة فكرية مضادة، بل من حالة اللامبالاة والغفلة الناشئة من عدم التوفر على القراءة الواعية والفكر المسؤول، مما يجعل من الإنسان إنسانا يتحرك في جو التعنت والتعصب والعناد الذي لا يملك معه الانفتاح على الحق من قريب أو بعيد.

٤. اكتفى القرآن بالحديث عن خسارة الكافرين ولم يتحدث عن السبب في كفرهم، لأن ذلك كان واضحا في الحديث عن سبب الإيمان، وذلك كمحاولة للإيحاء لهم بضرورة التوفر على السير في خط القراءة الواعية للحصول عي فرص النجاح في الدنيا والآخرة.

(١) من وحي القرآن: ٢/ ١٩٨.

٥. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وانطلقوا من خلاله إلى آفاق المعرفة، وتحركت علامات الاستفهام في وجدانهم، ليلاحقوا كل مفردات القضايا الفكرية والعملية، ليحصلوا على الأجوبة الشافية من خلال القراءة الواعية: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ في فهم عميق للمضمون الفكري، وفي استيحاء للمشاعر الروحية، وفي دراسة لكل جوانبها المتصلة بالله وبالحياة والإنسان، ليحصلوا من ذلك على الثقافة الإيمانية في أجواء الإيمان المنفتح الباحث عن الحقيقة، لا الإيمان الأعمى الغارق في ضباب التقليد، فلا يقتصرون على الأداء اللفظي الذي يشغل البعض من الناس أو على العنصر الأدبي البلاغي، بل يتحركون معه ككتاب عمل ووعي وحركة ومنهج للحياة، كما جاء في الإرشاد للديلمي: (يرتلون آياته، ويتفقهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأمره، وينتهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سوره، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه، وأضاعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته، والعمل بأركانه، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]

٦. ربما كان المراد بالكتاب التوراة، وربما كان المراد به ما يشمل القرآن.. وعلى كل حال، فإن الفكرة تنطلق من وظيفة الكتاب في الوعي الإيماني الذي يخرج به الناس من الظلمات إلى النور، فلا فرق ـ في ذلك ـ بين كتاب وكتاب، فإن كل كتاب يصدق الكتاب الذي بين يديه والرسول الذي أنزل به.

٧. ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لأن القراءة الواعية للكتاب الذي يتضمن إشراقه المفاهيم الروحية والفكرية والعملية، لا بد أن تعود إلى الإيمان للذين يتطلعون إلى حقائقه وآفاقه، ليلتزموها عقيدة وسلوكا وانتماء، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ من الناس الذين لا يعيشون مسئولية المعرفة، ولا جدية الحوار، ولا وعي القراءة، بل يعيشون الحياة على أساس الغفلة واللامبالاة واللاانتماء، ويسيرون مع كل ريح، فلا يتدبرون الكتاب، ولا يتفهمون آياته، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا الدنيا التي يخطط الكتاب لها في خط التوازن الفكري والعملي، وخسروا الآخرة التي يريد الكتاب للإنسان أن يجعلها الهدف في حركته في الدنيا، لينال الدنيا والآخرة معا.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد أن ذمّ القرآن الفئة المذكورة من اليهود والنصارى، أشاد بأولئك الذين آمنوا من أهل الكتاب وانضموا تحت راية الرسالة الخاتمة ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ ـ اي بالتفكر والتدبر ثم العمل به ـ ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي يؤمنون بالرّسول الكريم ﷺ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

٢. هؤلاء كانوا قد تلوا كتابهم السماوي حقّا، وكان ذلك سبب هدايتهم، فهم قرؤوا فيه بشارات ظهور النّبيّ الموعود، وقرؤوا صفاته المنطبقة مع صفات نبيّ الإسلام ﷺ فآمنوا به، والله مدحهم وأشاد بهم.

٣. عبر القرآن عن الفئة المهتدية من أهل الكتاب بأنهم ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾، وهو تعبير عميق يرسم لنا سبيلا واضحا تجاه القرآن الكريم والكتب السماوية، فالنّاس أمام الآيات الإلهية على أقسام:

أ. قسم يكرسون اهتمامهم على أداء الألفاظ بشكل صحيح وعلى قواعد التجويد، ويشغل ذهنهم دوما الوقف والوصل والإدغام والغنّة في التلاوة، ولا يهتمون إطلاقا بمحتوى القرآن فما بالك بالعمل به! وهؤلاء بالتعبير القرآني ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾

ب. وقسم يتجاوز إطار الألفاظ، ويتعمق في المعاني، ويدقّق في الموضوعات القرآنية، ولكن لا يعمل بما يفهم!

ج. وقسم ثالث، وهو المؤمنون حقّا يقرؤون القرآن باعتباره كتاب عمل، ومنهجا كاملا للحياة، ويعتبرون قراءة الألفاظ والتفكير في المعاني وإدراك مفاهيم الآيات الكريمة مقدمة للعمل، ولذلك تصحو في نفوسهم روح جديدة كلما قرؤوا القرآن، وتتصاعد في داخلهم عزيمة وإرادة واستعداد جديد للأعمال الصالحة، وهذه هي التلاوة الحقة.

٤. ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام في تفسير هذه الآية: (يرتّلون آياته، ويتفقّهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره،

---

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٦٣.

وينتهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته ودرس حروفه، وتلاوة سوره ودرس أعشاره وأخماسه)

٥١. نعم الله والجزاء

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٥١] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٢ ـ ١٢٣]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي:[١]:

١. هذا خطاب من الله لبني إسرائيل الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ أمرهم الله ان يذكروا نعمته التي أنعم بها عليهم، والنعمة: النفع الذي يستحق به الشكر، والانعام والإحسان والإفضال نظائر.. ونقيض النعمة: النقمة: وهو الضرر المستحق.

٢. معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني عالمي زمانهم، وتفضيله إياهم بان جعل فيهم النبوة والحكم وهذه الآية قد تقدم ذكر مثلها في رأس نيف وأربعين، وقيل في سبب تكريرها ثلاثة اقوال:

أ. أحدها: ان نعم الله لما كانت الأصل الذي به يجب شكره، وعبادته ذكر بها، ليقبلوا الى طاعته واتباع أمره، وليكون مبالغة في استدعائهم الى ما يلزمهم لربهم التظاهر بالنعم عليهم.

ب. الثاني: انه لما ذكر الكتاب وعنى به التوراة، وكان فيه الدلالة على شأن عيسى ومحمد ﷺ في النبوة والبشارة المتقدمة، ذكرهم عز وجل بما أنعم عليهم من ذلك، وفضلهم كما جاء ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعد نعم ذكرهم بها، ثم عدد نعماً اخر، وقال فيها: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي هذه تكذبان وكل تقريع جاء، فإنما هو موصول بتذكير نعمه غير الاول، والثالث غير الثاني، وهكذا الى آخر

---

(١) تفسير الطوسي: ١/ ٤٤٣.

السورة، وكذلك الوعيد ـ في سورة المرسلات ـ بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ انما هو بعد الدلالة على اعمال يعظم التكذيب بما تدعو اليه الادلة.

ج. الثالث: انه مقدمة لما بعده، لأنه تعالى أراد وعظهم ذكرهم قبل ذلك بالنعم عليهم، لأنه استدعاء الى قبول الوعظ لهم.

د. وقيل: فيه وجه رابع: وهو انه لما تباعد بين الكلامين حسن التنبيه والتذكير.

٣. موضع (التي) نصب بالعطف على نعمتي.

٤. العدل هو الفدية، وقيل هو المثل، ويقال هذا عدله، اي مثله والعدل، هو الحمل.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. النعمة: النفع الحسن الذي قَصَدَ المنعِمُ به الإنعام، وقيل: النفع الذي يستحق به الشكر، والإنعام: الإفضال على الغير.

ب. العالَمُ: جماعة العقلاء، وجمعه عالمون، وقيل: العالم ما حواه الفلك، والأول أقرب إلى قول أهل اللغة، والثاني إلى عرف المتكلمين.

ج. العدل: الفدية، وقيل: المِثْل، وقيل: هذا عدله، أي مثله، والعدل بفتح العين وكسرها لغتان، والعدل بكسر العين: الحمل.

د. الشفع: الزوج، وأصله من الضم، وسمي الشفيع؛ لانضمامه إلى طالب الحاجة، ونقيض الشفع: الوتر.

٢. ثم وعظ الله تعالى بني إسرائيل وذكَّرَهُمْ نعمته، ودعاهم إلى دينه فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ معنى إسرائيل: عبد الله، وهو يعقوب.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾:

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٧٤.

أ. قيل: نعم الدين والدنيا.

ب. وقيل: أراد ما أنعم على بني إسرائيل زمن موسى وداوود وسليمان ـ، عن أبي علي.

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

أ. قيل: على عالمي زمانهم، بأن جعل النبوة والحكم فيهم، عن الحسن.

ب. وقيل: على العالمين كلهم، حيث جعل فيهم أنبياء، وجعلهم معدن كتابه، وجعل فيهم علم النبي الأمي، فلا يعلمه أحد من الخَلْقِ بصفته قبل بعثه غيرُهم، عن الأصم.

٥. لما أمر الله تعالى بشكر نعمه، عقبه بذكر الوعيد، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا﴾ يعني اتقوا عذابه باتقاء المعاصي: ﴿يَوْمًا﴾ يعني يوم القيامة: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ يعني لا يدفع أحد عن أحد عقابًا ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فدية.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾:

أ. قيل: أراد لا يكون لها شفاعة، ولا شفيع.

ب. وقيل: إنهم قالوا: إن آباءهم من الأنبياء يشفعون لهم، فآيسهم الله من ذلك.

٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾:

أ. قيل: لا ينصر أحد أحدًا.

ب. وقيل: ليس لهم من ينتصر من الله بعد عقابه إياهم، عن الأصم.

٨. اختلف لِمَ كررت هذه الآية:

أ. قيل: لما كانت نعمه موجبة لشكره وعبادته ذكَّرَهُمْ بها، وأكد ذلك لِيُقْبِلُوا على طاعته، واتباع أمره.

ب. وقيل: لما تقدم ذِكْرُ الكتاب، وفيه صفة عيسى ومحمد ـ صلى الله عليهما، والبشارة بهما، ذكَّرَهُمْ نعمه عليهم بذلك، وما فَضَّلَهُمْ به، كما عَدَّدَ النعم في سورة الرحمن، وكرر: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

ج. وقيل: إنه مقدمة لما بعده؛ لأنه تعالى لما أراد وعظهم ذكرهم قبله بالنعم عليهم؛ لأن فيه استدعاء إلى قبول الوعظ.

د. وقيل: لما باعد بين الكلامين حسن إعادته للتنبيه والتذكير.

هـ. وقيل: لاختلاف المقامات، وكان ذلك في مقام مع اليهود، وهذا كان في مقام آخر.

و. وقيل: تأكيدًا وإبلاغًا في الحجة.

٩. تدل الآيات الكريمة على:

أ. وجوب شكر النعم، والتحذير من كفرانها.

ب. بطلان قول المرجئة في الشفاعة؛ لأنه تعالى بَيَّنَ أنه تعالى لا يقبل شفاعة لمن استحق العقاب، عن أبي مسلم وأبي القاسم، ولا يقال: إنه وَرَدَ في الكافرين؛ لأن اللفظ عام في كل من استحق العقاب.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. هذه الآية قد تقدم ذكر مثلها في رأس نيف وأربعين آية، ومضى تفسيرها، وقيل في سبب تكريرها ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: إن نعم الله سبحانه لما كانت أصول كل نعمة، كرر التذكير بها مبالغة في استدعائهم إلى ما يلزمهم من شكرها، ليقبلوا إلى طاعة ربهم المظاهر نعمه عليهم.

ب. ثانيها: إنه سبحانه لما ذكر التوراة، وفيها الدلالة على شأن عيسى ومحمد عليهما السلام، في النبوة، والبشارة بهما، ذكرهم نعمته عليهم بذلك، وما فضلهم به، كما عدد النعم في سورة الرحمن، وكرر قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فكل تقريع جاء بعد تقريع، فإنما هو موصول بتذكير نعمة غير الأولى، وثالثة غير الثانية، إلى آخر السورة، وكذلك الوعيد في سورة المرسلات بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، إنما هو بعد الدلالة على أعمال تعظم التكذيب بما تدعو إليه الأدلة.

٢. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾، ومثل هذه الآية أيضا قد تقدم ذكره، ومر تفسيره.

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٧٦.

(٢) تيسير التفسير، أطفيش: ١/ ٢١١.

١. ﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالَمي زمانهم ومَن قبلَهم ومَن بعدَهم، إلَّا هذه الأمَّة فإنَّها أفضل الأمم على الإطلاق، لقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولا تكون خير أمَّة إلَّا لمنْ هو خير الرُّسُلِ، صدَّر قصتهم بهذا وختمها به تأكيدًا لتذكُّر النِّعم، وللتَّحذير من إضاعتها.

٢. ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا﴾ عقاب يوم، ﴿لَّا تَجْزِي﴾ فيه ﴿نَفْسٌ﴾ مؤمنة أو مطلقا، ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرة أو مطلقًا، ﴿شَيْئًا﴾ أي: جزاءًا، ولا تدفع شيئًا، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فداء؛ لأنَّه يعادل المفدى.

٣. ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي: لا شفاعة لهم فضلاً عن أنْ تقبل، أو هو على ظاهره إلَّا لمن أذن له، فقد روي أنَّه ﷺ يقول: (أُصَيْحَابِي) فيقال: (لا تدري ما أحدث هذا بعدك)، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي خافوا ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ أي لا تغني ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ فيه ﴿شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فداء ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي يمنعون من عذاب الله، وقد مر نظير الآيتين في صدر السورة.

٢. قال القاضي: ولما صدّر قصتهم بالأمر بذكر النعم والقيام بحقوقها، والحذر عن إضاعتها والخوف من الساعة وأهوالها ـ كرر ذلك وختم به الكلام معهم، مبالغة في النصح وإيذانا بأنه فذلكة القضية والمقصود من القصة.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. أقام الله تعالى الحجج الدامغة على أهل الكتاب ثم ناداهم ودعاهم إلى ترك أسباب الغرور المانع من الإيمان فقال ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وقد سبق

---

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٨٩.

(٢) تفسير المنار: ١/ ٤٥١.

التذكير بهذه النعمة في أول المحاجة ثم أعيد هنا للمناسبة الظاهرة، وهى أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتفقه فيه هو كفر به، ذكرهم بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بايتائه الكتاب أن يكون حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفارا.

٢. فاذا كان ابتدأ العظة والدعوة بذكر هذا التفضيل لتتوجه إليها الأنظار وتصغى إليها الأسماع كما تقدم في تفسير الآية الأولى فلا غرو أن يذكر هذا التفضيل ثانيا بعد التوبيخ والتقريع، لإزالة ما ربما يحدثه ذلك من الاستياء الذي يتوقع أن يكون من أسباب التنفير عما في الآية التالية، وليس هذا من التكرار الذي يتحاماه البلغاء وإنما هو من إعادة الشيء لإفادة ما لا يستفاد بدونه، كأن هذه الآية تمهيد لما بعدها وهو فذلكة القصة، والمقصود من إقامة الحجة.

٣. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الاعراض عن فهم كتاب الله بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه، وإنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن تفهموا وتتدبروا، فإنه يوم لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئا، ويؤيد الآية حديث الصحيحين (يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا)، وإذا كان لا يجزى فهم سلفكم عنكم أنكم أعرضتم عن هداية كتابه فلا تنفعكم شفاعتهم أيضا، كما أنه لا يقبل منكم عدل ولا فداء تفتدون به وتجعلونه معادلا لما فرطتم فيه كما قال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾، وكانوا يعتقدون بالمكفرات تؤخذ عدلا عما فرطوا فيه وبشفاعة أنبيائهم فأخبرهم الله تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه شيء آخر، ثم قطع حبل رجائهم من كل ناصر ينصرهم فقال: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي إنه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين ولا من غيرهما.

٤. تقدم في تفسير الآيات الأولى ما يغنى عن الإطالة هنا، وليس في هذه زيادة في المعنى إلا أن التعبير قد اختلف تفننا، ففي الآية الأولى تقدم ذكر الشفاعة منفية القبول، وتأخر ذكر العدل غير مأخوذ، وفى هذه الآية نفى قبول العدل أولا ثم نفى نفع الشفاعة ثانيا، وكأنه يشبر بهذا التفنن إلى أنه لا فرق بين الفداء والشفاعة في الجواز والمنع فمن منع العوض في الآخر لزمه منع الشفاعة فان جوزها جوزه.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ هذا عظة لليهود الذين كانوا في عصر التنزيل، وتذكير لهم بما سلف من نعمة الله على آبائهم بإنقاذهم من أيدى عدوهم وإنزاله المنّ والسلوى عليهم، وتمكينه لهم في البلاد بعد أن كانوا أذلاء مقهورين، وإرساله الرسل منهم وتفضيلهم على غيرهم ممن كانوا بين ظهرانيهم حين كانوا مطيعين للرسل مصدّقين لما جاءهم من عند ربهم ـ حتى يتركوا التمادي في الغي والضلال ويثوبوا إلى رشدهم.

٢. من أجلّ ما أنعم به عليهم التوراة التي أنزلت عليهم، وذكرها يكون بشكرها، وشكرها يكون بالإيمان بجميع ما جاء فيها، ومن جملته وصف النبي ﷺ فهو المبشّر به فيها.

٣. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ تقول جزى عنى هذا الأمر يجزى كما تقول قضى يقضى، زنة ومعنى، أي واتقوا يا معشر بنى إسرائيل المبدّلين كتابي، المحرفين له عن وجهه، المكذبين برسولي محمد ﷺ ـ عذاب يوم لا تقضى فيه نفس عن نفس شيئا من الحقوق التي لزمتها، فلا تؤخذ نفس بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئا كما ورد في الصحيحين: (يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا)

٤. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ العدل الفدية: أي لا يؤخذ من نفس فدية تنجو بها من النار، إذ هي لا تجد ذلك لتفتدي به، ولا يشفع فيما وجب عليها من حقّ شافع، وقد كانوا يعتقدون بالمكفّرات تؤخذ فدية عما فرطوا فيه، وبشفاعة أنبيائهم لهم، فأخبرهم الله أنه لا يقوم مقام الاهتداء به شيء آخر.

٥. ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي إنه لا يأتيهم ناصر ينصرهم فيمنع عذاب الله عنهم إذا نزل بهم.. وهذا ترهيب لمن سلفت عظتهم في الآية قبلها.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

---

(١) تفسير المراغي: ١/ ٢٠٨.

(٢) في ظلال القرآن: ١/ ١١٠.

١. بعد هذا التقرير الحاسم الجازم ينتقل السياق بالخطاب إلى بني إسرائيل. كأنما ليهتف بهم الهتاف الأخير، بعد هذه المجابهة وهذا الجدل الطويل، وبعد استعراض تاريخهم مع ربهم ومع أنبيائهم، وبعد الالتفات عنهم إلى خطاب النبي ﷺ وخطاب المؤمنين.. هنا يجيء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخيرة، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة.. أمانة العقيدة.. التي نيطت بهم من قديم.

٢. هنا يكرر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها إليهم في أول الجولة.. يا بني إسرائيل.. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذا تذكير لبنى إسرائيل بالنعم التي ساقها الله إليهم، وأنه على قدر هذه النعم سيكون البلاء، ويكون الحساب، وقد مكر القوم بآيات الله، وكفروا بنعمته، فهم في معرض النقمة، إن لم يرعوا حقّ الله فيما آتاهم من فضله.

٢. في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾، وفى قوله سبحانه في آية سابقة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾.. في هاتين الآيتين نظر، حيث اختلف نظمهما على حين كان ينتظر ـ في ظاهر الأمر ـ أن يجيئا على نسق واحد! لكن للنظم القرآني ولإعجاز هذا النظم ـ جاء هذا الاختلاف، تقريرا للواقع، ومراعاة لمقتضى الحال، وتحقيقا للإعجاز الذي هو أمر لا انفكاك له، في كل آية من آيات الكتاب الكريم، بل وفى كل كلمة من كلماته، وحرف من حروفه:

أ. ففي الآية الأولى يتوجه الخطاب إلى أصحاب الرّيب والشناعات من بنى إسرائيل، الذين يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون، والذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، فكان

---

(١) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١٣٧.

من مقتضى الحال أن يحذروا من هذا اليوم الذي يعرضون فيه على الحساب، حيث لا تجزى نفس عن نفس شيئا، وحيث يتلفت المفلسون في هذا اليوم إلى من يجيرهم، ويمدّون أبصارهم إلى من أخذ بيدهم، فلا يجدون من يجير أو يغيث: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ حيث لا تدفع نفس عن نفس مكروها، وحيث لا يقبل منها شفاعة في أحد، وحيث لا يؤخذ منها فدية لأحد.. وقد جاء البذل في هذه الآية معبرا عنه بقوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ﴾ و﴿يُؤْخَذُ﴾ لأنه مجلوب على سبيل الإحسان للمفلس المحتاج في هذا اليوم، فهي مجابهة للأشقياء، في مواجهة من يرجون عندهم العون والنصرة.

ب. أما ما في هذه الآية: فهو مواجهة صريحة للأشقياء بمعزل عمن يرجون نصرهم، وبمنقطع عمن يطمعون في الوقوف إلى جانبهم، فإذا تعلق هؤلاء الأشقياء بالآمال الكاذبة وطمعوا في أن يقع لأيديهم ما يفتدون به أنفسهم فلا فدية تقبل منهم، وإذا تمنّوا أن يطلع عليهم من يشفع لهم فشفاعته غير مقبولة فيهم ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.. وبهذه الصورة من صور التيئيس، والصورة التي قبلها يتم إغلاق دائرة اليأس عليهم، فلا ينفذ إليهم بصيص من أمل، ولو كان كاذبا!

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. أعيد نداء بني إسرائيل نداء التنبيه والإنذار والتذكير على طريقة التكرير في الغرض الذي سيق الكلام الماضي لأجله، فإنه ابتدأ نداءهم أولا بمثل هاته الموعظة في ابتداء التذكير بأحوالهم الكثيرة خيرها وشرها عقب قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] فذكر مثل هاته الجملة هناك كذكر المطلوب في صناعة المنطق قبل إقامة البرهان وذكرها هنا كذكر النتيجة في المنطق عقب البرهان تأييدا لما تقدم وفذلكة له وهو من ضروب رد العجز على الصدر.

٢. أعيدت هذه الآية بالألفاظ التي ذكرت بها هنا لك للتنبيه على نكتة التكرير للتذكير ولم يخالف بين الآيتين إلا من الترتيب بين العدل والشفاعة فهنالك قدم ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨] وأخر ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] وهنا قدم ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ وأخر لفظ الشفاعة مسندا إليه

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٦٨٠.

﴿تَنْفَعُهَا﴾ وهو تفنن والتفنن في الكلام تنتفي به سآمة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير.

٣. حصل مع التفنن نكتة لطيفة إذ جاءت الشفاعة في الآية السابقة مسندا إليها المقبولية فقدمت على العدل بسبب نفي قبولها، ونفي قبول الشفاعة لا يقتضي نفي أخذ الفداء، فعطف نفي أخذ الفداء للاحتراس، وأما في هذه الآية فقدم الفداء لأنه أسند إليه المقبولية، ونفي قبول الفداء لا يقتضي نفي نفع الشفاعة فعطف نفي نفع الشفاعة على نفي قبول الفداء للاحتراس أيضا.

٤. الحاصل أن الذي نفي عنه أن يكون مقبولا قد جعل في الآيتين أولا وذكر الآخر بعده، وأما نفي القبول مرة عن الشفاعة ومرة عن العدل فلأن أحوال الأقوام في طلب الفكاك عن الجناة تختلف، فمرة يقدمون الفداء فإذا لم يقبل قدموا الشفعاء، ومرة يقدمون الشفعاء فإذا لم تقبل شفاعتهم عرضوا الفداء.

٥. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ مراد منه أنه لا عدل فيقبل ولا شفاعة شفيع يجدونه فتقبل شفاعته لأن دفع الفداء متعذر وتوسط الشفيع لمثلهم ممنوع إذ لا يشفع الشفيع إلا لمن أذن الله له، قال ابن عرفة فيكون نفي نفع الشفاعة هنا من باب قوله: على لاحب لا يهتدى بمناره يريد أنها كناية عن نفي الموصوف بنفي صفته الملازمة له كقولهم: (ولا ترى الضب بها ينجحر) وهو ما يعبر عنه المناطقة بأن السالبة تصدق مع نفي الموضوع وإنما يكون ذلك بطريق الكناية، وأما أن يكون استعمالا في أصل العربية فلا والمناطقة تبعوا فيه أساليب اليونان.

٦. القول في بقية الآيات مستغنى عنه بما تقدم في نظيرتها.

٧. هنا ختم الحجاج مع أهل الكتاب في هذه السورة وذلك من براعة المقطع.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. تقدم بيان معانى هاتين الآيتين الكريمتين، وبقى أن يسأل سائل لماذا تكررت الآيتان، ونقول إنه ابتدأت قصة بنى اسرائيل بهاتين الآيتين، وذكر من بعدها النعم المتوالية، والكفر المتوالي، وكيف كانت النعم لا تزيدهم إلا كفرا وخسارا، وذكر سبحانه وتعالى تقلبهم في نعمه تبارك وتعالى، وكفرهم المتوالي

---

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٩٢.

بهذه النعم.. وفي ذلك اعتبار للناس، وتسلية للنبي ﷺ، وأنه كان في قصصهم عبرة لأولى الأبصار، وأنه ما كان حديثا يفترى.

٢. في ختام قصصهم في هذه السورة (سورة البقرة) تأكيد لنعمه عليهم، وتأكيد لم كان زجرهم؛ ليتبين أن ابتداء أمرهم كنهايته: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف]

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. المراد بتذكيرهم نعم الله عليهم، حثهم على الشكر، وتحذيرهم من كفر النعم الذي من أعظمه الكفر بما أنزل الله على محمد والتكذيب بآيات الله.

٢. ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ تحتاجون إلى أن تتقوه وهو يوم القيامة، ولا بديل ينجيكم منه؛ لأنه يوم ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تؤدّي عنها حقاً ولا تقضى عنها ديناً ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعدلها، فتفتدي به من مال، أو ولد، أو أي شيء.

٣. ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ ليعفى عنها ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي الذين لم يتقوا ذلك اليوم على أنهم الجمع الكبير الجم الغفير، فلا يُفيدهم ناصر ينصرهم، وهذه الآية الكريمة تكذِّب أمانيهم وتبين أنها غرور خادع؛ لأنها قد بينت أنه لا ينجي المكلف من عذاب يوم القيامة إلاّ التقوى، فعليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ وما أوتي من القرآن والسنة والآيات.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

١. تقدمت هاتان الآيتان في ما سبق وتقدم الحديث عنهما، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو السبب في إعادتها وتكرارهما، والظاهر هو أن الحديث الذي بدأه القرآن مع بني إسرائيل كان محاولة لتذكيرهم بالميثاق وبنعم الله عليهم وبمسؤوليتهم عن هذه النعم بالسير مع الإسلام في دعوة النبي، وكانت الآيات المتتابعة بمثابة استعراض للنعم وانحرافهم عن الخط المستقيم للمسؤولية، من أجل تعميق الشعور

---

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٧٨.

(٢) من وحي القرآن: ٣/ ٤.

بالمسؤولية في داخلهم في استحضار التاريخ الطويل المفعم بالحركة.

٢. ومن الطبيعي أن ختام هذا الفصل بالتركيز على هذا الجانب يعتبر عنصرا فعالا في تحقيق ذلك؛ والله العالم بحقائق آياته.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. مرّة أخرى يتجه الخطاب الإلهي إلى بني إسرائيل ليذكرهم بالنعم التي أحيطوا بها، وخاصة نعمة تفضيلهم على أمم زمانهم، فتقول الآية: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي على كل من كان يعيش في ذلك الزمان.

٢. كل نعمة تقترن بمسؤولية، وتقترن بالتزام وتكليف إلهي جديد، ولذلك قال سبحانه في الآية التالية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.. ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي غرامة أو فدية، ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ إلّا بإذن الله، ولا يستطيع أحد غير الله أن يساعد أحدا ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾، فكل سبل النجاة التي تتوسلون بها في هذه الدنيا موصدة يوم القيامة، والطريق الوحيد المفتوح أمامكم هو طريق الإيمان والعمل الصالح، وطريق التوبة من الذنوب.

---

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٦٥.

٥٢. إبراهيم والكلمات والإمامة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٥٢] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجته نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافهم، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه في الله، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها، وما ابتلي به من ذبح ولده، فلما مضى على ذلك كله وأخلصه البلاء قال الله له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١][١].

٢. روي أنه قال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فأداهن[٢].

٣. روي أنه قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يقتدى بدينك وهديك وسنتك، ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ إماما لغير ذريتي[٣].

٤. روي أنه قال: قال الله لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فأبى أن يفعل، ثم قال ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٤].

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ٢١٩..

(٢) ابن جرير: ٢/ ٥٠٩..

(٣) الدرّ المنثور: عبد بن حميد..

(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٢..

٥. روي أنه قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يقتدى بدينك وهديك وسنتك، ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ إماما لغير ذريتي، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أن يقتدى بدينهم وهديهم وسنتهم[١].

٦. روي أنه قال: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ليس للظالمين عهد، وإن عاهدته فانقضه[٢].

٧. روي أنه قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ليس لظالم عليك عهد في معصية الله أن تطيعه[٣].

٨. روي أنه قال: ما ابتلي أحد بهذا الدين فقام به كله إلا إبراهيم، قال ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قيل: ما الكلمات؟ قال سهام الإسلام، ثلاثون سهما؛ عشر في براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخر الآية، وعشر في أول سورة (قد أفلح)، و﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ [المعارج: ١] ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المعارج: ٢٦] الآيات، وعشر في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية، فأتمهن كلهن، فكتب له براءة، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧][٤].

٩. روي أنه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ منهن مناسك الحج[٥].

١٠. روي أنه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ ابتلاه الله بالطهارة؛ خمس في الرأس، وخمس في الجسد، في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل مكان الغائط والبول بالماء[٦].

١١. روي أنه قال: الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم عشر؛ ست في الإنسان، وأربع في المشاعر، فأما التي في الإنسان: فحلق العانة، ونتف الإبط ـ أو الختان ـ، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والسواك، وغسل يوم الجمعة، والأربعة التي في المشاعر: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار،

---

(١) الدرّ المنثور: عبد بن حميد..
(٢) ابن جرير: ٢/ ٥١٣..
(٣) ابن جرير: ٢/ ٥١٤..
(٤) ابن أبي شيبة: ١١/ ٥١١..
(٥) ابن جرير: ٢/ ٥٠٣..
(٦) عبد الرزاق: ١/ ٥٧..

والإفاضة[1].

١٢. روي أنه قال: الكلمات: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، و﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾، والآيات في شأن المنسك، والمقام الذي جعل لإبراهيم، والرزق الذي رزق ساكنو البيت، وبعث محمد في ذريتها[2].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، أي: عمل بهن[3].

٢. روي أنه قال: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فعهد الله الذي عهد إلى عباده دينه: لا ينال ديني الظالمين[4].

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ الظالم في هذه الآية المشرك، لا يكون إماما ظالما: لا يكون إمام مشركا[5].

٢. روي أنه قال: هو قول إبراهيم وإسماعيل إذ يرفعان البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]، فرفعاها بسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر[6].

النخعي:

روي عن إبراهيم النخعي (ت ٩٦ هـ) أنّه قال: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال لا ينال عهد

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٥٠١..

(٢) ابن جرير: ٢/ ٥٠٣..

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٢..

(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٣..

(٥) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٤..

(٦) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٦٨..

الله في الآخرة الظالمون، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمن به، وأكل، وأبصر، وعاش[1].

الضحاك:

روي عن الضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: قام بهن[2].

٢. روي أنه قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لا ينال عهدي عدو لي يعصيني، ولا أنحلها إلا وليا لي يطيعني[3].

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أما من كان منهم صالحا فسأجعله إماما يقتدى به، وأما من كان منهم ظالما فلا، ولا نعمة عين[4].

٢. روي أنه قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لا أجعل إماما ظالما يقتدى به[5].

٣. روي أنه قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إنه سيكون في ذريتك ظالمون[6].

٤. روي أنه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ ابتلي بالآيات التي بعدها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[7].

٥. روي أنه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال له الرب: يا إبراهيم، إني قد خبأتك خبيئة، قال خبأت لي ـ يا رب أنك جاعلي للناس إماما؟ قال نعم، وأنك باعث في أمتي رسولا منهم يتلو عليهم

(١) ابن جرير: ٢/ ٥١٤..

(٢) تفسير البغوي: ١/ ١٤٥..

(٣) ابن جرير: ٢/ ٥١٥..

(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٣..

(٥) ابن جرير: ٢/ ٥١٢..

(٦) سنن سعيد بن منصور: ٢/ ٦٠٦..

(٧) ابن أبي شيبة: ١١/ ٥٢١..

آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، قال نعم، فأتم الله ذلك له[(١)].

٦. روي أنه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، قال الله لإبراهيم: إني مبتليك بأمر، فما هو؟ قال تجعلني للناس إماما؟ قال نعم: ومن ذريتي؟ قال لا ينال عهدي الظالمين: تجعل البيت مثابة للناس؟ قال نعم، وأمنا؟ قال نعم، وتجعلنا مسلمين لك؟ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك؟ قال نعم، وترينا مناسكنا وتتوب علينا؟ قال نعم: وتجعل هذا البلد آمنا؟ قال نعم: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم؟ قال نعم[(٢)].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) أنه قال: ابتلاه بالكوكب فرضي عنه، وابتلاه بالقمر فرضي عنه، وابتلاه بالشمس فرضي عنه، وابتلاه بالهجرة فرضي عنه، وابتلاه بالختان فرضي عنه، وابتلاه بابنه فرضي عنه[(٣)].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: إن الله اتخذ إبراهيم، عبدا قبل أن يتخذه نبيا، واتخذه نبيا قبل أن يتخذه رسولا، واتخذه رسولا قبل أن يتخذه خليلا، واتخذه خليلا قبل أن يتخذه إماما، فلما جمع له هذه الأشياء ـ وقبض يده ـ قال له: يا إبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فمن عظمها في عين إبراهيم، قال يا رب ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[(٤)].

عطاء:

روي عن عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فأبى أن يجعل من ذريته ظالما إماما، قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال أمره[(٥)].

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٢..

(٢) ابن جرير: ٢/ ٥٠١..

(٣) ابن جرير: ٢/ ٥٠٥..

(٤) الكافي: ١/ ١٣٤..

(٥) ابن جرير: ٢/ ٥١٣..

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) أنّه قال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، أي: عمل بهن فأتمهن[١].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. أروي أنه قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ معناه خليفة.. والجمع الأئمة[٢].

٢. أروي أنه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ معناه اختبره.. والكلمات: هي الطّهارة.. وهي عشر، خمس في الرأس: الفرق، وقصّ الشارب، والمضمضة، والاستنشاق والسواك، وخمس في الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء بالماء عند الغائط، ونتف الإبط.. ويقال: بكلمات: معناه بمناسك الحج، الطّواف بالبيت والسّعي بين الصّفا والمروة، ورمي الجمار.. ويقال ابتلاه بالآيات التي بعدها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ معناه لا يكون إماما يقتدى به.: ابتلاه بذبح ولده، وبالنّار، وبالكوكب، وبالشّمس، والقمر.[٣].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) أنه قال: الكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم ربه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ إلى ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾[٤].

الربيع:

روي عن الربيع بن أنس (ت ١٣٩ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يؤتم به ويقتدى به، قال إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٥٠٩..

(٢) تفسير الإمام زيد، ص ٨٩..

(٣) تفسير الإمام زيد، ص ٩٠..

(٤) ابن جرير: ٢/ ٥٠٦..

فاجعل من يؤتم به ويقتدى به[1].

٢. روي أنه قال: قال الله لإبراهيم: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فقال: فعهد الله الذي عهد إلى عباده دينه، يقول: لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]، يقول: ليس كل ذريتك ـ يا إبراهيم ـ على الحق[2].

٣. روي أنه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، فالكلمات: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ الآية: فذلك كله من الكلمات التي ابتلي بهن إبراهيم[3].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أنّه قال: إنه ما ابتلاه الله به في نومه من ذبح ولده إسماعيل فأتمها إبراهيم وعزم عليها وسلم لأمر الله، فلما عزم قال الله تعالى له ثواباً له ـ إلى أن قال ـ ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ثم أنزل عليه الحنيفية وهي عشرة أشياء: خمسة منها في الرأس، وخمسة منها في البدن، فأما التي في الرأس: فأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، وطم الشعر، والسواك، والخلال، وأما التي في البدن: فحلق الشعر من البدن، والختان، وتقليم الأظفار، والغسل من الجنابة، والطهور بالماء، فهذه الحنيفية الظاهرة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، فلم تنسخ ولا تنسخ إلى يوم القيامة، وهو قوله: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[4].

٢. أروي أنه قال: قد كان إبراهيم نبيا وليس بإمام حتى قال الله له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ

(١) ابن جرير: ٢/ ٥٠٩..
(٢) ابن جرير: ٢/ ٥١٥..
(٣) ابن جرير: ٢/ ٥٠٣..
(٤) مجمع البيان: ١/ ٢٠٠..

وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فقال الله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ من عبد صنما أو وثنا لا يكون إماما[1].

٣. أروي أنه قال: إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبدا قبل أن يتخذه نبيا، وإن الله اتخذه نبيا قبل أن يتخذه رسولا، وإن الله اتخذه رسولا قبل أن يتخذه خليلا، وإن الله اتخذه خليلا قبل أن يتخذه إماما، فلما جمع له الأشياء قال ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فمن عظمها في عين إبراهيم: قالَ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لا يكون السفيه إمام التقي[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ في الدين، يقتدى بسنتك، ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: يا رب، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فاجعلهم أئمة[3].

٢. روي أنه قال: ﴿قَالَ﴾ الله: إن في ذريتك الظلمة، يعني: اليهود والنصارى، ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين من ذريتك، قال لا ينال طاعتي الظلمة من ذريتك، ولا أجعلهم أئمة، أنحلها أوليائي، وأجنبها أعدائي[4].

الدنداني:

روي عن أبو صالح الدنداني (ت ١٩٠ هـ) أنّه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ منهن ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ومنهن آيات النسك ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧][5].

الرضا:

روي عن عبد العزيز بن مسلم، قال: كنا في أيام الإمام الرضا (ت ٢٠٣ هـ) بمرو، فاجتمعنا في مسجد جامعها يوم الجمعة في بدء مقدمنا، فأدار الناس أمر الإمامة، وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها،

---

(١) الكافي: ١/ ١٣٣..
(٢) الكافي: ١/ ١٣٣..
(٣) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٦..
(٤) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٧..
(٥) ابن جرير: ٢/ ٥٠١..

فدخلت على سيدي ومولاي الإمام الرضا فأعلمته ما خاض الناس فيه فتبسم، ثم قال: (يا عبد العزيز، جهله القوم وخدعوا عن أديانهم، إن الله عز وجل لم يقبض نبيه ﷺ حتى أكمل له الدين، وأنزل عليه القرآن فيه تفصيل كل شيء، بين فيه الحلال والحرام، والحدود والأحكام، وجميع ما يحتاج إليه الناس كملا، فقال عز وجل: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وأنزل في حجة الوداع وهي ﷺآخر عمره ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمض ﷺ حتى بين لأمته تمام دينهم، وأوضح لهم سبيلهم، وتركهم على قصد الحق، وأقام لهم الإمام علي علما وإماما، وما ترك شيئا تحتاج إليه الأمة إلا بينه، فمن زعم أن الله عز وجل لم يكمل دينه فقد رد كتاب الله ومن رد كتاب الله فهو كافر، هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة، فيجوز فيها اختيارهم!؟ إن الامامة أجل قدرا، وأعظم شأنا، وأعلى مكانا، وأمنع جانبا، وأبعد غورا من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بآرائهم، أو يقيموا إماما باختيارهم، إن الإمامة خصّ الله بها إبراهيم الخليل بعد النبوة، والخلة مرتبة ثالثة، وفضيلة شرفه بها، وأشاد بها ذكره، فقال عز وجل: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقال الخليل مسرورا بها: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة فصارت في الصفوة[1].

الهادي إلى الحق:

ذكر الإمام الهادي إلى الحق (ت ٢٩٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[2]:

١. في نفي الحكم منه بشيء من ذلك لأعدائه، ما يقول لنبيه إبراهيم صلى الله عليه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، والعهد هو: العقد بالإمامة، والحكم لهم بالطاعة.

٢. معنى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾؛ هو: لا يبلغهم، ولا يجيزهم.

الناصر للحق:

ذكر الإمام الناصر للحق (ت ٣٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

---

(١) عيون أخبار الرّضا: ١/ ٢١٦..

(٢) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٥..

(٣) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٥..

١. مما جهلت المجبرة تأويله بلكنتها على خلاف ما أنزله الله قوله سبحانه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، إلى قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فمعنى ابتلائه إياه: امتحانه إياه لطاعته وأمره.. وإتمام ذلك: إتمامه الدين، والنور الذي أعطاه له، وحسن تعليمه إياه، وتبيينه له؛ فلما قبل أمر ربه وأدبه ـ اختاره للنبوة، ورضيه واصطفاه، فكان الله الذي جعله إماما.

٢. نظير ذلك من كلام العرب: أن الرجل إذا علم انسانا وأدبه، وأمره بما فيه رشده، فقبل عنه وتعلم منه، جاز أن يقول له: قد خلفتك فقيها، وجعلتك أديبا، وجعلتك معلما لسواك؛ فهذا تأويل ما غلطوا فيه، والحمد لله راضيا.

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. معنى قول الله عز وجل ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ هو: ما أمره به من ذبح ابنه، وما حكم عليه فيه؛ فهي: الكلمات التي امتحن الله عز وجل بها إبراهيم بقوله: (اذبح ابنك)

٢. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، أي: أمضاهن وأنفذهن في ابنه، حتى كان من تفضل الله عليه، وفديته إياه ما قد علمت.

٣. معنى ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ هو: ما كان الله عز وجل خصه به من النبوة والإمامة، واتباع الخلق له، والاقتداء به، والأخذ بسيرته، وبها أوجب الله عز وجل من طاعته.

٤. ثم سأل ربه أن يجعل الإمامة باقية في عقبه، فأخبره الله عز وجل: أنه لن ينال ذلك الظالمون منهم، ولم يجعل الإمامة لمن كان كذلك، من ولد إبراهيم، وجعلها في الصالحين من عقبه، وأكرمه بذلك، حتى أفضت النبوة والكرامة إلى محمد ﷺ، فجعله خاتم النبيين، ورسولا إلى جميع المخلوقين، ثم جعل الإمامة في الصالحين من عقبه، إلى يوم الدين، وحشر العالمين.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(٢)]:

---

(١) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٥..

(٢) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٥٤.

١. حقيقة الابتلاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾:

أ. الابتلاء والامتحان في الشاهد: استفادة علم خفى عليه من الممتحن والمبتلى به، ليقع عنه علم ما كان ملتبسا عليه.

ب. وفى الغائب لا يحتمل ذلك؛ إذ الله ـ عزّ وجل ـ عالم في الأزل بما كان، وبما يكون في أوقاته أبدا.

٢. يرجع الابتلاء من الله تعالى إلى وجوه:

أ. أحدها: أن يخرج مخرج الأمر بالشيء أو النهى عنه، لكن الذي ذكر يظهر بالأمر والنهى؛ فسمى ابتلاء من الله تعالى.

ب. الثاني: ليكون ما قد علم الله أنه يوجد موجودا، وليكون ما قد علم أنه سيكون كائنا، وعلى هذا يخرج قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، حتى نعلمه موجودا، كما علم أنه يوجد؛ كما قال ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣، التوبة: ٩٤، ١٠٥، الرعد: ٩، المؤمنون: ٩٢، السجدة: ٦]، علم الغيب، علم أنه موجد، وعلم الشهادة، علم به موجودا، حتى يوجد الذي علم أنه يجاهد منهم ـ مجاهدا، و[الذى] يصبر منهم صابرا.

٣. اختلف في الكلمات التي ابتلاه الله تعالى بها:

أ. قال بعضهم: الكلمات: هي التي ذكرت في سورة الأنعام، وهو قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦]، ورأى القمر بازغا، ورأى الشمس بازغة، هي الحجج التي أقامها على قومه بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]

ب. وقيل: ابتلاه بعشر ففعلهن: خمسة في الرأس، وخمسة في الجسد.

٤. ليس في هذا كبير حكمة؛ إذ يفعل هذا كل واحد، ولكنّ الحكمة فيه هي ما قيل: إن ابتلاءه بالنار، حيث ألقى فيها، فصبر، حتى قال له جبريل: (أتستعين بي؟) قال: (أمّا منك فلا)، وابتلى بإسكان ذريته الوادي، الذي لا ماء فيه، ولا زرع، ولا غرس.. وابتلى بالهجرة من عندهم، وتركهم هنالك ـ وهم صغار ـ ولا ماء معهم، ولا زرع، ولا غرس.. وابتلى بالهجرة إلى الشام.. وابتلى بذبح ولده.. وابتلى بأشياء لم يبتل أحد من الأنبياء بمثله، فصبر على ذلك.. ففي مثل هذا يكون وجه الحكمة.

٥. فيه لغة أخرى: (وإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ) بالرفع (رَبَّهُ) بنصب الباء، ومعناه ـ والله أعلم ـ: أنه سأل

ربه بكلمات فأعطاهن، وهو تأويل مقاتل، وهو أن قال اجعلني للناس إماما. قال نعم. قال: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، قال: نعم قال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، قال: نعم، قال: ﴿واجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً}، قال: نعم. قال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال: نعم.. مثل هذا: سأل ربه هذا فأعطاهن إياه.

٦. قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يحتمل:

أ. جعله رسولا يقتدى به؛ لأن أهل الأديان ـ مع اختلافهم ـ يدينون به، ويقرون نبوته.

ب. إماما من الإمامة والخلافة.

٧. سؤال وإشكال: كيف كان قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ جوابا لقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ وكانت الرسالة في ذريته؛ كقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨]؟ والجواب:

أ. يحتمل قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾: أحب أن تكون الرسالة تدوم في ذريته أبدا؛ حتى لا تكون بين الرسل فترات؛ فأخبر أن في ذريته من هو ظالم، فلا ينال الظالم عهده.

ب. ويحتمل: أن يكون سؤاله جعل الرسالة في أولاد إسماعيل؛ لأن العرب من أولاد إسماعيل عليه السلام، فأخبر أن في أولاده من هو ظالم؛ فلا يناله، والعهد: ما ذكرنا، هو الرسالة والوحى، وقال الحسن: لا ينال الظالم في الآخرة العهد.

ج. ويحتمل: أن يكون المراد من ذلك: وذريتي، فأخبر أن فيهم من لا يصلح لذلك.

د. ويحتمل: أن يريد به الإمامة لا النبوة، وقد كانت هي في نسل كل الفرق، والنبوة كانت فيهم.

هـ. ويحتمل: أن يكون قصد خصوصا من ذريته، ممن علم الله أن فيهم من لا يصلح لذلك.

و. ولا يحتمل: أن يريد به الإمامة لا النبوة وقد ذكر، أو قال الإنسان: قيل له: إنه من ذريتك لكن لا ينال من ذكر؛ ولهذا خص بالدعاء من آمن منهم دون من كفر.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي:

١. معنى قوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾: أي وإذا أنعم على إبراهيم ربه بكلمات ووعده بهن فأتمهن له، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، يا رب

فاجعل أئمة.

٢. فقال عز وجل: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي لا ينال وعدي بالإمامة من كان ظالماً غاشماً من ذريتك، ولكن الأئمة منهم من سار بسيرتك، واحتذى بحذيك ودينك وملتك.[1] [2].

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي:

١. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فيه محذوف والتقدير: واذكر إبراهيم إذ ابتلي يعني اختبر بالسريانية أب رحيم والذي ابتلى به من الكلمات فأتمهن وصبر عليهن:

أ. ست خلال: الكوكب والقمر والشمس والنار والهجرة والختان؛ فسماه الله تعالى وافياً بقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم]

ب. وقيل: الكلمات قوله لابنه إسماعيل: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]

٢. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي مقصوداً متبوعاً ومنه سمي إمام المصلين لاتباعهم له.

٣. ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فيه وجهان:

أ. أحدهما: أنه طلب الإمامة لذريته وسأل الله تعالى ذلك.

ب. الثاني: قال ذلك استخباراً هل يكونون أهل طاعة فيستحقون الإمامة ويصيرون أئمة.

٤. ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقطع الظالم لا وراثة له في الإمامة والعهد هنا النبوة والإمامة بعدها فكل من ظلم فقد حرم نفسه من استحقاقها.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[3]:

١. قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فيه محذوف وتقديره: واذكر إذا ابتلى يعني اختبر، وإبراهيم بالسريانية أب رحيم، وفي الكلمات التي ابتلاه الله عزّ وجل بها، ثمانية أقاويل:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٨..

(٢) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٨..

(٣) تفسير الماوردي: ١/ ١٨٣.

أ. أحدها: هي شرائع الإسلام، قال ابن عباس: ما ابتلى الله أحدا بهن، فقام بها كلها، غير إبراهيم، ابتلي بالإسلام فأتمه، فكتب الله له البراءة فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] قال وهي ثلاثون سهما:

• عشرة منها في سورة براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]..

• وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]

• وعشرة في سورة (المؤمنون): ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. [المؤمنون: ١ ـ ١١]

• وفي سورة سأل سائل من ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، إلى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. [المعارج: ٣٤]

ب. الثاني: إنها خصال من سنن الإسلام، خمس في الرأس، وخمس في الجسد، فروى ابن عباس في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وفي الجسد تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر البول والغائط بالماء، وهذا قول قتادة.

ج. الثالث: إنها عشر خصال، ست في الإنسان وأربع في المشاعر، فالتي في الإنسان: حلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والغسل يوم الجمعة، والتي في المشاعر: الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة. روى ذلك الحسن عن ابن عباس.

د. الرابع: إن الله تعالى قال لإبراهيم: إني مبتليك يا إبراهيم، قال تجعلني للناس إماما؟ قال نعم،

قال ومن ذريتي؟ قال لا ينال عهدي الظالمين، قال تجعل البيت مثابة للناس؟ قال نعم، قال وأمنا؟ قال نعم، قال وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك؟ قال نعم، قال وأرنا مناسكنا وتب علينا؟ قال نعم، قال وتجعل هذا البلد آمنا؟ قال نعم، قال وترزق أهله من الثمرات من آمن؟ قال نعم، فهذه الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم، وهذا قول مجاهد.

هـ. الخامس: أنها مناسك الحج خاصة، وهذا قول قتادة.

و. السادس: أنها الخلال الست: الكواكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان، التي ابتلي بهن فصبر عليهن، وهذا قول الحسن.

ز. السابع: ما رواه سهل بن معاذ بن أنس عن أمه قال كان النبي ﷺ يقول: (ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفّى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السّماوات والأرض وعشيّا وحين تظهرون)

ح. الثامن: ما رواه القاسم بن محمد، عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال أتدرون ما وفّى؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (وفّى عمل يوم بأربع ركعات في النّهار)

٢. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي مقصودا متبوعا، ومنه إمام المصلين، وهو المتبوع في الصلاة.

٣. قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: أنه طمع في الإمامة لذريته، فسأل الله تعالى ذلك لهم.

ب. الثاني: أنه قال ذلك استخبارا عن حالهم، هل يكونون أهل طاعة فيصيروا أئمة؟ فأخبره الله تعالى أن فيهم عاصيا وظالما، لا يستحق الإمامة، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

٤. في هذا (العهد)، سبعة تأويلات:

أ. أحدها: أنه النبوة، وهو قول السدي.

ب. الثاني: أنه الإمامة، وهو قول مجاهد.

ج. الثالث: أنه الإيمان، وهو قول قتادة.

د. الرابع: أنه الرحمة، وهو قول عطاء.

هـ. الخامس: أنه دين الله وهو قول الضحاك.

و. السادس: أنه الجزاء والثواب.

ز. السابع: أنه لا عهد عليك لظالم أن تطيعه في ظلمه، وهو قول ابن عباس.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. التمام والكمال والوفاء نظائر، وضد التمام النقصان. يقال: تم تماما، وأتم إتماماً، واستتم استتماما، وتمم تتميما وتتمة، وتتمة كل شيء: ما يكون تمامه بغايته كقولك: هذه الدراهم تمام هذه المائة، وتتمة هذه المائة. التم: الشيء التام. تقول جعلته لك تماما أي بتمامه، والتميمة: قلادة، من سيور، وربما جعلت فيه العوذ، تعلق على الصبيان، والليلة التمام أطول ليلة في السنة، ويقال: بل ليل التمام لثلاث عشرة، لأنه يستبان فيها نقصانها من زيادتها وولد الغلام أتم، وتمام، وبدر تمام، وليل تمام ـ بالكسر فيهن ـ وما بعد هذا فهو تمام ـ بالفتح ـ، وأصل الباب التمام، وهو الكمال.

٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾:

أ. قيل: معناه واجعل من ذريتي من يؤتم به، ويقتدى به على قول الربيع وأكثر المفسرين، وهو اظهر.

ب. وقيل: معناه انه سأل لعقبه ان يكونوا على عهده، وورثته، كما قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، فأخبره الله ان في عقبه الظالم المخالف له، وذريته بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

ج. وقال الجبائي قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ سؤال منه لله أن يعرّفه هل في ذريته من يبعثه نبياً، كما بعثه هو، وجعله إماماً، وهذا الذي قاله ليس في الكلام ما يدل عليه، بل الظاهر خلافه، ولو احتمل ذلك لم يمتنع ان يضيف الى مسألة منه لله ان يفعل ذلك بذريته مع سؤاله تعريفه ذلك.

٣. الذرية، والنسل والولد نظائر، وأراد ابراهيم عليه السلام هذا، وقال بعضهم: عبر بالذرية عن الآباء، وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ اي آباءهم، وهذا ليس بواضح،

---

(١) تفسير الطوسي: ١/ ٤٤٦.

وبعض العرب ذرية ـ بكسر الذال ـ وبها قرأ زيد بن ثابت. قال صاحب العين الذر: صغار النمل، واحده ذرة، والذر أخذك الشيء بأطراف أصابعك. تقول: ذررت الدواء اذره ذراً، وكذلك الملح وغيره، واسم الدواء ـ الذي يتخذ للعين ـ ذرور، والذريرة: ذات قصب الطيب، وهو قصب يجاء به من الهند كأنه قصب النشاب. والذرارة ما تناثر من الشيء الذي تذره، والذرية: فعلية من ذررت، لان الله تعالى ذرهم في الارض، فنثرهم فيها، كما ان السريرة من سررت، والجمع الذراري، والسراري وما أشبهه وإن خففت، جاز، والذرور ذروة الشمس، فهو يذر ذرورا وذلك اول طلوعها، وسقوطها إلى الارض، أو الشجر، وتقول ذر قرن الشمس اي طلع. وأصل الباب الذر وهو التفرقة.

٤. النيل واللحاق والادراك نظائر، والنيل والنوال: ما نلته من معروف انسان، واناله معروفه، ونوله: اعطاه نوالا، قال طرفة:

إن تنوله فقد تمنعه وتريه النجم يجري بالظهر

وقولهم: نولك ان تفعل ذلك، ومعناه حقك ان تفعل، والنول خشبة الحائك الذي ينسج الوسائد عليه ونحوها، واذانه المنصوبة ايضاً تسمى النوال، وأصل الباب النيل، وهو اللحوق.

٥. اختلف في المراد بالعهد هنا:

أ. قال السدي واختاره الجبائي: إنه أراد النبوة.

ب. وقال مجاهد: هو الامامة وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليه السلام، قالوا: لا يكون الظالم إماماً، وقال ابو حذيفة: لا اتخذ إماماً ضالا في الدنيا.

ج. وقيل: معناه الامر بالوفاء له فيما عقده من ظلمه، وقال ابن عباس: فإذا عقد عليك في ظلم، فانقضه، وقال الحسن: ليس لهم عند الله عهد يعطيهم عليه خيراً في الآخرة، فأما في الدنيا، فقد يعاهدون فيوفى لهم، وكأنه على هذا التأويل طاعة يحتسب بها في الآخرة.

٦. قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يدل على انه يجوز ان يعطي ذلك بعض ولده إذا لم يكن ظالماً، لأنه لو لم يرد ان يجعل احداً منهم إماماً للناس، كان يجب أن يقول في الجواب لا ولا ينال عهدي ذريتك، وكان يجوز ان يقول في العربية: لا ينال عهدي الظالمون، لان ما نالك فقد نلته، وروي ذلك في قراءة ابن مسعود إلا أنه في المصحف (بالياء). تقول نالني خيرك، ونلت خيرك.

٧. استدلّ أصحابنا[١]. بهذه الآية على ان الامام لا يكون إلا معصوما من القبائح، لان الله تعالى نفى ان ينال عهده الذي هو الامامة ـ ظالم، ومن ليس بمعصوم فهو ظالم: إما لنفسه، أو لغيره.

٨. سؤال وإشكال: انما نفى ان يناله ظالم ـ في حال كونه كذلك ـ: فأما إذا تاب وأناب، فلا يسمى ظالماً، فلا يمتنع أن ينال، والجواب: إذا تاب لا يخرج من أن تكون الآية تناولته ـ في حال كونه ظالما ـ فإذا نفى ان يناله، فقد حكم عليه بانه لا ينالها، ولم يفد انه لا ينالها في هذه الحال دون غيرها، فيجب ان تحمل الآية على عموم الأوقات في ذلك، ولا ينالها وإن تاب فيما بعد.

٩. استدلّ الإمامية بها ايضاً على أن منزلة الامامة منفصلة من النبوة، لان الله خاطب ابراهيم عليه السلام وهو نبي، فقال له: انه سيجعله إماما جزاء له على إتمامه ما ابتلاه الله به من الكلمات، ولو كان إماما في الحال، لما كان للكلام معنى، فدل ذلك على ان منزلة الامامة منفصلة من النبوة، وإنما أراد الله أن يجعلها لإبراهيم عليه السلام، وقد أملينا رسالة مقررة في الفرق بين النبي والامام، وان النبي قد لا يكون إماما على بعض الوجوه، فأما الامام فلا شك انه يكون غير نبي، وأوضحنا القول في ذلك، من أراده وقف عليه من هناك.

١٠. براهيم، وابراهيم لغتان، وأصله ابراهام فحذفت الالف استخففا. قال الشاعر:

عذت بما عاذ به إبراهيم   وقال امية: مع ابراهم التقي

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الابتلاء: الاختبار، يقال: ابتلاه واختبره، وهو في صفة الله تَوَسُّع فيما يأمر به عباده على طريق التشبيه، عن أبي علي، قال أبو بكر: إنما يقال ذلك لأنه تعالى يعامل العبد معاملة المختبر.

ب. التمام والكمال من النظائر، تم الشيء تمامًا، وأتمه إتمامًا، ونقيضه: النقصان.

ج. إبراهيم: اسم أعجمي لا ينصرف.

---

(١) يقصد الإمامية، وستتناول المسألة بتفصيل في المحل الخاص بها من السلسلة.

(٢) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٧٧.

د. كلمات: جمع كلمة، وهو الكلام

هـ. الذرية والنسل والولد نظائر، وفيه ثلاث لغات: ضم الذال، وهي قراءة العامة، وفتحها، وهي قراءة أبي جعفر، وكسرها روي ذلك عن زيد بن ثابت أنه قرأ به.

٢. لما تقدم ذِكْرُ النعم على بني إسرائيل أتبعه بقصة إبراهيم، وما أنعم عليه لانتسابهم إليه، وادعائهم أنهم على دينه، فقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾ يعني اختبر، وحقيقته أنه أمره وكلفه.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾:

أ. قيل: هي عشر خصال كانت فرضًا في شرعه، سنة في شرعنا، خمس في الرأس، وخمس في الجسد:

- أما التي في الرأس: المضمضة والاستنشاق، وفرق الرأس، وقص الشارب، والسواك.
- وأما التي في البدن: الختان، وحلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، والاستنجاء بالماء، عن ابن عباس وقتادة وأبي الخلد.

ب. وقيل: ابتلاؤه بثلاثين خصلة من شرائع الإسلام، عشر منها في سورة براءة: ﴿التَّائِبُونَ﴾ إلى آخره، وعشر في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخر الآية، وعشر في المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ وروي عشر في: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ فجعلها أربعين سهمًا، عن ابن عباس.

ج. وقيل: أمره بمناسك الحج، عن قتادة والربيع وابن عباس.

د. وقيل: ابتلاه بسبعة أشياء: بالشمس، والقمر، والكواكب، والختان، وذبح ابنه، والنار، والهجرة، فَوَفَّى كلهن، عن الحسن.

هـ. وقيل: ابتلاؤه بالآيات التي بعدها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ إلى آخر الآية.

و. وقيل: هو قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فتكفل بذلك، عن أبي القاسم.

ز. وقيل: أمره بكلمات يؤديهن إلى أمته، فقام بذلك، عن أبي علي.

٤. الكل محتمل؛ لأنه يحتمل أنه ألزمه حفظًا أو فعلاً أو إبلاغًا، وإن كان الأقرب ما ذكره أبو علي من أنه أمره بكلمات يؤديهن إلى أمته.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾:

أ. قيل: وَفَّى بهن، عن الحسن.

ب. وقيل: عمل بهن على التمام، عن قتادة والربيع.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾:

أ. قيل: أي اجعل من ذريتي من يؤتم به، ويقتدى به، يعني من أولادي.

ب. وقيل: إنه سأل لِعَقِبِهِ أن يكونوا على عهده ودينه، كما قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ فأخبر تعالى أن في عقبه الظالم المخالف له في دينه، بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

ج. وقال أبو علي: هو سؤال منه لله تعالى أن يعرفه أن في ولده من يبعثه نبيًّا.

د. وقيل: يجوز أن يكون مسألة منه أن يفعل ذلك في ذريته فيجتمع في السؤال التعريف والدعاء.

٧. ﴿لَا يَنَالُ﴾ لا يصيب ولا يلحق.

٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿عَهْدِي﴾:

أ. قيل: النبوة، عن السدي وأبي علي.

ب. وقيل: الإمامة، عن مجاهد وأبي حذيفة.

ج. وقيل: رحمتي، عن عطاء.

د. وقيل: طاعتي، عن الضحاك.

هـ. وقيل: أماني، عن أبي عبيدة.

٩. ﴿الظَّالِمِينَ﴾ من ظلم نفسه بمعصية الله تعالى، وهو عند الإطلاق اسم ذم.

١٠. احتج بعضهم بالآية على وجوب كون الأئمة والقضاة عدولاً غير ظالمين، وذلك يبعد؛ لأن ظاهره يقتضي انتفاء الظلم ظاهرًا أو باطنًا، وذلك لا يصح في الإمامة والقضاء، كما يصح في النبوة.

١١. واحتج بعضهم على أن الإمامة لا يستحقها من ظلم مرة، وهذا لا يصح؛ لأن المراد بالآية النبوة، والظالم متى تاب لا يوصف بأنه ظالم به، وإنما منع تعالى أن ينال عهده الظالم في حَالٍ، مَنْ هذا حاله ينال العهد.

١٢. سؤال وإشكال: أما كان إبراهيم عالما بأن النبوة لا تليق بالظالم؟ والجواب: بلى، ولكن لم يعلم حال ذريته، فَبَيَّنَ تعالى أن فيهم مَنْ هَذَا حَالُهُ، فإن النبوة تكون فيمن ليس بظالم.

١٣. قراءات:

أ. قرأ ابن عامر: ﴿إبراهام﴾ بالألف بين الهاء والميم، في بعض القرآن ههنا، وفي موضع آخر، وقرأ الباقون بياء بين الهاء والميم، وهو قراءة ابن عامر في مواضع وهما لغتان، وكذلك إبراهام بالألف بين الهاء والميم، وحذف الألف، وروي عن ابن الزبير أنه قرأ به، وعن أبي بكر: ﴿إِبْرَهِمُ﴾ بغير ألف وياء، وكلها لغات، غير أن الظاهر إبراهيم، وعليه الأئمة.

ب. قرأ حمزة وحفص عن عاصم: ﴿عَهْدِي﴾ بإرسال الياء، والباقون بفتحها، وجه ذلك أن الياء ههنا كالكاف للمخاطب، فكما فُتِحَ ثَمَّ، كذلك ههنا؛ ولأن أصله الفتح بدليل أنه لو سكن ما قبل الياء انفتح الياء مثل ﴿بشراي﴾ ووجه السكون أن تحريك الياء يكره، فإذا أمكن تسكينه سكن، وهذا غير صحيح؛ لأن تحريك الياء يكره بالكسر والضم لا بالفتح، بدليل قولهم: ﴿بشراي﴾

ج. قراءة العامة: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ وعن ابن مسعود: الظالمون بالواو، وقال الزجاج: وهو في المصحف بالياء، ويجوز بالواو في العربية؛ لأن ما نَالَكَ فقد نِلْتَهُ، تقول: نالني خيرك، ونلت خيرك.

١٤. تدل الآية الكريمة على:

أ. أنه تعالى أجاب دعاء إبراهيم، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، قال أبو علي: الآية دالة على أنه سيعطي بعض ولده لولا ذلك لكان الجواب أن يقول: لا، أو يقول: لا ينال عهدي ذريتك.

ب. أن النُّبوّة لا تليق إلا بالمنزه عن الظلم.

ج. أن في ذرية إبراهيم ظالمين، لا حظ لهم في النُّبوة.

الطَبِرسي:

ذكر الفضل الطَبِرسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. الابتلاء: الاختبار.

ب. التمام والكمال والوفاء نظائر، وضد التمام النقصان، يقال: تم تماما، وأتمه، وتممه تتميما، وتتمة،

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٧٧.

والتم: الشيء التام، ولكل حاملة تمام بفتح التاء وكسرها، وبدر تمام، وليل تمام بالكسر.

ج. الذرية والنسل والولد نظائر، وبعض العرب يكسر منها الذال، فيقول: ذرية، وروي أنه قراءة زيد بن ثابت، وبعضهم فتحها فقال: ذرية، وفي أصل الكلمة أربعة مذاهب: من الذرء، ومن الذر، والذرو، والذري، فإن جعلته من الذرء، فوزنه فعيلة كمريق، ثم ألزمت التخفيف أو البدل كنبي في أكثر اللغة، والبرية، وإن أخذته من الذر فوزنه فعلية كقمرية، أو فعيلة نحو ذريرة، فلما كثرت الراءات أبدلت الأخيرة ياء، وأدغم الياء الأولى فيها، نحو: سرية، فيمن أخذها من السر: وهو النكاح، أو فعولة نحو ذرورة، فأبدلوا الراء الأخيرة لما ذكرنا فصار ذروية، ثم أدغم فصار ذرية، وإن أخذته من الذرو أو الذري: فوزنه فعولة أو فعيلة، وفيه كلام كثير يطول به الكتاب ذكره ابن جني في المحتسب.

د. النيل، واللحاق، والإدراك نظائر، والنيل والنوال: ما نلته من معروف انسان، وأناله معروفه ونوله: أعطاه، قال طرفة:

إن تنوله فقد تمنعه وتريه النجم يجري بالظهر

وقولهم: نولك أن تفعل كذا معناه: حقك أن تفعل.

٢. قرأ ابن عامر: (ابراهام) هاهنا، وفي مواضع من القرآن، والباقون: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، وقرأ حمزة، وحفص: ﴿عَهْدِي﴾ بإرسال الياء، والباقون بفتحها.

٣. في إبراهيم خمس لغات: إبراهيم وابراهام وإبراهم فحذفت الألف استخفافا، قال الشاعر: (عذت بها عاذ به إبراهم)، وإبراهم، قال أمية: (مع إبراهم التقي وموسى)، وأبرهم، قال:

نحن آل الله في كعبته... لم يزل ذاك على عهد أبرهم

والوجه في هذه التغييرات، ما تقدم ذكره من قولهم: إن العرب إذا نطقت بالأعجمي، خلطت فيه، وتلعبت بحروفه، فتغيرها.

٤. ﴿و} اذكروا ﴿إذ ابتلى إبراهيم ربه} أي: اختبر وهو مجاز، وحقيقته أنه أمر إبراهيم ربه، وكلفه، وسمي ذلك اختبارا:

أ. لأن ما يستعمل الأمر منا في مثل ذلك، يجري على جهة الاختبار والامتحان، فأجرى على أمره اسم أمور العباد على طريق الاتساع.

ب. وأيضا فإن الله تعالى لما عامل عباده معاملة المبتلي المختبر، إذ لا يجازيهم على ما يعلمه منهم أنهم سيفعلونه قبل أن يقع ذلك الفعل منهم، كما لا يجازي المختبر للغير ما لم يقع الفعل منه سمى أمره ابتلاء.

٥. حقيقة الابتلاء: تشديد التكليف.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾:

أ. روي عن الصادق أنه ما ابتلاه الله به في نومه من ذبح ولده إسماعيل أبي العرب، فأتمها إبراهيم، وعزم عليها، وسلم لأمر الله، فلما عزم قال الله ثوابا له لما صدق، وعمل بما أمره الله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ثم أنزل عليه الحنيفية، وهي الطهارة، وهي عشرة أشياء خمسة منها في الرأس، وخمسة منها في البدن:

- فأما التي في الرأس: فأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، وطم الشعر، والسواك والخلال.
- وأما التي في البدن فحلق الشعر من البدن، والختان، وتقليم الأظفار، والغسل من الجنابة، والطهور بالماء، فهذه الحنيفية الظاهرة التي جاء بها إبراهيم فلم تنسخ، ولا تنسخ إلى يوم القيامة، وهو قوله: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ذكره علي بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره.

ب. وقال قتادة، وهو إحدى الروايتين، عن ابن عباس: إنها عشر خصال كانت فرضا في شرعه سنة في شريعتنا: المضمضة، والاستنشاق، وفرق الرأس، وقص الشارب، والسواك في الرأس، والختان وحلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، والاستنجاء بالماء في البدن.

ج. وفي الرواية الأخرى عن ابن عباس أنه ابتلاه بثلاثين خصلة من شرائع الاسلام، لم يبتل أحدا بها، فأقامها كلها إبراهيم، فأتمهن، فكتب له البراءة، فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، وهي عشر في سورة براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ إلى آخرها، وعشر في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخرها، وعشر في سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾، وروي وعشر في سورة: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فجعلها أربعين.

د. وفي رواية ثالثة عن ابن عباس أنه أمره بمناسك الحج.

هـ. وقال الحسن: ابتلاه الله بالكوكب، والقمر، والشمس، والختان، وبذبح ابنه، وبالنار، وبالهجرة، فكلهن وفى الله فيهن.

و. وقال مجاهد: ابتلاه الله بالآيات التي بعدها، وهي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ إلى آخر القصة.

ز. وقال أبو علي الجبائي: أراد بذلك كلما كلفه من الطاعات العقلية والشرعية.

والآية محتملة لجميع هذه للأقاويل التي ذكرناها.

٧. كان سعيد بن المسيب يقول: كان إبراهيم أول الناس أضاف الضيف، وأول الناس اختتن، وأول الناس قص شاربه، واستحد، وأول الناس رأى الشيب، فلما رآه قال: يا رب ما هذا؟ قال هذا الوقار، قال: يا رب فزدني وقارا، وهذا أيضا قد رواه السكوني، عن أبي عبد الله، ولم يذكر أول من قص شاربه واستحد، وزاد فيه: وأول من قاتل في سبيل الله إبراهيم، وأول من أخرج الخمس إبراهيم، وأول من اتخذ النعلين إبراهيم، وأول من اتخذ الرايات إبراهيم.

٨. روى الشيخ أبو جعفر بن بابويه، في كتاب النبوة، بإسناده مرفوعا إلى المفضل بن عمر، عن الصادق عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ ما هذه الكلمات؟ قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه فتاب عليه، وهو أنه قال: يا رب! أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت علي، فتاب الله عليه إنه هو التواب الرحيم، فقلت له: يا بن رسول الله! فما يعني بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: أتمهن إلى القائم اثني عشر إماما، تسعة من ولد الحسين عليه السلام، قال المفضل: فقلت له: يا بن رسول الله! فأخبرني عن كلمة الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قال: يعني بذلك الإمامة، جعلها الله في عقب الحسين إلى يوم القيامة، فقلت له: يا بن رسول الله! فكيف صارت الإمامة في ولد الحسين دون ولد الحسن عليهما السلام، وهما جميعا ولدا رسول الله ﷺ وسبطاه وسيدا شباب أهل الجنة؟ فقال: إن موسى وهارون نبيان مرسلان اخوان، فجعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسى، ولم يكن لأحد أن يقول لم فعل الله ذلك، وإن الإمامة خلافة الله عز وجل ليس لأحد أن يقول لم جعلها الله في صلب الحسين دون صلب الحسن، لأن الله عز وجل هو الحكيم في أفعاله، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

٩. وقال الشيخ أبو جعفر بن بابويه: ولقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ وجه آخر، فإن الابتلاء على ضربين أحدهما مستحيل على الله تعالى والآخر جائز:

أ. فالمستحيل هو أن يختبره ليعلم ما تكشف الأيام عنه، وهذا ما لا يصح، لأنه سبحانه علام الغيوب.

ب. والآخر: أن يبتليه حتى يصبر فيما يبتليه به، فيكون ما يعطيه من العطاء على سبيل الاستحقاق، ولينظر إليه الناظر، فيقتدي به، فيعلم من حكمة الله عز وجل أنه لم تكن أسباب الإمامة إلا إلى الكافي المستقل بها، الذي كشفت الأيام عنه.

١٠. الكلمات سوى ما ذكر:

أ. منها اليقين، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ومنها المعرفة بالتوحيد، والتنزيه عن التشبيه، حين نظر إلى الكوكب والقمر والشمس.

ب. ومنها الشجاعة بدلالة قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ ومقاومته، وهو واحد، ألوفا من أعداء الله تعالى.

ج. ومنها الحلم، وقد تضمنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾

د. ومنها السخاء، ويدل عليه قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ثم العزلة عن العشيرة، وقد تضمنه قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾

هـ. ثم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبيان ذلك في قوله: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ الآيات.

و. ثم دفع السيئة بالحسنة في جواب قول أبيه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ثم التوكل وبيان ذلك في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الآيات.

ز. ثم المحنة في النفس حين جعل في المنجنيق، وقذف به في النار.

ح. ثم المحنة في الولد حين أمر بذبح ابنه إسماعيل.

ط. ثم المحنة في الأهل، حين خلص الله حرمته من عبادة القبطي في الخبر المشهور.

ي. ثم الصبر على سوء خلق سارة.

ك. ثم استقصاره النفس في الطاعة بقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ثم الزلفة في قوله: ﴿مَا كَانَ

إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ الآية.

ل. ثم الجمع لشروط الطاعات في قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

م. ثم استجابة الله دعوته حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الآية.

ن. ثم اصطفاء الله سبحانه إياه في الدنيا.

س. ثم شهادته له في العاقبة أنه من الصالحين في قوله: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

ع. ثم اقتداء من بعده من الأنبياء به في قوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ الآية، وفي قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

١١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾:

قيل: معناه: وفى بهن في قول الحسن.

قيل: عمل بهن على التمام في قول قتادة.

١٢. الضمير في (أتمهن) عائد إلى الله تعالى في قول أبي القاسم البلخي، وهو اختيار الحسين بن علي المغربي.

١٣. قال البلخي: والكلمات هي الإمامة على ما قاله مجاهد، قال: لأن الكلام متصل، ولم يفصل بين قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وبين ما تقدمه بواو العطف، وأتمهن الله بأن أوجب بها الإمامة بطاعته، واضطلاعه بها ابتلاه.

١٤. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ معناه: قال الله تعالى: إني جاعلك إماما يقتدى بك في أفعالك وأقوالك لأن المستفاد من لفظ الإمام أمران:

أ. أحدهما: إنه المقتدى به في أفعاله وأقواله.

ب. الثاني: إنه الذي يقول بتدبير الأمة وسياستها، والقيام بأمورها، وتأديب جناتها، وتولية ولاتها، وإقامة الحدود على مستحقيها، ومحاربة من يكيدها ويعاديها.

١٥. فعلى الوجه الأول لا يكون نبي من الأنبياء إلا وهو إمام، وعلى الوجه الثاني لا يجب في كل

نبي أن يكون إماما، إذ يجوز أن لا يكون مأمورا بتأديب الجناة، ومحاربة العداة، والدفاع عن حوزة الدين، ومجاهدة الكافرين.

١٦. لما ابتلى الله سبحانه إبراهيم بالكلمات فأتمهن، جعله إماما للأنام، جزاء له على ذلك، والدليل عليه أن قوله: ﴿جَاعِلُكَ﴾ عمل في قوله: ﴿إِمَامًا﴾، واسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي، لا يعمل عمل الفعل، ولو قلت أنا ضارب زيدا أمس لم يجز، فوجب أن يكون المراد أنه جعله إماما، إما في الحال، أو في الاستقبال، والنبوة كانت حاصلة له قبل ذلك.

١٧. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾:

أ. قيل: أي: واجعل من ذريتي من يوشح بالإمامة، ويوشح بهذه الكرامة.

ب. وقيل: إنما قال ذلك على جهة التعرف، ليعلم هل يكون في عقبه أئمة يقتدى بهم.

والأولى أن يكون ذلك على وجه السؤال من الله تعالى أن يجعلهم كذلك.

١٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾:

أ. قال مجاهد: العهد الإمامة، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام، أي: لا يكون الظالم إماما للناس، فهذا يدل على أنه يجوز أن يعطي ذلك بعض ولده إذا لم يكن ظالما، لأنه لو لم يرد أن يجعل أحدا منهم إماما للناس، لوجب أن يقول في الجواب لا، أو لا ينال عهدي ذريتك.

ب. وقال الحسن: معناه إن الظالمين ليس لهم عند الله عهد يعطيهم به خيرا، وإن كانوا قد يعاهدون في الدنيا، فيوفى لهم، وقد كان يجوز في العربية أن يقال: لا ينال عهدي الظالمون، لأن ما نالك فقد نلته، وقد روي ذلك في قراءة ابن مسعود.

استدلّ أصحابنا[١]. بهذه الآية على أن الإمام لا يكون إلا معصوما عن القبائح، لأن الله سبحانه نفى أن ينال عهده الذي هو الإمامة ظالم، ومن ليس بمعصوم فقد يكون ظالما إما لنفسه، وإما لغيره.

١٩. سؤال وإشكال: إنما نفى أن يناله ظالم في حال ظلمه، فإذا تاب لا يسمى ظالما، فيصح أن يناله؟ والجواب: إن الظالم، وإن تاب، فلا يخرج من أن تكون الآية قد تناولته في حال كونه ظالما، فإذا نفى

---

(١) يقصد الإمامية.

أن يناله، فقد حكم عليه بأنه لا ينالها، والآية مطلقة غير مقيدة بوقت دون وقت، فيجب أن تكون محمولة على الأوقات كلها، فلا ينالها الظالم، وإن تاب فيما بعد.

٢٠. مسائل نحوية:

أ. ﴿عَهْدِي﴾: إنما فتح هذه الياء: إذا تحرك ما قبلها، لأن أصل هذه الياء الحركة، فإنها بإزاء الكاف للمخاطب، فكما فتحت الكاف كذلك تفتح الياء، ومن أسكنها فإنه يحتج بأن الفتحة مع الياء قد كرهت في الكلام، كما كرهت الحركتان الاخريان فيها، ألا ترى أنهم قد أسكنوها في حال السعة، إذا لزم تحريكها بالفتحة، كما أسكنوها إذا لزم تحريكها بالحركتين الأخريين، وذلك قولهم: قالي قلا، وبادي بدا، ومعدي كرب، فالياء في هذه المواضع في موضع الفتحة التي في آخر الاسمين، نحو: حضرموت، وقد أسكنت كما أسكنت في الجر، والرفع.

ب. (اللام) في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾: تتعلق بمحذوف تقديره: إماما استقر للناس، فهو صفة لإمام، فلما قدمه انتصب على الحال، ويجوز أن تتعلق بجاعلك.

ج. ﴿إِمَامًا﴾ مفعول ثان لجعل.

د. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ تتعلق بمحذوف تقديره: واجعل من ذريتي.

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾، والابتلاء: الاختبار.

٢. في إبراهيم ست لغات:

أ. أحدها: إبراهيم، وهي اللغة الفاشية.

ب. الثانية: إبراهم.

ج. الثالثة: إبراهم.

د. الرابعة: إبراهم، ذكرهنّ الفرّاء.

---

(١) زاد المسير: ١/ ١٠٨.

هـ. الخامسة: إبراهام.

و. السادسة: إبرهم، قال عبد المطّلب:

عذت بها عاذ به إبرهم مستقبل الكعبة وهو قائم

وقال أيضا:

نحن آل الله في كعبته لم يزل ذاك على عهد ابرهم

٣. في الكلمات خمسة أقوال:

أ. أحدها: أنها خمس في الرّأس، وخمس في الجسد، أمّا التي في الرّأس، فالفرق، والمضمضة، والاستنشاق، وقصّ الشّارب، والسّواك، وفي الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستطابة بالماء، والختان، رواه طاووس عن ابن عباس.

ب. الثاني: أنها عشر ستّ في الإنسان، وأربع في المشاعر، فالتي في الإنسان: حلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقصّ الشّارب، والسّواك، والغسل من الجنابة، والغسل يوم الجمعة، والتي في المشاعر: الطّواف بالبيت، والسّعي بين الصّفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة. رواه حنش بن عبد الله عن ابن عباس.

ج. الثالث: أنها المناسك، رواه قتادة عن ابن عباس.

د. الرابع: أنه ابتلاه بالكوكب، والشّمس، والقمر، والهجرة، والنّار، وذبح ولده، والختان، قاله الحسن.

هـ. الخامس: أنها كلّ مسألة في القرآن، مثل قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، ونحو ذلك، قاله مقاتل.

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾:

أ. من قال هي أفعال فعلها؛ قال معنى ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: عمل بهنّ.

ب. ومن قال هي دعوات ومسائل؛ قال معنى ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: أجابه الله إليهنّ.

٥. روي عن أبي حنيفة أنه قرأ (إبراهيم) برفع الميم (ربّه) بنصب الباء، على معنى: اختبر ربّه هل يستجيب دعاءه، ويتّخذه خليلا أم لا؟

٦. في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قولان ذكرهما الزّجّاج، وصوّب الأوّل:

أ. أحدهما: أنها فعليّة من الذّرّ، لأنّ الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذّرّ.

ب. الثاني: أنّ أصلها ذرّورة، على وزن: فعلولة، ولكن لّما كثر التضعيف أبدل من الرّاء الأخيرة ياء، فصارت: ذرويّة، ثم أدغمت الواو في الياء، فصارت: ذرّيّة.

٧. في العهد هاهنا سبعة أقوال:

أ. أحدها: أنه الإمامة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وهو الأصحّ.

ب. الثاني: أنه الطّاعة، رواه الضّحّاك عن ابن عبّاس.

ج. الثالث: الرّحمة، قاله عطاء وعكرمة.

د. الرابع: الدّين، قاله أبو العالية.

هـ. الخامس: النّبوّة، قاله السّدّيّ عن أشياخه.

و. السادس: الأمان، قاله أبو عبيدة.

ز. السابع: الميثاق، قاله ابن قتيبة.

٨. في المراد بالظّالمين هاهنا قولان:

أ. أحدهما: أنهم الكفّار، قاله ابن جبير، والسّدّيّ.

ب. الثاني: العصاة، قاله عطاء.

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما استقصى الله تعالى في شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل ثم في شرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم وختم هذا الفصل بما بدأ به وهو قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ شرع سبحانه هاهنا في نوع آخر من البيان وهو أن ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله،

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٤/ ٣١.

والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، فالمشركين كانوا معترفين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضاً مقرين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده، فحكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أموراً توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قوله محمد ﷺ والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه، وبيانه من وجوه:

أ. أحدها: أنه تعالى لما أمره ببعض التكاليف فلما وفي بها وخرج عن عهدتها لا جرم نال النبوة والإمامة وهذا مما ينبه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة إلا بترك التمرد والعناد والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه.

ب. ثانيها: أنه تعالى حكى عنه أنه طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل.

ج. ثالثها: أن الحج من خصائص دين محمد ﷺ، فحكى الله تعالى ذلك عن إبراهيم ليكون ذلك كالحجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك.

د. رابعها: أن القبلة لما حولت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود والنصارى، فبين الله تعالى أن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي يعترفون بتعظيمه ووجوب الاقتداء به فكان ذلك مما يوجب زوال ذلك الغضب عن قلوبهم.

هـ. خامسها: أن من المفسرين من فسر الكلمات التي ابتلى الله تعالى إبراهيم بها بأمور يرجع حاصلها إلى تنظيف البدن، وذلك مما يوجب على المشركين اختيار هذه الطريقة لأنهم كانوا معترفين بفضل إبراهيم عليه السلام ويوجب عليهم ترك ما كانوا عليه من التلطخ بالدماء وترك النظافة، ومن المفسرين من فسر تلك الكلمات بها أن إبراهيم عليه السلام صبر على ما ابتلى به في دين الله تعالى وهو النظر في الكواكب والقمر والشمس ومناظرة عبدة الأوثان، ثم الانقياد لأحكام الله تعالى في ذبح الولد والإلقاء في النار، وهذا يوجب على هؤلاء اليهود والنصارى والمشركين الذين يعترفون بفضله أن يتشبهوا به في ذلك ويسلكوا طريقته في ترك الحسد والحمية وكراهة الانقياد لمحمد ﷺ، فهذه الوجوه التي لأجلها ذكر الله

تعالى قصة إبراهيم عليه السلام.

٢. حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أموراً يرجع بعضها إلى الأمور الشاقة التي كلفه بها، وبعضها يرجع إلى التشريفات العظيمة التي خصه الله بها، وهذه الآية دالة على تكليف حصل بعده تشريف:

أ. أما التكليف فقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾

ب. أما التشريف فقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

٣. العامل في ﴿إِذِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ إما مضمر نحو: واذكر إذ ابتلى إبراهيم أو إذ ابتلاه كان كيت وكيت وإما ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾

٤. وصف الله تعالى تكليفه إياه ببلوى توسعاً لأن مثل هذا يكون منا على جهة البلوى والتجربة والمحنة من حيث لا يعرف ما يكون ممن يأمره، فلما كثر ذلك في العرف بيننا جاز أن يصف الله تعالى أمره ونهيه بذلك مجازاً لأنه تعالى لا يجوز عليه الاختبار والامتحان لأنه تعالى عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد(١).

٥. الضمير إما أن يكون متقدماً على المذكور لفظاً ومعنى، وإما أن يكون متأخراً عنه لفظاً ومعنى، وإما أن يكون متقدماً لفظاً ومتأخراً معنى، وإما أن يكون بالعكس، منه:

أ. الأول: وهو أن يكون متقدماً لفظاً ومعنى فالمشهور عند النحويين أنه غير جائز، وقال ابن جني بجوازه، واحتج عليه بالشعر والمعقول، أما الشعر فقوله:

جزى ربه عني عدي بن حاتم ... جزاء الكلاب العاويات وقد

وأما المعقول فلأن الفاعل مؤثر والمفعول قابل وتعلق الفعل بهما شديد، فلا يبعد تقديم أي واحد منهما كان على الآخر في اللفظ، ثم أجمعنا على أنه لو قدم المنصوب على المرفوع في اللفظ فإنه جائز، فكذا إذا لم يقدم مع أن ذلك التقديم جائز.

ب. الثاني: وهو أن يكون الضمير متأخراً لفظاً ومعنى، وهذا لا نزاع في صحته، كقولك: ضرب

---

(١) ذكر هنا قول من يقول بأنه تعالى كان في الأزل عالماً بحقائق الأشياء وماهياتها فقط، فأما حدوث تلك الماهيات ودخولها في الوجود فهو تعالى لا يعلمها إلا عند وقوعها، وقد نقلناه إلى محلة من السلسلة.

زيد غلامه.

ج. الثالث: أن يكون الضمير متقدماً في اللفظ متأخراً في المعنى وهو كقولك: ضرب غلامه زيد، فههنا الضمير وإن كان متقدماً في اللفظ لكنه متأخر في المعنى، لأن المنصوب متأخر عن المرفوع في التقدير، فيصير كأنك قلت: زيد ضرب غلامه فلا جرم كان جائزاً.

د. الرابع: أن يكون الضمير متقدماً في المعنى متأخراً في اللفظ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ فإن المرفوع مقدم في المعنى على المنصوب، فيصير التقدير: وإذ ابتلى ربه إبراهيم، إلا أن الأمر وإن كان كذلك بحسب المعنى لكن لما لم يكن الضمير متقدماً في اللفظ بل كان متأخراً لا جرم كان جائزاً حسناً.

٦. قرأ ابن عامر (إبراهام) بألف بين الهاء والميم، والباقون (إبراهيم) وهما لغتان، وقرأ ابن عباس وأبو حيوة ﴿إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ﴾ برفع إبراهيم ونصب ربه، والمعنى أنه دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه الله تعالى إليهن أم لا.

٧. ذهب بعض المفسرين إلى أن ظاهر اللفظ يدل على تلك الكلمات، وأنها التي ذكرها الله تعالى من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده والدعاء بإبعاث محمد ﷺ، فإن هذه الأشياء أمور شاقة:

أ. أما الإمامة فلأن المراد منها هاهنا هو النبوة، وهذا التكليف يتضمن مشاق عظيمة، لأن النبي يلزمه أن يحتمل جميع المشاق والمتاعب في تبليغ الرسالة، وأن لا يخون في أداء شيء منها، ولو لزمه القتل، بسبب ذلك ولا شك أن ذلك من أعظم المشاق، ولهذا كان ثواب النبي أعظم من ثواب غيره.

ب. وأما بناء البيت وتطهيره ورفع قواعده، فمن وقف على ما روي في كيفية بنائه عرف شدة البلوى فيه، ثم إنه يتضمن إقامة المناسك، وقد امتحن الله الخليل ﷺ بالشيطان في الموقف لرمي الجمار وغيره.

ج. وأما اشتغاله بالدعاء في أن يبعث الله تعالى محمداً ﷺ في آخر الزمان، فهذا مما يحتاج إليه إخلاص العمل لله تعالى، وإزالة الحسد عن القلب بالكلية.

فثبت أن الأمور المذكورة عقيب هذه الآية: تكاليف شاقة شديدة، فأمكن أن يكون المراد من ابتلاء الله تعالى إياه بالكلمات هو ذلك، ثم الذي يدل على أن المراد ذلك أنه عقبه بذكره من غير فصل بحرف من

حروف العطف فلم يقبل، وقال: إني جاعلك للناس إماماً، بل قال ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ فدل هذا على أن ذلك الابتلاء ليس إلا التكليف بهذه الأمور المذكورة.

٨. اعترض القاضي على أن ظاهر اللفظ يدل على تلك الكلمات، فقال: هذا إنما يجوز لو قال الله تعالى: وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمها إبراهيم، ثم إنه تعالى قال له بعد ذلك: إني جاعلك للناس إماماً فأتمهن، إلا أنه ليس كذلك، بل ذكر قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ بعد قوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى امتحنه بالكلمات وأتمها إبراهيم، ثم إنه تعالى قال له بعد ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

٩. يمكن أن يجاب عنه اعتراض القاضي بأنه ليس المراد من الكلمات الإمامة فقط، بل الإمامة وبناء البيت وتطهيره والدعاء في بعثة محمد ﷺ، كأن الله تعالى ابتلاه بمجموع هذه الأشياء، فأخبر الله تعالى عنه أنه ابتلاه بأمور على الإجمال، ثم أخبر عنه أنه أتمها، ثم عقب ذلك بالشرح والتفصيل، وهذا مما لا يعد فيه.

١٠. أكثر المفسرين على أن ظاهر الآية لا دلالة فيه على المراد بهذه الكلمات، وذكروا أن هذا يحتمل وجهين:

أ. أحدهما: بكلمات كلفه الله بهن، وهي أوامره ونواهيه فكأنه تعالى قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ مما شاء كلفه بالأمر بها.

ب. الثاني: بكلمات تكون من إبراهيم يكلم بها قومه، أي يبلغهم إياها.

١١. القائلون بأن الله تعالى ابتلاه بكلمات كلفه بهن، وهي أوامره ونواهيه، اختلفوا في أن ذلك التكليف بأي شيء كان على أقوال:

أ. أحدها: قال ابن عباس: هي عشر خصال كانت فرضاً في شرعه وهي سنة في شرعنا، خمس في الرأس وخمس في الجسد، أما التي في الرأس: فالمضمضة، والاستنشاق وفرق الرأس، وقص الشارب، والسواك، وأما التي في البدن: فالختان، وحلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، والاستنجاء بالماء.

ب. ثانيها: قال بعضهم: ابتلاه بثلاثين خصلة من خصال الإسلام، عشر منها في سورة براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخر الآية، وعشر منها في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية، وعشر منها في المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]

إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠] وروى عشر في: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ [المعارج: ١] إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] فجعلها أربعين سهماً عن ابن عباس.

ج. وثالثها: أمره بمناسك الحج، كالطواف والسعي والرمي والإحرام وهو قول قتادة وابن عباس.

د. رابعها: ابتلاه بسبعة أشياء: بالشمس، والقمر، والكواكب، والختان على الكبر، والنار، وذبح الولد، والهجرة، فوفي بالكل فلهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] عن الحسن.

هـ. خامسها: أن المراد ما ذكره في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]

و. سادسها: المناظرات الكثيرة في التوحيد مع أبيه وقومه ومع نمرود والصلاة والزكاة والصوم، وقسم الغنائم، والضيافة، والصبر عليها، قال القفال رحمه الله: وجملة القول أن الابتلاء يتناول إلزام كل ما في فعله كلفة شدة ومشقة، فاللفظ يتناول مجموع هذه الأشياء ويتناول كل واحد منها، فلو ثبتت الرواية في الكل وجب القول بالكل، ولو ثبتت الرواية في البعض دون البعض فحينئذ يقع التعارض بين هذه الروايات، فوجب التوقف.

١٢. اختلف هل وقع هذا الابتلاء قبل النبوة أم بعدها:

أ. قال القاضي: هذا الابتلاء إنما كان قبل النبوة:

• لأن الله تعالى نبه على أن قيامه ﷺ بهن كالسبب لأن يجعله الله إماماً، والسبب مقدم على المسبب، فوجب كون هذا الابتلاء متقدماً في الوجود على صيرورته إماماً.

• وهذا أيضاً ملائم لقضايا العقول، وذلك لأن الوفاء من شرائط النبوة لا يحصل إلا بالإعراض عن جميع ملاذ الدنيا وشهواتها وترك المداهنة مع الخلق وتقبيح ما هم عليه من الأديان الباطلة والعقائد الفاسدة، وتحمل الأذى من جميع أصناف الخلق، ولا شك أن هذا المعنى من أعظم المشاق وأجل المتاعب، ولهذا السبب يكون الرسول أعظم أجراً من أمته، وإذا كان كذلك فالله تعالى ابتلاه بالتكاليف الشاقة، فلما وفي بها لا جرم أعطاه خلعة النبوة والرسالة.

• أجاب على ضرورة تقدم الوحي على معرفته بكونه كذلك بأنه يحتمل أنه تعالى أوحى إليه على

لسان جبريل عليه السلام بهذه التكاليف الشاقة، فلما تم ذلك جعله نبياً مبعوثاً إلى الخلق.

• يجوز أن يكون المراد بالكلمات، ما ذكره الحسن من حديث الكوكب والشمس والقمر، فإنه ﷺ ابتلاه الله بذلك قبل النبوة، أما ذبح الولد والهجرة والنار فكل ذلك كان بعد النبوة، وكذا الختان، فإنه عليه السلام يروي أنه ختن نفسه وكان سنه مائة وعشرين سنة، ثم قال فإن قامت الدلالة السمعية القاهرة على أن المراد من الكلمات هذه الأشياء كان المراد من قوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أنه سبحانه علم من حاله أنه يتمهن ويقوم بهن بعد النبوة فلا جرم أعطاه خلعة الإمامة والنبوة.

ب. قال آخرون: إنه بعد النبوة لأنه ﷺ لا يعلم كونه مكلفاً بتلك التكاليف إلا من الوحي، فلا بد من تقدم الوحي على معرفته بكونه كذلك.

١٣. الضمير المستكن في ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾:

أ. في إحدى القراءتين لإبراهيم بمعنى فقام بهن حق القيام، وأداهن أحسن التأدية، من غير تفريط وتوان، ونحوه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾

ب. وفي الأخرى لله تعالى بمعنى: فأعطاه ما طلبه لم ينقض منه شيئاً.

١٤. الإمام في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ اسم من يؤتم به كالإزار لما يؤتزر به، أي يأتمون بك في دينك، وقال أهل التحقيق: المراد من الإمام هاهنا النبي ويدل عليه وجوه:

أ. أحدها: أن قوله: ﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يدل على أنه تعالى جعله إماماً لكل الناس، والذي يكون كذلك لا بد وأن يكون رسولًا من عند الله مستقلًا بالشرع لأنه لو كان تبعاً لرسول آخر لكان مأموماً لذلك الرسول لا إماماً له، فحينئذ يبطل العموم.

ب. ثانيها: أن اللفظ يدل على أنه إمام في كل شيء والذي يكون كذلك لا بد وأن يكون نبياً.

ج. ثالثها: أن الأنبياء عليهم السلام أئمة من حيث يجب على الخلق اتباعهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] والخلفاء أيضاً أئمة لأنهم رتبوا في المحل الذي يجب على الناس اتباعهم وقبول قولهم وأحكامهم والقضاة والفقهاء أيضاً أئمة لهذا المعنى، والذي يصلي بالناس يسمى أيضاً إماماً لأن من دخل في صلاته لزمه الائتمام به، قال ﷺ: (إنما جعل الإمام إماماً ليؤتم به فإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا ولا تختلفوا على إمامكم)

١٥. اسم الإمام لمن استحق الاقتداء به في الدين، وقد يسمى بذلك أيضاً من يؤتم به في الباطل، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١] إلا أن اسم الإمام لا يتناوله على الإطلاق بل لا يستعمل فيه إلا مقيداً، فإنه لما ذكر أئمة الضلال قيده بقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ كما أن اسم الإله لا يتناول إلا المعبود الحق، فأما المعبود الباطل فإنما يطلق عليه اسم الإله مع القيد، قال الله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [هود: ١٠١] وقال: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧]

١٦. إذا ثبت أن اسم الإمام اسم لمن استحق الاقتداء به في الدين، وثبت أن الأنبياء في أعلى مراتب الإمامة وجب حمل اللفظ هاهنا عليه، لأن الله تعالى ذكر لفظ الإمام هاهنا في معرض الامتنان، فلا بد وأن تكون تلك النعمة من أعظم النعم ليحسن نسبة الامتنان فوجب حمل هذه الإمامة على النبوة.

١٧. لما وعده الله تعالى بأن يجعله إماماً للناس حقق الله تعالى ذلك الوعد فيه إلى قيام الساعة، فإن أهل الأديان على شدة اختلافها ونهاية تنافيها يعظمون إبراهيم ﷺ ويتشرفون بالانتساب إليه إما في النسب وإما في الدين والشريعة حتى إن عبدة الأوثان كانوا معظمين لإبراهيم عليه السلام، وقال الله تعالى في كتابه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقال في آخر سورة الحج: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، وجميع أمة محمد ﷺ يقولون في آخر الصلاة وارحم محمداً وآل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

١٨. القائلون بأن الإمام لا يصير إماماً إلا بالنص تمسكوا بهذه الآية، فقالوا: إنه تعالى بين أنه إنما صار إماماً بسبب التنصيص على إمامته ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فبين أنه لا يحصل له منصب الخلافة إلا بالتنصيص عليه، وهذا ضعيف لأنا بينا أن المراد بالإمامة هاهنا النبوة، ثم إن سلمنا أن المراد منها مطلق الإمامة لكن الآية تدل على أن النص طريق الإمامة، وذلك لا نزاع فيه، إنما النزاع في أنه هل تثبت الإمامة بغير النص، وليس في هذه الآية تعرض لهذه المسألة لا بالنفي ولا بالإثبات.

١٩. قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يدل على أنه عليه السلام كان معصوماً عن جميع

الذنوب لأن الإمام هو الذي يؤتم به ويقتدى، فلو صدرت المعصية منه لوجب علينا الاقتداء به في ذلك، فيلزم أن يجب علينا فعل المعصية وذلك محال لأن كونه معصية عبارة عن كونه ممنوعاً من فعله وكونه واجباً عبارة عن كونه ممنوعاً من تركه والجميع محال.

٢٠. الذرية: الأولاد وأولاد الأولاد للرجل وهو من ذرأ الله الخلق وتركوا همزها للخفة كما تركوا في البرية، وفيه وجه آخر وهو أن تكون منسوبة إلى الذر.

٢١. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على الكاف كأنه قال: وجاعل بعض ذريتي، كما يقال لك: سأكرمك، فتقول: وزيداً.

٢٢. اختلف في سبب قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾:

أ. قال بعضهم: إنه تعالى أعلمه أن في ذريته أنبياء فأراد أن يعلم هل يكون ذلك في كلهم أو في بعضهم وهل يصلح جميعهم لهذا الأمر؟ فأعلمه الله تعالى أن فيهم ظالماً لا يصلح لذلك.

ب. وقال آخرون: إنه عليه السلام ذكر ذلك على سبيل الاستعلام ولما لم يعلم على وجه المسألة، فأجابه الله تعالى صريحاً بأن النبوة لا تنال الظالمين منهم.

٢٣. سؤال وإشكال: هل كان إبراهيم عليه السلام مأذوناً في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أو لم يكن مأذوناً فيه؟ فإن أذن الله تعالى في هذا الدعاء فلم رد دعاءه؟ وإن لم يأذن له فيه كان ذلك ذنباً، والجواب: قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يدل على أنه عليه السلام طلب أن يكون بعض ذريته أئمة للناس، وقد حقق الله تعالى إجابة دعائه في المؤمنين من ذريته كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداوود وسليمان وأيوب ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وجعل آخرهم محمداً ﷺ من ذريته الذي هو أفضل الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

٢٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، وفي العهد على وجوه:

أ. أحدها: أن هذا العهد هو الإمامة المذكورة فيما قبل، فإن كان المراد من تلك الإمامة هو النبوة فكذا وإلا فلا، وهو أولى لأن قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ طلب لتلك الإمامة التي وعده بها بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لا يكون جواباً عن ذلك السؤال إلا إذا كان المراد بهذا العهد تلك الإمامة.

ب. ثانيها: ﴿عَهْدِي﴾ أي رحمتي عن عطاء.

ج. ثالثها: طاعتي عن الضحاك.

د. رابعها: أماني عن أبي عبيد.

٢٥. الآية دالة على أنه تعالى سيعطي بعض ولده ما سأل، ولولا ذلك لكان الجواب: لا، أو يقول: لا ينال عهدي ذريتك.

٢٦. سؤال وإشكال: أما كان إبراهيم عليه السلام عالماً بأن النبوة لا تليق بالظالمين؟ والجواب: بلى، ولكن لم يعلم حال ذريته، فبين الله تعالى أن فيهم من هذا حاله، وأن النبوة إنما تحصل لمن ليس بظالم[١].

٢٧. بين الله تعالى أن له معك عهداً، ولك معه عهداً، وبين أنك متى تفي بعهدك، فإنه سبحانه يفي أيضاً بعهده فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] ثم في سائر الآيات فإنه أفرد عهدك بالذكر، وأفرد عهد نفسه أيضاً بالذكر، أما عهدك فقال فيه: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وقال: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣] وأما عهده سبحانه وتعالى فقال فيه: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ [التوبة: ١١١] ثم بين كيفية عهده إلى أبينا آدم فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] ثم بين كيفية عهده إلينا فقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ [يس: ٦٠] ثم بين كيفية عهده مع بني إسرائيل فقال: ﴿إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ [آل عمران: ١٨٣] ثم بين كيفية عهده مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة: ١٢٥] ثم بين في هذه الآية أن عهده لا يصل إلى الظالمين فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فهذه المبالغة الشديدة في هذه المعاهدة تقتضي البحث عن حقيقة هذه المعاهدة[٢].

القرطبي:

---

(١) ذكر هنا ما يتعلق بالإمامة والخلاف مع الإمامية فيها، وقد نقلناه إلى محله من السلسلة.

(٢) ذكر هنا بحثا مفصلا حول العهد ولوازمه نقلناه إلى محله من السلسلة.

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. لما جرى ذكر الكعبة والقبلة اتصل ذلك بذكر إبراهيم عليه السلام، وأنه الذي بنى البيت، فكان من حق اليهود ـ وهم من نسل إبراهيم ـ ألا يرغبوا عن دينه.

٢. الابتلاء: الامتحان والاختبار، ومعناه أمر وتعبد.

٣. إبراهيم تفسيره بالسريانية فيما ذكر الماوردي، وبالعربية فيما ذكر ابن عطية: أب رحيم. قال السهيلي: وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي أو يقاربه في اللفظ، ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم، لرحمته بالأطفال، ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة.. ومما يدل على هذا ما خرجه البخاري من حديث الرؤيا الطويل عن سمرة، وفيه أن النبي ﷺ رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس.

٤. إبراهيم هذا هو ابن تارخ بن ناخور في قول بعض المؤرخين، وفي التنزيل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ وكذلك في صحيح البخاري، ولا تناقض في ذلك، وكان له أربع بنين: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدائن، على ما ذكره السهيلي.

٥. قدم على الفاعل للاهتمام، إذ كون الرب تبارك وتعالى مبتليا معلوم، وكون الضمير المفعول في العربية متصلا بالفاعل موجب تقديم المفعول، فإنما بني الكلام على هذا الاهتمام، فاعلمه، وقراءة العامة ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بالنصب، ﴿رَبُّه﴾ بالرفع على ما ذكرنا، وروي عن جابر بن زيد أنه قرأ على العكس، وزعم أن ابن عباس أقرأه كذلك، والمعنى دعا إبراهيم ربه وسأل، وفيه بعد، لأجل الباء في قوله: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾

٦. ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ الكلمات جمع كلمة، ويرجع تحقيقها إلى كلام الباري تعالى، لكنه عبر عنها عن الوظائف التي كلفها إبراهيم عليه السلام، ولما كان تكليفها بالكلام سميت به، كما سمي عيسى كلمة، لأنه صدر عن كلمة وهي ﴿كُن﴾، وتسمية الشيء بمقدمته أحد قسمي المجاز.

٧. اختلف العلماء في المراد بالكلمات على أقوال:

أ. أحدها: شرائع الإسلام، وهي ثلاثون سهما، عشرة منها في سورة براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾)

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ٩٧.

إلى آخرها، وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾) إلى آخرها، وعشرة في المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وقوله في ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، قال ابن عباس: ما ابتلى الله أحدا بهن فقام بها كلها إلا إبراهيم عليه السلام، ابتلي بالإسلام فأتمه فكتب الله له البراءة فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾،

ب. وقال بعضهم: بالأمر والنهي.

ج. وقال بعضهم: بذبح ابنه.

د. وقال بعضهم: بأداء الرسالة، والمعنى متقارب.

هـ. وقال مجاهد: هي قوله تعالى: إني مبتليك بأمر، قال تجعلني للناس إماما؟ قال نعم. قال ومن ذريتي؟ قال لا ينال عهدي الظالمين، قال تجعل البيت مثابة للناس؟ قال نعم. قال وأمنا؟ قال نعم. قال وترينا مناسكنا وتتوب علينا؟ قال نعم. قال وترزق أهله من الثمرات؟ قال نعم، وعلى هذا القول فالله تعالى هو الذي أتم.

و. وأصح من هذا ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلاه الله بالطهارة، خمس في الرأس وخمس في الجسد: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الشعر، وفي الجسد: تقليم الاظفار، وحلق العانة، والاختتان، ونتف الإبط، وغسل مكان الغائط والبول بالماء، وعلى هذا القول فالذي أتم هو إبراهيم، وهو ظاهر القرآن، وروى مطر الاستحداد.

ز. وقال قتادة: هي مناسك الحج خاصة.

ح. الحسن: هي الخلال الست: الكوكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان.

ط. قال أبو إسحاق الزجاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة، لان هذا كله مما ابتلي به إبراهيم عليه السلام.

٨. في الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إبراهيم عليه السلام أول من اختتن، وأول من أضاف الضيف، وأول من استحد، وأول من قلم الاظفار، وأول من قص الشارب، وأول من شاب، فلما رأى الشيب قال ما هذا؟ قال وقار، قال يا رب زدني وقارا، وذكر أبو بكر بن أبي شيبة

عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه قال أول من خطب على المنابر إبراهيم خليل الله. قال غيره: وأول من ثرد الثريد، وأول من ضرب بالسيف، وأول من استاك، وأول من استنجى بالماء، وأول من لبس السراويل، وروى معاذ بن جبل قال قال النبي ﷺ: (إن أتخذ المنبر فقد اتخذه أبي إبراهيم وإن أتخذ العصا فقد اتخذها أبي إبراهيم)[١].

٩. ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الامام: القدوة، ومنه قيل لخيط البناء: إمام، وللطريق: إمام، لأنه يؤم فيه للمسالك، أي يقصد. فالمعنى: جعلناك للناس إماما يأتمون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون، فجعله الله تعالى إماما لأهل طاعته، فلذلك اجتمعت الأمم على الدعوى فيه ـ والله أعلم ـ أنه كان حنيفا.

١٠. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ دعاء على جهة الرغباء إلى الله تعالى، أي من ذريتي يا رب فاجعل، وقيل: هذا منه على جهة الاستفهام عنهم، أي ومن ذريتي يا رب ماذا يكون؟ فأخبره الله تعالى أن فيهم عاصيا وظالما لا يستحق الامامة. قال ابن عباس: سأل إبراهيم عليه السلام أن يجعل من ذريته إمام، فأعلمه الله أن في ذريته من يعصي فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

١١. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أصل ذرية، فعلية من الذر، لان الله تعالى أخرج الخلق من صلب آدم عليه السلام كالذر حين أشهدهم على أنفسهم، وقيل: هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا خلقهم، ومنه الذرية وهي نسل الثقلين، إلا أن العرب تركت همزها، والجمع الذراري، قال ابن جني أبو الفتح عثمان: يحتمل أصل هذا الحرف أربعة ألفاظ: أحدها: ذرأ، والثاني ذرر، والثالث: ذرو، والرابع ذري، فأما الهمزة فمن ذرأ الله الخلق، وأما ذرر فمن لفظ الذر ومعناه، وذلك لما ورد في الخبر (أن الخلق كان كالذر) وأما الواو والياء، فمن ذروت الحب وذريته يقالان جميعا، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ وهذا للطفه وخفته، وتلك حال لذر أيضا. قال الجوهري: ذرت الريح التراب وغيره تذروه وتذرويه ذروا وذريا أي نسفته، ومنه قولهم: ذرى الناس الحنطة، وأذريت الشيء إذا ألقيته، كإلقائك الحب للزرع، وطعنه فأذراه عن ظهر دابته، أي ألقاه، وقال الخليل: إنما سموا ذرية، لان الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ

---

(١) ذكر هنا بحوثا مفصلة حول الأحكام الفقهية المرتبطة بهذا نقلناها إلى محلها من السلسلة.

الزارع البذر، وقيل: أهل ذرية، ذرورة، لكن لما كثر التضعيف أبدل من إحدى الراءات ياء، فصارت ذروية، ثم أدغمت الواو في الياء فصارت ذرية، والمراد بالذرية هنا الأبناء خاصة، وقد تطلق على الإباء والأبناء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾) يعني آباءهم.

١٢. اختلف في المراد بالعهد في قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فروى أبو صالح عن ابن عباس أنه النبوة، وقاله السدي.. مجاهد: الامامة.. قتادة: الايمان.. عطاء: الرحمة.. الضحاك: دين الله تعالى، وقيل: عهده أمره، ويطلق العهد على الامر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أي أمرنا، وقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ يعني ألم أقدم إليكم الامر به.

١٣. إذا كان عهد الله هو أوامره فقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يجوز أن يكونوا بمحل من يقبل منهم أوامر الله ولا إن شاء الله تعالى، وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال لا ينال عهد لله في الآخرة الظالمين، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به، واكل وعاش وأبصر، قال الزجاج: وهذا قول حسن، أي لا ينال أماني الظالمين، أي لا أؤمنهم من عذابي، وقال سعيد بن جبير: الظالم هنا المشرك.

١٤. استدلّ جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الامام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك، وهو الذي أمر النبي ﷺ ألا ينازعوا الامر أهله، فأما أهل الفسوق والجور والظلم فليسوا له بأهل، لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ولهذا خرج ابن الزبير والحسين، والذي عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الامام الجائر أولى من الخروج عليه، لان في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدي السفهاء، وشن الغارات على المسلمين، والفساد في الأرض، والأول مذهب طائفة من المعتزلة، وهو مذهب الخوارج، فاعلمه[١]..

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ اختلف العلماء في تعيينها، فقيل: هي شرائع الإسلام، وقيل: ذبح ابنه، وقيل: أداء

---

(١) سنتناول بتفصيل هذه المسألة وأمثالها في محلها من السلسلة.

(٢) تفسير الشوكاني: ١/ ١٦٠.

الرسالة، وقيل: هي خصال الفطرة، وقيل: هي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقيل: بالطهارة.. قال الزجّاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة، لأن هذا كله مما ابتلي به إبراهيم.

٢. ظاهر النظم القرآني أن الكلمات هي قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ وما بعده، ويكون ذلك بيانا للكلمات، وروي عن بعض السلف ما يوافق ذلك، وعن آخرين ما يخالفه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ مستأنفا، كأنه: ماذا قال له؟ وقال ابن جرير ما حاصله: إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع، ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد؛ ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له، ثم قال: فلو قال قائل: إن الذي قاله مجاهد وأبو صالح الربيع بن أنس أولى بالصواب، يعني: أن الكلمات هي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ وما بعده، ورجّح ابن كثير أنها تشمل جميع ما ذكر.

٣. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهنّ أتم قيام، وامتثل أكمل امتثال.

٤. الإمام: هو ما يؤتم به، ومنه قيل للطريق: إمام، وللبناء: إمام، لأنه يؤتم بذلك، أي: يهتدي به السالك، والإمام لما كان هو القدوة للناس لكونهم يأتمون به ويهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ.

٥. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يحتمل أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم، أي: واجعل من ذريتي أئمة، ويحتمل أن يكون هذا من إبراهيم بقصد الاستفهام وإن لم يكن بصيغته، أي: ومن ذريتي ماذا يكون يا ربّ؟ فأخبره أن فيهم عصاة وظلمة، وأنهم لا يصلحون لذلك، ولا يقومون به، ولا ينالهم عهد الله سبحانه.

٦. الذرية: مأخوذة من الذرّ، لأن الله أخرج الخلق من ظهر آدم حين أشهدهم على أنفسهم كالذرّ، وقيل مأخوذة من: ذرأ الله الخلق يذرؤهم: إذا خلقهم، وفي الكتاب العزيز: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ قال في الصحاح: ذرت الريح السحاب وغيره تذروه وتذريه ذروا وذريا، أي: نسفته؛ وقال الخليل، إنما سمّوا ذرية لأن الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزراع البذر.

٧. اختلف في المراد بالعهد فقيل: الإمامة؛ وقيل: النبوّة؛ وقيل: عهد الله: أمره، وقيل: الأمان من عذاب الآخرة، ورجّحه الزجّاج، والأوّل أظهر كما يفيده السياق.

٨. استدلّ بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع كما ورد، لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالما، ويمكن أن ينظر إلى ما يصدق عليه اسم العهد، وما تفيده

الإضافة من العموم، فيشمل جميع ذلك اعتبارا بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم في كل من تعلق بالأمور الدينية، وقد اختار ابن جرير: أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالما، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه.. ولا يخفاك أنه لا جدوى لكلامه هذا، فالأولى أن يقال: إن هذا الخبر في معنى الأمر لعباده أن لا يولّوا أمور الشرع ظالما، وإنما قلنا إنه في معنى الأمر لأن أخباره تعالى لا يجوز أن تتخلف، وقد علمنا أنه قد نال عهده من الإمامة وغيرها كثيرا من الظالمين.

أَطَّفَيِّش:

ذكر محمد أَطَّفَيِّش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١ . ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾ اذكروا يا بني إسرائيل، أو اُذكر يا محمَّد إذ ابتلى، أو متعلَّق بـ (قَالَ) بعد، أو بـ (كان كذا وكذا) فحُذف، أي: كلِّف حقيقةً، أو اختُبِر مجازًا لعلاقة اللُّزوم، فإنَّ التكليف ـ وهو الأمر والنَّهي وإلزام ما فيه المشقَّة ـ يستلزم الإخبار بالنسبة إلى من يجهل العواقب تعالى الله، ومعنى تكليفه أنَّه قدَّر له ذلك وقضى أنْ يجري له، فلا يشكل بما كان من الكلمات قبل بلوغه.

٢ . ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ (أب راهيم)، أي: رحيم، وذلك لغتهم العبرانيَّة تشبه العربيَّة، قال السهيلي: كثيرًا ما يقع الِاتِّفاق أو التَّقارب بين العبرانيِّ والعربيِّ، ألَا ترى أنَّ إبراهيم تفسيره أبٌ أرْحَم، لرحمته بالأطفال؛ ولذلك جعل هو وزوجه كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارًا إلى يوم القيامة.

٣. إبراهيم بن تارخ بن آزر، أو إبراهيم بن آزر، وهو الصحيح، بل تارخ هو آزر بن ناخور بن شارخ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن فينان بن ارفخشد بن سام بن نوح، ويقال: فينان ساحر فأسقَطوه.

٤ . ﴿رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أي: معانٍ، تسميةً للمدلول باسم الدَّالِّ: المضمضة والاستنشاق والسواك وقصّ الشارب وفرق شعر الرَّأس إلى الجانبين إذا طال أربعة أصابع عرضًا، وقلم الأظفار، ونتف الإبطين، وحلق العانة والختان ـ قيل ختن نفسه وهو ابن مائة وعشرين سنة ـ والاستجمار والاستنجاء بالماء، وَأَمَّا بالحجارة قبله فلهذه الأمَّة خاصَّة، والتوبة والعبادة والحمد والسياحة، والركوع والسُّجود، والأمر

---

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ٢١٢/١.

بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وحفظ حدود الله والصَّلاة والخشوع، وترك اللَّغوِ، والزَّكاة، وحفظ الفروج، وحفظ الأمانة، وحفظ العهد، والمحافظة على الصَّلاة، والإيمان، والقنوت، والصدقة، والصوم، وكثرة ذكر الله، ومداومة الصلاة، وإعطاء السائل والمحروم، والتصديق بيوم الدين، والإشفاق من العذاب، والقيام بالشهادة، وقربان الأزواج، وقربان المملوكات، وإعفاء اللِّحية، والإحرام، والوقوف بعرفات، والمبيت بالمزدلفة، والرَّمي، والذَّبح، والحلق، والطواف، والسَّعي، والنَّظر في الكوكب والقمر والشمس ـ فيحصل الحجَّة ـ وذبح الولد، والتسليم للوقوع في نار نمروذ، وسائر الأوامر والنَّواهي، والهجرة بدينه من العراق لكفر فيه إلى حرَّان، ثمَّ إلى الشَّام ليجد الوصول إلى دينه، صَبَرَ على ذلك كلِّه كما قال الله جلَّ وعلا:

٥. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أتى بهنَّ تامَّات، كما قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

٦. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قدوة في الدين إلى يوم القيامة، ولا نبيء بعده إلَّا من ذرِّيته مأمورًا باتِّباعه في الجملة، وهو إمام لكلِّ نبيء بعده، وكلُّ نبيء إمام لمن بعده من العامَّة والأنبياء، وذلك في الأصول ومكارم الأخلاق، وهو محبوب في جميع الملل، وعن مجاهد: الكلمات هي: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ إلى آخر القصَّة، والإمام: كلُّ ما يؤتمُّ به، كما قيل لخيط البناء إمامًا لأنَّه يقتدى به في البناء.

٧. ٨. ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل أئمَّة أنبياء، وقيل: أو غير أنبياء من ذرِّيتي، أو وأئمة من ذرِّيَّتي، عطفًا على محلِّ النَّصب للكاف، وكأنَّه قيل: وجاعل من ذرِّيَّتي أئمَّة، وللكاف محلُّ جرٍّ بالإضافة، ومحلُّ نصب على المفعوليَّة؛ لأنَّ (جَاعِل) اسم فاعل للاستقبال، وهو من زيادة السَّامع إلى كلام المخاطِب، كقول الصَّحابة: (والمقصِّرين)، بعد قوله ﷺ: (اللهمَّ ارحم المحلِّقين)، ويقول القائل: جاء زيد، فتقول: راكبًا، وكما قال العبَّاس: (إلَّا الإذخر) بعد تحريم النبيء ﷺ شجر مكَّة وكلأها.

٩. والذرِّية تشمل الأنثى، كما أنَّ عيسى هو ابن مريم، ومريم من ذرِّيته؛ والياء المشدَّدة زائدة، فوزنه (فُعْلِيَّة) ـ بضمٍّ فإسكان ـ وياؤه في الأصل للنَّسَب، والأصل فتح أوَّله وضمٌّ، كما قيل: دهريٌّ بضمِّ الدَّال في النَّسب إلى دَهر بفتحها، أو الياء الثانية: عَنْ راءٍ، قُلبت ياء لئلَّا تجتمع ثلاث راءات، وأدغمت فيها الياء، والأصل (ذُرِّيرة) بضم الذَّال وشدِّ الرَّاء الأولى: مكسورة، أو (ذرُّورة) بالواو، وكلُّ ذلك من الذَّرِّ بمعنى التَّفريق؛ وإمَّا من الذرء بمعنى الخلق، فالراء الثانية: زائدة، والأصل: (ذريئة) أو (ذروية)

قلبت الهمزة ياء، وأدغمت الياء في الياء في الأوَّل، وقلبت الواو ياء في الثاني وأدغمت الياء في الياء.

١٠. ﴿قَالَ لَا يَنَالُ﴾ لا يصيب ﴿عَهْدِيَ﴾ معهودي إليك، أو أمانتي، وهو الأمانة؛ تسمى الأمانة عهدًا لأنَّها تُعاهَد بالحفظ، ﴿الظَّالِمِينَ﴾ من ذرِّيَّتك، وهذا إجابة لدعائه أنْ يجعل من ذريته أئمَّة، ولكنَّه استثنى الظالمين بفسق أو بشرك.

١١. فأيُّما فاسق أو مشرك تصدَّر فليس بإمام، أو خليفة أو حاكم بل غاصب، ولا يصلح للإمامة ـ وهي أمانة الله ـ من يخون، ولا ينفُذُ حكمُ الفاسق، وناصبه ظالم (ومن استرعى الذئب ظَلم)، وعن الحسن: إنَّ الله تعالى لم يجعل للظالم عهدًا؛ فلا يوفى له بشأن إمامته إذا أحدث ظلمًا؛ فالعدل كما شرط في البدء شرط في البقاء، وإنْ نصب بعد توبته جاز كما كان أبو بكر وعمر خليفتين بعد إسلامهما من شرك.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. لما عاب سبحانه أهل الضلال، وكان جلهم من ذرية إبراهيم عليه السّلام، وجميع طوائف الملل تعظمه ومنهم العرب، وبيته الذي بناه أكبر مفاخرهم وأعظم مآثرهم ـ ذكّر الجميع ما أنعم به عليه تذكيرا يؤدي إلى ثبوت هذا الدين باطلاع هذا النبي الأميّ، الذي لم يخالط عالما قط، على ما لا يعلمه إلّا خواص العلماء، وذكر البيت الذي بناه فجعله عماد صلاحهم، وأمر بأن يتخذ بعض ما هناك مصلّى، تعظيما لأمره وتفخيما لعليّ قدره، وفي التذكير بوفائه بعد ذكر الذين وفوا بحق التلاوة، وبعد دعوة بني إسرائيل عامة إلى الوفاء بالشكر ـ حثّ على الاقتداء به، وكذا في ذكر الإسلام والتوحيد، هزّ لجميع من يعظمه إلى اتباعه في ذلك، ذكره البقاعيّ.

٢. ﴿إِذِ﴾ منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبي ﷺ بطريق التلوين، أي واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام، ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الداعية إلى التوحيد، الوازعة عن الشرك، فيقبلوا الحق ويتركوا ما هم فيه من الباطل، ولا يبعد أن ينتصب بمضمر معطوف على ﴿اذْكُرُوا﴾ خوطب به بنو إسرائيل ليتأملوا فيما يحكى، عمن ينتمون إلى ملته من إبراهيم وبنيه عليهم السلام، من الأفعال

---

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٩٠.

والأقوال، فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم أي واذكروا إذ ابتلى أباكم إبراهيم، فأتم ما ابتلاه به، فما لكم أنتم لا تقتدون به فتفعلوا عند الابتلاء فعله، في إيفاء العهد والثبات على الوعد، لأجازيكم على ذلك جزاء المحسنين؟

٣. الابتلاء، في الأصل، الاختبار، أي تطلّب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه، غالبا، فعله أو تركه، والاختيار منّا لظهور ما لم نعلم، ومن الله لإظهار ما قد علم، وعاقبة الابتلاء ظهور الأمر الخفيّ في الشاهد والغائب جميعا، فلذا تجوز إضافته إلى الله تعالى.

٤. ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ أي بشرائع: أوامر ونواه، وللمفسرين أقاويل فيها وفي تعدادها، قال ابن جرير: ولا يجوز الجزم بشيء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين، إلا بحديث أو إجماع، ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.

٥. الأقرب في معنى الكلمات هو ابتلاؤه بالإسلام، فأسلم لرب العالمين وابتلاؤه بالهجرة، فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرا إلى الله، وابتلاؤه بالنار فصبر عليها، ثم ابتلاؤه بالختان فصبر عليه، ثم ابتلاؤه بذبح ابنه فسلم واحتسب، كما يؤخذ ذلك من تتبع سيرته في التنزيل العزيز وسفر التكوين من التوراة، ففيهما بيان ما ذكرنا في شأنه ﷺ، من قيامه بتلك الكلمات حق القيام، وتوفيتهن أحسن الوفاء، وهذا معنى قوله تعالى ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] والإتمام التوفية.

٦. ﴿قَالَ﴾ جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الكلام، فكأنه قيل: فما جوزي على شكره؟ قيل: قال له ربه ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي قدوة لمن بعدك.

٧. الإمام اسم لمن يؤتم به، ولم يبعث بعده نبيّ إلا كان مأمورا باتباع ملته، وكان من ذريته، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]

٨. ﴿قَالَ﴾ أي إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل من ذريتي أئمة ﴿قَالَ لَا يَنَالُ﴾ أي قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك، لكن لا ينال ﴿عَهْدِي﴾ أي الذي عهدته إليك بالإمامة ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أي منهم، لأنهم نفوا أنفسهم عنك في أبوة الدين، ففي قوله ﴿لَا يَنَالُ﴾.. إجابة خفية لدعوته عليه السلام، وعدة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته بنيل عهد الإمامة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وفي ذلك أتم ترغيب في التخلق بوفائه لا سيما للذين دعوا قبلها إلى الوفاء

بالعهد، وإشارة إلى أنهم إن شكروا أبقى رفعتهم كما أدام رفعته، وإن ظلموا لم تنلهم دعوته، فضربت عليهم الذلة وما معها، ولا يجزى أحد عنهم شيئا ولا هم ينصرون.

٩. استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الظالم ليس بأهل للإمامة، والكشاف أوسع المقال، في ذلك، هنا، وأبدع في إيراد الشواهد، كما أن الشيعة استدلت بها على صحة قولهم في وجوب العصمة في الأئمة، ظاهرا وباطنا، على ما نقله الرازيّ عنهم وحاورهم.. واستدلال الفرقتين على مدعاهما وقوف مع عموم اللفظ، إلا أن الآية الكريمة بمعزل عن إرادة خلافة السلطنة والملك.

١٠. المراد بالعهد، تلك الإمامة المسؤول عنها، وهل كانت إلا الإمامة في الدين وهي النبوّة التي حرمها الظالمون من ذريته؟ كما قال تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ولو دلت الآية على ما ادّعوا لخالفه الواقع.. فقد نال الإمامة الدنيوية كثير من الظالمين، فظهر أن المراد من العهد إنما هو الإمامة في الدين خاصّة، والاحتجاج بها على عدم صلاحية الظالم للولاية تمحل، لأنه اعتبار لعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق، أو ذهاب إلى الخبر في معنى الأمر بعدم تولية الظالم، كما قاله بعضهم، وهو أشد تمحلا، ومعلوم أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع، كما ورد، ومتى زاغ عن ذلك كان ظالما، والبحث في ذلك له غير هذا المقام.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد أن أقام الله الحجة على أهل الكتاب وبين شؤونهم في الكفر بالنبي الذي كانوا ينتظرونه لبشارة رسلهم به وشؤونهم في التلاعب بدينهم وشؤونهم مع المؤمنين ـ بين في هذه الآيات وما بعدها ما يستند إليه الاسلام ونبي الاسلام من أصل ونسب يجله أهل الكتاب والعرب جميعا وهو ملة إبراهيم ونسبه، فهو في هذا السياق يبين لأهل الكتاب ولا سيما اليهود المحتكرين للوحى في قومهم والمفضلين لأنفسهم على العرب بنسبهم أن هذا لو كان حجة لما قامت هذه الحجة على محمد ﷺ وقومه، إذ الملة في الأصل واحدة والنسب واحد ولكنهم كفروا النعمتين بما تقدم ذكره من أعمالهم فجاء النبيّ الموعود به

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٤٥٢.

لإصلاح حالهم وحال غيرهم.

٢. كان الكلام في أول السورة إلى هذه الآية بأسلوب واحد في سياق واحد: ذكر حقية الكتاب وكونه من نصوع البرهان بحيث يدفع ريب المرتابين أن يدنو منه أو يتسامى إليه، ثم ذكر أصناف الناس في أمر الإيمان به وعدم الإيمان به وأطال الحجاج والمناظرة في خطاب أهل الكتاب خاصة لما تقدم من أنهم كانوا موضع الرجاء في المبادرة إلى الإيمان بالنبي وما جاء به لأنه وافقهم في أصل الدين وصدق أنبياءهم، وكتبهم وذكرهم بما نسوا، وعلمهم ما جهلوا، وأصلح لهم ما حرفوا وزادهم معرفة بأسرار الدين وحكمته، كما أنهم كانوا في موضع الشبهة عند المشركين والمنافقين بما كفروا، وفي موضع الحجة عليهم بما آمنوا، قال تعالى في الاحتجاج على المشركين: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وقد جاءت محاجة أهل الكتاب على طريقة الإطناب لما كانوا عليه من جمود القرائح والبعد عن البلاغة كما حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ ومن فساد الأذهان بالتعود على التأويل والتحريف، فكان يبدأ لهم المعنى ويعاد، ويساق إليهم القول بطرق بينة، ويؤكد بضروب من التأكيد، تبعد به عن قبول التأويل والتحويل، وكان مما حجوا به التذكير بحال سلفهم الأنبياء وبحالهم معهم من عصيانهم وإيذائهم بل قتلهم في عهدهم، والغرور بانتظار شفاعتهم والاستغناء بها من بعدهم.

٣. الكلام في هذه الآية ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ وما بعدها موجه إلى مشركي العرب، ووجه الاتصال بينها وبين ما قبلها أن ذلك كان يتضمن الاحتجاج على أهل الكتاب بسلفهم الصالح، وهذا يتضمن الاحتجاج على مشركي قريش وأمثالهم بسلفهم الصالح، فانهم ينتسبون إلى إسماعيل وإبراهيم ويفتخرون بأنهما بنيا لهم الكعبة معبدهم الأكبر، وكانوا في عهد التنزيل قد اختلطوا بالأمم المجاورة التي تعرف لهم هذا النسب.

٤. نرى الكلام هنا جاريا على طريقة الايجاز والإشارة لما كان عليه العرب من حدة الفكر وصفاء الأذهان، ودقة الفهم ورقة الوجدان، على أن هذه الآيات تصلح حجة على الفريقين لأن أهل الكتاب كافة يجلون ابراهيم ﷺ ويعتقدون نبوته، والاسرائيليون منهم ينتسبون إليه، لكن الخطاب في قصته موجه إلى العرب أولا وبالذات، فتلك حجج القرآن على أهل الكتاب الذي جاء لإصلاح دينهم وترقيتهم فيه ودين الله واحد في جوهره، وهذه حججه على أهل الشرك والوثنية الخاصة التي جاء لمحوها من الأرض وإثبات

نقيضها وهو التوحيد والتنزيه وإثبات البعث والنشور، وقد أقام الحجج على هذين الأصلين من الطرق العقلية والكونية في مواضع كثيرة ولا سيما في السور المكية.

٥. أشهر الأقوال وأظهرها في متعلق (إذ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أنه مقدر معلوم من السياق ومن أمثاله وهو ﴿اذْكُرْ﴾ وإذا جعل الخطاب للرسول ﷺ أي ﴿وَاذْكُرِ﴾ لأهل الكتاب ولقومك وغيرهم ﴿إِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ} الخ وإذا جعل الخطاب للمكلفين ﴿وَاذْكُرُوا﴾ وتقدم نظيره في خطاب بنى إسرائيل أنه متعلق بقوله ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

٦. الكلمات جمع كلمة وتطلق على اللفظ المفرد وعلى الجمل المفيدة من الكلام، والمراد منها هنا مضمونها من أمر ونهى، روى عكرمة عن ابن عباس قال لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا ابراهيم ابتلاه الله بثلاثين خصلة من خصال الاسلام، واستنبطها ابن عباس بالعدد من أربع سور ليس فيها خطاب له ﷺ، وقال محمد عبده: جعل التكليف بالكلمات لأنها تدل عليها وتعرف بها عادة ولم يذكر الكلمات ما هي ولا الاتمام كيف كان، لأن العرب تفهم المراد بهذا الابهام والاجمال وأن المقام مقام إثبات أن الله تعالى عامل ابراهيم معاملة المبتلى أي المختبر له لتظهر حقيقة حاله ويترتب عليها ما هو أثر لها.

٧. ظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله بإتمامه ما كلفه الله تعالى إياه وإتيانه به على وجه الكمال، هذا هو المبادر ولكن المفسرين لم يألوا في تفسير الكلمات والخبط في تعيينها فقال بعضهم: إنها مناسك الحج، وقال آخرون: إنها خصال الايمان واستخرجوها من آيات من القرآن، وذهب بعضهم إلى أن الإشارة بالكلمات إلى الكوكب والقمر والشمس التي رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى، وكأن قائل هذا يعتقد أن ابراهيم ﷺ كان يظن أن هذه الكواكب أربابا وحاشا لله ما كان منه إلا أن قال ﴿هَذَا رَبِّي﴾ تمهيدا للحجة والبرهان ولذلك قال تعالى بعد حكاية ذلك عنه (٦: ٨٢ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ وذهب قوم إلى أن المراد بها جعل الله إياه إماما وتكليفه بإقامة البيت وتطهيره وأن بقية الآية مفسر للإبهام فيها، وادعى بعضهم أن المراد أمره في المنام بذبح ولده وإنما هذا الأمر كلمة واحدة فكيف جعلوها عشرا؟ وزعم آخرون أن الكلمات هي الخصال العشر التي تسمى خصال الفطرة، وهى قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وتقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط والاستحداد وقيل غير ذلك.

٨. قال محمد عبده عند إيراد قول المفسر (الجلال) في تفسير الكلمات إنها الخصال العشر: إن هذا من الجراءة الغريبة على القرآن، ولا شك عندي في أن هذا مما أدخله اليهود على المسلمين ليتخذوا دينهم هزوا، وأي سخافة أشد من سخافة من يقول: إن الله تعالى ابتلى نبيا من أجل الأنبياء بمثل هذه الأمور وأثنى عليه بإتمامها وجعل ذلك كالتمهيد لجعله إماما للناس وأصلا لشجرة النبوة ـ وإن هذه الخصال لو كلف بها صبى مميز لسهل عليه إتمامها ولم يعد ذلك منه أمرا عظيما ـ؟ والحق أن مثل هذا يؤخذ كما أخبر الله تعالى به ولا ينبغي تعيين المراد به إلا بنص عن المعصوم.

٩. هذا ملخص ما قاله محمد عبده في الدرس وهو صفوة الحقيقة، ولكن كتب إليه رجل من المشتغلين بالعلم في سورية كتابا عقب قراءته ذلك في المنار يقول فيه: ان تفسير الكلمات بخصال الفطرة مروى عن ترجمان القرآن ابن عباس، فكيف يخالفه فيه؟ وشدد النكير في ذلك وأطنب في مدح ابن عباس، وقد أرسل إليّ الأستاذ كتابه عند وصوله وكتب عليه: الشيخ رشيد يجيب هذا الحيوان: فكتبت إليه وكان صديقا لي كتابا لطيفا كان مما قلته فيه على ما أتذكر: إننا لم نر أحدا من المفسرين ولا من أئمة العلماء التزم موافقة ابن عباس في كل ما يروى عنه وان صح سنده عنده، فكيف إذا لم يصح؟ وقد قال الشيخ محمد عبده إنه يجل ابن عباس عن هذه الرواية ولا يصدقها، ولما كانت مثل هذه الشبهة أو الطعن في أي عالم بأنه خالف فلانا الصحابي أو الامام فلانا مما يروج في سوق العوام نذكر هنا ما قاله شيخ المفسرين ابن جرير الطبري بعد ذكر رواياته المختلفه في تفسير (الكلمات) عن ابن عباس وغيره من مفسري السلف ونقله عنه ابن كثير مقرا له، قال هذا: قال أبو جعفر ابن جرير ما حاصله: إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع.. ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.. والمراد منه وهو عين ما ذهب إليه محمد عبده وهذه الحجة يدلى بها ابن جرير في مواضع كثيرة من تفسيره وهى الحق.

١٠. ذكر تعالى أن ابراهيم أتم الكلمات وأنه تعالى ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقد فصلت الجملة عما قبلها لأنها جواب عن سؤال مقدر تدل عليه القرينة قال محمد عبده: ولم يقل فقال إني جاعلك: للإشعار بأن هذه الامامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات، فان الامامة هنا عبارة عن الرسالة وهى لا تنال بكسب الكاسب، وليس في الكلام دليل على أن الابتلاء كان قبل النبوة.

١١. فائدة الابتلاء تعريف ابراهيم عليه السّلام بنفسه وأنه جدير بما اختصه الله به، وتقوية له على القيام بما يوجه إليه وقد تحققت إمامته للناس بدعوته إياهم إلى التوحيد الخالص ـ وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم ـ فقام على عهده بالحنيفية وهى الايمان بتوحيد الله والبراءة من الشرك وإثبات الرسالة، وتسلسل ذلك في ذريته خاصة فلم ينقطع منها دين التوحيد، ولذلك وصف الله الإسلام بأنه ملة إبراهيم.

١٢. قال إبراهيم عليه السلام لما بشره الله تعالى بجعله إماما للناس ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي قال واجعل من ذريتي أئمة للناس، وهو إيجاز في الحكاية عنه لا يعهد مثله الا في القرآن، وقد جرى ابراهيم عليه السلام على سنة الفطرة في دعائه هذا فان الانسان لما يعلم من أن بقاء ولده بقاء له يحب أن تكون ذريته على أحسن حال يكون هو عليها، ليكون له حظ من البقاء جسدا وروحا، ومن دعاء ابراهيم الذي حكاه الله عنه في السورة المسماة باسمه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، وقد راعى الأدب في طلبه، فلم يطلب الامامة لجميع ذريته بل لبعضها، لأنه الممكن وفى هذا مراعاة لسنن الفطرة أيضا، وذلك من شروط الدعاء وآدابه فمن خالف في دعائه سنن الله في خليقته أو في شريعته فهو غير جدير بالإجابة، بل هو سيء الأدب مع الله تعالى، لأنه يدعوه لان يبطل لأجله سنته التي لا تتبدل ولا تتحول أو ينسخ شريعته بعد ختم النبوة وإتمام الدين.

١٣. أجاب الله ابراهيم حين دعاه هذا الدعاء: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي إنني أعطيك ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ولكن عهدي بالإمامة لا ينال الظالمين، لأنهم ليسوا بأهل لأن يقتدى بهم، ففي العبارة من الإيجاز ما يناسب ما قبلها وإنما اكتفى في الجواب بذكر المانع من منصب الامامة مطلقا وهو الظلم لتنفير ذرية إبراهيم من الظلم وتبغيضه اليهم ليتحاموه وينشئوا أولادهم على كراهته، ويربوهم على التباعد عنه لكيلا يقعوا فيه فيحرموا من هذا المنصب العظيم الذي هو أعلى المناصب وأشرفها، ولتنفير سائر الناس من الظالمين وترغيبهم عن الاقتداء بهم، فان الناس قد اعتادوا الاقتداء بالرؤساء والملوك الظالمين لأنفسهم ولغيرهم بالخروج عن الشريعة إلا ما يوافق أهواءهم، ويحرفون أو يؤولون الاحكام لتطابق شهواتهم، وقد درجوا على ذلك في كل عصر ما عدا عصر النبوة وما قاربه، كعصر خلافة النبوة كما يعلم من شهادة التاريخ التي لا ترد.

١٤. ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالظلم هنا أشد أنواعه قبحا وضررا وهو الشرك والكفر،

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لكن لا دليل هنا على الحصر أو القصر، ومن يظلم الناس من الموحدين المقرين بالرسالة غير أهل لإمامتهم لأنه قدوة باطل وشر يفسد عليهم دينهم ودنياهم، وإذا كان فقهاؤنا يقولون بأن الامام لا ينبذ عهده إلا بالكفر الصريح دون الظلم والفسق فإنما يقولون ذلك خوفا من وقوع الفتنة، لا لأن الظالم أهل للإمامة، ألم تر أنهم يشترطون في اختياره وبيعته العدالة، ومن قواعدهم أنه يغتفر في البقاء والاستمرار ما لا يغتفر في الابتداء، وليس هذا في كل شيء أيضا.

١٥. قال محمد عبده: الامامة الصحيحة والأسوة الحسنة هي فيما تكون عليه الأرواح من الصفات الفاضلة والملكات العلمية التي تملك على صاحبها طرق العمل فتسوقه إلى خيرها وتزعه عن شرها، ولاحظ للظالمين في شيء منها، وإنما هم أصحاب الرسم وأهل الخداع والانخداع بالظاهر، ولذلك يصفون أعمالهم وأحكامهم بالرسمية، وقد جعل الله إبراهيم إماما للناس وذكر لنا في كتابه كثيرا من صفاته الجليلة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا﴾ الآيات، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ ولم يذكر لنا شيئا من زيه وصفة ثيابه، ولا وصف أنواع طعامه وشرابه، بل أرشدنا إلى أن دعوته الصالحة لا يدخل فيها ولا ينتفع بها أحد من ذريته إلا من اجتنب الظلم لنفسه وللناس.

١٦. أخذوا من هذه الآية حكما أصوليا وهو أن الظالم لا يجوز أن يولى منصب الامامة العظمى، واشترطوا لصحة الخلافة فيها اشترطوا العلم والعدل، ونقل أن أبا حنيفة كان يفتى سرا بجواز الخروج على المنصور ويساعد عليا بن الحسن على ما كان ينزع إليه من الخروج عليه، اكتفى محمد عبده من الدرس بهذا القدر من الاستشهاد، ومن الناس من يعلل إباء أبى حنيفة وغيره من الأئمة منصب القضاء في زمن المنصور وأمثاله من الامراء باعتقاد عدم صحة إمامتهم، وعدم انعقاد ولايتهم، ويروى أن أبا حنيفة كان يرى يومئذ أن الامامة يجب أن تكون للعلويين خاصة.. ثم ذكر محمد عبده هنا أئمة العلم وقال: إن الناس لم يرعووا عن الاقتداء بالظالمين حتى بعد هذا التحذير الذي أوحاه الله إلى إبراهيم ثم أعلم به محمدا عليهما الصلاة والسّلام فانهم ظلوا على دين ملوكهم وهم اليوم وقبل اليوم يدعون الاقتداء بالأئمة الأربعة وهم كاذبون في هذه الدعوى فانهم ليسوا على شيء من سيرتهم في التخلق بأخلاق القرآن، وتحرى اتباع الكتاب والسنة في جميع الأعمال.

١٧. اكتفى محمد عبده بهذه الإشارة في الدرس ونزيدها إيضاحا فنقول: قد غلبت على الناس أهواء السلاطين والحكام الظالمين، حتى إن هؤلاء الأئمة الأربعة لم يسلموا من أولئك الظالمين، فقد سجن أبو حنيفة وحاولوا إكراهه على قبول القضاء لما رأوا من إقبال الناس على الأخذ عنه فلم يقبل، فضربوه وحبسوه ولم يقبل كما هو مشهور، وضرب الإمام مالك سبعين سوطا لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان، ونقل عن الواقدي أنه لم يكن في آخر عهده يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة وكان يقول ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره، وسعى به إلى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس وهو عم أبى جعفر المنصور وقالوا له إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمرا عظيما، وخبر طلب هارون الشافعي للقضاء وإبائه واختفائه ثم هربه مشهور وسببه الورع، وأشهر منه محنة أحمد وحبسه وضربه الضرب المبرح ليقول بخلق القرآن، فهكذا عامل الملوك الظالمون هؤلاء الأئمة وبلغوا منهم ومن الناس بظلمهم ما أرادوا من إفساد الدين والدنيا، وكلنا يعلم أن أولئك الذين ظلموا الأئمة الذين يدعى الأمراء والحكام اليوم اتباعهم كانوا أقل توغلا وإسرافا في الظلم من أكثر الملوك والأمراء المتأخرين، وانك لترى أكثر الناس تبعا لأهواء هؤلاء الرؤساء إلا من وفقه الله وهداه وقليل ما هم بل هم الغرباء في الأرض.

١٨. العبرة في مثل ما أشرنا إليه من الأحداث أن الظالمين من حكام هذه الأمة بدأوا بتحكيم أهوائهم السياسية في الدين وأهله من القرن الأول، وكانوا إذا رأوا الناس قد أقبلوا على رجل من رجال الدين استمالوه، فان لم يمل إليهم آذوه وأهانوه ولكن كان الدين وطلب الحق غالبا على أمر المسلمين، فقد نقل المؤرخون أن الامام مالكا لم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة، وكأنما كانت تلك السياط حليا حلى به، ولو أمر أحد السلاطين المتأخرين بضرب عالم من أعلم أهل العصر لأنه لا يرى عهد بيعته صحيحا أو لأنه أفتى بما لا يوافق غرضه (كما نقل عن مالك) لما رأيت له رفعة ولا احتراما عند الناس، ولأعرض الجميع عنه، فأما العقلاء العارفون بفضله فيعرضون عنه بوجوههم، وأما الغوغاء من العامة ومن في حكمهم فيعرضون عنه بقلوبهم ووجوههم، ويعتقدون كفره أو فسقه وابتداعه.

١٩. ذلك أن الظالمين من الأمراء قد استعانوا بالظالمين من الفقهاء على إقناع العامة بأنهم أئمة الدين الذين يجب اتباعهم حتى في الأمور الدينية وحالوا بينهم وبين كتاب الله الذي ينطق بأن عهد الله

بالإمامة لا ينال الظالمين، وغشوهم بأن أئمة الفقه الأربعة يحكمون بذلك، ولو عرف الناس سيرتهم مع خلفاء زمنهم لما تيسر غشهم ـ هذا وإن الحاكمين على عهدهم كانوا على علم بالكتاب والسنة واتباع لهما في أكثر أعمالهم وأحكامهم، وأما المتأخرون فلا يعرفون من ذلك أكثر مما يعرفه السوقة ويعملون بخلاف ما يعلمون، بل يشرعون للناس أحكاما جديدة يأخذونها من قوانين الأمم تخالف الشريعة ولا توافق مصلحة الأمة ويلزمون عمالهم وقضاتهم الحكم بها باسمهم لا باسم الله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بعد أن حاجّ سبحانه أهل الكتاب وبيّن كفرهم بالنبي الذي كانوا ينتظرونه لبشارة كتبهم به، ذكر هنا الأساس الذي بنى عليه الإسلام والنسب الذي يمتّ به ويحترمه أهل الكتاب ومشركو العرب، وهو ملة إبراهيم ونسبه، فلا فضل إذا لليهود على العرب بأنهم يمتون بالنسب إلى إبراهيم ودين إبراهيم، إذ النسب واحد والملة واحدة.

٢. القرآن حاج أهل الكتاب الذين جاء لإصلاح دينهم بما أدخلوه عليه من تحريف لبعضه ونسيل لبعضه الآخر، وأثبت التوحيد والتنزيه لله تعالى، وحاج أهل الشرك والوثنية التي جاء لمحوها، تارة بالبراهين العقلية وتارة بالأدلة الكونية في كثير من السور ولا سيما السور المكية.

٣. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي واذكر لقومك المشركين وغيرهم حين اختبر إبراهيم ربّه ببعض الأوامر والنواهي، فأدّاها خير الأداء، وأتي بها على وجه الكمال كما قال ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، والمراد من ذكر الوقت ذكر ما وقع فيه من الحوادث، لأن الوقت محتو عليها، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا.

٤. القرآن الكريم لم يعين الكلمات، ومن ثم اختلفوا فيها؛ فقيل هي مناسك الحج، وقيل إنها الكواكب والشمس والقمر التي رآها واستدلّ بأفولها على وحدانية الله تعالى والعرب التي خوطبت به

(١) تفسير المراغي: ١/ ٢٠٩.

كانت تعرف المراد منها.

٥. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي قال إني جاعلك للناس رسولا يؤتمّ بك، ويقتدى بهداك إلى يوم القيامة، فدعا الناس إلى الحنيفية السمحة وهى الإيمان بالله وتوحيده والبراءة من الشرك، وما زال هذا جاريا في ذريته، فلم ينقطع منها دين التوحيد، ولأجل هذا وصف الله الإسلام بأنه ملة إبراهيم.

٦. ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي قال واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم، وقد جرى إبراهيم على سنة الفطرة، فتمنى لذريته الخير في أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم، ولا غرو فالإنسان يرجو أن يكون ابنه أحسن منه في جميع ذلك.

٧. ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي قال أجبتك إلى ما طلبت، وسأجعل من ذريتك أئمة للناس، ولكن عهدي بالإمامة لا يناله الظالمون، إذ هم لا يصلحون أن يكونوا قدوة للناس.

٨. وفي ذكر الظلم مانعا من الإمامة تنفير لذرية إبراهيم منه وتبغيض لهم فيه، ليتحاموه وينشئوا أولادهم على كراهته، كيلا يقعوا فيه ويحرموا من هذا المنصب العظيم الذي هو أعلى المناصب وأشرفها، كما هو تنفير من الظالمين وعدم مخالطتهم، فالإمامة الصالحة لا تكون إلا لذوى النفوس الفاضلة التي تسوق صاحبها إلى خير العمل، وتنزعه عن الشرور والآثام، ولا حظّ للظالمين في شيء من هذا.

٩. الإمامة والنبوة لا ينالها من دنّس نفسه ودسّاها بالظلم وقبيح الخلال، وإنما ينالها من شرفت خلاله، وكملت أخلاقه، وصفت نفسه، لأن أهم أعمال الإمام رفع الظلم والفساد حتى ينتظم العمران، وتسود السكينة بين الناس.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يقول الله تعالى للنبي ﷺ اذكر ما كان من ابتلاء الله لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف، فأتمهن وفاء وقضاء.. وقد شهد الله لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه فيستحق شهادته الجليلة: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.. وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم،

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١١٠.

مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عزّ وجل، والإنسان بضعفه وقصوره لا يوفي ولا يستقيم!

٢. عندئذ استحق إبراهيم تلك البشرى، أو تلك الثقة: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.. إماما يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله، ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعا، وتكون له فيهم قيادة.

٣. عندئذ تدرك إبراهيم فطرة البشر: الرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد، ذلك الشعور الفطري العميق، الذي أودعه الله فطرة البشر لتنمو الحياة وتمضي في طريقها المرسوم، ويكمل اللاحق ما بدأه السابق، وتتعاون الأجيال كلها وتتساوق.. ذلك الشعور الذي يحاول بعضهم تحطيمه أو تعويقه وتكبيله؛ وهو مركوز في أصل الفطرة لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدى، وعلى أساسه يقرر الإسلام شريعة الميراث، تلبية لتلك الفطرة، وتنشيطا لها لتعمل، ولتبذل أقصى ما في طوقها من جهد، وما المحاولات التي تبذل لتحطيم هذه القاعدة إلا محاولة لتحطيم الفطرة البشرية في أساسها؛ وإلا تكلف وقصر نظر واعتساف في معالجة بعض عيوب الأوضاع الاجتماعية المنحرفة، وكل علاج يصادم الفطرة لا يفلح ولا يصلح ولا يبقى، وهناك غيره من العلاج الذي يصلح الانحراف ولا يحطم الفطرة، ولكنه يحتاج إلى هدى وإيمان، وإلى خبرة بالنفس البشرية أعمق، وفكرة عن تكوينها أدق، وإلى نظرة خالية من الأحقاد الوبيلة التي تنزع إلى التحطيم والتنكيل، أكثر مما ترمي إلى البناء والإصلاح: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾

٤. وجاءه الرد من ربه الذي ابتلاه واصطفاه، يقرر القاعدة الكبرى.. إن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب، فالقربى ليست وشيجة لحم ودم، إنما هي وشيجة دين وعقيدة، ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلا دعوى الجاهلية، التي تصطدم اصطداما أساسيا بالتصور الإيماني الصحيح: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

٥. الظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي.. والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة.. وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة.

٦. العدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها، ومن ظلم ـ أيّ لون من الظلم ـ فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها؛ بكل معنى من معانيها.

٧. هذا الذي قيل لإبراهيم عليه السلام وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع

في تنحية اليهود عن القيادة والإمامة، بما ظلموا، وبما فسقوا، وبما عتوا عن أمر الله، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم إبراهيم.

٨. هذا الذي قيل لإبراهيم عليه السلام وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع كذلك في تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم، بما ظلموا، وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم.. ودعواهم الإسلام، وهم ينحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة، دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله.

٩. إن التصور الإسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل، ولا يعترف بقربى ولا رحم إذا انبتّت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل.. وهو يفصل بين جيل من الأمة الواحدة وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر في عقيدته، بل يفصل بين الوالد والولد، والزوج والزوج إذا انقطع بينهما حبل العقيدة، فعرب الشرك شيء وعرب الإسلام شيء آخر، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة، والذين آمنوا من أهل الكتاب شيء، والذين انحرفوا عن دين إبراهيم وموسى وعيسى شيء آخر، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة.. إن الأسرة ليست آباء وأبناء وأحفادا.. إنما هي هؤلاء حين تجمعهم عقيدة واحدة.

١٠. إن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس معين.. إنما هي مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم.. وهذا هو التصور الإيماني، الذي ينبثق من خلال هذا البيان الرباني، في كتاب الله الكريم.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. اختلف في معنى الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بها، وتشعبت مذاهب المفسرين لها، ولعل أعدل طريق وأقومه في مثل هذا المقام؛ أن نقف عند حدود اللفظ القرآني ولا نتجاوزه إلى مقولات يناقض بعضها بعضا، إن أخذ بأحدها كان ترك غيرها مجازفة لا يؤمن معها الخطأ، وإن أخذ بها جميعا لم يكن للجمع بينها

(١) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١٣٩.

سبيل.

٢. هنا في هذه الآية تجد أن بعضها يفسر بعضا، وأن قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ هو التفسير المناسب للكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم.. فالكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم هي قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والإمامة وإن تكن نعمة وفضلا من الله، فهي ابتلاء، لما لها من أعباء، لا يقدر على حملها والوفاء بها على وجهها إلا أولو العزم من النّاس، وقد كان إبراهيم قدوة للناس في قيامه على هذه الإمامة، فنوّه الله به في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، أي وفّى الأمانة التي أداها على وجهها كاملة، ويعضد هذا المعنى الذي نراه، ارتباطه بما سبقه من الحديث عن أهل الكتاب، وأنهم حمّلوا أمانات فضيعوها، وخانوا الله وخانوا أنفسهم فيها.

٣. ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يمكن أن يكون هذا استفهاما أو دعاء من إبراهيم، بمعنى: أهذه الإمامة له وحده أم هي ممتدة في ذريته من بعده؟ أو بمعنى: اجعل هذه الإمامة في بعض من ذريتي، فكان جواب الحق جلّ وعلا: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.. أي هذا عهد لا يمتد إلى الظالمين، فمن سلم من ذريته من الظلم، كان أهلا لأن ينضوي تحت هذا العهد، ويأخذ ميراثه منه.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. لما كملت الحجج نهوضا على أهل الكتابين ومشركي العرب في عميق ضلالهم بإعراضهم عن الإسلام، وتبين سوء نواياهم التي حالت دون الاهتداء بهديه والانتفاع بفضله، وسجل ذلك على زعماء المعاندين أعني اليهود ابتداء بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٤٠] مرتين، وأدمج معهم النصارى استطرادا مقصودا، ثم أنصف المنصفون منهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته، انتقل إلى توجيه التوبيخ والتذكير إلى العرب الذين يزعمون أنهم أفضل ذرية إبراهيم وأنهم يتعلقون بملته، وأنهم زرع إسماعيل وسدنة البيت الذي بناه، وكانوا قد وخزوا بجانب من التعريض في خلال المحاورات التي جرت مع أهل الكتاب للصفة التي جمعتهم وإياهم من حسد النبي والمسلمين على ما أنزل عليهم من خير، ومن قولهم

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٦٨٢.

ليس المسلمون على شيء، ومن قولهم ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]، ومن قولهم ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ [البقرة: ١١٨]

٢. لما أخذ اليهود والنصارى حظهم من الإنذار والموعظة كاملا فيما اختصوا به، وأخذوا مع المشركين حظهم من ذلك فيما اشتركوا فيه تهيأ المقام للتوجه إلى مشركي العرب لإعطائهم حظهم من الموعظة كاملا فيما اختصوا به، فمناسبة ذكر فضائل إبراهيم ومنزلته عند ربه ودعوته لعقبه عقب ذكر أحوال بني إسرائيل، هي الاتحاد في المقصد، فإن المقصود من تذكير بني إسرائيل بالنعم والتخويف، تحريضهم على الإنصاف في تلقي الدعوة الإسلامية والتجرد من المكابرة والحسد وترك الحظوظ الدنيوية لنيل السعادة الأخروية، والمقصود من ذكر قصة إبراهيم موعظة المشركين ابتداء وبني إسرائيل تبعا له، لأن العرب أشد اختصاصا بإبراهيم عليه السلام من حيث إنهم يزيدون على نسبهم إليه بكونهم حفظة حرمه، ومنتمين قديما للحنيفية ولم يطرأ عليهم دين يخالف الحنيفية بخلاف أهل الكتابين.

٣. حقيق أن نجعل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾ عطفا على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] كما دل عليه افتتاحه بإذ على نحو افتتاح ذكر خلق آدم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فإن الأول تذكير بنعمة الخلق الأول وقد وقع عقب التعجب من كفر المشركين بالخالق في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، عقبت تلك التذكرة بإنذار من كيفر بآيات الله من ذرية آدم بقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] الآية، ثم خص من بين ذرية آدم بنو إسرائيل الذين عهد إليهم على لسان موسى عهد الإيمان وتصديق الرسول الذي يجيء مصدقا لما معهم، لأنهم صاروا بمنزلة الشهداء على ذرية آدم، فتهيأ المقام لتذكير الفريقين بأبيهم الأقرب وهو إبراهيم أي وجه يكون المقصود بالخطاب فيه ابتداء العرب، ويضم الفريق الآخر معهم في قرن، ولذلك كان معظم الثناء على إبراهيم بذكر بناء البيت الحرام وما تبعه إلى أن ذكرت القبلة وسط ذلك، ثم طوي بالانتقال إلى ذكر سلف بني إسرائيل بقوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣] ليفضي إلى قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] فيرجع إلى تفضيل الحنيفية والإعلام بأنها أصل الإسلام وأن المشركين ليسوا في شيء منها وكذلك اليهود والنصارى.

٤. افتتح ذكر هذين الطورين بفضل ذكر فضل الأبوين آدم وإبراهيم، فجاء الخبران على أسلوب واحد على أبدع وجه وأحكم نظم، فتعين أن تقدير الكلام واذكر إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات.

٥. من الناس من زعم أن قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾ عطف على قوله ﴿نِعْمَتِي﴾ [البقرة: ١٢٢] أي اذكروا نعمتي وابتلائي إبراهيم، ويلزمه تخصيص هاته الموعظة ببني إسرائيل، وتخلل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: ١٢٣] بين المعطوفين وذلك يضيق شمول الآية، وقد أدمج في ذلك قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ وقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

٦. في هذه الآية مقصد آخر وهو تمهيد الانتقال إلى فضائل البلد الحرام والبيت الحرام، لإقامة الحجة على الذين عجبوا من نسخ استقبال بيت المقدس وتذرعوا بذلك إلى الطعن في الإسلام بوقوع النسخ فيه، وإلى تنفير عامة أهل الكتاب من اتباعه لأنه غير قبلتهم ليظهر لهم أن الكعبة هي أجدر بالاستقبال وأن الله استبقاها لهذه الأمة تنبيها على مزية هذا الدين.

٧. الابتلاء افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمبالغة والبلاء الاختبار.. وهو مجاز مشهور فيه لأن الذي يكلف غيره بشيء يكون تكليفه متضمنا انتظار فعله أو تركه فيلزمه الاختبار فهو مجاز على مجاز، والمراد هنا التكليف لأن الله كلفه بأوامر ونواه إما من الفضائل والآداب وإما من الأحكام التكليفية الخاصة به، وليس في إسناد الابتلاء إلى الله تعالى إشكال بعد أن عرفت أنه مجاز في التكليف، ولك أن تجعله استعارة تمثيلية، وكيفما كان فطريق التكليف وحي لا محالة، وهذا يدل على أن إبراهيم أوحى إليه بنبوة لتتهيأ نفسه لتلقي الشريعة فلما امتثل ما أمر به أوحى إليه بالرسالة وهي في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فتكون جملة ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ بدل بعض من جملة ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾، ويجوز أن يكون الابتلاء هو الوحي بالرسالة ويكون قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ تفسيرا لابتلى.

٨. تقديم المفعول وهو لفظ (إبراهيم) لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم رب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز فلذلك لم يقل وإذ ابتلى الله إبراهيم.

٩. الكلمات الكلام الذي أوحى الله به إلى إبراهيم إذ الكلمة لفظ يدل على معنى والمراد بها هنا الجمل كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وأجملها هنا إذ ليس الغرض تفصيل شريعة إبراهيم ولا بسط القصة والحكاية، وإنما الغرض بيان فضل إبراهيم ببيان ظهور عزمه

وامتثاله لتكاليف فأتى بها كاملة فجوزي بعظيم الجزاء، وهذه عادة القرآن في إجمال ما ليس بمحل الحاجة، ولعل جمع الكلمات جمع السلامة يؤذن بأن المراد بها أصول الحنيفية وهي قليلة العدد كثيرة الكلفة، فلعل منها الأمر بذبح ولده، وأمره بالاختتان، وبالمهاجرة بهاجر إلى شقة بعيدة وأعظم ذلك أمره بذبح ولده إسماعيل بوحي من الله إليه في الرؤيا، وقد سمي ذلك بلاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]

١٠. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ جيء فيه بالفاء للدلالة على الفور في الامتثال وذلك من شدة العزم، والإتمام في الأصل الإتيان بنهاية الفعل أو إكمال آخر أجزاء المصنوع، وتعدية فعل أتم إلى ضمير (كلمات) مجاز عقلي، وهو من تعليق الفعل بحاوي المفعول لأنه كالمكان له وفي معنى الإتمام قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، وقوله: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٥]، فالإفعال هنا بمعنى إيقاع الفعل على الوجه الأتم، وليس المراد بالهمز التصيير أي صيرها تامة بعد أن كانت ناقصة إذ ليس المراد أنه فعل بعضها ثم أتى بالبعض الآخر، فدل قوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ مع إيجازه على الامتثال وإتقانه والفور فيه، وهذه الجملة هي المقصود من جزء القصة فيكون عطفها للدلالة على أنه ابتلى فامتثل كقولك دعوت فلانا فأجاب.

١١. جملة ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عما اقتضاه قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ من تعظيم الخبر والتنويه به، لما يقتضيه ظرف (إذ) من الإشارة إلى قصة من الأخبار التاريخية العظيمة فيترقب السامع ما يترتب على اقتصاصها، ويجوز أن يكون الفصل على طريقة المقاولة لأن هذا القول مجاوبة لما دل عليه قوله: ﴿ابْتَلَى﴾

١٢. الإمام مشتق من الأم بفتح الهمزة وهو القصد وهو وزن فعال من صيغ الآلة سماعا كالعماد والنقاب والإزار والرداء، فأصله ما يحصل به الأم أي القصد ولما كان الدال على الطريق يقتدي به السائر دل الإمام على القدوة والهادي، والمراد بالإمام هنا الرسول فإن الرسالة أكمل أنواع الإمامة والرسول أكمل أفراد هذا النوع.

١٣. إنما عدل عن التعبير برسولا إلى ﴿إِمَامًا﴾ ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء، فإن إبراهيم عليه السلام رحل إلى آفاق كثيرة فتنقل من بلاد الكلدان إلى العراق وإلى الشام والحجاز ومصر، وكان في جميع منازله محل التبجيل ولا شك

أن التبجيل يبعث على الاقتداء، وقد قيل إن دين برهما المتّبع في الهند أصله منسوب إلى اسم إبراهم عليه السلام مع تحريف أدخل على ذلك الدين كما أدخل التحريف على الحنيفية، وليتأتّى الإيجاز في حكاية قول إبراهيم الآتي ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فيكون قد سأل أن يكون في ذريته الإمامة بأنواعها من رسالة وملك وقدوة على حسب التهيّؤ فيهم، وأقل أنواع الإمامة كون الرجل الكامل قدوة لبنيه وأهل بيته وتلاميذه.

١٤. ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ جواب صدر من إبراهيم عليه السلام فلذا حكي بقال دون عاطف على طريق حكاية المحاورات كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] والمقول معطوف على خطاب الله تعالى إياه يسمونه عطف التلقين وهو عطف المخاطب كلاما على ما وقع في كلام المتكلم تنزيلا لنفسه في منزلة المتكلم يكمّل له شيئا تركه المتكلم إما عن غفلة وإما عن اقتصار فيلقنه السامع تداركه بحيث يلتئم من الكلامين كلام تام في اعتقاد المخاطب، وفي الحديث الصحيح قال جرير بن عبد الله (بايعت النبي على شهادة أن لا إله إلا الله - إلخ - فشرط عليّ والنصح لكل مسلم).. وقد لقبوه عطف التلقين كما في (شرح التفتازانيّ على الكشاف) وذلك لأن أكثر وقوع مثله في موقع العطف، والأولى أن تحذف كلمة عطف ونسمي هذا الصنف من الكلام باسم التلقين وهو تلقين السامع المتكلم ما يراه حقيقا بأن يلحقه بكلامه، فقد يكون بطريقة العطف وهو الغالب كما هنا، وقد يكون بطريقة الاستفهام الإنكاري والحال كقول تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ [البقرة: ١٧٠] فإن الواو مع (لو) الوصلية واو الحال وليس واو العطف فهو إنكار على إلحاقهم المستفهم عنه بقولهم ودعواهم، وقد يكون بطريقة الاستثناء كقول العباس لمّا قال النبي ﷺ في حرم مكة (لا يعضد شجره) فقال العباس إلّا الإذخر لبيوتنا وقيننا.

١٥. للكلام المعطوف عطف التلقين من الحكم حكم الكلام المعطوف هو عليه خبرا وطلبا، فإذا كان كما هنا على طريق العرض علم إمضاء المتكلم له إياه، بإقراره كما في الآية أو التصريح به كما وقع في الحديث (إلا الإذخر)، ثم هو في الإنشاء إذا عطف معمول الإنشاء يتضمن أن المعطوف له حكم المعطوف عليه، ولما كان المتكلم بالعطف في الإنشاء هو المخاطب بالإنشاء لزم تأويل عطف التلقين فيه بأنه على إرادة العطف على معمول لازم الإنشاء ففي الأمر إذا عطف المأمور مفعولا على مفعول الآمر كان المعنى زدني من الأمر فأنا بصدد الامتثال وكذا في المنهي، والمعطوف محذوف دل عليه المقام أي وبعض من ذريتي أو

وجاعل بعض من ذريتي.

١٦. الذّريّة نسل الرجل وما توالد منه ومن أبنائه وبناته، وهي مشتقة إما من الذّرّ اسما وهو صغار النمل، وإما من الذّرّ مصدرا بمعنى التفريق، وإما من الذّرى والذّرو (بالياء والواو) وهو مصدر ذرت الريح إذا سفت، وإما من الذرء بالهمز وهو الخلق، فوزنها إما فعليّة بوزن النسب إلى ذر وضم الذال في النسب على غير قياس كما قالوا في النسب إلى دهر دهريّ بضم الدال، وإما فعّيلة أو فعّولة من الذرى أو الذرو أو الذرء بإدغام الياءين أو الياء مع الواو أو الياء مع الهمزة بعد قلبها ياء وكل هذا تصريف لاشتقاق الواضع فليس قياس التصريف.

١٧. إنما قال إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ ولم يقل وذريتي لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدى بهم فلم يسأل ما هو مستحيل عادة لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء.

١٨. إنما سأل لذريته ولم يقصر السؤال على عقبه كما هو المتعارف في عصبية القائل لأبناء دينه على الفطرة التي لا تقتضي تفاوتا فيرى أبناء الابن وأبناء البنت في القرب من الجد بل هما سواء في حكم القرابة، وأما مبنى القبلية فعلى اعتبارات عرفية ترجع إلى النصرة والاعتزاز فأما قول:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهن أبناء الرجال الأباعد

فوهم جاهلي، وإلا فإن بني الأبناء أيضا بنوهم أبناء النساء الأباعد، وهل يتكون نسل إلا من أب وأم، وكذا قول:

وإنما أمهات الناس أوعية ... فيها خلقن وللأبناء أبناء

فذلك سفسطة، وقد قال رسول الله ﷺ للذي سأله عن الأحق بالبر من أبويه (أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك)، وقال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]

١٩. قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ استجابة مطوية بإيجاز وبيان للفريق الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم والذي لا تتحقق فيه بالاقتصار على أحدهما لأن حكم أحد الضدين يثبت نقيضه للآخر على طريقة الإيجاز، وإنما لم يذكر الصنف الذي تحقق فيه الدعوة لأن المقصد ذكر الصنف الآخر تعريضا بأن الذين يزعمون يومئذ أنهم أولى الناس بإبراهيم وهم أهل الكتاب ومشركو العرب هم الذين يحرمون من

دعوته، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨] ولأن المربي يقصد التحذير من المفاسد قبل الحث على المصالح، فبيان الذين لا تتحقق فيهم الدعوة أولى من بيان الآخرين.

٢٠. ﴿يَنَالَ﴾ مضارع نال نيلا بالياء إذا أصاب شيئا والتحق به أي لا يصيب عهدي الظالمين أي لا يشملهم، فالعهد هنا بمعنى الوعد المؤكد، وسمي وعد الله عهدا لأن الله لا يخلف وعده كما أخبر بذلك فصار وعده عهدا ولذلك سماه النبي عهدا في قوله (أنشدك عهدك ووعدك)، أي لا ينال وعدي بإجابة دعوتك الظالمين منهم، ولا يحسن أن يفسر العهد هنا بغير هذا وإن كان في مواقع من القرآن أريد به غيره، وسيأتي ذكر العهد في سورة الأعراف.

٢١. من دقة القرآن اختيار هذا اللفظ هنا لأن اليهود زعموا أن الله عهد لإبراهيم عهدا بأنه مع ذريته ففي ذكر لفظ العهد تعريض بهم وإن كان صريح الكلام لتوبيخ المشركين.

٢٢. المراد بالظالمين ابتداء المشركون أي الذين ظلموا أنفسهم إذ أشركوا بالله قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والظلم يشمل أيضا عمل المعاصي الكبائر كما وقع في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣] وقد وصف القرآن اليهود بوصف الظالمين في قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] فالمراد بالظلم المعاصي الكبيرة وأعلاها الشرك بالله تعالى.

٢٣. في الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشركين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بأنواع من الظلم كالشرك وتحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم والانهماك في المعاصي حتى إذا عرضوا أنفسهم على هذا الوصف علموا انطباقه عليهم.

٢٤. إناطة الحكم بوصف الظالمين إيماء إلى علة نفي أن ينالهم عهد الله فيفهم من العلة أنه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد.

٢٥. في الآية أن المتصف بالكبيرة ليس مستحقا لإسناد الإمامة إليه أعني سائر ولايات المسلمين: الخلافة والإمارة والقضاء والفتوى ورواية العلم وإمامة الصلاة ونحو ذلك، قال فخر الدين: قال الجمهور من الفقهاء والمتكلمين الفاسق حال فسقه لا يجوز عقد الإمامة له، وفي (تفسير ابن عرفة) تسليم

ذلك، ونقل ابن عرفة عن المازري والقرطبي عن الجمهور إذا عقد للإمام على وجه صحيح ثم فسق وجار فإن كان فسقه بكفر وجب خلعه وأما بغيره من المعاصي فقال الخوارج والمعتزلة وبعض أهل السنة يخلع، وقال جمهور أهل السنة لا يخلع بالفسق والظلم وتعطيل الحدود ويجب وعظه وترك طاعته فيما لا تجب فيه طاعة وهذا مع القدرة على خلعه فإن لم يقدر عليه إلا بفتنة وحرب فاتفقوا على منع القيام عليه وأن الصبر على جوره أولى من استبدال الأمن بالخوف وإراقة الدماء انطلاق أيدي السفهاء والفساق في الأرض وهذا حكم كل ولاية في قول علماء السنة، وما نقل عن أبي حنيفة من جواز كون الفاسق خليفة وعدم جواز كونه قاضيا قال أبو بكر الرازي الجصاص هو خطأ في النقل.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. بعد أن قص الله تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل وما كفروا به هذه النعم في حاضرهم وماضيهم، وكانوا يفخرون بأنهم أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإنهم لهذا أبناء الله وأحباؤه، وما أداهم ذلك الاعتقاد الواهم الباطل إلى ضلال توارثوه، وفساد فكر تناقلوه، وكفر بالله، وقتل للنبيين، أخذ سبحانه يقص قصص إبراهيم أبى إسماعيل وإسحاق وجدّ يعقوب وجدّ النبيين الذين ذكروا في التوراة والإنجيل والقرآن.

٢. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ و(إذ) ظرف زمان يدل على الماضي متعلق بمحذوف تقديره: اذكر الوقت الذي ابتلى الله فيه إبراهيم بكلمات فأتمهن، وذكر الوقت ليس ذكرا للزمن المجرد، إنما هو ذكر للوقائع في هذا الزمن، للعبرة بها، والاتعاظ في مثلها.

٣. ابتدأ هذه الوقائع بابتلاء إبراهيم عليه السلام بكلمات، والابتلاء معناه الاختبار من الله تعالى لا عن جهل بما سيكون، بل لإظهار ما علمه الله تعالى عما يكون، ولا يكون إلا في أمر يعمله العبد بمجاهدة، وصبر وجهاد نفس، وقد كان الابتداء بذكر الابتلاء لبيان أن إمامة النبوة لا تكون إلا بمجاهدة، وجهاد نفس.

---

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٩٣.

٤. قدم المفعول على الفاعل وهو (الكلمات) التي ابتلى بها؛ لأن موضع الحديث هو إبراهيم ذاته وليست الكلمات، فكان هو موضع الاهتمام وحده، وكان المراد كشف حال نفسه القوية الطاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد]

٥. والكلمات التي اختبر الله تعالى بها إبراهيم عليه السلام، ليست هي ألفاظها وكلماتها وحروفها، إنما المراد بالكلمات المدلولات والمطلوبات التي تتضمنها من أوامر ونواه، ووقائع.

٦. اتجه بعض مفسري السلف إلى إحصاء ما تدل عليه هذه الكلمات، واعتمدوا في ذلك على أقوال الصحابة والتابعين، ولكن لم يسند فيها إلى الرسول ﷺ شيء؛ ولذا قال شيخ المفسرين السلفيين ابن جرير: لا يجوز الجزم بشيء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع.. ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة يجب التسليم له.

٧. وإذا كان لم يصح خبر بهذه الكلمات أو بالوقائع التي تدل عليها الألفاظ، فإننا نتلمسها من القرآن الكريم سجل النبوات وأخبارها:

أ. وأول واقعة تجلى فيها اختبار الله تعالى لإبراهيم هو في طلبه معرفة ربه رب الوجود، ورب المشارق والمغارب، فقد اختبره الله تعالى بذلك ـ كما حكى القرآن الكريم ـ فقد كفر بالأوثان، ابتداء؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ثم أخذ يتعرف رب الوجود من الوجود والملك واقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام]، هذا اختبار من الله تعالى عرف به عقل إبراهيم السليم، وإدراكه المستقيم.

ب. وقد اختبره الله تعالى وألهمه أن يحطم الأوثان فحطمها، وجعلها جذاذا، وألقوه في النار عقابا فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء]، واختبره الله تعالى بكلمة مدلولها أشد

ما يكون على النفس البشرية أن يذبح ولده البكر إسماعيل عليه السلام، فاستجاب لأمر ربه، وأخذ يذبح ولده الحبيب استجابة للحبيب، ولكن فداه الله تعالى بذبح عظيم.

ج. واختبره الله تعالى بالهجرة من بلده إلى الشام، وإلى مكة حيث ولده العزيز اسماعيل وأمه واختبره الله تعالى بالحنيفية السمحة فحملها وكانت ملته المتبعة، وما كان من المشركين.

٨. اختبره الله تعالى بكلماته، أي بمدلولها، وما ذكرنا بعضها، فأتمهن أي أتم ما طلب منه فيها، وكان أمرها عظيما وكان إبراهيم في إتمامها عظيما، ولذا كانت مكافأة الله تعالى له أعظم، فكانت جزاء وفاقا لما أتم به الكلمات، قال الله تبارك وتعالى لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي يقتدى به ويتبع، فالإمام ما يؤتم به ويتبع و﴿جَاعِلُكَ﴾ أي مصيّرك بإتمام الكلمات، ووفائك لهذا قدوة طيبة، وأسوة صالحة، فمن اتبعك فقد اهتدى، وأي امرئ عنده طاقة إبراهيم أبى الأنبياء في القدرة على الاقتداء به، والاهتداء بهديه والوفاء بكلماته إن ذلك لمقام عظيم.

٩. إبراهيم كان شفيقا رفيقا محبا لأسرته في غير ظلم ولا اعتداء، وكان يعطف على الأطفال ويرفق بهم؛ ولذلك لم يكتف بأن كان هو الإمام، بل أراد أن يكون إمام من ذريته يعمل بمثل عمله ويقتدى به في الهداية، فهو يطلب الهداية لذريته لا استئثارا بالمحبة ولكن بالتقوى والهداية؛ ولذلك قال مناجيا ربه: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي اجعل يا رب العالمين من ذريتي أئمة صالحين يؤتمون ويقتدى بهم، فهو يدعو الله تعالى إلى أن تكون ذريته طيبة صالحة يقتدى بهم، فتكون خلفا له في الإمامة لا بمجرد الانتساب إليه بل لعملهم وتقواهم وإيمانهم بكلمات الله.

١٠. لكن الله تعالى العليم الذي يعلم كل شيء يعلم ما هو كائن، وما يكون أشار إلى أنه لن تكون ذرية إبراهيم كلها من الصالحين الذين يؤتم بهم، بل سيكون منهم الظالمون الذين يظلمون أنفسهم، وغيرهم بالمعاصي يرتكبونها وبالشر يعملونه ويطلبونه؛ ولذا قال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، أي أن ذريته سيكون منهم محسن، وسيكون منهم ظالم لنفسه، بالمعاصي، فالمحسنون ينالهم عهدي، ويكون منهم أئمة يقتدى بهم، وأما الظالمون فلن ينالوا إمامة في الدين من الله سبحانه وتعالى، وقد قال تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات] والمعنى أن ذرية إبراهيم من أحسن منها نال الإمامة، ومن لم يحسن فهو ظالم لا ينالها؛ لأنه يضل الناس، ولا يهدى أحدا؛ ولذلك

كان من ذريته أئمة في الدين، وقد قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت]

١١. العهد في اللغة مراعاة الشيء والمحافظة عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه] والعهد أيضا الأمر الموثق الذي لا يجوز نقضه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل]، والعهد في هذه الآية هو الإمامة، وكأنها مأخوذة من العهد بمعنى الرعاية فعهد الله تعالى أن يعهد برعاية الدين والإمامة إلى إمام في الدين، وإنه لا ينال هذه الإمامة ظالم، ولا يشمل عهد الله بمعنى أن يعهد بالرعاية للظالمين، أي لا يشمل عهدي ظالما قط.

١٢. تكلم بعض المفسرين على ضوء هذه الآية الكريمة على الولاية وإمامة الناس، فقال بعضهم: إن هذه الآية تدل على أنه لا يجوز ولاية الظالم، ولا يصح أن يكون إماما، وأنه إذا ولى ظالم لا تجوز طاعته، أو على الأقل في ظلمه، وقال آخرون: تجب طاعته في الطاعة وتجب مخالفته في المعصية؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ويستمر في ولايته، ويسعى في تغييره.. وإن الاتفاق على أنه لا يجوز تولية الجائر، ولكن أتسقط ولايته بجوره؟، أم تبقى ويسعى في تغييره؟ المعتزلة والشيعة والخوارج قالوا: لا طاعة له، ويغير بالقوة، والذى عليه الأكثرون كما قال القرطبي أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه؛ لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الخوف بالأمن، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدى السفهاء وشن الغارات على المسلمين والفساد في الأرض، وقد كان الإمام مالك يمنع محاربة الخوارج وأمثالهم إذا خرجوا على الظالمين ويقول: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما، ولكن إذا خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز وجب على الناس أن يقاتلوهم ويمنعوهم من طغيانهم.

١٣. أنعم الله تعالى على العرب بإبراهيم عليه السلام إذ جعل البيت الذي بناه وهو بيت الله الحرام مثابة للناس وأمنا، كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت]

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. إبراهيم الخليل عليه السلام أبو الأنبياء تقرّ وتعترف بنبوته الديانات السماوية الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية، ويعظمه مشركو العرب، لانتسابهم الى ولده إسماعيل عليه السلام، ولأنهم خدمة الكعبة وحماتها التي بناها ابراهيم وولده إسماعيل.

٢. بيّن الله سبحانه انه أمر ابراهيم ببعض التكاليف كذبحه ولده ـ مثلا ـ فوجده أمينا وفيا، فمعنى أتمهن امتثل وأطاع، وقد وصف الله ابراهيم بالوفاء في الآية ٣٧ من النجم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾

٣. قال ـ أي الله ـ اني جاعلك للناس إماما)، هذه بشارة من الله لإبراهيم بالتفضل عليه بالإمامة ابتداء، ومن غير طلب منه، جزاء لإخلاصه ووفائه وتضحيته.

٤. (قال ـ أي ابراهيم ـ ومن ذريتي)، هذا رجاء ودعاء من ابراهيم عليه السلام ان يمن الله سبحانه على بعض ذريته ـ لأن من هنا للتبعيض ـ بالإمامة، كما منّ عليه.. وهنا تتجلى عاطفة الوالد للولد، حيث طلب ابراهيم السعادة العظمى لبعض ذريته، ولم يطلبها من الله لنفسه، بل تفضل الله عليه بها ابتداء.

٥. (قال ـ أي الله ـ لا ينال عهدي الظالمين)، وهذا القول استجابة من الله لإبراهيم ان يتخذ أئمة من ذريته، على شريطة أن يكونوا مثله أوفياء أتقياء لأن الهدف من الامام أن يمنع المعصية، فكيف يكون عاصيا.. ولست أرى كلمة أدل على عدل الإمام ورحمته بالمحكومين من قول علي عليه السلام، وهو خليفة المسلمين: (لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي)، حاكم يخاف ظلم المحكومين له، وقوي يخشى استبداد الضعفاء به.. علي الذي لا يبالي أسقط على الموت، أم سقط الموت عليه.. علي، وقد أصبح مصدر القوة والسلطة يخاف من رعيته.. وكان ينبغي العكس.. كما هو المألوف المعروف.. ان هذا خارق للمعتاد، وكل خلاله من الخوارق والمعجزات.

٦. يطلق لفظ الإمام في اللغة على معان: منها الطريق: لأنه يقود السائر الى مقصده، ومنها ما يقتدي الناس به في هداية، أو ضلالة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.. وقال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾، وقد يكون الإنسان إماما إذا كان متبوعا في شيء، ومأموما تابعا في

(١) التفسير الكاشف: ١/١٩٦.

شيء آخر.. هذا بحسب اللغة، أما بحسب الدين والشرع فان الإمام يطلق على من يؤم الناس في الصلاة إلا أنه لا يستعمل في ذلك إلا مقيدا، فيقال إمام الجمعة والجماعة.. وإذا كان مطلقا غير مقيد فإنه يستعمل في معنيين: الأول في النبي، ومرتبته أعلى مراتب الإمامة، الثاني يستعمل في وصي النبي.. والإمام بمعنى إمامة النبوة والرسالة، وامام الوصاية والخلافة متبوع في كل شيء غير تابع لغيره في شيء في زمن إمامته.

٧. الإمام بمعنى النبي يفتقر الى النص من الله بواسطة الروح الأمين، وبمعنى الوصي لا بد فيه من النص من الله سبحانه على لسان نبيه الكريم، وشرط هذا النص أن يكون بالاسم والشخص، لا بالصفات وصيغة العموم فقط، كما هي الحال في المجتهد والحاكم الشرعي، بل بالنص الخاص الذي لا يقبل التأويل، ولا التخصيص، ولا مجال فيه إطلاقا للبس، أو احتمال العكس، ومن هنا يتبين ان اطلاق لفظ الإمام من غير قيد على غير النبي، أو غير الوصي محل توقف وتأمل، وغير بعيد أن يكون محرما، تماما كإطلاق لفظ وصي النبي على غير الإمام المعصوم.

٨. مهما يكن، فان قول هذا الإمام نبيا كان، أو وصيا هو قول الله، وهداه هدى الله، وحكمه حكم الله الذي لا يحتمل العكس.. ومن ادعى شيئا من ذلك لنفسه دون أن يثبت النص القطعي عليه بالخصوص فهو مفتر كذاب.

٩. خير ما قرأته في صفة الإمام قول الإمام الأعظم زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية: (اللهم انك أيدت دينك في كل أوان بإمام أقمته علما لعبادك، ومنارا في بلادك بعد أن وصلت حبله بحبلك، وجعلته الذريعة الى رضوانك، وافترضت طاعته، وحذرت معصيته، وأمرت بامتثال أوامره، والانتهاء عند نهيه، وان لا يتقدمه متقدم، ولا يتأخر عنه متأخر ـ أي يبقى متابعا له ـ فهو عصمة اللائذين، وكهف المسلمين، وعروة المؤمنين، وبهاء رب العالمين)، هذه هي أوصاف من يختاره الله إماما لعباده.. وبديهة ان الإمامة بمعنى النبوة والوصاية تستدعي العصمة، ولا تنفك، عنها بحال، بل هي هي، لأن الأعمى لا يقود أعمى مثله، والأقذار لا تطهر أقذارا مثلها، ومن كان عليه الحد لا يقيم على غيره الحد.

١٠. استدلّ الشيعة الإمامية بقوله تعالى: ﴿جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ على ان الإمامة لا تكون الا بجعل من الله سبحانه، ويؤيده طلب ابراهيم منه جل وعز ان يجعل أئمة من ذريته، وإذا كانت الإمامة

بالجعل منه تعالى احتاجت بحكم الطبيعة الى النص منه.

١١. استدلّ الشيعة الإمامية بقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ على وجوب العصمة للنبي والوصي، ووجه الدلالة ان الله قد بيّن صراحة انه لا يعهد بالإمامة الى ظالم، والظالم من ارتكب معصية في حياته مهما كان نوعها، حتى ولو تاب بعدها، حيث يصدق عليه هذا الاسم، ولو آنا ما، ومن صدق عليه كذلك فلن يكون إماما.

١٢. تشاء الصدف والظروف أن ينشأ غير علي في حجر الشرك والرجس، وعبادة الأصنام، وان ينغمس في أرجاس الجاهلية الى الآذان، وان لا ينطق بالشهادة الا بعد أن عصي عوده، وبعد أن شبعت الأصنام منه، ومن سجوده لها، وشاء الله لعلي بن أبي طالب أن ينشأ في حجر النبوة والطهر، وان يكيّفه محمد ﷺ وفقا لإرادة الله، وهو طري ندي، وان ينزل الأصنام من على عروشها، ويلقي بها تحت أقدام محمد، وهنا سؤال نلقيه على كل عاقل منصف، ليجيب عنه بوحي من عقله ووجدانه، وهو: مال لقاصر ورثه عن أبيه، ولا بد له من ولي يحرص ويحافظ عليه، ودار الأمر بين ان نولي عليه رجلا لم يعص الله طرفة عين مدى حياته، لا صغيرا، ولا كبيرا، وبين أن نولي عليه رجلا عصاه أمدا طويلا، وهو بالغ عاقل، ثم تاب وأناب، فأيهما نختار: الأول أو الثاني؟

١٣. وفكرة العصمة لا تختص بالشيعة وحدهم، فان السنة قالوا بها، ولكنهم جعلوها للامة، مستندين الى حديث لم يثبت عند الشيعة، وهو: (لا تجتمع أمتي على ضلالة).. والمسيحيون قالوا بعصمة البابا، والشيوعيون بعصمة ماركس ولينين، وقال القوميون السوريون بعصمة انطون سعادة، والاخوان المسلمون بعصمة حسن البنا، وكل من استدلّ بقول انسان، واتخذ منه حجة ودليلا فقد قال بعصمته من حيث يريد أو لا يريد.. وفي الصين مئات الملايين اليوم تؤمن بعصمة ماوتسي تونغ ـ نحن الآن في سنة ١٩٦٧ ـ ويشيدون بتعاليمه، وإذا اختلف الشيوعيون فيما بينهم وكذلك غيرهم ممن ذكرنا فإنهم يختلفون في تفسير أقوال الرؤساء والمراد منها، لا في وجوب العمل بها، والولاء لها، تماما كما يختلف المسلمون في تفسير نصوص القرآن، والمسيحيون في تفسير الإنجيل.. ومن خص العصمة بالشيعة فهو واحد من اثنين: اما جاهل مغفل، واما مفتر متآمر.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. في هذه الآيات الكريمة شروع بجمل من قصص إبراهيم عليه السلام وهو كالمقدمة والتوطئة لآيات تغيير القبلة وآيات أحكام الحج، وما معها من بيان حقيقة الدين الحنيف الإسلامي بمراتبها: من أصول المعارف، والأخلاق، والأحكام الفرعية الفقهية جملا، والآيات مشتملة على قصة اختصاصه تعالى إياه بالإمامة وبنائه الكعبة ودعوته بالبعثة.

٢. قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ إلخ، إشارة إلى قصة إعطائه الإمامة وحبائه بها، والقصة إنما وقعت في أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد كبره وتولد إسماعيل، وإسحاق له وإسكانه إسماعيل وأمه بمكة، كما تنبه به بعضهم أيضا، والدليل على ذلك قوله عليه السلام على ما حكاه الله سبحانه بعد قوله تعالى له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فإنه عليه السلام قبل مجيء الملائكة ببشارة إسماعيل، وإسحاق، ما كان يعلم ولا يظن أن سيكون له ذرية من بعده حتى أنه بعد ما بشرته الملائكة بالأولاد خاطبهم بما ظاهره اليأس والقنوط كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾، وكذلك زوجته على ما حكاه الله تعالى في قصة بشارته أيضا إذ قال تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ قالَتْ يا ويلتا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشيء عَجِيبٌ قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله رَحْمَتُ الله وبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}، وكلامهما كما ترى يلوح منه آثار اليأس والقنوط ولذلك قابلته الملائكة بنوع كلام فيه تسليتهما وتطييب أنفسهما فما كان هو ولا أهله يعلم أن سيرزق ذرية.

٣. قوله عليه السلام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، بعد قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، قول من يعتقد لنفسه ذرية، وكيف يسع من له أدنى دربة بأدب الكلام وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بما لا علم له به؟ ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول: ومن ذريتي إن رزقتني ذرية أو ما يؤدي هذا المعنى فالقصة واقعة كما ذكرنا في أواخر عهد إبراهيم بعد البشارة.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٦٧.

٤. قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، يدل على أن هذه الإمامة الموهوبة إنما كانت بعد ابتلائه بما ابتلاه الله به من الامتحانات وليست هذه إلا أنواع البلاء التي ابتلي عليه السلام بها في حياته، وقد نص القرآن على أن من أوضحها بلاء قضية ذبح إسماعيل، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ إلى أن قال ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾

٥. القضية إنما وقعت في كبر إبراهيم، كما حكى الله تعالى عنه من قوله: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

٦. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾، الابتلاء والبلاء بمعنى واحد تقول: ابتليته وبلوته بكذا، أي امتحنته واختبرته، إذا قدمت إليه أمرا أو أوقعته في حدث فاختبرته بذلك واستظهرت ما عنده من الصفات النفسانية الكامنة عنده كالإطاعة والشجاعة والسخاء والعفة والعلم والوفاء أو مقابلاتها، ولذلك لا يكون الابتلاء إلا بعمل فإن الفعل هو الذي يظهر به الصفات الكامنة من الإنسان دون القول الذي يحتمل الصدق والكذب قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾

٧. تعلق الابتلاء، في الآية بالكلمات إن كان المراد بها الأقوال إنما هو من جهة تعلقها بالعمل وحكايتها عن العهود والأوامر المتعلقة بالفعل كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، أي عاشروهم معاشرة جميلة.

٨. ﴿بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، الكلمات وهي جمع كلمة وإن أطلقت في القرآن على العين الخارجي دون اللفظ والقول، كقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، إلا أن ذلك بعناية إطلاق القول كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

٩. وجميع ما نسب إليه تعالى من الكلمة في القرآن أريد بها القول كقوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾، وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾، وقوله: ﴿يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾، وقوله ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾، وقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، فهذه ونظائرها أريد بها القول بعناية أن القول توجيه ما يريد المتكلم

إعلامه المخاطب ما عنده كما في الأخبار أو لغرض تحميله عليه كما في الإنشاء، ولذلك ربما تتصف في كلامه تعالى بالتمام كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، كأن الكلمة إذا صدرت عن قائلها فهي ناقصة بعد، لم تتم، حتى تلبس لباس العمل وتعود صدقا.

١٠. هذا لا ينافي كون قوله تعالى فعله، فإن الحقائق الواقعية لها حكم، وللعنايات الكلامية اللفظية حكم آخر، فما يريد الله سبحانه إظهاره لواحد من أنبيائه، أو غيرهم بعد خفائه، أو يريد تحميله على أحد قول وكلام له لاشتماله على غرض القول والكلام وتضمنه غاية الخبر والنبإ، والأمر والنهي، وإطلاق القول والكلمة على مثل ذلك شائع في الاستعمال إذا اشتمل على ما يؤديه القول والكلمة، تقول: لأفعلن كذا وكذا، لقول قلته وكلمة قدمتها، ولم تقل قولا، ولا قدمت كلمة، وإنما عزمت عزيمة لا تنقضها شفاعة شفيع أو وهن إرادة، ومنه قول عنترة:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

يريد بالقول توطين نفسه على الثبات والعزم، على لزومها مكانها لتفوز بالحمد إن قتل، وبالاستراحة إن غلب.

١١. إذا عرفت ذلك ظهر لك أن المراد بقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾، قضايا ابتلي بها وعهود إلهية أريدت منه، كابتلائه بالكواكب والأصنام، والنار والهجرة وتضحيته بابنه وغير ذلك ولم يبين في الكلام ما هي الكلمات لأن الغرض غير متعلق بذلك، نعم قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، من حيث ترتبه على الكلمات تدل على أنها كانت أمورا تثبت بها لياقته، عليه السلام لمقام الإمامة.

١٢. هذه هي الكلمات وأما إتمامهن فإن كان الضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ راجعا إلى إبراهيم كان معنى إتمامهن إتيانه عليه السلام ما أريد منه، وامتثاله لما أمر به، وإن كان الضمير راجعا إليه تعالى كما هو الظاهر كان المراد توفيقه لما أريد منه، ومساعدته على ذلك.

١٣. ما ذكره بعضهم: أن المراد بالكلمات قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، إلى آخر الآيات فمعنى لا ينبغي الركون إليه إذ لم يعهد في القرآن إطلاق الكلمات على جمل الكلام.

١٤. ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، أي مقتدى يقتدي بك الناس، ويتبعونك في أقوالك وأفعالك،

فالإمام هو الذي يقتدي ويأتم به الناس، ولذلك ذكر عدة من المفسرين أن المراد به النبوة، لأن النبي يقتدي به أمته في دينهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾، لكنه في غاية السقوط:

أ. أولا: لأن قوله: ﴿إِمَامًا﴾، مفعول ثان لعامله الذي هو قوله: ﴿جَاعِلُكَ﴾ واسم الفاعل لا يعمل إذا كان بمعنى الماضي، وإنما يعمل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فقوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وعد له عليه السلام بالإمامة في ما سيأتي، مع أنه وحي لا يكون إلا مع نبوة، فقد كان عليه السلام نبيا قبل تقلده الإمامة، فليست الإمامة في الآية بمعنى النبوة.

ب. ثانيا: لأنا بينا في صدر الكلام: أن قصة الإمامة، إنما كانت في أواخر عهد إبراهيم عليه السلام بعد مجيء البشارة له بإسحق وإسماعيل، وإنما جاءت الملائكة بالبشارة في مسيرهم إلى قوم لوط وإهلاكهم، وقد كان إبراهيم حينئذ نبيا مرسلا، فقد كان نبيا قبل أن يكون إماما فإمامته غير نبوته.

١٥. منشأ هذا التفسير وما يشابهه الابتذال الطارئ على معاني الألفاظ الواقعة في القرآن الشريف في أنظار الناس من تكرر الاستعمال بمرور الزمن ومن جملة تلك الألفاظ لفظ الإمامة، ففسره قوم: بالنبوة والتقدم والمطاعية مطلقا، وفسره آخرون بمعنى الخلافة أو الوصاية، أو الرئاسة في أمور الدين والدنيا ـ وكل ذلك لم يكن ـ فإن النبوة معناها: تحمل النبإ من جانب الله والرسالة معناها تحمل التبليغ، والمطاعية والإطاعة قبول الإنسان ما يراه أو يأمره غيره وهو من لوازم النبوة والرسالة، والخلافة نحو من النيابة، وكذلك والوصاية، والرئاسة نحو من المطاعية وهو مصدرية الحكم في الاجتماع وكل هذه المعاني غير معنى الإمامة التي هي كون الإنسان بحيث يقتدي به غيره بأن يطبق أفعاله وأقواله على أفعاله وأقواله بنحو التبعية، ولا معنى لأن يقال لنبي من الأنبياء مفترض الطاعة إني جاعلك للناس نبيا، أو مطاعا فيما تبلغه بنبوتك، أو رئيسا تأمر وتنهى في الدين، أو وصيا، أو خليفة في الأرض تقضي بين الناس في مرافعاتهم بحكم الله.

١٦. ليست الإمامة تخالف الكلمات السابقة وتختص بموردها بمجرد العناية اللفظية فقط، إذ لا يصح أن يقال لنبي ـ من لوازم نبوته كونه مطاعا بعد نبوته ـ إني جاعلك مطاعا للناس بعد ما جعلتك كذلك، ولا يصح أن يقال له ما يؤول إليه معناه وإن اختلف بمجرد عناية لفظية، فإن المحذور هو المحذور، وهذه المواهب الإلهية ليست مقصورة على مجرد المفاهيم اللفظية، بل دونها حقائق من المعارف الحقيقية،

فلمعنى الإمامة حقيقة وراء هذه الحقائق.

١٧. الذي نجده في كلامه تعالى: أنه كلما تعرض لمعنى الإمامة تعرض معها للهداية تعرض التفسير، قال تعالى في قصص إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، فوصفها بالهداية وصف تعريف، ثم قيدها بالأمر، فبين أن الإمامة ليست مطلق الهداية، بل هي الهداية التي تقع بأمر الله، وهذا الأمر هو الذي بين حقيقته في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، وسنبين في الآيتين أن الأمر الإلهي وهو الذي تسميه الآية المذكورة بالملكوت وجه آخر للخلق، يواجهون به الله سبحانه، طاهر مطهر من قيود الزمان والمكان خال من التغير والتبدل وهو المراد بكلمة ﴿كُنَّ﴾ الذي ليس إلا وجود الشيء العيني، وهو قبال الخلق الذي هو وجه آخر من وجهي الأشياء، فيه التغير والتدريج والانطباق على قوانين الحركة والزمان، وليكن هذا عندك على إجماله حتى يأتيك تفصيله إن شاء الله العزيز.

١٨. بالجملة فالإمام هاد يهدي بأمر ملكوتي يصاحبه، فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم، وهدايتها إيصالها إياهم إلى المطلوب بأمر الله دون مجرد إراءة الطريق الذي هو شأن النبي والرسول وكل مؤمن يهدي إلى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وقال تعالى: في مؤمن آل فرعون، ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، وسيتضح لك هذا المعنى مزيد اتضاح.

١٩. ثم إنه تعالى بين سبب موهبة الإمامة بقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ الآية، فبين أن الملاك في ذلك صبرهم في جنب الله ـ وقد أطلق الصبر ـ فهو في كل ما يبتلي ويمتحن به عبد في عبوديته، وكونهم قبل ذلك موقنين، وقد ذكر في جملة قصص إبراهيم عليه السلام قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾، والآية كما ترى تعطي بظاهرها: أن إراءة الملكوت لإبراهيم كانت مقدمة لإفاضة اليقين عليه، ويتبين به أن اليقين لا ينفك عن مشاهدة الملكوت كما هو ظاهر

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ـ إلى أن قال ـ ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، وهذه الآيات تدل على أن المقربين هم الذين لا يحجبون عن ربهم بحجاب قلبي وهو المعصية والجهل والريب والشك، فهم أهل اليقين بالله، وهم يشهدون عليين كما يشهدون الجحيم.

٢٠. بالجملة فالإمام يجب أن يكون إنسانا ذا يقين مكشوفا له عالم الملكوت ـ متحققا بكلمات من الله سبحانه ـ وقد مر أن الملكوت هو الأمر الذي هو الوجه الباطن من وجهي هذا العالم، فقوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، يدل دلالة واضحة على أن كل ما يتعلق به أمر الهداية ـ وهو القلوب والأعمال ـ فالإمام باطنه وحقيقته، ووجهه الأمري حاضر عنده غير غائب عنه، ومن المعلوم أن القلوب والأعمال كسائر الأشياء في كونها ذات وجهين، فالإمام يحضر عنده ويلحق به أعمال العباد، خيرها وشرها، وهو المهيمن على السبيلين جميعا، سبيل السعادة وسبيل الشقاوة، وقال تعالى أيضا: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، وسيجيء تفسيره بالإمام الحق دون كتاب الأعمال، على ما يظن من ظاهرها، فالإمام هو الذي يسوق الناس إلى الله سبحانه يوم تبلى السرائر، كما أنه يسوقهم إليه في ظاهر هذه الحياة الدنيا وباطنها، والآية مع ذلك تفيد أن الإمام لا يخلو عنه زمان من الأزمنة، وعصر من الأعصار، لمكان قوله تعالى: ﴿كُلَّ أُنَاسٍ﴾، على ما سيجيء في تفسير الآية من تقريبه.

٢١. هذا المعنى أعني الإمامة، على شرافته وعظمته، لا يقوم إلا بمن كان سعيد الذات بنفسه، إذ الذي ربما تلبس ذاته بالظلم والشقاء، فإنما سعادته بهداية من غيره، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾، وقد قوبل في الآية بين الهادي إلى الحق وبين غير المهتدي إلا بغيره، أعني المهتدي بغيره، وهذه المقابلة تقتضي أن يكون الهادي إلى الحق مهتديا بنفسه، وأن المهتدي بغيره لا يكون هاديا إلى الحق البتة.

٢٢. يستنتج من هنا أمران: أحدهما:

أ. أن الإمام يجب أن يكون معصوما عن الضلال والمعصية، وإلا كان غير مهتد بنفسه، كما مر، يدل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ

وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾، فأفعال الإمام خيرات يهتدي إليها لا بهداية من غيره بل باهتداء من نفسه بتأييد إلهي، وتسديد رباني والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ بناء على أن المصدر المضاف يدل على الوقوع، ففرق بين مثل قولنا: وأوحينا إليهم أن افعلوا الخيرات فلا يدل على التحقق والوقوع، بخلاف قوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ فهو يدل على أن ما فعلوه من الخيرات إنما هو بوحي باطني وتأييد سماوي.

ب. الثاني: عكس الأمر الأول وهو أن من ليس بمعصوم فلا يكون إماما هاديا إلى الحق البتة، وبهذا البيان يظهر: أن المراد بالظالمين في قوله تعالى، ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ مطلق من صدر عنه ظلم ما، من شرك أو معصية، وإن كان منه في برهة من عمره، ثم تاب وصلح.

٢٣. سئل بعض أساتيذنا عن تقريب دلالة على عصمة الإمام، فأجاب: أن الناس بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام: من كان ظالما في جميع عمره، ومن لم يكن ظالما في جميع عمره، ومن هو ظالم في أول عمره دون آخره، ومن هو بالعكس هذا، وإبراهيم عليه السلام أجل شأنا من أن يسأل الإمامة للقسم الأول والرابع من ذريته، فبقي قسمان وقد نفى الله أحدهما، وهو الذي يكون ظالما في أول عمره دون آخره، فبقي الآخر، وهو الذي يكون غير ظالم في جميع عمره.

٢٤. ظهر مما تقدم من البيان أمور:

أ. الأول: إن الإمامة لمجعولة.

ب. الثاني: أن الإمام يجب أن يكون معصوما بعصمة إلهية.

ج. الثالث: أن الأرض وفيه الناس، لا تخلو عن إمام حق.

د. الرابع: أن الإمام يجب أن يكون مؤيدا من عند الله تعالى.

هـ. الخامس: أن أعمال العباد غير محجوبة عن علم الإمام.

و. السادس: أنه يجب أن يكون عالما بجميع ما يحتاج إليه الناس في أمور معاشهم ومعادهم.

ز. السابع: أنه يستحيل أن يوجد فيهم من يفوقه في فضائل النفس.

فهذه سبع مسائل هي أمهات مسائل الإمامة: تعطيها الآية الشريفة بما ينضم إليها من الآيات والله الهادي.

٢٥. سؤال وإشكال: لو كانت الإمامة هي الهداية بأمر الله تعالى: وهي الهداية إلى الحق الملازم مع الاهتداء بالذات كما استفيد من قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ الآية كان جميع الأنبياء أئمة قطعا، لوضوح أن نبوة النبي لا يتم إلا باهتداء من جانب الله تعالى بالوحي، من غير أن يكون مكتسبا من الغير، بتعليم أو إرشاد ونحوهما، وحينئذ فموهبة النبوة تستلزم موهبة الإمامة، وعاد الإشكال إلى أنفسكم، والجواب: الذي يتحصل من البيان السابق المستفاد من الآية أن الهداية بالحق وهي الإمامة تستلزم الاهتداء بالحق، وأما العكس وهو أن يكون كل من اهتدى بالحق هاديا لغيره بالحق، حتى يكون كل نبي لاهتدائه بالذات إماما، فلم يتبين بعد، وقد ذكر سبحانه هذا الاهتداء بالحق، من غير أن يقرنه بهداية الغير بالحق في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوود وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، وسياق الآيات يعطي أن هذه الهداية أمر ليس من شأنه أن يتغير ويتخلف، وأن هذه الهداية لن ترتفع بعد رسول الله عن أمته، بل عن ذرية إبراهيم منهم خاصة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فأعلم قومه ببراءته في الحال وأخبرهم بهدايته في المستقبل، وهي الهداية بأمر الله حقا، لا الهداية التي يعطيها النظر والاعتبار، فإنها كانت حاصلة مدلولا عليها بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾، ثم أخبر الله: أنه جعل هذه الهداية كلمة باقية في عقب إبراهيم، وهذا أحد الموارد التي أطلق القرآن الكلمة فيها على الأمر الخارجي دون القول، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾

٢٦. تبين بما ذكر: أن الإمامة في ولد إبراهيم بعده، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إشارة إلى ذلك، فإن إبراهيم عليه السلام إنما كان سأل الإمامة لبعض ذريته لا لجميعهم، فأجيب: بنفيها عن الظالمين من ولده، وليس جميع ولده ظالمين بالضرورة حتى يكون نفيها عن الظالمين نفيا

لها عن الجميع، ففيه إجابة لما سأله مع بيان أنها عهد، وعهده تعالى لا ينال الظالمين.

٢٧. ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، في التعبير إشارة إلى غاية بعد الظالمين عن ساحة العهد الإلهي، فهي من الاستعارة بالكناية.

٢٨. روي عن الصادق عليه السلام قوله: إن الله اتخذ إبراهيم عبدا قبل أن يتخذه نبيا، يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، وهو اتخاذ بالعبودية في أول أمر إبراهيم.. يعني أن اتخاذه تعالى أحدا من الناس عبدا غير كونه في نفسه عبدا، فإن العبدية من لوازم الإيجاد والخلقة، لا ينفك عن مخلوق ذي فهم وشعور، ولا يقبل الجعل والاتخاذ وهو كون الإنسان مثلا مملوك الوجود لربه، مخلوقا مصنوعا له، سواء جرى في حياته على ما يستدعيه مملوكيته الذاتية، واستسلم لربوبية ربه العزيز، أو لم يجر على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، وإن كان إذا لم يجر على رسوم العبودية وسنن الرقية استكبارا في الأرض وعتوا كان من الحري أن لا يسمى عبدا بالنظر إلى الغايات، فإن العبد هو الذي أسلم وجهه لربه، وأعطاه تدبير نفسه، فينبغي أن لا يسمى بالعبد إلا من كان عبدا في نفسه وعبدا في عمله، فهو العبد حقيقة، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، وعلى هذا فاتخاذه تعالى إنسانا عبدا ـ وهو قبول كونه عبدا والإقبال عليه بالربوبية ـ هو الولاية، وهو تولي أمره كما يتولى الرب أمر عبده، والعبودية مفتاح للولاية، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}، أي اللائقين للولاية، فإنه تعالى سمى النبي في آيات من كتابه بالعبد، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، وقال تعالى: ﴿قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾، فقد ظهر أن الاتخاذ للعبودية هو الولاية.

٢٩. قول الصادق عليه السلام: (وأن الله اتخذه نبيا قبل أن يتخذه رسولا)، الفرق بين النبي والرسول على ما يظهر من الروايات المروية عن أئمة أهل البيت: أن النبي هو الذي يرى في المنام ما يوحى به إليه، والرسول هو الذي يشاهد الملك فيكلمه، والذي يظهر من قصص إبراهيم هو هذا الترتيب، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، فظاهر الآية أنه عليه السلام كان صديقا نبيا حين يخاطب أباه بذلك، فيكون هذا

تصديقا لما أخبر به إبراهيم عليه السلام في أول وروده على قومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾، والقصة ـ وهي تتضمن مشاهدة الملك وتكليمه ـ واقعة في حال كبر إبراهيم عليه السلام بعد ما فارق أباه وقومه.

٣٠. قول الصادق عليه السلام: (إن الله اتخذه رسولا قبل أن يتخذه خليلا)، يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، فإن ظاهره أنه إنما اتخذه خليلا لهذه الملة الحنيفية التي شرعها بأمر ربه إذ المقام مقام بيان شرف ملة إبراهيم الحنيف، التي تشرف بسببها إبراهيم عليه السلام بالخلة والخليل أخص من الصديق فإن أحد المتحابين يسمى صديقا إذا صدق في معاشرته ومصاحبته ثم يصير خليلا إذا قصر حوائجه على صديقه، والخلة الفقر والحاجة.

٣١. قول الصادق عليه السلام: (لا يكون السفيه إمام التقي) إشارة إلى قوله تعالى، ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فقد سمى الله سبحانه الرغبة عن ملة إبراهيم وهو الظلم سفها، وقابلها بالاصطفاء، وفسر الاصطفاء بالإسلام، كما يظهر بالتدبر في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ ثم جعل الإسلام والتقوى واحدا أو في مجرى واحد في قوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

٣٢. في تفسير العياشي، بأسانيد عن صفوان الجمال قال كنا بمكة فجرى الحديث في قول الله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: فأتمهن بمحمد وعلي والأئمة من ولد علي في قول الله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، والرواية مبنية على كون المراد بالكلمة الإمامة كما فسرت بها في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ الآية فيكون معنى الآية: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ هن إمامته، وإمامة إسحاق وذريته، وأتمهن بإمامة محمد، والأئمة من أهل بيته من ولد إسماعيل ثم بين الأمر بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ إلى آخر الآية.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

---

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٧٨.

١. ﴿و} اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} اختبره بهن، أي شرع له خصالاً أو أمره بخصال ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي أتم ما ذكر له في الكلمات، فرجع الضمير إلى الكلمات؛ لكونه أتم المذكور فيهن، كقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ ونظيره قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمراد: أنه عليه السلام قام بما شرع له في الكلمات المذكورة كاملاً بلا تقصير ولا بخس، فالعمل كامل والنية خالصة والذهن حاضر، والخشوع كامل.. وعلى الجملة قام به على الوجه المشروع بلا تقصير في ذات ولا صفة، وذلك لقوة إيمانه ويقينه وصبره.

٢. يحتمل: أن هذا الابتلاء كان قبل النبوة والرسالة، فكان إتمامهن سبباً للرسالة والإمامة لمن في عصره ومن بعده، ومن يدعي أن هذا الابتلاء كان بعد الرسالة، فليس له دليل.

٣. لا يشكل قول القائل: إن هذا الابتلاء لا يكون إلاَّ بوحي، فكيف يكون قبل النبوة؛ لأنا نقول: ما المانع أنه كان عليه السلام محدَّثاً قبل النبوّة تهيئة للنبوة كما كانت مريم بنت عمران وأم موسى، ولو سلمنا أنه لا يكون قبل النبوة فلا دليل على تأخره، ومن الجائز أنه كان في أول النبوة ثم ترتبت الرسالة على إتمام الكلمات بعد النبوة، أي أنه كان نبياً فابتلي بكلمات فأتمهن، فجعل رسولاً وإماماً للأجيال.

٤. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فإتمامه لما ابتلي به كان سبباً لجعله للناس إماماً، وقد قيل: إن فيه دلالة على أن الإمامة أعظم من النبوة؛ لأنه كان نبياً، ثم بعد ذلك صار إماماً عندهم، ونقول: لا دلالة على ذلك؛ لأن الإمامة رتبت على إتمامه ما ابتلي به لا على النبوة، والنبوة تكون لمن اختاره الله لها، ولو لم يكن رسولاً، ومن الجائز أن يكون الله اختار إبراهيم للنبوة لكونه أهلاً بصلاحه العقلي، وكونه شاكراً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]، واختاره للرسالة بإتمامه ما أمر به، فكانت النبوة أولاً لنفسه والإمامة من أجل الناس ولعل سبب تقديم النبوة في حقه أنه لم يكن لديه كتاب ولا أثر من نبي كان قبله، فلم يكن بد من تقديم نبوته ليعرف ما يخصه من التكليف فتأخرت الإمامة عنها لا لكونها أعظم من حيث هي إمامة، ولا لكونها درجة أرفع، بل لكون الإمامة تتوقف على العلم والصبر واليقين بآيات الله، والنبوة لا تتوقف على العلم بالشرعيات؛ لأن ذلك دور، إذا لم يكن عنده كتاب أو أثر من نبي قبله كآدم عليه السلام.

٥. سؤال وإشكال: دل ذلك على أن الأهلية للإمامة أعظم من الأهلية للنبوة؛ لأن الأهلية للإمامة توقفت على العلم بالشرعيات بخلاف النبوة؟ والجواب: لا دلالة على ذلك؛ لأن الأهلية للنبوة وإن لم تتوقف على العلم بالشرعيات، فالنبوة تتوقف على كمال عقلي واستعداد فائق، فلا يبعد أن يكون بعض من يصلح للإمامة لا يصح للنبوة، اللهم إلاَّ أن يراد الإمامة العامة، كإمامة إبراهيم الخليل وإمامة محمد ﷺ الإمامة التي هي لازم الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩] وغير ذلك فهي إمامة الرسول فيما أرسل به وكونه متبوعاً فيه لكل من أرسل إليهم وكل من أمر باتباعه من الأجيال المتتابعة، فهي متوقفة على النبوة، وهي أعظم درجة من أجل الرسالة من حيث أمر أن يبلغ ويدعو إلى طاعته من أرسل إليهم ويقوم بتكاليف الرسالة الشاقة التي ذكرت في القرآن ودل على عظمها وعظم مشقتها، ولا تكون إلاَّ لذي أهلية خاصة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤]، والحاصل: أن الإمامة مُختِلفة، وفضلها مختلف، وعظم إمامة إبراهيم عليه السلام لا يستلزم أن تكون كل إمامة مثل إمامة إبراهيم.

٦. لا نسلم ترتب إمامة إبراهيم على نبوته، بل على طاعته، فلا نسلم أن الإمامة أفضل، وأنا لو سلمنا أن إمامته أفضل من نبوته فلم نسلم أن كل إمامة مثلها، وقد قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤] فلم يرتب إمامتهم على نبوة، وإنما رتبها على صبرهم ويقينهم بآيات الله اليقين المستمر.

٧. سؤال وإشكال: هل يقينهم كيقين إبراهيم الخليل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥]، والجواب: أن يقينهم بآيات الله أنها دليل على ما هي دليل عليه، وهو يصح أن يوقنوا بها جملة، ولا يتوقف على أن يريهم الله ملكوت السموات والأرض كما أرى إبراهيم عليه السلام، إنما يتوقف على العقل الكامل والإيمان الراسخ والنظر والتفكر مع أن الملكوت المُلك ـ بضم الميم ـ، وإراءتُه إعلامه، وهو يحصل كذلك بالنظر المؤدي إلى العلم بأن الله رب كل شيء، فله الأمر، ومع أن يقين إبراهيم مطلق ويقين أئمة بني إسرائيل مقيد بالآيات، فلا وجه للتسوية بين يقين إبراهيم الخليل عليه السلام ويقين سائر الأئمة، وعلم ذلك عند الله تعالى.

٨. ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ اجعل أئمة بقرينة قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فالجمع يدل على أن المطلوب جمع، وهو عليه السلام أراد أئمةً للناس كافة لمن في عصره ولمن بعده من الأجيال كما أن إبراهيم عليه السلام إمام كذلك، والكلام في سياق الاحتجاج على أهل الكتاب الكافرين بمحمد ﷺ، فظهر أنه المقصود بإيراد القصة؛ لأنه رسول إلى العالمين ﷺ.

٩. ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وهذا يفيد: أن قد أجاب دعوة إبراهيم وزاده فائدة؛ أنه لن ينال عَهْدُه بالإمامة ظالماً، فليس هذا ردّاً على إبراهيم عليه السلام، ولا تخصيصاً لدعوته؛ لأنه قال ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فأتى بـ ﴿مِنَ﴾ التي للتبعيض، فليس فيها عموم وليس في كلامه تعرض لكونه ظالماً أو غير ظالم، وفائدة هذه:

أ. أوّلاً: الرد على من سيكفر ويقول: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ [الأنعام:١٢٤]

ب. ثانياً: الرد على من ادعى النبوة من الظالمين كمسيلمة الكذاب لتكون معرفة ظلمه كافية لإبطال دعواه.

ج. ثالثاً: الرد على من ادعى الإمامة الشرعية وهو ظالم، فيكون ظلمه دليلاً على كذب دعواه وهو وإن لم يكن السياق فيه فقد دخل في عموم عهدي، وعموم الظالمين، والعام لا يقصر على سببه.

١٠. سؤال وإشكال: هل هذا دليل على عصمة الإمام؛ لأن من عصى فهو ظالم، ولو كان قد تاب، والجواب: التائب قد خرج عن اسم الظلم؛ لأن توبته قد محت ذنبه وصار مستحقاً للمدح غير مستحق للذم، وتسميته ظالماً ذم له بعد خروجه عن استحقاق الذم، وصار مؤمناً، ومحسناً ضد الظالم وضد المسيء، قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ [الشورى:٢٢]، فهل تقولون: أن التائب هو من النوع الأول؟ أم من النوع الثاني؟

أ. فإن قلتم: من الأول، خالفتم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى:٢٥] وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠] وعلى هذا اللغة العربية، فمن أساء سمي مسيئاً حتى يرجع ويتوب من إساءته ويصلح ما أفسد ويحسن، ومتى صار محسناً سمي محسناً ولا ينظر إلى إساءته من قبل.. وكذلك من أحسن يسمى

محسناً، ومتى تحول عن طريقته وصار من المفسدين لم يسم محسناً نظراً لإحسانه السابق قبل الإساءة، فدعواكم أن التائب ظالم غير مسلمة ولا حجة لكم إلاَّ استصحاب اسمه قبل التوبة، وهو استصحاب باطل؛ لأن التوبة قد محت ظلمه واختلفت حاله فهو كاستصحاب اسم الكفر لمن قد أسلم، واسم الإسلام لمن قد أشرك، واستصحاب اسم المريض لمن قد عوفي وصار صحيحاً وغير ذلك، فاللغة لا تثبت لكم هذا الاستصحاب، وهو دعوى على اللغة لا تسمع، فلا نسلم أن التائب من ظلمه المبدل حسناً بعد سوء الذي يبدل الله سيئاته حسنات ظالم داخل في عموم: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وعلى هذا فيكفي ظهور عصمته، أي هدايته وتوفيقه من بعد التوبة والإصلاح، فإن قالوا: لا يخلو إما أن يكون إبراهيم طلب إماماً ظالماً أو لم يطلبه الأول باطل بالاتفاق، والثاني: إما أن يكون طلب إماماً معصوماً أو لم يطلبه، الأول هو ما نريد، وقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إجابة مطابقة.

ب. والثاني أن يكون طلب إماماً معصوماً أو غير معصوم، فقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لإخراج غير المعصوم، وقصر للإجابة على المعصوم.

١١. الجواب: نختار الثاني في أول قسمة، فلم يطلب ظالماً، ونختار الثاني في القسمة الثانية فلم يطلب في هذا الدعاء معصوماً، فلا ذكر للعصمة، وقولكم: فقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لإخراج غير المعصوم، دعوى لا دليل عليها، بل هو إجابة مطابقة.

١٢. سؤال وإشكال: إذا جعلناها إجابة مطابقة بطلت فائدتها؛ لأنه إذا طلب إماماً غير ظالم، وأجيب بأنه ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لم يكن الجواب رداً على إبراهيم ولا تخصيصاً لكلامه، والجواب: لا موجب لجعل الجواب ردّاً على إبراهيم، ولا لجعله تخصيصاً لدعوته، فأما الفائدة فلم تقصر على ذلك، ويكفي في الفائدة التصريح بما لم يذكره إبراهيم، وكون التصريح من مالك الملك.

١٣. قد قيل: إن هذه الآية دليل على أنه لا بد أن يكون الإمام منصوصاً عليه بعينه، ووجه الدلالة: أن الآية قد دلت على أن الإمام لا يكون ظالماً من غير فرق بين الظالم في الظاهر والظالم في الباطن، فدلت على أنه لا بد أن يكون منصوصاً عليه، وإلا جاز أن يكون ظالماً في الباطن.. قلنا: أما الرسول فلا بد من أن يصدقه الله بآية خارقة لا لأجل هذه الآية الدالة على أن الرسول لا يكون ظالماً، وذلك لأن ظهور كونه غير ظالم، وعدم العلم بظلم منه باطن لا يكفي في تصحيح دعواه الرسالة، ولم يثبت دليل عام يقتضي الاكتفاء

بظهور عصمته، أما الإمام من بعد علي والحسنين فإنه يكفي ظهور فضله، وظهور صلاح ظاهره وباطنه، ولا نكلف علم باطنه؛ لأن الآية لم تشترط ثبوت العصمة إنما نفت العهد للظالم ولم تنف العهد لمن جوزنا أنه في الباطن ظالم.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. يدور الحديث هنا، عن بعض الجوانب الحيّة من شخصية إبراهيم عليه السّلام في رسالته، حيث نلاحظ في هذه الشخصية التي يصوّرها القرآن طابعا مميزا في ما يتحدث الله عنه، في صفاته الذاتية من الملكات الروحية التي تزخر بها روحه وتتحرك بها حياته، وفي مواقفه الإيمانية الرسالية المتمثلة في هذا الاستسلام المطلق لله في أشدّ المواقف صعوبة وحراجة، سواء في ابتلاء الله في ذبح ولده أو في موقفه من أبيه ومجابهته لقومه ومواجهته لطاغية زمانه، من دون أن نلمح في أيّ موقف من هذه المواقف شعورا بالضعف أو الإحراج أو الصعوبة، بل هو الانسجام القوي مع المهمة والمسؤولية، والانطلاق معها في قوّة وإخلاص، والانسياب الروحي في عمق الإيمان الكبير بالله الذي يتفايض بالحب والوداعة والحياة في كل كلمة وفي كل موقف، فلا نجد، حتى في أشدّ المواقف صعوبة وخطورة، أيّ ابتعاد عن جو الإيمان، أو أيّ غياب عن الله، بل هو الحضور الدائم الذي يشعر معه بوجود عين نفّاذة في القلب والضمير واللسان والفكر والشعور والوجدان وهي تحدّق بالله هنا وهناك، في كل مظهر من مظاهر الخلق وفي كل سرّ من أسرار الوجود.

٢. في هذا الجو الرائع من ملامح شخصيته، يمكن للعاملين، في كل زمان ومكان، استيحاء هذا النموذج النبوي الرسالي في وداعة الروح الرسالية وصفائها، وفي استغراقها في الله في حضور روحيّ منفتح لا في غيبوبة صوفية غارقة في الضباب.

٣. قد لا تكون شخصية النبي إبراهيم عليه السّلام هي النموذج الأوحد للأنبياء في هذا الفيض الروحي من الإيمان والوداعة والصفاء، ولكن القرآن لم يفض في الحديث عن نبي من الأنبياء كما أفاض في

---

(١) من وحي القرآن: ٣/ ٥.

الحديث عن إبراهيم عليه السّلام في التأكيد على ملامح الشخصية الواحدة المتنوعة في مجالاتها مع وحدة المشاعر وطهارتها وصفائها، فإننا نلاحظ، فيما يأتي من حديث التفسير، أنه أثار أمامنا قضية إيمانه في حوارة مع نفسه ومع قومه ومع الله، فنجد أنه يأخذ مساحة كبيرة من قصته، وقد لا يكون من الضروري أن تتحرك القصة من موقع المعاناة الذاتية لإبراهيم عليه السّلام في كل ما قاله، فربما كانت بعض الأحاديث أسلوبا من أساليب الرسالة في عرض الفكرة بطريقة الحوار.. ولكنها لا تخلو من إيحاء بالروح التي توحي بهذه الكلمة أو تلك، أو بهذا الأسلوب أو ذاك، فإن للكلمات وللأساليب روحا لا تختفي في المعنى اللغوي للكلمات، أو في القواعد الفنية للأساليب، بل تنطلق من عمق الروح التي تنطق بالكلمة وتتحرك في الأسلوب.

٤. ربما كان للأبوّة النسبيّة للرسل من بعده، وللأبوّة الروحية للرسالات المتأخرة التي يمتاز بها إبراهيم في شخصه ورسالته، أكبر الأثر في ذلك، انطلاقا من الشعور الذاتي الذي يربط كل أتباع الديانات به، مما يجعل للإيحاء بملامح الشخصية عمقا يتصل بالمشاعر الحميمة من جهة، وبالقداسة الإيمانية من جهة أخرى، ولا سيّما أننا لا نجد في التفاصيل التي نقلها القرآن لنا من رسالته أيّ اختلاف مع الرسالات الأخرى، في التفاصيل التي تختلف فيها الرسالات حسب اختلاف المراحل الزمنية التي تؤدي إلى ذلك في حدود المفهوم والتشريع، فقد يكون ذلك سببا في تأكيد شخصيته باعتباره ملتقى للرسالات من جهة، وللرسل من جهة أخرى، فيمكن اعتبار رسالته حكما في مواضع الاختلاف بين أتباع الرسل، كما يمكن أن تكون شخصيته نموذجا موحّدا في ما يتنازعون فيه من شخصيات الأنبياء.

٥. على أيّ حال، فإننا نشعر بالحاجة الرساليّة إلى الامتداد في الأجواء الرحبة لهذا النبي العظيم، لنستعين بذلك على صنع الشخصية الإسلامية في النماذج الرائعة من مواقفه وأساليبه وإيمانه.

٦. نلتقي في هذه الآية بإبراهيم عليه السلام، في موقف الإنسان الذي يتعرض للابتلاء والاختبار ليظهر، من خلال ذلك، ما يملك من طاقات كبيرة تؤهله لحمل الرسالة وللقيادة، ونلاحظ أن القرآن قد أجمل الكلمات التي كانت وسيلة للابتلاء فلم يفصح بالحديث عنها، ولكنه حدّثنا عن إتمامها من دون أن يتضح هل كان الإتمام من إبراهيم عليه السّلام أو من الله في ما يحتمله الضمير في الكلمة، ولم يفصّل لنا كيف كان هذا الإتمام، هل هو في وعي إبراهيم عليه السّلام للكلمة وحفظها في فكره في مقابل النسيان، أم

في تجسيدها العملي في الواقع التطبيقي للحياة، لأن القضية لا تختلف باختلاف التفاصيل في ما يريد القرآن أن يفيض فيه أو يفصح عنه من انطلاق العهد الإلهي من موقع الاختبار والكفاءة لا من موقع الاختيار التلقائي، فإن ذلك هو ما نحتاج أن نتعرفه، أمّا التفاصيل، فقد يحتاج المؤمنون الذين عاشوا في عهد إبراهيم أن يعرفوها لأنها تتصل بخطواتهم الفكرية والعملية في الحياة، ولا بد أن يكونوا قد عرفوها في ما دعاهم إليه من أحكام وتعاليم.

٧. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ أي اختبره في حركته في خط المسؤولية الرسالية التي تعمل على تغيير الحياة، من الواقع الكافر الضالّ إلى الواقع الإيماني المستقيم في الخط الذي يحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة، ليظهر إخلاصه لله وقدرته على تحمّل المسؤولية، كما يختبر الله رسله وعباده الصالحين في المواقع الصعبة التي تتحدى طاقاتهم لتعبّر عن نفسها بقوّة وصلابة وإخلاص، ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ مما أوحى به إليه من آياته في الصحف التي أنزلها عليه، وفي المسؤولية المتنوعة التي حمّله إياها، ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ووفّاهنّ حقّهن بالدعوة تارة وبالانقياد أخرى، وبالحركة المتحدية في مواجهة الكفر والاستكبار ثالثة، فلم ينقص شيئا من دعوته، ولم يهمل موقفا من مسئوليته، ولم يبتعد خطوة واحدة عن ساحات التحدي الكبير، وبذلك استحق درجة القدوة الحسنة الكبيرة التي يراد للناس الأخذ بها وموقع الولاية التي هيّأه لها، لتفتح النبوّة المنطلقة في خط التبليغ على الإمامة المتحركة في خط الواقع، مما يوجد تكاملا بينهما لا انفصالا، وهناك وجه آخر لتفسير ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ بإرجاع الضمير إلى الله في إتمام كلماته، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ في تطوّر النبوة ـ الدعوة إلى الإمامة ـ الحركة.

٨. ربما كانت المسألة كناية عن الرسالة كلها في خطها الفكري والعملي، بحيث يكون الاختبار الإلهي بالكلمات واستيعاب إبراهيم لهن في موقع التكليف بالرسالة، حركة مترتبة متدرجة، إذ لا دليل على أنّ الجعل كان بعد النبوّة، بل كل ما هناك أنّ الآية توحي بأن ثمّة هناك إيحاء من الله بالكلمات الرسالية، وإعلانا له بأنها تمثل خط الإمامة بمعنى الولاية النبوية والقدوة الحركية في حياته، وقد لا نجد في القرآن الكريم أيّ شاهد على أن الإمامة تحمل مفهوما مقابلا للنبوّة في مفهومها الواقعي العام، لأن الوحي الذي ينزل على النبي أو الرسالة التي يحملها الرسول، ليسا تعبيرا عن حالة ثقافية في وعي النبي ترتبط بذاته أو تنفتح على غيره في عملية سماع مجرّد لآياتها، بل هما معنيان حركيان في عملية الاهتداء والاقتداء والمتابعة،

مما تختزنه كلمة الإمامة في مضمون الائتمام الذي يعني الاقتداء والمتابعة، مما تختزنه كلمة الإمامة تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فإن الصفات المذكورة للأئمة هي صفات الأنبياء في مهمّة نبوّتهم ورسالتهم، من الهداية بأمر الله والوحي المنفتح على فعل الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، من خلال وعيهم اليقيني لآيات الله، وصبرهم الحركي في مواجهة التحديات والعقبات من قبل أعداء الله.

٩. ما استدلّ به البعض أن مورد الآية قد جاء في أواخر عهد إبراهيم عليه السّلام بعد كبره وولادة إسماعيل وإسحاق له، وذلك لكونه لم يكن يعلم عليه السّلام أنه ستكون له ذرية تخلفه إلا من بعد ما بشرته الملائكة بالأولاد، مما يلزم عنه أن الإمامة المجعولة لإبراهيم عليه السّلام هي غير النبوّة، لا يصلح دليلا على الموضوع، إذ من الممكن للإنسان أن يتحدث عن مستقبل أولاده الذين يرجو أن يرزق بهم - بحسب طبيعة الأنبياء - لاهتمامه بامتداد الخط في ذريته، ولا سيما إذا عرفنا أنه لم يتحدث عن ذريته بشكل مباشر بل كان يتحدث عن الأجيال القادمة من أولاده ممن لم يكونوا موجودين.

١٠. قد نستوحي من القرآن أن إبراهيم كان عارفا بطبيعة المهمّة ومطمئنا إليها، فلما أتمّ الكلمات، أو أتمّ الله له الكلمات، ونجح في الامتحان، لم يفاجأ بالعهد الإلهي في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فلم يصدر عنه أيّ ردّ فعل في ما واجهه من مسئولية جديدة في نطاق ذاته، بل كان ردّ فعله منطلقا من التفكير في مستقبل العهد وامتداده، فهل هو من العهود التي تقتصر عليه من خلال المهمّة المحدودة بالزمان والمكان والشخص، أم هو من العهود التي تمتد بامتداد الذريّة في مدى الزمن، فتساءل: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ في استفهام متطلّع مستشرف يحمل طابع الأمنية التي يحملها الإنسان في فطرته لذرّيته في كل خير يحصل له.

١١. كان الجواب حاسما ينطلق في عملية تحديد للقاعدة الرسالية التي تبرر إعطاء العهد لأي إنسان في كل زمان ومكان ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فليست القضية امتيازا إرثيا أو تكريما شخصيا يتصل بالذات، كما هو شأن الملوك الذين يعيشون هاجس وراثة الملك عندما يفكرون في الذرية، بل القضية مسئولية رسالية تتصل بحياة الناس في ما يفكرون وفي ما يعيشون، وبخلافة الله في الأرض في ما يريد من

تنظيم وتدبير، وبعبادة الله الواحد الأحد في ما تحقق من وحي وما تثير من روحانية، فلا بد لمن يحملها من كفاءة روحية وفكرية وعملية في ما تمثله الكفاءة من معاني الاستقامة والانسجام مع الخط العام للرسالة وللدعوة، فهي عهد الله الذي يجعله للصالحين من عباده المنسجمين مع خط العدل في أنفسهم من أجل أن يقوم الناس بالقسط، فلا ينال عهده الظالمين الذين يظلمون من فوقهم بالمعصية، ومن دونهم بالغلبة، ويظاهرون القوم الظلمة، كما جاء في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السّلام في الكلمات القصار: (للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويظاهر القوم الظلمة)، ويظلمون أنفسهم في ذلك كله، وهكذا كان الجواب دستورا عمليا لكل رسالة ورسول.

١٢. الابتلاء في كل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه ـ ومنه ابتلاء الله لإبراهيم ـ لا يراد منه الاختبار من أجل المعرفة، لأن الله عالم بكل ما سيقع من عباده، فلا يحتاج إلى أية وسيلة للمعرفة، بل المراد منه إظهار ذلك ليكون حجّة عليهم في ما لله من حجة، وتكريما لهم في ما يريد الله لهم من إظهار التكريم.

١٣. اختلف المفسرون، تبعا لاختلاف الروايات، في معنى الكلمات التي أبقاها القرآن غامضة، وقد جاء في بعض الأحاديث عن أحد أئمة أهل البيت، وهو الإمام جعفر الصادق عليه السّلام: (أنه ما ابتلاه الله به في نومه من ذبح ولده إسماعيل ـ أبي العرب ـ فأتمها إبراهيم وعزم عليها، وسلّم لأمر الله، فلما عزم قال الله ثوابا له لما صدّق وعمل بما أمره ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ثم أنزل عليه الحنيفية وهي الطهارة)، وقد يبعث هذا الحديث على التأمل في تفسير الإمامة بالنبوّة كما يوحي به جوّ الآية في ما نرى من حديث، لأن ابتلاء الله لإبراهيم بذبح ولده كان متأخرا عن النبوّة، لأن الله رزقه به في آخر أيامه، كما يتحدث القرآن عن ذلك في بشارة الملائكة له به وبأخيه بعد اليأس.. وقد نلتقي بتفسير آخر للإمامة ينسجم مع الحديث في الفقرة الثالثة منه.

١٤. للإمام معنيان: أحدهما ما يوحي به المعنى اللغوي، وهو: المقتدى به في أفعاله وأقواله، والثاني: إنه الذي يقوم بتدبير الأمّة وسياستها والقيام بأمورها، وتأديب جناتها، وتولية ولاتها، وإقامة الحدود على مستحقيها، ومحاربة من يكيدها ويعاديها، وغير ذلك مما يرادف السلطة الكاملة في خطواتها التنفيذية.. فعلى الوجه الأول، لا يكون نبيّ من الأنبياء إلا وهو إمام، وعلى الوجه الثاني، لا يجب في كل نبي أن يكون إماما، إذ يجوز أن يكون مأمورا بتأديب الجناة، ومحاربة العداة، والدفاع عن حوزة الدين

ومجاهدة الكافرين، فلما ابتلى الله سبحانه إبراهيم بالكلمات فأتمهن، جعله إماما جزاء له على ذلك.. هذا ما ذكره صاحب مجمع البيان.

١٥. قد يكون لهذا الحديث صلة بالحديث عن دور النبوّة، ولا سيّما دور أولي العزم من الأنبياء، فهل هو مجرد التبليغ أم يمتد إلى دور التنفيذ؟ ربما يخطر بالبال ـ من خلال متابعة الآيات القرآنية ـ أن الدور النبوي في حياة الناس هو التبليغ والتنفيذ معا، لأن مهمّة النبوّات هي تغيير العالم والإنسان على الصورة التي يريدها الله في مسيرته ونظامه، ومن الطبيعي في مثل هذا الاتجاه، أن يكون النبي هو القائد التنفيذي لعملية التغيير بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، لأنه الإنسان الوحيد الذي يملك الوعي الكبير المنفتح على تفاصيل عملية التغيير من خلال وعيه للرسالة التي يحملها ويبلغها كأساس للتغيير، وقد تتضح الصورة أمامنا أكثر إذا تابعنا الآيات القرآنية التي تتحدث عن دور النبوّات في حياة الناس، وذلك بملاحظة عدة آيات:

أ. ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]

ب. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]

ج. ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾

فقد نلاحظ أن قيام الناس بالقسط والحكم بين الناس بالحق، والحكم بين الناس في ما اختلفوا فيه، من أجل إلغاء الاختلاف على صعيد الواقع، لا يتحقق بالتبليغ المجرّد، بعيدا عن التحرك العملي للتنفيذ، ثم إنّ التركيز على اعتبار الحكم متفرعا عن جعل الخلافة يوحي باتجاه الخلافة ـ التي تعني النبوة ـ إلى الجانب العملي في الحياة.

١٦. إن ملاحظة كلمة الإمام في القرآن قد تعطي المعنى المرادف للنبوّة في حديث الله عن الأنبياء

ووصفهم بالأئمة، مما يجعل من الكلمتين تجسيدا لمهمّة واحدة في حركة الرسالة، وهذا ما نلمحه في الآيات التالية:

أ. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]

ب. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٣ ـ ٢٤]

١٧. ربما نستوحي من ذلك إرادة الإمامة بمعنى القدوة في الأقوال والأفعال، وذلك من خلال التركيز في الآيتين على كلمة: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ في جانب التبليغ، والتركيز على كلمة: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ في الآية الثانية في جانب الشخصية القيادية التي تمثل الثبات في مواجهة المزالق مما يجعلها في موقع المسؤولية والقدوة العملية.

١٨. قد تلتقي هذه الفقرة بالآية التي نحن بصدد تفسيرها، حيث عقّب الابتلاء بجعل الإمامة، وقد يؤكد انسجام الإمامة مع طبيعة النبوّة إلحاق الوحي بها في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ وبذلك تكون الإمامة صفة لحركة النبوّة في الحياة من خلال طبيعة الشخصية التي يملكها النبي، مما يجعله قدوة في نفسه وموضعا للتوجيه الإلهي للناس بالاقتداء به في قوله وفعله، أمّا الإمامة بالمعنى الآخر، فلا نجد في الآية أساسا لاستفادته بتفاصيله المذكورة في علم الكلام، ولكننا نستطيع استيحاءه من طبيعة المهمّة الموكلة إلى النبي كما ألمحنا إلى ذلك في الفقرة الثانية من الحديث.

١٩. قد نستطيع التأييد لالتقاء كلمة الإمامة المجعولة لإبراهيم بالنبوّة في معناها الواسع، بالتساؤل الصادر من إبراهيم حول إعطاء هذا الامتياز لذرّيته، فإن الظاهر أنه كان يقصد النبوّة التي منحها الله له، وذلك من خلال الجواب بأن عهد الله لا ينال الظالمين، وذلك لأننا نلاحظ أن كثيرا ما يعبّر عن النبوّة بأنها عهد الله لرسله ولأنبيائه.

٢٠. تؤكد بعض الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت عليه السّلام أن مرحلة الإمامة كانت متأخرة عن مرحلة النبوّة، فقد ورد في حديث: (عن محمد ابن سنان، عن زيد الشحام، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السّلام يقول: إن الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عليه السّلام عبدا قبل أن يتخذه نبيا، وإن الله

اتخذه نبيا قبل أن يتخذه رسولا، وإن الله اتخذه رسولا قبل أن يتخذه خليلا، وإن الله اتخذه خليلا قبل أن يجعله إماما، فلما جمع له الأشياء قال ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، قال: فمن عظمها في عين إبراهيم عليه السّلام قال ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، قال: لا يكون السفيه إمام التقي، ومثله ما رواه سهل بن زياد عن محمد بن الحسين عن ابن أبي السفاتج، عن جابر، عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام، وقد نحتاج إلى زيادة التأمل في هذه الأحاديث ـ بعد التأكد من صحتها ـ فإنها جارية على أساس الترتيب بين الصفات المجعولة لإبراهيم عليه السّلام، ولكن قد يكون المراد منها تعدد جوانب الشخصية في شخصية إبراهيم في ما أولاه الله من ألطاف وامتيازات نابعة من امتداد المعاني الروحية في حياته، وعلى ضوء ذلك يكون الترتيب بينها منطلقا من طبيعة العلاقة التي تجعل بعضها متوقفا على توفّر البعض الآخر من دون أن يكون هناك ضرورة لوجود فترة زمنية بين هذه الأمور، ولعل عظمة الإمامة في وعي إبراهيم كانت منطلقة من شعوره بضخامة الموقع الذي وصل إليه حيث جعل إماما للناس في كل أقواله وأفعاله، فأصبح يمثّل القاعدة التي ينطلق من خلالها الناس إلى القيم التي يؤمنون بها، لتكون حياته الوجه الأمثل للقيمة الروحية للحياة.. وبهذا تفترق الإمامة عن النبوّة في مفهومها الداخلي، فإن النبوّة تعتبر منطلقا للدعوة على أساس الوحي والرسالة، بينما تعتبر الإمامة قاعدة للاقتداء والاتّباع على أساس الطاقات الفكرية والروحية والعلمية التي يملكها، فكأن النبوّة صفة تأتيه من الخارج، أما الإمامة فهي صفة ترتبط بالذات من خلال المعاني الكامنة في الداخل.

٢١. وهناك وجه آخر نحتمله في استيحاء معنى إمامة إبراهيم التي جاءت بعد النبوّة في ما تدل عليه الروايات التي تفسر الابتلاء بقضية ذبح إسماعيل، وهو أن إمامة إبراهيم ليست محدودة بزمنه كبقية الأنبياء الآخرين، بل هي إمامة تتعداه إلى ما بعد ذلك من المراحل الزمنية التي عاش فيها الأنبياء الآخرون، حتى أن الشرائع المتأخرة عنه كانت مطبوعة بطابع الشريعة الإبراهيمية، وقد نستوحي ذلك من الآية الكريمة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١١٠]

٢٢. خلاصة الفكرة، أن الإمامة تعتبر الصفة المتحركة للنبي في حياته، فكانت النبوّة والرسالة تنطلقان في اتجاه المهمة التي كلفه الله بها، بينما كانت الإمامة تتحرك في اتجاه اعتباره قدوة وقاعدة لمن أراد الاقتداء به والانطلاق من القاعدة الإيمانية المتجسّدة، وبذلك يظهر كيف تتأخر الإمامة عن النبوّة عندما

يعبّر النبي عن طاقاته وملكاته في خطواته العملية في الحياة، في جهاده من أجل الرسالة، وفي صبره أمام التحديات الداخلية والخارجية.. والله هو العالم بحقائق أحكامه وآياته، وليس لنا إلا إثارة الاحتمال من أجل الوصول إلى حقيقة الحال، ولو بعد حين.

٢٣. ما نستوحيه من هذه الآية، قضيتان أساسيتان:

أ. إن المسؤولية لا تمنح إلّا بعد الابتلاء والاختبار، ولا سيما إذا كانت تتعلق بالأمر الذي يستدعي تغيير الأمة في حاضرها ومستقبلها، فلا يمكن أن تجعل على أساس انطباعات عامة، أو على أساس المجاملات والمحسوبيات الخاصة.. وإن القدوة في الأفعال والأقوال لا يمكن أن تجعل لإنسان إلا بعد أن تثبت كفاءته في مجال الإخلاص في السلوك والتعامل والعلاقات، لأن معنى القدوة، أن يكون الشخص هو الوجه الذي يتجه الناس إليه والقاعدة التي يتحرك المجتمع منها، فكيف يمكن أن يتحقق ذلك من دون الابتلاء والخبرة الطويلة!؟

ب. إن القائمين على شؤون الأمة لا بد أن يكونوا بالمستوى الذي يرتفعون به عن صفة الظلم في حياتهم، لأن الإنسان الذي يعيش الظلم في حياته لا يمكن أن ينطلق بعيدا في محاربة الظلم ورفعه عن حياة الناس، وقد وردت الأحاديث الكثيرة عن أئمة أهل البيت عليه السّلام توضح ـ من خلال هذه الآية ـ أن الخلافة لا يمكن أن تجعل للظالمين أنفسهم بالمعصية وبالكفر حتى قبل حصولهم على الخلافة، لأن قضية المسؤولية ترتبط بالتاريخ العميق للشخصية، بالإضافة إلى الحاضر الذي يمثل الانضباط في مواقع المسؤولية، وقد أفاض علماء الكلام من الشيعة في كتب الكلام والتفسير الحديث حول هذه القضية، فليراجعها المفكرون في مظانّها.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. هذه الآية وما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبي الله الكبير إبراهيم على نبيّنا وعليه السلام، وعن بناء الكعبة وأهمية هذه القاعدة التوحيدية العبادية، والهدف من هذه الآيات ـ وعددها ثماني عشرة آية ـ ثلاثة

---

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٦٧.

أمور:

أ. أوّلا: أن تكون مقدمة لمسألة تغيير القبلة التي ستطرح بعد ذلك، كي يعلم المسلمون أن هذه الكعبة من ذكريات إبراهيم محطم الأصنام، ولكي يفهموا أن التلويث الذي طرأ على الكعبة إذ حولها المشركون إلى بيت للأصنام، إنما هو تلويث سطحي لا يحط من قيمة الكعبة ومكانتها.

ب. ثانيا: لفضح ادعاءات اليهود والنصارى بشأن انتسابهم لإبراهيم، وأنهم ورثة دينه وطريقته، ولتوضيح مدى ابتعاد هؤلاء عن ملة إبراهيم.

ج. ثالثا: لتفهيم مشركي العرب أيضا ببعدهم عن منهج النّبي الكبير محطم الأصنام، والرّد على ما كانوا يتصورونه من ارتباط بينهم وبين إبراهيم.

٢. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، يشير إلى الاختبارات المتتالية التي اجتازها إبراهيم عليه السّلام بنجاح، وتبين من خلالها مكانة إبراهيم وعظمته وشخصيته، لذلك وجب أن يكون النّبي معصوما لأن أعماله قدوة للآخرين.. من هنا، فمنزلة الإمامة أسمى ممّا ذكر، بل أسمى من النّبوة والرسالة، وهي المنزلة التي نالها إبراهيم من قبل الله بعد أن اجتاز الامتحان تلو الامتحان.

٣. المقصود من (الظلم) في التعبير القرآني: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل)، وقد استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمة، ويقع في النقطة المقابلة للعدل: وهو وضع الشيء في محله، فالظلم إذن وضع الشخص أو العمل أو الشيء في غير مكانه المناسب.

٤. لما كانت منزلة الإمامة والقيادة الظاهرية والباطنية للبشرية منزلة ذات مسئوليات جسيمة هائلة عظيمة، فإن لحظة من الذنب والمعصية خلال العمر تسبب سلب لياقة هذه المنزلة عن الشخص، لذلك نرى أئمة آل البيت عليهم السّلام يثبتون بهذه الآية تعيّن الخلافة بعد النّبي مباشرة لعلي عليه السّلام وانحصارها به، مشيرين إلى أن الآخرين عبدوا الأصنام في الجاهلية، وعليّ عليه السّلام وحده لم يسجد لصنم، وأيّ ظلم أكبر من عبادة الأصنام!؟ ألم يقل لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾!؟ من هذه الاستدلالات ما رواه هشام بن سالم عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال (قد كان إبراهيم نبيّا وليس بإمام، حتّى قال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، فقال الله ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، من عبد صنما أو وثنا لا يكون إماما)، وفي حديث آخر عن عبد الله بن

مسعود عن النّبي ﷺ: (إنّ الله قال لإبراهيم (لا أعطيك عهدا للظّالم من ذرّيّتك، قال يا ربّ ومن الظّالم من ولدي الّذي لا ينال عهدك؟ قال من سجد لصنم من دوني لا أجعله إماما أبدا، ولا يصلح أن يكون إماما)

٥. من الآية مورد البحث نفهم ضمنيا أن الإمام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكون معينا من قبل الله سبحانه، لما يلي:

أ. أوّلا: الإمامة ميثاق إلهي، وطبيعي أن يكون التعيين من قبل الله، لأنه طرف هذا الميثاق.

ب. ثانيا: الأفراد الذين تلبّسوا بعنوان الظلم، وما رسوا في حياتهم لحظة ظلم بحقّ أنفسهم أو بحقّ الآخرين، كأن تكون لحظة شرك مثلا، لا يليقون للإمامة، فالإمام يجب أن يكون طيلة عمره معصوما، وهل يعلم ذلك في نفوس الأفراد إلّا الله!؟ ولو أردنا بهذا المعيار أن نعيّن خليفة لرسول الله ﷺ، فلا يمكن أن يكون غير علي عليه السّلام.

٦. جدير بالذكر أن صاحب (المنار) نقل عن أبي حنيفة قوله: أن الخلافة لا تليق إلّا بالعلويين، ومن هنا أجاز الخروج على حكومة العباسيين، ومن هنا أيضا رفض منصب القضاء في حكومة خلفاء بني العباس، ويقول صاحب المنار أيضا: إن أئمة المذاهب الأربعة كانوا معارضين لحكام زمانهم، وكانوا يعتبرون أولئك الحكام غير لائقين لزعامة المسلمين، لأنهم ظالمون.

٧. من العجيب أن كثيرا من علماء أهل السنة في عصرنا هذا، يؤيدون ويدعمون الحكومات الظالمة المتجبّرة المرتبطة ارتباطا واضحا جليّا بجبهة الكفر العالمية، والمفسدة في الأرض إفسادا لا يخفى على أحد، بل أكثر من ذلك يعتبرون هؤلاء الحكام (أولي الأمر) ويركزون على وجوب طاعتهم!

٨. سؤال وإشكال: قيل في تفسير معنى الإمامة أن عمل الإمامة هو (الإيصال إلى المطلوب) و(تنفيذ المناهج الإلهية)، وهذا المعنى لم يتحقق في كثير من الأنبياء، بل لم يتحقق حتى بالنسبة للنبي الخاتم ﷺ والأئمة الأطهار في المقياس العام، فقد كان يقف في مقابلهم دوما أفراد ضالون مضلون، والجواب: تعريفنا لعمل الإمام لا يعني أن الإمام يجرّ الامّة قسرا نحو الحق، بل إن الأفراد يستطيعون ـ وهم مختارون ـ أن يهتدوا بما يمتلكه الإمام من قوّة ظاهرية وباطنية، على شرط امتلاك هؤلاء الأفراد للّياقة والاستعداد، وهذا كقولنا الشمس خلقت لاستمرار حياة الموجودات الحيّة، أو أن المطر يعمل على إحياء الأرض الميتة،

تأثير الشمس والمطر له طابع عام، لكنه لا يصدق إلّا في الموجودات المستعدة لقبول هذا التأثير.

٩. سؤال وإشكال: التّفسير المذكور للإمام يستدعي أن يكون كل إمام نبيّا ورسولا أوّلا، وبعد ذلك يبلغ درجة الإمامة، بينما لم يكن الخلفاء المعصومون لنبيّ الإسلام ﷺ كذلك، والجواب: لا يلزم أن يكون الإمام قد بلغ حتما منزلة النّبوة والرسالة، فالذي اجتمعت فيه منزلة النّبوة والرسالة والإمامة (مثل النّبي الخاتم) يمكن لخليفته أن يواصل طريق الإمامة، وذلك حين تنتفي الحاجة إلى رسالة جديدة كما هو الحال بعد خاتم الأنبياء.. بعبارة أخرى، حين تكون مرحلة استلام الوحي الإلهي وتبليغ جميع الأحكام قد انتهت وبقيت المرحلة التنفيذية، فإن خليفة النّبي يستطيع أن يواصل الخط التنفيذي، ولا حاجة لأن يكون هذا الخليفة نبيا أو رسولا.

١٠. ورد اسم إبراهيم عليه السّلام في ٦٩ موضعا من القرآن الكريم، تحدثت عنه آيات تتوزع بين خمس وعشرين سورة، والقرآن يثني كثيرا على هذا النّبي الكريم ويذكره بصفات جليلة عظيمة.. إنه قدوة وأسوة في كل المجالات، ونموذج للإنسان الكامل.. مكانته في سلّم معرفة الله.. ومنطقه الصريح أمام عبدة الأوثان.. ونضاله المرير ضد الجبابرة.. وتضحياته على طريق الله، وصموده الغريب أمام عواصف الحوادث والاختبارات الصعبة.. كل واحدة من هذه الصفات تشكل النموذج الأعلى للسائرين على طريق التوحيد.

١١. إبراهيم كما يصفه القرآن من ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، ومن الصالحين، ومن القانتين، ومن الصديقين، و﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، و﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، ذو سخاء عظيم وشجاعة منقطعة النظير.

٥٣. البيت والمقام والطهارة

نتناول في هذا الفصل ما ذكره المفسّرون ـ بحسب التسلسل التاريخي، والمدارس الإسلامية المختلفة ـ حول تفسير المقطع [٥٣] من سورة البقرة، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، مع العلم أنّا نقلنا المباحث التي لا علاقة لها ـ كبرى أو مباشرة ـ بالتفسير التحليلي إلى محالّها من كتب السلسلة.

أبيّ:

روي عن أبيّ بن كعب (ت ٢٢ هـ) أنّه قال: المقام جاء به ملك، فوضعه تحت قدم إبراهيم[١].

كعب:

روي عن كعب الأحبار (ت ٣٢ هـ) أنّه قال: كان البيت غثاء على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بأربعين سنة، ومنه دحيت الأرض[٢].

علي:

ذكر الإمام علي (ت ٤٠ هـ) أنّه قال: أقبل إبراهيم والملك والسكينة والصرد دليلا حتى تبوأ البيت كما تبوأت العنكبوت بيتها، فحفر ما برز عن أسها أمثال خلف الإبل، لا يحرك الصخرة إلا ثلاثون رجلا، ثم قال الله لإبراهيم: قم، فابن لي بيتا، قال يا رب، وأين؟ قال سنريك، فبعث الله سحابة فيها رأس يكلم إبراهيم، فقال: يا إبراهيم، إن ربك يأمرك أن تخط قدر هذه السحابة، فجعل ينظر إليها، ويأخذ قدرها، فقال له الرأس: أقد فعلت؟ قال نعم، قال فارتفعت السحابة، فأبرز عن أس ثابت من الأرض، فبناه إبراهيم عليه السلام[٣].

عائشة:

---

(١) يحيى بن سلام ـ كما في تفسير ابن أبي زمنين: ١/ ١٧٧.

(٢) الأزرقي في تاريخ مكة: ١/ ٣.

(٣) الأزرقي في فضائل مكة: ١/ ٢٧.

روي عن عائشة (ت ٥٧ هـ) أنّها قالت: المقام كان في زمن رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ملتصقا بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب[١].

أبو هريرة:

روي عن أبو هريرة (ت ٥٧ هـ) أنّه قال: إن الكعبة خلقت قبل الأرض بألفي سنة، وهي قرار الأرض، قال إنما كانت خشفة أو حشفة على الماء، عليها ملكان من الملائكة يسبحان الليل والنهار ألفي سنة، فلما أراد الله أن يخلق الأرض دحاها منها، فجعلها في وسط الأرض[٢].

الخراساني:

روي عن عطاء الخراساني (ت ٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: سأل عمر بن الخطاب كعبا، فقال: أخبرني عن هذا البيت، ما كان أمره؟ فقال: إن هذا البيت أنزله الله من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم، فقال: يا آدم، إن هذا بيتي؛ فطف حوله وصل حوله كما رأيت ملائكتي تطوف حول عرشي وتصلي، ونزلت معه الملائكة، فرفعوا قواعده من حجارة، ثم وضع البيت على القواعد، فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الله إلى السماء، وبقيت قواعده[٣].

٢. روي أنّه قال: طهراه من الأوثان، والريب، وقول الزور[٤].

ابن عباس:

روي عن ابن عباس (ت ٦٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ يثوبون إليه، ثم يرجعون[٥].

٢. روي أنه قال: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ لا يقضون منه وطرا؛ يأتونه، ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه[٦].

---

(١) الدرّ المنثور: البيهقي في سننه.

(٢) ابن المنذر: ١/ ٢٩٤.

(٣) الأزرقي: ١/ ١٠.

(٤) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٧٢.

(٥) ابن جرير: ٢/ ٥١٥.

(٦) ابن جرير: ٢/ ٥١٥.

٣. روي أنه قال: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ معاذا وملجأ[١].

٤. روي أنه قال: ﴿وَأَمْنًا﴾، أي: قال أمنا للناس[٢].

٥. روي أنه قال: مقام إبراهيم: الحرم كله[٣].

٦. روي أنه قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ مقامه عرفة[٤].

٧. روي أنه قال: جعل إبراهيم يبنيه، وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فلما ارتفع البنيان، وضعف الشيخ عن رفع الحجارة؛ قام على حجر، فهو مقام إبراهيم[٥].

٨. روي أنه قال: فمن أحدث حدثا خارج الحرم، ثم التجأ إلى الحرم؛ أمن من أن يهاج فيه، ولكن لا يؤوى، ولا يخالط، ولا يبايع، ويوكل به، فإذا خرج منه أقيم عليه الحد، ومن أحدث في الحرم أقيم عليه الحد فيه[٦].

٩. روي أنه قال: كان البيت من ياقوتة حمراء، ويقولون: من زمردة خضراء[٧].

١٠. روي أنه قال: كان البيت على أربعة أركان في الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، فدحيت الأرض من تحته[٨].

١١. روي أنه قال: وضع البيت على أركان الماء، على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفي عام، ثم دحيت الأرض من تحت البيت[٩].

---

(١) تفسير البغوي: ١/١٤٦.
(٢) ابن جرير: ٢/٥٢٢.
(٣) ابن أبي حاتم: ١/٢٢٦.
(٤) ابن جرير: ٢/٥٢٦.
(٥) ابن جرير: ٢/٥٢٧.
(٦) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٧٠.
(٧) ابن أبي حاتم: ٢/ ٢٢٥.
(٨) الدرّ المنثور: عبد بن حميد.
(٩) ابن جرير: ٢/٥٥٣.

١٢. روي أنه قال: لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بعث الله تعالى ريحا هفافة، فصفقت الريح الماء، فأبرزت عن خشفة في موضع البيت كأنها قبة، فدحا الله تعالى الأرض من تحتها، فمادت ثم مادت، فأوتدها الله بالجبال، فكان أول جبل وضع فيه أبو قبيس؛ فلذلك سميت: أم القرى[1].

١٣. روي أنه قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة كان رأسه في السماء، ورجلاه في الأرض، وهو مثل الفلك من رعدته، فطأطأ الله منه إلى ستين ذراعا، فقال: يا رب، مالي لا أسمع أصوات الملائكة، ولا حسهم؟ قال خطيئتك، يا آدم، ولكن اذهب فابن لي بيتا، فطف به، واذكرني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، فأقبل آدم يتخطى، فطويت له الأرض، وقبض الله له المفاوز، فصارت كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض الله ما كان فيها من مخاض أو بحر، فجعله له خطوة، ولم يقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة، حتى انتهى إلى مكة، فبنى البيت الحرام، وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض، فأبرز عن أس ثابت على الأرض السابعة، فقذفت فيه الملائكة الصخر، ما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا، وإنه بناه من خمسة أجبل؛ من لبنان، وطور زيتا، وطور سينا، والجودي، وحراء، حتى استوى على وجه الأرض، فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف آدم عليه السلام، حتى بعث الله الطوفان، وكان غضبا ورجسا، فحيثما انتهى الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام، ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند، فدرس موضع البيت في الطوفان، حتى بعث الله إبراهيم وإسماعيل?، فرفعا قواعده وأعلامه، ثم بنته قريش بعد ذلك، وهو بحذاء البيت المعمور، لو سقط ما سقط إلا عليه[2].

١٤. روي أنه قال: إنما بني البيت من خمسة أجبل: طور سيناء، وطور زيتا، ولبنان وهو جبل بالشام، والجودي وهو جبل بالجزيرة، وبنيا قواعده من حراء وهو جبل بمكة، فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل: ائتني بحجر حسن يكون للناس علما، فأتاه بحجر، فقال: ائتني بأحسن من هذا، فمضى إسماعيل يطلبه، فصاح أبو قبيس: يا إبراهيم، إن لك عندي وديعة فخذها، فأخذ الحجر

(١) الدرّ المنثور: الأزرقي.

(٢) الأزرقي في فضائل مكة: ١/ ٦.

الأسود، فوضعه مكانه[1].

١٥. روي أنه قال: كان المقام في أصل الكعبة، فقام عليه إبراهيم، فتفرجت عنه هذه الجبال؛ أبو قبيس وضواحيه إلى ما بينه وبين عرفات، فأري مناسكه حتى انتهى إليه، فقيل: عرفت؟ قال نعم، فسميت: عرفات[2].

١٦. روي أنه قال: ﴿وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَّ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾، قال سمي يعقوب بذلك لأنه والعيص كانا توأمين، فتقدم عيص في الخروج من بطن أمه، وخرج يعقوب على أثره آخذا بعقبه[3].

١٧. روي أنه قال: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ من الأوثان[4].

١٨. روي أنه قال: الطائفون: الذين يطوفون بالبيت[5].

١٩. روي أنه قال: إذا كان جالسا فهو من العاكفين[6].

٢٠. روي أنه قال: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ العاكفون: المصلون[7].

٢١. روي أنه قال: إذا كان قائما فهو من الطائفين[8].

ابن العاص:

روي عن ابن عمرو بن العاص (ت ٧٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة، وكان ـ إذ كان عرشه على الماء ـ زبدة

---

(١) تفسير البغوي: ١/ ١٥٠.

(٢) الدرّ المنثور: ابن المنذر.

(٣) تفسير الثعلبي: ١/ ٢٨٠.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٧.

(٥) تفسير ابن أبي زمنين: ١/ ١٧٧.

(٦) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٨.

(٧) ابن جرير: ٢/ ٥٣٦.

(٨) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٨.

بيضاء، وكانت الأرض تحته كأنها حشفة، فدحيت الأرض من تحته[(١)].

٢. روي أنه قال: لما أهبط الله آدم من الجنة قال إني مهبط معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي، فلما كان زمن الطوفان رفعه الله إليه، فكانت الأنبياء يحجونه ولا يعلمون مكانه، حتى بوأه الله بعد لإبراهيم وأعلمه مكانه، فبناه من خمسة أجبل: حراء، ولبنان، وثبير، وجبل الطور، وجبل الخمر؛ وهو جبل ببيت المقدس[(٢)].

الطائفي:

روي عن محمد بن مسلم الطائفي (ت ٧٩ هـ) أنّه قال: بلغني: أنه لما دعا إبراهيم للحرم: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾؛ نقل الله الطائف من فلسطين[(٣)].

أبو العالية:

روي عن أبي العالية الرّياحيّ (ت ٩٣ هـ) أنّه قال: ﴿وَأَمْنًا﴾ أمنا من العدو أن يحمل فيه السلاح، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون[(٤)].

عروة:

روي عن عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ) أنّه قال: بلغني: أن البيت وضع لآدم عليه السلام يطوف به، ويعبد الله عنده، وأن نوحا قد حجه وجاءه وعظمه قبل الغرق، فلما أصاب الأرض من الغرق حين أهلك الله قوم نوح أصاب البيت ما أصاب الأرض من الغرق، فكان ربوة حمراء معروف مكانها، فبعث الله هودا إلى عاد، فتشاغل بأمر قومه حتى هلك، ولم يحجه، ثم بعث الله صالحا إلى ثمود، فتشاغل حتى هلك، ولم يحجه، ثم بوأه الله لإبراهيم عليه السلام، فحجه، وعلم مناسكه، ودعا إلى زيارته، ثم لم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم إلا حجه[(٥)].

---

(١) ابن جرير: ٥/ ٥٩١.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٥٥٠.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٥٤٤.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٥.

(٥) الأزرقي في فضائل مكة: ١/ ٣٨.

ابن جبير:

روي عن سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ يحجون، ثم يعودون[(١)].

٢. روي أنه قال: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ مجمعا للناس[(٢)].

٣. روي أنه قال: الحجر مقام إبراهيم، لينه الله فجعله رحمة، وكان يقوم عليه، ويناوله إسماعيل الحجارة[(٣)].

٤. روي أنه قال: سلوني، يا معشر الشباب، فإني قد أوشكت أن أذهب من بين أظهركم، فأكثر الناس مسألته، فقال له رجل: أصلحك الله، أرأيت المقام؟ أهو كما نتحدث؟ قال وماذا كنت تتحدث؟ قال كنا نقول: إن إبراهيم حين جاء عرضت عليه امرأة إسماعيل النزول، فأبى أن ينزل، فجاءت بهذا الحجر، فقال: ليس كذلك، فقال سعيد بن جبير: قال ابن عباس أنّه قال: إن أول ما اتخذ النساء المناطق من قبل أم إسماعيل، [اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة؟]، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال نعم، قالت: إذا لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه؛ استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه، قال ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال يتلبط ـ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها،

---

(١) ابن أبي شيبة في مصنفه: ٨/ ٧٨٩.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٤.

(٣) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٦.

فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس أنّه قال: قال النبي ﷺ: (فلذلك سعى الناس بينهما)، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا، فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت، فسمعت أيضا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهي تفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس أنّه قال: قال النبي ﷺ: (يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم ـ أو قال لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينا معينا)، فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة؛ فإن ههنا بيتا لله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء! فأرسلوا جريا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا، فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس أنّه قال: قال النبي ﷺ: (فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس)، فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل زوجته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه، قال إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له: يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل؛ كأنه آنس شيئا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك، قال ذاك أبي، وأمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد ذلك، فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت:

خرج يبتغي لنا، قال كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال فما شرابكم؟ فقالت: الماء، فقال: اللهم، بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: (ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه)، قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة ـ وأثنت عليه ـ، فسألني عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا بخير، قال أما أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال ذاك أبي، وأنت العتبة، وأمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد، ثم قال يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال فاصنع ما أمرك، قال وتعينني؟ قال وأعينك، قال فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، قال معمر: وسمعت رجلا يقول: كان إبراهيم يأتيهم على البراق، قال معمر: وسمعت رجلا يذكر: أنهما حين التقيا بكيا حتى أجابتهما الطير(١).

٥. روي أنه قال: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ بـ (لا إله إلا الله) من الشرك(٢).

٦. روي أنه قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ من أتاه من غربة(٣).

٧. روي أنه قال: ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ أهل البلد(٤).

مجاهد:

روي عن مجاهد (ت ١٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

---

(١) البخاري: ٤/ ١٤٢.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٨.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٥٣٤.

(٤) ابن جرير: ٢/ ٥٣٥.

١. روي أنه قال: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ يثوبون إليه، لا يقضون منه وطرا أبدا، يحجون ثم يعودون[1].

٢. روي أنه قال: ﴿وَأَمْنًا﴾ تحريمه، لا يخاف من دخله[2].

٣. روي أنه قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ مدعى[3].

٤. روي أنه قال: وجد عند المقام كتاب فيه: إن الله ذو بكة، صنعتها يوم خلقت الشمس والقمر، وحرمتها يوم خلقت السماوات والأرض، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، مبارك لها في اللحم والماء[4].

٥. روي أنه قال: خلق الله موضع البيت الحرام من قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفي سنة، وأركانه في الأرض السابعة[5].

٦. روي أنه قال: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ العاكفون: المجاورون[6].

البصري:

روي عن الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: كان ذلك في الجاهلية؛ كان الرجل إذا جر جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب، ولم يتناول، فأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من حد يجب عليه[7].

٢. روي أنه قال: ما أعلم بلدا يصلى فيها حيث أمر الله تعالى نبيه ﷺ إلا بمكة، قال الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ويقال: يستجاب الدعاء بمكة في خمسة عشر موضعا: عند الملتزم، وتحت الميزاب، وعند الركن اليماني، وعلى الصفا، وعلى المروة، وبين الصفا والمروة، وبين الركن والمقام، وفي جوف الكعبة،

---

(١) تفسير مجاهد: ص٢١٤.

(٢) تفسير مجاهد: ص٢١٤.

(٣) سعيد بن منصور: ٢١٤.

(٤) تفسير البغوي: ١/ ١٤٩.

(٥) عبد الرزاق: ٩٠٩٧.

(٦) ابن جرير: ٢/ ٥٣٥.

(٧) تفسير ابن أبي زمنين: ١/ ١٧٦.

وبمنى، وبجمع، وبعرفات، وعند الجمرات الثلاث[1].

العوفي:

روي عن عطية العوفي (ت ١١٢ هـ) أنّه قال: ﴿وَأَمْنًا﴾، لا يؤخذ فيه صاحب حد حتى يخرج[2].

الباقر:

روي عن الإمام الباقر (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: ما أعظم فرية أهل الشام على الله، يزعمون أن الله تبارك وتعالى حيث صعد إلى السماء وضع قدمه على صخرة بيت المقدس، ولقد وضع عبد من عباد الله قدمه على حجر، فأمرنا الله تبارك وتعالى أن نتخذه مصلى.. إن الله تبارك وتعالى لا نظير له ولا شبيه، تعالى الله عن صفة الواصفين، وجل عن أوهام المتوهمين، واحتجب عن عين الناظرين، لا يزول مع الزائلين، ولا يأفل مع الآفلين، ليس كمثله شيء، وهو السميع العليم)[3].

منبه:

روي عن وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ) أنّه قال: لما تاب الله على آدم أمره أن يسير إلى مكة، فطوى له المفاوز والأرض، فصار كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان فيها من مخاض أو بحر، فجعله له خطوة، فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة حتى انتهى إلى مكة، وكان قبل ذلك قد اشتد بكاؤه وحزنه لما كان به من عظم المصيبة، حتى إن كانت الملائكة لتبكي لبكائه، وتحزن لحزنه، فعزاه الله بخيمة من خيام الجنة، وضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة، فيها ثلاثة قناديل من ذهب، فيها نور يلتهب من نور الجنة، ونزل معها يومئذ الركن، وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة، وكان كرسيا لآدم يجلس عليه، فلما صار آدم بمكة حرسه الله، وحرس له تلك الخيمة بالملائكة، كانوا يحرسونها، ويذودون عنها سكان الأرض، وساكنها يومئذ الجن والشياطين، ولا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة؛ لأنه من نظر إلى شيء من الجنة وجبت له، والأرض يومئذ طاهرة نقية طيبة لم تنجس، ولم يسفك فيها الدم، ولم يعمل فيها بالخطايا، فلذلك جعلها

---

(١) الدرّ المنثور: الأزرقي.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٥.

(٣) تفسير العيّاشي: ١/ ٥٩.

الله مسكن الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وكان وقوفهم على أعلام الحرم صفا واحدا مستديرين بالحرم كله، الحل من خلفهم، والحرم كله من أمامهم، ولا يجوزهم جني ولا شيطان، ومن أجل مقام الملائكة حرم الحرم حتى اليوم، ووضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة، وحرم الله على حواء دخول الحرم والنظر إلى خيمة آدم من أجل خطيئتها التي أخطأت في الجنة، فلم تنظر إلى شيء من ذلك حتى قبضت، وإن آدم إذا أراد لقاءها ليلة ليلم بها للولد خرج من الحرم كله حتى يلقاها، فلم تزل خيمة آدم مكانها حتى قبض الله آدم، ورفعها إليه، وبنى بنو آدم من بعدها مكانها بيتا بالطين والحجارة، فلم يزل معمورا يعمرونه ومن بعدهم، حتى كان زمن نوح، فنسفه الغرق، وخفي مكانه، فلما بعث الله إبراهيم خليله طلب الأساس الأول الذي وضع بنو آدم في موضع الخيمة، فلم يزل يحفر حتى وصل إلى القواعد التي وضع بنو آدم في موضع الخيمة، فلما وصل إليها ظلل الله له مكان البيت بغمامة، فكانت حفاف البيت الأول، ثم لم تزل راكدة على حفافه تظل إبراهيم، وتهديه مكان القواعد، حتى رفع القواعد قامة، ثم انكشفت الغمامة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] للغمامة التي ركدت على الحفاف لتهديه مكان القواعد، فلم يزل يحمد الله مذ رفعه الله معمورا، قال وهب بن منبه: وقرأت في كتاب من كتب الأول ذكر فيه أمر الكعبة، فوجد فيه: أن ليس من ملك بعثه الله إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت، فينقض من عند العرش محرما ملبيا حتى يستلم الحجر، ثم يطوف سبعا بالبيت، ويصلي في جوفه ركعتين، ثم يصعد(١).

عطاء:

روي عن عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنّه قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ لأني قد جعلته إماما، فمقامه عرفة، والمزدلفة، والجمار(٢).

٢. روي أنّه قال: الحج كله مقام إبراهيم(٣).

---

(١) الأزرقي في فضائل مكة: ١/ ٧.

(٢) تفسير مجاهد: ص٢١٤.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٥٢٥.

٣. روي أنّه قال: قال آدم: أي رب، ما لي لا أسمع أصوات الملائكة؟ قال لخطيئتك، ولكن اهبط إلى الأرض، فابن لي بيتا، ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتي الذي في السماء، فزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل؛ من حراء، ولبنان، وطور زيتا، وطور سينا، والجودي، فكان هذا بناء آدم حتى بناه إبراهيم بعده(١).

٤. روي أنّه قال: وجدوا بمكة حجرا مكتوبا فيه: إني أنا الله ذو بكة، بنيته يوم صغت الشمس والقمر، وحففته بسبعة أملاك حنفاء(٢).

٥. روي أنّه قال: لما بنى ابن الزبير الكعبة أمر العمال أن يبلغوا في الأرض، فبلغوا صخرا أمثال الإبل الخلف، قال زيدوا، فاحفروا، فلما زادوا بلغوا هواء من نار يلقاهم، فقال: ما لكم؟ قالوا: لسنا نستطيع أن نزيد؛ رأينا أمرا عظيما، فقال لهم: ابنوا عليه، قال عطاء: يرون أن ذلك الصخر مما بنى آدم عليه السلام(٣).

٦. روي أنّه قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ إذا كان طائفا بالبيت فهو من الطائفين(٤).

٧. روي أنّه قال: إذا كان جالسا فهو من العاكفين(٥).

٨. روي أنّه قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ إذا كان يصلي فهو من الركع السجود(٦).

قتادة:

روي عن قتادة بن دعامة (ت ١١٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئا ما تكلفته الأمم قبلها، وقد ذكر لنا بعض من رأى أثر عقبه وأصابعه،

---

(١) عبد الرزاق: ٩٠٩٢.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٥٥٣.

(٣) الأزرقي في فضائل مكة: ١/ ١١.

(٤) ابن جرير: ٢/ ٥٣٤.

(٥) ابن جرير: ٢/ ٥٣٥.

(٦) ابن جرير: ٢/ ٥٣٧.

فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخلولق وانمحى[1].

٢. روي أنّه قال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾، قال ذكر لنا: أنه بناه من خمسة أجبل: من طور سينا، وطور زيتا، ولبنان، والجودي، وحراء، وذكر لنا: أن قواعده من حراء[2].

٣. روي أنّه قال: ذكر لنا: أن الحرم حرم بحياله إلى العرش، وذكر لنا: أن البيت هبط مع آدم حين هبط، قال الله له: أهبط معك بيتي، يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين، حتى إذا كان زمان الطوفان ـ حين أغرق الله قوم نوح ـ رفعه وطهره، فلم تصبه عقوبة أهل الأرض، فتتبع منه إبراهيم أثرا، فبناه على أساس قديم كان قبله[3].

٤. روي أنّه قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ الطائفون: من يعتنقه[4].

٥. روي أنّه قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ هم أهل الصلاة[5].

زيد:

روي عن الإمام زيد (ت ١٢٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾: معناه يحجون إليه.. ويثوبون إليه: معناه يعودون إليه ولا يقضون فيه وطرا،[6].

٢. روي أنه قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فالمقام بفتح الميم: الذي يقام فيه.. والمقام بضم الميم: الإقامة بالمكان.. والمصلّى: المدعى.. ويقال: المصلى: عرفة وجمع ومنى.. ويقال: الحج: كلّ مقام إبراهيم،[7].

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٥٢٧.

(٢) الأزرقي في فضائل مكة: ١/ ٣٠.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٥٣٨.

(٤) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٨.

(٥) ابن جرير: ٢/ ٥٣٧.

(٦) تفسير الإمام زيد، ص ٨٩.

(٧) تفسير الإمام زيد، ص ٩٠.

٣. روي أنه قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فالعاكفون: المجاورون،[١].

الزهري:

روي عن ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) أنّه قال: إن الله نقل قرية من قرى الشام، فوضعها بالطائف؛ لدعوة إبراهيم عليه السلام[٢].

السّدّيّ:

روي عن إسماعيل السّدّيّ (ت ١٢٧ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ أما المثابة: فهو الذي يثوبون إليه كل سنة، لا يدعه الإنسان إذا أتاه مرة أن يعود إليه[٣].

٢. روي أنه قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وهو الصلاة عند مقامه في الحج[٤].

٣. روي أنه قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وهو الصلاة عند مقامه في الحج، والمقام هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل وضعت تحت قدم إبراهيم حين غسلت رأسه، فوضع إبراهيم رجله عليه وهو راكب، فغسلت شقه، ثم رفعته من تحته وقد غابت رجله في الحجر، فوضعته تحت الشق الآخر، فغسلته، فغابت رجله أيضا فيه، فجعلها الله من شعائره، فقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[٥].

٤. روي أنه قال: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾، قال فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة، فقام هو وإسماعيل، وأخذا المعاول، لا يدريان أين البيت، فبعث الله ريحا يقال لها: ريح الخجوج، لها جناحان ورأس في صورة حية، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعاها بالمعاول يحفران، حتى وضعا الأساس، فذلك حين يقول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني، اطلب لي حجرا حسنا أضعه ههنا،

---

(١) تفسير الإمام زيد، ص ٩٠.

(٢) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٣٠.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٥١٨.

(٤) ابن جرير: ٢/ ٥٢٨.

(٥) ابن جرير: ٢/ ٥٢٨.

قال يا أبت، إني كسلان تعب، قال علي بذلك، فانطلق، فطلب له حجرا، فجاءه بحجر فلم يرضه، فقال: ائتني بحجر أحسن من هذا، فانطلق يطلب له حجرا، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض، ياقوتة بيضاء مثل الثغامة، [فقال]: يا أبت، من جاءك بهذا؟ فقال: من جاء به هو أنشط منك! فبنياه[(١)].

٥. روي أنه قال: لما بنيا القواعد فبلغ مكان الركن قال إبراهيم لإسماعيل: اطلب لي حجرا حسنا أضعه ههنا، قال يا أبت، إني كسلان لغب، قال علي بذلك، فانطلق يطلب له حجرا، فأتاه بحجر، فلم يرضه، فقال: ائتني بحجر أحسن من هذا، فانطلق يطلب له حجرا، فجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة، وكان آدم هبط به من الجنة، فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر، فوجد عنده الركن، فقال: يا أبت، من جاءك بهذا؟ قال جاءني به من هو أنشط منك، فبنيا، وهما يدعوان بالكلمات التي ابتلى بها إبراهيم ربه، فقال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فلما فرغا من البنيان أمره الله أن ينادي، فقال: أذن في الناس بالحج[(٢)].

الكلبي:

روي عن محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: وأما ﴿آمَنًا﴾ فإن الله تعالى جعله آمنا؛ من دخله كان آمنا، ومن أحدث حدثا في بلد غيره ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله، ولكن أهل مكة لا ينبغي لهم أن يكنوه، ولا يؤووه، ولا يبايعوه، ولا يطعموه، ولا يسقوه، فإذا خرج أقيم عليه الحد، ومن أحدث فيه حدثا أخذ بحدثه[(٣)].

٢. روي أنه قال: بعث الله سحابة بقدر البيت، فقامت بحيال البيت، وفيها رأس يتكلم: يا إبراهيم، ابن على قدري، فبنى عليه[(٤)].

٣. روي أنه قال: ولد لإبراهيم إسماعيل، وهو أكبر ولده، وأمه هاجر، وهي قبطية، وإسحاق وأمه

---

(١) ابن جرير: ٢/ ٥٥٨.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٥٥٧.

(٣) الأزرقي في أخبار مكة: ١/ ٣٩٦.

(٤) تفسير البغوي: ٥/ ٣٧٨.

سارة، ومدن، ومدين، ويقشان، وزمران، وأشبق، وشوخ، وأمهم قنطوراء من العرب العاربة؛ فأما يقشان فلحق بنوه بمكة، وأقام مدين بأرض مدين فسميت به، ومضى سائرهم في البلاد، وقالوا لإبراهيم: يا أبانا، أنزلت إسماعيل وإسحاق معك، وأمرتنا أن ننزل أرض الغربة والوحشة! قال بذلك أمرت، فعلمهم اسما من أسماء الله، فكانوا يستسقون به ويستنصرون[(١)].

٤. روي أنه قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ هم الغرباء[(٢)].

الصادق:

روي عن الإمام الصادق (ت ١٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: استأذن رسول الله ﷺ الله عزّ وجّل في مكة ثلاث مرات من الدهر فأذن له فيها ساعة من النهار، ثم جعلها حراما ما دامت السماوات والأرض[(٣)].

٢. روي أنه قال: ليس لأحد أن يصلي ركعتي طواف الفريضة إلا خلف المقام، لقول الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ إن صليتها في غيره فعليك إعادة الصلاة)[(٤)].

٣. روي أنه قال: إن تهيأ لك أن تصلي صلاتك كلها الفرائض وغيرها عند الحطيم فافعل، فإنه أفضل بقعة على وجه الأرض، والحطيم ما بين باب البيت والحجر الأسود، وهو الموضع الذي تاب الله فيه على آدم وبعده الصلاة في الحجر أفضل وبعد الحجر ما بين الركن الشامي وباب البيت وهو الذي كان فيه المقام، وبعده خلف المقام حيث هو الساعة وما قرب من البيت فهو أفضل[(٥)].

٤. روي أنه قال: إن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فينبغي للعبد أن لا يدخل مكة إلا وهو طاهر، قد غسل عرقه والأذى وتطهر)[(٦)].

٥. روي أنه سئل: أتغتسل النساء إذا أتين البيت؟ فقال: نعم، إن الله تعالى يقول: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ

---

(١) ابن سعد: ١/ ٤٧.

(٢) تفسير البغوي: ١/ ١٤٨.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ١٥٩/ ٦٨٨.

(٤) الكافي: ٤/ ٤٢٥.

(٥) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ١٣٥/ ٥٧٩.

(٦) الكافي: ٤/ ٤٠٠.

لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وينبغي للعبد أن لا يدخل إلا وهو طاهر، قد غسل عنه العرق والأذى وتطهر)[1].

ابن جريج:

روي عن ابن جريج (ت ١٥٠ هـ) أنّه قال:: سألت عطاء عن ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فقال: سمعت ابن عباس أنّه قال: أما مقام إبراهيم الذي ذكر ههنا فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد، ثم فسر لي عطاء، فقال: التعريف، وصلاتان بعرفة، والمشعر، ومنى، ورمي الجمار، والطواف بين الصفا والمروة، فقلت: فسره ابن عباس؟ قال لا، ولكن قال مقام إبراهيم الحج كله، قلت: أسمعت ذلك لهذا أجمع؟ قال نعم، سمعت منه[2].

مقاتل:

روي عن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال:: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، يعني: أساس البيت الحرام الذي كان رفع ليالي الطوفان على عهد نوح، فبناه إبراهيم وإسماعيل على ذلك الأصل، وأعانهم الله تعالى بسبعة أملاك على البناء: ملك إبراهيم، وملك إسماعيل، وملك هاجر، والملك الموكل بالبيت، وملك الشمس، وملك القمر، وملك آخر[3].

٢. روي أنه قال: ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ يعني: بالإخلاص ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ الأربعة: إسماعيل، وإسحاق، ومدين، ومداين[4].

٣. روي أنه قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ بالبيت من غير أهل مكة[5].

ابن إسحاق:

---

(١) التهذيب: ٥/ ٢٥١.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٥٢٥.

(٣) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٨.

(٤) تفسير مقاتل: ١/ ١٤٠.

(٥) تفسير مقاتل: ١/ ١٣٨.

روي عن محمد بن إسحاق (ت ١٥١ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: حدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، وغيره من أهل العلم: أن الله لما بوأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام، وخرج معه بإسماعيل وأمه هاجر، وإسماعيل طفل صغير يرضع، وحملوا ـ فيما حدثني ـ على البراق، ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم، فخرج وخرج معه جبريل، فقال: كان لا يمر بقرية إلا قال أبهذه أمرت، يا جبريل؟ فيقول جبريل: امضه! حتى قدم به مكة، وهي إذ ذاك عضاه سلم وسمر، وبها أناس يقال لهم: العماليق، خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة، فقال إبراهيم لجبريل: أههنا أمرت أن أضعهما؟ قال نعم، فعمد بهما إلى موضع الحجر، فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشا، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧][١].

٢. روي أنه قال: يزعمون ـ والله أعلم ـ أن ملكا من الملائكة أتى هاجر أم إسماعيل ـ حين أنزلهما إبراهيم مكة، قبل أن يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت ـ، فأشار لها إلى البيت وهو ربوة حمراء مدرة، فقال لها: هذا أول بيت وضع للناس، وهو بيت الله العتيق، واعلمي أن إبراهيم وإسماعيل هما يرفعانه، فالله أعلم[٢].

٣. روي أنه قال: لما أمر إبراهيم خليل الله تعالى أن يبني البيت الحرام أقبل من أرمينية على البراق، معه السكينة، لها وجه يتكلم، وهي بعد ريح هفافة، ومعه ملك يدله على موضع البيت، حتى انتهى إلى مكة، وبها إسماعيل، وهو يومئذ ابن عشرين سنة، وقد توفيت أمه قبل ذلك، ودفنت في موضع الحجر، فقال: يا إسماعيل، إن الله تعالى قد أمرني أن أبني له بيتا، فقال له إسماعيل: وأين موضعه؟ قال فأشار له الملك إلى موضع البيت، قال فقاما يحفران عن القواعد، ليس معهما غيرهما، فبلغ إبراهيم الأساس؛ أساس آدم الأول، فحفر عن ربض في البيت، فوجد حجارة عظاما، ما يطيق الحجر منها ثلاثون رجلا، ثم بنى على أساس آدم الأول، وتطوقت السكينة كأنها حية على الأساس الأول، وقالت: يا إبراهيم، ابن علي، فبنى عليها، فلذلك لا يطوف بالبيت أعرابي نافر ولا جبار إلا رأيت عليه السكينة، فبنى البيت، وجعل

(١) ابن جرير: ٢/ ٥٥٤.

(٢) ابن جرير: ٢/ ٥٥٤.

طوله في السماء تسعة أذرع، وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعا، من الركن الأسود إلى الركن الشامي الذي عند الحجر من وجهه، وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي فيه الحجر اثنين وعشرين ذراعا، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني أحدا وثلاثين ذراعا، وجعل عرض شقها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعا، قال فلذلك سميت: الكعبة؛ لأنها على خلقة الكعب، قال وكذلك بنيان أساس آدم، وجعل بابها بالأرض غير مبوب، حتى كان تبع بن أسعد الحميري، وهو الذي جعل لها غلقا فارسيا، وكساها كسوة تامة، ونحر عندها، وجعل إبراهيم عليه السلام الحجر إلى جنب البيت عريشا من أراك، تقتحمه العنز، فكان زربا لغنم إسماعيل، وحفر إبراهيم جبا في بطن البيت على يمين من دخله، يكون خزانة للبيت، يلقى فيه ما يهدى للكعبة، وكان الله استودع الركن أبا قبيس حين أغرق الله الأرض زمن نوح، وقال: إذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له، فجاء به جبريل فوضعه في مكانه، وبنى عليه إبراهيم وهو حينئذ يتلألأ نورا من شدة بياضه، وكان نوره يضيء إلى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية، قال وإنما شدة سواده لأنه أصابه الحريق مرة بعد مرة في الجاهلية والإسلام[(١)].

مالك:

روي عن مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) أنّه قال: بلغني: أن الله ـ تبارك وتعالى ـ لما أن أراد أن يري إبراهيم موضع المناسك أوحى إلى الجبال أن تنحني له، فنيخت له، حتى أراه مواضع المناسك، فهو قول إبراهيم في كتاب الله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[(٢)].

ابن زيد:

روي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ) في تفسير هذا المقطع هذه الآثار:

١. روي أنه قال: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ أمرناه[(٣)].

٢. روي أنه قال: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ من الأصنام التي يعبدون، التي كان المشركون يعظمونها[(٤)].

---

(١) الأزرقي في فضائل مكة: ١/ ٣١.

(٢) المدونة للإمام مالك: ص٤٥٦.

(٣) ابن جرير: ٢/ ٥٣١.

(٤) ابن جرير: ٢/ ٥٣٢.

عيينة:

روي عن سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ) أنّه قال: كان المقام في سقع البيت على عهد النبي ﷺ، فحوله عمر إلى مكانه بعد النبي ﷺ، وبعد قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قال ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا، فرده عمر إليه، وقال سفيان: لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله، قال سفيان: لا أدري أكان لاصقا بها أم لا[١].

المرتضى:

ذكر الإمام المرتضى بن الهادي (ت ٣١٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢].

١. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، معنى اتخذوا، أي: جعلوا من مقام إبراهيم مصلى، ومقامه هو: في الصخرة بمكة عند البيت.

٢. تعني: أهل الجاهلية ومن كان بعد إبراهيم ـ عليه من الله الصلاة والترحيم ـ من ذريته، وغيرهم ممن كان يعظمه ويجله، فقال عز وجل: كيف اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى؛ لجلالته عندهم، وتزكيته لديهم، وعظمه في قلوبهم، ويتركون ما يدعون إليه من دينه وملته، ويعبدون الأصنام من بعد معرفتهم بملته وما جاء به، وقد أيقنوا غاية الإيقان: بأن إبراهيم لم يعبد صنما قط؛ بل كان ينكرها على قومه، بكسرها، وهو بريء من عبادتها؟ فلم خالفوه وهم له بنون وتابعون، إن كانوا كما قالوا يتباركون بمقامه ويأتمون؟ وإن كانوا جاهلين بذلك: فلم لا يطلبون دينه؟ فكل هذا من الله لهم إخزاء وتوقيف، ولإبراهيم إعظام وتشريف.

الماتريدي:

ذكر أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٣]:

١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾:

أ. قيل: المثابة، المجمع.

---

(١) ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٦.

(٢) الأنوار البهية المنتزع من كتب أئمة الزيدية: ١/ ٦٦.

(٣) تأويلات أهل السنة: ١/ ٥٥٧.

ب. وقيل: المثابة: المرجع، يثوبون: يرجعون.

ج. وقيل: يحجون.

٢. قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ هو فعل العباد؛ لأنهم يأمنون ويثوبون، أخبر أنه جعل ذلك؛ ففيه دلالة خلق أفعال العباد.

٣. ثم بين فيه - عزّ وجل - شدة اشتياق الناس إليها، وتمنيهم الحضور بها، مع احتمال الشدائد والمشقة، وتحمل المؤن، مع بعد المسافة والخطرات؛ فدل أن الله تعالى - بلطفه وكرمه - حبب ذلك إلى قلوب الخلق، وأنه جعل من آيات الربوبية والوحدانية، وتدبير سماوي، لا من تدبير البشرية.

٤. وفيه دلالة نبوة محمد ﷺ؛ إذ أخبر عما قد كان؛ فثبت أنه أخبر عن الله عزّ وجل.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾:

أ. قيل: لمن دخله من عذاب الآخرة.

ب. وقيل: ﴿وَأَمْنًا﴾ لكل مجترم آوى به، وآوى إليه من القتل، وغيره؛ كقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] عن كل ما ارتكب.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾:

أ. منهم من جعل الحرم كله مقامه - يصلى إليه - لمقامه هنالك بأولاده.

ب. ومنهم من جعل المسجد مقامه؛ لأنه كان مكان عبادته فهو المصلى.

ج. ومنهم من جعل ما ظهر من مقامه - وهو موضع ركوبه ونزوله - لما روى عن رسول الله ﷺ: أنه لما قدم مكة قام إلى الركن اليماني، فقال عمر: (يا رسول الله! ألا تتخذ مقام إبراهيم مصلى!؟) فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

د. عندنا: القبلة البيت؛ كقوله تعالى: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠, ١٤٤]، وقوله: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] أي مقاما لقيام العبادات.

٧. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ فيه الأمر ببنائه

٨. ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، يحتمل التطهير لوجهين:

أ. أحدهما: عن الأصنام والأوثان التي كانت هنالك، وعبادة غير الله والأنجاس.

ب. ويحتمل: التطهير عن كل أنواع الأقذار، وعن كل أنواع المكاسب، على ما روى في جملة المساجد.

٩. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾:

أ. قيل: الطائف: هو القادم؛ سمى طائفا لدخوله بطوافه.

ب. وقيل: الاستحباب الطواف؛ لذلك قال أصحابنا ـ رحمهم الله ـ الطواف للقادم أفضل من الصلاة، والصلاة للمقيم أفضل.

١٠. العاكف: المقيم.

١١. اختلف في قوله تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾:

أ. قيل: منهما جميعا.

ب. وقيل: العاكفون: المجاورون؛ يعنى: من أهل مكة والقادمين إليها.

العياني:

ذكر الإمام المهدي العياني (ت ٤٠٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، أي مصيراً لهم وأماناً، قال الشاعر:

إذا حل لم يُقْصِ المحلةَ بينه ... ولكنه الأدنى بحيث يثوب

أي بحيث يصير.

٢. وقد تكون المثابة هي الكعبة التي جعلت لثوابهم، ولصرف نقمتهم وعذابهم.

الديلمي:

ذكر الإمام الناصر الديلمي (ت ٤٤٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(٢):

١. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ يعني مجتمعاً يجتمع الناس فيه للحج والعمرة، ويجوز أن يكون بمعنى مرجعاً من قولهم قد ثابت إليه العلة أي رجعت.

٢. ﴿وَأَمْنًا﴾ فيه تأويلان:

---

(١) تفسير الإمام المهدي العياني: ٢/ ٢٧٨.

(٢) البرهان في تفسير القرآن للديلمي: ١/ ٨٣.

أ. أحدهما: لأمن سكانه من مغازي العرب كقوله: ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش]

ب. الثاني: لأمن الجناة فيه من إقامة الحدود عليهم حتى يخرجوا منه.

٣. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ أمر بالصلاة عند مقامه، وقرئ (واتخَذوا) بفتح الخاء على معنى الخبر، والمقام هو الحجر الذي فيه مقامه في المسجد الحرام، وفي قوله: مصلى، مدعى يدعى فيه ويجوز أن يكون مصلى يصلى عنده.

٤. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي أمرناهما ويحتمل أوحينا إليهما.

٥. ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات:

أ. أحدها: من الأصنام.

ب. الثاني: من الكفار.

ج. الثالث: من الأنجاس.

٦. سؤال وإشكال: إنه لم يكن على عهد إبراهيم قبل بناء البيت بيت يطهر، والجواب: فيه وجهان:

أ. أحدهما معناه وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن ابنيا بيتاً مطهراً.

ب. الثاني أن طهرا مكان البيت.

٧. الطائفون هم الذين يطوفون بالبيت، والعاكفون هم المعتكفون، ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي أهل الصلاة.

الماوردي:

ذكر أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ قولان:

أ. أحدهما: مجمعا لاجتماع الناس عليه في الحج والعمرة.

ب. الثاني: مرجعا من قولهم قد ثابت العلة إذا رجعت، وقال الشاعر:

مثابا لأفناء القبائل كلها ... تخب إليها اليعملات الذوامل

---

(١) تفسير الماوردي: ١/ ١٨٦.

٢. في رجوعهم إليه وجهان:

أ. أحدهما: أنهم يرجعون إليه المرة بعد المرة.

ب. الثاني: أنهم في كل واحد من نسكي الحج والعمرة يرجعون إليه من حل إلى حرم؛ لأن الجمع في كل واحد من النسكين بين الحل والحرم شرط مستحق.

٣. في قوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾ قولان:

أ. أحدهما: لأمنه في الجاهلية من مغازي العرب، لقوله: ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]

ب. الثاني: لأمن الجناة فيه من إقامة الحدود عليهم حتى يخرجوا منه.

٤. روى حماد، عن أنس بن مالك قال قال عمر بن الخطاب: قلت يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ بكسر الخاء من قوله واتخذوا على وجه الأمر، وقرأ بعض أهل المدينة: واتخذوا بفتح الخاء على وجه الخبر.

٥. اختلف أهل التفسير في هذا المقام، الذي أمروا باتخاذه مصلى، على أربعة أقاويل:

أ. أحدها: الحج كله، وهذا قول ابن عباس.

ب. الثاني: أنه عرفة ومزدلفة والجمار، وهو قول عطاء والشعبي.

ج. الثالث: أنه الحرم كله، وهو قول مجاهد.

د. الرابع: أنه الحجر الذي في المسجد، وهو مقامه المعروف، وهذا أصح.

٦. في قوله تعالى: ﴿مُصَلًّى﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: مدعى يدعي فيه، وهو قول مجاهد.

ب. الثاني: أنه مصلى يصلي عنده، وهو قول قتادة، وهو أظهر التأويلين.

٧. في قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أي أمرنا.

ب. الثاني: أي أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل.

في قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: من الأصنام.

ب. الثاني: من الكفار.

ج. الثالث: من الأنجاس.

٨. قوله تعالى: ﴿بَيْتِيَ﴾ يريد البيت الحرام.

٩. سؤال وإشكال: لم يكن على عهد إبراهيم، قبل بناء البيت بيت يطهر، والجواب: عن هذا جوابان:

أ. أحدهما: معناه وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن ابنيا بيتي مطهّرا، وهذا قول السدي:

ب. الثاني: معناه أن طهرا مكان البيت.

١٠. في قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ تأويلان:

أ. أحدهما: أنهم الغرباء الذين يأتون البيت من غربة، وهذا قول سعيد بن جبير.

ب. الثاني: أنهم الذين يطوفون بالبيت، وهذا قول عطاء.

١١. في قوله تعالى: ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ فيهم أربعة تأويلات:

أ. أحدها: أنهم أهل البلد الحرام، وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة.

ب. الثاني: أنهم المعتكفون وهذا قول مجاهد.

ج. الثالث: أنهم المصلون وهذا قول ابن عباس.

د. الرابع: أنهم المجاورون للبيت الحرام بغير طواف، وغير اعتكاف، ولا صلاة، وهذا قول عطاء.

١٢. ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يريد أهل الصلاة، لأنها تجمع ركوعا وسجودا.

الطوسي:

ذكر أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ عطف على قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ وذلك معطوف على قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾

٢. البيت الذي جعله مثابة هو البيت الحرام، والبيت في اللغة، والمنزل، والمأوى نظائر، يقال: بات

---

(١) تفسير الطوسي: ١/ ٤٥٠.

يبيت بيتوتة، وبيته مبايتة، وتبيت تبيتاً، وتبايتوا تبايتاً، والبيت من أبيات الشعر ومن بيوت الناس، والبيت من بيوتات العرب: احياؤها وباتوا بيتوتة حسنة، وأباتهم الله إباتة، وأباتهم الامر بياتاً كل ذلك دخول الليل، وليس من النوم في شيء وما عنده بيت ليلة، ولا بيتة ليلة بكسر الباء يعني القوت، والله يكتب ما يبيتون عمل الليل وبيت القوم إذا أوقعت فيهم ليلا، والمصدر البيت، والاسم: البيات، ومنه قوله: ﴿بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ ويسمى البيت من الشعر بيتاً لضمه الحروف والكلام كما يضم البيت أهله وامرأة الرجل: بيته، قال الراجز:

مالي إذا أخذتها صأيت أكبر غيرني أم بيت

وماء بيوت إذا بات ليلة في إنائه وأصل الباب البيت: المنزل.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً﴾:

أ. قال الحسن: يثيبون اليه كل عام، أي ليس هو مرة في الزمان فقط.

ب. وقال ابن عباس: معناه أنه لا ينصرف عنه احد، وهو يرى انه قد قضى منه وطراً، فهم يعودون اليه، وقال ابو جعفر عليه السلام: يرجعون اليه لا يقضون منه وطراً، وبه قال مجاهد، وحكى الخازئي اليه فيثابون عليه، وقال الجبائي يثوبون اليه: يصيرون اليه.

٤. الفرق بين مثابة ومثاب، ان الأخفش قال مثابة للمبالغة لما كثر من يثوب اليه، كما قيل علامة ونسابة وسيارة، وقال الفراء والزجاج: معناهما واحد، كالمقامة والمقام بمعنى واحد، ووزن مثابة مفعلة وأصلها مثوبة، من ثاب يثوب مثابة، ومثابا، وثوابا: إذا رجع فنقلت حركة الواو الى الياء ثم قلبت على ما قبلها، قال ورقة بن نوفل في صفة الحرم:

مثاب لإفناء القبائل كلها تخب اليه اليعملات الطلائح

ومنه ثاب اليه عقله، أي رجع اليه بعد عزوبه.

٥. ﴿وَأَمْنًا﴾ الامن مصدر قولك أمن يأمن أمنا، وإنما جعله أمنا بان حكم ان من عاذ به والتجأ لا يخاف على نفسه ما دام فيه بما جعله في نفوس العرب من تعظيمه فكان من فيه آمنا على ماله ودمه ويتخطف الناس من حوله كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ولعظم حرمته ان من جنى جناية والتجأ اليه لا يقام عليه الحد حتى يخرج لكن يضيق عليه في المطعم والمشرب،

والبيع والشراء، حتى يخرج منه، فيقام عليه الحد، فان أحدث فيه ما يوجب الحد أقيم عليه فيه، لأنه هتك حرمة الحرم، ولان الله تعالى جعل الأشهر الحرم لا يحل فيها القتال، والقتل وكل ذلك بسبب البيت الحرام، فهو آمن بهذه الوجوه:

٦. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ اكثر القراء على لفظ الامر، إلا ابن عامر ونافع فإنهما قرآ على لفظ الخبر من فعل ماض، ويحتمل ان يكون اللفظ معطوفا على قوله: ﴿اذْكُرُوا﴾ كأنه قال يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى.

٧. اختلف في العطف في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾:

أ. قال الربيع بن انس: من الكلمات التي ابتلى ابراهيم ربه قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وكأنه قال ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقال: ﴿اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى}

ب. وقيل: انه معطوف على ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ لان معناه واذكروا إذا جعلنا البيت واتخذوا.

ج. وقيل: انه معطوف على معنى ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ لأن فيه معنى ثوبوا اليه واتخذوا.

٨. ظاهر قوله: واتخذوا انه عام لجميع المكلفين إلا من خصه الدليل وعليه اكثر المفسرين، وقال ابو علي الفارسي: وجه قراءة من قرأ، على الخبر انه عطف على ما أضيف اليه إذ كأنه قال وإذ اتخذوا قال وتقوية قوله ان ما بعده خبر، وهو قوله ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾

٩. اختلف في المعني بقوله تعالى: ﴿مِنْ مَقَامِ﴾ على اربعة أقوال:

أ. أحدها: قال ابن عباس الحج كله مقام ابراهيم.

ب. ثانيها: قال عطا مقام ابراهيم عرفة والمزدلفة والجمار.

ج. ثالثها: وقال مجاهد: الحرم كله مقام ابراهيم.

د. رابعها: وقال السدي: مقام ابراهيم هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل وضعته تحت قدم ابراهيم حين غسلت رأسه، فوضع ابراهيم رجله عليه وهو راكب فغسلت شقه ثم رفعته من تحته وقد غابت رجله في الحجر فوضعته تحت الشق الآخر فغسلته فغابت ايضا رجله فيه فجعلها الله من شعائره، فقال ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وبه قال الحسن، وقتادة، والربيع، واختاره الجبائي، والرماني، وهو الظاهر في اخبارنا، وهو الأقوى، لان مقام ابراهيم إذا اطلق لا يفهم منه إلا المقام المعروف الذي هو

في المسجد الحرام، وفي المقام دلالة على نبوة ابراهيم عليه السلام، لان الله تعالى جعل الصخرة تحت قدمه كالطين حتى دخلت قدمه فيها ـ وكان ذلك معجزة له.

١٠. قيل في معنى قوله تعالى: ﴿مُصَلًّى﴾ ثلاثة أقوال:

أ. قال مجاهد: مدعى مأخوذ من صليت بمعنى دعوت.

ب. وقال الحسن والجبائي: قبلة.

ج. وقال قتادة والسدي: أمروا أن يصلوا عنده، وهو المروي في أخبارنا، وبذلك استدلوا على أن صلاة الطواف فريضة مثله، لان الله تعالى أمر بذلك والامر يقتضي الوجوب، وليس ها هنا صلاة يجب أداؤها عنده غير هذه بلا خلاف.

١١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ﴾:

أ. قيل: أي أمرنا ان طهرا، قال الجبائي: أمرا أن يطهراه من فرث ودم كان يطرحه عنده المشركون قبل ان يصير في يد ابراهيم، ويجوز أن يريد طهراه من الأصنام، والأوثان التي كانت عليه للمشركين قبل أن يصير في يد ابراهيم، وبه قال قتادة، ومجاهد.

ب. وقال السدي: طهراه ببنائكما له على الطهارة، كما قال ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾

١٢. والطائف والدائر والجائل نظائر، طاف يطوف طوافا إذا دار حول الشيء، وأطاف به اطافة: إذا ألم به، وطوف تطويفا، والطوف: خشب أو قصب يجمع بعضه الى بعض، يركب عليه في البحر، والطوفان مصدر طاف يطوف طوفا، فأما طاف بالبيت فهو طواف، وأطاف به إذا أحاط به، والطائف: العاس، والطوافون المماليك كقوله: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ والطائف: طائف الجن والشيطان، وكل شيء يغشى القلب من وسواسه فهو طيفه، والطائفة من كل شيء قطعة، تقول: طائفة من الناس، وطائفة من الليل، قال الله تعالى ﴿طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ وأصل الباب الطوف: الدور.

١٣. في معنى ﴿الطائفين﴾ ها هنا قولان:

أ. أحدهما: ما قال سعيد بن جبير: ﴿الطائفين﴾ من أتاه من غربة.

ب. الثاني:قال عطا واختاره الجبائي، وغيرهم: الطائفون بالبيت، وهو الأصح.

١٤. في قوله تعالى: ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ اربعة أقوال:

أ. الاول ـ قال عطا واختاره الجبائي: انهم المقيمون بحضرته، وهو الأقوى، لأنه المفهوم من اطلاق هذه اللفظة.

ب. الثاني:قال مجاهد وعكرمة: انهم المجاورون.

ج. الثالث: قال سعيد بن جبير، وقتادة: انهم أهل البلد الحرام.

د. الرابع ـ قال ابن عباس: هم المصلون.

١٥. العكف واللزوم والدوام على الشيء نظائر، تقول عكف يعكف، عكفاً وعكوفاً، إذا: لزم الشيء وأقام عليه فهو عاكف، وعكف الطير بالقتيل، والعاكف المعتكف في المسجد، قلما يقولون عكف، وان قيل كان صوابا، وإنما يقولون: اعتكف، ويقال للنظم إذا نظم فيه الجوهر: عكف تعكيفاً، والمعكوف: المحبوس وأصل الباب العكف وهو اللزوم.

١٦. اختلف في المعني بقوله تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾:

أ. قال قتادة وعطا: هم الذين يصلون عند الكعبة، يركعون عندها، ويسجدون.

ب. وقال الحسن: ﴿الرُّكَّعِ السُّجُودِ} جميع المؤمنين، وبه قال الفراء، وهو الأقوى، لأنه العموم.

١٧. سؤال وإشكال: كيف امر الله تعالى ان يطهر بيته ولم يكن هناك بيت بعد؟ والجواب:

أ. قيل: معناه ابنيا لي بيتاً مطهراً ـ في قول السدي ـ

ب. وقال عطا: معناه طهرا مكان البيت الذي تبنياه فيما بعد.

١٨. في الآية دلالة على ان الصلاة جوف البيت جائزة.

الجشمي:

ذكر الحاكم الجشمي (ت ٤٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[1]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. البيت والمأوى والمنزل نظائر، وبيت الله هو الكعبة، والبيت من أبيات الشعر، والبيت من بيوت

---

(١) التهذيب في التفسير: ١/ ٥٨٠.

الناس، والبيت من بيوتات العرب، والبيتوتة: دخولك في الليل، وَبتُّ أفعل كذا، كما تقول في النهار: ظللت، وبَيَّتَّ القوم تبييتًا، إذا وقعت بهم ليلاً.

ب. المثابة: من ثاب يثوب مثابة، وثاب: رجع، وأصلها مَثْوُبَة: مَفْعُلَة، فنقلت حركة الواو إلى الثاء، ثم قلبت على ما قبلها، ومثابة ومثاب قيل: معناهما واحد، كمقامة ومقام، عن الفراء والزجاج، وقيل: في مثابة مبالغة كما في قولهم: نَسَّابَة وعلَّامة.

ج. المصلى: موضع الصلاة.

د. الطائف: الدائر، طاف يطوف طوفًا وطوافًا: إذا دار حول الشيء.

هـ. العَكْفُ: مصدر عَكَفَ يَعكُفُ بضم الكاف وكسرها عكفًا، إذا ألزم الشيء وأقام عليه فهو عاكف، وقيل: عكف إذا أقبل عليه لا ينصرف عنه بوجهه، والعاكف والمعتكف في المسجد، يقولون: اعتكف، ولو قيل: عكف كان صوابًا.

٢. لما ذكر الله تعالى حديث إبراهيم وما أنعم عليه، اتصل به حديث البيت، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ يعني اذكروا إذ جعلنا البيت يعني الكعبة، والألف واللام للعهد.

٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً﴾:

أ. قيل: مرجعًا يثوبون إليه كل عام.

ب. وقيل: لا ينصرف عنه أحد وهو يرى أنه قضى منه وطرًا، وهم يعودون إليه، عن ابن عباس ومجاهد.

ج. وقيل: يثوبون إليه يرجعون دائمًا، صار كذلك بأمر الله عباده بالمصير إليه لمنافع دينهم ودنياهم، فبذلك جعله مثابة لهم، عن أبي علي.

د. وقيل: يحجون إليه فيثابون عليه.

هـ. وقيل: ﴿مَثَابَةً﴾ مجمعًا، عن قتادة وعكرمة.

و. وقيل: معادًا وملجأ.

والمعنى في الكل يرجع إلى أنهم يثوبون إليه مرة بعد مرة.

٤. معنى قوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾ مأمنًا يأمنون فيه، واختلفوا:

أ. فقيل: لأمر الله تعالى لترك التعرض لمن دخل فيه، حتى إنه لا يقام عليه الحد حتى يخرج.

ب. وقيل: لِمَا جعل في نفوس العرب من تعظيمه، فكان من فيه آمنًا على ماله ودمه، ويُتَخَطَّفُ الناس من حوله.

ج. وقيل: جعلهم بحيث لا يكون فيه حدث، وتجبى إليه ثمرات كل شيء.

٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾:

أ. قيل: الحرم كله مقام إبراهيم، عن مجاهد.

ب. وقيل: الحجر مقام إبراهيم، عن ابن عباس.

ج. وقيل: مقام إبراهيم عرفة والمزدلفة والجمار، عن عطاء.

د. وقيل: المسجد كله مقام إبراهيم.

هـ. وقيل: مقام إبراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قدم إبراهيم، وذلك أن زوجة إسماعيل وضعته تحت قدمه حتى غسلت رأسه وهو راكب فغسلت شق رأسه، ثم وضعته من الجانب الآخر، وغسلت الشق الآخر، فغابت رجلاه في الحجر، فجعلها الله من شعائره، عن الحسن وقتادة والربيع والسدي وأبي علي، وهو أوجه؛ لأن مقام إبراهيم إذا أطلق فلا يفهم إلا ذلك، ولحديث عمر؛ ولأن مقامه موضع قيامه، فحمله عليه أولى.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مُصَلًّى﴾:

أ. قيل: مدعاة، كأنه أخذ من صليت دعوت، عن مجاهد.

ب. وقيل: قِبْلَة، عن الحسن وأبي علي.

ج. وقيل: موضع صلاة، وأمروا أن يصلوا عنده، عن قتادة والسدي، وهو الصحيح، وهو الصلاة التي تفعل عقيب الطواف.

٧. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي أمرناهم وألزمناهم.

٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾:

أ. قيل: من الفرث والدم الذي كان يَطرحه المشركون عند البيت، قبل أن يصير في يد إبراهيم وإسماعيل، عن أبي علي.

ب. وقيل: طهراه من الأصنام والأوثان التي كانت عليه المشركون قبل أن يصير في يد إبراهيم، عن مجاهد وأبي علي وقتادة.

ج. وقيل: طهراه ببنائكما على الطهارة كقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ﴾ عن السدي.

٩. ﴿بَيْتِيَ﴾ يعني الكعبة، وأضافه إلى نفسه تخصيصًا وتفضيلاً.

١٠. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾:

أ. قيل: للطائفين، بالبيت، والمقيم بحضرته، عن عطاء وأبي علي، وهو الأوجه.

ب. وقيل: الطائفين من أتاها من الآفاق، والعاكفون أهل البلد الحرام، عن سعيد بن جبير.

ج. وقيل: العاكفون المجاورون، عن مجاهد.

د. وقيل: المصلون، عن ابن عباس.

١١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾:

أ. قيل: المصلون عند البيت، عن قتادة وعطاء وأبي علي.

ب. وقيل: أراد جميع المؤمنين، عن الحسن والفراء.

ج. وقيل: إذا طاف به فهو من الطائفين، وإذا جلس فهو من العاكفين، وإذا صلى فهو من الركع السجود، عن عطاء.

١٢. استدلّ بعضهم بالآية الكريمة على وجوب العمرة، ولا دليل له فيها لا ظاهرًا ولا مفهومًا.

١٣. تدل الآية الكريمة على:

أ. يدل قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ على أن ذلك تَعَبُّدٌ منه؛ لأن معنى مثابة أن يثوبوا إليه، وذلك فعلهم، فيتعلق به التعبد، ثم ذلك قد يكون نذرًا، وقد يكون واجبًا، فالواجب له صفة زائدة فيحتاج إلى دليل، ويحتمل أنه جعله مثابة بلطفه حتى يحصل في قلوبهم الحرص على الرجوع إليه، وإن كان الوجه الأول أولى.

ب. أن التعبد بأن يثاب إليه، ثم ليس في الآية أن يثاب للحج أو العمرة أو الطواف أو الصلاة، فصارت من باب المجمل يحتاج إلى بيان، وقيل: إن الأقرب أن المراد الطواف؛ لأنه يختص بالبيت لمن ثاب إليه.

ج. يدل قوله تعالى: ﴿آمَنًا﴾ على حصول أمن، ثم يحتمل أن يكون ذلك تعبدًا بأن أمر أن يُؤَمَّنَ مَنْ دَخَلَهُ، ويحتمل أنه من فِعْلِهِ تعالى، ثم ينقسم إما أن يريد أنه لا يلحقهم حدث، أو عَظَّمَ حرمته في القلوب حتى تركوا التعرض، أو لطف في ذلك فحينئذ يكون خبرًا، ولا يكون تعبدًا.

د. يدل قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ على تعبد، والأقرب أنه الصلاة التي تختص بتلك البقعة عقيب الطواف؛ لأنه مختص بالمقام، ولخبر عمر.

هـ. يدل قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ على وجوب تطهيره مما يمنع صحة الصلاة والطواف؛ لأنهما المختصان به، ولذلك قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ ثم ذلك قد يكون من النجاسة، وقد يكون من الأوثان، وإن كان الأول أقرب؛ لأنه يختص بالمنع من الصلاة.

و. تدل على أن من لجأ إلى الحرم وقد وجب عليه حد أو قصاص لا يُتَعَرَّضُ له، ولكن يُضَيَّقُ عليه حتى يخرج.

ز. تدل على وجوب تطهير البيت عما لا يليق به من الصبيان والمجانين، وكذلك من اللعب والمآثم.

ح. تدل على كراهية الصلاة في البيت على الميت على ما يقوله أبو حنيفة؛ لأنه لا يؤمن خروج نجاسة منه.

١٤. قراءات:

أ. قرأ نافع وابن عامر: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ بفتح الخاء على الخبر، والباقون بكسرها على الأمر، والخبر عطف على جعلنا.

ب. القراءة المجمع عليها: ﴿مَثَابَةً﴾ على الواحد، وعن بعضهم ﴿مثابات} على الجمع.

ج. قرأ حفص عن عاصم: ﴿بَيْتِيَ﴾ بفتح الياء على الأصل والباقون بإسكانه للتخفيف.

١٥. في عطف: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أربعة أقوال:

أ. الأول: على قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ كأنه قيل لليهود: اذكروا نعمتي، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

ب. الثاني: أنه من الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم، كأنه قال: إني جاعلك، وقال: اتخذوا من مقام إبراهيم، عن الربيع بن أنس.

ج. الثالث: على معنى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ كأنه قيل: واذكروا إذ جعلنا واتخذوا.

د. الرابع: على معنى: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ كأنه قيل: توبوا واتخذوا.

الطَبرِسي:

ذكر الفضل الطَبرِسي (ت ٥٤٨ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. شرح مختصر للكلمات:

أ. البيت، والمأوى، والمنزل، نظائر، والبيت: من أبيات الشعر، سمي بذلك لضمه الحروف والكلام كما يضم البيت من بيوت الناس أهله، والبيت من بيوتات العرب: وهي أحياؤها، وامرأة الرجل: بيته، قال الراجز:

ما لي إذا أجذبها صأيت   أكبر قد غالني، أم بيت

ب. المثابة هاهنا: الموضع الذي يثاب إليه، من ثاب يثوب مثابة ومثابا وثؤبا: إذا رجع، قال ورقة بن نوفل في صفة الحرم:

مثاب لإفناء القبائل كلها   تخب إليها اليعملات الطلائح

ومنه: ثاب إليه عقله أي: رجع بعد عزوبه، وأصل مثابة: مثوبة، نقلت حركة الواو إلى الثاء، ثم قلبت ألفا على ما قبلها، وقيل: إن التاء فيه للمبالغة كما قيل نسابة، وقيل: إن معناهما واحد كمقامة ومقام، قال زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوهها   وأندية ينتابها القول والفعل

وجمع المقام: مقاوم، قال:

وإني لقوام مقاوم لم يكن   جرير، ولا مولى جرير يقومها

ج. الطائف والجائل والدائر نظائر، ويقال: طاف يطوف طوفا: إذا دار حول الشيء، وأطاف به إطافة: إذا ألم به، وأطاف به: إذا أحاط به، والطائف: العاس، والطوافون: المماليك، والطائف: طائف الجن والشيطان، وهو كل شيء يغشى القلب من وسواسه، وهو طيف أيضا.

---

(١) تفسير الطبرسي: ١/ ٣٨٢.

د. العاكف: المقيم على الشيء، اللازم له، وعكف يعكف عكفا، وعكوفا، قال النابغة:

عكوف على أبياتهم يثمدونها رمى الله في تلك الأكف

والعاكف: المعتكف في المسجد، وقل ما يقولون: عكف، وإنما يقولون: اعتكف.

هـ. الركع: جمع الراكع.

و. السجود: جمع الساجد، وكل فعل مصدره على فعول، جاز في جمع الفاعل منه أن يكون على فعول كالقعود والركوع والسجود ونحوها.

٢. قرأ نافع، وابن عامر: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ مفتوحة الخاء، وقرأ الباقون: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ مكسورة الخاء.. من قرأ بكسر الخاء فإنه على الأمر والإلزام، ويكون عطفا على قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا﴾، ويجوز أن يكون عطفا على قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ من طريق المعنى، لأن معناه ثوبوا واتخذوا.. ومن قرأ بالفتح عطفه على ما تقدمه من الفعل الذي أضيف إليه إذ، فكأنه قال: وإذ اتخذوا.

٣. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ عطف على قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾، وذلك معطوف على قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾، و﴿الْبَيْتِ﴾ الذي جعله الله مثابة هو البيت الحرام وهو الكعبة، وروي أنه سمي البيت الحرام، لأنه حرم على المشركين أن يدخلوه، وسمي الكعبة لأنها مربعة، وصارت مربعة لأنها بحذاء البيت المعمور وهو مربع، وصار البيت المعمور مربعا لأنه بحذاء العرش وهو مربع، وصار العرش مربعا لأن الكلمات التي بني عليها الاسلام أربع: وهي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

٤. في معنى قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ وجوه:

أ. قيل: إن الناس يثوبون إليه كل عام، أي: ليس هو مرة في الزمان فقط على الناس، عن الحسن.

ب. وقيل: معناه انه لا ينصرف منه أحد وهو يرى أنه قد قضى منه وطرا، فهم يعودون إليه، عن ابن عباس، وقد ورد في الخبر أن من رجع من مكة، وهو ينوي الحج من قابل، زيد في عمره، ومن خرج من مكة وهو لا ينوي العود إليها، فقد قرب أجله.

ج. وقيل: معناه يحجون إليه فيثابون عليه.

د. وقيل: مثابة معاذا وملجأ.

هـ. وقيل: مجمعا والمعنى في الكل يؤول إلى أنهم يرجعون إليه مرة بعد مرة.

٥. ﴿وَأَمْنًا﴾ أراد مأمنا أي: موضع أمن، وإنما جعله الله آمنا بأن حكم أن من عاذ به، والتجأ إليه، لا يخاف على نفسه ما دام فيه، وبما جعله في نفوس العرب من تعظيمه، حتى كانوا لا يتعرضون من فيه فهو آمن على نفسه وماله، وإن كانوا يتخطفون الناس من حوله، ولعظم حرمته لا يقام في الشرع الحد على من جنى جناية فالتجأ إليه وإلى حرمه، لكن يضيق عليه في المطعم والمشرب، والبيع والشراء، حتى يخرج منه، فيقام عليه الحد، فإن أحدث فيه ما يوجب الحد أقيم عليه الحد فيه، لأنه هتك حرمة الحرم، فهو آمن من هذه الوجوه، وكان قبل الاسلام يرى الرجل قاتل أبيه في الحرم، فلا يتعرض له، وهذا شيء كانوا قد توارثوه من دين إسماعيل، فبقوا عليه إلى أيام نبينا ﷺ.

٦. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾:

أ. قال ابن عباس: الحج كله مقام إبراهيم.

ب. وقال عطاء: مقام إبراهيم عرفة والمزدلفة والجمار.

ج. وقال مجاهد: الحرم كله مقام إبراهيم.

د. وقال الحسن وقتادة والسدي: هو الصلاة عند مقام إبراهيم، أمرنا بالصلاة عنده بعد الطواف، وهو المروي عن الصادق عليه السلام، وقد سئل عن الرجل يطوف بالبيت طواف الفريضة، ونسي أن يصلي ركعتين عند مقام إبراهيم، فقال: يصليها ولو بعد أيام، إن الله تعالى قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وهذا هو الظاهر، لأن مقام إبراهيم إذا أطلق لا يفهم منه إلا المقام المعروف الذي هو في المسجد الحرام.

٧. في المقام دلالة ظاهرة على نبوة إبراهيم، عليه السلام، فإن الله جعل الحجر تحت قدميه كالطين حتى دخلت قدمه فيه، وكان في ذلك معجزة له، وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: نزلت ثلاثة أحجار من الجنة: مقام إبراهيم، وحجر بني إسرائيل، والحجر الأسود، استودعه الله إبراهيم عليه السلام حجرا أبيض، وكان أشد بياضا من القراطيس، فاسود من خطايا بني آدم.

٨. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مُصَلًّى﴾:

أ. قيل: مدعى من صليت أي: دعوت، عن مجاهد.

ب. وقيل: قبلة عن الحسن.

ج. وقيل: موضع صلاة، فأمر أن يصلي عنده عن قتادة والسدي وهذا هو المروي عن أئمتنا عليهم السلام، واستدل أصحابنا[١]. به على أن صلاة الطواف فريضة مثل الطواف، لأن الله تعالى أمر بذلك، وظاهر الأمر يقتضي الوجوب، ولا صلاة واجبة عند مقام إبراهيم غير صلاة الطواف بلا خلاف.

٩. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أمرناهما وألزمناهما: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ للطائفين أي: قلنا لهما أن طهرا بيتي، لأن ﴿إِنَّ﴾ هذه هي المفسرة التي تكوت عبارة عن القول إذا صاحبت من الألفاظ ما يتضمن معنى القول، كقوله سبحانه: ﴿عَهِدْنَا﴾ هنا.

١٠. في معنى التطهير وجوه:

أ. أحدها: إن المراد طهراه من الفرث والدم الذي كان يطرحه المشركون عند البيت، قبل أن يصير في يد إبراهيم وإسماعيل، عن الجبائي.

ب. ثانيها: إن المراد طهراه من الأصنام التي كانوا يعلقونها على باب البيت قبل إبراهيم عن مجاهد وقتادة.

ج. ثالثها: إن المراد طهراه بنيانا بكماله على الطهارة، كما قال سبحانه: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار}

١١. إنما أضاف البيت إلى نفسه تفضيلا له على سائر البقاع، وتمييزا وتخصيصا.

١٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾:

أ. أكثر المفسرين على أن الطائفين هم الدائرون حول البيت، والعاكفين هم المجاورون للبيت.

ب. وقال سعيد بن جبير: إن الطائفين هم الطارئون على مكة من الآفاق، والعاكفين هم المقيمون فيها.

ج. وقال ابن عباس: العاكفون المصلون، والأول أصح لأنه المفهوم من إطلاق اللفظ.

١٣. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾:

أ. قيل: هم المصلون عند البيت يركعون ويسجدون، عن قتادة.

---

(١) يقصد الإمامية.

ب. وقيل: هم جميع المسلمين لأن من شأن المسلمين الركوع والسجود، عن الحسن.

ج. وقال عطاء: إذا طاف به فهو من الطائفين، وإذا جلس فهو من العاكفين، وإذا صلى فهو من الركع السجود.

١٤. قال رسول الله ﷺ: (إن لله عز وجل في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة، تنزل على هذا البيت: ستون منها للطائفين وأربعون للعاكفين، وعشرون للناظرين)

ابن الجوزي:

ذكر أبو الفرج بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. البيت هاهنا: الكعبة، والألف واللام تدخل للمعهود، أو للجنس، فلمّا علم المخاطبون أنه لم يرد الجنس؛ انصرف إلى المعهود.

٢. المثاب والمثابة واحد، كالمقام والمقامة، قال ابن قتيبة: والمثابة: المعاد، من قولك: ثبت إلى كذا، أي: عدت إليه، وثاب إليه جسمه إذا رجع بعد العلّة، فأراد: أنّ الناس يعودون إليه مرّة بعد مرّة.

٣. ﴿وَأَمْنًا﴾، قال ابن عباس: يريد أنّ من أحدث حدثا في غيره، ثمّ لجأ إليه؛ فهو آمن، ولكن ينبغي لأهل مكّة أن لا يبايعوه، ولا يطعموه، ولا يسقوه، ولا يؤووه، ولا يكلّم حتى يخرج، فإذا خرج أقيم عليه الحدّ.

٤. قال القاضي أبو يعلى: وصف البيت بالأمن، والمراد جميع الحرم؛ كما قال ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾، والمراد: الحرم كلّه لأنه لا يذبح في الكعبة، ولا في المسجد الحرام، وهذا على طريق الحكم، لا على وجه الخبر فقط.

٥. في ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ ثلاثة أقوال:

أ. أحدها: أنه الحرم كلّه، قاله ابن عباس.

ب. الثاني: عرفة والمزدلفة والجمار، قاله عطاء، وعن مجاهد كالقولين، وقد روي عن ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، قالوا: الحجّ كلّه مقام إبراهيم.

---

(١) زاد المسير: ١/ ١١٠.

ج. الثالث: الحجر، قاله سعيد بن جبير، وهو الأصحّ.

٦. في سبب وقوف إبراهيم عليه السلام على الحجر قولان:

أ. أحدهما: أنه جاء يطلب ابنه إسماعيل، فلم يجده، فقالت له زوجته: انزل، فأبى، فقالت: فدعني أغسل رأسك، فأتته بحجر فوضع رجله عليه، وهو راكب، فغسلت شقّه، ثم رفعته وقد غابت رجله فيه، فوضعته تحت الشّقّ الآخر وغسلته، فغابت رجله فيه، فجعله الله من شعاره، ذكره السّدّيّ عن ابن مسعود وابن عباس.

ب. الثاني: أنه قام على الحجر لبناء البيت، وإسماعيل يناوله الحجارة، قاله سعيد بن جبير.

٧. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾، أي: أمرناهما وأوصيناهما، وإسماعيل: اسم أعجميّ، وفيه لغتان: إسماعيل، و: إسماعين، وأنشدوا:

قال جواري الحيّ لمّا جينا ... هذا وربّ البيت إسماعينا

٨. ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، قال قتادة: يريد من عبادة الأوثان والشّرك، وقول الزّور.

٩. سؤال وإشكال: لم يكن هناك بيت، فما معنى أمرهما بتطهيره؟ والجواب: عنه جوابان:

أ. أحدهما: أنه كانت هناك أصنام، فأمر بإخراجها، قاله عكرمة.

ب. الثاني: أن معناه: ابنياه مطهّرا، قاله السّدّيّ.

١٠. العاكفون: المقيمون، يقال: عكف يعكف ويعكف عكوفا: إذا أقام، ومنه: الاعتكاف، وقد روى ابن عباس عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: (إنّ الله تعالى ينزل في كلّ ليلة ويوم عشرين ومائة رحمة تنزل على البيت: ستّون للطّائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للنّاظرين)

الرَّازي:

ذكر الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. بين الله تعالى كيفية حال إبراهيم عليه السلام حين كلفه بالإمامة، وهذا شرح التكليف الثاني، وهو التكليف بتطهير البيت، ويريد بالبيت البيت الحرام، واكتفى بذكر البيت مطلقاً لدخول الألف واللام

(١) تفسير الفخر الرازي: ٤/ ٤٢.

عليه، إذا كانتا تدخلان لتعريف المعهود أو الجنس، وقد علم المخاطبون أنه لم يرد به الجنس فانصرف إلى المعهود عندهم وهو الكعبة.

٢. ليس المراد نفس الكعبة، لأنه تعالى وصفه بكونه ﴿آمَنًّا﴾ وهذا صفة جميع الحرم لا صفة الكعبة فقط، والدليل على أنه يجوز إطلاق البيت والمراد منه كل الحرم قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] والمراد الحرم كله لا الكعبة نفسها، لأنه لا يذبح في الكعبة، ولا في المسجد الحرام، وكذلك قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، والمراد والله أعلم منعهم من الحج حضور مواضع النسك، وقال في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال الله تعالى في آية أخرى مخبراً عن إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فدل هذا على أنه وصف البيت بالأمن فاقتضى جميع الحرم، والسبب في أنه تعالى أطلق لفظ البيت وعنى به الحرم كله أن حرمة الحرم لما كانت معلقة بالبيت جاز أن يعبر عنه باسم البيت.

٣. ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ قال أهل اللغة: أصله من ثاب يثوب مثابة وثوباً إذا رجع يقال: ثاب الماء إذا رجع إلى النهر بعد انقطاعه، وثاب إلى فلان عقله أي رجع وتفرق عنه الناس، ثم ثابوا: أي عادوا مجتمعين، والثواب من هذا أخذ، كأن ما أخرجه من مال أو غيره فقد رجع إليه، والمثاب من البئر: مجتمع الماء في أسفلها، قال القفال قيل: إن مثاباً ومثابة لغتان مثل: مقام ومقامة وهو قول الفراء والزجاج، وقيل: الهاء إنما دخلت في مثابة مبالغة كما في قولهم: نسابة وعلامة، وأصل مثابة مثوبة مفعلة.

٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾:

أ. قال الحسن: معناه أنهم يثوبون إليه في كل عام.

ب. وعن ابن عباس ومجاهد: أنه لا ينصرف عنه أحد إلا وهو يتمنى العود إليه، قال الله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

ج. وقيل: مثابة أي يحجون إليه فيثابون عليه.

٥. سؤال وإشكال: كون البيت مثابة يحصل بمجرد عودهم إليه، وذلك يحصل بفعلهم لا بفعل الله تعالى، فما معنى قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ والجواب:

أ. أما على مذهب أهل السنة، ومن وافقهم، ففعل العبد مخلوق لله تعالى فهذه الآية حجة في هذه

المسألة.

ب. وأما على مذهب المعتزلة، ومن وافقهم فمعناه أنه تعالى ألقى تعظيمه في القلوب ليصير ذلك داعياً لهم إلى العود إليه مرة بعد أخرى، وإنما فعل الله تعالى ذلك لما فيه من منافع الدنيا والآخرة:

• أما منافع الدنيا فلأن أهل المشرق والمغرب مجتمعون هناك، فيحصل هناك من التجارات وضروب المكاسب ما يعظم به النفع، وأيضاً فيحصل بسبب السفر إلى الحج عمارة الطريق والبلاد، ومشاهدة الأحوال المختلفة في الدنيا.

• وأما منافع الدين فلأن من قصد البيت رغبة منه في النسك والتقرب إلى الله تعالى، وإظهار العبودية له، والمواظبة على العمرة والطواف، وإقامة الصلاة في ذلك المسجد المكرم والاعتكاف فيه، يستوجب بذلك ثواباً عظيماً عند الله تعالى.

٦. تمسك بعض أصحابنا في وجوب العمرة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ ووجه الاستدلال به أن قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ إخبار عن أنه تعالى جعله موصوفاً بصفة كونه مثابة للناس، لكن لا يمكن إجراء الآية على هذا المعنى لأن كونه مثابة للناس صفة تتعلق باختيار الناس، وما يتعلق باختيار الناس لا يمكن تحصيله بالجبر والإلجاء، وإذا ثبت تعذر إجراء الآية على ظاهرها وجب حمل الآية على الوجوب لأنا متى حملناه على الوجوب كان ذلك أفضى إلى صيرورته كذلك مما إذا حملناه على الندب، فثبت أن الله تعالى أوجب علينا العود إليه مرة بعد أخرى، وقد توافقنا على أن هذا الوجوب لا يتحقق فيما سوى الطواف، فوجب تحققه في الطواف، هذا وجه الاستدلال بهذه الآية، وأكثر من تكلم في أحكام القرآن طعن في دلالة هذه الآية على هذا المطلوب، ونحن قد بينا دلالتها عليه من هذا الوجه الذي بيناه.

٧. ﴿وَأَمْنًا﴾ أي موضع أمن، ثم لا شك أن قوله: ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ خبر، فتارة نتركه على ظاهره ونقول أنه خبر، وتارة نصرفه عن ظاهره ونقول أنه أمر:

أ. أما القول الأول: فهو أن يكون المراد أنه تعالى جعل أهل الحرم آمنين من القحط والجدب على ما قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] ولا يمكن أن يكون المراد منه الإخبار عن عدم وقوع القتل في الحرم،

لأنا نشاهد أن القتل الحرام قد يقع فيه، وأيضاً فالقتل المباح قد يوجد فيه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] فأخبر عن وقوع القتل فيه.

ب. القول الثاني: أن نحمله على الأمر على سبيل التأويل، والمعنى أن الله تعالى أمر الناس بأن يجعلوا ذلك الموضع أمناً من الغارة والقتل، فكان البيت محترماً بحكم الله تعالى، وكانت الجاهلية متمسكين بتحريمه، لا يهيجون على أحد التجأ إليه، وكانوا يسمون قريشاً: أهل الله تعظيماً له، ثم اعتبر فيه أمر الصيد حتى أن الكلب ليهم بالظبي خارج الحرم فيفر الظبي منه فيتبعه الكلب فإذا دخل الظبي الحرم لم يتبعه الكلب، ورويت الأخبار في تحريم مكة، قال ﷺ: (إن الله حرم مكة وأنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها كما كانت)

٨. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم والكسائي: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ بكسر الخاء على صيغة الأمر، واختلف على من عطف على أقوال:

أ. الأول: أنه عطف على قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٢]، ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

ب. الثاني: إنه عطف على قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] والمعنى أنه لما ابتلاه بكلمات وأتمهن، قال له جزاء لما فعله من ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ويجوز أن يكون أمر بهذا ولده، إلا أنه تعالى أضمر قوله وقال، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١]

ج. الثالث: أن هذا أمر من الله تعالى لأمة محمد ﷺ أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وهو كلام اعترض في خلال ذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وكأن وجهه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا﴾ أنتم من مقام إبراهيم مصلى والتقدير أنا لما شرفناه ووصفناه بكونه مثابة للناس وأمناً فاتخذوه أنتم قبلة لأنفسكم، والواو والفاء قد يذكر كل واحد منهما في هذا الوضع وإن كانت الفاء أوضح.

٩. وقرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على صيغة الخبر، ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ بالفتح على أنه إخبار عن ولد إبراهيم أنهم اتخذوا من مقامه مصلى، فيكون هذا عطفاً على: ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ واتخذوه مصلى، ويجوز أن يكون عطفاً على: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ وإذ اتخذوه مصلى.

١٠. اختلف في مقام إبراهيم عليه السلام أي شيء هو:

أ. الأول: إنه موضع الحجر قام عليه إبراهيم عليه السلام، ثم هؤلاء ذكروا وجهين:

- أحدهما: أنه هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل وضعته تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه فوضع إبراهيم عليه السلام رجله عليه وهو راكب فغسلت أحد شقي رأسه ثم رفعته من تحته وقد غاصت رجله في الحجر فوضعته تحت الرجل الأخرى فغاصت رجله أيضاً فيه فجعله الله تعالى من معجزاته وهذا قول الحسن وقتادة والربيع بن أنس

- ثانيها: ما روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان يبني البيت وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] فلما ارتفع البنيان وضعف إبراهيم ﷺ عن وضع الحجارة قام على حجر وهو مقام إبراهيم عليه السلام.

ب. الثاني: أن مقام إبراهيم الحرم كله وهو قول مجاهد.

ج. الثالث: أنه عرفة والمزدلفة والجمار وهو قول عطاء.

د. الرابع: الحج كله مقام إبراهيم وهو قول ابن عباس.

١١. اتفق المحققون على أن القول بأنه موضع الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام أولى، ويدل عليه وجوه:

أ. الأول: ما روى جابر أنه عليه السلام لما فرغ من الطواف أتى المقام، وتلا قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فقراءة هذه اللفظة عند ذلك الموضع تدل على أن المراد من هذه اللفظة هو ذلك الموضع ظاهر.

ب. ثانيها: أن هذا الاسم في العرف مختص بذلك الموضع والدليل عليه أن سائلًا لو سأل المكي بمكة عن مقام إبراهيم لم يجبه ولم يفهم منه إلا هذا الموضع.

ج. ثالثها: ما روي أنه عليه السلام مر بالمقام ومعه عمر فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال بلى، قال أفلا نتخذه مصلى؟ قال لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس من يومهم حتى نزلت الآية.

د. رابعها: أن الحجر صار تحت قدميه في رطوبة الطين حتى غاصت فيه رجلا إبراهيم عليه

السلام، وذلك من أظهر الدلائل على وحدانية الله تعالى ومعجزة إبراهيم عليه السلام فكان اختصاصه بإبراهيم أولى من اختصاص غيره به، فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى.

هـ. خامسها: أنه تعالى قال ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وليس للصلاة تعلق بالحرم ولا بسائر المواضع إلا بهذا الموضع، فوجب أن يكون مقام إبراهيم هو هذا الموضع.

و. سادسها: أن مقام إبراهيم هو موضع قيامه، وثبت بالأخبار أنه قام على هذا الحجر عند المغتسل ولم يثبت قيامه على غيره فحمل هذا اللفظ، أعني: مقام إبراهيم عليه السلام على الحجر يكون أولى قال القفال: ومن فسر مقام إبراهيم بالحجر خرج قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ على مجاز قول الرجل: اتخذت من فلان صديقاً وقد أعطاني الله من فلان أخاً صالحاً ووهب الله لي منك ولياً مشفقاً وإنما تدخل (من) لبيان المتخذ الموصوف وتميزه في ذلك المعنى من غيره.

١٢. في قوله تعالى: ﴿مُصَلًّى﴾ وجوه:

أ. أحدها: المصلى المدعى فجعله من الصلاة التي هي الدعاء، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وهو قول مجاهد، وإنما ذهب إلى هذا التأويل ليتم له قوله: إن كل الحرم مقام إبراهيم.

ب. ثانيها: قال الحسن: أراد به قبلة.

ج. ثالثها: قال قتادة والسدي: أمروا أن يصلوا عنده، قال أهل التحقيق: هذا القول أولى لأن لفظ الصلاة إذا أطلق يعقل منه الصلاة المفعولة بركوع وسجود، ألا ترى أن مصلى المصر وهو الموضع الذي يصلى فيه صلاة العيد، وقال ﷺ لأسامة بن زيد: المصلى أمامك يعني به موضع الصلاة المفعولة، وقد دل عليه أيضاً فعل النبي ﷺ للصلاة عنده بعد تلاوة الآية ولأن حملها على الصلاة المعهودة أولى لأنها جامعة لسائر المعاني التي فسروا الآية بها.

١٣. قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ فالأولى أن يراد به ألزمناهما ذلك، وأمرناهما أمراً وثقنا عليهما فيه، وقد تقدم من قبل معنى العهد والميثاق.

١٤. قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ يجب أن يراد به التطهير من كل أمر لا يليق بالبيت، فإذا كان موضع البيت وحواليه مصلى وجب تطهيره من الأنجاس والأقذار، وإذا كان موضع العبادة والإخلاص

لله تعالى: وجب تطهيره من الشرك وعبادة غير الله، وكل ذلك داخل تحت الكلام ثم إن المفسرين ذكروا وجوهاً:

أ. أحدها: أن معنى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ ابنياه وطهراه من الشرك وأسساه على التقوى، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٩]

ب. ثانيها: عرفا الناس أن بيتي طهرة لهم متى حجوه وزاروه وأقاموا به، ومجازه: اجعلاه طاهراً عندهم، كما يقال: الشافعي يطهر هذا، وأبو حنيفة ينجسه.

ج. ثالثها: ابنياه ولا تدعا أحداً من أهل الريب والشرك يزاحم الطائفين فيه، بل أقراه على طهارته من أهل الكفر والريب، كما يقال: طهر الله الأرض من فلان.. وهذه التأويلات مبنية على أنه لم يكن هناك ما يوجب إيقاع تطهيره من الأوثان والشرك، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] فمعلوم أنهن لم يطهرن من نجس بل خلقن طاهرات، وكذا البيت المأمور بتطهيره خلق طاهراً.

د. رابعها: معناه نظفا بيتي من الأوثان والشرك والمعاصي، ليقتدي الناس بكما في ذلك.

هـ. خامسها: قال بعضهم: إن موضع البيت قبل البناء كان يلقى فيه الجيف والأقذار فأمر الله تعالى إبراهيم بإزالة تلك القاذورات وبناء البيت هناك، وهذا ضعيف لأن قبل البناء ما كان البيت موجوداً فتطهير تلك العرصة لا يكون تطهيراً للبيت، ويمكن أن يجاب عنه بأنه سماه بيتاً لأنه علم أن مآله إلى أن يصير بيتاً ولكنه مجاز.

١٥. العكف مصدر عكف يعكف بضم الكاف وكسرها عكفاً إذا لزم الشيء وأقام عليه فهو عاكف، وقيل: إذا أقبل عليه لا يصرف عنه وجهه.

١٦. في الأوصاف الثلاثة في قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ قولان:

أ. الأول: وهو الأقرب أن يحمل ذلك على فرق ثلاثة، لأن من حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه، فيجب أن يكون الطائفون غير العاكفين والعاكفون غير الركع السجود لتصح فائدة العطف، فالمراد بالطائفين: من يقصد البيت حاجاً أو معتمراً فيطوف به، والمراد بالعاكفين: من يقيم هناك ويجاور، والمراد بالركع السجود: من يصلي هناك.

ب. الثاني: وهو قول عطاء: أنه إذا كان طائفاً فهو من الطائفين، وإذا كان جالساً فهو من العاكفين،

وإذا كان مصلياً فهو من الركع السجود.

١٧. تدل الآية الكريمة على أمور:

أ. أحدها: أنا إذا فسرنا الطائفين بالغرباء فحينئذ تدل الآية على أن الطواف للغرباء أفضل من الصلاة، لأنه تعالى كما خصهم بالطواف دل على أن لهم به مزيد اختصاص، وروي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء: أن الطواف لأهل الأمصار أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل.

ب. ثانيها: تدل الآية على جواز الاعتكاف في البيت.

ج. ثالثها: تدل على جواز الصلاة في البيت فرضاً كانت أو نفلًا إذ لم تفرق الآية بين شيئين منها، وهو خلاف قول مالك في امتناعه من جواز فعل الصلاة المفروضة في البيت.

د. رابعها: أن قوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ يتناول مطلق الطواف سواء كان منصوصاً عليه في كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أو ثبت حكمه بالسنة، أو كان من المندوبات.

القرطبي:

ذكر محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى صيرنا لتعديه إلى مفعولين، ﴿الْبَيْتِ﴾ يعنى الكعبة، ﴿مَثَابَةً﴾ أي مرجعا، يقال: ثاب يثوب مثابا ومثابة وثئوبا وثوبانا، فالمثابة مصدر وصف به ويراد به الموضع الذي يثاب إليه، أي يرجع إليه، قال ورقة بن نوفل في الكعبة:

مثابا لإفناء القبائل كلها   تخب إليها اليعملات الذوامل

وقرا الأعمش: (مثابات) على الجمع، ويحتمل أن يكون من الثواب، أي يثابون هناك، وقال مجاهد: لا يقضي أحد منه وطرا، قال الشاعر:

جعل البيت مثابا لهم   ليس منه الدهر يقضون الوطر

والأصل مثوبة، قلبت حركة الواو على الثاء فقلبت الواو ألفا اتباعا لثاب يثوب، وانتصب على المفعول الثاني، ودخلت الهاء للمبالغة لكثرة من يثوب أي يرجع، لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو

---

(١) تفسير القرطبي: ٢/ ١١١.

يرى أنه لم يقض منه وطرا، فهي كنسابة وعلامة، قاله الأخفش، وقال غيره: هي هاء تأنيث المصدر وليست للمبالغة.

٢. سؤال وإشكال: ليس كل من جاءه يعود إليه، ٣. سؤال وإشكال: ليس يختص بمن ورد عليه، وإنما المعنى أنه لا يخلو من الجملة، ولا يعدم قاصدا من الناس.

٤. قوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾ استدلّ به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على ترك إقامة الحد في الحرم على المحصن والسارق إذا لجأ إليه، وعضدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ كأنه قال آمنوا من دخل البيت، والصحيح إقامة الحدود في الحرم، وأن ذلك من المنسوخ، لان الاتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت، ويقتل خارج البيت، وإنما الخلاف هل يقتل في الحرم أم لا؟ والحرم لا يقع عليه اسم البيت حقيقة، وقد أجمعوا أنه لو قتل في الحرم قتل به، ولو أتى حدا أقيد منه فيه، ولو حارب فيه حورب وقتل مكانه، وقال أبو حنيفة: من لجأ إلى الحرم لا يقتل فيه ولا يتابع، ولا يزال يضيق عليه حتى يموت أو يخرج، فنحن نقتله بالسيف، وهو يقتله بالجوع والصد، فأي قتل أشد من هذا.

٥. في قوله تعالى: ﴿وَأَمْنًا﴾ تأكيد للأمر باستقبال الكعبة، أي ليس في بيت المقدس هذه الفضيلة، ولا يحج إليه الناس، ومن استعاذ بالحرم أمن من أن يغار عليه.

٦. قرأ نافع وابن عامر ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متبعي إبراهيم، وهو معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾ أي جعلنا البيت مثابة واتخذوه مصلى، وقيل هو معطوف على تقدير إذ، كأنه قال وإذ جعلنا البيت مثابة وإذ اتخذوا، فعلى الأول الكلام جملة واحدة، وعلى الثاني جملتان.

٧. قرا جمهور القراء ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ بكسر الخاء على جهة الامر، قطعوه من الأول وجعلوه معطوفا جملة على جملة، قال المهدوي: يجوز أن يكون معطوفا على ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ كأنه قال ذلك لليهود، أو على معنى إذ جعلنا البيت، لان معناه اذكروا إذ جعلنا، أو على معنى قوله: ﴿مَثَابَةً﴾ لان معناه ثوبوا.

٨. ﴿مِنْ مَقَامِ﴾ المقام في اللغة: موضع القدمين، قال النحاس: (مقام) من قام يقوم، يكون مصدرا واسما للموضع، ومقام من أقام، فأما قول زهير:

وفيهم مقامات حسان ... وأندية ينتابها القول والفعل

فمعناه: فيهم أهل مقامات.

٩. اختلف في تعيين المقام على أقوال:

أ. أصحها أنه الحجر الذي تعرفه الناس اليوم الذي يصلون عنده ركعتي طواف القدوم، وهذا قول جابر بن عبد الله وابن عباس وقتادة وغيرهم، وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبي ﷺ لما رأى البيت استلم الركن فرمل ثلاثا، ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فصلى ركعتين قرأ فيهما بـ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وهذا يدل على أن ركعتي الطواف وغيرهما من الصلوات لأهل مكة أفضل ويدل من وجه على أن الطواف للغرباء أفضل.

ب. وفي البخاري: أنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناولها إياه في بناء البيت، وغرقت قدماه فيه، قال أنس: رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، حكاه القشيري.

ج. وقال السدي: المقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم عليه السلام حين غسلت رأسه.

د. وعن ابن عباس أيضا ومجاهد وعكرمة وعطاء: الحج كله.

هـ. وعن عطاء: عرفة ومزدلفة والجمار، وقاله الشعبي.

و. النخعي: الحرم كله مقام إبراهيم، وقاله مجاهد.

١٠. الصحيح في المقام القول الأول، حسب ما ثبت في الصحيح، وخرج أبو نعيم من حديث محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: نظر النبي ﷺ إلى رجل بين الركن والمقام، أو الباب والمقام وهو يدعو ويقول: اللهم اغفر لفلان، فقال له النبي ﷺ: (ما هذا)؟ فقال: رجل استودعني أن أدعو له في هذا المقام، فقال: (ارجع فقد غفر لصاحبك)

١١. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿مُصَلًّى﴾:

أ. قيل: مدعى يدعي فيه، قاله مجاهد.

ب. وقيل: موضع صلاة يصلى عنده، قاله قتادة.

ج. وقيل: قبلة يقف الامام عندها، قاله الحسن.

اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا﴾:

أ. قيل: معناه أمرنا.

ب. وقيل: أوحينا.

أن في قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا﴾) في موضع نصب على تقدير حذف الخافض، وقال سيبويه: إنها بمعنى أي مفسرة، فلا موضع لها من الاعراب، وقال الكوفيون: تكون بمعنى القول.

١٢. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا﴾:

أ. قيل معناه: من الأوثان، عن مجاهد والزهري.

ب. وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير: من الآفات والريب.

ج. وقيل: من الكفار.

د. وقال السدي: أبنياه وأسساه على طهارة ونية طهارة، فيجيء مثل قوله: ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾

هـ. وقال يمان: بخراه وخلقاه.

١٣. ﴿بَيْتِيَ﴾ أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم، وهي إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك، وقرا الحسن وابن أبي إسحاق وأهل المدينة وهشام وحفص: ﴿بَيْتِيَ﴾ بفتح الياء، والآخرون بإسكانها.

١٤. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾:

أ. ظاهره الذين يطفون به، وهو قول عطاء.

ب. وقال سعيد بن جبير: معناه للغرباء الطارئين على مكة، وفيه بعد.

١٥. اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾، والمعنى متقارب:

أ. قيل: المقيمين من بلدي وغريب، عن عطاء، وكذلك قوله: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾، والعكوف في اللغة: اللزوم والإقبال على الشيء، كما قال الشاعر: عكف النبيط يلعبون الفنزجا.

ب. وقال مجاهد: العاكفون المجاورون.

ج. وقال ابن عباس: المصلون.

د. وقيل: الجالسون بغير طواف.

١٦. ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي المصلون عند الكعبة، وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى.

١٧. لما قال الله تعالى ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى، فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة، وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها، أو لكونها أعظم حرمة، والأول أظهر، وفي التنزيل ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾، وروي عن عمر أنه سمع صوت رجل في المسجد فقال: ما هذا! أتدري أين أنت!؟ وقال حذيفة قال النبي ﷺ: (إن الله أوحى إلي يا أخا المنذرين يا أخا المرسلين أنذر قومك ألا يدخلوا بيتا من بيوتي إلا بقلوب سليمة وألسنة صادقة وأيد نقية وفروج طاهرة وألا يدخلوا بيتا من بيوتي ما دام لاحد عندهم مظلمة فإني ألعنه ما دام قائما بين يدي حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويكون من أوليائي وأصفيائي ويكون جاري مع ﴿النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾

الشوكاني:

ذكر محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١].

١. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ هو الكعبة، غلب عليه كما غلب النجم على الثريا، و﴿مَثَابَةً﴾: مصدر من: ثاب، يثوب، مثابا، ومثابة، أي: مرجعا يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه، ومنه قول ورقة بن نوفل في الكعبة:

مثابا لأفناء القبائل كلّها ... تخبّ إليها اليعملات الذّوامل

وقرأ الأعمش: (مثابات) وقيل: المثابة: من الثواب، أي: يثابون هنالك، وقال مجاهد: المراد: أنهم لا يقضون منه أوطارهم، قال الشاعر:

جعل البيت مثابا لهم ... ليس منه الدهر يقضون الوطر

قال الأخفش: ودخلت الهاء لكثرة من يثوب إليه، فهي كعلامة ونسابة، وقال غيره: هي للتأنيث؛ وليست للمبالغة.

---

(١) تفسير الشوكاني: ١/ ١٦٠.

٢. ﴿وَأَمْنًا﴾ هو اسم مكان، أي: موضع أمن، وقد استدلّ بذلك جماعة من أهل العلم؛ على أنه لا يقام الحدّ على من لجأ إليه، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وقيل: إن ذلك منسوخ.

٣. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرأ نافع وابن عامر: بفتح الخاء على أنه فعل ماض، أي: جعلنا البيت مثابة للناس، وأمنا، واتخذوه مصلى، وقرأ الباقون: على صيغة الأمر؛ عطفا على اذكروا؛ المذكور أوّل الآيات، أو على اذكروا المقدّر عاملا في قوله: ﴿وَإِذْ﴾ ويجوز أن يكون على تقدير القول، أي: وقلنا اتخذوا.

٤. المقام في اللغة: موضع القيام، قال النحاس: هو من: قام، يقوم، يكون مصدرا واسما للموضع، ومقام: من: أقام، وليس من هذا قول الشاعر:

وفيهم مقامات حسان ... وأندية ينتابها القول والفعل

لأن معناه أهل مقامات.

٥. اختلف في تعيين المقام على أقوال أصحها أنه الحجر الذي يعرفه الناس، ويصلّون عنده ركعتي الطواف؛ وقيل: المقام: الحج كله، روي ذلك عن عطاء ومجاهد؛ وقيل: عرفة والمزدلفة، روي عن عطاء أيضا، وقال الشعبي: الحرم كله مقام إبراهيم، وروي عن مجاهد.

أَطَّفِّيش:

ذكر محمد أَطَّفِّيش (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ الكعبة ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ مرجعا يثوب إليه من كان عنده أو يجيئه من لم يكن عنده، ويلتجئ إليه الخائف، وإطلاق الرجوع لمن لم يكن عنده مجاز؛ فذلك جمع بين الحقيقة والمجاز، وقد أجيز، وهو من عموم المجاز يناسب الإطلاق، إنَّ الآتي والرَّاجع كواحد، لاتِّفاق الدِّين، أو (مَثَابَةً) بمعنى موضع ذهاب إليه أو مزار، استعمالٌ للمقيَّد في معنى المطلق، أو هو موضع ثواب فلا مجاز، وتاؤه لتأنيث البقعة، وقيل: هي للمبالغة كما في الوصف كعلامة لكنَّه يؤنَّث، وهو اسم مكان ميميٌّ، أو مصدر ميميٌّ، أي: ذا ثواب، والأوَّل أولى والأصل: (مَثْوَبَة) بإسكان الثاء فُتحت بفتحة الواو نقلا فقلبت ألفًا.

(١) تيسير التفسير، أطفيش: ١/٢١٥.

٢. ﴿وَأَمْنًا﴾ موضع أمن، أي: ذا أمن، وقد يناسب هذا أن تجعل مثابة مصدرًا، أي: ذا مثابة وأمن للناس في حَرَمه، أو أمن لحرمه، لا يقع فيه ما يقع في غيره من الظلم والغارة، يَلقَى فيه الرجل قاتل أبيه فلا يخيفه ولا يُهيِّجه، ويتبع الكلبُ الصيد فيدخل في الحرم فلا يتبعه بعد لحرمة الحرم، وقد قال الله: ﴿حَرَمًا ـ امِنًا﴾ [القصص: ٥٧]، فقد نقول: (أَمْنًا) بمعنى آمِن، إلَّا أنَّ فيه مجاز التعلُّق والاِشتقاق، إذ جعلنا المصدر بمعنى اسم الفاعل، ومجاز الإسناد لأنَّ الذي يأمن هو الناس لا الحرم، وما تقدَّم فيه مجاز واحد كَلَا مجاز، إذ هو مجاز حذف.

٣. ومَن جَنَى في الحرم حُدَّ فيه، أو خارجًا فالتجأ إليه أخرج أو ضيِّق عليه حتَّى يخرج فيُحدَّ، وذلك من جملة الأمن فيه، وذكر بعض أنَّه أمن للحاجِّ من النار، وكفَّارة لذنوبه التي بينه وبين الله يوم القيامة، ولا يدري في الدنيا أقُبل منه أو رُدَّ.

٤. ﴿وَاتَّخَذُواْ﴾ أي: الناس، ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ بفتح الخاء [على قراءة ورش] إخبارٌ بمعنى الأمر، كأنَّهم امتثَلوا الاِتِّخاذ، فهو يخبر بوقوعه، والعطف عطف قصَّة على أخرى، أي: وإذ اتَّخذوا، أو على (جَعَلْنَا)؛ لأنَّ الغرض بيان أحوال البيت، ومنها الجعل والاتِّخاذ، أو يقدَّر: فثابوا واتَّخذوا، ولا بأس به، ولو كان الأصل عدم الحذف لاتِّحاد المسندين في المسند إليه، و(مِن) بمعنى إلى؛ لأنَّ المصلِّي يتوجَّه إلى الحجر الذي هو المقام، وينوي القبلة الكعبة، أو للابتداء، كقولك: رأيته من ذلك المكان، أي: انتهى شأنه منه إليك، أو (مِنْ) للتبعيض، أو الظرفيَّة، على أنَّ المقام الحرم، أو ما دار بالمطاف لا الحجر خصوصًا، والمراد على كلِّ وجه بالمصلَّى هذا الموضع المختار لركعتي الطواف.

٥. ويستحبُّ النفل والفرض فيه إذا لم يعطِّل ركعتي الطواف، وذلك أنَّه اتُّخذ للصلاة مطلقًا، وهو أربعون ذراعًا شمالاً، ويمينًا، وخلفًا، والمقام: موضع القيام، وهو ذلك الحجر، قام عليه عند بناء الكعبة، يدور به إلى جهاتها ويعلو به، وعند ندائه: (أيُّها الناس حجُّوا بيت ربِّكم)، تطاول حتَّى ساوى أبا قبيس، وعند غسل زوج إسماعيل رأسه أعني رأس إبراهيم إذ زاره ولم يجده، أو زار الكعبة، والمحوِّل له إلى موضعه اليوم هو رسول الله ﷺ كما هو مروي بسند ولو كان فيه ضعف، لا عُمَر، كما روي بسند ولو كان قويًّا، ولو احتمل أنَّه صلَّى رسول الله ﷺ ملصقا بالبيت، فعلم عمر أنَّ المرادَ جعله بين المُصلِّي والكعبة أينما هو فأخَّره إلى حيث هو اليوم، وروي أنَّه ﷺ أخذ بيد عمر فقال له: (هذا الحجر مقام إبراهيم)، فقال عمر:

(ألا تتَّخذه مصلًّى؟) فقال: (لم أومر بذلك)، فلم تغب الشمس حتَّى نزلت الآية، ويقال: كان داخل الكعبة ثمَّ أخرج، وقيل: موضعه اليوم هو بيت إبراهيم يحوله إليه من البناء كلَّ يوم، وقيل: المقام الحرم، وقيل مواضع الحجِّ والصلاة والدعاء: عرفات والمزدلفة ومنى ومواضع الرمي، والصلاة في ذلك دعاء، وقيل: الكعبة، أي: موضع صلاة إليه إذ يصلَّى إليها.

٦. ولا مقام إلَّا مقام إبراهيم عليه السلام، وهو مقام للمؤمنين كلِّهم على حدٍّ سواء، ولا وجه لنسبته للشافعي، ولا وجه للبناء فيه؛ لأنَّه نقص منه، ومن المسجد، ولا وجه لجعل مقام آخر لمالك، وآخر لأبي حنيفة وآخر لأحمد، فإنَّ ذلك زيادات في الدين، وتشرُّع فيه، وبدعة ونقص من الحرمِ والمقامِ بالبناء، ومناقضةٌ لمقام إبراهيم حتَّى إنَّه استوت الثلاثة عند العامَّة بمقام إبراهيم، ويفضِّلها عامَّة أهليها على مقام إبراهيم.

٧. وقد قال أمير مكَّة للسلطان حمود، وهو سلطان زنجبار أعوام إقامته بمكَّة: أَبْنِي مقامًا لك وللإباضيَّة لأهل مذهبك، فقال: (لا تفعل؛ لأنَّه خلاف الشريعة، ولأنَّهم لا يقبلون ذلك عنِّي ولا عنك، ولا يقف فيه أحد منهم)، فلذلك ونحوه قلت فيه القصيدة:

حمُّودنا بن محمَّد وشيعتِه ظِلُّ البريَّة، والحقُّ شريعتُه

٨. ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَيَآ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أصله (اسمع ايل)، أي: يا الله، ولقد علِمْتَ أنَّ العبريَّة قريبة من العربيَّة، والمعنى أنَّ إبراهيم قال: (اسمع يا الله دعائي بأن ترزقني ولدًا) فرزقه، فسمَّاه إسماعيل، وهو قويٌّ، ولو ضعَّفه بعض، وأختار أنَّه بمعنى: مطيع الله، والعهد إلى إبراهيم بالذَّات وإلى إسماعيل بالواسطة: أمرناهما، وأمرهما علمٌ عهد إليهما، وفسَّر العهدَ إذ فيه معنى القول بقوله: ﴿أَن طَهِّرَا﴾ أو يقدَّر: (بأن طهِّرا) ﴿بَيْتِيَ﴾ من الأوثان والأنجاس وما لا يليق، والحائض والنفساء وأهل الشرك، أي: اِبنياه على رسم أنْ لا يكون فيه ذلك، كقولك: (أدِرْ جيب القميص، وأطل القلم)، أي: جئ بهذه الصِّفة من أوَّل، أو أخلصاه.

٩. ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله لا يُعطِّلون عن الطَّواف، ولا يكون عنده من ليس أهلاً للطواف كالمشرك، وذلك على عمومه، وقال ابن جبير: الغرباء الوافدون حجَّاجا وزوَّارًا.

١٠. ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين عنده بالتوحيد والطاعة، قال عطاء: الجالسون عنده بلا طواف،

وقيل: المجاورون له من الغرباء، وقيل: المعتكفون فيه.

١١. ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جمع ساجد، والمراد بـ (الرُّكَّعِ السُّجُودِ) المصلُّون، وذكر الرُّكوع والسجود لأنَّهما أقرب أحوال المصلِّي إلى الله تعالى.

١٢. وقد أتمَّ الله تطهيره عن الأوثان وكلِّ ما لا يليق بنبيئنا ﷺ وأتمَّ عمارته بالطَّواف والعبادات والصلاة المشتملة على الركوع مقدَّمًا والسجود بعده على ترتيب لفظ الآية، لا كصلاة اليهود بلا ركوع، ولا كصلاة لا سجود فيها، ولا كصلاة يتقدَّم سجودها على ركوعها كما قيل عن اليهود أيضًا، ولا كصلاة مشركي العرب يقولون: السُّجود مسبَّة، فيركعون ولا يسجدون.

القاسمي:

ذكر جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ أي الذي بناه إبراهيم بأم القرى، وهو اسم غالب للكعبة كالنجم للثريا.

٢. ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ مباءة مرجعا للحجاج والعمّار، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه، ومثابة مفعلة، من (الثوب) وهو الرجوع تراميا إليه بالكلية، وسر هذا التفضيل ظاهر في انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها له، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد فهو الأولى بقول القائل:

محاسنه هيولى كل حسن ومغناطيس أفئدة الرجال

فهم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطرا، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقا:

لا يرجع الطرف عنها حين حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح! وكم أنفق في حبها من الأموال والأرواح! ورضي المحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل والأحباب والأوطان، مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطب والمشاق، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه! ذكر هذه الشذرة ابن القيم في أوائل زاد المعاد.

٣. ﴿وَأَمْنًا﴾ موضع أمن، كقوله ﴿حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]،

---

(١) تفسير القاسمي: ١/ ٣٩٢.

وكقوله ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يسبون، وكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له، وفي هذا بيان شرف البيت من كونه محلا تشتاق إليه الأرواح ولا تقضي منه وطرا، ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله في قوله ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، إلى أن قال ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، ومن كونه مأمنا لمن دخله، كما بيّنّا، وفي الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: (إن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار) الحديث.

٤. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرئ بكسر الخاء، أمرا معترضا بين الجملتين الخبريتين، أو بتقدير: وقلنا اتخذوا، وقرئ بفتح الخاء ماضيا معطوفا على جعلنا، أي واتخذوه مصلى.

٥. مقام إبراهيم هو الحرم كله، عن مجاهد، وعنه: هو جمع ومزدلفة ومنى ومكة، ويقال: هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام، فقد قال قتادة: إنما أمروا أن يصلّوا عنده ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلفت الأمم شيئا مما تكلفته الأمم قبلها، قال الراغب الأصفهانيّ: والأولى أنه الحرم كله، فما من موضع ذكروه إلا هو مصلى أو مدعى أو موضع صلاة.

٦. كأن الأصل في الآية: وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ومصلى، إلا أنه عدل إلى هذا الأسلوب الحكيم دون ذاك، ودون أن يقال مثلا: واتخذوا منه مصلى ـ لوجوه:

أ. أحدها، التنويه بأمر الصلاة فيه والتعظيم لشأنها حيث أفرد، للعناية بها، جملة على حدة.

ب. ثانيها، التذكير بأنه مقام الأب الأكبر للأنبياء كافة، وما كان مقامه فجدير أن يحترم ويعظم.

ج. ثالثها، التنصيص على أن هذا الاتخاذ بأمر ربانيّ لا بتشريع بشر، تمهيدا للأمر باستقباله، وإلزاما لمن جادل فيه، وهم اليهود، وقد روى الشيخان وغيرهما أن عمر قال: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

٧. قال ابن كثير: ومقام إبراهيم هو الحجر الذي يصلي عنده الأئمة، وذلك الحجر هو الذي قام إبراهيم عليه عند بناء البيت، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة وهو واقف

عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها، وهكذا حتى تم جدران الكعبة، كما جاء بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاريّ.. وقال: وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكأن الخليل عليه السلام، لما فرغ من بناء البيت، وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء، فتركه هناك، ولهذا، والله أعلم، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، كما فعل رسول الله ﷺ، فإنه لما قدم مكة طاف بالبيت سبعا، وجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين.. وقال: وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة، وقد روى البيهقيّ بسنده إلى عائشة قالت: إن المقام كان في زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ملتصقا بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب، كان فيه لما عفاه السيل، فأتى به وربط بلصق الكعبة في وجهها، وذهب السيل بأم نهشل بنت عبيدة بن سعد بن العاص بن أمية، فماتت فيه واستخرجت بأسفل مكة، وكان سيلا هائلا، فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب وهو بالمدينة الشريفة، فهاله ذلك، وركب فزعا إلى مكة، فدخلا بعمرة في شهر رمضان، فلما وصل إلى مكة وقف على حجر المقام وهو ملصق بالبيت الشريف، ثم قال أنشد الله عبدا عنده علم في هذا المقام، فقال المطلب بن أبي وداعة السهميّ: أنا يا أمير المؤمنين عندي علم ذلك، فقد كنت أخشى عليه مثل هذا الأمر، فأخذت قدره من موضعه إلى باب الحجر، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط، وهي عندي في البيت، فقال له عمر: اجلس عندي وأرسل إليها من يأتي بها، فجلس عنده وأرسل إليها فأتي بها، فقيس، ووضع حجر المقام في هذا المحل الذي هو فيه الآن، وأحكم ذلك واستمر إلى الآن.

٨. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي أمرناهما، وتعديته بـ ﴿إِلَىٰ﴾ لأنه في معنى: تقدمنا وأوحينا ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أي عن كل رجس حسيّ ومعنويّ: فلا يفعل بحضرته شيء لا يليق في الشرع، أو ابنياه على طهر من الشرك بي، كما قال تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، أو أخلصاه للطائفين وما بعده لئلا يغشاه غيرهم، فاللام صلة (طهرا) على هذا، وعلى ما قبله، لام العلة، أي طهراه لأجلهم.

٩. ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ أي حوله، وعن سعيد بن جبير: يعني من أتاه من غربة ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ يعني أهله

المقيمين فيه أو المعتكفين، كما روى ابن أبي حاتم بسنده إلى ثابت قال قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا مكلّم الأمير: أن امنع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يجنبون ويحدثون، قال لا تفعل فإن ابن عمر سئل عنهم فقال: هم العاكفون، ورواه عبد بن حميد في مسنده، وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب، وفي الكشاف: يجوز أن يريد بالعاكفين الواقفين، يعني القائمين في الصلاة، كما قال للطائفين والقائمين.

١٠. ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جمع راكع وساجد والمعنى للطائفين والمصلين، لأن القيام والركوع والسجود هيآت المصلي، ولتقارب الأخيرين ذاتا وزمانا ترك العاطف بين موصوفيهما، وجمع صفتين جمع سلامة، وأخر بين جمع تكسير لأجل المقابلة، وهو نوع من الفصاحة، وأخّر صيغة (فعول) على (فعّل) لأنها فاصلة والمراد من الآية الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ففي ذلك تبكيت لهم وتنبيه على توبيخهم بترك دينه.

رضا:

ذكر محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. قوله تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ معطوف على ما قبله، والمعنى واذكر أيها الرسول ـ أو أيها الناس ـ إذ جعلنا البيت الحرام مثابة للناس وأمنا أي ذا أمن، بأن خلقنا بما لنا من القدرة في قلوب الناس من الميل إلى حجه والرحلة إليه المرة بعد المرة من كل فج وصوب ما كان به مثابة لهم، ومن احترامه وتعظيمه وعدم سفك دم فيه ما كان به أمنا.

٢. لفظ (البيت) من الأعلام الغالبة على بيت الله الحرام بمكة كالنجم على الثريا، كان كل عربي يفهم هذا من إطلاق الكلمة.

٣. يذكر الله تعالى العرب بهذه النعمة أو النعم العظيمة، وهي جعل البيت الحرام مرجعا للناس

(١) تفسير المنار: ١/ ٤٦٠.

يقصدونه ثم يثوبون إليه، ومأمنا لهم في تلك البلاد بلاد المخاوف التي يتخطف الناس فيها من كل جانب، وبدعوة ابراهيم ﷺ للبيت وأهله المؤمنين، وفى هذا التذكير ما فيه من الفائدة في تقرير دعوة النبيّ ﷺ وبيان بنائها على أصول ملة ابراهيم، الذي تحترمه قريش وغيرها من العرب.

٤. اختار المثابة على نحو القصد والمزار، لأن لفظ المثابة يتضمن هذا وزيادة فإنه لا يقال: ثاب المرء إلى الشيء إلا إذا كان قصده أولا ثم رجع إليه، ولما كان البيت معبدا وشعارا عاما كان الناس الذين يدينون بزيارته والقصد إليه للعبادة يشتاقون الرجوع إليه، فمن سهل عليه أن يثوب إليه فعل، ومن لم يتمكن من الرجوع إليه بجثمانه، رجع إليه بقلبه ووجدانه.

٥. كونه مثابة للناس أمر معروف في الجاهلية والإسلام، وهو يصدق برجوع بعض زائريه إليه، وحنين غيرهم وتمنيهم له عند عجزهم عنه، وكذلك جعله أمنا معروف عندهم فقد كان الرجل يرى قاتل أبيه في الحرم فلا يزعجه، على ما هو معروف عندهم من حب الانتقام والتفاخر بأخذ الثأر.

٦. سؤال وإشكال: ما وجه المنة على العرب عامة بكون البيت أمنا للناس وللفائدة فيه إنما هي للجناة والضعفاء الذين لا يقدرون على المدافعة عن أنفسهم؟ والجواب: ذكر محمد عبده أنه ما من قوى إلا ويوشك أن يضطر في يوم من الأيام إلى مفزع يلجأ إليه لدفع عدو أقوى منه أو لهدنة يصطلح في غضونها مع خصم يرى سلمه خيرا من حربه، وولاءه أولى من عدائه، فبلاد كلها أخطار ومخاوف لا راحة فيها لأحد، وقد بين الله المنة على العرب إذ جعل لهم مكانا آمنا بقوله في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾

٧. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ بفتح الخاء على أنه فعل ماض معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾ والباقون بكسرها على أنه أمر أي وقلنا اتخذوا أو قائلين اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى فحذف القول للإيجاز، وفائدته أن يستحضر ذهن التالي أو السامع المأمورين حاضرين والأمر يوجه إليهم، فهو تصوير للماضي بصورة الحاضر ليقع في نفوس المخاطبين بالقرآن أن الأمر يتناولهم، وأنه موجه إليهم كما وجه إلى سلفهم في عهد أبيهم ابراهيم؛ وهم ولده اسماعيل وآل بيته ومن أجاب دعوتهما إلى حج البيت، لا أنه حكاية تاريخية سيقت للفكاهة والتسلية بل شريعة ودين، وهذا القول أحسن من قول بعضهم إن ﴿اتَّخَذُوا﴾ أمر لأمة محمد ﷺ لأن ذلك القول يقتصر على معنى صيغة الأمر،

وما قلنا يتضمن مع ذلك معنى القراءة بصيغة الماضي الدالة على أن إبراهيم ومن معه قد اتخذوا مقامه مصلى، ولأنه أبلغ لما فيه من تحريك شعور الخلف بشرف عمل السلف وبعثهم على الاقتداء بهم.

٨. ﴿مَقَامَ﴾ اسم مكان من القيام، وقد اختلف المفسرون في مقام ابراهيم، فقال بعضهم إنه الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء الكعبة، قاله ابن عباس وجابر وقتادة وغيرهم ورواه البخاري، وقال آخرون: إنه الحرم كله وهو مروى عن النخعي ومجاهد، وروى عن ابن عباس وعطاء أنه مواقف الحج كلها، وقال الشعبي: إنه عرفة ومزدلفة والجمار.

٩. اختلفوا أيضا في تفسير المصلى فقال من فسر المقام بالحجر إنه مكان الصلاة أي صلاتنا المخصوصة، واستدلوا له بحديث جابر عند مسلم قال: إن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ الآية.. وذهب الآخرون إلى أن المراد بالمصلى موضع الصلاة بمعناها اللغوي العام وهو الدعاء والتوجه إلى الله تعالى وعبادته مطلقا، ومحمد عبده يرجح قول هؤلاء وذكر من دليله أن الحجر لا يسع الصلاة المخصوصة ولذلك قال جابر: (إن النبيّ صلى خلفه) فكيف يتخذ منه محل للصلاة؟ وأجاب عن حديث مسلم وحديث أبى نعيم مرفوعا (هذا مقام ابراهيم) بأنه ليس فيهما ما يدل على أن الحجر هو المراد بمقام ابراهيم في الآية دون غيره وإنما صلاته تدل على أن الصلاة هناك مشروعة، على أن في سند حديث أبى نعيم مقالا، والخطاب في الأصل للمؤمنين في زمن ابراهيم عليه السّلام ولم تكن صلاتنا هذه صلاتهم، فحمل المقام على جميع شعائر الحج التي قام فيها ابراهيم والصلاة على معناها اللغوي الذي يشمل صلاة إبراهيم ومن كان معه على عبادته كما يشمل صلاتنا ومناسكنا أظهر، كما قال محمد عبده: والصلاة عند العرب وغيرهم من الأمم تشمل الدعاء والثناء على الله والتوسل إليه بكل قول وعمل يدل على التوجه إليه سبحانه، ويقول المحققون من الفقهاء: حيثما صليت من المسجد فثم مقام ابراهيم، والناس يتحرون صلاة ركعتي الطواف خلف البناء المرتفع الذي وضع فيه الحجر الذي فيه أثر قدم إبراهيم ﷺ إن أمكن، والمروى أنه كان ملاصقا للكعبة فأخره إلى ذلك المكان عمر كما رواه عبد الرزاق بسند قوى عندهم، وروى ابن مردويه عن مجاهد بسند ضعيف أن النبيّ ﷺ هو الذي أخره.

١٠. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ عهد إليه بالشيء وصاه به، والمراد أن الله كلفهما أن يطهرا ذلك المكان الذي نسبه إليه وسماه بيته لأنه جعله معبدا يعبد فيه العبادة الصحيحة، ولم

يذكر ما يجب أن يطهراه منه ليشمل جميع الرجس الحسى والمعنوي كالشرك وأصنامه واللغو والرفث والتنازع.

١١. تخصيص الله تعالى ذلك البيت بالنسبة إلى ذاته المنزهة عن صفات الأجسام ليس لخصوصية في موقعه ولا في أحجاره، وإنما كان بيتا لله لأن الله تعالى سماه بيته وأمر بأن يتوجه إليه المصلون، وبأن يعبد فيه عبادة خاصة، والحكمة في ذلك أن البشر يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبي مطلق لا يتقيد بمكان ولا ينحصر في جهة وهم في حاجة إلى التوجه إلى خالقهم وشكره والتوسل إليه والثناء عليه واستمداد رحمته ومعونته لما في ذلك من الفائدة لهم لأنه يعلى مداركهم عن التقيد في دائرة الأسباب المعروفة على ضيقها وعن الاستخذاء لما لا يعرفون له سببا، ويرفع نفوسهم عن الرضى بالحياة الحيوانية، فله الحمد والمنة أن عين لهم مكانا نسبه إليه فسماه بيته رمزا إلى أن ذاته المقدسة تحضره، فاذا كان الحضور الحقيقي محالا عليها، فإنها تحضره رحمته الإلهية، ولذلك كان التوجه إليه بمنزلة التوجه إلى تلك الذات العلية، لو وجد العبد إلى ذلك سبيلا، ولو كلف الله عباده بعبادته مطلقا ـ وقد علمهم بنظر العقل وإرشاد الشرع أنه ليس كمثله شيء لوقعوا في الحيرة والاضطراب لا يدرون كيف يتوجهون إلى ذات غيبية مطلقة، ولو اختار بعضهم لنفسه عبادة تليق بهذا التنزيه الذي أرشد إليه الكتاب وصدقه العقل لما اهتدى إليه الآخرون وبذلك يفقد المؤمنون الجامعة التي تجمعهم على أفضل الأعمال التي تؤلف بين قلوبهم، لذلك قلنا: إن الله رحمهم إذ جعل لنفسه بيتا يقصدونه ويثوبون إليه عند الإمكان، ويتوجهون إليه في صلاتهم وإن بعد المكان، ولا يخشى على المؤمن توهم الحلول في ذات الله بنسبة البيت إليه بعد ما نفى سبحانه كل إيهام بقوله ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ولا يرد على هذا كون السماء قبلة الدعاء لاشعارها بعلوه تعالى على جميع خلقه للفرق الظاهر بين الصلاة والدعاء.

١٢. ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يؤيد ما رجحه محمد عبده من جعل المصلى بالمعنى العام أي المعبد، فإنه بعد أمر الناس باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، بين لنا أن إبراهيم واسماعيل طهراه بأمره لأداء أنواع من العبادات فيه كالطواف وفى معناه السعي بين الصفا والمروة والعكوف في المسجد والركوع والسجود وهما من أعمال الصلاة، والركع السجود جمع الراكع والساجد والآية تدل على أن إبراهيم كان مأمورا هو ومن آمن به بهذه العبادات، ولكن لا دليل فيها على أنهم كانوا يؤدونها على الوجه المشروع

عندنا.

المراغي:

ذكر أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ذكّر سبحانه العرب في هذه الآيات بنعم أسبغها عليهم ومنن قلّدها جيدهم، وهى جعل البيت الحرام مرجعا للناس يقصدونه ثم يثوبون إليه، وجعله مأمنا لهم في هذه البلاد بلاد المخاوف التي يتخطف الناس فيها من كل جانب، ودعوة إبراهيم للبيت وأهله المؤمنين، وفي التذكير بهذا فائدة في تقرير دعوة النبي ﷺ وأنها مبنية على أصول ملة إبراهيم الذي يحترمه العرب جميعا.

٢. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي واذكروا حين أن جعلنا البيت الحرام مرجعا للناس يثوبون إليه للعبادة، ويقصدونه لأداء المناسك فيه، وجعلناه أمنا لاحترام الناس له وتعظيمهم إياه بعدم سفك دم فيه، حتى كان يرى الرجل قاتل أبيه في الحرم فلا يتعرّض له بسوء ونحو الآية قوله في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِّ يَكْفُرُونَ﴾

٣. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ أي وقلنا لهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وفائدة ذكر هذا الأمر أن يستحضر السامع أو التالي المأمورين، وكأن الأمر يوجه إليهم، ليقع في نفوس المخاطبين به أن الأمر يتناولهم وأنه موجه إليهم كما وجه إلى سلفهم في عهد أبيهم إبراهيم، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ له، فنحن مأمورون بالدعاء في مقام إبراهيم، كما أمر به من كان في عصره من المؤمنين.

٤. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي ووصينا إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من كل رجس معنوي كالشرك بالله وعبادة الأصنام، أو رجس حسى كاللغو والرفث والتنازع فيه، حين أداء العبادات كالطواف به والسعي بين الصفا والمروة والعكوف فيه والركوع والسجود.

٥. في الآية إيماء إلى أن إبراهيم كان مأمورا هو ومن بعده بهذه العبادات، ولكن لا دليل على معرفة

---

(١) تفسير المراغي: ١/ ٢١١.

الطريق التي كانوا يؤدونها بها، وسماه الله بيته لأنه جعله معبدا للعبادة الصحيحة، وأمر المصلين بأن يتوجهوا في عبادتهم إليه، والحكمة في ذلك أن الخلق في حاجة إلى التوجه إلى خالقهم لشكره والثناء عليه والتوسل إليه لاستمداد رحمته ومعونته، وهم يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبي لا يتقيد بمكان ولا ينحصر في جهة، فعيّن لهم مكانا نسبه إليه رمزا إلى أن ذاته المقدسة تحضره، والحضور الحقيقي محال عليه، فالمراد أن رحمته الإلهية تحضره، ومن ثمّ كان التوجه إلى هذا المكان كالتوجه إلى تلك الذات العلية لو وجد العبد إلى ذلك سبيلا.

سيّد:

ذكر سيّد قطب (ت ١٣٨٥ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. هذا البيت الحرام الذي قام سدنته من قريش فروعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره.. لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعا، فلا يروعهم أحد؛ بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم، فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام.

٢. لقد أمروا أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ـ ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره في تفسيره ـ فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضا، وهو أولى قبلة يتوجه إليها المسلمون، ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح، بما أنه بيت الله، لا بيت أحد من الناس، وقد عهد الله ـ صاحب البيت ـ إلى عبدين من عباده صالحين أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود ـ أي للحجاج الوافدين عليه، وأهله العاكفين فيه، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت ملكا لهما، فيورث بالنسب عنهما، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما، لإعداده لقصاده وعباده من المؤمنين.

الخطيب:

ذكر عبد الكريم الخطيب (ت ١٣٩٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[٢]:

١. هذا فضل من الله اختصّ به مكانا مباركا، فجعله حرما آمنا، يأوي إليه الناس، فيجدون في ظله

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١١٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن:١/ ١٤١.

السّكن والاطمئنان.. والمثابة: المرجع، يثوب إليه الناس ويرجعون.. والبيت، هو البيت الحرام بمكة، وقد ذكر معرّفا هكذا: (البيت) إشارة إلى أنه واحد البيوت كلّها، وأنه إذا ذكر (البيت) كان هو هذا البيت!.. البيت الحرام.

٢. في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ التفات من غيبة إلى حضور، ومن خبر إلى أمر، للتنويه بشأن هذا البيت، وبالأمر المتعلق به.

٣. في قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ التفات من أمر إلى خبر، ليقوّى من شأن الأمر، وليزيد في ظهوره، والعهد هنا، معناه: التكليف والأمر.. وتطهير البيت: إعداده وتخصيصه للمؤمنين بالله، فلا يقربه مشرك، ولا يطوف به، ولا يعكف فيه إلا مؤمن خالص الإيمان.

ابن عاشور:

ذكر محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. تدرج في ذكر منقبة إبراهيم إذ جعل الله بيته بهذه الفضيلة، و(إذ) أضافها إلى جلالته فقال: (بيتي)، واستهلال لفضيلة القبلة الإسلامية، فالواو عاطفة على ﴿ابْتَلَى﴾ [البقرة: ١٢٤] وأعيدت (إذ) للتنبيه على استقلال القصة وأنها جديرة بأن تعد بنية أخرى، ولا التفات إلى حصول مضمون هذه بعد حصول الأخرى أو قبله إذ لا غرض في ذلك في مقام ذكر الفضائل، ولأن الواو لا تفيد ترتيبا.

٢. البيت اسم جنس للمكان المتخذ مسكنا لواحد أو عدد من الناس في غرض من الأغراض، وهو مكان من الأرض يحيط به ما يميزه عن بقية بقعته من الأرض ليكون الساكن مستقلا به لنفسه ولمن يتبعه فيكون مستقرا له وكنا يكنه من البرد والحر وساترا يستتر فيه عن الناس ومحطا لأثاثه وشئونه، وقد يكون خاصا وهو الغالب وقد يكون لجماعة مثل دار الندوة في العرب وخيمة الاجتماع في بني إسرائيل، وقد يكون محيط البيت من حجر وطين كالكعبة ودار الندوة، وقد يكون من أديم مثل القباب، وقد يكون من نسيج صوف أو شعر قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ [النحل: ٨٠]،

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٦٨٩.

ولا يكون بيتا إلا إذا كان مستورا أعلاه عن الحر والقر وذلك بالسقف لبيوت الحجر وبيوت الأديم والخيام.

٣. البيت علم بالغلبة على الكعبة كما غلب النجم على الثريا، وأصل أل التي في الأعلام بالغلبة هي أل العهدية وذلك إذا كثر عهد فرد من أفراد جنس بين طائفة أو قوم صار اسم جنسه مع أل العهدية كالعلم له ثم قد يتعهدون مع ذلك المعنى الأصلي كما في النجم للثريا والكتاب للقرآن والبيت للكعبة، وقد ينسى المعنى الأصلي إما بقلة الحاجة إليه كالصعق علم على خويلد بن نفيل وإما بانحصار الجنس فيه كالشمس.

٤. الكعبة بيت بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده دون شريك فيأوي إليه من يدين بالتوحيد ويطوف به من يقصد تعظيم الله تعالى ولذلك أضافه إلى الله تعالى باعتبار هذا المعنى كما قال ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ وفي قوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وقد عرفت الكعبة باسم البيت من عهد الجاهلية قال زهير:

فأقسمت بالبيت الذي طاف   رجال بنوه من قريش وجرهم

٥. المثابة مفعلة من ثاب يثوب إذا رجع ويقال مثابة ومثاب مثل مقامة ومقام، والمراد بالمثابة أنه يقصده الناس بالتعظيم ويلوذون به.

٦. المراد من الناس سكان مكة من ذرية إسماعيل وكل من يجاورهم ويدخل في حلفهم، فتعريف الناس للجنس المعهود، وتعليق للناس بمثابة على التوزيع أي يزوره ناس ويذهبون فيخلفهم ناس.

٧. لما كان المقصود من هذا ذكر منقبة البيت والمنة على ساكنيه كان الغرض التذكير بنعمة الله أن جعله لا ينصرف عنه قوم إلا ويخلفهم قوم آخرون، فكان الذين يخلفون الزائرين قائمين مقامهم بالنسبة للبيت وسكانه، ويجوز حمل تعريف الناس على العهد أي يثوب إليه الناس الذين ألفوه وهم كمّل الزائرين فهم يعودون إليه مرارا، وكذلك كان الشأن عند العرب.

٨. الأمن مصدر أخبر به عن البيت باعتبار أنه سبب أمن فجعل كأنه نفس الأمن مبالغة، والأمن حفظ الناس من الأضرار فتشريد الدعّار وحراسة البلاد وتمهيد السبل وإنارة الطرق أمن، والانتصاف من الجناة والضرب على أيدي الظلمة وإرجاع الحقوق إلى أهلها أمن، فالأمن يفسر في كل حال بما يناسبه، ولما

كان الغالب على أحوال الجاهلية أخذ القوي مال الضعيف ولم يكن بينهم تحاكم ولا شريعة كان الأمن يومئذ هو الحيلولة بين القوي والضعيف، فجعل الله لهم البيت أمنا للناس يومئذ أي يصد القوي عن أن يتناول فيه الضعيف قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] فهذه منة على أهل الجاهلية، وأما في الإسلام فقد أغنى الله تعالى بما شرعه من أحكامه وما أقامه من حكامه فكان ذلك أمنا كافيا، قال السهيلي فقوله تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] إنما هو إخبار عن تعظيم حرمته في الجاهلية نعمة منه تعالى على أهل مكة فكان في ذلك مصلحة لذرية إسماعيل عليه السلام.

٩. اختلف الفقهاء في الاستدلال بهذه الآية وأضرابها على حكم إقامة الحدود والعقوبات في الحرم وسيأتي تفصيلها عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩١] الآية وليس من غرض هذه الآية.

١٠. المراد من الجعل في الآية إما الجعل التكويني لأن ذلك قدره الله وأوجد أسبابه فاستقر ذلك بين أهل الجاهلية ويسرهم إلى تعظيمه، وإما الجعل أن أمر الله إبراهيم بذلك فأبلغه إبراهيم ابنه إسماعيل وبثه في ذريته فتلقاه أعقابهم تلقي الأمور المسلمة، فدام ذلك الأمن في العصور والأجيال من عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن أغنى الله عنه بما شرع من أحكام الأمن في الإسلام في كل مكان وتم مراد الله تعالى، فلا يريبكم ما حدث في المسجد الحرام من الخوف في حصار الحجاج في فتنة ابن الزبير ولا ما حدث فيه من الرعب والقتل والنهب في زمن القرامطة حين غزاه الحسن ابن بهرام الجنابي.

١١. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرأه نافع وابن عامر بصيغة الماضي عطفا على ﴿جَعَلْنَا﴾ فيكون هذا الاتخاذ من آثار ذلك الجعل فالمعنى ألهمنا الناس أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، أو أمرناهم بذلك على لسان إبراهيم فامتثلوا واتخذوه، فهو للدلالة على حصول الجعل بطريق دلالة الاقتضاء فكأنه قيل جعلنا ذلك فاتخذوا، وقرأه باقي العشرة بكسر الخاء بصيغة الأمر على تقدير القول أي قلنا اتخذوا بقرينة الخطاب فيكون العامل المعطوف محذوفا بالقرينة وبقي معموله كقول لبيد:

فعلا فروع الأيهقان وأطفلت ... بالجلهتين ظباؤها ونعامها

أراد وباضت نعامها فإنه لا يقال لأفراخ الطير أطفال، فمآل القراءتين إلى مفاد واحد.

١٢. مقام إبراهيم يطلق على الكعبة لأن إبراهيم كان يقوم عندها يعبد الله تعالى ويدعو إلى توحيده، قال زيد بن عمرو بن نفيل:

عذت بما عاذ به إبراهم مستقبل الكعبة وهو قائم

وبهذا الإطلاق جاء في قوله تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] إذ الدخول من علائق البيت، ويطلق مقام إبراهيم على الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام حين بنائه الكعبة ليرتفع لوضع الحجارة في أعلى الجدار كما أخرجه البخاري، وقد ثبتت آثار قدميه في الحجر، قال أنس بن مالك رأيت في المقام أثر أصابعه وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، وهذا الحجر يعرف إلى اليوم بالمقام، وقد ركع النبي ﷺ في موضعه ركعتين بعد طواف القدوم فكان الركوع عنده من سنة الفراغ من الطواف.

١٣. المصلّى موضع الصلاة وصلاتهم يومئذ الدعاء والخضوع إلى الله تعالى، وكان إبراهيم قد وضع المسجد الحرام حول الكعبة ووضع الحجر الذي كان يرتفع عليه للبناء حولها فكان المصلّى على الحجر المسمى بالمقام فذلك يكون المصلى متخذا من مقام إبراهيم على كلا الإطلاقين.

١٤. القراءتان تقتضيان أن اتخاذ مقام إبراهيم مصلّى كان من عهد إبراهيم عليه السلام ولم يكن الحجر الذي اعتلى عليه إبراهيم في البناء مخصوصا بصلاة عنده ولكنه مشمول للصلاة في المسجد الحرام ولما جاء الإسلام بقي الأمر على ذلك إلى أن كان عام حجة الوداع أو عام الفتح دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام ومعه عمر بن الخطاب ثم سنت الصلاة عند المقام في طواف القدوم، روى البخاري عن عمر بن الخطاب أنه قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وهذه الرواية تثير معنى آخر للآية وهي أن يكون الخطاب موجها للمسلمين فتكون جملة ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ معترضة بين جملة ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ وجملة ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ اعتراضا استطراديا، وللجمع بين الاحتمالات الثلاثة في الآية يكون تأويل قول عمر (فنزلت) أنه نزل على النبي ﷺ شرع الصلاة عند حجر المقام بعد أن لم يكن مشروعا لهم ليستقيم الجمع بين معنى القراءتين واتخذوا بصيغة الماضي وبصيغة الأمر فإن صيغة الماضي لا تحتمل غير حكاية ما كان في زمن إبراهيم وصيغة الأمر تحتمل ذلك وتحتمل أن يراد بها معنى التشريع للمسلمين، إعمالا للقرآن

بكل ما تحتمله ألفاظه حسبما بيناه في المقدمة التاسعة.

١٥. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾، العهد أصله الوعد المؤكد وقوعه وقد تقدم آنفا عند قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فإذا عدي بإلى كان بمعنى الوصية المؤكد على الموصى العمل بها فعهد هنا بمعنى أرسل عهدا إليه أي أرسل إليه يأخذ منهم عهدا، فالمعنى وأوصينا إلى إبراهيم وإسماعيل.

١٦. ﴿أَنْ طَهِّرَا﴾ أن تفسيرية لأن الوصية فيها معنى القول دون حروفه فالتفسير للقول الضمني والمفسّر هو ما بعد (أن) فلا تقدير في الكلام ولولا قصد حكاية القول لما جاء بعد (أن) بلفظ الأمر، ولقال بتطهير بيتي.

١٧. المراد من تطهير البيت ما يدل عليه لفظ التطهير من محسوس بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ ليكون المتعبّد فيه مقبلا على العبادة دون تكدير، ومن تطهير معنوي وهو أن يبعد عنه ما لا يليق بالقصد من بنائه من الأصنام والأفعال المنافية للحق كالعدوان والفسوق، والمنافية للمروءة كالطواف عريا دون ثياب الرجال والنساء.. وفي هذا تعريض بأن المشركين ليسوا أهلا لعمارة المسجد الحرام لأنهم لم يطهروه مما يجب تطهيره منه قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]

١٨. الطائفون والعاكفون والراكعون والساجدون أصناف المتعبدين في البيت من طواف واعتكاف وصلاة، وهم أصناف المتلبسين بتلك الصفات سواء انفردت بعض الطوائف ببعض هذه الصفات أو اجتمعت الصفات في طائفة أو طوائف، وذلك كله في الكعبة قبل وضع المسجد الحرام، وهؤلاء هم إسماعيل وأبناؤه وأصهاره من جرهم وكلّ من آمن بدين الحنيفية من جيرانهم.

١٩. جمع الطائف والعاكف جمع سلامة، وجمع الراكع والساجد جمع تكسير، تفننا في الكلام وبعدا عن تكرير الصيغة أكثر من مرة بخلاف نحو قوله: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ﴾ [التحريم: ٥] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية، وقال ابن عرفة (جمع الطائفين والعاكفين جمع سلامة لأنه أقرب إلى لفظ الفعل بمنزلة يطوفون أي يجددون الطواف للإشعار بعلة تطهير البيت وهو قرب هذين من البيت بخلاف الركوع والسجود فإنه لا يلزم أن يكونا في البيت ولا

عنده فلذلك لم يجمع جمع سلامة)، وهذا الكلام يؤذن بالفرق بين جمع السلامة وجمع التكسير من حيث الإشعار بالحدوث والتجدد، ويشهد له كلام أبي الفتح ابن جني في (شرح الحماسة) عند قول الأحوص الأنصاري:

فإذا تزول تزول عن متخمّط تخشى بوادره على الأقران

قال أبو الفتح: (جاز أن يتعلق على ببوادر، وإن كان جمعا مكسرا والمصدر إذا كسر بعد بتكسيره عن شبه الفعل، وإذا جاز تعلق المفعول به بالمصدر مكسرا نحو (مواعيد عرقوب أخاه) كان تعلق حرف الجر به أجوز)، فصريح كلامه أن التكسير يبعد ما هو بمعنى الفعل عن شبه الفعل.

٢٠. خولف بين الركوع والسجود زيادة في التفنن وإلا فإن الساجد يجمع على سجّد إلا أن الأكثر فيهما إذا اقترنا أن يخالف بين صيغتيهما قال كثير:

لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركعا وسجودا

وقد علمتم من النحو والصرف أن جمع فاعل على فعول سماعي فمنه شهود وهجوع وهجود وسجود.. ولم يعطف السجود على (الركع) لأن الوصفين متلازمان ولو عطف لتوهم أنهما وصفان مفترقان.

أبو زهرة:

ذكر محمد أبو زهرة (ت ١٣٩٤ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، المعنى: واذكر الوقت الذي جعلنا فيه البيت مثابة للناس، أي اذكر ذلك الوقت بما فيه من نعم، وإكرام لأهل التقوى، والبيت المراد منه المسجد الحرام، وإطلاق كلمة (البيت) وإرادة البيت الحرام إشعار بفضله، وإشارة إلى كماله، وإلى أنه أكمل بيت وضع للناس، لأنه أول بيت للعبادة، ولأنه بناء إبراهيم أبي الأنبياء، ولأنه موضع الأمن من الخوف، ومثابة الناس، ولأنه أنشئ مطهرا من الأصنام وما جاء بها العرب بعد ذلك إلا بعد أن انحرفوا عن ملة إبراهيم وإن كان ـ البيت ـ شرفهم ومحتدهم الكريم.

---

(١) زهرة التفاسير: ١/ ٣٩٧.

٢. المثابة: أي المرجع الذي يأوون إليه، والمثابة مصدر ثاب يثوب مثابا، وثئوبا، أي مأوى يأوون إليه عندما تشتد بأحدهم شديدة ويريد الالتجاء إليه سبحانه.

٣. ﴿وَأَمْنًا﴾ مصدر موصوف به البيت فهو أمن للناس يأمنون فيه من القتل أو الاعتداء، حتى إن الرجل ليلقى فيه قاتل أبيه أو أخيه فلا يمتد إليه، وحرم فيه القتل والقتال، وكان محترما في الجملة من العرب أيام شركهم، وذلك من هداية الله تعالى لهم بالأخذ بأثارة من بقايا ملة إبراهيم، ولقد قال الله تعالى في هذا البيت: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران]

٤. ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ فيه إشارة أولا إلى أن الكعبة مثابة للناس، يجيئون إليها في حجهم، كما صرح سبحانه وتعالى، وفيها قبلتهم إذ يثوبون إليها في الصلاة ويلتفون حولها التفاف الدائرة حول قطبها، فهم يتجهون إليها من كل أرض الله تعالى.. وإن باني الكعبة المكرمة إبراهيم عليه السلام هو وابنه إسماعيل عليه السلام.

٥. ليبقى الاتصال بين الحاضر والماضي أمر الله تعالى أن يكون مقام إبراهيم للبناء مصلى لمن جاء بعده من الذين سماهم إبراهيم المسلمين، وهم أمة محمد ﷺ؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرئ بالطلب بكسر الخاء، وقرئ بالفتح على أنها خبر، وفى الحالين هي معطوفة على ﴿جَعَلْنَا﴾ فعلى قراءة فتح الخاء يكون المعنى جعلناه للناس مثابة وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعلى قراءة الأمر يكون عطف جملة طلبية على مثلها؛ لأن ﴿جَعَلْنَا﴾ وإن كانت بلفظ الخبر ولكن معناها الطلب؛ لأن المؤدى أنها أمر من الله تعالى بأن يكون البيت مثابة للناس يرجعون إليه ويأوون ويحيطون به في صلاتهم إحاطة الدائرة بقطبها، وأمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

٦. ﴿مَقَامَ﴾ اسم مكان القيام، أي الشيء الذي قام إبراهيم عليه يبنى البيت بمعاونة إسماعيل عليهما السلام، وقد قالوا إنه الحجر الذي يعرفه الناس، في الحج، واتخاذه مصلى، أي اتخاذ المكان الذي هو فيه مصلى أي مكانا للصلاة فالمصلى اسم مكان للصلاة، وفى البخاري أن مقام إبراهيم الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت وغرقت قدماه فيه،

وقال أنس: رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه.

٧. إن اتخاذ مقام إبراهيم مكانا للصلاة إبقاء لذكر إبراهيم عليه السلام وتنويها بالصلاة في ذاتها وأنها الصلة بين الماضي والحاضر، وقد كانت بأمر الله تعالى، وليست بدعا قد أتاها.

٨. تكلم المؤرخون في الحجر الذي قام عليه إبراهيم لبناء الكعبة المكرمة، وأوثق من قال في ذلك ابن كثير، لقد قال في ذلك: (مقام إبراهيم هو الحجر الذي يصلى عنده، وهذا الحجر هو الذي قام إبراهيم عليه عند بناء البيت لما ارتفع الجدار، أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة، فيضعها بيده لرفع الجدار وكان كلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه وكلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها، وهكذا حتى تم بناء جدران الكعبة)، ويقول في موضعه الذي وضعه إبراهيم بعد البناء: (وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم إلى مكان الباب مما يلى الحجرة يمين الداخل من البقعة المستقلة هناك، وكأن الخليل عليه السلام، لما فرغ من بناء الكعبة، وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انته عنده البناء فتركه هناك، ولهذا ـ والله أعلم ـ أمر الله تعالى بالصلاة عند الانتهاء من الطواف وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انته بناء الكعبة)

٩. بهذا تبين أن مقام ابراهيم هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم لإتمام البناء، ولما أتمه وضعه بجوارها، وكأن الصلاة عقب الطواف عنده حيث انته إبراهيم من البناء وحيث انته الطائفون من طوافهم، ولقد جاء في العام السابع عشر من الهجرة سيل شديد نقل الحجر من موضعه فهال ذلك عمر، وركب إلى مكة وتحرى الموضع الذي كان فيه الحجر فوضعه فيه، لقد أقام البناء للبيت العتيق نبيان، وبهذا البناء بنيا مجد العرب، وبنيا أمنهما ومكان عبادة الناس، ومثابتهم التي يستقبلونها فيحيطون بها.

١٠. بنياه طاهرا، مطهرا، وعهد الله تعالى إلى اللذين بنياه أن يقوما على استمرار طهارته ليتحقق الغرض الأول، وهو أن يكون مقصدا للحجيج الطائفين والذين يجاورونه عاكفين على العبادة فيه، فقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

١١. العهد في هذا النص السامي من عهد إلى هذا برعاية بيته أو أهله في غيبه، فمعنى ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾، أي جعلنا لهما عهدا وفوضناهما برعاية البيت إنشاء وتطهيرا وقوله تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ تفسير للعهد المذكور، وتطهيره هو التطهير من الرجس الحسى من الخبائث الحسية، والتطهير

المعنوي بأن يخصص لعبادة الله تعالى وحده فلا يكون مكانا لوثن، ولا معبدا لغير الله تعالى، وقد قال تعالى في هذا المعنى السامي ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج]

١٢. يصح على هذا أن نقول إن العهد أن يبنياه مطهرا من كل خبث في بنائه بقلب سليم، ونفس مخلصة لوجه الله تعالى، وأن يجعلاه طاهرا معنى وحسا ليكون للقاصدين له من غير مكة، والمقيمين حوله، وسماهم هنا العاكفين مشيرا إلى أن البقاء بجواره مجاورين له قائمين بحقه عبادة، وعبر في الآية الأخرى بالقائمين أي المستمرين حوله، والطائفون عند أكثر الكاتبين هم القادمون للطواف وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلا، وإنه مع أنه موطن الحجيج الطوافين والمقيمين حوله مجاورين معتكفين هو مسجد الله تعالى تقام فيه الصلاة، فيكون لهؤلاء الطائفين العاكفين ويكون للمقيمين للصلاة.

١٣. أشار إليهم سبحانه بقوله تعالت كلماته: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ هم الراكعون وهو جمع تكسير، وهم الذين يخضعون لله تعالى راكعين متضرعين متبتلين، والسجود جمع ساجد، كقعود جمع قاعد، ورقود جمع راقد، ويراد الركوع الذي هو ركن الصلاة، والسجود الذي هو الركن أيضا، واكتفى بذكرهما دون بقية الأركان من قراءة وقيام وقعود؛ لأنهما مظهر الخضوع الكامل، والتطامن لرب العالمين.

مُغْنِيَّة:

ذكر محمد جواد مُغْنِيَّة (ت ١٤٠٠ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، وإذ جعلنا عطف على قوله: وإذ ابتلى، والمعنى ان الله سبحانه قد جعل بيته مقصدا للناس تؤمه أفواج منهم لأداء المناسك، وبعدها يتفرقون الى بلادهم، ثم يرجع اليه أفواج أخرى، وهكذا دواليك.. وأيضا جعله آمنا في الآخرة، لأن الإنسان متى بلغه وأدى المناسك رجع الى نفسه وانقطع الى ربه وتاب اليه من ذنوبه، وبهذا يكون البيت وسيلة للخلاص من العذاب والعقاب، كما جعل الله بيته أمنا في الدنيا، لأن ساكنه يأمن على نفسه، ولا يتعرض له أحد بسوء، وقد كان الرجل يرى في الحرم قاتل أبيه، فيتجاهله، وهذه عادة موروثة منذ عهد إسماعيل عليه السلام الى

---

(١) التفسير الكاشف: ١/ ٢٠٠.

يومنا هذا.

٢. جاء في كتاب الجواهر، وهو أعظم مصدر لفقه الجعفرية، ما نصه: (لا يقام الحد إطلاقا في الحرم على من التجأ اليه، لقوله تعالى: ﴿مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً﴾ بل يضيق عليه في المطعم والمشرب، ويقتصر على ما يسد الرمق، ليخرج ويقام عليه الحد، فقد جاءت الرواية الصحيحة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في رجل يجني في غير الحرم، ثم يلجأ الى الحرم قال لا يقام عليه الحد، ولا يطعم، ولا يسقى، ولا يكلم، فإنه إذا فعل به ذلك يوشك أن يخرج، فيقام عليه الحد، وان جنى في الحرم جناية أقيم عليه الحد في الحرم، لأنه لم ير للحرم حرمة)، وقال أبو حنيفة: لا يجوز قتل من التجأ الى الحرم، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾

٣. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، واتخذوا بكسر الخاء، وهو أمر بالصلاة في مقام ابراهيم، لأن معنى مصلى مكان الصلاة.. وقد أجمع الفقهاء على أنه يستحب الإتيان بركعتي الطواف فيه مع الإمكان، والمفهوم من مقام ابراهيم المقام المعروف الموجود الآن في المسجد، أما قول من قال ان المراد به المسجد بكامله فيحتاج الى دليل.

٤. ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا﴾ مفسرة لعهدنا، فهي بمعنى أي، ولا محل لها من الاعراب، والمعنى وصينا ابراهيم وإسماعيل بأن يحترما البيت، ويبعدا عنه كل ما لا يليق به من الأصنام والنجاسات والأوساخ واللغو والرفث والفسوق والجدال، ونحو هذه، وأن يأمرا الناس بذلك.

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ الذين يدورون حول البيت، و﴿الْعاكِفِينَ﴾ أو المعتكفين من أقاموا في المسجد ولازموه، أو جاوروه للعبادة، و﴿الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ هم المصلون، جمع راكع وساجد.

الطباطبائي:

ذكر محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[١]:

١. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ إشارة إلى تشريع الحج والأمن في البيت، والمثابة هي المرجع، من ثاب يثوب إذا رجع.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١/ ٢٨٠.

٢. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ كأنه عطف على قوله: ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾، بحسب المعنى، فإن قوله: ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾، لما كان إشارة إلى التشريع كان المعنى وإذ قلنا للناس ثوبوا إلى البيت وحجوا إليه ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وربما قيل إن الكلام على تقدير القول، والتقدير: وقلنا اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، والمصلى اسم مكان من الصلاة بمعنى الدعاء أي اتخذوا من مقامه عليه السلام مكانا للدعاء.

٣. الظاهر أن قوله: ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ إلخ بمنزلة التوطئة أشير به إلى مناط تشريع الصلاة ولذا لم يقل: وصلوا، في مقام إبراهيم، بل قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، فلم يعلق الأمر بالصلاة في المقام، بل علق على اتخاذ المصلى منه.

٤. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا﴾، العهد هو الأمر والتطهير إما تخليص البيت لعبادة الطائفين، والعاكفين، والمصلين، ونسكهم فيكون من الاستعارة بالكناية، وأصل المعنى: أن خلصا بيتي لعبادة العباد، وذلك تطهير وإما تنظيفه من الأقذار والكثافات الطارئة من عدم مبالاة الناس، والركع السجود جمعا راكع وساجد وكان المراد به المصلون.

الحوثي:

ذكر بدر الدّين الحوثي (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي(١):

١. ﴿و﴾ اذكروا يا (بني إسرائيل) ﴿إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ يثوبون إليه، أي يرجعون؛ لأنهم إليه يترددون للحج وللعمرة رجاء الثواب، وفوائد الحج والعمرة ﴿و﴾ جعلنا البيت ﴿آمَنًا﴾ لمن دخله، بل ولمن دخل حرمه.

٢. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي موضع قيامه على الصخرة عند البيت حيث هناك أثَرَ قدميه الشريفتين ﴿مُصَلًّى﴾ يصلون فيه تبركاً به أو لنيل فضل الصلاة فيه، قال الشرفي في (المصابيح): (معنى ﴿اتَّخَذُوا﴾ أي جَعَلوا من مقام إبراهيم مصلى، ومقامه فهو في الصخرة بمكة عند البيت)، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ قرئ بكسر (الخاء) ومعناه: وقلنا: اتخذوا، وبفتح (الخاء) على الخبر، بأنهم اتخذوه.

---

(١) التيسير في التفسير: ١/ ١٨٥.

٣. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ البيت: هو الكعبة، وتطهيره للمذكورين دلالة على أنه سيكون للطواف به والصلاة والعكوف، وهو اللبث في المسجد الحرام للعبادة، فأمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بها ذكر إعداداً له، قال الشرفي في (المصابيح): (قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: تدل على وجوب طهارة البيت من الأرجاس، ومعاصي الناس)

٤. هذه الآية تشبه الآية من سورة آل عمران: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ الآية [٩٧] والسياق في (بني إسرائيل) في الآيتين، فهما رد عليهم من حيث دلتا على ثبوت الدين من عهد إبراهيم وإسماعيل قبل أن تنزل التوراة والإنجيل، فيدل ذلك على بطلان تعصبهم للتوراة والإنجيل، وجعلها ضرورية للدين؛ لأن الدين قد استقام بالإسلام لله وحده والعبادة المذكورة لله، ولم يشترط فيه ما اختصت به التوراة والإنجيل أو اليهودية والنصرانية كالسبت واستقبال بيت المقدس.

فضل الله:

ذكر محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. يتابع القرآن حديث إبراهيم في قصة جديدة تتصل بالتاريخ الديني في قصة النبوّات من جهة، وترتبط بعلاقة الإسلام بالامتداد الرحب لشخصية إبراهيم في تطلعاتها المستقبلية من جهة أخرى، وتلك هي قصة بناء البيت ـ الكعبة الحرام ـ الذي أراده الله مرجعا للناس يرجعون إليه ويثوبون، كقاعدة روحية يعيشون فيها الشعور بالوحدة الروحية التي تربط بعضهم ببعض بين يدي الله، ويطوفون به في إحساس عميق بعبوديتهم لله، وفي استيحاء الفكرة الإيمانية المتحركة حيث يستلهمون منه أن يكون طوافهم في الحياة حول كلمات الله وتعاليمه ومفاهيمه، ويشعرون في ظلاله بالأمن الذي أراده الله طابعا مميزا لهذا البيت في ما أوحى به إلى الأنبياء في شرائعهم، من حرمة الاعتداء على الناس والإساءة إليهم حتى في الحالات المشروعة في ذاتها.

٢. ورد في بعض الأحاديث عن أئمة أهل البيت عليه السّلام، أن الحد لا يقام على الجاني في مكة

(١) من وحي القرآن: ٣/ ٢٣.

إلا إذا كانت جنايته في مكة بالذات.. وكأن الله أراد أن يجعل من هذا البيت قاعدة سلام يجتمع إليها الناس من دون إحساس بالخوف وبالمشاعر المضادّة التي تمنعهم من اللقاء، ثم أراد الله أن يكرّم جهد نبيّه، فقد جاءت الرواية الصحيحة عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام في رجل يجني في غير الحرم ثم يلجأ إلى الحرم، قال: لا يقام عليه الحدّ.. وإن جنى في الحرم جناية أقيم عليه الحد في الحرم، لأنه لم ير للحرم حرمة.

٣. طلب الله تعالى من الناس أن يتخذوا من مقام إبراهيم موضعا للصلاة، تخليدا لإيمانه وتحيّة لإخلاصه لله في سرّه وعلانيته، ولاستجابته لله في ما يريده منه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليعيش الناس في أجواء إبراهيم كقدوة في كل المعاني الروحية الكبيرة، فتمتزج صلاتهم بصلاته، ودعواتهم بدعواته وابتهالاتهم بابتهالاته في تفاعل روحيّ عظيم، ثم عهد إليه وإلى ولده إسماعيل، أن يجعلا هذا البيت طاهرا من كل دنس سواء كان ذلك من مظاهر الشرك والوثنية، أو من عناصر القذارة والنجاسة، أو من الأشخاص الذين يدخلون فيه من حيث نظافتهم من القذارات المادية والمعنوية، ليعيش الناس الذين يطوفون به، أو يقيمون فيه للاعتكاف، أو يصلّون فيه فيركعون ويسجدون، في أجواء روحية طاهرة مادية ومعنوية.

٤. ربما استفاد الإنسان من الأمر بتطهير بيت الله من كل رجس، أن يكون البناء على هذا الأساس، وذلك بتشييده على هذه الصفة، لا بتطهيره بعد بنائه، كما قد يتوهم، لأن ظاهر الآيات هو أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان قاما ببناء البيت.

الشيرازي:

ذكر ناصر مكارم الشيرازي (ت ١٤٤٦ هـ) في تفسير هذا المقطع ما يلي[(١)]:

١. بعد الإشارة إلى مكانة إبراهيم عليه السّلام في الآية السابقة، تناولت هذه الآية موضوع عظمة الكعبة التي وضع قواعدها إبراهيم عليه السّلام، فهي تبدأ بالتذكير بعبارة (وإذ) أي اذكروا: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾

٢. المثابة من الثوب، أي عودة الشيء إلى حالته الاولى، ولما كانت الكعبة مركزا يتجه إليه الموحدون

(١) تفسير الأمثل: ١/ ٣٧٨.

كلّ عام، فهي محل لعودة جسمية وروحية إلى التوحيد والفطرة الاولى، ومن هنا كانت مثابة، وكلمة (مثابة) تتضمن معنى الراحة والاستقرار، لأن بيت الإنسان ـ وهو محل عودته الدائم ـ مكان للراحة والاستقرار، وهذا المعنى تؤكده كلمة (أمنا) التي تلي كلمة (مثابة) في الآية.

٣. كلمة (للنّاس) توضح أنه ملجأ عام لكل العالمين، ولكل الشعوب المحرومة، وهذه الصفة للبيت هي في الحقيقة استجابة لأحد مطاليب إبراهيم عليه السّلام من ربّه.

٤. اختلف المفسرون في معنى ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾، قيل: إنّ كل الحج هو مقام إبراهيم، وقيل: إنه (عرفة) و(المشعر الحرام) و(الجمار الثلاث)، وقيل: كل حرم مكة مقام.. لكن يبدو من ظاهر الآية أن المقام هو مقام إبراهيم المعروف الكائن قرب الكعبة، وذهبت إلى ذلك الرّوايات وكثير من المفسّرين، وعلى الحجاج أن يصلّوا خلفه بعد الطواف، ومن هنا كان هذا المقام ﴿مُصَلًّى﴾

٥. تشير الآية الكريمة إلى المسؤولية المعهودة إلى إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السّلام بشأن تطهير البيت للطائفين والمجاورين والمصلين: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

٦. وفي التطهير قيل: إنه التطهير من لوثة وجود الأصنام، وقيل: إنه التطهير من الدنس الظاهر، كالدم وأحشاء الذبائح التي كان يلقي بها الجهلة في البيت.. وقيل: إنه يعني إخلاص النية عند بناء البيت.. ولا دليل على تحديد مفهوم الطهارة، فهي تعني تطهير هذا البيت ظاهريا ومعنويا من كل تلويث، لذلك نجد بعض الروايات فسرت التطهير في الآية بأنه تطهير الكعبة من المشركين، وبعضها بأنه تطهير البدن وإزالة الأدران.

٧. الكعبة ـ طبعا للآية الكريمة ـ ملاذ وبيت آمن، والإسلام وضع الأحكام المشددة بشأن إبعاد هذه الأرض المقدسة عن كل نزاع واشتباك وحرب وإراقة دماء، وليس أفراد البشر آمنين هناك فحسب، بل الحيوانات والطيور آمنة أيضا في هذه البقعة، ولا يحق لأحد أن يمسها بسوء.

٨. في عالم يعجّ دوما بالنزاع والصراع، يستطيع مثل هذا المركز الآمن أن يكون له الأثر العميق في حل المشاكل وفضّ النزاعات، إذ يستطيع الفرقاء المتنازعون أن يجلسوا حول طاولة واحدة عند هذا البيت الآمن، ويفتحوا بينهم حورا قد يكون مقدمة لإزالة الخصومات والنزاعات.

٩. قد يتفق أن ترغب الأطراف المتنازعة في إجراء مباحثات، لكنهم لا يتفقون على مكان مقبول ومحترم وآمن لدى جميع الأطراف، والإسلام أقرّ مكة لتكون مركزا كهذا.

١٠. اليوم، إذ المسلمون ـ مع الأسف الشديد ـ يعانون من ألوان النزاعات والاختلافات حريّ بهم أن يستفيدوا من قداسة هذا البيت وأمنه لفتح باب المحادثات بينهم، ولرفع ما بينهم من اختلافات بفضل معنوية هذا المكان المقدس.

١١. وصفت الكعبة بأنها بيت الله، وعبرت الآية عن الكعبة بـ ﴿بَيْتِيَ﴾، وواضح أن الله ليس بجسم، ولا يحده بيت، ولا يحتاج إلى ذلك، وهذه الإضافة هي (إضافة تشريفية) تبيّن قدسية الشيء الذي ينسب إلى الله، ولذلك كان شهر رمضان (شهر الله) وكانت الكعبة (بيت الله)